قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب بمدارسها

كتاب التاريخ القديم

« لتلاميذ السنة الاولى الثانوية »

﴿ حسب المنهج الحديث ﴾

تأليف

ج . ادجار ، محمد شفيق غربال

الحاصل على درجة العالمية من جامعة اكسفورد
والمفتش بوزارة المعارف

الحاصل على درجة العالمية من جامعة لندن
ومدرس التاريخ بمدرسة المعلمين العليا

« يطلب هذا الكتاب من المكتبة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة »

﴿ الطبعة الرابعة ﴾

المطبعة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة

الطبعة الاولى : فى ابريل سنة ١٩٢٦
الطبعة الثانية : فى أغسطس سنة ١٩٢٦
الطبعة الثالثة : فى نوفمبر سنة ١٩٢٦
الطبعة الرابعة : فى يوليه سنة ١٩٢٧

موضوعات المنهج الجديد

« للسنة الاولى بالمدارس الثانوية »

دراسة عامة لتاريخ المدنيات القديمة مع العناية بعلاقتها بمصر

(١) الشرق القديم

مصــــــر

ملخص تاريخ مصر القديم والمدنية المصرية الى نهاية الدولة الحديثة

بابل وأشور وكلـــــديا

وصف أراضى دجلة والفرات — المدنية السومرية — تأسيس بابل — حمورابى — ظهور آشور وتأسيس نينوى — دولة الكلدانيين الثانية وبختنصر الثانى - ظهور الميديين والفرس - كورش واستيلاؤه على بابل .

بنو اسرائيـــــل

وصف فلسطين — بنو اسرائيل فى مصر — ملك شاول وداود — سليمان و بناء الهيكل — الانقسام الى مملكتين ونهايتهما .

الفينيقيون

موطن الفينيقيين الاصلى - صيدا وصور - علاقة الفينيقيين بمصر وأشور - المستعمرات الفينيقية — طرق التجارة — استيلاء الفرس على فينيقيــة — المدنية الفينيقية .

(٢) الاغريق

(٣) الرومان

هادريان ــ انطونيوس بيوس وماركس اوريليوس ــ نظام الحكومة والادارة الرومانية ــ مصر كولاية رومانية ـ اصلاحات دقلديانوس ـ ظهور الدين المسيحي وانتشاره ــ تأسيس القسطنطينية ـ هجوم القبائل المتبربرة وسقوط الدولة فى الغرب .

الفهرست

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

معلومات تاريخية اولية

(١)

الانسان قبل التاريخ

قبل التاريخ

لم يتمكن المؤرخون من دراسة الماضى إلا بفضل ما كتبته الأمم عن أحوالها ، أى أن التاريخ يبدأ عند ماتوصل الانسان الى معرفة فن الكتابة قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف عام .

وقبل معرفة الكتابة عاشت على سطح الأرض أمم عدة لاسبيل الى وصف ما كانت عليه إلا بدراسة آثارها المختلفة ، وعلى الاخص الآلات المتنوعة التى استعملتها . وقد اعتاد المؤرخون تسمية الازمان القاصية التى عاشت فيها تلك الأمم « بقبل التاريخ » .

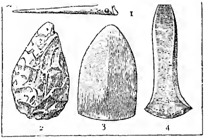
تقسيم قبل التاريخ الى أربعة عصور :
١ – العصر الحجرى القديم
٢ – العصر الحجرى الجديد

ينقسم العهد قبل التاريخ الى أربعة عصور على حسب الآلات المستعملة : فأقدمها كلها عصر اتخذ الأنسان فيه الآلات التى تلزمه من الاحجار إما كما هى أو بعد نحت بسيط . و يسمى ذلك العصر « بالعصر الحجرى القديم » ثم أخذ الأنسان بعد ذلك فى الترقى فى نحت الأحجار ، فأصبحت الآلات

الحجرية متقنة اتقاناً عجيباً ، ويعرف عصر استعمالها « بالعصر الحجرى الجديد »

٣ ـ عصر البرونز

وتعلم بعد ذلك استعمال المعادن ، فاتخذ الآلات من النحاس كما وجده فى الأرض ، ثم تبين له أنه اذا خلط النحاس بالقصدير حصل على معدن أشد من النحاس صلابة وهو البرونز



شكل (١) بعض الآلات قبل التاريخ

٤ ـ عصر الحديد

ثم أمكنه بعد ذلك أن يستعمل الحديد ، وذلك فى العصر الرابع من العصور السابقة للتاريخ

اختلاف الامم فى الترقى

ويجب ألاّ نفهم من هذا التقسيم أن الأمم كلها مرت فى تلك العصور الأربعة الواحد بعد الآخر ، فبعضها بقى يستعمل الآلات من الحجر دهراً طويلا جداً ، وبعضها كان سريع الخطى عرف الكتابة وقت أن عرف المعادن ، وبعضها انتقل من استعمال الحجر الى استعمال الحديد دفعةواحدة

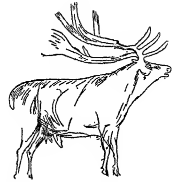
الحياة فى العصر الحجرى القديم

كان الانسان فى العصر الحجرى القديم بائساً شقياً ، يأوى الى الكهوف ، لايعرف الزراعة ، ولا كيف ينتفع من الحيوان بتذليله ، لايستقر فى مكان واحد ، بل يلتمس رزقه بالصيد وجمع الثمار

فكان أبداً يترقب الفرص للايقاع بالوحوش أو يتخذ لنفسه مايقيه شرها . وكانت الحرب سجالا بين الانسان وأخيه يتنازعان الصيد والمأوى . وعلى الجملة كانت حياة الانسان مملوءة هلعاً . يرتجف فرقاً اذا برقت السماء أو رعدت ، أو جن الليل

بدء الفنون

ولكنه كان إذا شبع وارتوى وهدأت هواجسه يميـل الى صنع أشياء يزين بها نفسه أو مأواه ، كأن ينظم من أسنان الحيوان عقوداً أو يرسم على عظامها أشياء مما يقع عليها نظره . وهكذا بدأت الفنون لما وجد الانسان من وقته متسعاً لتدبر الخليقة ومحاولة محا كاتها .



شكل (٢) مثال من فن الرسم قبل التاريخ

ايقاد النار

وأهم من ذلك كله توصله الى معرفة كيف يوقد النار ، إذ أنه أزال بذلك بعض شظف عيشه ، فدفئ ، وصلح طعامه ، وزالت عنه وحشة الظلام

الحياة فى العصر الحجرى الجديد

ثم تدرج فى الترقى فأصبح يتقن صنع الآلات ، وتعلم الزراعة ، وسخر الحيوان ، ونسج المنسوجات ، وصنع الآنية من الفخار . والظاهر أن أهل ذلك

آثاره الضخمة

العصر كانت لهم عبادات فقد خلفوا أحجاراً ضخمة مرصوصة ربما كانت لازمة لتعبدهم أو لدفنهم



شكل (٣) آثار دينية للعصور السابقة للتاريخ

بدء الجماعات السياسية والقوانين

وقد أدى تعلمهم الزراعة الى استقرارهم فى الأرض . ونتج من هذا انتظامهم فى قبائل تخضع لقواعد ونظم . ولا بد أن ذلك قد خفف من عسف الاقوياء .

استعمال البرونز

اتخــذ الناس فى آخر العصر الحجرى الجــديد الآلات من النحاس . ويقال إن أول ما كان من ذلك كان فى مصر أو فى جزيرة قبرص ، فاسم هذه الجزيرة باللغة الأغريقية القديمة معناه النحاس ، ثم أخذوا يضيفون الى النحاس القصدير ويحصلون بذلك على البرونز وهو يفضل النحاس ، ويرجع عهد استعماله فى مصر وفى بابل الى ماقبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، ومن مصر أو من بابل أو منهما معاً انتشر العلم به الى جزيرة كريد وغيرها .

استعمال الحديد

واستمر الناس دهراً طويلا لا يستعملون الا البرونز . فقد صعب عليهم استعمال الحــديد وذلك على الرغم من ثقل البرونز . فلم نعثر على ما يدل على أن المصريين عرفوه قبل الف وخمسمائة ســنة قبل الميلاد . وكانوا يسمونه « معدن السماء » وربمــا كان سبب ذلك استخراجهم له من الشهب الساقطة من السماء .

معرفة الكتابة

أول ما بدأ الناس كانوا يعبرون عن الشيء برسم شكله، ثم صاروا يستعملون الرسم للافصاح عن معان : فاذا أرادوا أن يعبروا عن (الحرب) رسموا سهمين متضادين ، أو (الأكل) رسموا رجلا يضع يده فى فمه . وتلا ذلك جعل الرسم يدل على (اسم) شيء وللتوصل الى ذلك استعملوا الجناس اللفظى للتعبير عن شيئين مختلفين برسم شكل واحد ، مثال ذلك أن المصريين كانوا يسمون (الابن) اسماً قريباً من اسم (الاوزة) فعبروا عن الابن برسم شكل الاوزة . ثم جاء بعد ذلك استعمال الرسم للتعبير لا عن كلمة بأكملها بل عن حرف واحد منها ، وهذا أصل الحروف الهجائية .

بدء التاريخ
قيام الحضارة

وقد بدأ التاريخ عند ذلك ، ولم يبدأ فى كل مكان فى وقت واحــد . فمبدؤه فى مصر أقــدم كثيراً من مبدئه فى أوربا ، إذ أن الحضارة قامت أولا فى أحواض أنهــار عظيمة كثيرة الخصب عاش فيهــا الانسان عيشة راضية فتمدين وتفنن وقام بجلائل الاعمال ، نعنى بذلك حوض النيل وأراضى الدجلة والفرات .

ثم انتشرت الحضارة فى جزر البحر الأبيض المتوسط وأشباه جزره فسطع نورها لامعاً من كريد وبلاد الاغريق وايطاليا

ثم انتقلت الى غربى أوربا وشمالهـا وقامت الحضارة الأوربية الحديثة التى أخذت من مراكزها الأصلية فى أوربا والجديدة فى الامريكتين تحاول بسط سلطانها السياسى العلمى والتجارى والصناعى على العالم كله

الاجناس الثلاثة التى قامت على ايديها الحضارات

وقد قامت هذه الحضارة على أيدى أجناس ثلاثة هى .

أولا . جنس البحر الأبيض المتوسط أو الجنس الافريقى الأبيض

ثانياً : الجنس الالبى نسبة لجبال الالب

ثالثاً : الجنس الشمالى أو النوردى

ويسكن الاول الاراضى حول البحر الابيض المتوسط ، والثانى الأراضى الجبلية الممتدة من هضبات ايران وأرمينيا غربا الى الالب . وقد امتد هذا الجنس فى بعض الجهات جنوباً نحو البحر الأبيض المتوسط . ويلاحظ ذلك على وجه خاص فى سوريا وفى الشاطئ الشرقى للبحر الادرياتيكي . أما الجنس الثالث فهو يسكن الاراضى حول بحر بلطيق .

وجنس البحر الأبيض المتوسط أقسام يختلف بعضها عن بعض فالعرب مثلا قسم من أقسامه والليبيون قسم ثان وهكذا

الساميون والاريون

هـذه الالفاظ لاتدل على اجناس بل على لغات أى أن هناك لغات سامية لها مميزات خاصة كالعبرية والعربية ولغات آرية لها مميزات كاللغات الاوربية

الباب الأول

الشرق القديم

مواطن الحضـــــــــارة الأولى

الفصل الاول

الشرق القديم ومصادر تاريخه

أقسام الشرق القديم

يطلق اسم الشرق القديم على الاراضى الممتدة من هضبة إيران شرقا الى صحراء ليبيا غربا . وقد قامت فى أجزائه المختلفة دول قوية تعلمت الحضارة بعضها من بعض وتنازعت السلطان . وأهم هذه الاجزاء : ـ «أولا» : حوض النيل ، « ثانياً » : وادى الفرات والدجلة ، «ثالثاً» : سوريا ، «رابعا» : شبه جزيرة العرب ، «خامسا» :آسيا الصغرى وأرمينيا ، «سادسا» : هضبة ايران

مصادر تاريخ الشرق القديم

ومصادر تاريخ الشرق القديم ثلاثة : «أولها» ما كتبه الأقدمون عن أنفسهم ، « وثانيها » ماتركوه من آثار مختلفة ، « وثالثها » ما كتبه مؤرخون قدماء ، ولـكنهم جاءوا بعد الازمنة التى وصفوها، «ورابعها» الكتب المقدسة

التقدم الحديث فى دراسة تاريخ الشرق

وقد زادعلمناأثناء القرن التاسع عشر بتاريخ الشرق القديم زيادة كبيرةجداً فقد كشفوا فيه عن مدينة باهرة موطنها جزيرة كريد وتعاصر الحضارة المصرية القديمة ، ولم يكن الناس قبل القرن التاسع عشر يعرفون عنها شيئا . وكشفوافيه أيضاً عن أمة عظيمة الشأن موطنها آسيا الصغرى اشتبكت مع فراعنة مصر

فى حروب طويلة ونازعتهم سلطانهم فى سوريا وفلسطين هى أمة الحيثيين. وكانوا يعتقدون أنهم عرفوا كل شيء عن مصر القديمة ، ولكنهم وجدوا أنهم كانوا فى ذلك واهمين ، وأخذوا يعيدون النظر فى معلوماتهم عن العصور الاولى السابقة للتاريخ

المؤرخون الاقدمون

ولمؤرخى الوقت الحاضر ميزة كبرى على المؤرخين الاقدمين إذ أن هؤلاء كانوا لايعرفون اللغات القديمة ، فكانت كل كتابة تركها المصريون والبابليون والحيثيون طلسما ، أما المؤرخون الحديثون فيمكنهم قراءة ما كتبته تلك الامم القديمة عن نفسها ، ولذلك لم يكن هناك قيمة علمية كبيرة لمؤلفات أولئك المؤرخين القدماء . وكل مافيها من فائدة وصفها للأمم الشرقية فى أيامهم

وهؤلاء المؤرخون الأقدمون إما « وطنيون » كتبوا عن بلادهم أو « أجانب » كتبوا عن بلاد غير بلادهم .

هيرودوت

ومن أشهر أولئك « الاجانب » هيرودوت الاغريقى . عاش هذا الرجل فى القرن الخامس قبل الميلاد وجال فى بلاد الشرق قبل أن يكتب عنها . وأهم مافى كتابه وصفه لظهور أمم الشرق وللكفاح الشديد بين الفرس والاغريق . وكان هيرودوت يدون كل مايسمع ؛ فجاء تاريخه جامعاً للغث والسمين ، وإن كان ممتعاً لطيفاً . والجزء الخاص بمصر من تاريخه ليس كله على حال واحدة من الاجادة والصدق

ديودور

وكتب على أمم الشرق أيضاً ديودور الصقلى ، وقد عاش فى القرن الاول بعد الميلاد . ووصفه مصر لا بأس به اذا اعتبر صورة لها فى وقته .

مانيثون

أما المؤرخون « الوطنيون » فأهمهم جميعاً مانيثون ، وهو كاهن مصرى عاش فى مدينة سمنود ، قام بأمر بطليموس فيلادلفوس ملك مصر بجمع كل ما أمكنه من المعلومات عن ملوك مصر القدماء . وقد كتب مانيثون باللغة الاغريقية ولكن لم يصلنا ما كتبه إلا عن نسخ النساخين .

والظاهر ان مانيثون كان دقيقاً فى تحريه الحقيقة . لذلك بقى تاريخه مصدراً مهما من مصادر التاريخ المصرى حتى أمكن العلماء قراءة اللغة المصرية القديمة. وللآن لا يزالون يتبعونه فى تقسيمه ملوك مصر الى طبقات أو أسرات . وقد

أيدته الآثار أيضاً فى كثير من المواضع وعلى الأخص فى كلامه على الاسرات الثانية عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وأضعف مافيه ماجاء خاصاً بالفترة بين الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة ، وعذره أنها كانت عهد اضطراب شديد

فك رموز اللغات القديمة

بيّنا أنه من مصادر التاريخ ما كتبته الامم القديمة عن أحوالها ، و بديهى ان ذلك المصدر بقى مهملا الى أن تمكن العلماء من فك رموز اللغات القديمة

قراءة اللغة المصرية القديمة

وصفنا (١) كيف عرف الناس الكتابة ، وكيف توصلوا للتعبير بالرسم عن الحروف الهجائية . وقد وصل المصريون القدماء لذلك ، ولكنهم لم ينفكوا عن التعبير عن الشيء برسم شكله ، فجاءت كتابتهم خليطاً وتعرف بالهيروغليفية ثم اختزلوها بعض الشيء وأوجدوا كتابة استعملها الكهنة والتجار وتعرف بالهيراطيقية . وفى القرن السابع قبل الميلاد كتبوا كتابة دارجة تعرف بالديموطيقية . وفى عهد البطالسة انتشر استعمال اللغة الاغريقية وكتب المصريون إذ ذاك لغتهم بحروف إغريقية وهذه هى اللغة القبطية . وفقدوا شيئاً فشيئاً فهم الرموز القديمة وذلك قبل حلول القرن الخامس قبل الميلاد .

حجر رشيد

بقيت الحالة كذلك الى أن عثر ضابط فرنسى أثناء احتلال الفرنسيين مصر فى آخر القرن الثامن عشر على حجر بالقرب من رشيد عليه كتابات هيروغليفية وديموطيقية واغريقية ، وقد استولى البريطانيون على هذا الحجر فيما استولوا عليه عند اجلائهم الفرنسيين عن مصر ، وأودعوه متحفهم العظيم بلندن . بعد ذلك ترجمت الكتابة الاغريقية ووجدت عبارة عن تحدث من الكهنة المصريين بفضل بطليموس الخامس عليهم . ثم نجح توماس ينج الانجليزى فى معرفة عدة حروف هيروغليفية . وكانت وسيلته فى ذلك مقارنة الاعلام فى الثلاث الكتابات إذ الاعلام لا تترجم . الا ان الفضل الاكبر فى قراءة اللغة المصرية يعود الى شامبليون الفرنسى

شامبليون

أمكن العلماء بعد ذلك قراءة النقوش المصرية . وقد وجدوا أن المصريين القدماء لم يكتبوا تاريخاً كما نفهم الآن ، وانهم لم يحفلوا كثيراً بالدقة فى تدوين

---

(١) راجع صحيفه ٤

الحوادث وضبط الايام . وإن « التاريخ » عنــدهم لا يتعدى « كشوفا » بأسماء ملوكهم . ومن أقدم تلك الـكشوف ما هو مسطر على حجر مودع بمتحف بلرم بجزيرة صقلية . وهذا الحجر يشمل أسماء الملوك الى الاسرة الخامسة ونجد كشوفا من هــذا النوع أيضاً مسطرة على جدران معابد وقبور الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وهناك أيضاً كشف مهم عن عدد سنى حكم الملوك على ورقة من البردى محفوظة الآن فى متحف تورين .

حجر بلرم .

ورق تورين

فك رموز اللغة البابلية

تعرف كتابة أهل بابل بالخط المسمارى ، وذلك لانهم كانوا يكتبون بآلة شبيهة بالمسمار على الفخار قبل أن يجف . ومازالت كتابتهم مجهولة الى أن وجد رولنسون الانجليزى سنة ١٨٣٧ كتابة بابلية وفارسية منقوشة على صخرة فى الطريق بين بابل وفارس ، وفيها يعدد الملك دارا الفارسى انتصاراته . وتوصل بقرن الـكتابتين الى فك رموز البابلية .

وكان البابليون أدق من المصريين حسابا فقد خلفوا كشوفا أيدت صدقها الآثار عن ملوكهم من القرن العشرين الى السادس قبل الميلاد

حساب السنين

لم يكن المصريين ولا للبابليين سنة واحدة يبدءون منها حساب تاريخهم فاذا أرادوا تعيين سنة مثلا قالوا إنها هى التى حدث فيها هذا الحادث أو ذاك أو هى السنة الاولى أو الثانية مثلا لهــذا الملك أو ذاك وهكذا ، أى لم يبدءوا تاريخهم من حادثة واحدة مهمة كميلاد المسيح أو هجرة النبى مثلا كما نفعل الآن . وعلى ذلك نرى بين المؤرخين الآن اختلافاً كبيراً جداً فى حساب السنين : فمنهم من جعل الاسرة الاولى يبتدىء حكمها سنة ٥٨٦٩ قبل الميلاد، ومنهم من جعلها تبتدىء سنة ٣٢١٥ وهذا فرق كبير . ولا يتفق المؤرخين إلا عند الوصول الى القرن السابع قبل الميلاد

الفصل الثانى

مصر

وصفها و بدء قيام الحضارة فيها

وصف مصر

مصر كما قال هيرودوت « هدية من النيل » . والنيل بين جنادل اسوان والبحر الابيض المتوسط ينقسم الى جزأين يمتاز أحدهما عن الآخر تماما. يجرى الجزء الأول منه فى صدع فى الهضبة الافريقية والثانى فى سهل من الطين من صنعه فانقسمت مصر بذلك قسمين مختلفين : مصر العليا ومصر السفلى ، الصعيد والدلتا .

الدلتا

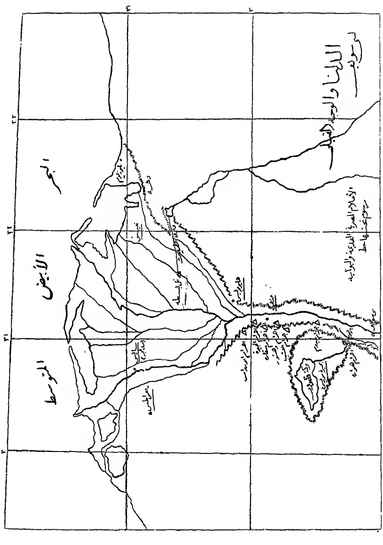
أما مصر السفلى فدلتا تكونت فى البحر الملح فى آلاف من السنين وقبل أن تتولاها يد الانسان بالصرف والزرع كانت حمأة مستوحلة يكثر فى مستنقعاتها السمك والطيور المائية

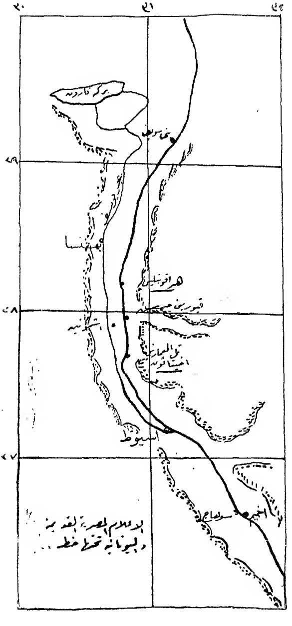
وغربى الدلتا تمتد الصحراء الافريقية وبها بالقرب من مصر سلسلة من الواحات ويسمى هذا الغرب « ليبيا » ومنها غزا مصر فى مختلف العصور أقوام شتى أخرجتهم من مواطنهم السنون المجدبة

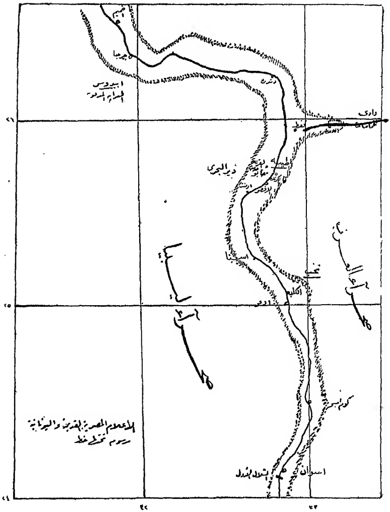
وشرقى الدلتا صحراء جرداء ولكنها لم تمنع عن مصر اغارات المغيرين ففيها مسالك ودروب توصل لآسيا

الصعيد

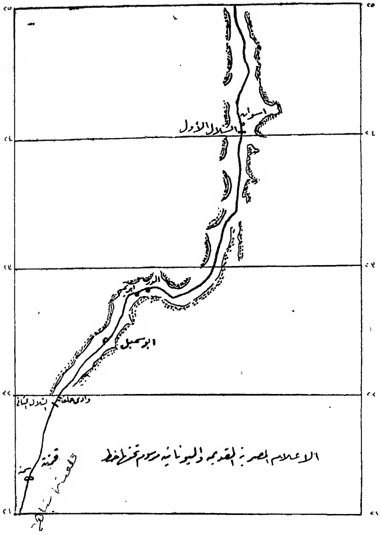
ويحف بالصعيد من الجانبين حافتا الهضبة . ويختلف عرضه بينهما . وجنوبى طيبة يضيق الى ميلين . وعند اسوان وحلفا تعترض النهر أحجار شديدة الصلابة هى الجنادل


البحر الأبيض المتوسط
الدلتا والوجه القبلي


بركة قارون
البهنسا
اسيوط
الاعلام المصرية القديمة
واليونانية تحتها خط



الأعلام المصرية القديمة واليونانية
مرسوم تحتها خط
جرجا
ابيدوس
دندرة
وادى
قفط
دير البحرى
اسنا
ادفو
كوم امبو
اسوان
الشلال الأول


اسوان
الشلال الأول
الدر
ابريم
ابو سمبل
وادي حلفا
الشلال الثاني
قمنة
سمنة
الاعلام المصرية القديمة واليونانية مرسوم تحتها خط

وليس الصعيد بمعزل عن الارض شرقية وغربية فكلتا الحافتين تشقها في عرضتها وديان عدة ، ومن أشهرها وادى الحمامات ويمتــد الى البحر الاحمر من النيل عند قفط ، ويلاحظ اقتراب النيل هناك من البحر الاحمر . ويمتد في المنطقة نفسها مسلك آخر نحو الواحة الخارجة . وبذلك كانت هذه المنطقة ذات شأن خاص فى تاريخ مصر القديمة

هكذا مصر كل مافيها متوقف على فيضان النيل ، يترقب أهلها ارتفاعه كل عام منذ آلاف السنين ويتساءلون فيما بينهم عن ارتفاعه ، ولكن الجواب عن ذلك ليس فى استطاعتهم ، فالنيل يجرى من بلاد بعيــدة لم يعرفوا عنها شيئا ، وكل مايمكنهم عمــله هو العناية بحبس الماء والقسط فى توزيعه ومنع الاسراف فيه

سكان مصر قبل التاريخ

سكن مصر قبل التاريخ أقوام بدأنا نعرف الـكثير عنهم من الصور المرسومة على الخزف التى وجدت فى مقابرهم . والظاهر أنهم كانوا صيــادين يقتاتون مما تناله رماحهم وتصيبه سهامهم ، ولم يظهر فى تلك الصور أنهم زاولوا الزراعة أو توجهت اليها أفكارهم . وكان لهم فى النيل قوارب تسير إما بالمجاذيف واما بالقلاع . أما مساكنهم فكانت أكواخا أقاموها على الارض المرتفعة التى لا يعلوها الماء ، وقد وجدوا لهم أعلاما اتخــذوها على قواربهم وقالوا انهم كانوا قبائل لكل منها علمها وموطنها الخاص بها ، وتسموه باسم معبودهم . وان اقسام مصر القديمة أصلها تلك المواطن

ولا بد من أن سكنى هذه القبائل فى واد طويل كوادى النيل أدت الى ارتباطها بعضها ببعض ارتباطا تجاريا ، ولا بد أيضا من أن الارتباط التجارى سهل تبادل الافكار وتعــلم الناس بعضهم من بعض . والثابت أيضــا أنهم اتصلوا بالبلاد خارج مجرى النيل

أصل الحضارة المصرية

ومعنى ذلك أن مصر توافرت فيها كل مسببات الحضارة والحضارة المصرية أصلها حينئذ فى وادى النيل نفسه

ولكن من المؤرخين من يزعم أن أهم عناصر تلك الحضارة جلبه من الخارج أقوام أغاروا عليها ، ويدعى أنهم أسيويون لغتهم سامية دخلوا مصر من شرقى الدلتا أو من طريق وادى الحمامات الى النيل . ويستدلون على ذلك بدخول تراكيب سامية فى اللغة المصرية ، وبتغييرات شتى طرأت دفعة واحدة على عبادات المصريين وطرق دفنهم موتاهم

ينكر ذلك القول مؤرخون آخرون : فيقولون بأنهم يجدون كل عناصر الحضارة المصرية المعروفة قبل التاريخ فى العصر الذى وصفنا حالة أهله ، ويرون أن دراسة أجناس سكان الوادى قبل التاريخ فيها تفسير لقيام الحضارة التاريخية ولقد قسموا تلك الاجناس كما يأتى : —

أولا — سكان الصعيد وهم جنس أقنى الانف ناعم الشعر يشبه القبائل التى تسكن الآن بلاد الصومال شبها تاما

ثانيا — سكان الدلتا وهم ليبيون يشبهون الاسيويين الساكنين شرقى الدلتا ولغتهم سامية . والظاهر أن هؤلاء الليبيين تغلبوا على سكان الدلتا الاصليين وهم من الجنس الافريقى الابيض أو جنس البحر الابيض المتوسط ودفعوهم نحو الصعيد . وقد أثروا فى لغتهم ودينهم وصبغوهما بصبغة أسيوية ونشروا صناعة المعادن ، ثم حدث بعد ذلك تغلب أهل الصعيد على الدلتا وتأسيسهم مملكة واحدة نشطت فيها الحضارة

وعلى ذلك لم تنشط الحضارة تبعا لاغارة أجنبية

ولا ينافى ذلك أبدا أن سكان الصعيد أصلهم من الصومال أو من شبه جزيرة العرب وقد كان المصريون القدماء يعتقدون ذلك ، ولهم فى ذلك قصة كبيرة منقوشة على جدران معبد ادفو الذى بنى فى عصر البطالسة . وملخص تلك القصة أن المعبود حوريس الذى كان أبوه يحكم فى بلاد النوبة ركب سفينة وتبعه كثير من الجند ونزل منحدرا فى النيل وكان وقتئذ يشغله المعبود ست وأتباعه وتقاتل المعبودان وأتباعهما الى أن تم النصر لحوريس . ويرى

المؤرخون أن تلك القصة مجموع وقائع تاريخية حقيقية تناقلها المصريون الى زمن البطالسة حين دونوها ، وأنها تشير الى شيئين متميزين لم يحدثا فى وقت واحد وهما :

أولا — قدوم أجداد أهل الصعيد من الجنوب الشرقى

ثانيا — إنشاؤهم حكما قوياً فى جنوبى الصعيد (فى منطقة ادفو والكاب التى تبينت (١) قيمتها الجغرافية) وتغلبهم بعد ذلك على سكان الدلتا بعد أن تعلموا من أهله صناعة المعادن الاسيوية الأصل

---

(١) راجع صحيفة ١٩

الفصل الثالث

اتحاد الصعيد والدلتا

نتائج تغلب الصعيد

لما تغلب الصعيد واتحد وادى النيل كله تحت حكم ملك واحد حلت بمصر نهضة كبيرة ، ولملوكها الأول فضل كبير : فقد وحدوا مصر ووضعوا الاساس الذى قامت عليه حضارة عصر بناة الاهرام العظيمة

مينا

ويصعب علينا أن نصدق أن ذلك العمل كله قام به ملك واحد ، والمعقول أن يكون ذلك ثمرة جهاد ملوك كثيرين . فعلى ذلك لم يكن « مينا » هو الذى قام وحده بتوحيد مصر ووضع أساس عظمتها .

الاعمال المنسوبة اليه

قال المؤرخ هيرودوت : إنه لما تم أمر اتحاد المملكة لمينا أراد هذا الملك الطينى (أى من طينة – إحدى بلاد الصعيد) أن يتخذ له عاصمة تكون مركزاً لأحكامه ، فاستحسن الموضع الذى به الآن ميت رهينة فحاطه بجسر . وكان النيل يجرى بجانب هضبة ليبيا فحوله فى مجرى مهده بين الجبلين ، ثم حاط الارض التى تخلفت من ذلك بالجسور وخط فيها مدينة منف ، ثم احتفر حولها فى الجهة البحرية والغربية بحيرة يأتيها الماء من النيل الذى يحد المدينة من الجهة الشرقية فصارت محصنة يحيط بها الماء من ثلاث جهات .

ملوك مصر المتحدة الاول

والظاهر لأحدث المؤرخين أن نسبة كل ذلك لمينا أمر غير مقبول . بل إن بعضهم يشك الآن فى وجود مينا نفسه ويعتقد أن ملكا آخر من ملوك مصر المتحدة الأولى أولى منه بالشهرة ، ذلك الملك هو « نارمر » الذى أتم تغلب الصعيد على الوجه البحرى واتخذ عاصمته موضع كفر طرخان التى تبعد عن القاهرة بخمس وعشرين ميلا

ومهما كان من أمر ذلك فأصلهم كله من طينة بالقرب من جرجا وكانوا يدفنون فى الموضع المعروف الان بالعرابة المدفونة

الاسرتان الثانية والثالثة

وقد تمم ملوك هاتين الاسرتين الوحدة الوطنية ،ومهدوا بعماراتهم لرقى مصر أيام بناة الاهرام فى البناء وصنع التماثيل والرسم ودقيق الصناعات واتقان الكتابة والاستعانة بها فى تزيين المعابد والقبور.

الملك زوسر

ومن أشهرهم الملك « زوسر » ويدل على رقي الحضارة فى عهده اتخاذه قبراً من الحجر وهو المعروف بالهرم المدرج فى سقارة . وهذا الهرم يشتمل على ست درجات بعضها فوق بعض تنتهى بالشكل الهرمى بحيث تنقص كل درجة عن تاليتها مترين تقريباً ، وهو مبنى بصخور صغيرة وبداخله طرق يضل فيها الانسان ان لم يكن له مرشد . وبنى لنفسه أيضا قبراً آخر من الطراز المعروف باسم « مصطبة » فى بيت خلاف وربما عمل ذلك ارضاء لأهل الجنوب

الملك سنفرو

والملك سنفرو أيضاً من الملوك الاول ذوى الشأن . حارب قبائل البدو الرحالة فى سيناء ، وقد طمحت اليها اطماع الفراعنة الاول لما فيها من المعادن . وله هرمان أحدهما فى دهشور والثانى فى ميدوم .

الفصل الرابع

الدولة القديمة والدولة الوسطى

٣٢٠٠ — ١٨٠٠ ق . م

عصر بناة الاهرام

ختم الملك سنفرو العهد الاول من تاريخ مصر الذى تم فيه توحيد قسميها فى مملكة واحدة . وقد بدأ أيضاً عهداً آخر هو عهد بناة الاهرام فكان حكمه صلة بين عهدين . وكانت مدافن الملوك حتى أيام هذا الملك بسقارة ولكنه وملوك الأسرة الرابعة الذين تلوه تركوها . فبنى سنفرو هرميه جنوبيها فى دهشور وميدوم و بنى خوفو وخفرع ومنقرع أهرامهم شماليها

الهرم

والهرم بناء من الحجر داخله مخدع فيه تابوت الملك و بالقرب منه معبد ملحق به تقام فيه الصلوات على روح الملك وتخزن فيه الاشياء المختلفة التى كانوا يعتقدون أنها تلزم الروح فى العالم الآخر . و بالقرب منه أيضاً قبور الامراء وغيرهم من تابعى الملك .

وأجمل الاهرام كلها الهرم الذى بناه خوفو ومن تأمل فى الاهرام الموجودة يجد فيها تدرجا يمكننا تتبع خطواته .

المصطبة

أول تلك الخطوات القبور المعروف الواحد منها باسم المصطبة ، والمصطبة

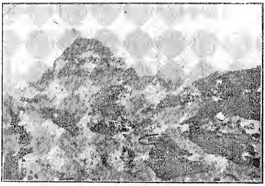


شكل (٤) مصطبة زوسر ببيت خلاف

بناء مستطيل الشكل من الحجر أو اللبن تميل جوانبه الأربعة نحو مركز واحد وفى الجانب الشرقى منه فتحة توصل الى مخدع به الميت

الهرم المدرج

كانت الخطوة الثانية الهرم المدرج ، وهو عبارة عن مصاطب بعضها فوق بعض أكبرها المصطبة السفلى وتنقص عنها التى تتلوها وهكذا



شكل (٥) الهرم المدرج بسقارة

والخطوة الثالثة كانت كسوة الهرم فكان الناظر يظنه قطعة واحدة قد سبكت فى قالب الدقة والاحكام .

ما يدل عليه بناء الاهرام

و بناء الأهرام يدل على قوة الملوك الذين بنوها وشدة بأسهم ، وعلى حسن نظام الحكومة فى أيامهم ، وإلا فما أمكنهم جمع الجم الغفير من العمال اللازمين للبناء ولا قطع الاحجار من المحاجر فى البر الشرقى للنيل ونقلها الى البر الغربى.

وتدل أيضاً على عظمة أولئك الملوك الذين استودعوا أجسامهم مدافن تنافس الدهر البقاء .

وليست عظمة البناء هى كل ما يستوقف النظر ، فقد استلزم صنع السراديب الخفية والمخادع الداخلية وحساب الزوايا وتنسيق الاجزاء وتناسبها ولحم الاحجار علماً كبيراً بقواعد البناء وهندسة العمارة .

يدلنا كل ذلك على أن المصريين بلغوا فى ذلك ما بلغه المهندسون

الذين حفروا قنــاة السويس وشيدوا سد اسوان ، وعلى أنهم استكملوا كل عناصر الحضارة قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف سنة .

آثار ذلك العصر الاخرى

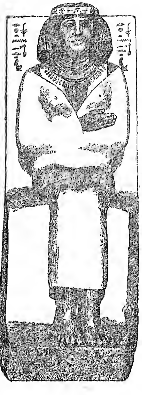
وليست الاهرام كل آثار ذلك العصر الزاهر ، فقد ترك أهله تماثيل بلغت في محاكاة الحياة ودقة التعبير عن الوجدان مبلغاً لا نجده إلا في تماثيل الاغريق



شكل (٦) تمثال الكاتب القاعد القرفصاء (متحف اللوفر)

وقت نهضتهم . ومن أشهر تماثيلهم تمثال الكاتب القاعد القرفصاء الموجود الآن في متحف اللوفر وتمثال « رع حتب » وتمثال الأميرة « نفرت » ومن تأمل فيه يجد صانعه قد أبدع فيه : فعليها قميص لاصق بجسمها ترى منه هيئة أجزاء جسمها بغاية من اللطف والعصمة ، ولها شعور كثة مربوطة من فوق جبهتها بعصابة مزركشة ، وجهها ممتلىء وعيونها واسعه وفمها مبتسم . ويزيد في الدلالة

على علو كعب المصريين فى صنع التماثيل أنها كلها من أحجار شديدة الصلابة كالمحبب مثلا



شكل (٨) تمثال الاميرة نفرت



شكل «٧» تمثال رع حتب

ولم تبلغ صناعة التماثيل بعد ما بلغته فى ذلك العصر، فصار الصناع يخضعون لقواعد لا يحيدون عنها فى تركيب أعضاء الجسم مما جعل تماثيلهم بعيدة عن الحقيقة .

بناء الهرم الكبير

بنى خوفو الهرم الكبير كالطود العظيم ، وأسس باقامته دعائم شهرته . وقد قال هيرودوت اليونانى : إنه سخر فى بنائه مائة ألف عامل كانوا يبدلون بمثل عددهم كل ثلاثة أشهر ، وكان بعضهم ينحت الاحجار و بعضهم ينقلها الى النيل و بعضهم يتسلمها و ينقلها الى البر الغربى ، وأنهم عملوا أولا فى عشر سنين طريقا لنقل الاحجار بين النيل وموضع الهرم ، وأنهم صرفوا فى البناء نفسه

عشرين سنة . وادعى هيرودوت أيضاً أن خوفو أغلق المعابد ومنع العبادة ثم أنه ندم فى آخر أيامه على عسفه وضلاله فاستقام فى أحواله وصار تقيا صالحا . وزعم هـذا المؤرخ أن الناس جميعاً أبغضوا هذا الملك وخلفه الذى بنى الهرم الثانى فأنفوا من التلفظ باسميهمـا وتغالوا فى كرههما فأخرجوا جثتيهما من مرقـدهما وقطعوهما إربا إربا ثم دفنوهما فى مخابىء لم يتيسر لأحـد العثور عليها . هـذه هى المزاعم الاغريقية يرددها الناس حتى الآن فلا بد من تمحيصها .

وصف الهرم الكبير

يبلغ طول كل ضلع من أضلاع قاعـدته نحو **٢٣٣** مترا أى أن مسطحها يزيد على ١٢ فدانا ، أما ارتفاعه فـكان وقت تشييده **١٤٥** مترا ثم تناقص بتهدم قمته حتى صار **١٣٧** مترا

وفى الجهة البحرية منه زلاقة خفية تسد بحجر يدور على محور ، فاذا فتحه الانسان وجد هذه الزلاقة أمامه وطولها **٩٧** مترا . واذا سار فيها وجدها تمر أولا بحجرة ناقصة البناء ثم تنتهى بسرب أفقى وتصعد من الزلاقة على بعد تسعة عشر مترا من المدخل زلاقة صاعدة توصل الى مخدع الملك وهى حجرة عظيمة جميع أحجارها من الصوان المصقول ، وفيها منفذان للهواء يخترقان الهرم الى الخارج ، وبها تابوت كان الملك مدفونا فيه . ويخرج من الزلاقة الصاعدة سرب أفقى موصل الى حجرة تعرف الآن بغرفة الملـكة . وعند بدء ذلك السرب فوهة بئر يبلغ عمقها ٦٣ مترا . وفوق مخـدع الملك خمس حجرات بعضها فوق بعض القصد منها تخفيف ثقل البناء

وصف هرم خفرع

بنى الملك خفرع الذى حكم بعد خوفو هرما شاهقا بالقرب من الهرم الـكبير إلا أنه أصغر منه وكان مكسواً أول الامر بالحجر الجيرى وقد ذهبت عنه الـكسوة ولم يبق منها الا القليل عند القمة

وصف هرم منقرع

وهرمه أصغر الثلاثة وكانت كسوته مصقولة صقلا جيدا ، وزعم مؤرخو الاغريق أن منقرع كان أعدل حـكما وأرأف بالرعيـة من سلفيه فلهج الناس بمدحه

هل فى بناء الاهرام عسف

والواقع أن هؤلاء المؤرخين بالغوا كثيرا فى وصف عسف خوفو وخفرع فالثابت أنهم لم يسخروا الناس فى العمل الا وقت الفيضان وكان اذ ذاك وقتا يغمر فيه النيل الارض وتتعطل الحياة الزراعية الى أن ينحسر الماء . وان التسخير مدة ثلاثة شهور فقط لم تكن فيه مشقة كبيرة . هذا الى أن التسخير كان فى عمل فنى عظيم اكسب الشعب دراية فنية عظيمة ومهارة فائقة فى اتقان الصنع

ولم نسمع عن قدماء المصريين مايدل عن قسوة كما سمعنا عن غيرهم من أمم الشرق القديم كالاشوريين

ولم يكن الملك المصرى من السلطة بحيث يفعل مايريد فقد كان خاضعا لقواعد مرعية لايحيدعنها ارضاء لحاجة فى نفسه أوتشفيامن مسىء . ولا ينقض ذلك أن المصريين ألهوا ملوكهم ، فآلهة الوثنية لاتختلف فى فضائلهاونقائصها عن البشر

الاسرة الخامسة أصلها

ظهرت الاسرة الخامسة أثر الرابعة . وكانت بين المصريين القدماء قصة شائعة مؤداها أن الثلاثة ملوك الاول من هـذه الاسرة من نسـل معبود الشمس . وقد استنبط المؤرخون من تلك القصة أن مؤسس الاسرة الخامسة من نسل الـكهنة . فيكون الـكهنة بذلك قد أصبح لهم نفوذ سياسى فى آخر أيام الاسرة الرابعة ثم اغتصبوا العرش لانفسهم

الحضارة أيام الاسرة الخامسة

وقد ساس ملوك هذه الاسرة البلاد سياسة لا بأس بها ، وشادوا اهراما وأصلحوا المعابد ، الا أن الاهرام التى بنوها أصغر كثـيرا من أهرام الاسرة الرابعة ولـكنها أجمل منها زينة . وتمتاز المعابد الملحقة باهرام الاسرة الخامسة بعمدها المصنوعة من الخشب وبالرسوم الجميلة على جدرانها (١)

الدين أيام الاسرة الخامسة

هرم أوناس

ابتدأ المصريون أيام الاسرة الخامسة يجمعون معتقدات دينية مختلفة معا فقد وجد الباحثون فى حجرات هرم الملك أوناس بسقارة نقوشا هيروغليفية على الجـدران هى مجموع طلاسم وعزائم تحول الما كل والمشارب الى حقائق

(١) يتجلى الاتقان الذى بلغه فن الرسم أيام هذه الاسرة فى الرسوم المنقوشة على جدران قبرى تى وبتاح حتب بسقارة

يتناولها الملك أوناس وتنوب عن الضحايا والقرابين المرتبة للهرم متى انقطعت، وتحفظ الروح من الاخطار التى تهددها فى الدار الآخرة فتمنع عنها نهش الثعابين والاخطار السامة، وتقيها شر الارواح الشريرة وهكذا. وهذه النقوش المختلفة مبدأ مجموعة مدونة فى كتاب كبير يعرف بين المؤرخين باسم كتاب الموتى

كتاب الموتى

الادب ايام الاسرة الخامسة

نصائح بتاح حتب

وأجمل ماوصل الينا من الادب المصرى القطع المعروفة بنصائح بتاح حتب وهى تنم عن فكر سديد: تحث على طلب العلم وعلى الرحمة بالمرءوسين، وعلى حب الزوجة واكرامها، وعلى اداء الواجب وحسن المعاملة والقناعة

وقد جاء فيها: لايحملنك علمك على التكبر، واستقم مع الجاهل والعالم، لان الباب لم يغلق دون الفن، ولا نال استاذ مايدعيه من الكمال لنفسه. اذا كنت رئيسا تحكم فى أمور كثيرة فابحث عن أكمل شريعة لتكون غير ملوم ماأعظم العدل الثابت الاركان الذى لم يكدر صفوه منذ عهد المعبود أزوريس. حدود العدل ثابتة

الاسرة السادسة

بيبى الاول

وزيره أونا

أشهر ملوك هذه الاسرة الملك بيبى الاول وقد طال حكمه نحو عشرين سنة وظهرت آثار همته فى جميع الارجاء. فغزا النوبة وهزم بدو طورسيناء. وقد ترك وزيره أونا وصفا طويلا لتلك الاعمال والغزوات والنعم التى أغدقها بيبى عليه جزاء صادق خدمته.

والظاهر فى وصف أونا أن القصد من تلك الغزوات كان الحصول على حاصلات بلاد النوبة وطورسيناء ومنع أهلها من الاعتداء على حدود الدولة المصرية.

ضعف الملكية وبدء نظام الالتزام أو النظام الاقطاعى

وفى أيام هذه الاسرة بدأ الضعف يدب فى سلطة الملك. ومما يدل على ذلك أن الامراء بعد أن كانوا يدفنون بالقرب من الملك صاروا يدفنون فى بلادهم. وكانوا يقتتلون فيما بينهم. فساد الاضطراب، واختلت أحوال البلاد، وانحط الفن المصرى. واغتصب الامراء وظائف الدولة، هذا هو بدء نظام الالتزام.

وفى هذا النظام لايقتصر صاحب الارض على زرعها وتأدية ماعليها بل

يقوم بوظائف مهمة مثل ادارة الامور والقضاء بين السا كنين إقطاعه أو دائرة التزامه .

ظهور طيبة

فظهرت أسرات قوية فى مدن مختلفة مثل أرمنت وأسيوط وطيبة وكل هذه الأسرات لها استقلال كبير من الملوك الذين حكموا بعد الأسرة السادسة

وقد قويت شيئاً فشيئاً أسرة الأمراء الحاكمين فى طيبة و بدأت منذ ذلك الحين عظمة تلك المدينة الخالدة الصيت . ولطيبة موقع جغرافى يفسر مكانتها التاريخية ، فهى فى وسط سهل خصب متسع وأمامها أرض وعرة فيها أخوار ووهدات قحلة تسهل حمايتها ، ويمكن منها سد الطريق فى وادى النيل .

الاسرة الحادية عشرة
الدولة الوسطى

ثم تمكن الأمراء من اعتلاء العرش وتوحيد مصر تحت حكمهم وأسسوا الاسرة الحادية عشرة وهي بدء الدولة الوسطى

الاسرة الثانية عشرة
امنمحت الاول

وأول ملوكها أمنمحت الأول وقد جد فى ازالة الفساد الذى أوجدته الحروب الداخلية ، فأخذ يستميل اليه بعض الامراء بتوسيع اقطاعاتهم ، ويعاقب المشاغبين منهم بانتزاع أرضهم منهم . و يتفقد البلاد مهتما بمصالح الفلاحين فأقام أحجاراً للحدود ، و بين لكل انسان أرضه وأملاكه ، ووزع عليهم المياه بالعدل ، وأرسل الحملات فأدبت العدو على الحدود وخلص الفلاحين من غاراتهم ونهبهم . فحق لأمنمحت أن يفخر فى قوله : لا جائع تحت حكمى ولا ظمآن فى أيامى

الفيوم عاصمة المملكة

وقد اتخذ خلفاؤه الفيوم مقراً لحكمهم

امنمحت

وأشهر هؤلاء الخلفاء أمنمحت الثالث وكان شديد الاهتمام بالزراعة والرى وخلف آثاراً عظيمة أثارت الاعجاب وكثرت الروايات الخرافية بشأنها

رواية هيرودوت

فمن ذلك ماوراه هيرودوت من أن الملك موريس (وهذا الملك لا ذكرى له فى النصوص المصرية) صنع فى الفيوم خزاناً واسعاً يجمع فيه مايزيد من فيضان النيل ، وكان محوطاً بجسر كبير يبلغ محيطه تسعين ميلا ومتصلا بالنيل بترعتين فى كل ترعة قناطر لتخزين المياه وصرفها . فاذا لم يكن الفيضان كافياً صرف من البحيرة القدر اللازم للرى ، واذا كان عالياً وخيف الغرق صرف الماء الزائد الى البحيرة وخزن فيها .

والحقيقة أنه لم يكن هناك خزان فالبحيرة التى نظرها هيرودوت هى من فيضان النيل نفسه على أرض منخفضة بطبيعتها والجسر الذى رآه هو أحد الجسور الفاصلة للحياض . أما ماعمله أمنمحعت فكان اقامة سدعند اللاهون أى فى الفجوة الواصلة وادى النيل بمنخفض الفيوم تمكنه من التصرف فى الماء الذاهب للبحيرة . وقد تمكن أمنمحعت أيضاً من صرف الماء من جزء عظيم من أراضى الفيوم وتحويله بذلك إلى اراض زراعية خصبة . وقد زاد البطالسة بعد ذلك فى الصرف وأقطعوا الارض هناك عساكرهم .

آثار امنمحعت فى الفيوم

وقد أقام أمنمحعت تمثالين عظيمين كل منهما يتكون من حجر واحد وارتفاع الواحد منهما ثلاثة عشر متراً . وكانا وقد بزغت الشمس وأرسلت أشعتها نحو ماء البحيرة مثيرين لاعجاب الناظرين . وبنى معبداً عظيما عند هواره . وهذا المعبد هو الذى وصفه هيرودوت فقد كان قائما فى أيامه وسماه قصر اللابيرانته

قصر اللابيرانته

أو قصر التيه لأن حجراته تتصل بطرقات صنعت بمهارة فائقة بحيث لو دخلها غريب لايهتدى الى الخروج منها ما لم يكن معه مرشد . وقد قال هيرودوت بأنه نظرها فوجدها أعظم من شهرتها وأنها فاقت جميع مبانى اليونان وكافة عمائرهم، وظن أنها كانت دارا يجتمع فيها ممثلو الأقاليم للتشاور فى أمور البلاد . والظاهر أن أصل هذه الفكرة وجود رسوم على جدران البناء تمثل الأقاليم المصرية .

الحضارة المصرية فى حكم الدولة الوسطى

أول مانلاحظه على الحضارة أيام الاسرة الثانية عشرة اتساع تجارة مصر وعلاقاتها الخارجية

العلاقات الخارجية

وسبب هذه العلاقات رغبة أولئك الفراعنة العظام فى الحصول على مايلزمهم من الاحجار والاخشاب والمعادن المختلفة التى لم يجدوها فى مصر نفسها . فكثرت الرحلات الى بلاد النوبة والصحراء الغربية وطور سيناء ولبنان وسوريا والصومال . واتسع نطاق التجارة فاتصل المصريون بالحضارة العظيمة التى كان مقرها جزيرة كريد

أثر النشاط التجارى فى الآداب

وكان لهذا النشاط أثر بيّن فى الآداب المصرية فورد فى قصص المصريين المتداولة وصف ممتع للاماكن النائية عن بلادهم

قصة البحرى الغريق

من هذه القصص قصة البحرى الغريق . قال إنه ركب سفينة كبيرة فيها ١٥٠ ملاحا من نخبة المصريين الذين لهم قلب جسور كقلب الأسود ، و بينما كانوا مجدين فى الاقتراب من البر اشتدت الرياح وارتفعت الامواج فغرقت السفينة وهلك من كان فيها . أما هو فألقته موجة على جزيرة وجد فيها ما يقتات به ثم سمع صوتا كصوت الرعد ، ولمح ثعبانا يقترب منه طوله ثلاثون ذراعا ولحيته طولها ذراعان وجسمه كالذهب . و بعد محادثة قص فيها البحرى قصته أقام مع الثعبان مدة مكرما ، ثم أتت سفينة حملته الى بلاده ، واستحالت الجزيرة عند مغادرته إياها الى لجة ماء . ولا يخفى الشبه الكبير بين هذه القصة وقصص السندباد البحرى المعروفة

قصة سنوحيت

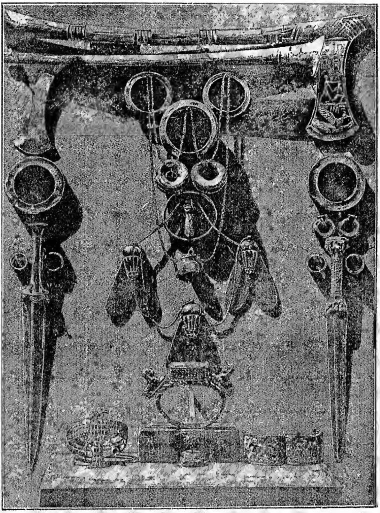
ومن هـذه القصص أيضاً قصة سنوحيت وكان أحد أبناء امنمحعت الاول ، وفرّ عند موت أبيه الى فلسطين وأقام فيها مدة ثم عاد الى مصر بأذن من ملكها . وفى هـذه القصة وصف دقيق جداً لحياة البدو المقيمين شرق مصر .

مصر والنوبة

اتجه نشاط المصريين نحو النوبة كما اتجه نحو فلسطين وسوريا ، فأخضع أسرتسن الثالث أحـد ملوك الاسرة الثانية عشرة النوبيين و بطش بهم وقسا عليهم و بنى بالقرب من الشلال الثانى قلعتى سمنة وقمنة على البرين وجعلهما الحد الجنوبى بين مصر والشعوب السوداء ، لا تتعداه سفنهم شمالا الا اذا كانت تقل تجارة

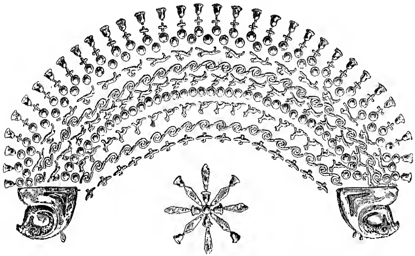
الفن المصرى

كان الفن المصرى أزهر ما كان أيام الدولة الوسطى فقد بلغ الصناع فى صنع دقيق الاشياء كالحلى مبلغاً كبيراً من الاتقان



شكل (٩) مثال من صناعة المعادن المصرية

وامتازت مبانى ذلك العصر بحسن الذوق وجمال التناسب ، ولم يسع رجال الفن الى ضخامة البناء وشهوقه . وهذه مقابر بنى حسن أثر خالد يفوق جمالا



شكل (١٠) مثال من صناعة الحلى المصرية

المبانى التى أقامتها الدولة الحديثة عند طيبة والتى لاشىء فيها الا كبرها .

الدين المصرى

وأهم ما طرأ على الدين من تغيير ظهور معبود طيبة المسمى أمون تبعاً لظهور تلك المدينة السياسى وقد وحّده المصريون بمعبود هليو بوليس المسمى رع

الانحطاط بعد الاسرة الثانية عشرة

حل بمصر الانحطاط بفقدها استقلالها ووقوعها تحت حكم جماعات اسيوية هم الهكسوس أو الرعاة ولهذا الحادث شأن كبير إذ به دخل تاريخ مصر فى طور اتصال بأمم الشرق القديم .

الفصل الخامس

الهكسوس فى مصر وملك المصريين فى آسيا

اغارة الهكسوس على مصر

كانت اغارة الهكسوس على مصر جزءاً من حركة كبيرة واسعة النطاق أثرت فى كل أقسام الشرق القديم ، وكانت فى تلك الاقسام إذ ذاك حضارة عظيمة وعلى الاخص فى بابل والبلاد الواقعة غربى الفرات وفى جزيرة كريد و بعض جزر الارخبيل و بعض مدن جنوبى شبه جزيرة البلقان

وكانت اغارة الهكسوس نتيجة اغارات منشؤها سهول أوربا الوسطى وذلك أنه هجم على كريد وغيرها أقوام لغتهم آرية يعرفون صناعة الحديد فكانوا شديدى البأس . وقد أدى تغلبهم على العالم الكريدى الى الاضطراب فى العالم الاسيوى والى دفع بعض شعو به نحو وادى النيل .

من هم الهكسوس

وصف المصريون المغيرين عليهم بأنهم رعاة ولكن لا يكفى هذا الوصف للدلالة على حقيقة حالتهم فلم يكونوا متبربرين أو كلهم بدواً فكان منهم أقوام تعلموا الحضارة البابلية فى مواطنهم غربى الفرات ، ومنهم رجال يتكلمون لغات آرية من الاناضول .

وكان لهم تفوق حربى على المصريين اذ كانوا يستعملون آلة حربية لم يعرفها المصريون هى العجلة الحربية تجرها الخيل فكانت العجلات تنشر الاضطراب فى صفوف المشاة أمامها وتخل بنظامهم فتسبب هزيمتهم .

حكمهم مصر

كانت عاصمتهم فى شرق الدلتا ، وذلك كى يكونوا على مقربة من آسيا التى بقيت لهم بها صلات

وما لبثوا أن تحضروا وعبدوا معبودات المصريين و بنوا معابد وقلدوا ملوكهم الفراعنة أى أنهم تمصروا .

وقد وجد الباحثون آثاراً لاحد ملوكهم واسمه خيان فى بغداد وفى كنوسس

فى كريد وليس معنى ذلك أن ملكه شمل جميع الارجاء انما معناه انتشار نفوذه .

حرب الاستقلال ١٦٢٠ — ١٥٧٣ ق . م .

على الرغم من تمصر الهكسوس لم يرض المصريون عنهم ولم يغتفروا لهم ما أصابهم منهم أول الفتح . فنشأت حركة ترمى الى إجلاء الهكسوس عن البلاد

بدأت هذه الحركة فى الجنوب وذلك لان الهكسوس لم يمكنهم إقامة حكمهم فيه فكانت أرض الصعيد جنوبى مدينة قفط تحت حكم امراء مصريين كانوا زعماء حرب الاستقلال

استمرت هذه الحرب نحوا من خمسين سنة ، وختمت باستيلاء الامير احمس على منف واخراج الهكسوس من مصر

جلاء الهكسوس وقصة الخروج

جلا مع الهكسوس الاسيويون المقيمون فى مصر تحت ظلهم . وبعض المؤرخين يظن أن ذلك الجلاء أساس القصة الموجودة فى الكتب المقدسة عن إقامة بنى اسرائيل فى مصر وخروجهم منها مع موسى . وبعضهم يظن أن خروج الاسرائيليين أمر آخر لا علاقة له بجلاء الهكسوس وأنه حدث فى عهد منفتاح ابن رمسيس الثانى

تأسيس ملك مصر فى اسيا

دخل تاريخ مصر بعد استقلالها فى دور فتح عظيم .

وذلك أن حرب الاستقلال بعثت فى المصريين روحا حربية طوحت بهم وبملوكهم فى الفتح طلبا لزيادة التشفى من اعدائهم بعد أن تعلموا منهم فنون الحرب وأخذوا عنهم استعمال الخيل والعجلات فى القتال ، فتعقبوهم الى مواطنهم الاولى فى آسيا .

الحالة فى غربى اسيا

وأمعن المصريون فى الفتح لما وجدوا الحالة فى آسيا مما يسهل عليهم تشييد ملك عظيم .

وذلك أن نفوذ الهكسوس الممتد من مصر الى غربى الفرات تقلص بعد هزيمتهم فى مصر . وكانت بابل إذ ذاك تحت حكم أسرة أجنبية . ولم تكن قد قامت بعدُ دولة الحيثيين التى ستصبح اكبر اعداء مصر .

فسهل على خلفاء احمس التغلب على فلسطين وسوريا

لم يكن ذلك التغلب أول عهد المصريين بفلسطين وسوريا ولكنه كان أول عهدهم بالاراضى الواقعة غربي الفرات . وكانت تلك الاراضى تحت حكم دويلات تتمتع برغد فى العيش ومن أشهرها دمشق ، وكانت إذ ذاك مركزاً تجارياً كبيرا وقد عرف المصريون تلك الاراضى جميعاً باسم نهرين لوقوعها بين نهرى الارنت غربا والفرات شرقا . وأقوى الامم فى بلاد النهرين كانت أمة الميتانى .

المدن الفينيقية

وكان للفينيقيين إذ ذاك مدن ممتدة على ساحل البحر الابيض المتوسط وكانت إذ ذاك مستقلة .

الاسرة الثامنة عشرة وفتوحها تحتمس الاول

غزا تحتمس الاول بلاد النهرين وعاد الى طيبة مباهياً بسعة فتحه وبوصوله حتى نهر الفرات الذى وصفه بأنه نيل منعكس أى يجرى من الشمال للجنوب

ولكن سكان تلك البلاد لم يكونوا همجاً كالنوبيين يسهل على الفراعنة ردعهم وزجرهم . فما رجع تحتمس الى مصر إلا وقاموا على حكم مصر وتحالفوا تحت زعامة أمير قادش احدى الامارات . واتضح للفراعنة أنه لايمكن حكم تلك الجهات الا اذا احتلوها بعساكرهم .

حكم حتشبسوت عصر السلام تحتمس الثالث

و بعد تحتمس الاول أهمل المصريون الفتح أيام خلفه تحتمس الثانى وكان ضعيفاً والملكة حتشبسوت وكانت مولية التجارة والبناء اهتمامها . وكانت حتشبسوت امرأة عظيمة الهمة . شاركها فى الحكم بعد تحتمس الثانى أخوها أو ابن أخيها تحتمس الثالث ، ولكن اشتراكه كان اسمياً فقط فبقى خاملا طول حياتها . ولما ماتت قام بفتوح عظيمة جعلت له اسماً خالداً بين عظماء الفاتحين

وصفه حروبه

ولم يهمل تحتمس تخليد حروبه ، فقد وصفها الكتاب بأمره على جدران معبد الكرنك . ويقول العارفون بان هذا الوصف مكتوب ببراعة ومهارة تستوقف النظر .

فتوح تحتمس الثالث

خرج تحتمس الثالث فى السنة الثانية والعشرين من حكمه (١) . وكان أعداؤه تحت قيادة أمير قادش عند مدينة مجدو وكان موقعهم حصيناً فقد كانوا

---

(١) بما فيها مدة اشتراكه مع حتشبسوت



شكل (١١) تحتمس الثالث فى صباه

على ربوة تلقى عندها الطرق وتحول دون نزول المصريين على السهول غربى الفرات . ولكن تحتمس الثالث اجتاز الربوة دون أن يشعروا بهوطوق معسكرهم وانتصر عليهم انتصارا باهرا . ثم حاصر مجدو واستولى عليها وغنم منها غنائم نفيسة تدل على تمدن تلك البلاد وغناها . ومما يذكر أنه لم يقس على اعدائه كما كان يفعل الفاتحون فى تلك الازمان .

أنزل ذلك الانتصار الرعب فى قلب الاسيويين ، فلم يجد تحتمس فى غزوته الثانية فى العام الثانى مقاومة بل وجد تنافسا بين الاسيويين فى التزلف اليه والتقرب منه .

وتتابعت غزواته . وفى الغزوة الخامسة استولى على مدينة ارواد الواقعة على البحر وغنم منها غنما كبيرا .

وفى الغزوة السادسة كانت خطته جديدة ، اذ نقل جيوشه بحرا الى المدن الفينيقية ومنها سار على قادش . والجديد فى تلك الخطة هو الجمع بين استعمال البحر والبر . وفى تلك الغزوة أيضا ابتدأ سياسة جديدة هى ارسال أبناء الامراء المغلوبين الى مصر يتعلمون فيها وتشرب قلوبهم حب فرعون ، وعند ما ينتهون من ذلك يعينهم حكاما لبلادهم تحت سيادته

وكلما ثار ثائر أسرع تحتمس الى تأديبه . وكان آخر غزواته الغزوة السابعة عشر فى السنة الثانية والاربعين من حكمه وفيها أخضع قادش . وفيها أرسل ملك قبرص لفرعون هدية يبعد بها عنه غضبه . وبعدها دانت له رقاب الاسيويين فلم يقم بحرب أخرى

تنظيم الملك

كانت سياسته فى تنظيم الملك أن يترك الامراء الوطنيين فى اماراتهم ولكن بعد أن يعين معهم موظفين مصريين يجوبون خلال الملك يجمعون الجزية ويراقبون الوطنيين ويشيرون على امرائهم بما يحسن بهم القيام به وهؤلاء الموظفين تشد أزرهم حاميات مصرية تعسكر فى المواقع الحصينة .

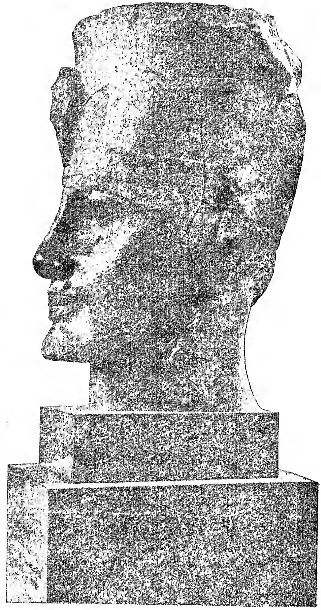
وقد اتبع أيضا كما تقدم سياسة تمصير أبناء الامراء وقد نجحت هذه السياسة نجاحا باهرا فقد تعلق كثير منهم بمصر وحكمها . وعندما ضعف أمرها فيهم وهدد الحيثيون بالحلول محلها أسف الاسيويون على زوال ملك مصر واستغاثوا بفرعون مرارا

عظم شان تحتمس الثالث

وعلا ذكر تحتمس الثالث علوا كبيرا وشدا به الشادون وكتب فى مدحه الشعراء وقد عثر الباحثون على قصيدة تخيل فيها الناظم المعبود آمون يخاطب تحتمس ويشيد بذكره

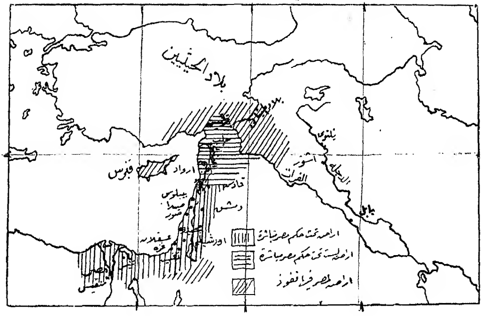
أمنحتب الثالث

وقد جنى خلفه امنحتب الثالث ثمار الجد الذى بذله سلفه . فكان حكمه فخما تجلت فيه أبهة فرعون وامتد ملكه ١٦٠ ميلا جنوبى وادى حلفا حيث بنى معبدا فخما عند صليب وعبده فيه النوبيون



شكل (١٢) امنحتب الثالث

ممتلكات مصر في آسيا في زمن امنحتب الثالث



الفصل السادس

الحضارة المصرية فى عهد الدولة الحديثة

آثار الفتوح

صارت طيبة مقر هذا الملك العظيم . وقد غيرت الفتوح الآراء السائدة حتى ذلك الوقت ، فعرف المصريون أن هناك أمماً كثيرة غيرهم وان العالم ليس مصر فقط ، وأن ما حولها ليس أرضاً مجهولة تسكنها الشياطين ، واصبحوا يرون فى فرعون قائدهم الذى يسيرون الى النصر تحت لوائه .

سلطة فرعون

وكانت الادارة كلها فى يد فرعون يدير شؤونها بوساطة وزيرين أحدهما للشمال ومقره منف والآخر للجنوب ومقره طيبة ، ولم يطلق أيديهما فى مال الدولة بل جعل له موظفاً خاصا .

ولم يسمح فراعنة الاسرة الثامنة عشرة للكهنة بالتدخل فى أمور السياسة إلا أنه عند ما خرج أحدهم وهو اخناتون على معتقدات آبائه وأغضب الشعب ذلك ، اضطر الفراعنة الذين أتوا بعد اخناتون الى استرضاء رجال الدين، فزادوا فى امتيازاتهم .

ارتفاع شأن آمون

وقد أدت عظمة طيبة الى ارتفاع شأن معبودها آمون فأصبح معبود الملك كله . ولا بد أن يكون ذلك قد أثار شيئاً من الحسد فى نفوس كهنة المعبودات الاخرى ، وعلى الاخص كهنة رع ، وربما أدى ذلك الى كيدهم لآمون والى قيام اخناتون بثورته الدينية .

فخامة الدولة الحديثة

تبودلت التجارة فى ملك مصر الواسع وزادت مصر فى الغنى والرفاهية بفضل اتساع التجارة واستتباب الامن على يد ملوك أقوياء وموظفين شاعرين بأن عين فرعون ترقبهم ، وبفضل الغنائم التى غنموها فى آسيا والاموال التى جبوها من أهلها .

طيبة فى عهد امنحتب الثالث

وقد تجلت تلك الفخامة فى حكم امنحتب الثالث الذى زاد فى جمال طيبة ، فشيد منتزها على ضفاف بحيرة فى البر الغربى ، و بنى معبدا هائلا هدمه منفتاح ابن رمسيس الثانى ولم يبق منه إلا التمثالان المعروفان بتمثالى ممنون

تمثالا ممنون

بدء الاضمحلال

ظهرت علامات الاضمحلال فى حكم امنحتب نفسه ، و ربما فسر الاضمحلال كثرة المال والانهماك فى الترف . والظاهر أن الحضارة القديمة كان يصيبها الاضمحلال اذ استنام الناس الى السلم . وليس معنى ذلك أن الحرب أمر ضرورى للعالم الحديث ، فالحضارة الحاضرة لا يعوزها الباعث القوى للعمل العقلى وغير العقلى فى ظلال السلم .

ومما عجل الاضمحلال وأدى الى تمزيق ذاك الملك العريض الثورة الدينية التى قام بها اخناتون

اخناتون وثورته الدينية

كان اخناتون أو امنحتب الرابع ابن امنحتب الثالث و زوجته تى . ولم تكن تى هذه من أصل مصرى خالص فقد كان أبوها اسيويا ، وكان اخناتون غريبا فى صفاته لم تر مصر قبله رجلا أكثر تغافلا عن كل مالا علاقة له بنزعات عقله أو اكثر اهمالا لواجبات الملوك ، حتى لقد يعرض للانسان الشك فى استكماله قواه العقلية .

وفى السنة السادسة من حكمه ولما لم يزد سنه عن الخامسة عشرة نشر رأيه ببطلان المعبودات جميعها بما فيها آمون ، وأعلن أنه لا ينبغى أن تعبد إلا القوة السماوية التى تمثل للناس فى الشمس وسماها آتون . وكان دينه هذا وحدانية خالصة .

وربما كان لاصل أمه الاسيوى بعض التأثير فى رأى اخناتون الدينى . والثابت أن تقديس الشمس لم يكن أمراً جديدا . ومن المحتمل أن كهنة رع كانت لهم يد فى تشجيع هذا التقديس كيدا لكهنة آمون .

لم يكن لاخناتون من الحكمة السياسية ما يجعله متريثا فى أمر هام كأمر العبادات : فنشر رأيه فى البلاد و بعد أن كان اسمه الاول امنحتب اتخذ لنفسه



شكل (١٣) اخناتون (من رسم على حجر فى المتحف البريطانى)

اسم اخناتون وغادر طيبة مقر آمون وجعل عاصمته بالغرب من اسيوط حيث تل العمارنة الآن .

أثارت تلك الاعمال استياء عاما ، وأغضبت الكهنة والعامة ، ونفرت رجال السياسة والحرب الذين قدروا وخامة العواقب ، ورأوا أن الملك الذى شادوه بدمائهم يلهو به مفتون على العرش .

ووصلت الاخبار الى آسيا وعلم الاسيويون أصدقاء مصر أن فرعون قد ابتدع بدعة دينية ، وأنه لزم مدينته الجديدة ويتعبد فيها ولا يخرج منها للدفاع عن تراث آبائه .

ومما يدل على ما كان من شدة الشكيمة لملوك الدولة الحديثــة أن الناس على الرغم من استيائهم لم يعصوا اخناتون جهارا

آثار الثورة فى الادب والفن

كل ذلك واخناتون فى مدينته ينظم الشعر مسبحا لآتون . وقد حملت العصور الينا قصائده ووجد المؤرخون اتفاقا كبـيرا بين تلك القصائد والشعر الدينى الاسرائيلى فى اللفظ والمعنى

وكان لثورته أيضا أثر كبير فى الفن : فكما أن اخناتون نبــذ القديم فى الدين وتوخى الحرية فى الاعتقاد كذلك رجال الفن فى عصره نبذوا القواعد القــديمة وقصدوا الى رسم الاشياء كما هى ، حتى أنهم فى تصويرهم لاخناتون نفسه لم يحاولوا اخفاء عيوبه الخلقية ، كما يرى ذلك فى تمثال لاخناتون كشفوا عنه حديثا .

الرجوع الى الدين القديم

اختلت الامور من جراء الثورة ، ولم تثبت دعائم الدين الجديد ، فلما مات اخناتون فى الســنة الثامنة عشرة من حكمه الا وقد رجعت الحال الى ما كانت عليه اذ ليس من السهل على أى حاكم ولو كان قويا كفرعون أن يرغم شعبا بأسره عن التخلى عن معتقدات آبائه ، حتى ولو حرم عليــه ذكر المعبودات القديمة جهارا

توت عنخ آمون

لم يكن لاخناتون ولد يخلفه فتولى بعده زوج ابنته توت عنخ آمون وكان من المتشيعين للدين الجديد . ولــكنه تحول الى عبادة آمون بعد توليته الملك وقــد انصرف هو ومن خلفه الى ازالة سوء الاثر الذى تركته ثورة اخناتون بارضاء الــكهنة بكل وسيلة . وقد اكسبهم ذلك فيما بعد نفوذا سياسيا لم يكن لهم فى الايام الاولى للدولة الحديثة

وقد طبقت شهرة توت عنخ آمون الآفاق بعد فتح قبره فى أيامنا هــذه والعثور على نفائس كثيرة فيــه . ولــكن لاسبيل الآن للحكم عما اذا كانت الفائدة التى يستفيدها علم التــاريخ تتناسب مع الاهتمام الشديد الذى أثاره العثور على قبر توت عنخ آمون .

الاسرة التاسعة عشرة أسسها رمسيس الاول والظاهر أنها كانت من الشمال ولكنها حكمت في طيبة .

سيتي الأول ومن ملوكها المهمين « سيتى » وقد أراد اعادة مافقدته مصر من أملاكها الاسيوية أيام اخناتون . فأوقعه ذلك فى حروب مع الحيثيين ، وهم قوم من آسيا الصغرى نشروا دولتهم جنوبها نحو فلسطين . وبتلك الحروب بدأ ملك مصر فى آسيا للمرة الثانية . وبها أيضا اضطر ملوك الاسرة الى الاقامة فى الدلتا مع تشييد العمائر فى طيبة وغيرها من مدن الصعيد . فكاننا نرى فى ذلك عودا لانقسام مصر قسمين عظيمين ، يستتر هذا الانقسام فى أوقات القوة وينكشف عند الضعف .

رمسيس الثانى حكم بعد سيتى وكان اذ ذاك فى الثامنة عشرة وقد طال حكمه كثيرا . والظاهر أن هذا الطول أدى الى اكتساب رمسيس شهرة كبيرة ، واذا قرناه بتحتمس الثالث أو امنمحعت الثالث نجد أن تلك الشهرة أكبر مما يستحق ، والثابت أنه عمل على تمجيد نفسه بكل الوسائل : فبنى معبدا كبيرا هو الرامسيوم ، وهو معبد هائل لايدل على شيء من سلامة الذوق ووصف على جدرانه حروبه مع الحيثيين

الحروب الحيثية بدأت هذه الحروب فى السنة الخامسة من حكمه فى عام ١٢٩٦ واستمرت خمسة عشر عاما استنفدت فيها قوى مصر وسببت ضعفها .

مصر آخر أيام الدولة الحديثة فكانت عظمة مصر ظاهرية فقط ، صحبها اضمحلال فى الفن وازدياد فى هجرة الاجانب اليها واعتماد عليهم من يونان واسيويين وليبيين فى الحرب . ودخلت اللغة كلمات أجنبية ، وساد الكهنة حتى صار منهم فراعنة .

الفصل السابع

الحيثيون ومصر

الحيثيون فى آسيا

آسيا الصغرى أرض مستطيلة الشكل تتصل بآسيا فى جنوبيها الشرقى ويحيط البحر بهـا من ثلاث جهات . وهى هضبة مرتفعة تطوقها سلاسل من الجبال المرتفعة وتحف بالجبال سهول ضيقة على سواحل البحار . وفى الجزء الشمالى الغربى ممر قطعه المـاء الجارى يصل بين البحر وقلب الهضبة . ومنـه دخلها المغيرون من أوربا ، وفيه تسير الآن سكة حديد بغداد

ومعظم الهضبة صالح للرى والزرع ، والجبال موفورة المعادن وهى أيضاً سد يحول دون التوغل فى الهضبة (فيما عدا الجزء الشمالى الغربى) . فموارد آسيا الصغرى اذن تـكفل قيام دولة مستقلة .

وقد كشفوا فى الايام الاخيرة عن اثار بمدينة بوغاز كوى تدل على وجود دولة كبيرة بآسيا الصغرى ، دولة اختلط تاريخها بتاريخ مصر والشرق القديم هى دولة الحيثيين

والحيثيون من الجنس الالبى يظنون أنهم يشبهون الارمن الحاليين رعاة يميلون للقتال . وكانوا فى أول أمرهم قبائل متحالفة تحت زعامـة ملك يقيم فى بوغاز كوى

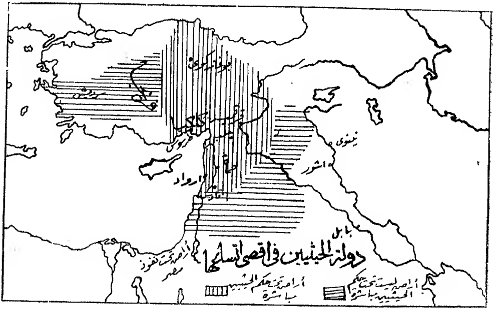
وقد أخذت تلك القبائل تغير على بلاد النهرين ، ثم أخذت تحاول فتح تلك البلاد فتحاً منظما ، ومن ثم اشتبكت بمصر وبالشرق القديم .

الموقف بعد موت امنحتب الثالث

استفاد الحيثيون من الاختلال الذى أثارته ثورة اخناتون فانقضوا على بلاد الميتانى ، وقد تقدم أنهم كانوا يقيمون غربى الفرات ، ففقدت مصر من جراء ذلك ملـكها فى سوريا وفينيقيا ، وتمـكن بنو اسرائيل من الاستقلال فى فلسطين ، وكان فى ذلك تمهيد لملـكهم بها بعد .

م — ٧

وعقدحو رمحب الذى خلف توت عنخ امون على العرش مع ملك الحيثيين معاهدة اعترف فيها بما حدث ، أى بامتلاك الحيثيين لبلاد النهرين و بامتلاك مصر لفينيقيا وفلسطين أن تمكنت من اخضاع أهلهما لها



الحالة ايام (سيتى) الاول

نجح « سيتى » فى ذلك الاخضاع ، و بذلك التصقت الاملاك المصرية بالاملاك الحيثية وتقاتل المصريون والحيثيون . وانتصر المصريون وعقدوا مع خصومهم معاهدة على نمط المعاهدة الاولى

رمسيس الثانى

ولما تولى رمسيس نقض تلك المعاهدة ــ ولا عجب فى ذلك فانه كان شابا يغلب عليه الزهو ــ و بدأت الحروب

عبأ رمسيس جيوشه تعبئة جديدة فجعلها أربع كتائب سمى كل واحدة منها باسم معبود من أربعة : آمون ورع و بتاح وست .

وكان المصريون أقل عدداً من الحيثيين ولكنهم كانوا أوفر نظاما . وكان ملكهم فتى فى عنفوان القوة على حين كان ملك الحيثيين شيخاً أضناه الحكم قائداً محنكا ، ولكن تعوزه حدة الشباب والاقدام

أغار رمسيس على سوريا . وقد تمكن الحيثيون أول الحرب من القيام بخدعة حربية : فأوهموا رمسيس أنهم بالقرب من حلب فتقدم بلا حيطة نحو قادش ، فدهموه ولم يكونوا قد ذهبوا بعيداً وحالوا بينه و بين معسكره ، فشق لنفسه ممرا وسط صفوفهم وهزمهم وشتتهم . إلا أنه على الرغم من انتصاره أخذ الجهد منه مأخذه فرجع الى مصر دون أن يستولى على قادش ولكنه بالغ فى وصف نصره على جدران المعابد نظما ونثرا ومعظم النظم منسوب الى رجل اسمه بنتورت أو بنتاؤر

بنتاؤر الشاعر

المعاهدة المصرية الحيثية ١٢٧٩ق٠م

وتجددت الحرب الى أن سئمت الامتان القتال ، فعقدتا معاهدة فى عام ١٢٧٩ ق . م . نلاحظ عليهـا حسن تبويبها وتساوى الفريقين فيها وتجديد المعاهدات القديمة.

تقدم العلاقات الدولية

وفى سنة ١٢٦٦ ق.م. تزوج رمسيس بنت ملك الحيثيين وأحضرها أبوها إلى مصر . وكان ذلك أمرا جديدا : فلم يكن من عادة الملوك إذ ذاك أن يتقابلوا فى ود وصداقة . ومن المحتمل أن يكون رمسيس قد رد الزيارة ، وان لم يفعل فانه جامل الحيثيين بأن أرسل لهم تمثال المعبودة خنسو لكى تشفى بنت الملك من داء ألم بها . وقد أرسلت بابل طبيباً وساحرا للمساعدة فى ذلك . ذلك كله يدل على حصول أولئك الاقوام على جانب كبير من التمدين وعلى توثق العلاقات الدولية إذ ذاك

موت رمسيس ١٢٣٤ ق ٠ م ٠ وتولى منفتاح

مات رمسيس عام ١٢٣٤ ق . م. بعد حكم طويل وتولى ابنه منفتاح وقد جاوز سن الشباب

وفى أيامه خرج عن طاعته أهل فلسطين فغزاهم و بالغ فى تأديبهم ولكن كانت علاقاته بالحيثيين ودية ، فعندما اجتاحت بلادهم مجاعة أرسل لهم من مصر غلالا :

وفى عهده أيضاً أغار على الدلتا الليبيون وأقوام مختلفة من جزر البحر الابيض المتوسط ، وسواحله ولكنه صدهم وأجلاهم .

الاسرة العشرون رمسيس الثالث

ولكنهم أعادوا الكرة مرتين فى عهد خلفه رمسيس الثالث من ملوك الأسرة العشرين . وقد هزمهم فرعون هزيمة ساحقة فى البر والبحر . وقد سكن أقوام منهم بعد الهزيمة غربى فلسطين وهم الفلسطينيون ومن اسمهم أخذت فلسطين اسمها

زوال ملك الحيثيين

ولم تكن هذه الاغارات مقصورة على مصر بل شملت بلاد الحيثيين وسببت تمزيق ملكهم ، وقد قضى الاشوريون بعد على ما بقى منه عام ١١٠٧ ق . م .

سياسة رمسيس الثالث الداخلية

قلد رمسيس الثالث رمسيس الثانى فى كل شىء . ولم يكن ذلك عن غرور أو ضيق عقل ، انما كان قصده أن يبعث فى المصريين ذكرى انتصارهم الحربى ويوقظ أمانيهم ، واتجهت سياسته أيضاً الى تنمية موارد الثروة والبناء.

اضمحلال مصر

ولم تنجح هذه السياسة إلا نجاحا مؤقتاً ، فالأمم لا يكفيها البكاء على ماضيها ولا تنفعها ذكرى الملك العريض اذا أعوزتها الصفات التى فى أجدادها

فراعنة من الكهنة

وكان خلفاء رمسيس ضعافا ، يلعب بهم الكهنة ، واستفحل أمر هؤلاء الى أن استقلوا بالملك ، ولم يقف الفراعنة منهم موقفاً مشرفا ، فقد بلغ من ضعفهم أن حاولوا نيل الحظوة لدى الاشوريين بتقديم الهدايا ، كأن مصر قبرص أو كريد تتزلف الى تحتمس الثالث

الفصل الثامن

مصر فى أيدى الاسيويين

فقدت مصر أيام ملوكها الكهنة النوبة وطورسيناء وفلسطين ، ولم يبق إلا وادى النيل بين البحر واسوان يتنازعه الاجانب . وتقلد تاجه ملوك من الليبيين والنوبيين .

الملوك الليبيون ٩٤٥ – ٦١٢ ق.م

كان مقر الملوك الليبيين مدينة بسطة فى الدلتا وأشهرهم شيشنق الذى كانت له صلات بسليمان ملك فلسطين . وفى أيام الليبيين ظهرت قوة الآشوريين فى آسيا

الملوك النوبيون ٧٢٢ – ٦٦١ ق.م

قبل وصف اغارة النوبيين على مصر يجدر بنا فهم حالتهم فى بلادهم . تمصرت النوبة تحت حكم الفراعنة تمصراً يكاد يكون تاماً وقامت فيها العبادات المصرية . وصار لكهنة آمون فيها نفوذ كبير وعلى الاخص فى الاقليم الخصب بين الشلالين الثالث والرابع (مديرية دنقلة) ومركزهم هناك مدينة نباطى واستقلوا به وصاروا يقيمون هناك ملوكا . ثم علموا أولئك الملوك أن ملكهم يجب أن لا يقتصر على النوبة بل يجب أن يمتد شمالاً حتى أسيوط .

بعنجى

وكان من أثر ذلك أن غزا بعنجى مصر وتم له فتحها وتقلد عرشها . وكان بعنجى فاتحاً رحيماً يجرى فى عروقه دم الفراعنة ، ويخطىء من يرى فى اغارة النوبيين تغلب الزنوج الافريقيين على مصر فالنوبة بلاد مصرية من قديم الزمان

الاشوريون ومصر

وفى أيام الملوك النوبيين تغلب آسرحدون ملك الاشوريين على الدلتا سنة ٧٦٠ ق. م. وتنازع مصر الاشوريون والنوبيون الى أن قام أمير مصرى

بسماتيك والنهضة المصرية

اسمه بسماتيك فى مدينة سايس فى غربى الدلتا ونجح بالاستعانة بجنود مرتزقة من الاغريق فى الاستقلال بمصر وكان ذلك عام ٦٥٢ ق. م.

وقد اعتمد على الاغريق ، وشجعهم على الاستيطان فى البلاد وعمل على تنمية الزراعة والصناعة

وقد بدأت مصر أيامه تحيا بعض الشيء ويسمى المؤرخون ذلك الدور من تاريخها بعصر النهضة المصرية .

ولم تكن تلك النهضة إلا محاكاة المصريين لحضارتهم الاولى وتقليدهم الفنون والاداب الاولى والمبالغة فى ذلك حتى أعادوا كل شيء كما كان عليه ولم ينسوا أتفه الاشياء . ويجب أن لا يغرب عن البال ان مصر بذلك لم تستعد شبابها الاول بل كانت كالرجل الهرم يقلد الشاب فى هيئته ويخفي أثر الكبر فيه بالدهان .

نهضة فارس والاغريق

إنما كانت النهضة الحقيقية إذذاك نهضة الفرس والاغريق . فتغلب الاول على دول الشرق القديم وانتشر الاخرون فى البحر الابيض المتوسط ثم تصادم الشعبان وتنازعا السيطرة كما سيفصل بعد

ملوك النهضة المصرية نخاو

خلف بسماتيك الاول ابنه نخاو ، وقد شجعه سقوط الاشوريين (سنة ٦١٢ ق. م.) على الاغارة على فلسطين ، ولكن لم يلبث أن طرده عنها البابليون . وقد اهتم بالتجارة فكانت له سفن فى البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، وحاول توصيلهما بقناة . ويقال إنه هلك فى ذلك نحو ١٢٠٠٠ عامل . ولما تنبأ متنبيء بان القناة لن تنفع إلا الأجانب أقلع عن فتحها . وقد قال ديودور بأنه عدل عن فكرته لما عرفوه ان البحر الاحمر مرتفع عن البحر الابيض المتوسط وان فتح القناة قد يغرق الدلتا . وقد ظل هذا الرأى الفاسد حتى القرن التاسع عشر

ويقال إن بعض ملاحى نخاو ساحو حول سواحل افريقية كلها

ابريس

ومن ملوك هذه الاسرة أيضاً ابريس ، وقد ثار عليه المصريون لما رأوا من شدة ميله للاجانب ، وتولى مكانه قائد جنده احمس أو اماسيس

احمس

نوقراطيس

ولم يكن احمس هذا بأقل تحيزاً للاغريق فأسسوا فى أيامه مدينة نوقراطيس بالقرب من فرع النيل الغربى وكانت مدينة اغريقية صرفة يتبادلون فيها حاصلات بلادهم ويصنعون بها الصناعات الاغريقية وبها معابد اغريقية

وكانوا مستقلين فى حكمها مرتبطين بالحكومات الاغريقية فى كل شىء حتى ان دار الحكم فى نوقراطيس شيدت على نفقة الحكومات الاغريقية (١)

وربما كان الدافع لاحمس على اتباع هذه السياسة رغبته فى تشجيع التجارة . والثابت انه كان شديد الخوف من الفرس الذين امتلكوا غربى آسيا وقضوا على الدول القديمة به ، فظن أنه قد يجد فى الاغريق حلفاء يمنعون الفرس عنه

تغلب الفرس على مصر ٥٢٥ ق.م

وقد وقع ما كان يخافه احمس فى عهد خلفه بسماتيك الثالث وذلك أن قمبيز غزا مصر عام ٥٢٥ ق.م وتغلب عليها .

وصارت مصر جزءاً من الدولة الفارسية ولم تستعد استقلالها إلا أيام البطالسة .

---

(١) تشبه نوقراطيس فى الوقت الحاضر الاحياء التى يسكنها الاجانب فى بعض المدن الصينية مثل شنغاى

الفصل التاسع

أرض بابل وأشور

بابل دولة قديمة قامت فى الارض بين الفرات والدجلة

الفرات

يجرى الفرات فى ثلاث مناطق : الاولى أرض جبلية ، والثانية سهل لا شجر فيه ، والثالثة تنتهى عند الخليج الفارسى وتتكون من رواسب النهر .

الدجلة

ويمر الدجلة أيضا فى ثلاث مناطق كمناطق الفرات . وقد سكن الاشوريون فى الجزء الجبلى من مجراه . وفى خط عرض بغداد يقترب الدجلة من الفرات فلا تزيد المسافة بينهما على خمسة وثلاثين ميلا ثم يبتعدان

ويفيض الفرات والدجلة بغتة عند ما يذوب الجليد فى الجبال (بين شهرى مارس ومايو) ويرتفع النهران ارتفاعا كبيراً يجرف السدود التى يقيمها الناس لحماية الارض . هذا الى انهما يجلبان كمية كبيرة من الطين ويرتفع اسفلهما ارتفاعا سريعا وترسب منهما رواسب سميكة فكان مصباهما أيام الاسكندر الاكبر يبعد احداهما عن الآخر والآن يلتقيان عند البصرة على بعد ٣٠٠ ميل من البحر . كل ذلك جعل مسائل الرى فى أراضى بابل أدق منها فى مصر كثيرا

الارض غربى الفرات

والارض غربى الفرات اما مراعى واما صحارى جرداء متصلة بصحارى شبه جزيرة العرب ، وكان لاهلها تأثير كبير فى تاريخ البلاد الزراعية القريبة منها

الارض شرقى الدجلة

والارض شرقى الدجلة جبلية مرتفعة متصلة بهضبة إيران . وهى عبارة عن سلاسل من الجبال وفيها وديان تصلح لسكنى الانسان ، ولكنها منعزل بعضها عن بعض . وفيها أيضا بحيرات كبيرة مثل فان وأروميا فى الشمال وشيراز فى الجنوب وفى بعض تلك الوديان نشأ الفرس والميديون

الارض شرقى الخليج الفارسى ـ بلاد عيلام

وترتفع الارض شرقى الخليج الفارسى ارتفاعا كبيرا وتصد الرياح وتهطل

على سفوحها الامطار فصارت أرضاً كثيرة الغابات، وصارت يطمح فى امتلاكها أهل السهول القليلة الشجر ، وهذه هى بلاد عيلام

موازنة بين مصر وبابل

(١) اختلاف اتجاه الانهار : ينبع النيل فى الجنوب ويتجه شمالا فصار الجزء الشمالى من واديه (مصر) فى منطقة مناخها معتدل . وخلا ذلك الجزء أيضاً من الجنادل فيسير الماء هادئا بين اسوان والبحر ، ثم لايحمل الى ذلك الجزء الشمالى من مجراه إلا ما خف من الطين الذى لا يعوق الملاحة على عكس الفرات الذى يصل الى الدلتا ولم تكن قد رسبت منه الرواسب الثقيلة بعد فتعوق الملاحة عند الدلتا وتسبب طغيان الماء على الارض .

تكثر لذلك فى خرافات البابليين قصص لطوفان عظيم خرب العالم كله وبينما المصريون القدماء يتخيلون الشر ظلاما و برداً كان البابليون يرمزون له بحيوان مخيف يرسل الماء مدراراً .

(٢) قامت المدنية المصرية فى الوادى والبابلية والاشورية فى الدلتا .

(٣) اقتراب المدن البابلية بعضها من بعض وتباعد المدن المصرية ممتدة على طول النهر كله

(٤) بابل بلاد لا أحجار فيها على عكس مصر تماما . وكان لهذا أثر بين فى حضارتها ، فالطين ولو جفف تماما لا يصلح لعمل التماثيل ولا يمكن الرسم عليه . فالفن البابلى اعوزته حينئذ المادة التى عرف المصريون والاغريق كيف يخلدون بها فنهم

وقد استعمل البابليون الطين المجفف استعمالا غير مألوف ، فقد كانوا يكتبون عليه

(٥) وبابل أيضاً أقل من مصر مناعة ، فتسكن الصحارى غربيها قبائل البدو الرعاة يدفعهم فقرهم نحو الاراضى الزراعية

أما أساس الحضارة فى الدولتين فهو واحد وهو خصب الارض وتهيئو الفراغ اللازم للابتكار والتفكير . وتتوقف الحضارة فى كلتيهما على حسن تدبير الرى وعدم الافراط أو التفريط فى استعمال الماء

علاقات بابل الخارجية

أثرت فى تاريخ بابل علاقاتها بالبدو و بسكان عيلام و بالاشوريين أما عن البدو فقد كانت طبيعة بلادهم هى الدافعة لهم على الاغارات أو على التجارة

ونقل التجارة مهنة قديمة جدا فى الصحارى إذ الصحارى تشبه البحار فى كونها تصل بين أقاليم مختلفة ، وكما تقوم المدن التجارية على سواحل البحار فانها تقوم أيضاً عند اتصال الصحارى بالاقاليم الزراعية والصناعية أو فى الواحات مثال ذلك دمشق وبخارى وبربر

وقد أثر البدو سكان الصحارى بالغزو والاغارات فى تاريخ البابليين تأثيرا كبيرا فجعلوا لغتهم سامية مثلا

اما عن الاشوريين فقد نشأت دولتهم فى الجزء الجبلى من نهر دجلة وهو جزء متسع تكثر فيه النهيرات ، و يقع على بعد من بابل فتمكن الاشوريين من انشاء دولتهم بلا تدخل منها ، ولكن لم يكن ذلك البعد بكاف لمنع الاشوريين من تهديد بابل عند ضعفها

الفصل العاشر

بابل

مر تاريخ الحضارة البابلية فى أربعة أدوار متميزة :

الدور الاول ٣٠٠٠ — ٢٢٠٠ ق.م

يعاصر هـذا الدور عهد بناة الاهرام فى مصر وينتهى عند ما أسس حمورابي ملك بابل فى عام ٢١٠٠ ق.م

وفى ذلك الدور لم تكن الارض خاضعة لملك واحد بل كانت فيها مدن مستقلة بعضها عن بعض كثيرة التقاتل . ويعرف هـذا العهد بعهد المدنية السومرية من سومر وهو اسم يطلق على جزء كبير من تلك البلاد

المدنية السومرية

وليس للمؤرخين علم يقين بجنس السومريين والظاهر أنهم كانوا بيض الالوان جففوا المستنقعات و بنوا المدن وعرفوا طرق الرى والزراعة ورعوا الغنم والماعز . وربمــا كانوا أول من استعمل العجلات تجرها الحمير للنقل . وكانوا كالمصريين إذ ذاك يعرفون الخيل ولهم خبرة باستعمال المعادن وصنع الأوانى النحاسية وربما وصل العلم بها اليهم من وادى النيل

الزراعة

كانوا يكتبون بآلة حادة على الطين قبل تجفيفه فصارت كتابتهم تعرف بالخط المسمارى وقد تقدم وصف الطريقة التى بها فكت رموزها .

الكتابة

وكانوا يحسبون السنة مكونة من اثنى عشر شهراً قمريا . وقد تعلم ذلك عنهم الاسرائيليون والفرس

الشهور

وقد اتخذوا مدينة نيبور مركز عبادتهم و بنوا فيها معبداً كبيراً بزعم بعض المؤرخين أنه برج بابل المشهور فى الاساطير . وقد كشف العلماء عن آثار نيبور عام ١٨٨٩ وزاد علمهم بتاريخ السومريين بذلك زيادة كبيرة

نيبور

وحول عام ٣٠٠٠ ق . م . نزل فى أرض اكاد شمالى سومر البـدو الساكنون غربى الفرات وقام بينهم وبين السومريين كفاح شديد انتهى بانتصار

الاكاديون

سرجون الاول — الاكاديين على يد قائدهم سرجون وكان ذلك حول عام ٢٧٥٠ ق. م. ثم كون سرجون من فتوحه ملكا واحداً وحكم خلفاؤه الى عام ٢٢٠٠ ق . م . واختلط الشعبان وصارا شعباً واحدا متحضراً بحضارة واحدة ، ونشأ بينهم أدب من أشهر ما فيه قصة الطوفان

الدور الثانى ٢٢٠٠–١٣٠٠ ق. م. — ثم ضعف هؤلاء الملوك – ملوك سومر واكاد – ودخلت بلادهم تحت حكم أهل عيلام الساكنين شرقى الخليج الفارسى ، وتلت ذلك إغارة جديدة من البدو غربى الفرات استولوا فيها على مدينة بابل نفسها ولم تكن إذ ذاك إلا مدينة صغيرة خاملة . وقد تم ذلك حول عام ٢٢٠٠ ق . م.

حمورابى مؤسس ملك بابل — وقام فى بابل ملك اكتسب فى التاريخ شهرة هو حمورابى هزم حمورابى أهل عيلام وملك محلهم عام ٢١٠٠ ق . م .

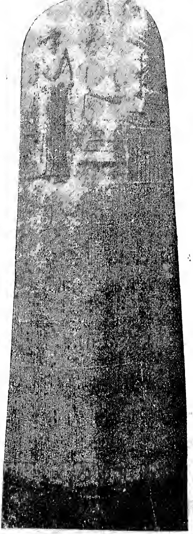
رسائل حمورابى — وقد أسعد الحظ المؤرخين فعثروا على خمس وخمسين رسالة لحمورابى قرأوا فيها ما يدل على شدة اهتمامه بملكه من تدقيق فى جمع الاموال فى أوقاتها ونظر فى أمور المعابد وهكذا

قوانينه — وعثروا له أيضاً على القوانين التى سنها لحكم الدولة وهى أقدم ما وصل الينا من تشريع المشرعين . والظاهر ان حمورابى جمع القوانين والعادات المعمول بها فى وقته واضاف اليها من عنده وسطرها جميعاً على لوح من الحجر ، وفوقها رسم نفسه يتسلم القوانين من الشمس التى كانوا يعبدونها . وقد وجد هذا اللوح فى معبد قديم

التجارة — وكان لحمورابى جيش ضرب به على أيدى العابثين بالامن وأخلد الناس للعمل فانتشرت فى ظل النظام تجارة بابل وتعلم الناس فى غربى آسيا الخط المسمارى من التجار البابليين

التعليم — وعنى أيضاً بالتعليم وعلى وجه خاص بأعداد الموظفين ، وقد كشف العلماء فى سنة ١٨٩٤ عن آثار مدرسة وعثروا فيها على الواح التلاميذ . والظاهر ان البابليين كانوا يقدرون جودة الانشاء ، فكانو يلقنون التلاميذ ان الانشاء الجيد يضىء كالشمس

ولكن لم يكشف العلماء بعد عن آثار فنية لعصر حمورابى



شكل (١٤) لوح قوانين حمورابى

الدور الثالث
١٣٠٠-٦٠٦ق٠م
ملك آشور
بدء تاريخ
الاشوريين

وفى الدور الثالث ظهرت آشور وقد أقامها البدو فى الاصل حول عام ٣٠٠٠ ق. م. وتعلم الاشوريون من السومريين خطهم وعناصر حضارتهم. وقد ظل الاشوريين خاضعين لحكم بابل ، ولكنهم كانوا امة حربية

أتقنت فن الحرب ومارسته ضد جيرانها الحيثيين والفينيقيين الذين كانوا إذ ذاك يحاولون انتزاع ملك مصر فى آسيا .

بنو اسرائيل والارامیون مدنية الارامیين

وجد الاشوريون حائلا دون تقدمهم فى استيطان بنى اسرائيل والاراميين فى فلسطين وسوريا حول عام ٤٠٠ ق. م. وكان للآراميين حضارة تفوق ما كان للاشوريين إذ ذاك. كانوا تجارا تعلموا الحروف الهجائية الفينيقية ونشروها فى آسيا فحلت بذلك محل الخط المسمارى ، وكانت دمشق مقر حكمهم .

الخلاصة ان الاراميين تركوا أثراً كبيرا فى تاريخ العالم ، أكبر كثيراً من أثر الاشوريين فيه ، فالاشوريون لم يكن مجدهم الا حربياً محضا .

استيلاء الاشوريين على دمشق عام ٧٣٢ . ق . م سرجون الثانى وسنخاريب

وفى القرن الثامن قبل الميلاد أخذ الاشوريون يقيمون صرح ذلك المجد الحربى ، فاستولوا على دمشق عام ٧٣٢ ق.م وصاروا أقوى دولة فى أرض الفرات ذلك بفضل ملك عظيم هو سيرجون الثانى (٧٣٢ – ٧٠٥ ق . م .) وابنه الاعظم منه سنخاريب (٧٠٥ – ٦٨١ ق . م)

استيلاؤه على بابل

وأخيرا استولى سنخاريب على بابل وهدمها وأجرى الماء فوقها . وكان رجلا غليظا اذا فتح بلدا أثقل كاهل اهله بالضرائب وكانوا اذا ثاروا اخمد ثورتهم بغلظة كبيرة .

تأسيس نينوى

وأسس نينوى واتخذها عاصمة ملكه و بنى لنفسه قصرا فخما . وكان ملكه عظيما ، نظم به البريد كى يتم اتصاله بعماله فى الاقاليم النائية .

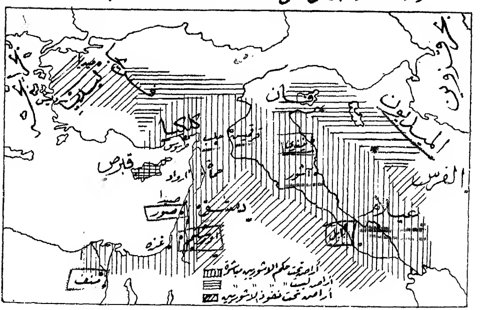
الاغارة على مصر

واغار سنخاريب على مصر ، ولكن تم فتحها بعده على يد اشور بانيبال

الجيش الاشورى

وكان الجيش الاشورى يتكون من مشاة مسلحين بالسهام والحراب ومن فرسان وعجلات حربية نالوا كتسب شهرة هائلة فى الشرق القديم ، و به دوخ الملوك الاشوريون الدول القديمة وجمعوا نفائسها لتزيين قصورهم. واشتهر العسكر الاشوريون بالقسوة فى معاملة أعدائهم فكانوا يسلخون الاسرى وهم احياء، و يقطعون رؤوسهم على ملأ من الناس وفى كتب انبياء بنى اسرائيل وصف لكل ذلك .

دولة الأشوريين فى أقصى اتساعها (عهد اشور بانيبال)



مكتبة اشوربانيبال

وقد جنح اشو ر بانيبال الى السلم بعض الشيء ، فترك مكتبة عظيمة ، فى المتحف البريطانى الا ن ٢٢٠٠٠ لوح من محتوياتهـا ، وموضوعاتها دينية وعلمية وأدبية .

اضمحلال الاشوريين
سقوط نينوى ٦٠٦ ق . م .

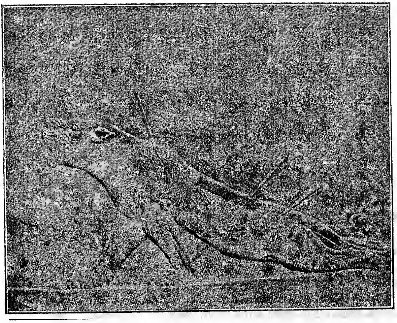
ثم اضمحلت دولة اشو ر واتحد عليها البابليون والميديون والفرس واستولوا على نينوى عام ٦٠٦ ق . م . ودالت دولتهم ولم تبق الا اطلال حضارتهم .

وتنفس أهل الشرق القـديم الصعداء . وقد وصف أحد أنبيـاء بنى اسرائيل ناحوم فرح الناس بسقوط عدوتهم جميعاً فقال : « و يل لمدينة الدماء! عيدوا يا بنى اسرائيل أعيادكم . نعست رعاتك يا ملك اشور . تشتت شعبك على الجبال . ليس جبر لا نـكسارك . جرحك عديم الشفاء . » .

اسباب سقوط الاشوريين

واتخذ الوعاظ من سقوطها عبرة . الا أن اسباب السقوط واضحة : فنشاط الملوك فى الفتح قصم ظهر الامة . وافنى الصناع ، واجهد الدولة . ثم حكمهم لامم نائية مختلفة عنهم كمصر استلزم جهداً كبيراً .

ولو كان الملوك أقل رغبة فى الفتح لانصرف الاشوريين الى تأسيس مجد غير حربى ، فالاشوريون شعب عظيم . وقد برعوا فى صناعة التماثيل واتقنوا تمثيل الحيوان على الاخص



شكل (١٥) مثال من رسم الحيوان

الدور الرابع ٦٢٥ — ٥٣٩

وبعد سقوط نينوى ورث الحلفاء ملكها فاستولت بابل على سوريا والاجزاء الغربية من دولة الاشوريين ، واستولى الميديون على الاجزاء الشمالية والشرقية .

دولة الكلدانيين

نابوبولاسار

عظمت بابل مرة اخرى وتعرف الدولة الجديدة فيها بالدولة الكلدانية ومؤسسها نابوبولاسار . وخلفه ابنه نابوخذناصر الثانى (٦٠٥ — ٥٦١) . وهو الذى استولى على ارشليم عام ٥٨٦ ق . م . واقتاد بنى اسرائيل اسرى الى بلاده .

استيلاء نابوخذناصر على ارشليم ٥٨٦ ق . م .

وبنى قصراً هائلا وجعل فيه حدائق على عمد يعتبرونها من عجائب العالم السبع . وبنى معابد وصارت بابل فى أيامه مدينة عظيمة

ولكن تلك العظمة لم تدم ، فالفرس حلفاء الكلدانيين صاروا عظيمى القوة وأخيراً فتح كورش ملكهم بابل عام ٥٣٩ ق. م.

كورش يستولى على بابل

والفرس قوم يتكلمون لغة آرية وهم أول الآريين ظهورا فى التاريخ .

الحضارة الكلدانية

وكان للكلدانيين ولع بالفلك والنجوم فوصفوا الابراج السماوية وبلغ من درايتهم أن تمكنوا من التنبؤ بأوقات الكسوف

ويتوقع العلماء أن البحوث فى اطلال بابل التى لم تبدأ إلا فى عام ١٨٩٩ ستكشف عن آثار يرجع عهدها لحمورابى .

الفصل الحادى عشر

بنو اسرائيل

وصف فلسطين

فلسطين موطن أمة لم تترك رسوما وتماثيل ومعابد ضخمة ولكنها تركت ديناً وآدابا ، وأثرت بذلك فى تاريخ الحضارة أثراً لا يقل عن أثر الاغريق . أمة كانت أول من عرف عقيدة الوحدانية السامية وعبدت الله ولم تتخذ له من الاوثان زلفى .

تلك هى أمة بنى اسرائيل نشأت فى الصحراء ثم سكنت فلسطين وهى أرض مكونة من هضبة ووديان تتنوع فيها الحاصلات ، فالمسطحات على الهضبة تصلح للرعى والوديان تنبت الكرم والقمح والزيتون وفى الاغوار تلتف الاشجار

وقرب البحر تشرف الهضبة ، وهى هناك جرداء على الساحل . وفى هذا الساحل سكن الفلسطينيون . وقد تقدم ذكر قدومهم هناك (١) وفى الشمال يضيق الساحل ويكثر خصبه ، وفى الجنوب يتسع ويقل خصبه ويمتد نحو طور سيناء ويمر فيه الطريق بين مصر وبلاد الشرق القديم .

نزح بنو اسرائيل من الصحارى الى فلسطين ، فاحتاجوا الى تغيير نظامهم الاجتماعى الذى نما فى الصحارى حتى يصلح لهم فى بيئتهم الزراعية التجارية الجديدة . وشق على بنى اسرائيل التخلى عن عاداتهم ونظامهم الاول وحاولوا المحافظة عليه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا

التوطن فى فلسطين والخروج من مصر

نبذ بنو اسرائيل العيشة البدوية وتوطنوا فلسطين . ويقال إن ذلك تم بين سنتى ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ق . م . ويقول المؤرخون إنهم ذهبوا الى مصر وإنهم قاسوا كثيراً على يد الفراعنة . ومن المؤرخين من يدعى أن الذى سامهم سوء

---

(١) ص ٥٢

العـذاب من الفراعنة كان رمسيس الثانى ومنهم من يزعم أنه منفتاح . ثم خرجوا من مصر تحت زعامة النبي موسى كما جاء فى الـكتب المقدسة .

هذا وقد تقدم القول أن خروجهم من مصر كان غالباً قبل ذلك التاريخ(١) فالثابت أنهم كانوا فى فلسطين قبل زمن رمسيس الثانى ومنفتاح ، إذ أنهم انتهزوا تفكك ملك مصر أيام اخناتون للاغارة على فلسطين . وفوق ذلك فلا ضرورة تحتم أن يكون كل من كان فى فلسطين من بنى اسرائيل من نفس القوم الذين خرجوا من مصر .

بنو اسرائيل والـكنعانيون

ولما سكن بنو اسرائيل فلسطين وجدوا بها الـكنعانيين وهم من جنسهم تماماً ، فامتزج الشعبان امتزاجاً تاماً .

ثم قام النزاع بينهم و بين الفلسطينيين سكان السواحل وكانوا متحضرين مترفهين الا أن الضعف كان قد أخذ يدب فيهم . وقد كرههم بنو اسرائيل لعباداتهم الأوثان ، فاتحدوا عليهم تحت زعامة شاول . ملك شاول

الا أن شاول لم يكن على وفاق مع رجال الدين ، فقد كان هؤلاء يريدون ملكا يأتمر بأمرهم ويتبع نصحهم فى كل شىء . ولم يرض شاول أن يكون ذلك الملك ، ففتك بعدد كبير منهم ، فساعد من بقى منهم داود على تولى العرش بدلا من شاول . ملك داود ١٠٠٠ — ٩٦٠ ق م

ملك داود وكان رجلا قويا أخضع رجال الدين بعد أن ساعدوه ، وتحصن فى أرشليم وتغلب على الفلسطينيين ونظم ملـكه على نمط الدول المتحضرة المجاورة ولـكن كانت تغلب على ملـكه الصفة الحربية وتقل فيه رفاهية الحضارة

وخلف داود ابنـه سليمان وكان ملـكه أفخم من ملك داود شاول . ملك سليمان ٩٦٠ — ٩٣٠ ق م

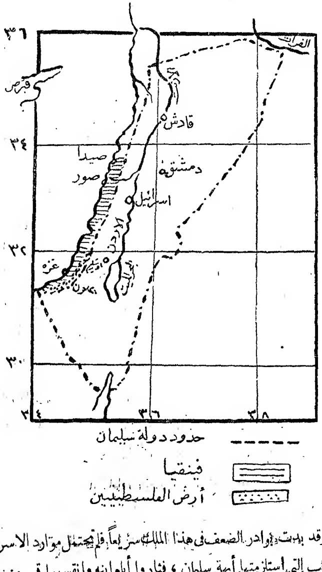
بنى سليمان المعبد ونبذ سذاجة أبيـه وبسط يده . وقد عرف سليمان كيف يستفيد من موقع فلسطين الجغرافى فتاجر مع حيرام ملك صور المدينـة

---

(١) ص ٣٧

الفينيقية الـكبيرة واتصل حتى بجنوبى شبه جزيرة العرب ، وله مع بلقيس ملـكة سبأ قصة مشهورة وتزوج إحدى بنات فرعون .

وقد أثار كل ذلك اعجاب بنى اسرائيل وتحدث أهل الشرق القديم بخزائن سليمان ومبلغ قدرته



ضعف ملك بنى اسرائيل
الانقسام الى مملكتى الشمال والجنوب عام ٩٣٠ ق . م .

وقد بدت بوادر الضعف فى هذا الملك سريعاً فلم يحتمل موارد الاسرائيليين الضرائب التى استلزمتها أبهة سليمان ، فثاروا أيام ابنه وانقسموا قسمين : مملـكة اسرائيل فى الشمال ومملـكة يهوذا فى الجنوب ومقرها ارشليم .

الكتابة العبرية أول تاريخهم ٨٥٠

و بعد ذلك نبذ الاسرائيليون استعمال الفخار والخط المسمارى وكتبوا على الورق بالمداد مستعملين الحروف الهجائيـة الفينيقية ثم قص مؤرخ مجهول أول تاريخ لهم ضمنه أخبار آبائهم ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف

آشور تمحوا مملكة الشمال

إلا أن الانقسام أضعفهم وتنبأ نبيهم عاموس بسقوط مملكة اسرائيل لسوء معيشة أهلها . وقد تحقق ذلك فاستولى الاشوريون على سامريا عاصمة المملـكة عام ٧٢٢ ق . م . وسقطت المملـكه الشمالية بعد مائتى عام من تأسيسها ، وعانى الاسرائيليون أول أسر فى بلاد أعداء دينهم

الاسر الاول

النبي أشعيا

أما مملكة يهوذا فظلت قائمة مائة وخمسين سنة بعد ذلك وقام فيها نبي عظيم حوالى عام ٧٠٠ ق . م هو (اشعيا) وذلك وقت ظهور سنخاريب وعلو كلمتـه فى الشرق . وقد تنبأ أشعيا فى خطب بلغت غاية الفصاحة بان سنخاريب لن يفلح فى الاستيلاء على أرشليم . وقد تحققت تلك النبوءة اذ فتك بجيش سنخاريب طاعون مبيد ونجت أرشليم بذلك ثم سقطت نينوى عام ٦٠٦ وزال الخطر على يهوذا من الاشوريين

القضاء على المملكة الجنوبية ٥٨٦ ق.م.

ولـكن ظهر لهم خطر أكبر: فقد قامت دولة الـكلدانيين . وفى عام ٥٨٦ ق . م استولى نابوخذ ناصر على أرشليم واقتاد الاسرائيليين الى بابل

و بذلك انتهى ملك بنى اسرائيل بعد أربعمائة وخمسين عاما من انشائه على يد شاول .

الاسر ٥٦٨ — ٦٢٩ ق.م.

وفى الاسر ازداد حنينهم الى بلادهم وبكي شعراؤهم فلسطين . —

على أنهـار بابل جلسـنا وبكينا عندما تذكرنا صهيون

على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا ، لان الذين أسرونا طلبوا منا أن نرنم لهم من ترنيمات صهيون

كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة ، ان نسيتك يا ارشليم تنسى يمينى ...

يابنت بابل طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جزيتينا »

العودة الى الوطن
٥٣٩ ق م .

وعنـد ما استولى كورش ملك الفرس على بابل عاد بنـو اسرائيل الى فلسطين و بنوا معبـدهم . ولكن ملكهم لم يعـد بل صار أصحاب الأمر فيهم رجال دينهم و بذلك تحول ملكهم الى رياسة دينية

الا داب الدينية

ثم جمعت بعد ذلك أخبار ملوكهم وأنبيائهم وانشئت المزامير للتغنى بها فى المعبد . و بعـد ظهور المسيحية جمعت كل تلك الاشياء فى كتاب واحـد هو العهد القديم .

الفصل الثانى عشر

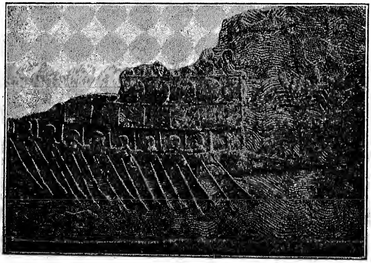
الحضارة الفينيقية

وصف فينيقيا

فينيقيا سهل ضيق بين البحر الابيض المتوسط غربا وجبال لبنان شرقا ، وتنبع فى هذه الجبال أنهار تشق السهل وتصل الى البحر وهى سريعة الجريان لقلة البعد بين منابعها ومصابها

وقد اتخذ أقوام يتكلمون لغة سامية مدنا لهم على ساحل البحر اختاروا لمواقعها رؤوس الساحل والجزر الصغيرة القريبة منه ، فجمعوا بذلك بين صيد حيوان البحر والزراعة وانشاء السفن

ثم قامت لهم تجارة فى خشب غابات الجبال وحاصلات سوريا . وكانت هذه التجارة قديمة جداً ، نسمع عنها قائمة فى أيام الاسرة السادسة المصرية . واتسعت التجارة الفينيقية اتساعا كبيرا



شكل (١٦) سفينة حربية فينيقية

الحضارة الفينيقية

وللفينيقيين أثر كبير فى التاريخ ؛ اذ كانوا رسل الحضارة الشرقية الناشرين لها فى أوربا

وأهم مدنهم صور وصيدا . وكانوا وثنيين : عبدوا معبوداً اسمه بعل ورمزوا له برجل فى رأسه قرنا ثور . وكان بعل هذا معبودا قاسيا لابد من اراقة الدماء لارضائه وتسكينه . وعبدوا أيضا معبودة اسمها استارتة ورمزوا لها بامرأة فى شعرها هلال وتحمل حمامة وتمثل عندهم الربيع والحب . وقد نفر بنو اسرائيل من هذه العبادات الوثنية

التنازع فى المدن الفينيقية على الحكم

وأول تاريخهم كان عهد ثورات داخلية ، اذ أن طبقة الاغنياء وذوى الانساب (الارستقراطية) حاولت أن تحكم المدن فثارت عليها العامة ، وقام النزاع بذلك . وكانت اذا تغلبت طبقة اضطهدت من تغلبت عليه فيضطر المغلوبون الى النزوح عن وطنهم والاستعمار خارج فينيقيا

الاستعمار الفينيقى قرطاجنة

وأشهر مستعمرات الفينيقيين قرطاجنة وقد أسسوها حول عام ٨١٤ ق.م

علاقات الفينيقيين بمصر وأشور

لم يتحد الفينيقيون فى دولة واحدة ، ولم تكن هناك بين مدنهم الا روابط ضعيفة . وفى أول الامر كان لمدينة صور شبه رياسة عليهم

ولم يكن للفينيقيين أطماع سياسية ، بل تفرغوا لتجارتهم . لذلك كانوا يتزلفون الى الدول القوية التى قامت بالقرب منهم ولو استلزم ذلك خضوعهم لها سياسيا . فخضعوا للمصريين أولا وللاشوريين ثانيا وللفرس أخيرا

الخضوع لمصر ١٦٠٠-١١٠٠ ق م

بدأ الخضوع لمصر فى عهد الاسرة الثامنة عشرة وانتهى أيام ثورة اخناتون ثم أعاده رمسيس الثانى (انظر ...

استقلال الفينيقيين ١١٠٠-٨٧٦ ق.م..

ولما ضعفت مصر بعد موت رمسيس تمكن الفينيقيون من الاستقلال وصارت لصور الزعامة فيهم ، ونشطت حركة الاستعمار

الخضوع الاشوريين ٨٧٠ - ٦٠٥ ق م.

واستمر الامر كذلك الى عام ٨٧٦ ق . م عندما خضعت فينيقيا للاشوريين . ودامت سيادة الاشوريين حتى سنة ٦٠٥ ق . م

الفينيقيون فى مصر

وفى أثناء خضوعهم لمصر سمح الفراعنة لهم بالاتجار فيها وأسكنوا تجارهم فى احياء خاصة بهم فى مدن الدلتا وعلى الاخص فى مدينة منف

مستعمرات الفينيقيين

ولما تخلصوا من السيادة المصرية نشطت حركة الاستعمار فاستعمروا فى قبرص ومنها انتقلوا لسواحل آسيا الصغرى وجزيرة رودس وغيرها من جزر الارخبيل ، وجزيرة كريد ومنها انتشروا شمالا فى تراقية فى شبه جزيرة البلقان وقد عبروا مضيقى الدردنيل والبسفور واستعمروا فى بلاد القوقاز .

الاغريق والفينيقيون

ولما قام الاغريق بنهضتهم العظيمة وجدوا الفينيقيين أمامهم فى كل مكان فقام نزاع بين الشعبين انتصر فيه الاغريق وأرغموا خصومهم على التخلى عن الاجزاء الشرقية للبحر الابيض المتوسط

استعمار الفينيقيين فى غربى البحر الابيض المتوسط

فارتحل الفينيقيون الى الاجزاء الغربية منه واستعمروا فى ايطاليا وصقلية ومالطة وشمالى افريقيا وسردينيا وجزائر البليار . وعبروا مضيق جبل طارق وانشئوا مدينة قادس فى اسبانيا ووصلوا الى سواحل بريطانية وغالة (فرنسا الحالية) . ويقال إنهم زاروا سواحل افريقية الشرقية .

تجارتهم البرية

وكانت لهم أيضا تجارة برية عظيمة ، وجلبت قوافلهم حاصلات بلاد العرب والهند والقوقاز واشور والسودان مثل العطور والاحجار الكريمة والذهب وسن الفيل وريش النعام والعبيد والسجاجيد والبلح .

صناعتهم

ولقد ربحوا ربحاً كبيراً من هذه التجارة الشاملة العالم كله على عهدهم وقامت فى صور وغيرها صناعة راقية . وأشهر صناعتهم نسج المنسوجات وعمل الأوانى من الذهب والبرونز والحلى والزجاج الشفاف واشتهروا خاصة بصبغ استخرجوه من الاصداف

حيرام ملك صور ٩٧٠ـ ٩٣٦ ق م

وبلغت صور اقصى قوتها فى عهد حيرام صديق سليمان . وقد أرسل عمالا فينيقيين للعمل فى بناء معبده بارشليم

ثم استولى الاشوريون على فينيقيا فى عام ٨٧٦ ق . م . واستخدم سنخاريب ملاحين فينيقيين فى سفنه

وثارت صور مرارا وفى عام ٥٨٦ ق . م . حاصرها نبوخذ ناصر حصارا دام ثلاثة عشر عاماً .

الخضوع للفرس ٥٣٨ ـ ٣٣٣ ق م

ولما تغلب الفرس على الكلدانيين وصاروا أقوى دول الشرق

خضعت لهم فينيقيا من عام ٥٣٨ الى ٣٣٣ ق . م وكانت السيادة الفارسية عهد رخاء للفينيقيين ظهرت فيه مدينة صيدا .

وفى الحروب بين الفرس والاغريق نقل الفينيقيون على سفنهم عساكر الدولة الغازية صاحبة السيادة عليهم . فانتقموا بذلك من طرد الاغريق لهم من مستعمراتهم فى شرق البحر الابيض المتوسط

الاسكندر الاكبر

ثم ظهر الاسكندر الاكبر المقدونى وقامت الحرب بينه و بين ملك الفرس ففقد الفينيقيون من ينصرهم ويقيهم عداء الاغريق . وفى عام ٣٣٢ ق . م . استولى الاسكندر على صور بعد حصار دام سبعة شهور ودمرها ثم دخلت فينيقيا نهائياً فى حوزة الرومان كجزء من سوريا

نفوذ قرطاجنة

ورثت قرطاجنة عظمة صور وحكمت المستعمرات الفينيقية فى افريقية وصقلية واسبانيا ، وورثت أيضاعن صور عداوتها للاغريق والرومان . وسنرى كيف تغلبت روما على قرطاجنة وكيف دمرتها فى عام ١٤٦ ق . م

سقوط قرطاجنة ١٤٦ ق . م .

الحروف الهجائية

نقل الفينيقيون فيما نقلوا من حضارة الشرق الحروف الهجائية التى اتخذوها من الديموطيقية المصرية وجعلوها مكونة من اثنين وعشرين حرفا ساكنة ومتحركة وقد أخذ هذه الحروف عنهم الاغريق ومن الاغريق تعلمها الرومان.

الفصل الثالث عشر

الفـــــــــرس

الفرس والاوربيون

يتكلم الفرس لغة آرية وكذلك الاوربيون لغاتهم آرية . وبذلك كان قيام دولة الفرس أول انتصار للناطقين بالآرية على الشعوب صاحبة اللغات السامية

وجدودهم الاول كانوا بدوا يسكنون بالقرب من بحر قزوين . ومنهم أقوام تركوا مواطنهم واتجهوا غربا ثم سكنوا فى شبه جزيرة البلقان ، والى هؤلاء ينسب الاغريق والرومان ، وأقوام رحلوا نحو الشرق فذهب فريق الى الهند وفريق سكن شرقى الدجلة وهم الميديون والفرس .

زروستر

حوالى عام ١٠٠٠ ق . م . قام بينهم معلم دينى عظيم اسمه زروستر . وعلمهم أن هنا آلهين أحدهما اله الخير واسمه اهورمازدا والآخر إله الشر واسمه اهر يمان وان الآلهين فى نزاع دائم .

نمو ملك الفرس

كانت القوة أولا فى يد الميديين وهم الذين حالفوا بابل ودمروا نينوى عام ٦٠٦ ق . م وكان الفرس إذ ذاك يخضعون لهم وكانوا غير متحضرين ليست لهم آداب أو فنون أو كتابة ثم ظهر بين الفرس ملك عظيم هو مؤسس ملكهم ذلك هو كورش

كورش

فتح ليديا وآسيا الصغرى ٥٤٦ ق . م .

الاستيلاء على بابل ٥٣٩ ق . م .

تغلب كورش على الميديين ثم على ليديا ، وهى مملكة اغريقية على شاطىء آسيا الصغرى ملكها اسمه كروسس وعاصمتها سرديس وذلك فى سنة ٥٤٦ ق . م ثم حول الفتح نحو الكلدانيين فهزمهم واستولى على بابل سنة ٥٣٩ ق . م وصارت دولته أقوى دول الشرق

وقد أتم خلفاؤه توسيع دولته

فتح قمبيز مصر ٥٢٥ ق . م .

ففتح ابنه قمبيز مصر سنة ٥٢٥ ق . م ولكنه فشل فى حملتين أرسلهما الى سيوه وبلاد النوبة . والظاهر أن ذلك الفشل أغضبه فأهان المصريين

بذبح معبودهم ابيس . وقد أسرع فى العودة الى بلاده لما علم بقيام رجل فيها ادعى الملك ولـكنه مات فى الطريق

حكم دارا الاكبر وتنظم الفتوح ٥٢١ - ٤٨٥ ق.م

ثم تولى أمر الفرس الملك العظيم دارا الاول فنظم الملك وقسم الدولة الى عشرين اقليما يحكمها ولاة من قبله .

ولم يكن الفرس غلاظ الطبع كالاشوريين فتركوا للشعوب المحكومة شيئاً من الحرية وا كتفوا منها بالاتاوة او الجند .

سوسه

ووصل دارا النيل بالبحر الاحمر لتسهيل المواصلات واهتم لتحقيق ذلك بانشاء الطرق والبريد وكانت عاصمته سوسه وموقعها فى الشمال الشرقى من الخليج الفارسى . وكانت له أيضاً مدينة ملكية لسكناه هى برسبوليس . وقد نقل الفرس فن البناء من مصر وبابل واشور وكتبوا أولا الخط المسمارى ثم الآرامى ثم الفينيقى

الاسكندر الاكبر

وقد بقيت هذه الدولة العظيمة الحسنة السياسة قائمة الى أن قضى عليها الاسكندر الاكبر فى عام ٣٣٣ ق . م .

الدولة الفارسية فى أقصى اتساعها (فى الغرب) فى عهد دارا الأول



الباب الثاني

الاغـــــريق

الفصل الاول

كريد والحضارة الاغريقية الاولى

بحر الارخبيل

كريد وغيرها من الجزر وأشباه الجزر فى بحر الارخبيل بقايا أرض ممتدة من آسيا الصغرى لاوربا لم يغمرها الماء لارتفاعها

وفى كريد بيئة شديدة التنوع فى المناخ والحاصلات على ضيق الجزيرة ففيها جبال تكسوها الغابات وبها مراع وارض زراعية ، فجمع أهلها بين الصيد فى البحر والرعى والزراعة .

واتصال كريد بغيرها من الجزر أمر سهل ، فقامت بينها و بين سواحل البحر الابيض المتوسط تجارة فى الاسفنج والسمك والزيت والنبيذ والاحجار والاوانى .

إلا أن اتصال أجزاء الجزيرة بعضها ببعض كان صعباً .

والخلاصة أن أهل كريد أوتوا بسطة فى العيش وأتمت الطبيعة عليهم نعمتها فامتعتهم بأجمل المناظر مما بعث فيهم حبا للجمال ورقة فى الطبع .

وقامت فى تلك الجزيرة فى عصور قديمة جداً حضارة عظيمة ولكن المؤرخين كانوا حتى القرن التاسع عشر لا يعرفون عنها كثيراً ، وكانوا يظنون ان أول

حضارة قامت فى تلك الجهات كانت الحضارة الاغريقية المشهورة فى التاريخ .

كيف كشفوا عن حضارة بحر الارخبيل شليمان سير ارثر افانز

كان أول الكاشفين عن هذه الحضارة شليمان الالمانى . وتلاه باحثون آخرون أشهرهم الانجليزى سير أرثر افانز الذى رفع اللثام عن مدنية باهرة مقرها كريد

تروادة

بدأ شليمان بالحفر فى تلال تروادة فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى فى عام ١٨٧٠ وفى ظرف أربع سنين كشف عن بقايا تسع مدن الواحدة منهـا فوق الاخرى . وليست تروادة التى وصف هوميروس فى أشعاره تغلب الاغريق عليها أقدم تلك المدن التسع ، بل قدر العلماء الزمن بين تروادة هـذه و بين أقدم المدن التسع بالف سنة .

ميسينى

ثم انتقل شليمان الى بلاد الاغريق نفسها وأخذ يحفر فى اطلال قلعة ميسينى بالقرب من خليج كورنث . ووجد هناك قبوراً من الحجر وعثر بها على تاج

تيرينس

وآنية من الذهب الخالص ووجد أيضاً آثاراً مشابهة لها فى مدينة تيرينس عند منتهى خليج أرجوس

كنوسس

أما مهد تلك الحضارة فلم يكشف عنه إلا فى عام ١٩٠٠ عند ما بدأ سير أرثر افانز ينقب فى اطلال كنوسس فى جزيرة كريد . وقد واتى سير أرثر الحفر حتى وصل الى أصول تلك الحضارة التى قدر أنها ترجع الى ٣٠٠٠ سنة ق . م

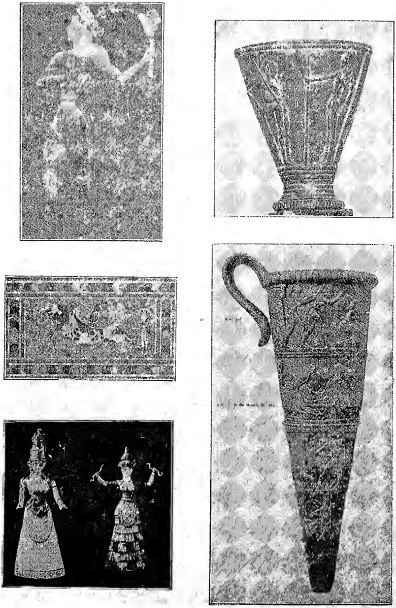
ومنذ ذلك الكشف ميز المؤرخون بين حضارتين الاولى وموطنها جزيرة كريد سموها الحضارة المينوية نسبة الى مينو من ملوك الجزيرة المذكورين فى الخرافات الاغريقية والثانية وهى متفرعة عن الاولى وسموهـا الحضارة الميسينية نسبة الى ميسينى فى بلاد الاغريق .

الكريديون

من هم أولئك الكريديون الذين قامت فيهم تلك الحضارة ؟ الرأى السائد أنهم من الجنس الافريقى الابيض أو من جنس البحر الابيض المتوسط وليست لهم صلة جنسية بالاغريق المعروفين فى التاريخ

ويعتقدون أنهم كانوا على اتصال بالحضارة المصرية القديمة فنقلوا عنها

أشياء كثيرة : فآنيتهم تشبه الآنية المصرية وكتابتهم مأخوذة عن الرموز الهيروغليفية .



(شكل ١٧) نماذج من الفن الكريدى

بني الكريديون المدن و برعوا فى الصناعة واتخذ ملوكهم سكناهم فى كنوسس ، وأصبحت لهم علاقات تجارية كبيرة بمصر ، وقد وجد الباحثون آنية كريدية فى القبور المصرية .

ولكن الكريديين لسوء حظ التاريخ لم يبنوا مبانى ضخمة تقاوم فعل السنين كمبانى المصريين ، وللآن لم يستطع المؤرخون فك رموز كتابتهم .

ازهى عصور الحضارة الكريدية ١٦٠٠ — ١٥٠٠ ق . م .

أما أزهى عصور تلك الحضارة فكان من عام ١٦٠٠ إلى ١٥٠٠ ق.م. أى فى عهد الاسرة الثامنة عشرة المصرية — عهد تحوتمس الأول وحتشبسوت .

الصور على جدران القصر الملكى

وفى ذلك العصر زين رجال الفن الكريديون جدران القصر الملكي بكنوسس بصور يخيل الى الرائى أنها تتجسم فيها الحياة ، وأتقن صناعهم عمل الآنية اتقانا لم يبلغه الصناع المصريون . وتمثل تلك الصور مناظر الحياة الكريدية بكل تفصيلاتها : يرى فيها الناظر السيدات وملابسهن التي لا تكاد تختلف عن أحدث الملابس ولهوهن وغير ذلك من مناظر الحياة اليومية . وقد سكن الملوك والعظماء

مساكن الكريديين

فى مساكن من الحجر تتوافر فيها كل وسائل الراحة التى تجدها فى العالم اليوم مثل الحمامات وتقسيم المسكن الى غرف ومنافذ الاضاءة وتجديد الهواء وغير ذلك

خضوع كريد لمصر

وفى القرن الخامس عشر قبل الميلاد خضع الكريديون للسيادة المصرية وقد عثروا حديثا على صحن من الذهب محلي بالنقوش أهداه تحوتمس الثالث الى قائد من قواده عينه حاكما على جزر الارخبيل

انتشار الحضارة الكريدية

ثم انتشرت الحضارة الكريدية الى بلاد الاغريق ومن مراكزها هناك تيرينس وميسيني . وتعرف الحضارة هناك بالحضارة الميسينية . ويمتد عهد تلك الحضارة من ١٥٠٠ الى ١٢٠٠ ق . م

تروادة

وانتشرت قبل ذلك الى آسيا الصغرى حيث بنى الكريديون تروادة قبل أن يظهر ميسيني بألف سنة أى فى سنة ٢٥٠٠ ق . م وصار لملوك تروادة شأن لا يقل عن شأن ملوك كنوسس ؛ ولكن ملكهم لم يشمل إلا الساحل فكان

الحيثيون

معظم الهضبة فى يد الحيثيين ، وقد تقدم الكلام عليهم

وفى سنة ١٥٠٠ ق . م . أو بعدها بقليل أغار على كريد أقوام من الشمال وتغلبوا عليها وأحرقوا القصر الملكي بكنوسس ، ولكن الحضارة استمرت قائمة فى حالة ضعف خمسمائة سنة أخرى أى الى سنة ١٠٠٠ق.م. عند ما تجددت اغارة أهل الشمال ودمروا كنوسس تماماً . تدمير كنوسس اول مرة ١٥٠٠ ق ٠ م ٠ تدمير كنوسس النهائى ١٠٠٠ ق ٠ م ٠

والظاهر أن هؤلاء المغيرين الآتين من الشمال هم الدوريون المذكورين فى شعر هوميروس .

الفصل الثانى

قـــــــدوم الاغريق

الحضارة الاغريقية

بعد تدمير الحضارة الكريدية كانت فترة ساد فيها التبربر فى بحر الارخبيل وسواحله . واستمر الامر كذلك الى ان قامت الحضارة الاغريقية

اذا قورنت هذه الحضارة بحضارة مصر وبابل نجدها أقصر منها عهداً . فلا يدوم أزهى عصورها اكثر من مائتى سنة اذا اعتبرنا المدة بين سولون والاسكندر الاكبر ولكن لهاتين المائتى السنة أثرا خالدا فى تاريخ الانسان ، ففى أثنائهما ضرب الاغريق بسهم فى كل عناصر الحضارة من نظم سياسية وقانون وفنون وعلوم وآداب وفلسفة ، ووضعوا الاساس الذى قامت عليه الحضارة الحديثة .

وللاغريق ميزة أخرى هى أن تأثيرهم لم ينته بانقضاء عهد استقلالهم السياسى فقد نشرت فتوح الاسكندر حضارتهم فى بلاد الشرق ، وتتلمذ لهم الرومان بعدأن أخضعوهم لحكمهم فكانت الدولة الرومانية العظيمة إغريقية التمدين

من هم الاغريق

قدم الاغريق من مراعي وسط أوربا وأصلهم كما تقدم من المراعى قرب بحر قزوين ودخلوا شبه جزيرة البلقان حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . وقضوا نحواً من الف سنة فى الاستقرار فى شبه الجزيرة

الآخيون — الدوريون — الايونيون

وكانت أول القبائل قدوماً قبائل الآخيين التى توغلت جنوبا فى أرض البلوبونيز (بلادالمورة الآن) . وبعدهاقدمالدوريون حوالى عام ١٥٠٠ ق. م. وأخضعوا الآخيين والكريديين الذين تقدم وصف حضارتهم وأسسوا مدينة اسبرطة الشهيرة . وبين عامى ١٣٠٠ و ١٠٠٠ ق . م قدم الايونيون، وما حلت سنة ١٠٠٠ ق . م . إلا وقد استقروا جميعاً فى شبه الجزيرة والجزر وسواحل آسيا الصغرى .

الاغريق والكريديون

لا يعرف المؤرخون مصير الكريديين بعد تدمير حضارتهم ، ويحتمل أن اختلط معظمهم بالفاتحين . وكل ما يعرف أن الدوريين استولوا على كنوسس حوالى عام ١٥٠٠ ق . م ونقرأ فى أشعار هوميروس أو الياذته حصار أهل الشمال لمدينة ترواده . والثابت أيضاً أن تلك الاغارات المختلفة سببت قلقلة عظيمة بين سكان الشرق جميعاً ، فاضطربت دولة الحيثيين فى آسيا الصغرى وتحرك أقوام من أهل البحر نحو السواحل المصرية ، ولم يمنعهم عن مصر إلا بأس رمسيس الثالث ، واستولى القوم المعروفون بالفلسطينيين على ساحل فلسطين . وعلى ذلك فما حلت سنة ١٢٠٠ ق . م . إلا وقد ضعفت الحضارة الكريدية .

الدوريون يستولون على كنوسس

حصار ترواده

اثر الحضارة الكريدية فى الاغريق

كان الاغريق وقت قدومهم متبربرين لا يعرفون كتابة ولا زراعة وكانوا رعاة . ولا بد أنهم تعلموا الكثير من الحضارة الكريدية فأسسوا المدن وخضعوا الملوك وأخذوا بالمعتقدات الدينية الكريدية وخرافاتها .

اثر الفينيقيين

ولا بد أن يكونوا قد تعلموا أيضاً من الفينيقيين . وقد تقدم كيف كان الفينيقيون منتشرين اذ ذاك فلا بد أن اتصل الفريقان وقلد الاغريق الفنون والصناعات الفينيقية . وهذه كانت مصرية أو أشوريه أو بابلية الاصل . وعلى ذلك فمصدر الفن الاغريقى شرقى . وتعلم الاغريق أيضاً حروف الهجاء الفينيقيه حوالى عام ٩٠٠ ق . م .

بدء الفن الاغريقى الحروف الهجائية

المعتقدات الدينية

أما معتقداتهم الدينية فقد أخذوا الكثير منها عن الكريديين والفينيقيين وقد عرف المؤرخون الكثير عن هؤلاء الاغريق الاول من شعر هوميروس وهو رجل مكفوف البصر من جزيرة خيوس وصف حصار ترواده فى قصة شعرية طويلة . ولم تدون هذه القصه فى أيامه انما كان يتناولها الرواة ويحفظها الناس لشدة اعجابهم بها ، وتعرف هذه القصه بالالياذة . وتلحق بها قصه أخرى تنسب أيضاً لهوميروس واسمها الاديسيه وفيها وصف الشاعر ما جرى لأحد أبطال الحصار بعد الاستيلاء على ترواده الى أن عاد لبلاده . وللاغريق أيضاً قصص خرافيه شائقه كان يرويها الرواة المتنقلون من مدينة لأخرى ويتغنى بها المغنون فى الولائم والاجتماعات .

شعر هوميروس ٧٥٠ ــ ق . م .

الخرافات الاغريقية

الا لهة

ومن هذه الاشعار والقصص عرفنا أن الاغريق الاول كانوا يعتقدون أن آلهتهم تقطن جبل المبوس فى تساليا وأنهم كانوا ستة من الذكور وستة من الاناث ، كبيرهم زيوس وهو أبو الآلهة والناس ، ومنهم ابولو آله الموسيقى والنورو افرديتى آلهة الجمال .

الفصل الثالث

عهد الملوك (١٠٠٠ — ٧٥٠ ق ٠ م) وعهد الاشراف (٧٥٠ ـ ٦٠٠ ق.م)

المدن الاغريقية

لم يكن للاغريق من أول ظهورهم دولة واحـدة تجمعهم كلهم فى حكمها ولـكن كانت لهم دول كثيرة جداً لا تزيد أرض الواحدة منهـا عن مدينة واحدة . ولـكل منها ملـكها وشريعتها وجيشها ومعبدها وعبادتها . وهذا نظام سياسى لا تراه فى وقتنا الحاضر فالدولة الواحدة الآن تشمل مملـكة بأسرها وأحيانا تشمل أقطارا نائية عنها

لماذا لم تكن للاغريق دولة واحدة

و يفسر المؤرخون ذلك باسباب جغرافية : فبلاد الاغريق جبلية وسواحلها كثيرة الخلجان فيصعب قيام دولة واحدة فيها . والظاهر أن الاغريق ظنوا أن قيام الدولة الواحدة لا يتفق مع الحرية ، وأيدهم فى ظنهم ماراًوه من الاستبداد فى الدول الشرقية العظيمة مثل فارس

وليس معنى ذلك أن الاغريق كانو منفصلين انفصالا تاما بعضهم عن بعض ، فقد مرت بهم أزمات أدت الى اشتراك المدن المختلفة فى جهود واحده وقامت بينهم أيضاً احلاف من المدن لاغراض دينية تجارية ، فـكان هناك حوالى عام ١٠٠٠ ق. م . أربعة أحلاف . أقدمها حلف أرجوس الذى تغلب على ميسيني وتيرينس الـكريديتين واستولى على سهل أرجوس ، ومنهـا حلف لاكونيا أو اسبرطة الذى استولى على الاجزاء الجنوبية من شبه جزيرة البلقان المعروفة باسم البلو بونيز ، وكان فى الشمال حلفان أولها حول مدينة أثينا اسمه اتيكا والآخر حول مدينة طيبة الاغريقية واسمه بوشيا .

حلف ارجوس

حلف لاكونيا

حلف اتيكا

حلف بوشيا

مظاهر الوحدة الاغريقية

١ـ الالعاب الالمبية

ومما أظهر الوحدة الاغريقية الالعاب الالمبية ، وأول ماعقدوها كان فى عام ٧٧٦ ق. م صارت بعد ذلك تقام كل أربع سنين مرة ويتبارى فيها اللاعبون من أنحاء البلاد . و بلغ من قيمتها عندهم أنهم كانوا يؤرخون الحوادث بها .

٢ ـ المجامع الدينية — وكانت أيضاً المجامع الدينية العامة يجتمع فيها الاغريق من مختلف المدن في صعيد واحد ومن أشهرها اجتماعهم السنوى فى جزيرة ديلوس للاحتفال بابولو.

٣ ـ وحدة اللغة — وللاغريق أيضاً لغة واحدة وإن تعددت لهجاتهم

٤ ـ اشعار هوميروس — ولهم أيضاً أشعار هوميروس وهى تراث الاغريق جميعاً يحفظها خاصتهم وعامتهم بذلك كله شعر الاغريق أنهم أمة واحدة على الرغم من استقلال مدنهم بعضها عن بعض، وأتخذوا لانفسهم إسما واحدا هو أبناء هلاس، وكانوا فى نظر أنفسهم هم الناس ومن عداهم من الخلق برابرة

مميزات هذا العهد من تاريخهم — ولهذا العهد من تاريخهم مميزات: أولها التطور السياسى فى المدن الاغريقية، فحدث فيها خلع الملوك واتخاذ حكم الاشراف بدل الملوك، ثم اغتصب الحكم فيها مغتصبون، وتخلص العامة من حكم المغتصبين واستولوا على أزمة الحكم فصار الحكم فى المدن ديموقراطيا أى حكم العامة

١ ـ التطور السياسي

٢ ـ الاستعمار — وثانيها الاستعمار بين عامى ٧٥٠ و٦٥٠ ق. م.

٣ ـ نمو الحضارة — وثالثها ارتقاء الصناعات والفن والآداب واصطباغها بصبغة جديدة مبتكرة بعد تعلمهم أصولها من الكريديين والفينيقيين .

نمو الحكم الديموقراطى — تقدم أن الملوك كانوا أول من حكم المدن، وكانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة؛ ولكن على الرغم من ذلك لم يكونوا تامى السلطة فقد كان بجانبهم مجلسان أحدهما للشيوخ والآخر لاحرار الناس . وقد بقى هذا النظام حتى عام ٧٥٠ ق.م وفى بعض الجهات ظلت الملكية قائمة أبداً مثل مقدونيا واسبرطة.

وحوالى ٧٥٠ ق.م الغيت الملكية فى أكثر المدن الاغريقية وحل محلها النظام الارستقراطى أو حكم الاشراف . وقد استمرت الارستقراطية فى بعض المدن ولكنها تحولت إلى الديموقراطية فى أكثر الجهات وصار الحكم فى أيدى العامة غير الارقاء الذين كانوا كثيرى العدد وغير الاجانب .

وقبل أن تنتصر الديموقراطية حدث أن السلطة كان يغتصبها رجل واحد، ومن المغتصبين من شجع الفنون والآداب وكان عادلا فى حكمه و بعد القرن السادس قبل الميلاد لم يكن هناك مغتصبون إلا فى بعض المستعمرات الاغريقية كصقلية

الفصل الرابع

الاســــتعمار الاغريقى

فضل الفينيقيين

للفينيقيين فضل تعليم الاغريق كيف يصنعون السفن وكيف يسيرونها لما تم ذلك انتشر الاغريق فى البحار .

بواعث الاستعمار

دفعهم لذلك نزاع الاحزاب السياسية فى المدن ورغبة المغلوبين فى عراك السياسة فى النزوح الى أرض غريبة بعيدين عن اعدائهم . وكان الاتجار أيضا باعثا قويا ، فأسسوا لهــذا الغرض مستعمراتهم فى البحر الاسود ، ومن أشهرها بيزنطة التى أنشئوها سنة ٦٥٧ ق .م. ومن أجل التجارة أيضاً حلوا فى قبرص وسكنوا نوقراطيس فى مصر ([illegible])

بيزنطة ٦٥٨ ق . م

نوقراطيس

جنوب ايطاليا

اتسعت حركة الاستعمار وامتدت غربا فسكن الاغريق جنوب ايطاليا حيث كانت مستعمراتهم تعرف باسم ماجنا جريشيا ، وعلموا أصحاب البلاد الأصليين كتاباتهم وفنونهم .

سيراكيوز ٧٣٤ ق . م

وسكنوا أيضا جزيرة صقلية وانتزعوا فيهــا مستعمرة سيراكيوز من أصحابها الفينيقيين فى سنة ٧٣٤ ق.م. وناصبوا قرطاجنة العداء مناصبة الند للند

ساحل آسيا الصغرى وجزر الارخبيل

وتحول ساحل آسيا الصغرى وجزر الارخبيل الى بلاد إغريقية صرفة .

و بلغ من نشاطهم انهم استعمروا فى ساحل غالة (فرنسا) الجنوبى ، ومدينة مارسيليا الحالية اصلها ماسيليا المستعمرة الاغريقية .

ماسيليا

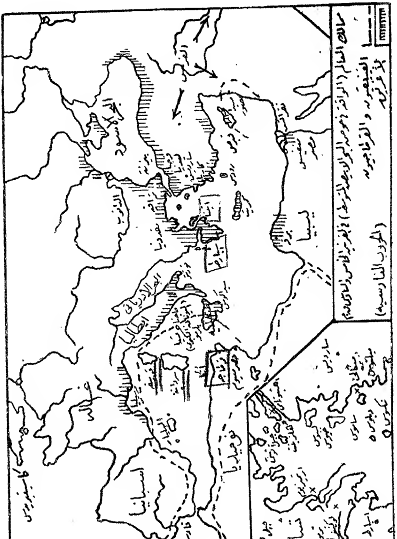
العلاقة بين المستعمرات والبلاد الاصلية

ومن أخص مايذكر عن الاستعمار الاغريقى أن المستعمرات كانت مستقلة عن البلاد التى أنشأتها ، فكانت العلاقة بينها علاقة حب وصداقة كالعلاقة بين أفراد اسرة واحدة مستقل بعضهم عن بعض ولاتربطهم إلا أواصر القرابة

نشطت التجارة باتساع نطاق الاستعمار وأثرى الاغريق ، فتطلبوا الجديد

فى الفن والصناعة وأنتحوا فيها نحواً لم يسبقهم اليه أحد ، وارتقت فى أيديهم صناعة السفن ، وتم لهم فى آخر الأمر انتزاع التجارة من الفينيقيين .

وكانت هنالك أيضاً نتائج اقتصادية وسياسية : منها أنهم سكوا النقود واستعملوها بدلا من المقايضة ، ومنها ظهور ذوى الثراء من التجار وكسرهم شوكة الاشراف :



الفصل الخامس

عهد المغتصبين (٦٠٠ — ٥٠٠ ق . م .)

المغتصبون

أصل الاغتصاب أنه فى أثناء النزاع بين الاشراف والعامة كان ينتهز الفرصة بعض ذوى الاطماع من الاشراف فيترك أهل طبقته ويتولى زعامة التجار والعامة ضدهم ، ويتدرج بذلك إلى اغتصاف السلطة فى المدينة لنفسه.

نجد ذلك النوع من الحكم سائداً حوالى عام ٦٠٠ ق . م . فى أ كثر المدن ومن بينها أثينا .

سولون

وكيفية حدوثه فى أثينا أنه فى سنة ٥٩٤ ق. م. كان بينها وبين مدينة مجارا نزاع شديد على امتلاك سلاميس ، فقام بين الاثينيين سولون وهو شريف أثرى بالتجارة واستنفر قومه وأثار ثائرهم بالخطب والشعر ، فانتزعوا سلاميس من المجاريين ، وأحبوا سولون حباً جماً وأسلسوا له قيادهم ، فوضع قوانين جديدة لاصلاح حال الفلاحين وأهل الطبقة الوسطى . وكان تشريعه هذا خطوة فى سبيل الديموقراطية لأنه أدى إلى تساوى الناس فى نظر القضاء ثم وضع لاثينا دستوراً مهد لاشتراك العامة فى الحكم ، وبعد ما أتم عمله نزل عن سلطته بمحض رغبته .

بيزيستراتوس

ووقعت السلطة بعده من عام ٥٤٠ ق . م . إلى ٥٢٨ ق. م. فى يد بيزيستراتوس وكان حاكما عادلا . ولكن ابنيه بعده لم يكونا على شاكلته فثار الناس ضدهما وصار صاحب الأمر كليسثينيس . وقد تم هذا نقض النظام

كليسثينيس — النفى

الارستقراطى فقضى على سلطة الاشراف . ومن غرائب تشريع كليسثينيس أنه سن قانوناً يجيز نفى من تقضى كثرة الأثينيين باقصائه عن وطنه لمدة عشر سنوات .

تقدم الحضارة

تقدمت الحضارة في عهد المغتصبين ، فظهر شعراء مختلفون منهم بندار ومنهم سافو وهى امرأة شاعرة وعظم فن التمثيل وهو فن سيكون له شأن أيما شأن فى الأدب الأغريقى . وارتقى كذلك فن البناء وصنع التماثيل والآنية . وابتدأ الاغريق يبحثون فى الفلسفة والعلم ، ومن أشهر الفلاسفة الاول ثاليس ومن الرياضيين فيثاغورس

الفصل السادس

الكفاح بين الفرس والاغريق

٥٠٠ — ٤٧٩ ق. م.

تقدم القول كيف فتح كورش ملك الفرس مملكة ليديا الاغريقية فى عام ٥٤٦ ق. م. وقد كان من أثر ذلك أن تقابل الفرس والاغريق فى آسيا الصغرى وجهاً لوجه ، وذلك لأن اخضاع الليديين مكن الفرس من المستعمرات الاغريقيه فى آسيا الصغرى

ثم مد قمبيز حكم دولته فشملت المدن الفينيقية وقبرص ومصر ومستعمرات الاغريق فى افريقية .

وفى عام ٥١٣ ق . م تقدم الفرس نحو أوربا فغزا دارا تراقيا فى شبه جزيرة البلقان .

بذلك كله أصبح الفرس يحيطون بالاغريق احاطة السوار بالمعصم ورأى الاغريق أن أعداءهم لا يهددون متاجرهم فقط بل أن استقلالهم وحضارتهم باتا تحت رحمة ملك الشرق العظيم . فكافحوه لا للنفوذ والغنى ولكن للدفاع عن أعز ما تملك أمة (الحرية)

ثورة الاغريق فى آسيا الصغرى

بدأ الكفاح لما قامت المدن الاغريقية فى وجه الفرس فى سنة ٥٠٠ ق.م وأرسل الاثينيون مدداً للثوار نجح فى تخليص سرديس عام ٤٩٩ ق . م هاج ذلك دارا فصمم على تأديب الاغريق ، و بلغ من عزمه أن أمر أحد أتباعه أن يكرر أمامه كل يوم : « مولاى ! لا تنس الاثينيين . »

اخماد الثورة

و بعد عراك ست سنين تمكن دارا من اخماد الثورة فى آسيا الصغرى وخرب المدن وسبى أهلها ، وأعد العدة بعد ذلك لعقاب الاغريق أنفسهم

الحملة الفارسية الاولى — قامت الحملة الفارسية الأولى فى عام ٤٩٢ ق.م. ولكن الحظ خدم الاغريق فثارت عاصفة شتتت السفن الفارسية وأفسدت تدبير دارا .

٤٩٢ ق.م.

الحملة الثانية — و بعد ذلك بسنتين أعاد دارا الكرة . ونجح فى انزال جيشه عند ماراثون وتقابل الجيشان فى سهل ماراثون .

٤٩٠ ق.م.

ماراثون — لم يكن للاثينيين فى تلك الواقعة من مساعد سوى مدينة بلاتيه الصغيرة وكانوا أقل من الفرس عدداً ، ولكن كان لهم فى ملتيادس قائد ماهر . وكانوا على عكس الفرس شعباً حراً يحكم نفسه بنفسه وكانوا على عكس الفرس أيضاً يحاربون لا للفتح والغلب ولكن للدفاع عن وطنهم وأعراضهم وحريتهم .

انتصر الاغريق فى ماراثون . وقد قدر هيرودوت خسارة الفرس بستة آلاف رجل والاغريق بمائتين .

ولانتصار الاغريق أثر كبير فى تاريخ العالم : إذ أن ذلك الانتصار حفظ لهم حريتهم ومكنهم من توريث العالم كله من غرب وشرق آراءهم فى السياسة والدين والعلم والأدب والفن والفلسفة .

الحملة الثالثة ٤٨٠ ق.م — ويؤيد هذا الانتصار رأى القائلين بأن حسن النظام والحماسة الوطنية قد يبلغان مالا تبلغه كثرة العدد وكمال العدة .

تموستوكليس — مات دارا قبل أن يثأر لنفسه ، فقام ابنه احزركسيس بحملة فى عام ٤٨٠ ق.م وكان الاغريق فى تلك الاثناء قد أعدوا عدتهم ، وذلك أن أحد كبار ساستهم ثموستوكليس تمكن من اقناع الاثينيين بضرورة إعداد قوة بحرية كبيرة حتى تكون الحرب براً وبحراً .

واقعة ترموبولية — تقدم الفرس براً نحو أثينا ولم يبق عليهم الوصول اليها إلا اجتياز مضيق من الارض بين الجبال والبحار . ذلك هو مضيق ترموبولية . وقد وقف لحراسته ليونيداس ملك اسبرطة . ولكن خائنا من الاغريق دل الفرس على مسالك فى الجبال تمكنوا بها من الاحداق بليونيداس وجنده . وتركه معظم رجاله ولم يبق معه إلا ثلاثمائة اسبرطى قاوم بهم الآلاف من الفرس إلى أن فنوا جميعاً وتقدم الفرس على اثينا واستولوا عليها ودمروها

وهنا ظهرت حكمة ثموستوكليس . فان السفن الاثينية دمرت الاسطول الفارسى عند سلاميس . وعاد اجزركسيس الى بلاده موليا القيادة مردونيوس — واقعة سلاميس

وفى العـام التالى استأنف مردونيوس القتال ، فانتصر عليه الاغريق انتصاراً حاسما فى واقعة بلاتيه حيث قتل مردونيوس فى سنة ٤٨٩ ق . م . — واقعة بلاتيه

وفى تلك السنة أيضاً انتصر الاغريق بحراً فى واقعـة ميكالى . وبعدها عدل الفرس تماماً عن اعادة الـكرة واحتفظ الاغريق باستقلالهم — واقعة ميكالى

الفصل السابع

حلف ديلوس وملك اثينا

اشترك الاغريق كلهم فى الدفاع عن بلادهم، ولكن اثقل الاعباء كان على اثينا . فلا عجب اذا أصبح لها بعد هزيمة بلاتيه مركز خاص ورياسة بين المدن الاغريقية . واتجهت سياستها بعد انتهاء الكفاح مع فارس الى الاحتفاظ بهذه الرياسة . فتكونت من مدن آسيا الصغرى وجزر الارخبيل حلف تحت زعامتها، واتفقت معها على أن تقوم كل مدينة بتقديم عدد معين من السفن أو مقدار معين من المال كل سنة نحو الدفاع عن الاستقلال . ويعرف هذا الحلف بحلف ديلوس نسبة للجزيرة بهذا الاسم حيث كانت خزانة الحلف، وتقرر ان يجتمع كل عام مندوبون من المدن المختلفة للبحث فيما يهمهم من الامور .

حلف ديلوس ٤٧٧ ق . م

ولم يلبث الاثينيون بعد ذلك طويلا حتى تحركت فى نفوسهم الاطماع فأخذوا يعملون على تحويل الحلف عن حقيقته وجعله ملكا لاثينا ، وأشاروا على حلفائهم أن لا يقدموا للحلف سفناً بل مالا . ثم انفقوا ذلك المال فى تقوية بحريتهم وأصبحوا بذلك من القوة بحيث ضعفت المدن الاخرى ضعفاً كبيراً وخضعت لاثينا خضوعاً لا يتفق مع تساوى الحليفات .

ملك اثينا

وبعد ذلك كشف الاثينيون عن سياستهم الحقيقية فنقلوا خزانة الحلف من ديلوس الى اثينا وانفقوا منها كما يشاءون .

الفصل الثامن

عصر بريكليس

٤٦٠ — ٤٣٠ ق . م .

الحرب بين اثينا واسبرطة

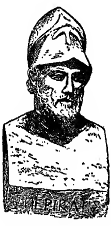
أثار ملك أثينا واستبدادها بحلف ديلوس ثائرة الغيرة والخوف والغضب فى المدن الاغريقية الكبيرة وعلى الاخص فى مدينة اسبرطة ، وكان أهلها يرون انهم ليسوا أقل من الاثينيين جدارة بالزعامة بين الاغريق . وتهيأت بذلك أسباب الحرب بين أثينا واسبرطة ، ولم تنته إلا بعد أن ضعف الاغريق جميعاً وزال ملك أثينـا .

سيمون

ثموستوكوليس

ولما بدأ النزاع بين المدينتين انقسم الاثينيون الى فريقين : فريق رأى تجنب أسباب الخصام وحبذ المسالمة وكان على رأسه سياسى اسمه سيمون ، وفريق رأى وجوب العمل على حفظ الزعامة لاثينا ولو أدى ذلك الى الحرب وكان على رأسه ثموستوكوليس وفى عام ٤٧١ ق . م هُزمَ ثموستوكوليس وأبعد عن اثينا . وبعد ذلك بعشر سنين نفى سيمون

بريكليس



شكل (١٨) بريكليس.

وظهر بذلك سياسى عظيم هو بريكليس

كان بريكليس على رأى ثموستوكوليس فى وجوب مناصبة اسبرطة العداء وبسط سلطان الاثينيين على الاغريق جميعاً . وقد نجحت سياسته وصارت مدة زعامته من ٤٦٠ الى ٤٣٠ ق . م . عصراً ممدوداً . ولكن بعد موته ظهرت نتيجة سياسته فانفرجت مسافة الخلف بين اثينا واسبرطة وقامت بينهما حرب دامت ثلاثين سنة انتهت بسقوط اثينا كما تقدم .

اثينا فى عصر بريكليس الديموقراطية

حوّل بريكليس الحكم فى اثينا الى ديموقراطية تامة ، فجرد مجلس الشيوخ من السلطة ووضعها فى مجلس من خمسمائة عضو منقسمين الى عشرة أقسام كل منها مكون من خمسين رجلا وتتناوب الاقسام العشرة الحكم .

وقرر أيضاً أن يكون التوظف بالاقتراع فمن خدمه الحظ فيه نال وظيفة . واستثنى من ذلك النظام قيادة الجيش وقت الحرب ولكنه لم يستثن منه القضاء

وعدا ذلك كان هناك مجلس عام لكل الاحرار اشتراك فيه يجتمع ثلاث مرات فى الشهر الواحد ويرأسه بريكليس .

وكان للاثينيين شغف شديد بالمناقشات السياسية وتقدير كبير للفصاحة فى الخطابة فكان يسود الجم الغفير منهم فى اجتماعات المجلس الانتباه التام وعلى الأخص اذا كان المتكلم بريكليس وقد بلغ مابلغ اليه بمقدرته الخطابية

موازنة بين الديموقراطية الاثينية والديموقراطيات الحديثة

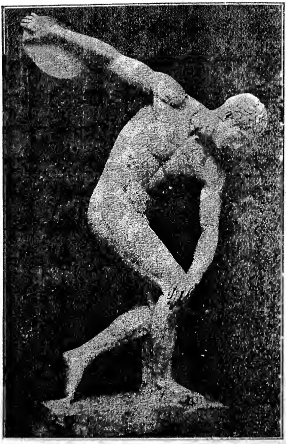
تقوم الديموقراطيات الحديثة فى ممالك قد يبلغ سكانها الملايين مثل انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة على حين كانت الديموقراطية الاثينية لا يزيد عدد سكانها عن بضعة آلاف . فعلى ذلك لا يوجد فى الوقت الحاضر مجالس عامة كالذى وصفناه فى اثينا ، إذ لا يمكن للملايين الانجليز والفرنسيين أن يجتمعوا فى مكان واحد كما أمكن آلاف الاثينيين . وكل ما يمكنهم عمله هو أن ينتخبوا مندوبين عنهم لا يزيدون عن بضع مئات ويتكلمون بلسان قومهم. فعلى ذلك تقوم الديموقراطيات الحديثة على فكرة النيابة السياسية .

وتختلف الديموقراطيات الحديثة أيضاً عن اثينا فى أمر التوظف : فالاقتراع على الوظائف قد يؤدى الى حلول غير الاكفاء فى وظائف الدولة وعلى الأخص فى الوقت الحاضر الذى كثرت فيه أعمال الحكومات واستلزم تشعب الادارة كفاية خاصة فى الموظفين . فعلى ذلك لا يقترع فى الديموقراطيات الحاضرة لا على وظائف الدولة ولا على مناصب القضاء

وقد تمكن الاثينيون من القيام بنصيبهم فى الحكم لوجود الرق بينهم. فيلزمنا تذكر أن الاحرار فى اثينا كانوا قليلين اذا قرنوا بالارقاء المحرومين من كل حق سياسى . أما الديموقراطيات الحديثة فليس فيها استرقاق أبداً .

الحضارة الاثينية فى عصر بريكليس

لم تظهر عيوب الديموقراطية الاثينية أيام بريكليس لعظم نفوذه السياسى وحسن قيادته لها . وقدأخفاها أيضاً ما بلغه الاثينيون أيامه فى الفنون والآداب

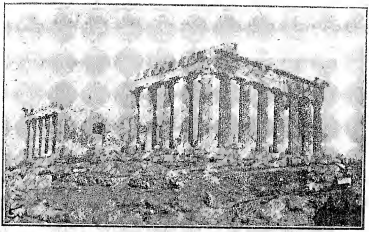


شكل (١٩) قاذف « القرص » : مثال من الفن اليونانى

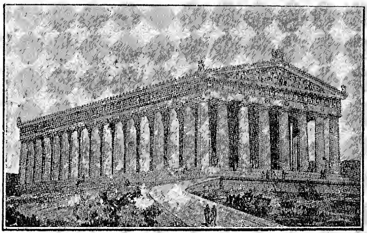
فيدياس

فبنوا المعابد الفخمة ومن أشهرها البارثينون الذى زينه فيدياس باجمل المناظر . وهذا المعبد فوق تل عال مشرف على أثينا يعرف بالاكروبوليس ، وجعلوا خارجه تمثالا للمعبودة أثينا ارتفاعه سبعون قدما يرى على مسافة كبيرة .

واهتم بريكليس اكبر اهتمام بالتمثيل لما فيه من تربية الذوق السليم، فكان بالقرب من الاكروبوليس مسرح ديونيسيوس وهوعظيم يسع ٣٠٠٠٠ شخص .



شكل (٢٠) البارثينون فى حالته الراهنة



شكل (٢١) البارثينون كما كان

وكانت تمثل فيه الروايات التى وضعها اسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس واريستوفانيس . ولا يزال الناس يعجبون اعجاباً كبيراً بما كتبه هؤلاء الرجال العظام .

الفصل التاسع

الحرب بين أثينا واسبرطة

٤٣١ — ٤٠٤ ق . م .

تقدم ذكر ما اثارته عظمة اثينا من الغيرة ، وانها ادت الى حرب طويلة بينها وبين اسبرطة دامت من ٤٣١ الى ٤٠٤ ق. م . وقد شطرت تلك الحرب الاغريق شطرين ، فانضمت الي اسبرطة مدن البلوبونيز والاجزاء الوسطى من بلاد الاغريق وانتصرت لاثينا الجزر

اسباب الحرب

وبين اثينا واسبرطة اختلاف كبير : فاثينا وحليفاتها أهلها أصلهم ايونيون أما أهل اسبرطة وحليفاتها فهم من نسل الدوريين ، وبينما اثينا يسود فيها الحكم الديموقراطي نجد اسبرطة تسود فيها الارستقراطية .

الاختلاف بين أثينا واسبرطة

وفى هذا الاختلاف تفسير لطول مدة الحرب وللوحشية التى ظهرت فيها .

تفرغ الاسبرطيون طول تاريخهم لاتقان فن الحرب فكانوا لاتهمهم السياسة ولا الاداب ولا الفنون ولا التجارة . وكانوا ثلاث طبقات : الطبقة الاولى كانت مكونة من الاسبرطيين الاصليين وعددهم نحو ٩٠٠٠ وكان لهم مركز خاص فى المدينة وليس لهم عمل الا التأهب للقتال ويعيشون من عمل الطبقتين الثانية والثالثة . وكانت الطبقة الثانية مكونة من نحو ٣٠٠٠٠ شخص أحرارا أنما ليست لهم حقوق سياسية يزرعون الارض ويتاجرون . وربما كانوا من نسل أصحاب البلاد الاصليين الذين تغلب عليهم الدوريون اجداد الاسبرطيين . أما أقل الطبقات شأناً وان كانت أكثرها عدداً فكانت طبقة الارقاء ويبلغ عددهم نحو ٢٠٠٠٠٠ شخص .

اسبرطة

ذكر بلوتارخس صاحب التراجم الاغريقية والرومانية المشهورة أن الحكومة الاسبرطية من وضع مشرع اسمه ليكرجس عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وكان فى اسبرطة ملكان يقومان بقيادة الجيش ويرأسان الحفلات الدينية

الحكومة الاسبرطية

ولكن لم يكن لهم من الأمر أكثر من ذلك ، فإن مجلس الشيوخ وأعضاؤه ثمان وعشرون من الاشراف كان أكبر منهما سلطة ، إذ كان من حقه وضع القوانين و بعد الانتهاء منها تعرض على مجلس عام من الاسبرطيين أهل الطبقة الاولى فقط . وكان ذلك المجلس العام يجتمع مرة فى الشهر الواحد ويختلف عن مثيله فى أثينا فى أنه لم يسمح فيه بالمناقشات ، بل كل الامر أن أعضاءه يرفضون أو يوافقون . وقد سمح لهم بانتخاب خمسة موظفين يعرف الواحد

الايفورس

منهم باسم ايفور وكانت مهمتهم مراقبة سير الملوك والحكام .

التربية الاسبرطية

كانت مدينة اسبرطة شبيهة بثكنة عسكرية ؛ فلم تكن فيها معيشة منزلية ، اذ كان الرجال يتناولون طعامهم على موائد عامة . وكان الاطفال يؤخذون و يعرضون للبرد فى العراء ، ومن سلم منهم تعهدت الدولة بتربيته تربية عسكرية محضة بعد بلوغه السابعة من العمر . وكانت الحكومة تتعمد تعويدهم تحمل الألم بلا شكوى : فمن ذلك أن الاولاد كانوا يجلدون علنا فاذا أنّ أحدهم سقط فى نظر رفاقه . ومن ذلك أيضا أنه كان يمنع عنهم الاكل فاذا وجد أحدهم يسرق طعاما عوقب على اخفاقه فى اخفاء السرقة عقابا قاسيا . ولم تهمل الحكومة الاسبرطية تعويد البنات على الالعاب العنيفة فكن فى اسبرطة على عكس مثيلاتهن فى أثينا حيث كانت البنات لا يقمن الا بالاعمال المنزلية ولا يختلطن بالرجال

الحرب الاولى ٤٥٩ — ٤٤٥ ق . م

بدأت الحرب فى عام ٤٥٩ ق . م . واستمرت الى ٤٤٥ ق . م . ولم ترجح فيها كفة فريق على كفة الفريق الآخر ، وانتهت على ذلك بهدنة حددت مدتها بثلاثين سنة .

وفى اثناء تلك الهدنة اتبعت أثينا سياسة خرقاء وأخذت حليفاتها بلا هوادة واشتطت معهن فى جميع الاتاوات . ولم تكتف بذلك بل تدخلت بين كورنثة واحدى مستعمراتها . واستغاثت كورنثة باسبرطة ضد أثينا ، فلبت اسبرطة الاستغاثة ، فقامت الحرب الثانية .

الحرب الثانية تبتدىء عام ٤٣١ ق . م

وصف هذه الحروب مؤرخان عظيمان لكتبهما قيمة كبيرة الى الآن هما نيوسيديس وزينوفون . وقد مرت هذه الحرب فى أدوار ثلاثة : ينتهى الدور

الاول فى ٤٢١ ق م . أى بعد عشر سنين ، ويستمر الثانى من ٤١٥ الى ٤١٤ ق م وفيه هزمت اثينا هزيمة بحرية عظيمة ، وفى الدور الثالث أغارت اسبرطة على اثينا واستولت عليها فى عام ٤٠٤ ق . م .

الدور الاول ٤٣١ — ٤٢١ ق . م

اعتمدت أثينا على قوتها البحرية إذ أن جيشها كان أضعف كثيرا من جيش أعدائها فعلى ذلك لما غزت اسبرطة الارض حول أثينا المعروفة باسم اتيكا أشار بريكليس على سكانها أن يتركوا قراهم ويلتجئوا داخل أسوار أثينا ، وفى أثناء ذلك هجمت السفن الاثينية على سواحل البلوبونيز وحاصرت كورنثه حليفة اسبرطة وقطعت تجارتها

ولكن ذلك لم يمنع الاسبرطيين من التقدم براً فى اتيكا حيث أحرقوا الحرث والنسل كما فعل الفرس قبلهم . وقد روى المؤرخ تيوسيديس قطعة رثاء خالدة عن لسان بريكليس رثى فيها من سقط فى الحرب من الاثينيين ، ووصف فيها الحضارة الاثينية ومرامى السياسة الاثينية وصفاً بليغـا . وقد جاء فيها قوله « العـالم بأجمعه قبر العظماء وذكراهم منقوشة على صفحات القلوب لا على الاحجار »

وقد أدى ازدحام اللاجئين فى اثينا الى انتشار طاعون فتك باكثر السكان ، وكان بريكليس نفسه من ضحاياه .

موت بريكليس ٤٢٩ ق.م .

وبعد موته استمرت الحرب ثمانية أعوام أخرى بلا نتيجة ظاهرة . وقد خلا الجو بموته فظهر فى أثينا زعماء وصلوا الى ما وصلوا اليه بتملق العامة والتغرير بهم . وقد سخر اريستوفانيس فى رواياته التمثيلية من هؤلاء الزعماء المضللين بالشعب . وانتهت الحرب عام ٤٢١ ق . م كما تقدم

السيباديس

الدور ...

الحملة على سيراكيوز ٤١٥ ق . م .

ثم ظهر فى اثينا زعيم جديد هو السيبياديس من أقرباء بريكليس وكان طائشا نزقا أدت سياسته إلى نشوب الحرب . وقد أشار بارسال حمـلة ضد سيراكيوز فى جزيرة صقلية . وقد أثبت ما حدث فساد رأيه فان الحملة الاثينية المكونة من ١٣٤ سفينة و ١٠٫٠٠٠ جندى باءت بالخذلان التام فقد تمكنت سيراكيوز بمساعدة اسبرطة من ارغام السفن الاثينية على التسليم ومن قتل

قواد الجيش وأسر ٧٠٠٠ جندى وفر السيبياديس من غضب قومه ولجأ الى أعدائهم الاسبرطيين .

اسبرطة تغزو اتيكا

قضت هذه الضربة على قوة أثينا ، فغزت اسبرطة أرض اتيكا ، ووجدت أثينا نفسها مجردة من القوة منفضة عنها حليفاتها فسلمت فى عام ٤٠٤ ق . م. وتعهدت بتهديم حصونها والتخلى عن مستعمراتها وحالفت اسبرطة محالفة الضعيف للقوى . وبذلك انتهى ملك اثينا

تسليم أثينا ٤٠٤ ق.م

زعامة اسبرطة ٤٠٤ — ٣٧١ ق . م

وأصبحت اسبرطة زعيمة الاغريق ، ولكنها لم تتمكن من الاحتفاظ بزعامتها مدة طويلة ، فقد كانت شديدة على الاغريق تسلك بهم طريق العسف فانتهزوا الفرصة اشتبا كها بفارس فى حرب عام ٣٩٤ ق. م. للاتحاد عليها تحت زعامة مدينة طيبة ، وهزموها فى عام ٣٧١ ق. م. بفضل القائد الطيبى العظيم ابا ميننداس فى واقعة لكترا ، وحلت محلها فى الزعامة طيبة . وانتهت الزعامة الطيبية بموت ابا ميننداس فى عام ٣٦٢ ق . م .

فشل الوحدة الاغريقية

مغزى ذلك كله أن اثينا ثم اسبرطة ثم طيبة فشلت فى تحويل الاغريق الى أمة متحدة ، وأن الاغريق على تفوقهم العقلى لم يعرفوا كيف يوحدون صفوفهم حتى عند مادهمهم المقدونيون ، وأن عظمتهم تتجلى فى فنونهم وآدابهم وفلسفتهم ولا تتجلى فى سياستهم فقد أظهروا فيها قصر نظر كبير وتغليبا للعواطف المحلية على مصلحة الجنس الاغريقى كله .

الفصل العاشر

عظماء كتاب القرن الخامس

قبل الكلام على زوال استقلال الاغريق على يد المقدونيين تجب الاشارة الى النهضة الفكرية التي امتاز بها القرن الخامس قبل الميلاد على سائر العصور .

أشهر مؤلفي الروايات التمثيلية أربعة : اسكيلس وسوفوكليس و يوريبيدس واريستوفانيس .

اسكيلس ٥٢٥ — ٤٩٦ ق.م

عاش اسكيلس في ذلك العصر العظيم عصر الجهاد الوطني ضد فارس وقد شهد بنفسه واقعتي ماراثون وسلاميس

وأشهر رواياته ثلاث : «الفرس» و «اجاممنون» و «بروموثيوس المغلول» وموضوعها كلها كيف يحل غضب الآلهة بمن تكبر و بغى. فوصف في «الفرس» مثلا كيف اذلت الالهة اجزركسيس وخلصت أبناء هيلاس

سوفوكليس ٤٩٦ — ٣٠٥ ق.م

وقد ولد سوفوكليس بعد اسكيلس وفي حداثة سنه احرز قصب السبق عليه في مباراة أدبية . و يقول بلوتارخس ان ذلك ساء اسكيلس وحداه على النزوح الى صقلية . ومن أهم روايات سوفوكليس « اديبوس تيرانوس » و « انتيجونى » وموضوعها قصص ملوك طيبة الاول . وفلسفة سوفوكليس لاتختلف عن فلسفة اسكيلس .

يوريبيديس ٤٥٠—٤٠٦ ق.م

وكان يوريبيدس معاصرا لسوفوكليس وكان أحب الكتاب للشعب وطبقت شهرته آفاق العالم الاغريقي ، وكان أجرأ من زميليه فشك في الديانات القائمة وفي قدرة الآلهة وفي عملها على خير الانسان

اريستوفانيس ٤٥٠ — ٣٨٠ ق.م

وقد تجلت روح الشك في اريستوفانيس . وأظهر مافي رواياته قدرته على السخرية فسخر من كل من أراد حتى من الآلهة ، وتهكم حتى على يوريبيدس

نفسه ولكنه اختص باحد سهامه الزعماء الذين ظهروا بعد موت بريكليس وبين أن فصاحتهم جعجعة بلا طحن ، وكشف عن ضعة أصلهم وسوء رأيهم وتذبذبهم . وأشهر رواياته «السحب» و «الفرسان» و «العصافير» .

المؤرخون

وقد ظهر من المؤرخين هيرودوت وثيوسيديس وزينوفون

هيرودوت
٤٨٤ – ٤٢٥ ق . م

أما هيرودوت فقد سبق الكلام عليه ، ويختلف عنه ثيوسيديس مؤرخ الحرب بين اثيناواسبرطة اختلافا كبيرا فبينما كان همّ هيرودوت جمع الاخبار وعلى الاخص الغريب منها كان أكبر ماعنى به ثيوسيديس تحرى الاسباب وضبط الوقائع واستخلاص عبرها مع حسن تبويب وبلاغة فى التعبير .

ثيوسيديس
٤٧١ – ٤٠٠ ق . م

زينوفون
٤٤٥ – ٣٥٥ ق . م

عاش زينوفون فى عصر يوريبيديس وكان قائدا كما كان كاتباً . خرج فى عام ٤٠٠ ق .م. مع جماعة من الاغريق يبلغون عشرة آلاف رجل ودخلوا فى خدمة أحد الأمراء الفارسيين وكان فى حرب مع مليكه ، وانتهى الأمر بهم الى الجلاء عن فارس فتقهقروا حتى منابع الدجلة فى الجبال ، ومنها وصلوا سواحل البحر الاسود بعد أن قاسوا هولا كبيراً . وقد وصف ذلك التقهقر فى كتاب قيم . وله كتاب آخر خلد فيه ذكرى الفيلسوف سقراط .

الفلسفة

والاغريق فى تاريخ الفلسفة مقام خاص .

فيثاغورس
٥٨٠ – ٥٠٠ ق . م
انا كسا جوراس
٥٠٠ – ٢٧٤ ق . م

تقدم ذكر فيثاغورس ، وكان يعلم أن الارض كروية وأنها تدور حول الشمس . ومن الفلاسفة انا كساجوراس وقد شك فى وجود الآلهة وقرر أن العقل هو منظم هذا الكون . وبحث آخرون فى أصل المادة والعالم وجاء فى بحثهم كلام على التطور بين المخلوقات

السفسطائيون

ومن الفلاسفة طائفة السفسطائيين وكانوا يشتغلون بتعليم اللغة والخطابة ولهم آراء خاصة فى الفلسفة . وقد مهدوا لظهور أكبر فلاسفة العالم القديم : سقراط وافلاطون وأرسطو .

سقراط

كانت طريقة سقراط فى التعليم الحوار ، وكان دائما يحث على أن يسعى الانسان الى معرفة كنه نفسه قبل أى شيء آخر ، ويهزأ بمن يقبل الاشياء على علاتها دون أن يحكم العقل . وكان سقراط يعتقد فى خلود النفس وفى أن


شكل (٢٢) سقراط

السكون يدبره آله . وسما سقراط فى تعليمه الخلقى سموا كبيرا فلا فرق بين الاخلاق التى حث عليها والاخلاق التى حضت عليها الديانات العظمى

واتهم سقراط فى آخر أيامه بتضليل الشباب وحكم عليه بشرب كأس من السم ومات .

افلاطون
٤٢٧ — ٣٤٧ق٠م
كتاب الجمهورية

ومن تلاميذه افلاطون ، ترك بلاد الاغريق عند موت معلمه وجال فى بلاد الشرق و بعد عودته أخذ فى تعليم الفلسفة بطريقة الحوار . ومن مؤلفاته كتاب الجمهورية وهو من الكتب الخالدة .

ارسطو
٣٨٤ — ٣٢٢ق٠م

وهو أكبر فلاسفة الحضارة القديمة ، وكان لآرائه تأثير كبير فى فلسفة الشرق والغرب . ويعرف عند العرب باسم المعلم الاول . وقد بحث فى كل فروع الفلسفة من اخلاق وسياسة وعلوم طبيعية وأدبية وهكذا . وكان مربى الاسكندر الا كبر .

الفصل الحادى عشر

ظهور مقدونيـــــا

فيلب والاسكندر الاكبر

مقدونيا

تغلبت مقدونيا على المدن الاغريقية كما تقدم ، ولم يكن لها شـأن قبل ملـكها فليب الثانى الذى حكم من سنة ٣٦٠ الى ٣٣٦ ق. م .

وهى بلاد جبلية تقع شمالى بلاد الاغريق وفيها سهول خصبة ، وسكانها أشداء لغتهم اغريقية وان كانوا فى نظر الاغريق أشبه بالاجانب عنهم لقلة رفاهيتهم وحضارتهم .

فليب الثانى
٣٦٠–٣٢٦ ق. م

مضى فليب صباه فى مدينة طيبة وتعلم فن الحرب على أباميننداس وتحضر بالحضارة الاغريقية . وأدرك أيضا عن كثب ماعليه المدن الاغريقية من انقسام وما ساد بينها من شقاق . ولما تقلد الحـكم فى بلاده عزم أولا على تحضير قومه وثانيا على اخضاع سائر الاغريق لحـكمه وطمع فى آخر الامر أن يقوم بحرب عظيمة ضـد فارس فيغزو أرضها ويذلها

الجيش المقدونى

ولتحقيق ذلك كون جيشا فريدا فى نوعه اذ كان جيشا نظاميا يختلف عن جيوش المدن الاغريقية المكونة من متطوعين يعودون لمنازلهم اذ انتهت الحرب التى تطوعوا فيها ثم عبأ هذا الجيش تعبئة تعلمها من أباميننداس، وبها جعل قلب الفرقة الواحدة مكونا من ٥٠٠٠ جندى مصطفين صفوفا فى كل منها ١٦ رجلا ومسلحين برماح طويلة ، ووضع الفرسان فى الميمنة والميسرة . وكان فى الجيش أربع فرق من هذا النوع . وقد أحسن تدريبها حتى صارت الفرق تتحرك كأنها فرقة واحدة . واهتم أيضا بالات الحصـار وكان الاغريق لايستعملونها وان كانت قد استعملها الاشوريون قديما . وبهذا الجيش دوخ الاسكندر العالم .

أثينا وفليب

بدأ فليب بالمستعمرات الاغريقية فى شمالى بحر الارخبيل وتغلب عليها فأثار ذلك الاغريق . وكان فليب يحب الاثينيين فعرض عليهم صداقته ، ولكن الاثينيين لم يتفقوا على اجابة طلبه فبعضهم مال الى اكتساب وده وبعضهم نفر وعده عدواً يريد استعباد الاغريق



شكل (٢٣) ديموسينيس

ديموسيثيس

وكان على هذا الرأى ديموسينيس أخطب خطباء الاغريق . وله فى استنفار قومه خطب رنانة

الخطب الغلبية

اجتذبهم بها الى رأيه ويعتبرها المؤرخون من أبلغ ماخلف الاغريق ، ويتخذها الخطباء نموذجاً ينسجون على منواله .

واقعة كيرونيا ٣٣٨ ق . م

اتحدت اثينا وطيبة على فليب وقامت الحرب ، لكنه هزمهم فى واقعة كيرونيا عام ٣٣٨ ق . م . وكانت حاسمة . ولم يبق أمامه إلا التغلب على اسبرطة .

وقد دعا فليب الاغريق الى مؤتمر فى كورنثه ليبسط فى منتدى بينهم ما اعتزم عليه من الاغارة على فارس ولكنه قتل فى عام ٣٣٦ ق . م . قبل أن يتم هذا المشروع

الاسكندر

وخلفه ابنه الاسكندر وحقق كل مشروعات أبيه واكتسب بين عظماء الفاتحين اسما خالداً . كانت سنه وقت توليه العرش عشرين سنة وكان ارسطو قد باشر تربيته منذ الثالثة عشرة من عمره . وقد قرأ الاسكندر كل ما خلفه الاغريق من أدب وشب متشبعاً بحضارتهم شديد التحمس لنشرها فى الخافقين .



شكل (٢٤) الاسكندر الاكبر

ثورة طيبة

أول ماتولى العرش أصغره الاغريق وثارت عليه مدينـة طيبة ولـكنه أخضعها ودمرها تماماً وسبى أهلها وألقى بذلك على الاغريق درسا قاسياً .

الاغارة على آسيا

واقعة نهر جرانيـكوس ٣٣٤ ق.م

واقعة نهر اسس

ولماتم خضوع الاغريق سارفى ربيع ٣٣٤ ق . م . نحو آسيافعبرالمضيقين البوسفور والدردنيل وهزم جيشاً فارسياً عند نهر جرانيـكوس واستولى بذلك على المستعمرات الاغريقية فى آسيا الصغرى . ثم توغل فيهاوالتقى بالفرس مرة ثانية عند نهر اسس . وكانالفرس يقودهم ملكهم دارا الثالث ولكن الاسكندر انتصرعليهم انتصاراتاما وفر دارا الى بلاده ليعدجيشاً جديدا واتجهالاسكندر جنوبا وأخضع المدن الفينيقية . وقد قاومتـه مدينة صور ولم تسلم الا بعـد [illegible]

حصار صور

فتح مصر

ثم سار نحو مصر وكانت اذ ذاك تحت حكم الفرس . وقد تمكن من فتحها بسهولة إذ لم ير المصريون ضررا فى الانتقال من حكم الفرس الى حكم المقدونيين . وفى مصر أسس مدينة الاسكندرية .

تاسيس الاسكندرية

واقعة اربل ٣٣١ ق . م .

ثم ترك مصر وارتحل الى سوريا ومنها اتجه شرقا نحو فارس . وقد عبر الدجلة قرب اطلال نينوى وهزم الفرس مرة ثالثة فى واقعـة اربل . وهرب ملـكهم دارا ولـكن قتله أحد رجاله .

انتصر الاسكندر ومزق ملك فارس ، فـكأ نه قد ثأر بذلك ممـا لحق الاغريق من دارا واجزركسيس .

ولهذا الانتصار أثر كبير فقد مهد الطريق لنشر الحضارة الاغريقيـة فى بلاد الشرق .

توغل الاسكندر فى فارس وحل محـل ملوكها واستولى على نفائسهم وخزائنهم . ولم يكتف بذلك بل طمع فى الاستيلاء على الهند نفسها ، ونجح فى التغلب على افغانستان ونزل بجيوشـه على السند . ولـكن رجاله أبو التقدم لفرط مالاقوا من التعب ، فاضطر الى الرجوع بهم

تنظيم الملك

عاد الى بابل فى عام ٣٢٣ ق . م . بعدسبع سنين قضاهافى فارسوالهند وبدأ ينظم ملـكه .

اتخذ بابل عاصمته وكان يرمى الى إنشاء ملك مصطبغ بالصبغتين الاغريقية والشرقية . فتزوج ببنت دارا الثالث وتبعه عسكره فتزوج كثير منهم بفارسيات ووظف الفرس فى وظائف الدولة المختلفة

وكان الاسكندر يطمع فى مد ملكه حتى يشمل غربى البحر الابيض المتوسط ، وبدأ فى صنع السفن اللازمة لاخضاع ايطاليا وصقلية وقرطاجنة . ولكن انتابته حمى ومات فى بابل فى الثالثة والثلاثين من عمره قبل أن يقوم بذلك .

انقسام ملك الاسكندر

وبعد موته بقليل انقسم ملكه أقساما ثلاثة تولى الأمر فيها قواده إذ كان ابنه صغيراً . وكانت هذه الاقسام مقدونيا وسوريا ومصر التى اختص بها بطليموس .

الفصل الثانى عشر

انتشار الحضارة الاغريقية

أهم ما نتج من فتوح الاسكندر الاكبر انتشار الحضارة الاغريقية فى بلدان الشرق القديم ، وكان لتلك الحضارة فى الشرق مراكز أهمها الاسكندرية عاصمة البطالسة الذين استقلوا بمصر وأعادوا لها رخاءها المادى وجعلوا لها اسماً بين الدول . وسيفرد للبطالسة فصل خاص .

دولة البطالسة

جامعة اثينا زينو والرواقيون

وكانت أثينا أيضاً مركزاً آخر من مراكز الحضارة ، قامت فيها جامعة كبيرة ، واشتهرت فيها طائفة من الفلاسفة يعرفون باسم الرواقيين وكبيرهم الفيلسوف زينو . وقد حث زينو على كبح العواطف واستنكر الرق والقسوة وكان لتعاليمه أثر كبير فى التاريخ ومن فلاسفة أثينا أيضاً ابيقور . وقد اجتذب هؤلاء المعلمون التلاميذ من كل صوب ، واكتسبت أثينا فى أيام محنتها السياسية نفوذاً فى العالم العلمى ، وحققت بذلك ما كان يرجوه بريكليس لها

ابيقور

مدينة برجامن

برجامن مدينة من مدن آسيا الصغرى نالت استقلالها عن حكم مملكة سوريا وصارت مركزاً من مراكز الحضارة الاغريقية ، وجمعت حكومتها مكتبة عظيمة وأقام بها عدد من رجال الفن خلفوا تماثيل قيمة .

جزيرة رودس

واشتهرت جزيرة رودس أيضاً برجال الفن فيها ولكن لسوء الحظ لم يبق إلا القليل من آثارهم .

براكسيليس فى اثينا

وكذلك أثينا كانت فيها أيضاً نهضة فنية من أعظم رجالها براكسيليس

ملك السلوكيين فى سوريا

استقل سلوكس أحد قواد الاسكندر بسوريا وقامت فيها أسرة من نسله لم يكن لسوريا ما كان لمصر من الشأن أيام البطالسة ولكن السلوكيين اتبعوا سياسة الاسكندر ونشروا الحضارة الاغريقية نحو الشرق فانشئوا المدن فى آسيا الصغرى وارض الفرات والدجلة وفارس حتى حدود الهند على نمط المستعمرات الاغريقية الاولى . وكانت هذه المدن من وسائل نشر الحضارة .

مملكة مقدونيا

كانت مقدونيا أقل من مصر وسوريا . ومن أشهر ملوكها انتيجونيس الثانى الذى دفع عن بلاده خطرا شديدا فقد رد عنها اغارة أقوام متبربرين قدموا من فرنسا واسمهم الغالة وذلك فى عام ٢٨٠ ق . م . وحكم خلفاؤه بعده الى أن سقطت مقدونيا فى أيدى الرومان .

بلاد الاغريق

أما المدن الاغريقية فى تلك الاثناء فقد قامت بينها احلاف من المدن تشبه الاحلاف التى قامت فى سويسرا فى العصور الوسطى . ولبثت كذلك الى أن سقطت كلها ودخلت فى حكم الرومان

الفصل الثالث عشر

دولة البطالسة

مميزات عصر البطالسة

لعصر البطالسة مميزات خاصة تجعله مغايرا لعصور الفراعنة : أول تلك المميزات أن الاسرة الحاكمة لم تكن من أصل مصرى بل كانت أغريقية ولكن ليس معنى ذلك أن مصر لم تكن دولة مستقلة أو كان لغيرها سيادة عليها ، إذ أن أصل الاسرة الحاكمة لايهم فى ذلك وهذه انجلترة لم يحكمها منذ الفتح النرمندى فى عام ١٠٦٦ الى وقتنا الحاضر ملوك من أصل انجليزى . اذن من الخطأ أن نضع عصر البطالسة فى مصاف العصور التى حكم مصر فى أثنائها ولاة من قبل فارس أو روما أو الخلافة الاموية والعباسية أوالدولة العثمانية بل يجب اعتباره عصر استقلال كالعصور التى سبقت الفتح الفارسى فى عام ٥٢٥ ق . م . وحكم مصر فيها ملوك مصريون .

ومن تلك المميزات ظهور العنصر الاغريقى فى حضارة مصر أيامهم . حقيقة لم يكن ذلك فى أول عهد مصر بالاغريق فقد عرفتهم أيام ملوكها بسماتيك وخلفائه ولكن لم يكونوا اذذاك الا تجارا أو جندا مرتزقة ، ولم تكن مصر من مراكز حضارتهم ، أما فى أيام البطالسة فقد قامت لهم فيها حضارة باهرة

ومن الموضوعات المهمة فى تاريخ البطالسة دراسة علاقة العنصرين المصرى والاغريقى أحدهما بالآخر والبحث فى سياسة الملوك ازاء المصريين وفى موقف المصريين ازاء الحضارة الاغريقية .

تح الاسكندر مصر

قبيل ذلك الفتح كانت مصر ولاية فارسية ، ولم يكن الحكم الفارسى سيئاً أو قاسياً كما يظن الناس . ولكن المصريين لم يميلوا للفرس لسبب مهم هو أن الفرس لم يحترموا معتقدات المصريين الدينية احتراما كافياً وان كانوا لم يحاولوا تحويلهم الى معتقدات أخرى . وفى هذا يختلف عنهم الاسكندر والبطالسة اختلافا تاماً .

ضعف الفرس فى مصر بعد ما أصاب دولتهم من الهزائم على يد الاسكندر فلما وصل هذا الفاتح العظيم الى حدود مصر الشرقية لم تعترضه مقاومة تذكر ووصل الى منف وقرب القرابين الى أبيس وفتاح .

بعد ذلك ارتحل الى واحة سيوه وزار معبد آمون فيها . وقد يتساءل الانسان لم لم يذهب لطيبة مقر عبادة آمون ويتمكن بذلك من أن يرى بنفسه حالة الوادى كله .

والظاهر أنه أحب أن لايثير الحسد فى نفس كهنة منف ، وأنه احب أن يزور الواحة ليكون على علم بحدود مصر الغربية، ولكى يمر بنوقراطيس المستعمرة الاغريقية .

تأليه الاسكندر

وفى سيوه دخل المعبد وقرب القرابين للمعبود ولقبه الكهنة ابن آمون . وقد قلده فى ذلك البطالسة بعده ولم يكن تأليه الملوك أو على الاقل الزعم انهم من نسل الآلهة أمراً شرقياً فقط فقد كان معروفاً للاغريق فى بلادهم .

تأسيس الاسكندرية

وعند عودته من سيوه اختط مدينة الاسكندرية بان وصل بين جزيرة صغيرة قريبة من الارض وقرية صغيرة على الساحل اسمها راكوتيس فتكوّن بذلك مرسيان أحدهما شرقى والآخر غربى .

وكان بالقرب من راكوتيس انخفاض من الارض هوموضع بحيرة مريوط يملؤه ماء النيل وقت الفيضان فكانت الاسكندرية بذلك ميناء نهرية أيضاً

و بعد الفراغ من ذلك عاد الى منف عن طريق الصحراء واتجه نحو الشرق لاتمام فتوحه .

بطليموس الاول

ترك الاسكندر عند وفاته ابناً صغيراً وأخاً غير شقيق واقتسم قواده دولته فحكم مصر بطليموس اولا باسم ابن الاسكندر وأخيه . وفى سنة ٣٠٥ ق . م . لقب بملك مصر .

والمعروف عن بطليموس أنه كان رجلا حازماً سديد الرأى غير كبير الاطماع ، فكان حكمه بتلك الصفات موفقاً .

فتوحه

وقد قام بطليموس بحروب كثيرة انتهت باسترداده بعض اراضى فى

فلسطين و باستيلائه على جزيرة قبرص ، وكانت له السيادة البحرية فى البحر الابيض المتوسط . وكان من شأن ذلك ارتقاء التجارة المصرية فى ذلك البحر

سياسته الداخلية

لم تمنع تلك الفتوح بطليموس من الاهتمام بتنظيم بلاده وترقية شؤونها ويقال إنه أسس دار كتب الاسكندرية ودار تحفها أو كان على الاقل صاحب المشروع

ولم يكن بطليموس مولعا بالنظم السياسية الاغريقية بمجالس شيوخها ومجالسها العامة ، فلم يمنح أهل الاسكندرية دستورا من ذلك النوع ، ولكنه جعل لهم مركزا يمتاز بعض الشيء عن المدن الاخرى .

بطليموس الثانى
٢٨٥ — ٢٤٧ ق٠م

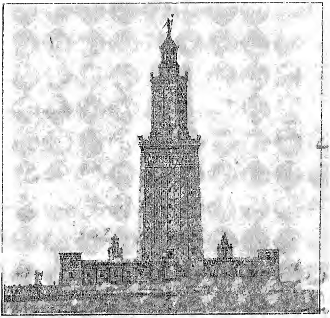
ولم تحدث فى مدة خلفه بطليموس الثانى حروب مهمة فانصرف الى تنمية ثروة البلاد ونشر العلوم .

التجارة

جدد القناة القديمة الواصلة بين النيل والبحر الاحمر وأعاد طريق القوافل الموصل بين البحر الاحمر والنيل عند قفط . فتقدمت تجارة مصر فى البحر الابيض المتوسط وفى البحار الشرقية مع بلاد العرب والهند والاحباش .

منارة الاسكندرية
٢٧٩ ق٠م

وقد بنى لهداية السفن منارة الاسكندرية المشهورة فى التاريخ وقد وصفها



شكل (٢٥) منارة الاسكندرية كما كانت

سترابون بأنها كانت برجاً ذا طبقات من حجر أبيض يشبه الرخام . وذكر يوسيفوس ان نورها كان يرى ليلا على بعد ثلاثة وثلاثين ميلا من الشاطىء وكانت تبلغ من الارتفاع مائة متر وقد دمرها زلزال فى عام ١٣٠٧ م .

دار الكتب ودار التحف بالاسكندرية

بنى بطليموس الثانى أو وسع هاتين الدارين العظيمتين وأصبحت بهما الاسكندرية أكبر مراكز الحضارة الاغريقية .

ترجمة التوراة عن العبرية الى الاغريقية

ويقال انه شجع ترجمة التوراة من العبرية الى الاغريقية ، والظاهر انه لم يكن شيء من ذلك وان اليهود قاموا بذلك العمل من تلقاء أنفسهم لما وجدوا مواطنيهم فى الاسكندرية قد نسوا العبرانية .

تاريخ مانيثون سياسته ازاء المصريين والاغريق

ويقال أيضاً انه حمل مانيثون على كتابة تاريخه المشهور لملوك مصر القدماء

ولا يصح ان نستخلص من ذلك أن بطليموس الثانى وضع نصب عينيه إحياء الحضارة المصرية القديمة أو مزج العنصرين المصرى والاغريقى فى حضارة جديدة .

ولكن ذلك لا ينافى اهتمامه الشديد باكتساب حب المصريين و تنمية ثروة مصر فأقام المبانى وشيد الهياكل لمعبوداتهم ومن أشهر مبانيه جزء من قصر أنس الوجود المعروف .

ومعنى الاكثار من المبانى العظيمة أن الشعب يسترد جزءا كبيراً مما يدفعه من الضرائب التى تجمعها الحكومة . ومعناه أيضاً تربيه الشعب تربية فنية عظيمة . وليس هناك مايدل على ان بطليموس سخر الناس فى اقامة مبانيه

وقد اهتم بطليموس أيضاً بالاغريق وأقطع جنوده منهم أرضاً فى الفيوم ولكنه لم يظلم المصريين لاجلهم . فليس هناك مايدل على أنه انتزع الارض فى الفيوم من أصحابها أو على وقوع النزاع بين العنصرين فى ذلك الاقليم .

بطليموس الثالث اضمحلال البطالسة

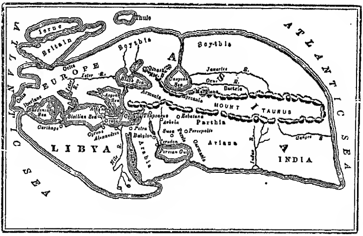
وفى أيام بطليموس الثالث امتد ملك مصر فشمل برقة وأطرابلس وسوريا و بلاد النوبة . ومن مبانى هذا الملك الشهير معبد ادفو ودندره . ولكن ذلك الملك الواسع لم يدم بل ضعفت مصر نفسها بعد بطليموس الثالث ، و بلغ من ذلك انهادخلت

فى حماية الجمهورية الرومانية . وقد بدأت اذ ذاك تتغلب على البحر الابيض المتوسط ، وانتهى الامر بدخولها فى حكم الدولة الرومانية كما سيأتى بعد .

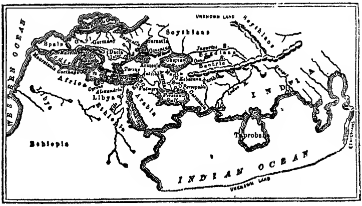
الحضارة ايام البطالسة دار الكتب ودار التحف اقليدس

تعتبر دار التحف بمثابة جامعة تدرس فيها العلوم المختلفة ويقوم فيها العلماء بالبحوث العلميه الراقية . ومن هؤلاء العلماء اقليدس الذى وضع قواعد الهندسة ومنهم ارخميدس العالم الطبيعى الذى لم يقم فى الاسكندرية ولكن كان على اتصال تام بعلمائها . ومنهم ايراتثونيس الذى قاس طول محيط الكرة الأرضية ورسم خريطة للعالم .

ايراتثونيس



شكل (٢٦) العالم كما رسمه ايراتثونيس



شكل (٢٧) العالم كما رسمه بطليموس

الطب

ومن الدراسات العالية بالاسكندرية دراسة الطب وقد التحق بها عدد كبير من الطلبة وقام علماء الطب بابحاث مهمة

اجرومية ديونيسيوس

ومن أكبر ثمار تلك النهضة وضع ديونيسيوس لقواعد الاجرومية الاغريقية وقد أثرت فى أجروميات اللغات الاخرى .

وأما دار الكتب فكانت تحتوى على أكثر من نصف مليون مجلد ، وقد حفظت هذه المجلدات علم الاغريق وآدابهم إذ من مجلدات الاسكندرية قبل احراقها نسخ النساخون المؤلفات الاغريقية .

احراق مكتبة الاسكندرية

ويقال إن تلك المكتبة احرقت يوم تغلب يوليوس قيصر الرومانى على الاسكندرية أو عند فتح العرب مصر . والظاهر . أن محتويات المكتبة كانت قد تبددت على توالى العصور بحيث لم يبق منها يوم احراقها الاجزء مما كان فيها

الادب الاغريقى

كانت فى الاسكندرية نهضة أدبية أغريقية ومن أشهر من ظهر من الكتاب ثيوكريتوس .

وجملة القول أنه كانت أيام البطالسة حضارة باهرة إلا أنه يسهل المبالغة فى وصف تلك الحضارة . وقد كتب الفيلسوف الرومانى سنكا أن بعض البطالسة قصدوا فى انشاء الدور العلمية الى التباهى ، واستشهد على ذلك بان العلماء فى عهد البطالسة الاواخر كان معظم همهم منصرفا الى تسلية هؤلاء الملوك الضعفاء

المصريون والحضارة الاغريقية

كان للمصريين أيام البطالسة بعض حضارتهم القديمة . وقد احتفظوا بما ورثوه عن آبائهم ، ولم يكن للحضارة الاغريقية سبيل اليهم فكانت معاهد الاسكندرية تدورا اجنبية فى أرض مصرية وليس معنى ذلك أن المصريين كانوا شعباً مهانا فقد كان لهم حتى فى الاسكندرية مع كثرة الاغريق والاسرائيليين بها صوت مسموع

الباب الثالث

روما

الفصل الاول

عصر الملوك (٧٥٣ — ٥٠٠ ق . م)

النزاع بين الاشراف والعامة

اصل الايطاليين

تقدم القــول كيف ارتحلت القبائل الساكنة فى الارض شمالى بحر قزوين الى سهول أوربا الوسطى ومنها أغار بعضها على شبــه جزيرة البلقان و بعضها على شبه جزيرة ايطاليا .

ومن تلك القبائل كانت قبيلة الايطاليين وقداستقرت فى الاجزاء الوسطى والجنوبية من شبه الجزيرة وفى جزيرة صقلية . وتاريخها فى الالف والخمسمائة السنة التى تلت اغارتها على ايطاليا غــير معروف ، وليس لدينا منه إلا بعض خرافات لايمكن الاعتماد عليها .

الخرافات

شبه الجزيرة وقت قدومهم

لم تكن فى ايطاليا وقت قدوم أولئك المغيرين حضارة مثل التى وجدها الاغريق فى بحر الارخبيــل . والظاهر أن قدومهم أحدث اضطرابا فى شبه الجزيرة فغادرها بعض السكان الاصليين ، وربما كان منهم من خدم فى الجيوش المصرية فقد وجدوا فى الآثار المصرية التى ترجع إلى القرن الثالث عشر رسوماً ربما كانت رسومهم .

سكان ايطاليا الآخرون

وكان فى ايطاليا غير الايطاليين ثلاثة أجناس أخرى :

١ ـ الاتروريون

أولها الاتروريون وموطنهم بلاد اتروريا وهى أرض فى شمال ايطاليا . ولا يعرف المؤرخون أنى أتوا . وقد يكون هم القوم البحريين الذين أغاروا على الدلتا ورسم المصريون صورهم .

٢ ـ القرطاجنيون

وكان هناك أيضا القرطاجنيون وهم كما تقدم من أصل فينيقى وكانوا ذوى تجارة ودراية كبيرة بالملاحة . وكانت لهم فى صقلية مستعمرة .

٣ ـ الاغريق

أما الجنس الثالث فكان الاغريق أعداء القرطاجنيين ومستعمراتهم فى صقلية وجنوبى ايطاليا وأشهرها سيراكيوز . ومن هؤلاء الاغريق تعلم الايطاليون بعض أصول الحضارة

اللاتين

ولم يكن الايطاليون شعباً موحداً تحت حكم واحد بل كانوا منقسمين الى قبائل دائمة التحارب . ومن تلك القبائل اللاتين وقد سكنوا فى سهل لاتيوم جنوبى نهر التيبر . وحوالى عام ٧٥٠ ق . م . تغلب الاتروريون على اللاتين

الاتروريون يحكمون اللاتين

وكانت قاعدة الحكم الاتروري حصنا على جبل البلاتين عرف بعد باسم روما . وبدأ بالحكم الاتروري العصر الملكى فى تاريخ روما . وعلى ذلك فملوك روما الاول كانوا اتروريين . ولا سبيل حينئذ الى قبول رواية قصة روميلوس وريموس عن تأسيس مدينة روما

تأسيس روما عام ٧٥٣ ق. م.

حكم روما الملوك الاتروريون من عام ٧٥٣ الى ٥٠٠ ق . م . ولا يعرف المؤرخون كثيرا عن عصرهم

والظاهر أنه فى ذلك العصر تحضر اللاتين بعض التحضير فأخذوا عن تجار الاغريق الحروف الهجائية والنقود المسكوكة والمعتقدات الدينية فنجد لكل معبود أغريقى معبودا يعادله فى الدين الرومانى فمثلا جو بيتر يقابل زيوس عند الاغريق وهكذا

طرد الملوك عام ٥٠٠ ق . م .

وحوالى عام ٥٠٠ ق . م . أدت قسوة الملوك واستبدادهم وعلى الاخص سوء سيرة آخرهم تاركوينيوس سو بربوس الى قيام الرومان ضدهم . فطردوا الملوك وأقاموا جمهورية ارستقراطية أى أن الحكم فيها فى أيدى الاشراف

القنصلان

إذ كانوا هم زعماء الثورة ضد الملوك . وفى تلك الجمهورية كانت السلطة العليا فى يد رجلين يلقبان بالقنصلين ويتجدد انتخابهما آخر كل عام ، ولا ينتخب للقنصلية إلا شريف .

النزاع بين الاشراف والعامة التربيون

قسا حكم الاشراف فقام نزاع طويل بينهم وبين العامة وحصلت العامة بعد جهد كبير على حق انتخاب موظفين يعرف الواحد منهم بالتربيون لحمايتها فكان للتربيون أن يرفض الموافقة على عمل أى موظف من موظفى الدولة حتى القناصل وينتصف للعامة بذلك اذا وقع بها حيف

تعدد وظائف الدولة

فى أول عهد الجمهورية كان القناصل يقومون بوظائف الدولة فكانوا يقودون الجيش ويدبرون المال ويقضون بين الناس ولكن لما كبرت روما وزادت أعمال الحكومة ضيق من دائرة اختصاص القناصل وقام ببعض وظائفهم موظفون آخرون . فاختص بأمور المالية الكويستر ، وبالاحصاء وتقدير الضرائب وتحرير كشوف المنتخبين ومراقبة سلوك الناس السنسور ، وبالقضاء البريتور .

الكويستر السنسور ـ البريتور

السناتو

وكان فى نظام الجمهورية مجلس يجلس فيه الشيوخ اسمه السناتو يتولى القناصل بالنصح والارشاد .

ادوار النزاع بين الاشراف والعامة

دام النزاع مائتى سنة وانتهى بتساوى الاشراف والعامة فى الحقوق . أول ما طلبته العامة تدوين القوانين حتى يعرف كل انسان ماله وما عليه ونجحت فى ذلك ، فدونت القوانين المعروفة بالالواح الاثنى عشر

الالواح الاثنى عشر حوالى ٤٥٠ ق.م.

وطلب رجال العامة بعد ذلك أن يكون لهم صوت فى وضع القوانين أى فى التشريع ، ، وتمكنوا من أن يكون لهم مجلس عرف باسم الكوميتيا تريبوتا أى مجلس القبائل ويرأسه التربيون .

الكوميتيا تريبوتا

الكوميتياسنتريانا

وعدا هذا المجلس كان هناك أيضا المجلس المثوى أو الكوميتيا سنترياتا وفيه تجتمع العامة على حسب المئات المنتظمين فيها . وفى أول الامر كانت للاشراف القوة فى ذلك المجلس ولكن العامة نجحت فى التساوى بهم فيه .

ثم حصلت العامة أيضا علي نصيب أوفر مما كان لها من الاراضى العامة وعلى

حق التزوج كما تشاء وعلى حق المتاجرة . ثم بعد ذلك حصلت على حق الانتخاب
لوظائف السنسور والبريتور والقنصل

الاشراف الحديثون

بعد ذلك التساوى التام قامت فى روما أسرات شريفة ولكنها من أصل
عامى . وقد حرم رجال هذه الاسرات زمنا طويلا الجلوس فى السناتو ولكنهم
نالوا هذا الحق أخيرا

السناتو الجديد

وأصبح بذلك السناتو مكونا من ٣٠٠ عضو من خيرة رجال روما حنكة
ودراية بالامور وتحت ارشاد السناتو علا شأن روما فصارت سيدة ايطاليا ثم
سيدة العالم .

الفصل الثانى

روما سـيدة ايطاليا

التحالف مع اللاتين

لم تـكن روما فى أول أمرها إلا مدينة صغيرة تحكم أرضا لا يزيد اتساعها على بضعة أميال . وأول ما عملت روما لتوسيع ملـكها كان تحالفها مع اللاتين. وقد قرر السناتو أن يكون اللاتين معظم ما للرومان من الحقوق ، فاصبح بذلك لحلفاء روما باعث قوى على الارتباط بها .

الاترورريون

وأكبر خطر على روما وحلفائها كان من ناحية الاترورريين ولـكن لحسن حظ الجمهورية الناشئة وقع الاترورريون فى حرب مع سيراكيوز الاغريقية . وفى عام ٤٧٤ ق . م . دمرت سيراكيوز قوة الاترورريين البحرية . ثم دهم الاترورريين أيضاً عدو آخر : وذلك أن قبائل الغالة أغارت على شمالى ايطاليا ونهبت مدن الاترورريين فضعفوا بذلك ، وتمـكن الرومان من الهجوم على بلادهم والاستيلاء على مدينتهم فى وذلك فى عام ٣٩٦ ق . م

الغالة

الاستيلاء على مدينة فى عام ٣٩٠ ق.م

كذلك تمـكن الرومان أيضاً من رد بعض القبائل الايطالية عن أرضهم ولـكنهم وقعوا فى خطر عظيم : وذلك أن قبائل الغالة التى ذكرنا اكتساحها لمدن الاترورريين هجمت على روما واستولت عليها فى عام ٣٩٠ ق.م. غير أن الغالة لم يمكنهم التغلب على حصنها وقبلوا بعد حصار طويل أن ينجلوا عن روما فى مقابل مبلغ من المال . فارتدوا عن روما واستقروا فى وادى نهر البو

الغالة فى روما عام ٣٩٠ ق.م

الحلف اللاتينى

نجح الرومان فى اجلاء الغالة ولـكنهم خشوا تجـدد الاغارة فبنوا حول مدينتهم سوراً يحميها وأمعنوا فى قتال الاترورريين والتغلب على مدنهم فقلق اللاتين لتلك السياسة وأوجسوا خيفة من ازدياد قوة الرومان فحاولوا أن ينفصلوا عنهم تماماً ، ولـكن الرومان نجحوا فى اخضاعهم بعـد حرب دامت عامين أصبح اللاتين فى نهايتها رعية رومانية لا أحلافا .

السامنيون

ثم اتجهت أنظار روما نحو الايطاليين الآخرين ويعرفون بالسـامنيين

ويسكنون أرض سامنيوم فى الجنوب الشرقى من روما ، ولا اتصال لها بالبحر .

وكان السامنيون أشداء هزموا الرومان مرارا وتحالفوا عليهم مع الاترور يين والغالة ولكن روما انتصرت عليهم جميعا فى واقعة حاسمة هى واقعة سنتينوم فى عام ٢٩٥ ق . م و بعدها صارت روما أقوى دول ايطاليا تتحكم فى شمالها ووسطها ، وأرغمت الاترور يين والسامنيين على محالفتها

سنتينوم ٢٩٥ ق.م.

المدن الاغريقية فى ايطاليا

بذلك الانتصار امتد نفوذ الرومان الى حدود المدن الاغريقية فى ايطاليا ولم تكن تلك المدن خاضعة لحكم واحد بل كانت فى حروب مستمرة وكانت مدينة تارنتم الواقعة فى أقصى الجزء الجنوبى من ايطاليا أكبر تلك المدن . وقد تخوف أهلها من ارتفاع شأن روما فاستغاثوا بالملك بيروس وكان يحكم الابيروس على الساحل الشرقى للبحر الادرياتيكى . فلبى بيروس النداء لانه كان يطمح فى تكوين حلف من الاغريق الساكنين فى إيطاليا وصقلية ، وعبر البحر الى ايطاليا . وكان له جيش مدرب عظيم وله دراية بفن الحرب اكتسبها من القائد الطيبى الكبير أبامنونداس وفيليب المقدونى . فهزم الرومان فى واقعتين كبيرتين فى عامى ٢٨٠ و ٢٧٩ ق . م . ثم تغلب على جزيرة صقلية . فاثار ذلك عليه القرطاجنيين ولهم فى صقلية مستعمرات فجهزوا أسطولا لمساعدة روما ضده . فعول بيروس على الرجوع لبلاده لما رأى أنه لن يمكنه الاستيلاء على روما بعد أن هزمته جيوشها فى واقعة بنفنتم ، ولما رأى أن لاسبيل لجمع كلمة الاغريق بعد أن ألفوا التفرق عهدا طويلا

تارنتم

بيروس

أبامنونداس

وبعد عودته خضعت المدن الاغريقية لروما الواحدة تلو الاخرى ، وأصبحت روما سيدة ايطاليا ، وبدأت الكفاح مع قرطاجنة للسيادة فى البحر الابيض المتوسط .

الفصل الثالث

الكفاح بين روما وقرطاجنة

٢٦٤ ـ ١٤٦ ق . م .

قوة قرطاجنة

وجدت روما فى قرطاجنة عدواً أشد كثيراً من الاترو ريين والسامنين والاغريق، إذ كانت قرطاجنة أقدم من روما عهداً بسياسة الملك ، يرجع تأسيسها الى عام ٨١٤ ق . م . ولها مستعمرات فى أفريقية وصقلية واسبانيا وكورسيكا وسردينيا وجزر البليار ، ولها تجارة عظيمة وقوة بحرية كبيرة . ولم يكن لروما قوة بحرية ، ولم يكن لها من الغنى ما للقرطاجنيين .

قوة روما

ولكن الرومان كانوا أقوى براً وكانوا وإن أعوزهم المال أتم نظاماً من خصومهم وأطوع منهم لقوادهم .

وكان جيشهم مكوناً من رومان احرار يزرعون الارض ولا سيد لهم إلا القانون سيد الجميع من كبير وصغير على حين كان القرطاجنيون لاصوت لهم فى ادارة شؤون بلادهم ، إذ ان الحكم فى بلادهم كان فى يد التجار الاغنياء يملكون معظم الارض ويزرعها لهم ارقاؤهم .

وكان الحكم الرومانى فى ايطاليا قائماً على حسن معاملة سكانها فأخلص هؤلاء له وقت محنة روما . أما الحكم القرطاجنى فقد قام على استعباد الشعوب فلم تملك قرطاجنة قلوب رعيتها ولم تأمن لها ، واضطرت الى تجنيد المرتزقة من كل الشعوب .

الحرب البونية الاولى ٢٦٤ ق . م

قامت الحرب الاولى المعروفة بالبونية أو الفينيقية فى عام ٢٦٤ ق. م. وذلك أن مدينة مسينا فى جزيرة صقلية كان يحاصرها هيرو صاحب سيرا كيوز واستغاثت مسينا بروما وهيرو بقرطاجنة فتدخل القرطاجنيون واستولى قائدهم هانو على حصن مسينا وتدخل الرومان و بدأت الحرب .

فى عام ٢٦٣ ق . م . ترك هيروجانب القرطاجنيين وانضم للرومان وتمكن الفريقان من الاستيلاء على الجزء الشرقى من صقلية . ولكن لما لم يكن اروماقوة بحرية اكتسح القرطاجنيون سواحلها ودمروا تجارتها فلم تجد روما بداً من بناء اسطول

بناء الاسطول الرومانى

وحدث اذ ذاك أمر غريب هو انتصار الرومان فى البحر على قلة خبرتهم به وهزيمتهم برا على طول عهدهم بالحرب البرية .

الصلح

وفى آخر الامر تراضى الفريقان على الصلح ، فدفعت قرطاجنة غرامة كبيرة وتركت للرومان معظم صقلية والجزر المجاورة لها . فكان ذلك أول فتوح الرومان خارج ايطاليا

الحرب البونية الثانية هاملكار فى اسبانيا

لم يكن ذلك الصلح الا هدنة مؤقتة ، قامت الحرب لما احتل الرومان سردينيا وكورسيكا فى عام ٢٣٨ ق . م . فقام القائد القرطاجني هاملكار بتجهيز قوة كبيرة فى اسبانيا للاغارة بها على ايطاليا ، ولكنه قتل قبل أتمام مشروعه ، فقام من بعده قائد اسمه هاسدروبال لاكمال العدة وقتل أيضا فقام محله هانيبال أكبر ابناء هاملكار ، وكان اذ ذاك فى التاسعة والعشرين وله فى التاريخ الحربى ما لقيصر ونابليون من المقام العظيم .

هانيبال

اغارته على ايطاليا

ترك هانيبال اسبانيا فى عام ٢١٨ ق .م . بجيش يزيد على المائة الالف من مشاة وفرسان ، وتقدم براً واجتاز جبال الالب ونزل على سهول ايطاليا الشمالية . وقد اختار تلك الخطة المحفوفة بالمصاعب لخوفه من الاسطول الرومانى ولرغبته في الاستعانة بالغالة وغيرها من القبائل المتبربرة النازلة فى تلك الجهات

تغلب هانيبال على الجليد والبرد ومنع المتبربرين من تعطيل حركته واجتاز الجبال ، ولكنه فقد فى ذلك جزءاً كبيراً من جيشه . وعلى الرغم من ذلك هزم الرومان فى واقعتين متتاليتين واستولى على شمالى ايطاليا وجند من المتبربرين عدداً كبيراً .

استيلاؤه على شمال ايطاليا

وفى عام ٢١٧ ق.م اجتاز جبال الابنين وتقدم على روما فاسرع القنصل فلامنيوس لملاقاته . ولم يكن القنصل ماهرا فوقع فى كمين نصبه له هانيبال عند بحيرة ترازيمين وهزم الرومان فى أرض ضيقة بين جبلين فى يوم انتشر فيه الضباب

انتصاره عند بحيرة ترازيمين

لم يفقد الرومان شجاعتهم بل وضعوا السلطة كلها فى يد رجل واحد هو فابيوس مكسيموس . وكان هذا يرى أن الازمة شديدة ولكن لاداعى للقنوط إذ أنه كان يعلم أن هانيبال لايملك شيئا من آلات الحصار ، وانه ليس لديه مايتمكن به من تجديد قوته ، على شرط أن يمنعه الاسطول الرومانى من الاتصال بقرطاجنة . فكانت الخطة المثلى فى نظر فابيوس هى أن يتجنب الرومان الوقائع الحاسمة ويكتفوا باجهاد هانيبال الى أن ينتهى الامر به بالجلاء عن ايطاليا

خطة فابيوس

ولكن الرومان ملوا الصبر ، وهاجهم اكتساح هانيبال أرضهم وفابيوس هادىء لاينزعج ولا يتعجل الأمور ، فعرفوه بفابيوس المؤجل وعينوا بدله قنصلين وجهزوا جيشا عظيما

واقعة كانى ٢١٦ ق . م

ولكن هانيبال أوقع بذلك الجيش وهزمه شر هزيمة فى واقعة كانى وقتل من الرومان عددا كبيرا . وتحالف مع فيليب ملك مقدونيا الذى تعهد بانزال جيش على ساحل ايطاليا الشرقى وانضمت الى هانيبال سيراكيوز حليفة روما القديمة . وصار بذلك للقرطاجنى الامر فى جنوبى ايطاليا وصقلية

هانيبال يستولى على جنوبى ايطاليا وصقلية

ولكن الرومان لم تطر قلوبهم شعاعا ، بل أخذ السناتو فى تجهيز جيوش جديدة وجند الكل حتى الارقاء والصغار وبدأت الجنود الرومانية تسترد مافقدته . وتحققت صحة رأى فابيوس فان هانيبال على الرغم من عظم انتصاره لم يتمكن من تجديد جيشه فلم يقو على منع روما من استرداد سيراكيوز فى عام ٢١٢ ق . م . ومن فرض جزية كبيرة عليها ومن فتح جزيرة صقلية كلها

فتح سيراكيوز

وفى تلك الاثناء كانت الحرب قائمة فى اسبانيا بين الرومان والقرطاجنيين ولما حاول هاسدروبال أخو هانيبال ترك اسبانيا لمساعدة أخيه هزمه القائد الرومانى سيبيو هزيمة كبيرة فى عام ٢١٧ ق . م .

الحرب فى اسبانيا

أخذ هانيبال بعد ذلك يرى أن لاخلاص إلا اذا أمدته بلاده بالرجال والعدة ، ولكن القرطاجنيين كانوا قد ملوا الحرب وأخذوا يفكرون فى عقد الصلح ثم تخلى فليب المقدونى عن محالفتهم وانحاز الى روما فى عام ٢٠٥ ق . م . ولما تمكن

حرج موقف هانيبال

جيش قرطاجنى تحت قيادة هاسدروبال من الوصول لايطاليا هزمه الرومان عند نهر متوروس فى عام ٢٠٧ ق . م. وقتلوا قائده

سبيو

ظهر فى اسبانيا أثناء ذلك القائد الكبير سيبيو وعند عودته الى بلاده انتخب قنصلا وغزا قرطاجنة نفسها بجيش ، فاضطر القرطاجنيون الى استدعاء هانيبال فى عام ٢٠٣ ق . م . بعد خمسة عشر عاما قضاها فى ايطاليا

واقعة زاما عام ٢٠٦ ق.م

تقابل هانيبال وسيبيو فى واقعة زاما بالقرب من قرطاجنة وانتصر الرومان وقبلت قرطاجنة الشروط الرومانية ، وهى دفع غرامة كبيرة وجزية سنوية وتسليم أسطولها عدا عشرين سفينة والنزول عن مستعمراتها فى اسبانيا

نهاية هانيبال

غادر هانيبال بلاده على اثر ذلك وقصد الى الشرق ليثير العداء على الدولة الرومانية ولما وجد من لجأ اليه يريد تسليمه لروما سم نفسه فى عام ١٨٣ ق.م.

الحرب الثالثة

خرجت قرطاجنة من الحرب الثانية مخذولة ولكن بقى لها استقلالها وتجارتها فامكنها فى خلال خمسين سنة اعادة ما كان لها من الرخاء القديم على الرغم من الجزية السنوية ، فساء ذلك فريقا قويا من أعضاء السناتو كان يرى أن لا حياة لروما الا اذا قضت على عدوتها تماما . ومن أنصار ذلك الرأى « كاتو » وقد اعتاد أن يختم خطبه بكلمة ذهبت مثلا فى اللغات الاوربية « لا بد من تدمير قرطاجنة »

« لابد من تدمير قرطاجنة »

وفى عام ١٤٦ ق. م . سنحت فرصة لتحقيق ذلك الرأى وذلك أن القرطاجنيين وقعوا فى حرب مع جيرانهم سكان نوميديا حلفاء روما ، فأعلنت هذه الحرب و بعد ثلاث سنين استولت على قرطاجنة وعفت آثارها وحولت أرضها الى ولاية رومانية اسمها افريقية

تدمير قرطاجنة

أصبحت روما ولا منافس لها فى البحر الابيض المتوسط ، وامتلكت اسبانيا وصقلية وأرضا فى افريقيا الشرقية

نتائج الحروب البونية

وثبتت دعائم ملكها فى ايطاليا فهزمت المتبربرين الساكنين فى الشمال وأوصلت حدوده الى جبال الالب وعاقبت المدن التى انحازت الى جانب القرطاجنيين وجعلت أرض تلك المدن ملكا لها ووزعته بين صغار المزارعين

ولكن الحروب الطويلة انهكت قواها : فقد قتل فيها خيرة شباب ايطاليا فقلت الايدى العاملة واضمحلت الزراعة لانصراف الفلاحين الى الخدمة العسكرية ؛ فنتج من ذلك حلول الارقاء محل الاحرار فى فلاحة الارض وتجمع المزارع الصغيرة فى ضياع كبيرة يملكها الاغنياء

نتائج الحروب البونيه : ——

١ صارت روما سيدة البحر الابيض المتوسط بعد تدمير قرطاجنه
٢ استولت على الجزائر واسبانيا وصقليه وكورسيكا وسردينا والبليار
٣ ثبتت ملكها فى ايطاليا وضمت المتبربرين
٤ عاقبت المدن التى ساعدت الاعداء
٥ وزعت املاكها بين صغار الفلاحين والمزارعين
٦ اضمحلال الزراعه بانشغال المزارعين فى الخدمه العسكريه

الفصل الرابع

فتوح الرومان فى مقدونيا وآسيا

٢١٥ — ١٦٨ ق . م .

الحالة فى الشرق

رأينا كيف انقسمت دولة الاسكندر ثلاثة أقسام : مصر ويحكمها البطالسة ، وآسيا أو سوريا ويحكمها السلوقيون ، ومقدونيا . أما المدن الاغريقية فقد كونت أحلافا .

مقدونيا

كانت مقدونيا أول هـذه الاقسام وقوعا فى الحكم الرومانى وذلك أن ملكها فيليب الخامس حالف هانيبال فى أثناء الحرب البونية الثانية . فقام العداء بذلك بين روما ومقدونيا وانقسم الاغريق الى فريقين فريق انحاز الى روما والآخر الى فيليب . ولم تحدث فى تلك الحرب وقائع ذات بال ، اذ كان الرومان منصرفين الى حرب هانيبال ، وكان فيليب غير قادر على اعانة حليفه إعانة جدية فعقد الصلح بين الدولتين فى عام ٢٠٥ ق . م .

الحرب المقدونية الاولى ٢١٥—٢٠٥ ق.م.

الحرب الثانية ٢٠٠—١٩٧ق . م.

ثم قامت الحرب الثانية لما هاجم فيليب أثينا واستغاثت هذه بروما . ولم يغنه تحالفه مع ملك آسيا و بعض المدن الاغريقيـة ، فهزمه الرومان وجردوه من ممتلـكاته فى آسيا الصغرى وجزر الارخبيل وشبه جزيرة البلقان، ولم يتركوا له إلا مقدونيا نفسها . بذلك تخلصت الاحلاف الاغريقية من نفوذ مقدونيا ولـكنها دخلت فى حماية روما .

الحرب بين روما وانتيوخوس ملك آسيا ١٩١ق .م.

ولما حاول ملك آسيا انتيوخوس الاعتـداء على مصر وعلى الاحلاف الاغريقية فى آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان أعلن الرومان عليـه الحرب وأرغموه على مغادرة بلاد البلقان

روما سيدة الاغريق

لم يستقل الاغريق بذلك فان روما حلت أحلافهم و بسطت عليهم سيادتها وتبع الرومان انتيوخوس الى آسيا الصغرى وأزالوا سلطانه عنها ، ولـكنهم لم يضموها لملـكهم بل قسموها بين صديقتيهم رودس و برجامون. و يدل ذلك

تقسيم آسيا الصغرى وسياسة روما

على أن الرومان لم يكن قصدهم التوسع فى الملك بل تكوين دول قوية يمكنها الدفاع عن نفسها . وفى عام ١٨٨ ق . م . جلا الرومان عن آسيا اعتمادا على قوة حلفائهم .

برجامون ولاية رومانية

وفى عام ١٣٣ ق . م . أوصى ملك برجامون بملكه لروما فصارت برجامون ولاية آسيا الرومانية وأول أرض امتلكتها روما شرقى بحر الارخبيل .

الحرب المقدونية الثالثة ١٧١ — ١٦٨ ق م واقعة بيدنا ١٦٨ ق . م .

وقبل ذلك كانت مقدونيا قد فقدت استقلالها . وذلك أن مقدونيا نهضت واستنفرت الاغريق واستحثتهم على الثورة باسم الاستقلال فقامت الحرب الثالثة وانتصر الرومان فى واقعة بيدنا ، وقسمت مقدونيا أربعة أقسام تخضع لروما ولما حاولت التخلص من ذلك الخضوع فى عام ١٤٨ ق . م . حولتها روما الى ولاية رومانية .

مصر تحت الحماية الرومانية ١٦٨ ق . م .

وفى عام ١٦٨ ق . م . دخلت مصر فى حماية الرومان أيضا وبذلك انتهت دولة الاسكندر .

السياسة الرومانية والفتوح

كانت السياسة الرومانية قبل واقعة بيدنا متجهة الى تجنب التملك خارج ايطاليا والاكتفاء ببسط نفوذها السياسى فى الشرق الادنى . ولكنها وجدت أن تلك السياسة لم تأت بالمقصود منها بل أوجبت تدخلا مستمرا من جانب الحكومة الرومانية ووجدت تلك الحكومة سياسة الضم أقل مشاكل وأسهل تنفيذا

فعلى ذلك يخطىء من يرى فى اتساع الدولة الرومانيـة أمرا مقصودا أو مشروعا مفصلا ، بل كان فى الحقيقة أمراً حتمته الظروف وحاول السناتو تجنبه مدة طويلة .



الفصل الخامس

عصر الثورات

١٤٦ — ٣٠ ق . م .

اتسع ملك روما واشتمل بلاد البحر الابيض المتوسط، و بعد أن كان السناتو مجلس شيوخ مدينة صغيرة من مدن ايطاليا أصبح محكمة تفصل فى أمور الملوك والشعوب ،وقصد روما الملوك والامراء التابعون ليقيموا فيها يتزلفون الى السناتو وما لبث هذا الملك العظيم حتى أثر فى الرومان أنفسهم وفى حكومتهم .

الحكم الرومانى فى الولايات

كان الحكم الرومانى فى الولايات سيئاً أيام الجمهورية وذلك لأن أهل الولايات لم يكن لهم شىء من الحقوق التى كانت للرومان . وقد وضع السناتو قوانين لحكم الولايات ولكنها لم تراع : فالحاكم الرومانى فى الولاية كانت سلطته تامة ،فى يده الحامية الرومانية والاموال التى يجبيها ، وهو بعيد عن أعين السناتو، ولا سبيل لوصول شكاوى الاقاليم النائية الى مسامعه .

ومما زاد الطين بلة أن العادة اقتضت أن لا يمكث الحاكم أكثر من عام واحد ، فكان الغالب على الحكام انتهاز الفرصة لجمع كل ما يمكنهم جمعه من المال ولو وقع الحيف على الرعية . وذلك لان الحاكم كان لا يعين فى الحكم إلا إذا بذل المال بين ذوى النفوذ فى روما فكان يهمه أن يسترد ما بذل من جيوب المحكومين .

الالتزام

وكان الحكام يتبعون فى جمع الاموال طريقة فاسدة هى المعروفة بطريقة الالتزام . وذلك أن يتعهد بعض الناس بدفع ما على الاقاليم من الضرائب جملة واحدة و يقومون هم بجمعها من الناس لانفسهم . وعيب هذه الطريقة أن الملتزمين كانوا يربحون من ذلك ربحاً كبيراً فقد كانوا يقدمون للحكومة أقل مما لها و يجمعون من الناس أكثر مما عليهم من الحقوق .

المرابون

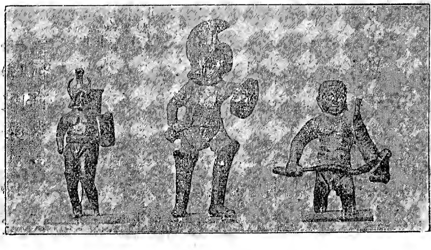
ساءت الحالة فى الولايات وعمد أهلها الى الاقتراض من طائفة المرابين وكانوا يقرضون أموالهم بربا فاحش ، وليس هناك من يحمى الفقراء منهم ومن تحكمهم .

الاغنياء فى روما

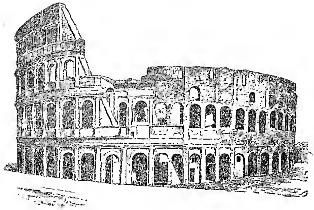
وقد اعتادت تلك الطوائف من الحكام والملتزمين والمرابين الرجوع الى روما بعد جمع ثروة عظيمة فى الولايات والاقامة فيها والانفاق على سعة . فبنوا قصورا فخمة فى العاصمة وزينوها بما جمعوه فى بلاد الاغريق والشرق من النفائس ، وحاطوا أنفسهم بالجم الغفير من الارقاء والخدم . وكانت معيشتهم أبعد ما تكون عن معيشة الاشراف الذين بنوا مجد الجمهورية . وصار لهؤلاء الأغنياء بفضل مالهم نفوذ كبير فى الحكومة ، وصار كل أعضاء السناتو منهم وشغلوا وظائف الدولة العظيمة كلها ، وانتهى الأمر بأن المجالس العامة فى روما التى سبق ذكرها لم يصبح لها من الأمر شئ .

فساد العامة

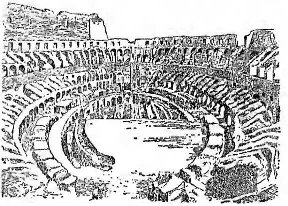
ولم يقف الأمر عند ذلك فان الأغنياء عملوا على اكتساب نفوذهم بافساد العامة بطرق مختلفة : منها بيعهم الغلال لهم بثمن بخس ، ومنها الاكثار من المواسم والاعياد والعاب المصارعين وسباق العجلات . فضمنوا بتلك الطرق أصوات



شكل (٢٨) المصارعون — تماثيل مصغرة



شكل (٢٩) مسرح الكلوسيوم — الشكل الخارجى



شكل (٣٠) الكلوسيوم — داخل البناء

الشعب فى الانتخابات ، ولم يجرؤ الفقير كذلك على ترشيح نفسه لأية وظيفة من الوظائف . وحتى الجند فسدت أخلاقهم فوضعوا أنفسهم تحت تصرف قوادهم الذين كانوا يمنونهم بالأسلاب والغنائم وأصبحوا فى أيديهم آلات لتحقيق مطامعهم الذاتية . وجملة القول أن الشعب الرومانى الذى كان كبير الفضائل السياسية والحربية استحال الى جمهور من الرعاع يعيش على فتات موائد الاغنياء

المزارعون

وأخذ الاغنياء أيضاً فى أبتياع أرض صغار المزارعين وتحويلها الى ضياع كبيرة ، وعملوا على استخدام الرقيق فى الزراعة بدلا من الاحرار . ومعظم الرقيق أصلهم من أسرى الحروب فى قرطاجنة واسبانيا وغالة ومقدونيا و بلاد

استخدام الرقيق

الاغريق وآسيا . وكانت هناك أسواق يباعون فيها ويشرون ، وأثرى أناس كثيرون من تلك التجارة .

ثورات الارقاء

ولم يحسن السادة معاملة أرقائهم فقاموا مراراً وثاروا طلبا للحرية . واحتشد منهم فى إحدى الثورات جمع يبلغ نحو ٦٠٠٠٠ وجعلوا من أحدهم ملكا ، ولم تخمد الحكومة حركتهم إلا بعد حرب دامت سنين عدة

نتيجة كل ذلك اضمحلال طبقة الزارعين الصغار ، اذ أن الزارع الصغير عجز عن مزاحمة المالك الكبير فلم يمكنه أن يبيع حاصلاته بأثمان حاصلات الضياع العظيمة أو بأثمان الغلال المستوردة من مصر أو صقلية أو افريقية ، فاضطر الى بيع مزرعته والارتحال الى روما - كما فعل آلاف على شاكلته - والعيش فيها عيشة المتشردين .

تأثير الفتوح فى الحضارة الرومانية

كان من شأن الفتوح اتصال روما بالحضارة الاغريقية فأخذ أغنياء الرومان يدرسون الآداب والفلسفة الاغريقية ، واتخذوا لأبنائهم مؤدبين من الاغريق . ولم يكن كل ذلك خيرا فقد صحب انتشار الحضارة الاغريقية اقلاع الرومان عن بساطتهم القديمة وفقدهم إيمانهم بآلهتهم وتفكك أواصر الاسرات . وقد قاوم تلك المساوىء رجال أشهرهم « كاتو » الذى كان طول حياته مثال المحافظة على العادات والنظم الرومانية القديمة . والسر فى اهتمام كاتو وأمثاله بالاشياء القديمة رؤيتهم أن انتشار الآراء الجديدة لا بد أن يؤدى يوما ما الى القضاء على النظام الجمهورى نفسه ، فان هذا النظام قام فى الاصل على أساس اجتماعى خاص ، فمن شأن نقض هذا الاساس سقوط الجمهورية فى آخر الامر

الجهود فى سبيل الاصلاح

وكانت هناك جهود أخرى لاصلاح الحالة الاجتماعية والاقتصادية . وأشهر من قام بهذه الجهود الاخوان تيبريوس وكايوس جراكوس

تيبريوس جراكوس

انتخب تيبريوس تربيونا فى عام ١٣٤ ق م . وانتهز فرصة ذلك لاصلاح نظام الإراضى . فسن قانونا يرمى الى انتزاع أرض الدولة ممن اغتصبوها وتقسيمها بين الفقراء ، فعارض السناتو فى هذا اذ كان جل أعضائه ممن يمسهم

معارضة السناتو

ذلك ، وحاول تيبريوس التغلب عليه باعادة ما كان لمجالس العامة من سلطة . وقد أدى ذلك الى فتنة قتل فيها تيبريوس وثلاثمائة من أنصاره .

كايوس جراكوس

وفى عام ١٢٤ ق. م. انتخب أخوه كايوس تربيونا فحاول تنفيذ مشروع تيبريوس ولكن لم يكن حظه أحسن من حظ أخيه فقتل فى عام ١٢١ ق.م. هو وثلاثة آلاف من أنصاره .

ظهور ماريوس

رأس حزب العامة بعده جندى ماهر هو ماريوس وكان من أصل وضيع يحقد على الاشراف والشيوخ . وأول ماظهر كان عندما تولى القيادة فى افريقية

اخماد ثورة نوميديا

لاخماد حركة يوجورثا ملك نوميديا الخاضعة للنفوذ الرومانى .وكان القواد الذين عينهم السناتو ضد يوجورثا قد فشلوا حتى ذلك الوقت فشلا معيبا . انتصر ماريوس وهزم يوجورثا وأسره ، فأحب ماريوس الشعب وانتخبه قنصلا .

التغلب على قبائل السمبر والتيوتون

ثم قام فى عام ١٠٤ ق . م . لاخماد قبائل السمبر والتيوتون بعد أن عجز القواد الآخرون عن التغلب عليهم ، وتمكن من هزمهم هزيمتين ساحقتين ، ورجع رجوع الظافر .

اصلاح ماريوس

وفى عام ١٠١ ق . م . انتخب ماريوس للقنصلية مرة سادسة وبدأ الاصلاح وأحيا اقتراح الاخوين جراكوس وفتح الانتظام فى الجندية لجميع الطبقات وجعل الترقى فيه تبع الكفاءة لا الالقاب والمال .

الحرب الاجتماعية

ولكن قبل أن يتم عمله نشبت ثورة عظيمة فى ايطاليا أدت الى مايعرف بالحرب الاجتماعية (٩١ — ٨٩ ق . م .) وسببها استياء الايطاليين من تمييز الرومان عليهم فى الحقوق السياسية على الرغم من تساوى الفريقين فى التكاليف.

ثار الايطاليون وأقاموا دولة مستقلة وجعلوا لها سناتو ومجلسا عاما .

تنبه الرومان لخطر الحركة ، وكفت احزابهم عن التطاحن ، وانصرفوا الى اخماد حركة الايطاليين . وقامت بين الفريقين حرب لم تنته الا بعد أن نال الايطاليون مطالبهم .

الحرب ضد مترادانيس

وتبع ذلك تجدد نزاع الاحزاب فى روما وقيام الحرب فى الشرق .وذلك

أن مثراداتيس ملك بونتس فى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى انتهز فرصة اشتغال الرومان فى ايطاليا وناصبهم العداء . فحاول حزب العامة تعيين ماريوس للقيادة في الشرق وحاول الاشراف تقليدها « سلا » وكان قائداً شريفاً اكتسب شهرة في الحرب الاجتماعية .

زحف « سلا » على روما بجيشه ــ وهذه سابقة خطرة ــ فهرب ماريوس وانصاره منها ، ونال « سلا » ما كان يرمى اليه . معنى ذلك أن الأمر فى روما أصبح فى يد صاحب السيف لا فى يد من له كثرة الاصوات . وفى مثل تلك الظروف لايستقيم نظام جمهورى

عودة ماريوس — غادر سلا روما الى ميدان القتال فى عام ٨٧ ق . م . ومابرحها الا ورفع حزب العامة رأسه ورجع ماريوس على رأس جيش من الايطاليين والارقاء

موت ماريوس — وتغلب على السناتو وانتخب قنصلا للمرة السابعة ولكنه مات بعد قليل .

عودة سلا — وفى تلك الاثناء كان سلا قد هزم مثراداتيس وعاد بجيشه غانما ظافراً ، وبعد قتال مع انصار حزب العامة انتصر سلا وأصبح الحاكم المطلق

الفتك باعدائه — وأول ماعمل كان الفتك باعدائه ويقال انه قتل منهم نحو ٤٧٠٠ ولم يكتف

اعادة نفوذ الاشراف — بذلك بل انتزع ملكهم ، ثم أعاد ما كان للاشراف من الكلمة وحرم العامة حقوقها وانتزع من التربيون حق رفض القوانين . ولما انتهى من كل ذلك نزل

موت سلا ٧٨ ق . م . — عن السلطة فى عام ٧٩ ق . م. ومات فى العام التالى .

نقض ذلك النظام القائم على القوة العسكرية قائد آخر مستنداً أيضاً على

ظهور بومبى — جنده . ذلك القائد هو بومبى . وأول ظهوره كان عند اخماده فتنة فى اسبانيا.

الحرب ضد القرصان — وفى عام ٧٠ ق. م. انتخب قنصلا وكلف تطهير البحر الابيض المتوسط من قرصان انتشروا فيه وعبثوا بالتجارة البحرية واستفحل أمرهم فقطعوا عن روما الغلال الآتية من مصر . وقد نجح بومبى نجاحا باهراً وتتبع القرصان الى حصونهم على سواحل آسيا الصغرى ودمرها

بومبى ومثراداتيس — وفى عام ٦٩ ق . م. تولى بومبى قيادة الحرب ضد مثراداتيس وكان قد أشعل نار الحرب ، فقضى عليه قضاء تاماً

سوريا ولاية رومانية

وردف ذلك بفتح سوريا وتحويلها الى ولاية رومانية وضم الى ملك الرومان أيضا ارشليم و بذلك صار الاسرائيليون رعية رومانية .



شكل « ٣١ » يوليوس قيصر

ظهور يوليوس قيصر

ظهر فى أثناء غياب بومبى فى الشرق رجل آخر هو يوليوس قيصر سيكون له شأن أيما شأن فى تاريخ روما . وأول مابدأ حياته السياسية كان فى حزب العامة لقرابته من ماريوس . ثم اتصل بزعيم اسمه كاتيلين وكان رجلا سيء السيرة طائشا دبر مؤامرة لقلب الحكومة . وقد كشف عن تلك المؤامرة شيشرون أخطب خطباء الرومان . وظن الناس أن لقيصر ضلعاً فيها فساءت سمعته وقتاً ما

مؤامرة كاتيلين

شيشرون

التحالف الثلاثى

وعند عودة بومبي من الشرق عالى الصيت واسع النفوذ اتفق هو وقيصر وكراسوس على اقتسام الحكم بينهم ، فانتخب قيصر قنصلا فى عام ٥٩ ق .م. وكان اذ ذاك فى الاربعين من عمره

اطماع قيصر

كان قيصر كبير الهمة يطمع فى أن يكون له من المجد ما كان لبومبي وكان عالى النفس لا يريد السلطة لذاتها ولكن للتمكن من اصلاح ما اختل من الاحوال .

الحرب فى غالة ٥٧ — ٥٠ ق . م .

عين قائدا لغالة (فرنسا الحالية) وكانت اذ ذاك تسكنها قبائل حربية شديدة الشجاعة لكن لاقبل لها بالجنود الرومانية المنظمة . أخضع قيصر تلك القبائل بعد حروب دامت ثمانية أعوام ، وخلد بذلك اسمه فى التاريخ الحربى . وقد ترك وصفاً بديعاً لتلك الحرب فقد كان كاتباً عظيما كما كان جنديا كبيرا .

النزول فى بريطانية

وفى أثناء حروبه فى غالة اجتاز البحر الى بريطانيا وتوغل فيها حتى نهر التيمس

روما فى اثناء غياب قيصر

أوجس السناتو خيفة من انتصار قيصر الباهر . والظاهر أيضا أن بومبى لم يرق له الشهرة العظيمة التى اكتسبها حليفه ، فانحاز الى جانب السناتو ، وكان قد قتل فى تلك الاثناء كراسوس ثالث الثلاثة فى حرب على الفرات

قيصر يعبر الروبيكون ٤٩ ق . م

فأمر السناتو قيصر بتسريح عسكره والرجوع الى روما ، وحاول هذا أن يقنعهم بالعدول عن أمرهم حقنا للدماء فلم ينجح ولم ير بدا من الرجوع على رأس جيشه ، فعاد واجتاز الروبيكون وهو الحد الفاصل لقيادته عن ايطاليا وتقدم نحو روما وأصبح الحكم للسيف .

فرار بومبى

قيصر ينتخب قنصلا

فر بومبى وزعماء السناتو من روما ودخل المدينة قيصر ظافرا وانتخب قنصلا

الحرب بين قيصر وبومبى

ذهب بومبي الى الشرق حيث كان له اسم كبير ، ولم تكن قوته مما يستهان بها ، اذ كان طوع أمره الاسطول الذى هزم به القرصان وكان له أنصار فى اسبانيا

قيصر فى اسبانيا

أغار قيصر على اسبانيا فى عام ٤٩ ق .م . وتغلب عليها ورجع الى روما قبل أن يتمكن بومبى من العودة اليها ، ثم لحقه فى شبه جزيرة البلقان وهزمه فى واقعة فرساليا ، ففر بومبى الى مصر وقتل فيها غدرا .

واقعة فرساليا ٤٨ ق . م .

قيصر في مصر — ذهب قيصر وراء عدوه الى مصر وكانت تحكمها إذ ذاك كليوبطرة فخضعت له وأقام معها وقتاً ثم غادرها وأخضع أنصار بومبى فى آسيا الصغرى .

قيصر في آسيا الصغرى — وقد كتب إذ ذاك رسالته المشهورة للسناتو : أتيت فرأيت فغلبت .

وما حلت سنة ٤٥ ق. م. إلا كان قيصر قد أخضع الدولة الرومانية كلها وعاد لروما وصار فيها الحاكم المطلق .

الاصلاح — كان قيصر رجل سياسة كما كان رجل سيف وقلم : لم ينهج منهج ماريوس وسلا السيء فعفا عن أعدائه ، وحتى السناتو لم يلغه مع علمه بعدم أهليته واكتفى بتجريده من كل سلطة ، وأبقى أيضاً من مظاهر الحكم الجمهورى انتخاب الموظفين .

ثم اهتم بتنفيذ مشروع الاخوين جراكوس ، وأصلح ما اختل من نظام الحكم فى المدن ، وشرع فى تنظيف مدينة روما ، وادخل اصلاحا فى حساب السنين ، وانشأ الطرق الكبرى .

وقد فكر أيضا فى التغلب على القبائل المتبربرة الساكنة بالقرب من نهر الرين ومد حدود الملك الى بحر الشمال .

قتل قيصر في ٤٤ ق.م. — ولكنه قتل وهو منهمك فى اصلاحه . قتله نفر تحت رياسة بروتوس وكاسيوس لمنعه من قلب النظام الجمهورى .

تجددت الفوضى بعد قتله ، فحاول السناتو إعادة الحالة الى ما كانت عليه أيام سلا ، ولكن قاومه حزب العامة وعلى رأسه رجلان قادران انتونى صديق قيصر الذى نهض للمطالبة بدم صديقه ، واستفز غضب الناس على قاتليه بمرثية مشهورة ، واكتافيوس قريب قيصر وكان اذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمره

انتونى — اكتافيوس

التحالف الثلاثى الثانى — وفى عام ٤٣ ق. م. انتخب قنصلا واقتسم السلطة هو وانتونى وليبيدوس وأول أعمالهم كان الثأر لقيصر من أعدائه ، فقتلوا منهم عدداً كبيراً منهم شيشرون

واقعة فلبى — وتعقبوا بروتوس ومن معه الى شبه جزيرة البلقان وهزموهم فى واقعة فلبى وقتلوهم

انتونى فى مصر — وبعد ذلك ذهب انتونى الى مصر لانحيازها الى أعداء قيصر وعاد اكتافيوس لايطاليا وتولى ليبيدوس حكم افريقية

وفى مصر أحب انتونى كليو بطرة حباً عظيما ، وعاش معها عيشة ترف وخمول ، وفكر فى اقامة دولة شرقية لها ولنفسه .

فانتهز اكتافيوس تلك الفرصة وأثار عليه غضب الرومان، وأعلن السناتو الحرب على كليو بطرة وهزم اكتافيوس الاسطول المصرى فى واقعة اكتيوم، واقتفى أثر انتونى وكليو بطرة الى مصر ، وقد انتحر الاثنان قبل وقوعهما فى قبضته . ودخلت مصر فى حكم الرومان

واقعة اكتيوم ٣١ ق . م

أصبح بعد ذلك اكتافيوس لا منافس له ، اذ لم يكن لبيدوس ذا خطر كبير ، وقد قبل التخلى عن السياسة وصار كاهناً كبيراً ، وانتهت بذلك الثورات والحروب الاهلية التى بدأت باصلاح جراكوس فى عام ١٣٣ ق. م.

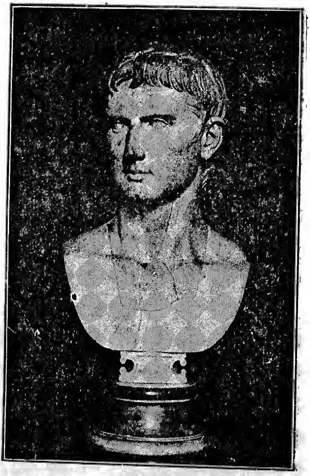
مصر ولاية رومانية

انتهاء عصر الثورات

الفصل السادس

تأسيس الأمبراطورية

وعصر أجسطوس



شكل (٣٢) اجسطوس

سياسة اكتافيوس

عاش اكتافيوس بعد انتصاره فى اكتيوم أربعة واربعين عاما صرف فى اثنائها جهدا كبيرا فى وضع النظام السياسى على أساس ثابت فكان بذلك

المؤسس للامبراطورية . بيد أنه عنى عناية كبيرة بأن لا يظهر بمظهر الحاكم المستبد ، فابقى وظائف الدولة كما هى ولكن جمعها كلها فى شخصه ، وتجنب التلقب بلقب الحاكم المطلق (دكتاتور) واكتفى بلقب اجسطوس أو الفخم أما لقب امبراطور فلم يكن اذ ذاك يدل إلا على قيادة الجيش ، وترك مظاهر الحكم الجمهورى على حالها . فاستمر السناتو يضع القوانين ، وبقى الموظفون يحكمون باسم الشعب . كل ذلك فى الظاهر فقط .

تلقبه بلقب اجسطوس

معنى لقب امبراطور

وعاش اجسطوس عيشة متجردة عن أبهة الملك : يذهب للمجالس العامة للتصويت كعامة الشعب ويجلس فى السناتو ويخطب فيه وأبواب منزله مفتوحة للواردين

ولكن كان فى الحقيقة الحاكم المطلق ، ويعاونه فى الحكم مجلس من اخصائه ، وله حرس يحفظ الامن ، ويعتمد عليهم فى ذلك وفى العناية بتدبير الغلال اللازمة لاهل روما ، ويتلقى أوامره فى ذلك الشأن موظفون من العتقاء يثق فى اخلاصهم له .

خيم النظام على روما فى ايامه وساد السلام فى ربوعها بعد أن طال عبث العابثين به واخذت الرفاهية تحل محل البؤس

بناء روما

واهتم اجسطوس بتجديد روما وتحسينها وقد باهى بذلك فقال : إنه وجد



شكل (٣٣) مثال من المجارى الرومانية لجلب الماء

مبانيها مبنية باللبن وتركها مبنية بالرخام . ونظم توزيع الماء على دورها وجلبه من مسافات بعيدة بمجارى عالية وخصص له طائفة من المهندسين . وحاول اصلاح الاخلاق فأحيا العبادات وقيد الطلاق كى يمنع تفكك الاسرات .

اصلاح الحكم فى الولايات

أخرج الامبراطور معظم الاقاليم من حكم السناتو ووضعها فى يده ، واهتم بازالة النظام السيء الذى تقدم وصفه . فكان هو الذى يعين الولاة ويجرى عليهم رواتب ثابتة ويراقبهم مراقبة تامة . وجعل لسكان الولايات حق انتخاب مجالس لها أن ترفع الشكوى للامبراطور نفسه .

ثم قام باحصاء دقيق للولايات وحدد بعده مقدار الضرائب فعلم الناس حينئذ ماعليهم بالضبط ، وخلصهم بذلك من ظلم الجباة وتحكم المرابين . وقد أردف ذلك باصلاح جليل هو انفاق معظم مايجيء من الاقليم فى الاقليم نفسه فى انشاء طرقه وقناطره ومجاريه وغير ذلك من المنافع العامة .

صار بذلك الحكم فى الاقاليم عادلا ثابتا .

الدولة الرومانية

كانت الدولة تحدها حدود طبيعية : نهر الرين فى الغرب والدانوب فى الشمال والفرات فى الشرق . وبالقرب من تلك الحدود كان المتبربرون .

الجيش

وقد نظم اجسطوس جيشا عظيما لحماية الحدود ، عقد له ثلاثة وعشرين لواء ، وجند أيضاً فرقا احتياطية من أهل الولايات ، و بلغ عدده جميعاً ٤٠٠،٠٠٠ جندى ، ووزعه فى معسكرات فى النقط المهمة ، و بذلك ساد السلام .

وقد فكر الامبراطور فى اخضاع المتبربرين شمالى الدانوب ومد الملك الى نهر الالب ولكن الجيش الذى أرسله لذلك الغرض هزمه المتبربرين وقفل راجعاً

عصر اجسطوس

وكان عصره من أزهى العصور حضارة .

شيشرون

وقد تقدم أن الرومان اتصلوا بالحضارة الاغريقية فأصبح متعلموهم شديدى الشغف بآداب الاغريق ، حتى كانوا يفضلون استعمال الاغريقية فيما بينهم على اللاتينية لغتهم . ولما قام شيشرون وكتب باللاتينية وأجاد إجادة عظيمة أثبت بذلك أنها تصلح للتعبير عن كل المعانى . ولا يزال ما كتبه شيشرون فى الخطابة

والأدب والتراسل نموذجا للادباء من جميع الامم ، ففضله على اللاتينية عظيم

وكان اجسطوس يميل الى مخالطة الادباء وتبعه فى ذلك بعض عظماء الرومان

مايسيناس — ومنهم مايسيناس ويضرب به المثل فى تشجيع الادب ورجاله . وأنشأ اجسطوس دارين عظيمين للكتب فى روما . فلا عجب أن ظهر فى عصره رجال نوابغ برزوا فى مختلف الفنون . فكتب ليفى تاريخا لروما استغرق وضعه اربعين عاما . وظهر من الشعراء هوراس وفيرجيل .

ليفى

هوراس وفيرجيل

هذا ما كان من أمر الادب ، ولكن الرومان لم يصلوا فى الرسم والبناء وصنع التماثيل الى ماوصل اليه الاغريق ، وكذلك فى العلوم . يدلك على



« شكل ٣٤ »

تمثال رومانى يوضح أثر الفن الاغريقى فى الفن الرومانى

ذلك أن المؤلف العلمى الوحيد الذى وضع فى عصر اجسطوس هو جغرافية اسطرابون ولم يكن اسطرابون رومانياً بل كان اغريقياً يسكن في روما . (اسطرابون)
كذلك فى الفلسفة لم يبلغ الرومان ما بلغه الاغريق .

(الحضارة الرومانية والحضارة الاغريقية)
وجملة القول أن الرومان امتازوا بحكمتهم السياسية فكانوا أقدر من الاغريق فى التشريع وا كفأ منهم فى الحكم والحرب ، أما الاغريق فكانوا شعباً واسع الخيال سريع الفهم بلغ فى الفنون والآداب مبلغا لم ير التاريخ له مثيلا

(موت اجسطوس ١٤ م .)
مات اجسطوس فى عام ١٤ م . وهو فى السادسة والسبعين من عمره ولم يترك ولداً فآل الحكم الى ابن زوجته تيبريوس

(تيبريوس عام ١٤ — ٣٧ م)
كان تيبريوس قائداً ماهرا وحاكما حازماً ، ولكن الناس لم يحبوه كما أحبوا اجسطوس اذ كان أميل للاستبداد ، وأقل عناية بالمحافظة على المظاهر الدستورية ، واكثر اقتصاداً فى نفقات الملاهى العامة . وفى آخر حكمه فسد تدبيره بعض الفساد فأصبح كثير الشكوك تخامره الاوهام ، وقتل عدداً من الناس ظنهم يأتمرون به ، واعتزل الناس وعاش فى جزيرة كابرى بالقرب من خليج نابولى وقد ترك المؤرخ العظيم تاسيتوس وصفاً دقيقاً لتيبريوس فى آخر أيامه . (تاسيتوس)

ويجدر بنا أن نذكر أن تاسيتوس لم يكن ممن يحبون الامبراطورية .

(كاليجولا وكلوديوس)
وحكم بعده كاليجولا ثم كلوديوس وليس لهما شأن كبير ، ولكن بفضل النظام الذى وضعه اجسطوس لم تشب حكمها شائبة

تولى كاليجولا وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، وقد اختل عقله لما تولى تلك السلطة الهائلة فانصرف الى الشهوات و بدد ماجمعه تيبريوس . و بلغ من اختلاله أن عين حصانه قنصلا مظهرا بذلك احتقاره للنظم الجمهورية . ثم قتل بعد حكم اربع سنين

(بريطانية ولاية رومانية)
وحكم بعده كلوديوس وكان ضعيف العقل والخلق . وأهم ما يذكر عن عصره اخضاعه الجزء الجنوبى من جزيرة بريطانية (انجلترا الحالية) للحكم الرومانى وقد مات مسموما .

(نيرون)
وتولى بعده نيرون ، وكان أسوأ من حكم : ترك حبل الامور على غاربها ،

وصرف وقته لاهيا لاعبا ، وأصبح يضرب به المثل فى القسوة ، فقتل الفيلسوف سنكا مؤدبه ووزيره وقتل أيضا أمه وهكذا .

قتل سنكا

احراق روما

وفى أيامه أحرقت مدينة روما . وذاع بين الناس أنه أحرقها ليكتسب فخر اعادة بنائها . وقيل أيضاً أنه جلس يعزف على قيثارته حينما كانت النار تلتهم المدينة . ولا صحة فى ذلك وان كانت الاشاعة تدل على رأى الناس فى نيرون وتوقعهم ارتكابه أى جرم .

موت نيرون عام ٦٨ م .

وقد أخذ يجمع المال للبناء واشتد فى ذلك فأثار ذلك استياء عاما ، وقتل نيرون نفسه قبل أن يقع فى أيدى الثوار لما علم بأن السناتو حكم باعدامه .

الفصل السابع

القياصرة الفلافيين والانتونين

فسبازيان ٦٩ — ٧٩ م.

قام من قواد الجيش بعد موت نيرون نزاع على العرش ، ونجح أحدهم فسبازيان وتولى الامبراطورية فى عام ٦٩ م .

حكم فسبازيان

يعرف فسبازيان ومن خلفه من أسرته بالقياصرة الفلافيين ، وكانوا حكاما عظاما أعادوا للدولة ما كانت عليه أيام اجسطوس من القوة والرفاهية .

أصلح فسبازيان ما اختل من الامور المالية ، وأعاد النظام فى الجيش ، واخمد الثورات المختلفة ، وأخرج من السناتو عديمى الاهلية من رجاله ، وألغى قانونا يبيح للامبراطور الفتك باعدائه جملة واحدة دون محاكمة

تيتوس ٧٩ — ٨٠ م.
تخريب ارشليم ٧٠ م.
تدمير بومبى ٧٩ م.

وتولى بعده ابنه تيتوس ، ولم يحكم الا عاما واحدا . وفى أيام أبيه تولى اخماد ثورة قام بها الاسرائيليون واستولى على ارشليم ودمرمبانيها . وقد حدث فى أيامه ثوران بركان فيزوف وتخريبه المدن على سفحه ومنها بومبى

انتهت مدة الفلافيين فى عام ٩٦ م . وقامت بعدهم أسرة الانتونيين

تراجان ٩٨ - ١١٧ م.
ولاية داشيا
اتساع الدولة فى الشرق

ومن أشهر رجال هذه الاسرة الامبراطور تراجان ، وكان قائدا ماهرا دفع المتبربرين عن حدود الدولة ، واستعمر ولاية داشيا وهى الآن جزء من رومانيا الحالية . وأضاف الى الدولة أيضا ارمينيا وأشور والارض بين الدجلة والفرات . وقد نصب فى روما العمود المشهور باسم عمود تراجان تخليدا لهذه الحروب

وكان تراجان يشبه اجسطوس فى شدة احترامه المظاهر الدستورية وفى بساطة عيشته



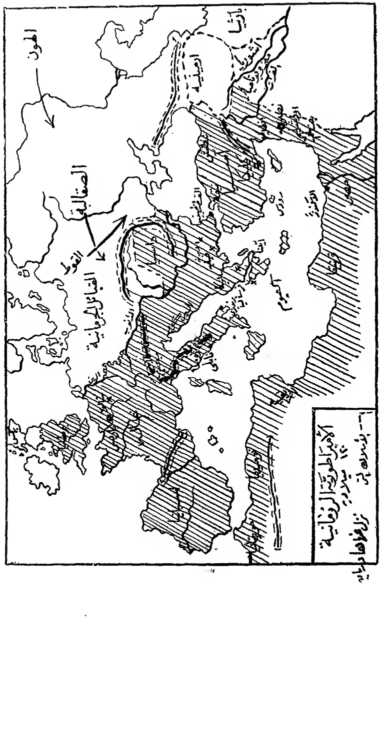
(شكل ٣٥) تراجان

هادريان
١١١ — ١٣٨ م .

وخلفه امبراطور عظيم هو هادريان ، وكان أيضا قائدا عظيما وحاكما ماهرا. ولما رأى أن فتوح سلفه كانت مصدر ضعف لاقوة تخلى عنها وجعل الفرات حد الدولة الشرقى . وبنى أسوارا على الحدود الشمالية لمنع المتبربرين من التوغل فى أرض الدولة . وأشهر تلك الاسوار سور هادريان فى شمالى انجلترة ، وكانت تمتد شرقا وغربا بين البحرين ، ولا تزال أجزاء منها باقية

سور هادريان

وكان يحب التجول فى الولايات ، وأينما حل ترك مايدل على عظم همته.


الهون
الصقالبة
القوط
القبائل الجرمانية

واهتم بنوع خاص باقامة المبانى المختلفة وترميم العمائر القديمة . وكان يحب أثينا حبا كبيرا ويميل للسكنى بها والعناية بها فكانت تعرف باسم مدينة هادريان



(شكل ٣٦) هادريان

ولهذا الامبراطور أثر آخر فى التاريخ الرومانى : وذلك أنه حتى أيامه كانت الادارة فى يد العتقاء فانتزعها منهم ، وأوجد لها موظفين ثابتين فى وظائفهم من الاحرار كما هو الحال فى الحكومات الحاضرة

الادارة

وبدأ أيضاً جمع القوانين المختلفة فى مجموعة واحدة هى أول مجموعة من نوعها .

القوانين

وبالجملة بلغت الدولة الرومانية أيامه مبلغ قوتها . وفى مدة خلفه بدأت

بدء اغارات البربرين

اغارات المتبربرين التى استمرت سنين عدة ، ولم تنته الا بانحلال الدولة وقيام ممالك المتبربرين محلها

مارکس اوريليوس
١٦٨ — ١٨٠ ق.م
تأملات
مارکس اوريليوس

اشتدت تلك الاغارات فى عهد أحد خلفاء هادريان الامبراطور الفيلسوف ماركس اوريليوس ، وقد خلف هذا الامبراطور مجلداً صغيراً يعرف باسم « تأملات ماركس اوريليوس » ، وتدل تأملاته على أنه كان يسعى طول حياته لبلوغ غاية الكمال الخلقى ، ولكن اغارات المتبربرين لم تدع له التمتع بهدوء الفلسفة ؛ فعاش طول حكمه فى حرب معهم . ولما يئس من الوصول لغرضه بالقتال استن سنة خطرة هى السماح لبعضهم بالسكنى فى أرض الدولة



(شكل ٣٧) ماركس اوريليوس

الفصل الثامن

عصر الفوضى الحربيه

عصر الفوضى الحربية. بدأ بموت ماركس اورليوس عصر سادت فيه الفوضى ، وذلك لتدخل الالوية المختلفة فى تعيين القياصرة . وقامت بينها حروب طويلة اضعفت الدولة اضعافاً كبيراً . ولا أدل على سوء الحالة من أنه حكم فى مائة سنة ثمانية وعشرون امبراطوراً .

نتجت من ذلك نتائج سيئة : فثارت عدة ولايات وخرجت عن حكم الدولة ، وعبث المتبربرون بالحدود وعاثوا فى ارضها فساداً .

دقلديانوس ٢٨٤ — ٣٠٥ م. تقسيم الدولة. وقد حاول الامبراطور دقلديانوس اصلاح ذلك ، وكان يرى ان لاطاقة لرجل واحد بحكم الدولة كلها فأقام معه امبراطورا آخر مقر حكمه ميلان فى ايطاليا وأقام أيضا قيصرين آخرين أقل مرتبة من دقلديانوس وزميله ويتوليان الامبراطورية بعد موتهما . وقد قدر ان ذلك الترتيب يمنع الجند من التدخل فى تعيين القياصرة .

اختص دقلديانوس بأمر الشرق وابتدع فى عيشته بدعة سيئة : تلك هى الانزواء عن أعين الشعب وحياطة شخصه بمظاهر الملكية الشرقية وظن أنه بذلك تعظم هيبته فلا يجسر فرد على مسه بسوء ، وزاد أيضاً فى عدد الموظفين لتوسيعه نطاق الحكومة

فشل سياسة دقلديانوس. فشلت سياسة دقلديانوس : فتقسيم الدولة لم يؤد الى الغرض منه ، فلم يمنع الحروب الاهلية ، والبذخ والاسراف والاكثار من عدد الموظفين أفقر الامبراطورية

قسطنطين ٣٠٩ — ٣٣٧ م. ولم يدم النظام الذى وضعه بعد موته ، اذ انتصر أحد الرومان قسطنطين على منافسيه وتولى الامبراطورية ووحدها ثانية .

تأسيس القسطنطينية ٣٣٠ م. اسس قسطنطين مدينة القسطنطينية واتخذها مقرا لدولته ، ثم رفع عن

المسيحيين الاضطهاد الذى انزله اسلافه بهم ، واعتنق دينهم وجعله دين الدولة الرسمى فى عام ٣١٢ م . واجتمع فى أيامه بناء على مشورته أول مجمع عام لكنائس الشرق والغرب فى مدينة نيقية بآسيا الصغرى

المسيحية دين الدولة الرسمى ٣١٢ م .

مجمع نيقية

الفصل التاسع

انتشار المسيحية

تمهيد

أشير فى آخر الفصل السابق الى انتصار المسيحية على الوثنية فى أيام قسطنطين، وثبتت بذلك دعائمها وأصبحت عنصراً مهماً من عناصر الحضارة الاوربية الحديثة . وأثر المسيحية فى التاريخ أعظم شأناً من القانون الرومانى والآداب اللاتينية والاغريقية : اذ أنها دين الملايين من الخلق ، أما الفلسفة والادب فلا تؤثر الا فى قليل من الناس ، فلا يسع طالب التاريخ الا العناية بدراستها دراسة تاريخية بعيدة عن الجدل الدينى

الدعوة للمسيحية — بولس — قتله فى روما ٦٥ ق ٠ م ٠

دعا حواريو المسيح الناس الى اعتناق دينه ، فاعتنقه أولا الكثير من بنى اسرائيل ، ثم أخذ بولس أحد الحواريين يحاول نشره بين غير الاسرائيليين فجال فى آسيا الصغرى و بلاد الاغريق وألقى عصا التسيار فى روما حيث أعدم فى عهد نيرون. وقد خلف بولس الرسائل التى كتبها فى اثناء رحلاته وانتشرت باللغة الاغريقية وشغف الناس بها . وانتشرت أيضاً كتب أربعة تقص سيرة المسيح وتتضمن تعاليمه ، وهذه الكتب الاربعة ورسائل بولس هى أهم محتويات العهد الجديد .

رسائله — الكتب الاربعة — العهد الجديد

أسباب انتشار المسيحية

انتشر الدين انتشاراً سريعاً فى سائر أرجاء الدولة الرومانية ، ولذلك الانتشار السريع أسباب :

ضعف الوثنية

منها ضعف الدين الرومانى الوثنى ، وعيبه وعيب العادات الوثنية جميعاً أنها لا تصلح للانسان الا فى طفولة الحضارة ، ينفر منها اذا نضج فكره وتكون خلقه ، فليست العبادات الوثنية إلا طقوساً ترمى الى اتقاء شر الالهة أو استجداء خيرها .

أثر الفلسفة

وقد حاولت الفلسفة تكميل مافى الوثنية من نقص: فعلم الفلاسفة الاغريق الفرق بين الخير والشر و بينوا واجبات الانسان المختلفة ، واهتمت طائفة

الرواقيون — الرواقيين بالاخلاق فحثت على الصبر والتجلد والتواضع ونهت عن الـكبر والاثرة واستنكرت الرق والقسوة .

انتشرت هذه الاراء بين الرومان، وهذه تأملات ماركس اوليوس أثر من آثارها، ولـكن الفلسفة لا تنفذ الى قلوب الـكثيرين ولا تبلغ من العامة ما يبلغه منها دين يعلم الوحدانية وحب الله والناس جميعاً ويقرر تساوى الخلق جميعاً .

انتشرت المسيحية بذلك ، ولم ترض حكومة الدولة الرومانية عن ذلك فعمدت الى اضطهاد معتنقيها :

أسباب اضطهاد المسيحيين — ولم يكن ذلك الاضطهاد صادراً عن غلظة قلب أو كره لـكل مالم يكن مألوفا فقط ، فقد اضطهد المسيحية بعض من اكرم القياصرة خلقا وأوسعهم فـكراً ، إنما كان الاضطهاد لشعور الحـكومة بأن الدين الجديد ينقض الاسس التى قام عليها المجتمع الرومانى :

أنـكرت المسيحية الرق والقسوة فى معاملة الارقاء على حين أن الوثنيـة تعدهما أمراً طبيعياً ، وحثت المسيحية على التواضع وانـكار الذات والاخوة أما الطبقات الرومانية الحاكمة فـكانت قائمة على تمييز الناس بعضهم عن بعض وتعد السعى الى القوة والجاه والثروة أمراً مشروعاً ، فلا عجب أن اوجست خيفة من انتشار الدين الجديد بين الفقراء والارقاء

عبادة الامبراطور — ورفض المسيحيون التعبد لتماثيل القياصرة المنصوبة فى المعابد وكانت تلك العبادة فرضاً على الجميع ، فعدت الحـكومة ذلك عصيانا وخيانة ، وحداها ذلك على اضطهاد المسيحيين وعدهم فئة خارجة على الجماعة

قسطنطين — وقد بلغ الاضطهاد أشده فى عهد نيرون ودقلديانوس ولـكنه لم يأت بالغرض المقصود منه ، بل زاد المسيحيين تمسكا بدينهم الى ان أصبحوا فى أيام قسطنطين اكثر عددا من الوثنيين ، فرأى هذا الامبراطور ان يجعل دين الـكثرة دين الدولة الرسمى .

الالحاد — ولما ارتفع عن المسيحيين الاضطهاد بدءوا ينقسمون فرقا وقام فيهم قسيس اسمه اريوس يدعو الى مذهب عرف بالآرية نسبة اليه ، فاجتمع من رجال

الدين مجمع كبير فى مدينة نيقية ونظر فى الخلاف السائد وقرر أن اريوس ملحد وطلب الى قسطنطين عقاب الملحدين. مجمع نيقية

و بعد قسطنطين حاول أحـد القياصرة نقض اعماله . وذلك الامبراطور جوليان نشأ فى أثينا ودرس الفلسفة الاغريقية وعمل على اعادة الوثنية ، ولكنه مات وعكس خلفه سياسته . جوليان المرتد

ولما استتب الامر المسيحية تماما أخذت الحكومة تضطهد الوثنية فأصدر الامبراطور ثيودوسيوس مرسوما يحتم اعتناق المسيحية وحرم عبادة الاوثان وأغلاق معابدها. اضطهاد الوثنية — مرسوم ثيودسيوس ٣٨٠ م

قامت الكنائس المختلفة فى المدن المهمة واشتهرت منها كنائس روما والاسكندرية وارشليم وانطاكية والقسطنطينية ، وجعلت لقسسها مراتب متتالية وصارت فى مجموعها شبيهة بحكومة منظمة . ولكنها كانت تختلف اختلافا جوهريا عن نظام الدولة الرومانى : فبينما كانت سلطة الامبراطور واستبدادية كان المسيحيون يشتركون فى انتخاب الاساقفة ، وكان الاسافقة يدبرون الامور المهمة بالتشاور معا فى مجامع عامة. تنظيم الكنيسة — الكنيسة جمهورية

تغلب على الدولة الرومانيـة المتبربرون وزال ملكها ولكن الكنيسة بقيت وكانت عظيمة الاثر فى تاريخ العصور الوسطى والعصور الحديثة . بقاء الكنيسة بعد زوال الدولة الرومانية

الفصل العاشر

انحلال الدولة الرومانية وتأسيس ممالك المتبربرين

أسباب اغارات المتبربرين

فى القرن الثانى بعد الميلاد أخذت القبائل المتبربرة الساكنة فى وسط أوربا وشمالها تحاول الاستيلاء على أراضى الدولة الرومانية .

وقد شجعهم على ذلك ماراوه من ضعف الدولة الحربى اذأن من المتبربرين من خدم فى الجيوش الرومانية . وطمع المتبربرون أيضا فى ثورة المدن الرومانية الا أن أعظم مابعثهم على الاغارة على الدولة فرارهم من وجه متبربرين آخرين قدموا من آسيا حوالى ذلك الوقت

حقيقة الاغارات

ونخطىء اذا تصورنا المتبربرين جميعاً زاحفين نحو الجنوب كسيل من الماء يجرف مايعتوره من العقبات ، أو اذا ظننا أن الحكومة الرومانيـة عجزت مرة واحدة عن صدهم فسقطت تواً . لم يكن الامر كذلك فكثيرا ماردهم الرومان وأثبتوا أنهم أكثر منهم دراية بفن الحرب . هـذا الى أن كثيرين من المتبربرين سكنوا فى الولايات الرومانيـة باذن من القياصرة ودانوا لهم بالطاعة بل وتلقبوا بالقاب رومانية

لفظ متبربرين

ويلزمنا أن ننبه أيضا الى أن لفظ متبربرين لايصح اطلاقه عليهم جميعاً فقد كانت قبائل منهم راغبة أشد رغبة فى الاحتفاظ بالحضارة الرومانية وعلى استعداد تام للتمدين والترقى .

تأسيس ممالك المتبربرين

انحلت الدولة الرومانية انحلالا بطيئاً وقامت محلها ممالك مختلفة متبربرة هى أصل الممالك الاوربية الحديثة . فلتاريخ المتبربرين حينئذ شأن كبير .

القوط

كان القوط يسكنون فى القرن الثالث وسط أوربا بين البحر الاسود وبحر بلطيق ، وانتشرت بينهم المسيحية ولكن على مذهب اريوس ، ثم هجم عليهم

الهون

تتار من آسيا يعرفون بالهون وذلك فى عام ٣٧٤ م . فسمح الامبراطور فالنس القوط بعبور الدانوب والسكنى فى أرض الدولة . ولكنه خشى كثرتهم فانقض

واقعة ادرنة عام ٣٧٨

عليهم ولـكنهم تغلبوا عليه وقتلوه فى واقعة أدرنه عام ٣٧٨ م . وفى عام ٣٨٣ منحهم الامبراطور ثيودوسيوس أرضا فى تراقيا وآسيا الصغرى على شرط أن يعينوه فى حروبه

تقسيم الدولة ٣٩٥ م .

الاريك زعيم القوط يستولى على روما ٤١٠ م .

وعند موت ثيودوسيوس فى عام ٣٩٥ م انقسمت الدولة قسمين : شرقية وعاصمتها القسطنطينية وغربية وعاصمتها روما . ثم تولى أمر القوط قائد طموح ولع بالحرب هو الاريك . غزا ايطاليا واستولى على روما فى عام ٤١٠ م . ولـكنه مات قبل أن يتم فتح ايطاليا ، وارتحل قومه ويعرفون بالقوط الغربيين غربا وأسسوا مملـكة لهم فى جنوبى فرنسا وشمالى اسبانيا

مملـكة القوط الغربيين

لم يستقر القوط اذن فى ايطاليا ، ولم يكن سقوط روما اذ ذاك انتهاء الدولة الرومانية ، ولـكن كان لذلك الحادث أثر كبير فى نفوس الناس اذ كانت تلك المرة هى الاولى لتغلب المتبربرين على تلك المدينة العظيمة

مملـكة الفندال فى افريقية

لم تنته الدولة حينئذ ولـكنها فقدت ولاياتها الواحدة بعد الاخرى ، فغزت قبائل الفندال افريقية فى عام ٤٢٩ م . وقد وصلوا اليها مارين بفرنسا واسبانيا وأسسوا مملـكتهم هناك . وكانوا على عكس القوط قساة القلوب نهابين ، وانطمست على أيديهم معالم الحضارة الرومانية بافريقية

الهون

اتيلا

وفى وقت ما اتحد الرومان والمتبربرون أمام خطر دهمهم جميعاً : ذلك هو اغارة الهون وكانوا متبربرين أسيويين أغاروا تحت قيادة ملـكهم أتيلا على شرق أوربا ونهبوه حتى أسوار مدينة القسطنطينية ، ثم اتجهوا غربا حتى وصلوا الى فرنسا ، وهناك عند مدينة تروى قابلتهم جموع الرومان والقوط وانتصروا عليهم فى واقعة حاسمة تعرف بواقعة شالون فى عام ٤٥١ م . وفى العام التالى غزا أتيلا ايطاليا ولـكنه لم يحاصر مدينة روما ، ومات فى عام ٤٥٣ م .

واقعة تروى أو شالون ٤٥١ م

نهب الفندال روما ٤٥٥ م .

انتهاء الدولة الرومانية الغربية ٤٧٦ م .

نجت روما بذلك من شره ولـكن دهمها الفندال فى عام ٤٥٥ م واستولوا عليها ونهبوها نهبا تاماً .

ادوكر — ضعف القياصرة فى روماعن دفع هـذه الكوارث المتوالية واستبد بالامر دونهم قواد الجند وكلهم من أصل متبربر ٠ وفى عام ٤٧٦ م أعلن أدوكر صاحب الأمر اذ ذاك انتهاء الدولة فى الغرب والاكتفاء بالامبراطور الحاكم فى القسطنطينية

بقيت الدولة الرومانية الشرقية حتى عام ١٤٥٣ م لما استولى محمد الفاتح على القسطنطينية وحاولت مراراً أن تحكم الاجزاء الغربية مثل ايطاليا واسبانيا وافريقية ولكن لم يكن نجاحها فى كل تلك المحاولات الا مؤقتا ٠ وكان الأمر فى غربى أوربا للممالك الجديدة ٠

ايطاليا بعد ٦٤٧ م٠ — تنازع على ايطاليا بعد عام ٤٧٦ م المتبربرون والقياصرة الشرقيون لاهميتها الجغرافية ولوجود روما بها

القوط الشرقيون فى ايطاليا ثيودوريك — انتصر المتبربرون فدخل ايطاليا القوط الشرقيون فى عام ٤٨٩ م تحت قيادة ملكهم ثيودوريك ٠

حكم ثيودوريك ايطاليا ثلاثا وثلاثين سنة ، وكان رجلامستنيراً عادلا ، استعان بالرومان فى الحكم وترك للرعية ما ألفته من القوانين وثلثى أرضها ٠ ولكن القوط لم يختلطوا بالايطاليين بل حال بين الشعبين اعتناق القوط مذهب أريوس وكان فى رأى الايطاليين الحاداً

جستنيان — و بعد موت ثيودوريك فى عام ٥٢٦ م نجح القيصر الشرقى جستنيان الذى خلد اسمه بجمع القوانين الرومانية فى استرجاع شمالى افريقية من الفندال وأجزاء من اسبانيا من القوط الغربيين وايطاليا من خلفاء ثيودوريك

اللمبارد فى ايطاليا — ولكن حكم القسطنطينية لم يدم طويلا ففى عام ٥٦٨ م ٠ أغارت على ايطاليا قبائل اللمبارد وتملكت معظم شبه الجزيرة ولكن احتفظت الدولة الرومانية الشرقية ببعض ممتلكاتها فى ايطاليا

مملكة البرجنديين — وفى اثناء ذلك أسست قبائل البرجنديين مملكة فى شرقى فرنسا تمتد من الالب حتى منابع اللوار

انجلترة — جلت الجيوش الرومانية عن بريطانية لما هدد المتبربرون روما وتركت

سكانها وشأنهم فلم يقووا على دفع قبائل الانجليز والسكسون والجوت التى تركت مواطنها الاولى حول مصب نهر الالب وأغارت على بريطانية فى القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد .

قامت للمغيرين ممالك متعددة صغيرة منها كنت وسكس وسسكس ونورثمبريا ومرسيا وايست انجليا ، ووقعت تلك الممالك فى حروب طويلة . وصارت انجلترة بذلك الانقسام بمعزل عن أوربا حتى أواسط القرن التاسع لما خضع معظمها لحكم واحد .

تقدم كيف أقام القوط الغربيون والبرجنديون ملكا فى جنوبى فرنسا وشرقيها ، أما فى شماليها فقام فيه ملك الفرنجة ، ولهم شأن عظيم فى التاريخ : فقد ورثوا ملك المتبربرين الآخرين ونشروا المسيحية وحكمهم فى أواسط أوربا وشماليها أى فى أرض لم تطأها قدم أى فاتح رومانى — ملك الفرنجة

وكانوا فى أول أمرهم قبائل متحاربة ثم تولى فى عام ٤٨١ م كلوفس زعامة بعض القبائل وأخذ يبسط سلطانه على جميع الفرنجة وعلى البرجنديين والقوط الغربيين ونجح فى ذلك نجاحا عظيما. — كلوفس

ومن أهم حوادث حكمه اعتناقه المسيحية فى عام ٤٩٦ م وكان ذلك بدء صداقة بين الفرنجة والبابوات رؤساء الكنيسة فى الغرب أثرت فى تاريخ العصور الوسطى تأثيرا كبيراً ، اذ ساعد البابوات ملوك الفرنجة بنفوذهم المعنوى ، وساعد ملوك الفرنجة البابوات على اسقاط ملوك اللمبارد وعلى ايجاد ملك فى ايطاليا يحكمه البابوات — الفرنجة والبابوية

الفصل الحادى عشر

مصر ولاية رومانية

علاقة الرومان بمصر

بدأت علاقة الرومان بمصر أيام البطالسة وقت أن كانت روما تكافح قرطاجنة ، وكانت تلك العلاقات ودية ، ثم خرجت روما من الحرب البونية ظافرة وضعف البطالسة فدخلت مصر فى حماية الرومان ، يدفعون عنها اعداءها الآتين من ناحية الشرق ويسيطرون على علاقاتها الخارجية ويتدخلون فيما يقوم بين أفراد أسرة البطالسة من نزاع . كل ذلك عملا بالسياسة التى تقدم وصفها والتى كانت تفضل السيطرة على أمم الشرق على حكمهم

وقد كان من نتائج ذلك أن ملوك مصر البطالسة لم يكن لهم بد من الاشتباك فى حرب الاحزاب فى روما التى تقدم وصف ادوارها عند الكلام على عصر الثورات . ومن ذلك أنه عندما فر بومبى بعد واقعة فرساليا الى مصر تبعه يوليوس قيصر . فاقام بها مدة مع كليوبطره (من أشهر شهيرات العالم) وانتصر لها وثبت قدمها فى الحكم ، وتنازع مع أحد القواد المصريين واستولى على الاسكندرية عنوة . ويقال إن مكتبة الاسكندرية الشهيرة أحرقت فى أثناء ذلك النزاع . ولكن قيصر لم يغير علاقات الرومان القديمة بمصر بل تركها كما كانت ولم يضم مصر الى ممتلكات الدولة الاخرى

يوليوس قيصر فى مصر

انتونى فى مصر

ولما قتل يوليوس قيصر وقام انتونى واكتافيوس للثأر من قتلته اشتبكت مصر أيضا فى حرب الاحزاب الرومانية وانضمت كليوبطرة الى اعداء انتونى واكتافيوس وأراد الاول معاقبتها على ذلك ، ولكنه أحبها حبا شديداً واقام

واقعة اكتيوم

معها فى مصر فى لهو، وقام النزاع بينه وبين زميله اكتافيوس، وانتصر اكتافيوس فى واقعة اكتيوم البحرية عام ٣١ م وانتحر انتونى وكليوبطرة وصارت مصر منذ ذلك التاريخ ولاية رومانية.

مصر ولاية رومانية

مصر فى عهد اجسطوس

تقدم أن اجسطوس غير من نظام الحكم فى الاقاليم وانه اخرج معظمها من سيطرة السناتو ووضعها تحت حكمه مباشرة. وقد كانت مصر من الولايات من هذا النوع ليس للسناتو فى أى أمر من أمورها دخل

ولم يغير الامبراطور من نظام الحكم المتبع فى زمن البطالسة فجعل على البلاد والياً مقرهاالاسكندرية وقسمها الى عدة مديريات يحكم كل منها مدير. وقد بقيت البلاد على هذا النظام حتى انتهاء الحكم الرومانى

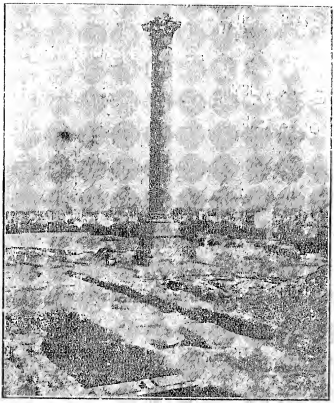
كذلك بدأ الحكم الرومانى فى عام ٣٠ م. واستمر هذا الحكم الى أن فتح العرب مصر فى عام ٦٤١ م

مميزات الحكم الرومانى

كان هذا الحكم حكما عسكرياً محضاً حكم دولة غالبة أمة مغلوبة، فلم تكن مصر فى اثنائه مركزاً للحضارة الرومانية كما كانت أيام البطالسة مركزاً للحضارة الاغريقية. ولم يك حكم مصر ولاة أجانب باسم قياصرة بعيدين مما يمنع زوال الحضارة المصرية القديمة فلم يكن لمصر أثر فى نمو الحضارة الرومانية ولا هى احتفظت بحضارتها القديمة

اهتم أفاضل القياصرة بحكم البلاد حكما عادلا وبالعناية بتجارتها وغير ذلك من موارد ثروتها: فاعاد تراجان مثلا الخليج بين النيل والبحر الاحمر وأصلح دقلديانوس من مالية البلاد وآثر أهل الاسكندرية على غيرهم فاقاموا عموداً تذكاراً له هو عمود السوارى المعروف، وفى عهد هذا القيصر وأمثاله عنى الرومان بدفع المتبربرين من عرب ونوبة وسكان الصحارى شرقى وادى النيل عن حدود مصر. وأقام القياصرة أيضاً بعض المبانى أو شيد أجزاء جديدة من معابد

عمود السوارى



(شكل ٣٨) عمود السوارى

حصن بابليون

قديمة . ومن أشهر عمائر الرومان حصن بابليون وهو بناء قديم يقال انه من صنع الفرس ولا تزال بعض ابراجه قائمة بمصر القديمة

ولم تكن الامور دائما على هذا المنوال فقدقاست مصر كثيراً أيام القياصرة الضعاف . فكانت تقوم عندئذ الفتن الكبيرة بين الاجناس المختلفة الساكنة فى مصر وعلى الاخص فى الاسكندرية بين اليهود والاغريق ، او يحاول عندئذ ذوو الاطماع من القواد الرومان الاستقلال بمصر ، او يحاول عندئذ المصريون رفع النير عن أعناقهم . وكل ذلك يؤدى الى سفك الدماء والفوضى وفقر البلاد وكان المتبربرون ينتهزون فرص الفوضى للاغارة على حدود البلاد ، و بلغ

الامر أن تمكنت مملكة صغيرة من الاستيلاء على مصر وحكمها سنتين: هذه هى مملكة تدمر الواقعة فى الصحراء بين سوريا والفرات أيام ملكتها المشهورة زنوبيا

استيلاء زنوبيا على مصر

انتشار المسيحية فى مصر

أهم ماحدث فى أثناء العهد الرومانى انتشار المسيحية فى مصر ولا يعلم بالضبط متى بدأ ذلك . والظاهر أن أول انتشارها كان بين اليهود المقيمين فى الاسكندرية ثم بين الاغريق ثم بين المصريين

اعتناق المصريين المسيحية

اعتنق المصريون كلهم المسيحية وكانوا على استعداد لذلك : فالعبادات الوثنية القديمة كانت قد فقدت سلطانها على عقولهم ، ووجدوا فى الدين الجديد عقيدة الحياة الآخرة ، وهى من أهم عقائدهم القديمة ، وكانوا شعبا مستعبداً له فى تعليم المسيحية الاجتماعى سلوى

الاختلاف بين المسيحيين الاغريق والمسيحيين المصريين

هناك اختلاف بين الكنيسة الاغريقية والكنيسة المصرية : فتغلب فى الاولى الآراء الفلسفية وحب الجدل ، اما الثانية فتغلب فيها روح الزهد والتأمل . فكثر من المصريين من انزوى عن مساوىء العالم وشروره ، وآوى الى الكهوف والصوامع . وقامت فى مصر الأديرة الكثيرة . والظاهر أن من المصريين من آثر الرهبنة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية .

الرهبنة فى مصر

الاضطهاد أيام دقلديانوس

قاومت الحكومة الرومانية انتشار المسيحية حتى أيام قسطنطين كما تقدم . وأسوأ الاضطهاد ماوقع أيام دقلديانوس فقد قتل بأمره عدد كبير من المسيحيين فى مصر . ويسمى الاقباط عصره بعصر الشهداء وجعلوا أول حكمه (سنة ٢٨٤ م) مبدأ لتاريخهم

انتهاء الحكم الرومانى

ساءت الحالة فى مصر على توالى الزمن ، فصارت البلاد فى فقر مدقع لاتقوى على دفع ما فرضته الحكومة عليها من الضرائب ، واشتد النزاع بين الطوائف الدينية المختلفة ، واختل الامن فى قراها وعلى حدودها

اغارة الفرس على مصر فى عام ٦١٧ م

كره المصريون حكم الرومان فلم يسؤهم توغل الفرس فى أملاك الدولة الرومانية وفتحهم الاسكندرية سنة ٦١٧ م . ولكن لم يدم حكم الفرس طويلا

فقد قام الامبراطور هرقل وأجلى الفرس من ممتلكاته وغزا بلادهم ودخل
عودة الرومان ٦٢٧ م. قاعدة ملكهم فاضطر الفرس الى الانسحاب من مصر وعاد اليها الرومان ،
وذلك فى عام ٦٢٨ م .

الفتوح الاسلامية لم تفد تلك الحروب لا الفرس ولا الرومان بل أضعفتهم جميعا وقت بدء
الفتوح الاسلامية العظيمة التى مالبثت ان امتدت الى فارس نفسها وانتزعت
فتح مصر ٦٤١ م. من الرومان سوريا وفلسطين ثم مصر فى عام ٦٤١ م .

معالم تاريخ العصور الوسطى

حسب المنهج الجديد للسنة الثانية بالمدارس الثانوية

تأليف

محمد رفعت و محمد احمد حسونه

ناظر مدرسة بنى سويف الثانوية — المفتش بوزارة المعارف العمومية

(الطبعة السادسة)

ديسمبر سنة ١٩٢٨

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

١٥٠٠/٢٨/٣٣٨٣

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أول ما كتبنا فى موضوع هذا الكتاب كان غرضنا مساعدة طلبة مدرسة المعلمين العليا ، فلما عدل منهج التاريخ بالمدارس الثانوية وتقررت دراسة العصور الوسطى فى السنة الثانية ، أصبحت الحاجة ماسة الى وضع كتاب يناسب مستوى طلبة هذه المدارس ، ويلم بكليات المنهج وجزئياته

لذلك عولنا على إصدار هذا الكتاب رجاء أن يسد فراغاً فى تاريخ العصور الوسطى الذى لا توجد فيه كتب باللغة العربية فيما نعلم . وغاية مارجوه أن يجد الطالب فيه خاصة ، والمتعلم عامة ، مرشدا ومعينا ، ومن أراد التوسع فى الموضوع ولا سيما فيما له علاقة بتاريخ أوربا ، فليرجع الى الطبعة الخاصة بطلبة مدرسة المعلمين العليا ؟

يوليه سنة ١٩٢٤ — محمد رفعت : ومحمد احمد حسونه

الفهرس

الخرائط

فهرس الصور

موضوعات المنهج الجديد

للسنة الثانية الثانوية

دراسة تاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب دراسة عامة مع العناية بتاريخ العرب

ا حالة أوربا والشرق قبل ظهور الإسلام

ب ظهور سيدنا محمد والفتوح العربية والخلافة ومدنية العرب

حـ ظهور البابوية والرهبنة فى أوربا وشرلمان والنظام الاقطاعى

د الحروب الصليبية وعلاقاتها بمصر

هـ الكفاح بين البابوية والامبراطورية

و نشأة الممالك الاوربية وتطور نظم الحكم فيها

« فرنسا إلى ابتداء حكم لويس الحادى عشر

ز انجلترا إلى نهاية حرب الوردتين

ح أسبانيا من الفتح العربى الى ظهور فرديناند وايزابلا

ط مصر منذ الفتح العربى الى نهاية حكم الفاطميين

ى الأتراك العثمانيون من نشأتهم الى فتح القسطنطينية

الفصل الأول

سقوط الدولة الرومانية الغربية

وظهور الشعوب المتبربرة

تمهيد

فى القرن الثالث الميلادى كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى نهر الفرات شرقا ومن الصحراء الكبرى جنوباً إلى الطونة والرين شمالا . وكان يسكن الامبراطورية أقوام يختلفون جنساً ولغة وعادة وديناً ، فكانت رومة تغرس فيهم حضارتها بمجرد استعدادهم لقبولها ، فمتى تم فتح إقليم بدأ صبغه بالصبغة الرومانية واذا اخلد أهله الى السكينة منحوا حقوقا مدنية تشابه حقوق أهل رومة نفسها . وقد تمت المساواة فى الامبراطورية سنة ٢١٥ م حين أصدر الامبراطور « كَرَكَلاَ Caracalla » مرسوما باعطاء جميع الأحرار من سكان الامبراطورية الحقوق التى كانت قاصرة على أهل رومة وباعتبارهم مواطنى هذه المدينة ، لأنه رغم الفروق التى كانت تفصل كل ولاية عن الأخرى شاعت بين الجميع مبادىء التهذيب الرومانى وانتشرت عوامل الحضارة الرومانية ، فجعلت الجهات المختلفة تسمو شيئاً فشيئاً الى المستوى الراقى الذى كانت رومة نفسها قد بلغته من قبل

وبسبب ترامى أطراف الدولة وصعوبة الدفاع عن حدودها ، لم يتسع المجال أمام الأباطرة لغزو القبائل المتبربرة التى كانت تتاخم حدود

الدولة في أوربا ، فاقتصروا على بناء الاستحكامات والقلاع وتحصين الحدود وأنشأوا الطرق لتسهيل تسيير الجيوش وتعبئتها . ولما انصرفت رغبة الرومان عن الانخراط فى سلك الجيوش لجأ القواد والأباطرة الى تجنيد المتبربرين فى رتب الجيش المختلفة. فلما صار منهم رؤساء استكثروا من بنى جلدتهم حتى فاق العنصر المتبربر فى الجيش والإدارة ، وسيطر المتبربرون على الامبراطور والحكومة ، وعرفوا مواطن الضعف فى الدولة ومهدوا السبيل للهجوم العام فى القرن الخامس

وأهم هذه الشعوب المتبربرة التى كانت تسكن وراء حدود الدولة وتغير عليها من حين لآخر قبائل الكلت والجرمان والصقلب

الكلت

فى القرن الرابع بعد الميلاد كان « الكلت Celts » يقطنون « غالة Gaul » وهى فرنسا الحالية ، والجزر البريطانية ، وكانوا يعيشون قبائل ، كل قبيلة تكوّن دولة يحكمها أشرافها ، ولم يكن للسواد الأعظم نصيب فى الحكومة، بل كانت السلطة فى يد جماعة من الاشراف ويسمون « درويد Druids » كانوا رؤساء للدين وقضاة ومرجعاً أعلى فى جميع الأمور الاخرى كلمتهم قانون ، ومن جرؤ على مخالفتهم جردوا عليه سيف الحرمان الذى يشبه الحرمان البابوى فى العصور الوسطى

وكان « الكلت » كبار الأجسام أقوياء شجعاناً مخاطرين فى الحروب ، مولعين بالموسيقى ولاسيما الحربية التى كانوا يتقدمون للقتال على نغماتها الحماسية ، مولعين بالشعر تؤثر فيهم بلاغة الخطباء . وكانت لغتهم كاملة

التكوين يمكن بها التعبير عن أنواع شتى من الأفكار والعواطف كذلك كانوا شديدى الحماسة لزعمائهم إلا أنهم كانوا سريعى التقلب والتحول متى أخمدت الويلات حماستهم



رئيس كلتى

وبعد أن فتح « يوليوس قيصر Julius Cæsar » غالة ، سرت فيها

مبادىء الحضارة الرومانية فاصطبغ الكلت هنالك بالصبغة الرومانية تماماً ونسى أكثرهم لغتهم الأصلية وجعلوا يتكلمون اللاتينية ، فأنشأوا مدناً كثيرة ذات معابد وحمامات ومسارح للتمثيل لا تفترق كثيراً عن المدن الرومانية . أما باقى الكلت الذين كانوا يسكنون بريطانيا وايرلندة فبقوا على سذاجتهم وعدائهم لرومة

الجرمان

كان « الجرمان Germans » يسكنون الأراضى الواقعة بين نهرى الرين والفستولا وبين بحر البلطيق ونهر الطونة، يتاخمون الدولة الرومانية على امتداد نهر الطونة والرين . ويمكن تقسيمهم بوجه عام الى ثلاثة أقسام: ـ الجرمان الغربيين ومنهم الفرنجة والألمان والسكسون ، والجرمان الشماليين ومنهم الدنمرقيون وأهل اسكندناوة ، والجرمان الشرقيين ومنهم القوط والوندال

نظامهم السياسى كان الجرمان يعيشون قبائل مستقلة، وكان نظام حكومتهم دمقراطياً فكان أحرار كل قرية يشتركون فى تدبير أمورهم المحلية ، أما الشئون العامة التى تهم القبيلة كلها فيشترك فى تدبيرها جميع أحرار القبيلة . وأما من الوجهة الاجتماعية فكانوا ثلاث طبقات : — الأشراف والعامة الأحرار والرقيق ، وكان الأشراف يتمتعون بميزات خاصة فى المجتمع ولكن صوت الرجل الحر كان مساوياً لصوت الشريف فى الجمعية العامة

الفروسية وكان من عادة الجرمان أن يلتف فريق من الشبان حول فارس مشهور بالشجاعة والخبرة بالحروب يعيشون معه ويصحبونه فى غزواته ،

وكان الفارس يفخر بكثرة من حوله من الشبان لأنهم يشيدون بذكره ويساعدونه على نيل مآربه

الدين وكانوا يعبدون الطبيعة ، ويجلّون الغابات وما يشبهها من الظواهر الغريبة ، ولم تنشأ بينهم طائفة من القساوسة كما نشأ بين الكلت والصقالبة

أما معيشتهم فكان قوامها الرعي والزراعة والصيد . وكان أكثر العاملين فى الزراعة والرعي من الرقيق والنساء . وكانوا لا يميلون إلى إنشاء مدن مكتظة بالسكان ، بل يفضلون الإقامة فى منازل متباعدة وسط الريف . وكان الجرمان ضخام الأجسام أقوياء البنية حمر الوجوه يضرب شعرهم إلى الشقرة ، ولوعين بالحرب والخمر والميسر . وبلغ من شغفهم بالميسر أنهم يقامرون بأولادهم ونسائهم بل وبحريتهم

الصقالبة

أما القبائل « الصقلبية Slavs » فكان مقامها شرقى الجرمان فيما يسمى الآن روسيا . وكان كلما تحرك الجرمان غربا أو جنوباً تبعتهم القبائل الصقلبية واحتلت ما هجروه من البلاد حتى وصلوا إلى نهر الألب غرباً

وكانت حكومتهم دمقراطية إلا أن النفوذ الأكبر كان للشيوخ، أما دينهم فكان ضرباً من الوثنية ، وكان لرجال الدين نفوذ فى السياسة والحرب ، وعلى الرغم من ضخامة أجسامهم لم يكونوا مطبوعين على الغزو . ولضعف إحساسهم بالقومية سهل امتزاجهم بالأجناس الأخرى وصبغ كثير منهم بالصبغة الجرمانية من بعد القرن التاسع للميلاد

بدء غارات القبائل المتبربرة

نقصد بالبرابرة القبائل السالفة الذكر التى كانت تسكن شمالى الدانوب وشرقى الرين وقد واصل الأباطرة خطة « أغسطوس Augustus » الدفاعية إزاء هذه القبائل فاكتفوا ببناء الحصون ووضع الحاميات على الحدود ولما كانت هذه الحدود ممتدة بدرجة لا يسهل فيها إحكام الدفاع وخاصة بعد أن دب الضعف فى جسم الدولة بدأ البرابرة يشنون الغارة عليها

مبدأ علاقات المتبربرين بالدولة

ولقد كانت العلاقات فى أول الأمر بين الدولة والبرابرة قاصرة على تبادل التجارة ، ثم تدخل البرابرة حباً فى الاستطلاع وطلباً للرزق ورغبة فى تعلم نظام الحكم الرومانى ، ثم بدأوا يدخلون فى خدمة الجيش

وعلى العموم يمكننا أن نقول إنه قبل سنة ٣٨٤م كان وجود البرابرة داخل الأمبراطورية قاصراً على استخدامهم فى الجيش وفى الإدارة، وأما بعد هذا التاريخ فبدأ تدخلهم الحربى الذى أدى الى استيلائهم على ممتلكات الدولة ، فكأن وجودهم فى الجيش والإدارة قد مهد لهم طريق احتلال البلاد

سبب الغارات

بدأ الهجوم العام للقبائل المتبربرة فى أواخر القرن الرابع ، وأثناء القرن الخامس بعد الميلاد . والسبب فى هذه الحركة ظهور قوة جديدة من جهة الشرق دفعت هذه القبائل أمامها جنوباً وغرباً: جاء هذا الضغط من ناحية قبائل «الهون Huns» وهم من الجنس المغولى ومهدهم الأصلى وسط آسيا ، بدأوا يزحفون غرباً فدفعوا أمامهم القبائل التيتونية أو الجرمانية.

القوط الغربيون

ولما اندفع « الهون » الى أوربا وغلبوا القوط الغربيين "Visigoths" ،

على نهر « دنيستر » عام ٣٧٤ هرع هؤلاء إلى الطونة يضرعون الى الامبراطور « فالنز Valenz » أن يسمح لهم بدخول بلاده فأذن لهم بالإقامة فى شمال البلقان لان أكثره كان قد خربته الحروب فأصبح غير مزروع فعبر الطونة منهم عدد يربو على مائة ألف وقد تحالف معهم الامبراطور الا أنهم ثاروا ونهبوا البلاد سنة ٣٧٨، وخف الامبراطور لإخضاعهم فقتل فى موقعة «أدرنة» وتبدد شمل جيشه. وقد كشفت هذه الموقعة ضعف الجيش الرومانى بعد أن صار أكثر رجاله وقواده من المتبربرين ، فطمع القوط وغيرهم فى امتلاك الدولة وجعلوا ينزحون اليها بأولادهم ونسائهم موقعة أدرنة ٣٧٨ م.

وخلفه الامبراطور «تيودوسيوس Theodosius » سنة ٣٧٩م. فانتصر على القوط وعاهدهم على أن يمنحهم أرضا فى تراقيا وآسيا الصغرى واشترط عليهم أن يقدموا لجيشه كل سنة أربعين ألف جندى يقودهم ضباط من القوط تحت إشراف الامبراطور ، ولم يظهر خطر ذلك أثناء حكم « تيودوسيوس » لشدة بأسه . ولكن لما خلفه أبناه الضعيفان « اركاديوس «Arcadius » فى الشرق و « هونوريوس Honorius » فى الغرب ، وعاصمته « رافنا » التى أختارها لمناعتها وكثرة المستنقعات حولها ، ارتقى العرش القوطى «ألرك Alaric » وهو أشهر اسم فى التاريخ القوطى. كان متحمساً للحرب طموحاً للفخار شريفاً فى معاملاته ومسيحياً مخلصاً نشب بينه وبين الدولة الشرقية خلاف فحاول أخذ العاصمة فحالت مناعتها دون أمنيته ، ففزا إيطاليا سنة ٤٠١ فقابلته جيوشها عند « ڤيرونا » تحت إمرة قائد من الوندال اسمه « ستليكو Stilicho » وطردته من إيطاليا بعد هزيمة منكرة وعلى الرغم من ذلك تعد سنة ٤٠١ نهاية الدولة الرومانية الغربية ، ألرك

أذ من ذلك التاريخ بدأ الرومان يجلون حامياتهم عن الولايات الخاضعة لهم لحماية إيطاليا نفسها. ولم تمض سنون قليلة حتى سنحت « لألرك » فرصة انتصار سهل، وذلك أن الامبراطور حسد قائده فأغرى به من قتله سنة ٤٠٨ م. فأبى الجيش أن يخدم « هونوريوس » وانضم أكثره الى « ألرك » فدخل أيطاليا واستولى على رومة فأحس الناس أن الارض قد زلزلت، لطول اعتقادهم بأن رومة مالكة العالم، وأنها المدينة الخالدة الابدية. وتقدم «ألرك» لإتمام فتح إيطاليا فمات في جنوبها سنة ٤١٠، فغادر القوط ايطاليا وزحفوا إلى بلاد الغال ومنها إلى أسبانيا حيث استقر بهم المقام نهائياً وأسسوا دولة امتدت من نهر « لوار » إلى المضيق المعروف بجبل طارق وبقوا بها الى أن جاء العرب سنة ٧١١م

قبائل البرغنديين

في منتصف القرن الثالث ترك البرغنديون موطنهم بين الڤستولا « والاودر » ونزلوا على المين والرين ومنحتهم الامبراطورية الجهة التي تحيط بمدينة « ورمز » سنة ٤١٣، ثم انتشروا في جنوب شرق فرنسا الى أن وصلوا إلى البحر الأبيض المتوسط. فبقوا مستقلين إلى أن هاجمهم الفرنجة فخضعوا لهم سنة ٥٣٤ واندمجوا فيهم ولا يزال الإقليم الذى كونوا فيه مملكتهم يعرف ببرغندية الى الآن

قبائل الوندال

في شتاء ٤٠٦ — ٤٠٧ عبر عدد عظيم من « الوندال » والسويڤي » — وكلاهما قريب من القوط — نهر الزين الأوسط وتوغلوا في البلاد على

مهل تاركين الأرض بلقعاً أينما ساروا ، حتى دخلوا مملكة القوط الغربيين فطردهم هؤلاء الى أسبانيا ثم عبروا الى أفريقية

همجية الوندال وكان « الوندال » جموعاً من المدمرين النهابين والقرصان الفاتكين تحكموا فى رقاب العباد فبادت حضارة أفريقية بعد أن كانت من أغنى ولايات الامبراطورية وأعلاها كعباً فى الحضارة . ولما أقام « جينسرك Genseric » فى قرطاجة تطلع الى نهب جديد ، وكانت قوته البحرية عظيمة فامتلك الجزر الواقعة فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، ونهب رومة نهباً ذريعاً سنة ٤٥٥ وأصبح الوندال أصحاب السيادة فى تلك الجهة. ولكن مناخ أفريقية لم يوافقهم، فضعفوا وانتشر الفساد بينهم فاخضعتهم الدولة الرومانية الشرقية سنة ٥٣٤ وبات اسمهم فى اللغات رمزاً للتدمير والتخريب

قبائل الهون

وفى أثناء الهرج الذى أحدثه تحرك هذه القبائل واجهت أوروبا خطراً داهماً من ناحية « الهون » أنفسهم إذ اتحدت قبائلهم بين الرين والفلجا سنة ٤٤٤ بزعامة قائدهم « اتلا Attila » الذى تمكن من إعداد جيش أكثره من الهون والجرمان وجعل يغير على الدولة الرومانية الشرقية ثم اخترق ألمانيا وأراد الهجوم على فرنسا وكان بعضها بيد الرومان هجوم الهون والبعض الآخر بيد قبائل الجرمان كما تقدم ، فاتحد الجانبان على مقاومة «اتلا» فقابلاه سنة ٤٥١ بقيادة آخر قائد رومانى عظيم وهو «اتيوس Aetius» فهزمه فى « شالون » فتقهقر « اتلا » عن طريق الطونة . وفى السنة التالية موقعة شالون اخترق ممرات الألب الشرقية وغزا إيطاليا حتى ميلان حيث تفشت

الحمى فى جيشه فاجتاز جبال الألب قافلا ومات فى السنة التالية . وتعتبر موقعة « شالون » من الوقائع الحاسمة فى التاريخ إذ تخلصت أوربا من حكم الجنس المغولى فى بلادها . وكان « اتلا » قد أوقع الرعب فى قلوب الرومان والجرمان ، فأطلقوا عليه لقب « عذاب الله » . وبموته تفرقت القبائل ، واستقلت كل العشائر الصقلبية والجرمانية التى كانت خاضعة لحكمه ، وتفرغت للاستفادة من ضعف الدولة الرومانية ، باعادة الكرة عليها كما كانت تفعل قبل هجوم « الهون »

نهاية الدولة الرومانية فى الغرب : على انه رغم كل ما وقع بقى طيف الامبراطورية فى ايطاليا وبقى فى «رافنا» شخص يسمى نفسه امبراطورا حوله حاشية ضخمة . أما القوة فكانت بيد القواد الذين تعاقبوا على قيادة الجنود وحكموا البلاد باسمه وكلهم متبربرون، حتى أنه فى سنة ٤٧٦ توج أحدهم وهو « ارستيز Orestes » ابنه « روميولس اغسطيولس Romulus Augustulus » امبراطوراً وكان يريد أن يحكم بالنيابة عنه ، لكن الجند ثاروا بقيادة زعيم يسمى «أدوكر Odoacer »فقتلوا «ارستيز» وعزلوا ابنه وبقى «أدوكر» صاحب الأمر، ولو أراد لتوج نفسه أو غيره امبراطوراً ، ولكنه لم يعبأ بذلك بل أرسل الى القسطنطينية التاج وبقية شارات الملك معلناً أن ايطاليا ليست فى حاجة الى امبراطور خاص . وطلب أن يمنح لقب حاكم ايطاليا فكان ذلك بمثابة اعتراف منه بسيادة الدولة الشرقية على ايطاليا ، وإن لم يكن لها غير الاسم بينما كان بيد « أدوكر » كل القوة

وبذلك انتهت فى سنة ٤٧٦ الامبراطورية فى الغرب الذى فيه

نشأت والذى كان عماد قوتها ، وان بقى قياصرة الشرق يلقبون أنفسهم رومان بأشكال شتّى نحو ألف سنة أخرى

القوط الشرقيون وعصرهم

بانتصار «أدوكر» سنة ٤٧٦ صارت ايطاليا فى قبضته رغم خضوعه للامبراطور نظرياً ، وكان يؤيده جيش عظيم أكثره من الجرمان فحكم البلاد حكما قوياً وأعاد الأمن إلى نصابه ونفذ القوانين فبدأت البلاد تفيق من آثار العسف والظلم وشرع الرخاء يرجع إليها لولا أن فاجأه عدو جديد وهم القوط الشرقيون

أقام القوط الشرقيون Ostrogoths مدة على نهر الطونة الأوسط واضطروا للخضوع للهون واشتركوا فى انتصارات « اتلا » وهزائمه ، ثم استقروا شرقى البحر الادرياتى ، تحت حكم ملكهم العظيم « ثيودوريك Theodoric » الذى قضى عشر سنين فى القسطنطينية خبر أثناءها أحوال البلاد الاجتماعية والدينية وعرف نقط القوة والضعف فى الامبراطورية وفى سنة ٤٨٩ حرضه الامبراطور «زينو Zeno» ـ الذى كان يود التخلص من «أدوكر» بأية وسيلة ـ على غزو إيطاليا فغزاها بجميع قومه وهزم «أدوكر» فى ثلاثة مواقع واتفق ثيودوريك و«أدوكر» أن يحكما البلاد معاً إلا أنه أثناء الاحتفال بالصلح قتل «أدوكر» وصار أمر ايطاليا بيد «ثيودوريك»

أعمال ثيودوريك

أبدى «ثيودوريك» نشاطاً واسع النطاق وحاول أن ينشىء مملكة قوية على أساس متين فأقام فى « رافنا » وأضاف كثيراً إلى مبانيها وكنائسها مشركا معه فى بنائه وسياسته نوابغ الرومان . وقلد مراسم

وشكل حكومة الدولة الشرقية ، وكان غرضه الجمع بين قوة القوط وحضارة الرومان

وعاشت ايطاليا فى هدوء غير معهود إلى أواخر حكم ثيودوريك إذ أصلح الطرق وجفف المستنقعات وحافظ على الأمن وأقام ميزان العدل وشجع الزراعة . فبدأت التجارة تنتعش بعد أن اضمحلت حتى اعترف البابا « أن ايطاليا قد هدأ روعها بعد عواصف الحرب الدائمة » وكانت له القوة الكبرى فى ايطاليا وغرب أوربا ، تربطه صلات المصاهرة أو المحالفة مع أكثر الممالك المتبربرة التى أنشئت أخيراً من برغنديين وفرنجة وقوط غربيين ووندال . وكانوا جميعاً يعترفون له بالمنزلة الأولى الا أنه عند موته سنة ٥٢٦ تبدد ملكه لعدم وجود وارث له

قبائل الانجليز والسكسون والجوت

لما أخذت الدولة الرومانية فى الضعف اضطرت إلى سحب حامياتها من الجهات النائية لتحمى وطنها الأصلى من غارة « الرك Alaric » فترك الرومان بريطانيا بعد أن نسى أهلها صفاتهم الحربية الاولى ، وأصبحوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم . فأغارت عليهم قبائل « الانجليز » و « السكسون » و « الجوت » الذين جاءوا من ألمانيا أثناء القرنين الخامس والسادس عقب سقوط الدولة الرومانية الغربية وسهل عليهم التغلب على البريطانيين الذين احتموا بالمستنقعات والجبال الغربية وأصبحت البلاد تعرف باسم « انجلند » أى أرض الانجليز ولذا يحسن التكلم عن هؤلاء المغيرين باسم الانجليز

كان الانجليز وثنيين عند ما هاجموا بريطانيا فأولعوا بنهب الأديرة والكنائس ، ولكن البابا « غريغورى الأكبر » أرسل اليهم الراهب « أغسطين Augustine سنة ٥٩٧ م . فانتشرت المسيحية بين الانجليز أنفسهم وارتبطوا من هذا العهد بأسقفية رومة . أما من الوجهة السياسية فقد أنشأوا ممالك صغيرة متنافرة بقيت فى نزاع وشحناء حتى تغلبت « وسكس » (أى مملكة السكسون الغربيين) على جميع الانجليز سنة ٨٢٥ وأصبح « أجبرت Egbert » ملكا على انجلترا كلها

قبائل اللمبارد فى ايطاليا

(٥٦٨ — ٧٧٤)

نزل بايطاليا قوم متبربرون من الجنس الجرمانى يسمون باللمبارد وكانوا قوماً همجيين وثنيين قطنوا شمال ايطاليا فى وادى نهر « بو » ولا يزال هذا الجزء معروفاً باسمهم للآن . وقد استولوا على كل ايطاليا ما عدا أماكن معينة كانت تحميها الامبراطورية الشرقية بأسطولها مثل صقلية وقرسقه وسردانيا

وقد تحسنت العلاقات بين اللمبارد وأهل ايطاليا ، على أثر تحول اللمبارد الى مذهب كنيسة رومة ، فأصبح من المستطاع الاختلاط والتزاوج فتركوا بذلك اسمهم فى شمال إيطاليا ، وبقوا عنصراً فى سكان البلاد وحضارتها ، بينما لم يترك القوط الغربيون ولا الشرقيون أثراً بعدهم

الفرنجة

الفرنجة « Franks » قوم من قبائل الجرمان يبدأ تاريخهم الحقيقى من سنة ٤٨١ م وهى ابتداء حكم ملكهم «كلوفس أو كلدوج Clodwig» حين كان موطنهم وادى الرين الأسفل ، والشلد والموز الى دوفر

حالة بلاد الغال

وكانت بلاد الغال متنازعة بين دول مختلفة فكان وادى السين تحت العلم الرومانى يحكمه « سيجريوس Sygarius » وكانت تلك الجهة آخر ما بقى من الدولة الرومانية شمال جبال الألب . وكان القوط الغربيون يقيمون جنوب نهر لوار ، والبرغنديون يسكنون حوض الرون وما يليه شرقاً ، والألمان Alamanni ينزلون فى أعالى الرين والغابة السوداء وكل هذه الجهات امتلكها « كلوفس » قبل موته . ووقعت له أثناء قتال الألمان قصة أهم من كل انتصاراته فى تاريخ الفرنجة ، وذلك أنه بتأثير زوجته — وكانت برغندية مسيحية — نذر أن يعتنق المسيحية اذا كلله آله المسيحيين بالنصر ، فلما انتصر اعتنق الدين المسيحى على

الفرنجة والكنيسة

مذهب الكنيسة الغربية سنة ٤٩٦ وتبعه كثير من الفرنجة ، فبدأت العلاقات الودية بين الكنيسة وملوك الفرنجة ، وبقى هذا الاتفاق قروناً طويلة ، وسهل على الفرنجة احتلال الأقاليم المجاورة وتكوين مملكة عظيمة

ولما مات كلوفس سنة ٥١١ قسمت أملاك الفرنجة بين أولاده الأربعة ولكنهم رغم ذلك وسعوا ملكهم بالتغلب على ثورنجيا وبرغندية وبفاريا .

وبدأ الفرنجة فى الغرب يتأثرون بحضارة الرومان تأثراً سريعاً ،

واختلفوا بذلك عن إخوانهم الذين بقوا فى الشرق محافظين على نظمهم وعاداتهم الجرمانية ، وساعد على هذا الانفصال بقاء القسمين الشرقى والغربى مدة طويلة تحت حكم ملكين متعاديين ، وسمى الجزء الشرقى « استراسيا Austrasia » والغربى « نستريا Neustria » وكان العنصر الجرمانى فائقاً فى أستراسيا التى نشأت منها ألمانيا الحديثة ، بينما التأثير الرومانى كان غالبا فى « نستريا » التى صارت فرنسا فيما بعد

حجاب القصر أو نظار السراى

ولما عظم قصر الملك أيام « كلوفس » عين على خدمه ناظراً يشرف عليهم صار مسئولا عن إدارة القصر، وكانت الوظيفة حقيرة فى أول أمرها الا أن صاحبها صار الواسطة بين الملك والرعية فعظم شأنه تدريجاً حتى أصبح وزيراً مسيطراً على الملك . وقد تمكن « پيپين Pepin » (٦٨٧ — ٧١٤) من الاستقلال بهذه الوظيفة فى استراسيا واستولى بعد حروب طويلة على نستريا فصار يحكم جميع الفرنجة ووضع بذلك أساس دولة شرلمان الشهيرة وجاء بعده ابنه « شارل مارتل Charles Martel » ٧١٤ — ٧٤١) شارل مارتل

وسّع شارل مملكته شرق الرين بانتصاره على السكسون والبقاريين وعاضد الكنيسة داخل بلاده وخارجها — كما عاضدها كل ملوك الفرنجة من بعده — وشجع المبشرين على نشر المسيحية بين الجرمان شرقى الرين ، فحسنت العلاقات بينه وبين البابا . وفى عهده حدثت موقعة « تور » سنة ٧٣٢ التى انتصر فيها شارل على عبد الرحمن الغافقى عامل بنى أمية على الأندلس ، وخلفه ابنه پيپين فى الحكم

الفرنجة والبابا

وفى هذه الأثناء كان اللمبارد قد انتزعوا من الدولة الشرقية كل شمال إيطاليا ، وجاروا على الأراضى التى كان يحكمها البابا بالنيابة عن الدولة

فاحتاج البابا إلى حليف يشد أزره على اللمبارد، ولم يكن فى استطاعته أن يستعين بالامبراطورية لما كان بين رومة وقسطنطينية من العداء الشديد، ولهذا استجار البابا بحاجب الفرنجة وكان « پيپين Pepin» يتطلع إلى التاج ويخشى العاقبة ، فأرسل وفداً الى البابا يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكا ، أصاحب اللقب الذى لا قوة له أم صاحب القوة الذى لا لقب له ، فأفتى البابا بأن صاحب القوة يجب أن يحوز اللقب أيضاً فتشجع « پيپين » بفتوى البابا ، وجمع الأشراف ورجال الدين فوافقوا على عزل

ملك الفرنجة

الملك القديم وحملوا « پيپين » على أعناقهم حسب عاداتهم وولوه ملكا وعرفت أسرته باسم الأسرة «الكارولنجية» نسبة الى ابنه شارل أو كارل وهو شرلمان. وكان لهذا التتويج شأن عظيم فى نظريات الملكية لان الملك كان ينتخبه أشراف البلاد ، فلما وافقت الكنيسة على تتويج « پيپين » ومسحته ملكا أصبح منصب الملك مقدساً لا يستطيع أحد أن يتعرض له دون أن يستهدف لسخط الكنيسة، فأصبح مركز الملك مصوناً من كل اعتداء ونشأت نظرية « الحق الآلهى» التى مؤداها أن الملك يستمد قوته من الله تعالى

پيپين فى ايطاليا

وفى سنة ٧٥٤ تقدم پيپين إلى ايطاليا وهزم اللمبارد وأجبرهم على رد أكثر ما استولوا عليه من الأقاليم وقدمه منحة للبابا ، وصار البابا يحكم ما بين راڤنا ورومة كأمير دنيوى نائب عن الملك وتابع له . وبهذا تكوّن ما يعرف فى التاريخ باسم « ميراث الرسول بطرس » . وقضى پيپين بقية حياته فى اصلاح شئون بلاده وتمهيد الطريق لقيام دولة شرلمان

الدولة الرومانية الشرقية

الامبراطور جستنيان Justinian ٥٢٧ – ٥٦٥ م

على الرغم مما أصاب الغرب بسبب غارات البرابرة ظلت الدولة الرومانية الشرقية قائمة محتفظة بقوتها ومدنيتها مدة ألف سنة بعد سقوط رومة . وذلك بفضل مناعة قسطنطينية وخيرات آسيا التي كانت تتدفق إليها ولصغر مساحتها بعد فقد الغرب ، إذ أن ذلك سهل مهمة الدفاع عنها إلا أن الدولة لم تكن رومانية إلا اسماً فقط والحقيقة أن مدنيتها ولغتها وجنسيتها أصبحت أغريقية

ومن أعظم الأباطرة الذين أصلحوا حال الدولة «جستنيان» وليس في تاريخ القياصرة أشهر من اسمه . كان جستنيان ذا مقدرة عظيمة له ولع بأشياء كثيرة كالبناء والقانون والدين والتجارة والصناعة والحرب والسياسة والادارة ، وكان قوى الارادة يحسن اختيار الرجال . ومن الأسماء الملازمة لاسمه اسم زوجه «ثيودورا Theodora » التي تزوج بها وكانت من الممثلات وقد لعبت دوراً هاماً في تاريخ جستنيان، واسم قائده « بلساريوس Belisarius » الذي أحرز انتصارات عظيمة بجنود قليلة ورفع شهرة الجيوش الرومانية الى أعلى مستوى بلغته في ماضيها

استرجاع افريقية

فلما أحس الامبراطور بقوة جيشه ومهارة قائده، التفت الى الولايات الغربية التي لم يزل يعتبرها جزءا من ملكه ، وأول مانزلت ضرباته على أفريقية التي دخلها « بلساريوس » عام ٥٣٣ ووجد « الوندال » في حالة لا يستطيعون معها المقاومة ففتحها في بحر سنة واحدة

استرجاع ايطاليا

وبعد فتح أفريقية توجه «بلساريوس» الى غنيمة أكبر، فعبر ومعه ٧٥٠٠ رجل الى صقلية فاحتلها بدون مشقة عام ٥٣٥، ونزل بجنوب ايطاليا فى السنة التالية فوجد القوط الشرقيين قد انحطوا كثيراً وإن لم يصلوا الى درجة الوندال . ولذا اكتسح «بلساريوس» كل شىء أمامه فسقطت نابلى ورومة . وعبثاً حاول القوط استرجاع رومة بجيش قدره ١٥٠٫٠٠٠ مقابل ٥٠٠٠ كان يقودهم بلساريوس

وفى سنة ٥٤٠ سلمت «رافنا» بسبب الجوع وعصيان الجند وعاد بلساريوس منتصراً إلى قسطنطينية فصار جستنيان أكبر قوة حربية ثم أضاف فى عصره جنوب شرقى أسبانيا سنة ٥٥٠

اضمحلال قوة جستنيان

و بعد هذا أخذ نجم جستنيان وقائده يأفل حتى لم تحقق نهاية حكمه الآمال التى كانت تنتظر فى أوله . إذ حصلت أزمة مالية شديدة ناتجة عن كثرة المبانى العظيمة التى شيدها والتى تشهد ببراعة المهندسين فى عصره وأهمها كنيسة «القديسة صوفيا»

ظهور الفرس والصقالبة

وأهم العوائق التى حالت دون نجاح تصميمات جستنيان مقاومة الفرس والصقالبة. فأما الفرس فبلغت منتهى قوتها فى عهد كسرى الأول (٥٣١ — ٥٧٩) فلم يستطع الأمبراطور أن يخضد شوكتها ، بل اضطر بعد جهود كبيرة أن يدفع جزية للفرس ويتنازل لهم عن شىء من أملاكه

وأما الصقالبة فأقاموا فى البلقان فيما يعرف الآن باسم يوجوسلافيا و بلغاريا واليونان واندمجوا بالسكان بدرجة عظيمة

ضياع ايطاليا ثم استرجاعها

أما فى ايطاليا فكثرت الشكوى من الجباة وساد السخط ،

فعرضت الفرصة للقوط الشرقيين ثانياً ، واستردوا ايطاليا ماعدا «رافنا» التى بقيت وحدها فى يد جستنيان . الا أن الامبراطورية لم تيأس من استرجاع ايطاليا فارسلت عام ٥٥٢ ذلك الرجل المسن« نرسيس Narses» وكان ذا مقدرة حربية عظيمة ، فتقدم الى ايطاليا براً ووصل الى رافنا ثم هزم القوط وأعاد ايطاليا موقتاً الى حكم الدولة الرومانية الشرقية

مجموعة القانون الرومانى وأهم ما يذكر به عصر «جستنيان » تأليفه لجنة لجمع شتات القانون الرومانى وبهذا تمَّ وضع المجموعة المعروفة باسمه ، خالية من المتناقضات ومن الأغلاط ، وظهرت أيضا مجموعة بأهم الأحكام التى أصدرها كبار المشرعين والقضاة .

واشتهر جستنيان بشدة اضطهاده للوثنية وكانت لا تزال باقية فى بعض جهات شبه جزيرة البلقان . وأدى به عداؤه للوثنية إلى غلق جامعة أثينا التى هى مركز للتعاليم الوثنية . وقد توالت المصائب على الدولة للأسباب التى ذكرناها وبسبب انتشار وباء فتاك قضى على عدد عظيم من سكان الدولة وعادت الحال الى ما كانت عليه قبل جستنيان

وجاء بعد جستنيان أباطرة ضعاف لم يزيدوا الدولة إلا خبالا الى أن اعتلى العرش « هرقل الأول Heraclius I. »(٦١٠—٦٤١) فحاول أن هرقل الأول ينهض بها ، ولكن النوائب ما فتئت تحل بالدولة من جراء المنازعات الدينية التى شغلت أذهان الناس حتى اضطر «هرقل» أن يقضى أكثر وقته فى محاولة حسمها ، وبسبب فداحة الضرائب الناشئة من تبذير الأباطرة

وإعفاء كثير من الطبقات الشريفة منها ، وازدياد قوة الشعوب الصقلبية النازلة فى البلقان واللمبارد فى ايطاليا

نهوض الفرس

ومما زاد الحالة سوءاً نهوض دولة الفرس الساسانية التى قامت سنة ٢٢٦ م . وأول ملوكها « أردشير الأول » الذى وحد ديانة الدولة ، ثم ما لبثت أن قويت الدولة فى عهد خلفه فهاجمت الدولة البوزنطية وأخذت انطاكية ومنذ ذلك الوقت استمر الكفاح بين الدولتين حتى خربت الحرب آسيا الصغرى التى كانت ميدان النضال بين دولتين إحداهما تمثل المسيحية والأخرى تمثل الديانة القديمة . ولما اعتلى كسرى الأول عرش الفرس (٥٣١ — ٥٧٩) تجددت قوة الدولة الساسانية فاستولى الفرس على بلاد اليمن التى كانت تحت حكم الحبشة وكان كسرى من معاصرى جستنيان واشتهر بحبه للعلم والعلماء والفتوح .

وفى عهد خلفه كسرى الثانى (٥٩٠— ٦٢٨) كسب الفرس عدة انتصارات باهرة ضد الدولة البوزنطية فأخذ دمشق والقدس عام ٦١٤ وفى ٦١٩ استولى على مصر وبذلك قضى على معظم أملاك الدولة البوزنطية فى الشرق

الا أنه ما كاد كسرى يستولى على هذه الأملاك حتى ظهر «هرقل» وصمم على إعادة مجد الدولة فجمع قواته وحارب الفرس وهزمهم فى عدة مواقع أهمها موقعة « نينوى » ٦٢٧ ولكن بينما كان الروم منتصرين فى الشرق كان الفرس يهددون القسطنطينية فى الغرب . وما لبث أن خرج ابن كسرى على أبيه وقتله وعقد الصلح مع الأمبراطور على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه أولا

وبينما كان أكبر ملوك الارض إذ ذاك يجدان فى توطيد ملكهما وتنظيم قواتهما ، إذ وصلت الى كل منهما سنة ٦٢٨ م . رسالة من شخص غير معروف لهما يدعوهما فيها للايمان بدين جديد . أما الامبراطور فلم يأبه للدعوة ، وأما كسرى فانه غضب ومزق الرسالة ورمى بها فى وجه حاملها . أما الرسالة فهى رسالة الاسلام لصاحبها محمد عليه الصلاة والسلام

الفصل الثانى

تاريخ العرب

بلاد العرب : جغرافيتها وحالتها الطبيعية

بلاد العرب شبه جزيرة واسعة تمتد من صحراء سوريا شمالا الى المحيط الهندى جنوبا ، ومن البحر الأحمر غربا الى الخليج الفارسى شرقا وتنقسم الى عدة أجزاء متباينة يختلف بعضها عن البعض الآخر من حيث التربة والمناخ والسكان . وأهمها الحجاز وينحصر بين البحر الأحمر وسلسلة الجبال المحاذية له ، وفى الزاوية الجنوبية الغربية توجد اليمن ، ويطلق اسم تهامة على سهول اليمن والحجاز ، وقد يقصر هـذا الاسم أحيانا على جنوب الحجاز ، وتقع حضرموت شرقى اليمن على شاطىء المحيط الهندى ، وعمان شرقى حضرموت وتوجد الاحساء والبحرين على خليج فارس وفى وسط بلاد العرب توجد هضبة نجد

وليس بجزيرة العرب أنهار صالحة للملاحة ، إنما يوجد نهيرات وسيول قليلة مبعثرة تخصب التربة حولها ، ويندر المطر بهذه البلاد ولذا كانت قاحلة ، اللهم إلا حول الأمواه ، حيث الخصوبة موفورة كما هو الشأن فى وديان اليمن حيث يزرع البن والنيلة والنخيل وأشجار الفاكهة بأنواعها وحيث الجو مائل الى البرودة شتاء .

أما الحجاز فكثيرة الأنجاد والوهاد ، ولا سيما حول مكة حيث تسطع أشعة الشمس المحرقة على صخور وعرة ووديان مقفرة، قليل كلؤها

ضئيل حيوانها ، إلا أنه إلى الشرق من مكة يوجد « الطائف » بيقله وأشجاره الضئيلة من تفاح وتين ورمان وعنب

أثر طبيعة البلاد فى أهلها

ولما كان أكثر هذه البلاد صحراء جدباء، يصعب التنقل بين فيافيها القليلة المدن والمؤن والماء، وكان جوها على العموم قارياً ، لم يجرؤ المهاجمون على التوغل فيها فتمتع أهلها بالحرية والاستقلال أكثر عصورهم ولم تقم بينهم حكومة مركزية يخضع لها جميع السكان، بل كانت القبيلة هى الوحدة السياسية والاقتصادية، تدافع عن كرامتها وتقوم بحاجاتها وتخضع لحكومة أبوية يرئسها الأكبر سناً أو الأرجح عقلا ، لايقطع أمراً دون أن يتعرف رأى وجوه قومه ، وقد أدت قلة خيرات البلاد الى تشاحن القبائل المختلفة على امتلاك الوديان الخصيبة والواحات اليانعة ، فكانت الحرب سجالا و بقى تنازع البقاء بين القبائل قائماً على قدم وساق حتى جاء الاسلام

أصل العرب

ويقال إن أول من نزل ببلاد العرب قوم من أصل كلدانى أسسوا حضارة لاتزال آثارها باقية باليمن، وقد قضى على هؤلاء قبائل من الجنس السامى جاءوا مما يلى الفرات شرقاً ونزلوا بحضرموت واليمن وهم بنو قحطان ومن نسلهم « يعرب » الذى سميت البلاد وأهلها باسمه . ثم جاء بنو إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، فنزلوا فى الحجاز وبنو الكعبة التى كانت ولا تزال أقدس بقعة عند العرب وسائر المسلمين

وينقسم العرب عامة الى حضر يقيمون فى المدن وبدو يسكنون الخيام ويهيمون فى الصحارى والهضاب انتجاعاً للمرعى. وكان عرب الطرف الشمالى الغربى على اتصال بالرومان ، كما أن أهل الطرف الشمالى الشرقى كانوا متصلين بالفرس أما اليمن فاستولت عليها الحبشة حوالى سنة ٥٠٠م

ثم طردها سيف بن ذى يزن بمساعدة الفرس الذين بقوا يحكمونها الى أن بادت حضارتها فى أوائل القرن السابع

الدين

وقد بقى اليهود والمسيحيون الذين دخلوا بلاد العرب على دينهم . أما العرب أنفسهم فكانوا يعبدون الأوثان والنجوم، ولكل جهة ولكل قبيلة آلهة ، وكانت الكعبة مركز عبادتهم جميعاً وبها أصنام تمثل آلهة القبائل المختلفة وتقدم لها القرابين حتى من بنى الانسان

أسواق العرب

ولما سئم العرب استمرار القتال جعلوا أربعة أشهر حرما — كما جعل الأوروبيون الهدنة الربانية — تبطل أثناءها المنازعات وتحقن الدماء، واستعملوا هذه الفرصة لتبادل المتاجر وعقدوا أسواقاً كعكاظ وذى المجاز للمباريات فى ميدان الفصاحة شعراً ونثراً ولتوزيع الجوائز على النابغين، فتقاربت أفكار العرب ولهجاتهم وأخذت لغة قريش تسود غيرها حتى نزل القرآن بها وأصبحت اللغة الأدبية والرسمية

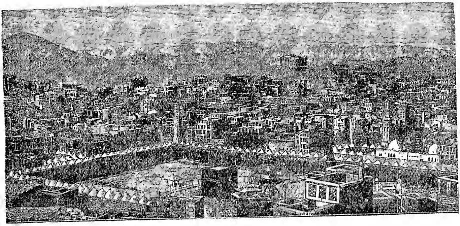
ظهور قريش

وأشتهر من بنى إسماعيل قريش فى القرن الثالث، وعلت منزلتهم بين العرب ثم ظهر من بينهم « قصى » فى القرن الخامس ، فسادمكة ثم الحجاز كله، وأعاد بناء الكعبة، وابتنى قصراً أطلق عليه دار الندوة، تجتمع فيها رؤساء القبائل أيام الموسم للتشاور فى أمور العرب كافة. ونظم «قصى» الحكومة وجمع الضرائب وأعدّ الطعام والشراب للحجاج، وورثاً بناؤه عنه منزلته ووظيفته الى أن وصلت إلى هاشم ثم إلى ابنه عبد المطلب سنة ٥٢٠ م ولم يكن لبنى هاشم منافسون سوى بنى أمية وهم أحفاد عبد الدار أحد إخوة «قصى» فحسدوا بنى هاشم على رفيع مكانتهم وحاولوا انتزاع حكم

مكة منهم فأخفقوا فى مسعاهم ، وبقى عبد المطلب يحكم مكة نحو تسع وخمسين سنة

عام الفيل

وفى عهد عبد المطلب أرسلت الحبشة جيشاً الى مكة بقيادة « أبرهة » وكان معه بضعة فيلة فوصل مكة عام ٥٧٠ الذى اشتهر بعام الفيل ، فوقع الرعب فى قلوب العرب لانهم لم يألفوا الغزو الأجنبى ولم يكن لهم علم باستعمال الفيلة فى الحروب ، فاستجار عبد المطلب بالكعبة



مكة المكرمة

ومالبث أن ارتد « أبرهة » على عقبيه لتفشى المرض فى جيشه ولهطول مطر وبرد اكتسح الوادى الذى كان يعسكر فيه جيش الحبشة (١) ولعظم وقع هذا الحادث فى نفوس العرب صاروا يؤرخون به ،

بعثة النبى صلى الله عليه وسلم

نشأة النبى

كان لعبد المطلب أبناء وبنات كثيرون اشتهر منهم أبو طالب والعباس وحمزة وأبو لهب وعبد الله . وكان عبدالله أصغر إخوته تزوج

(١) سورة الفيل

بآمنة بنت وهب ومات فى الخامسة والعشرين ، وبعد موته بأيام وضعت آمنة سنة ٥٧٠ ولداً سماه جده « محمداً » وسلمه الى حليمة السعدية لترضعه فنشأ معها فى الصحراء حتى بلغ السادسة حين ماتت أمه ، فكفله جده عبد المطلب فلما مات سنة ٥٧٩ كفله عمه أبوطالب الذى خلف أباه فى رياسة ملكه ولم يكن ثريا كأسلافه فقام بنوه وابن أخيه برعاية الغنم فكان النبى يفاخر بذلك ويقول مامن نبى إلا وقد رعى الغنم

ثم سافر سيدنا محمد وهو صبى مع عمه الى الشام فزاد علمه بالناس وحالهم وما كانوا عليه اذ ذاك من انحطاط فى الأخلاق وانقسام فى الدين

زواجه من خديجة

ولما بلغ النبى أشده قام بتجارة لخديجة وكانت أرملة من أغنياء مكة واشرافها ، فربح أرباحا وفيرة وعرفت فيه خديجة الدقة والأمانة فتزوجت به بعد أن رفضت التزوج من أشراف العرب . وكان عمره اذ ذاك خمساً وعشرين سنة وعمرها أربعين فولد لهما ثلاثة أولاد ماتوا أطفالا وثلاث بنات عشن حتى رأين عظمة أبيهن وتزوجت صغراهن « فاطمة الزهراء » من على بن أبى طالب

حياته قبل البعثة

قضى محمد بعد زواجه خمسة عشر عاما فى حياة هادئة بمكة عرف أثناءها بحلاوة شمائله وطهارته وإخلاصه وحبه للواجب وأمانته حتى لقب بالأمين . وظهر شأنه حين شرعت قريش فى إعادة بناء الكعبة واختلف أشراف مكة أيهم يضع الحجر الأسود فى مكانه ، فحكم بينهم وأرضاهم بأن وضع الحجر فى ردائه وطلب الى رؤساء القبائل جميعاً أن يرفعوا الرداء

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحب العزلة ويكره الملاهى ولا يشترك مع الجاهلية فى أعيادها واجتماعاتها وكان أمياً ولا يقول الشعر ، ولكنه تعلم شيئاً من دين ابراهيم عليه السلام من قريب له اسمه « ورقة بن نوفل » فكان يعمد الى غار « حراء » بالقرب من مكة يقيم به شهراً كل سنة متعبداً مفكراً

البعثة

فبينما هو كذلك مرة إذ نزل عليه الوحي وشعر أن مناديا يقول له اقرأ فقال ما أنا بقارىء فكررها عليه مرتين ثم قال « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » فارتجف قلب النبي خوفاً ورجع الى خديجة وأخبرها بما سمع ، فصدقته وأخذته الى ورقة بن نوفل فقال «هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى » فقام عليه السلام ينشر الدعوة سرا بين آله وصحبه فآمنت به خديجة ثم آمن على وأبو بكر وعمر وحمزة وعثمان

ايذاء قريش للنبي

ولما علمت قريش بدعوة النبي سخروا منه فلما رأوا قوة تمسكه بدعوته وشدة مراسه شكوه الى عمه أبى طالب فنصح له ، فقال رسول الله « والله ياعمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه» فجعلت قريش تؤذيه واشتد الايذاء بعد موت عمه أبى طالب وزوجه خديجة ، وبعد أن صارت زعامة مكة لأبى سفيان بن حرب بن أمية . فتحدته قريش بأن يأتى بالمعجزات فنزل قوله تعالى « سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا »وجعل الرسول يتلو عليهم القرآن وهو من أقوى معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، وبلغ من غلو قريش فى العناد والجحود أن قالوا بلسان

القرآن « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »

الهجرة ٦٢٢ م عند ذلك يئس النبي من كفار مكة وأمر أصحابه بالهجرة الى الحبشة ثم قصد «الطائف» فلم يلب الناس دعوته فعوّل على نشر ما أمر به فى موسم الحج فآمن به جماعة من أهل يثرب وتعاهدوا على حمايته اذا هو انتقل الى مدينتهم . فارسل بعض أصحابه اليها ثم ترك علياً فى فراشه وهاجر هو وأبو بكر ليلة دبّر الأعداء قتله سنة ٦٢٢م وهى أول التاريخ الهجرى فلما وصل اليها قابله أهلها بالبشر والترحاب (١)

مركز النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة

لما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيثرب سماها المدينة وبنى



المدينة المنورة

(١) استقبله أهل المدينة وهم يترنمون بالانشودة المعروفة حسب رواية بعضهم :

طلع البدر علينا . من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع

مسجداً عمل فيه بنفسه ومحا العداء بين الأوس والخزرج — وهما أشهر قبائل المدينة وكانت الحرب بينهما سجالا بتسميتهم جميعاً الأنصار ، وآخى بينهم وبين المهاجرين فعاشوا على وفاق بفضل قوة الجامعة الجديدة . وحث على الإخاء والرفق بالأطفال واليتامى والأرامل والأرقاء والحيوانات

الجمهورية فى المدينة

ولم يكن ببلاد العرب فى ذلك الوقت قانون أو نظام عام، بل كانت البلاد فى نزاع دائم وفوضى شاملة ، فبدأ النبي بوضع نظام ثابت لهذه الجمهورية الصغيرة ونشر عهداً لمنع الترات وإيقاف الشحناء وساوى يهود المدينة وما حولها بالمسلمين فى الحقوق ، وتعهدوا هم بالاشتراك فى الدفاع عن المدينة

الغزوات

وقد اغتاظت قريش لفرار محمد وأصحابه وحقدوا على أهل المدينة لإيواءهم المسلمين وتهددوهم ، فكان لابد من الاستعداد للدفاع . وبهذه الظروف أصبح رسول الله، لا داعياً الى الدين فحسب، بل رئيساً لحكومة المدينة وقائداً لجيشها. وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم الى سلسلة من الغزوات بها انتشر الاسلام بسرعة لم تعهد فى التاريخ ، وقد اشترك النبي صلى الله عليه وسلم فى تسع منها

وكانت قريش ترى أن محمداً وأصحابه انما هم شرذمة من الثوار يجب قتلهم ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة فى المدينة وهى على طريق التجارة الى الشام ، فجد المسلمون فى مهاجمة قوافل مكة ونالوا أول انتصار لهم فى السنة الأولى بعد الهجرة فى غزوة «بدر» على بضعة أميال من المدينة وقد أحسن المسلمون معاملة الأسرى

بدر

أحد

انقضت السنة الثانية فى هدوء بوجه عام إذا صرفنا النظر عن هجمات قليلة شنها أهل مكة على المدينة . فلما كانت السنة الثالثة جمع أبو سفيان ابن حرب بن أمية — عدو بنى هاشم — جيشاً يبلغ ثلاثة آلاف ، هزم بهم المسلمين على سفح جبل «أحد»، ولكنه لم يستطع التقدم الى المدينة لكثرة خسارته

غزوة الأحزاب

بعد أن ضمدت قريش جراحها جمعت حلفاءها وهاجمة المدينة بعشرة آلاف فجمع النبي أعوانه وحفر خندقاً حول جزء من المدينة ، واعتمد فى الدفاع عن الجهة الجنوبية على حلفائه من اليهود وهم « بنو قريظة» ولكن هؤلاء انضموا الى الأعداء وضيقوا الخناق على المسلمين مدة، حتى ظهر كأن العوامل الطبيعية تحارب مع المحصورين اذ هبت عواصف ممطرة قتلت كثيراً من خيل الكفار وقللت من مؤنهم فتفرق شملهم (١)

المسلمون واليهود فى المدينة

ولما نكث بنو قريظة عهدهم وانحازوا الى الأعداء رأى المسلمون انهم لا يأمنون على انفسهم مادامت هذه القبيلة قريبة منهم فطلبوا إليهم الارتحال فأبوا ، فقاتلوهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وكان المسلمون قبل ذلك يعطفون على اليهود ويولون وجوههم شطر أورشليم (بيت المقدس) فى صلاتهم ، فأخذ النبي بعد هذا يقلب وجهه فى السماء يريد قبلة يرضاها فأمر أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام . وفى هذا إرضاء واستمالة للعرب الذين كانوا يخشون على مركز مكة بعد ظهور الاسلام

وفى السنة السادسة أعطى النبي عهداً للرهبان خاصة وللمسيحيين عامة المقيمين فى بلاد العرب ، أن يدفع عنهم الأذى ويحمى كنائسهم

(١) سورة الاحزاب

وألا يطرد أسقفاً من أسقفيته ولا يكره أحداً منهم على ترك دينه ، ولا عهد النبي الى النصارى
تخرج راهباً من ديره ، وأن يساعدهم على إصلاح كنائسهم وأديرتهم ونزل قوله تعالى (لتجدنّ أشدَّ الناس عـداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرن) .

كـذلك أرسل النبي رسـلا الى ملك فارس وامبراطور الدولة رسل النبي الى الملوك
الرومانية الشرقية والى النجاشي بالحبشة وغيرهم ، يدعوهم الى الاسلام فمزّق ملك فارس الخطاب وأحسن أمبراطور الروم مقابلة الرسول وأرسل المقوقس هدية وجارية هى مارية أم ولده ابراهيم

وفى السنة السابعة عقد مع أهل مكة هدنة على اخلاء بلدهم حتى فتح مكة
يتمكّن المسلمون من الحج ففعلوا ، وحج المسلمون وعادوا الى المدينة . الا أنه بعد ذلك انقض أهل مكة على قبيلة محالفة للمسلمين وقتلوا كثيراً منها فاستجارت القبيلة بالنبي ، فسار الى مكة عام ٦٣٠ م فى عشرة آلاف ودخلها من غير مقاومة بسبب انضمام قائدين عظيمين من قريش هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . فأصبحت تحت رحمته قبل أن تنقضى ثمان سنين على فراره منها ليلا . فعفا عن أهلها، ولكنه دخل الكعبة وجعل أصحابه يحطمون الأصنام وهو يتلو (جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) وبذلك أسلم أهل مكة وعلى رأسهم أبو سفيان

كان من أثر فتح مكة أن جاءت وفود القبائل أفواجاً تطلب عام الوفود
اعتناق الاسلام ، فكان النبي يكرم مثواهم ويرسل معهم من يرشدهم ويعلمهم ويتولى أمرهم فلما انتشر الاسلام فى جزيرة العرب أحس رسول

حجة الوداع الله أن مهمته قد انقضت وعزم على أداء الحج كاملاً حتى لا يخطىء فيه أحد ، فدخل مكة فى ٨ ذى الحجة سنة ١٠ هـ (٨ مارس سنة ٦٣٢ م) وقبل أداء الفريضة اعتلى جبل عرفات وخطب خطبة الوداع الخالدة ومنها:

(أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، الى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . أن ربا الجاهلية موضوع وان دماء الجاهلية موضوعة ، وان مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية . وأن لنسائكم عليكم حقاً . . . فاتقوا الله فى نسائكم واستوصوا بهن خيرا . . . أيها الناس أن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ فليبلغ الحاضر منكم الغائب) ثم نزل قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)

ثم مرض النبى فجعل يوصى أصحابه بالتقوى والمحافظة على الدين حتى ثقل عليه المرض فقابل ربه وسنه ثلاث وستون سنة، فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيه سنة ٦٣٢ م) ولم يترك بعده من أبنائه إلا فاطمة الزهراء

أعمال النبى صلى الله عليه وسلم وأخلاقه

يحسن تقسيم حياته الى ثلاثة أدوار متباينة : الاول دور التعبد والنسك حين كان يقيم فى الغار منعزلا عن أهل مكة . لا يشاطرهم لهوهم وسرورهم ، وعرف بينهم بالنزاهة والصدق والأمانة حتى لقبوه جميعاً بالامين .

والدور الثانى قيامه صلى الله عليه وسلم بنشر رسالته سراً وجهراً وقد لاقى فى سبيل ذلك من السخرية والاضطهاد مالاقاه الأنبياء من قبل . فتدرع بالجلد والصبر ، ولم يتزعزع إيمانه ولا إيمان أتباعه على قلة عددهم ، بل ضحوا بكل شىء لإعلاء كلمة الحق وزادوا يقيناً كلما زادتهم قريش إيذاء

ولما يئس النبي وأتباعه من النجاح فى مكة هاجروا إلى المدينة وبدأ الدور الثالث من حياة رسول الله واضطر هو وأصحابه أن يقفوا موقف الدفاع وأن يستعدوا لصدّ غارات قريش . وزاد عدد المسلمين بعد الهجرة فكونوا جيشاً يتوقد غيرة وحماسة ويشرئب للجهاد نصراً للرسول وللاسلام ، فصار النبى حاكماً وقائداً ، وأظهر مهارة عظيمة فى إدارة شئون الجمهورية الجديدة وقيادة جيوشها ، فكان يخرج بنفسه للقتال ويتعرض لأخطار الحرب وكان مثالا عالياً لرباطة الجأش والاستبسال ، فتوالت انتصاراته ودانت له شبه جزيرة العرب بأكملها وبدأ الاسلام ينتشر فيما وراءها

ولقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكرم الناس خُلقاً ، متواضعاً حليماً كريماً شهماً غيوراً مقداماً جلداً بعيد النظر عادلا متسامحاً ولقد أجمل القرآن وصفه فى قوله تعالى « وإنك لعلى خلق عظيم »

أثر ظهور الاسلام فى العرب

لقد كان لظهور الاسلام فى بلاد العرب أثر عظيم فى أخلاقهم وعاداتهم ، فقضى على المنازعات والحروب القومية وأصبح للعرب حكومة

واحدة ورئيس واحد يسهر على مصالحهم ويقيم العدل بينهم . وهذا هو أول عهد العرب بحكومة منتظمة فى بلادهم . ثم إن الاسلام هذب أخلاق العرب وقضى على العادات الذميمة التى انتشرت بينهم فاعتدلوا فى معيشتهم وسلوكهم ، ونظروا فى إصلاح أحوالهم وترقية تجارتهم . وبالاختصار تهيأ العرب لاستقبال عهد الفتوح والمدنية الاسلامية

الخلافة

ولما مات النبى لم يصدق الناس الخبر وتسرب الشك والارتياب إلى نفوس العامة ، واستبعدوا أن يقع سيدنا محمد تحت تأثير القوانين الطبيعية مثل غيره من البشر ، وأن يكون هذا الشخص الذى أحدث هذا الانقلاب العظيم فى التاريخ بشراً يجوز عليه الموت

ظل الشك والارتياب فى أذهان الناس مدة ظهر فى أثنائها عمر ابن الخطاب وفى يده السيف يهدد الذين يؤكدون موت النبى قائلا «ان رجالا من المنافقين زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى ، وانه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقطع أيدى رجال زعموا أنه مات » فلما جاء أبو بكر وتأكد من موت الرسول خطب فى الناس خطبته المعروفة التى يقول فيها «أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت . ثم تلا الآية «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » وذكر الآية أيضاً « انك ميت وإنهم ميتون » نخف الهرج والمرج

من بين الناس وتحققوا خبر موت الرسول ورفعوا أصواتهم بالعويل والنحيب وكان عمر أكثرهم بكاء وتأثراً

خلافة ابى بكر (١١ — ١٣ هـ . ٦٣٢ — ٦٣٤ م)

ثم بحث الناس فيمن يخلف النبي فانه قد مات ولم يعين له خليفة ، بل ترك الأمر شورى بينهم حسب العادة المتبعة عند العرب. فتشعبت الآراء الى ثلاث شعب : فقال الانصار بجعل الخلافة انتخابية من غير شرط . وقال فريق بجعل الخلافة فى آل محمد . وقالت الأكثرية من المهاجرين بمبدأ الانتخاب بشرط أن يكون الخليفة من قريش لمن تكون الخلافة

وكان النبي قد أشار فى حياته الى كفاية على بن أبى طالب فى مواقف عدة : اذ كان علىّ أول من أسلم من الصبيان واشترك مع النبي فيما وقع له من اضطهاد فى مكة وكان من أكفأ قواده فى الغزوات ، وفوق ذلك كان صهر رسول الله وابن عمه ومن أسرة بنى هاشم — كل هذا كان من شأنه أن يدعو العرب الى اختيار سيدنا علىّ خليفة ولكن أشراف قريش كانوا يحسدون أسرة بنى هاشم وينقمون عليها فلم يقع اختيارهم عليه مزايا على

على أن النبي كان قد عهد الى أبى بكر بأن يصلى بالناس أثناء مرضه ويعد هذا اعترافاً منه بكفاية أبى بكر للرياسة بعده ، وقد كان أبو بكر أكبر الصحابة سناً وفضلا ولا يخفى أن العرب كانوا ينظرون الى كبر السن كعامل مهم فى اختيار رؤسائهم . لهذا — ولما عرف به أبو بكر بينهم من شدة غيرته على الاسلام وكثرة تجاربه — بايعه عمر خليفة مزايا أبو بكر

للنبي وبايعه الناس جميعاً بعد . وبهـذا قضى على الشقاق الذى قام بين المهاجرين والأنصار عقب وفاة النبي ، وفاز المذهب القائل بوجوب جعل الخلافة انتخابية بشرط أن يكون الخليفة من قريش. وقد خطب أبو بكر فى الناس خطبته المعروفة التى يقول فيها « أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقوّمونى »

الردة وما كاد ينتشر خبر وفاة النبي حتى ارتدت أكثر القبائل العربية عن الاسـلام وقام كذابون يدّعون النبوة ويحاربون المسلمين ، ومن هؤلاء طليحة ومسيلمة

وترجع سرعة ارتداد العرب عن الاسلام الى الأسباب الآتية :

١ أن الاسلام كبح جماح شهوات العرب وأتى بشدة لاقبل لهم باحتمالها كتحريم الخمر والميسر والأخذ بالثأر وتقييد حرية الزواج

٢ أن الاسلام كان يحتم جمع الزكاة وهـذا من الأسباب الاقتصادية التى دعت الى ارتداد العرب

٣ أن الاسلام أوجد حكومة واحدة وسيداً واحـداً يجب على العرب الخضوع له ، وهذا مالم يعتده العرب

على ذلك عاد الاسلام إلى سابق مركزه . فصار يدافع المسلمون عن أنفسهم وحياتهم ، ووقفت المدينة تجاهد كما جاهدت أيام النبي ولم يبق معها الا الطائف ومكة ، وفى هذا الظرف العصيب أظهر المسلمون المخلصون غيرة وتفانياً فى خدمة الدعوة الاسلاميـة كما أظهروا ذلك فى مدة النبي . وبحسن تدبير أبى بكر ومن ساعده من قواد العرب

المشهورين — وأولهم خالدبن الوليد الذى قضى على مسيلمة فى اليمامة — خضعت شبه جزيرة العرب وعاد الاسلام الى القوة التى كان عليها أيام النبي صلى الله عليه وسلم

فتوح العرب

أول اشتباك العرب مع الروم والفرس

وكان النبي قبل وفاته قد أعد حملة بقيادة « أسامة بن زيد » لمعاقبة بنى غسان لتجرئهم على قتل رسول النبي اليهم . فرأى أبو بكر أن من مصلحة الاسلام أن يواصل العمل فى تجهيز هـذه الحملة ليعتقد العرب أن الاسلام قوة تصعب مقاومتهـا . وعلى ذلك خرجت الحملة نحو «بنى غسان» الذين كانوا من قبائل العرب ، وكانوا يدينون بالمسيحية ويعترفون للدولة الرومانية الشرقية «بالسيادة » عليهم فـكان ذلك مبدأ احتكاك العرب بدولة الروم. كذلك سيّر أبو بكر حملة نحو القبائل العربية الساكنة شرق نهر الفرات عند «الحيرة» . وتعرف هذه القبائل بقبائل « بنى تغلب » — وكانوا يدينون بالمسيحية أيضاً ويحكمهم أمراء من العرب يخضعون لسيادة دولة الفرس الساسانية ، وبذلك بدأ احتكاك العرب بالفرس

فتح الحيرة

لما تم اخضاع العرب المرتدين فى شبه الجزيرة ، تهيأ الاسلام للفتوح الخارجية ووجدت القبائل العربية المتمردة فى هذه الحروب مجالا واسعاً للغنيمة والظفر والاستشهاد ، فسار خالدبن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانى نحو الحيرة فسقطت فى أيدى المسلمين

عند ذلك تنبه الفرس وخافوا انتصار هذه الأمة البسيطة الفتية .

وكانت دولة الفرس الساسانية لا تزال قوية يمتد نفوذها فى وسط آسيا إلى حدود الصين والهند ، وتبسط سلطانها على العراق وخراسان وبلاد العجم والأقاليم التى حول بحر قزوين . فالتفت الفرس للعرب وأخذوا يعدون العدة لطردهم من « الحيرة » وردهم الى بلادهم . وفى ذلك الوقت حدث انقلاب فى حكومة الفرس ، فاعتلى العرش الملك « يزدجرد » فجمع جيشاً قويا عين على رأسه القائد الفارسى الشهير « رستم » واضطر العرب فى مبدأ الأمر الى التقهقر لقلة عددهم وباتوا ينتظرون المدد من المدينة . وكان أبو بكر قبل وفاته قد أرسل خالد بن الوليد الى الشام ، وعلى ذلك أرسل الخليفة عمر قوة تبلغ ثلاثين الف جندى على رأسها «سعد ابن أبى وقاص» وتقابل الطرفان فى واقعة «القادسية» سنة ٦٣٦ م واستمرت الواقعة ثلاثة أيام حمى فى أثنائها وطيس القتال وانتهت بهزيمة الفرس ويقال إنه كان فى جيش الفرس بعض الفيلة وهذه أحدثت اضطرابا عظيما فى معسكرهم لما أصابها من سهام العرب

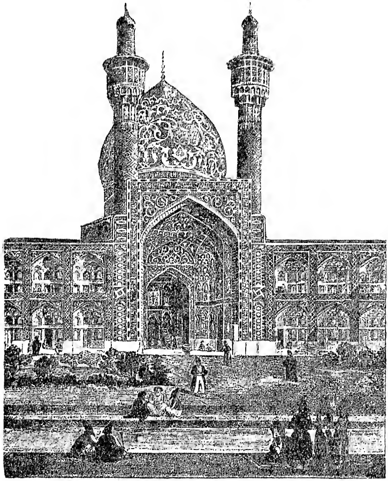
واقعة القادسية ٦٣٦ م

ويعد هذا من الانتصارات الحاسمة سقطت بلاد العراق وما بين النهرين فى يد العرب على أثرها ، وارتد الفرس الى عاصمتهم « المدائن » فتبعهم سعد اليها وسقطت «المدائن» فى يده وبسقوطها سقطت حكومة الفرس وفر الملك يزدجرد شرقاً وأخذ يحرض قومه على الالتفاف حوله فى « حُلوان » ، فرأت العرب ضرورة القضاء على يزدجرد وحركته فساروا نحوه ودارت بينهما واقعة « نهاوند » سنة ٦٤٢ م . وفى هذه الواقعة هزم الفرس هزيمة نهائية ولم تبق لهم قوة فى البلاد وفرّ يزدجرد الى حدود الصين حيث قتل،وفى هذه الحرب غنم المسلمون غنائم عظيمة وكان يوزع

بعض الغنائم على الصحابة وبعضها على الجنود

المسلمون فى فارس

وعلى أثر ذلك أصبحت فارس وممتلكاتها ضمن دولة الاسلام ، وبنى المسلمون البصرة على خليج العجم وبنوا (الكوفة) على الشاطىء الغربى لنهر الفرات وأصبحت الكوفة مقر الحكومة بدل المدائن



مسجد بأصفهان

واعتنق الفرس الاسلام واختلطوا بالعرب وصاهروهم وأصبحوا عنصراً اسلامياً هاماً ويعرفون عند قبائل العرب « بالموالى » وأسس العرب فى

بلاد الفرس حكومة قوية مصلحة صانت الفلاحين من اضطهاد الأشراف وتركت لهم الأرض يزرعونها ، واهتمت بعمل إحصاء عام لكل محصولات البلاد

وأظهر العرب مع الشعوب التى خضعت لهم تسامحاً وفرضوا على من لا يقبل الاسلام منهم جزية تشبه البدل العسكرى فى بلادنا فى الوقت الحاضر وفيما عدا ذلك لم يتدخلوا فى الشئون الدينية

خلافة عمر (١٣ — ٢٣ هـ — ٦٢٤ — ٦٤٤ م)

وقبل أن نتكلم على حرب العرب مع الروم يجب أن نذكر أن أبا بكر مات سنة ٦٣٤ م بعد أن تمكن بحسن تدبيره و بفضل مجهودات خالد بن الوليد وغيره من قواد المسلمين أن يصون البلاد من خطر الردة وأن يحتفظ بوحدة العرب ووحدة الاسلام وهذا أعظم فخر لأبى بكر. وقبل أن يموت وصى بانتخاب عمر خليفة له لأنه رأى المسلمين فى حرب مع الدول الأجنبية إذ كانوا يحاربون الروم من جهة والفرس من جهة أخرى ، فلو حدث أى انقسام داخلى بين العرب لساءت العاقبة . ولذلك انتخب عمر بدون معارضة وواصل الخطة التى سار عليها أبو بكر من قبل . وكان عمر من أقوى الصحابة شخصية وأعلاهم همة وأشدهم غيرة على الحق والانصاف

حرب العرب مع الروم

كانت البلاد الواقعة غربى نهر الفرات (فلسطين وسوريا) خاضعة للدولة الرومانية الشرقية ، وكان بعض سكان هذه الأقاليم من عنصر

عربي وجميعهم من الجنس السامى وعلى ذلك كانت تربطهم بالعرب الرابطة الجنسية .

حالة الدولة البوزنطية

وكانت الدولة البوزنطية قد أنهكت قواها فى حروبها مع دولة الفرس الساسانية ولم تكن هناك روابط طبيعية تربط الدولة برعاياها ، فكانت الشعوب تئن من ثقل الضرائب التى كانت تجبيها الحكومة ومن الاضطهادات والانقسامات التى سادت مدة طويلة فى أنحاء الدولة . على أن الدولة البوزنطية كانت لا تزال لها آسيا الصغرى والشام ومصر وفلسطين وشمال أفريقية وشبه جزيرة البلقان وجزائر فى البحر الأبيض وكان في مقدورها أن تعبىء جيوشاً أكثر عدداً من جيوش العرب . ولكن جيوشها لم تكن متجانسة ولا متفقة فى الشعور ولم تكن مندفعة بروح حماسى كالروح الذى كان يدفع العرب، ومما يدل على كره الشعوب للحكومة الرومية أنها لم تحاول القيام ضد العرب أثناء فتوحاتهم بل على النقيض كانت تسهل الفتح عليها

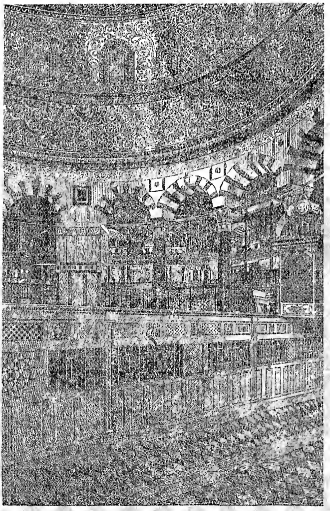
الحرب

بعد عودة حملة «أسامة» جهز أبو بكر أربعة جيوش للزحف على سوريا — وأهم هذه الجيوش ما كان بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ووجهته حمص والذى كان بقيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين . ومجموع هذه الجيوش الاربعة خمس وثلاثون ألف جندى

واقعة اليرموك ٦٣٤ م

وجاء الامبراطور «هرقل» ليرقب الحالة الحربية وبلغ جيش الروم مائتين وأربعين ألفاً. فرأى المسلمون ضرورة جمع قواهم وتوحيد قيادتهم برياسة أبى عبيدة، وكان العدو قد اختار موضعاً حصيناً على نهر «اليرموك» وهو فرع من فروع «الاردن ووقف عند انحاء في النهر يسمى «واقوصة»

فوقف المسلمون أمام العدو واستمروا على هذه الحالة حتى أرسل أبو بكر خالد بن الوليد من العراق لينضم الى جيش أبي عبيدة ، فأصبحت قوة العرب أربعين ألفاً . وبقدوم خالد دارت المعركة وكانت القاضية على



داخل مسجد جامع عمر بالقدس

الروم ، ويرجع الفضل في هذا الانتصار الى مهارة خالد . وهذه أيضاً من

الوقائع الحاسمة التى كسبها العرب فلم يجدوا بعدها صعوبة فى فتح المدن الباقية كدمشق وانطاكية . وبينما كان أبو عبيدة الذى عينه عمر قائداً عاماً — بدل خالد الذى قبل عن طيب خاطر أن يخدم تحت إمرة أبى عبيدة — يفتح الشام ، كان عمرو بن العاص يفتح فلسطين ، فانتصر على الروم فى واقعة «أجنادين» وكان انتصاراً حاسماً كواقعة اليرموك وعلى أثره فتحت غزة ويافا والرملة وصور ، ولم يبق إلا بيت المقدس فقاوم البطريق مدة أربعة أشهر واخيراً اشترط أن يحضر عمر بنفسه لتسلم القدس ، فجاء عمر بكل بساطة واستلم المكان بعد الاتفاق مع البطريق . وعلى أثر هذه الانتصارات غادر هرقل الشام وأصبحت جبال «طوروس» الحد الفاصل بين ممتلكات الدولة البوزنطية وأملاك العرب

واقعة اجنادين

فتح القدس

فتح مصر

بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح فلسطين . فكر فى فتح مصر . فلما خاطب أمير المؤمنين فى ذلك تردد عمر ، لان العرب لم يستقروا فى فتوحاتهم الجديدة ، ولقلة الجنود التى يمكن الاستغناء عنها وتسييرها لفتح جديد . وأخيراً وافق عمر لإلحاح عمرو الشديد ولكن دليل تردده ظاهر من حادثة الكتاب ، إذ وعد عمرا بانه سيرسل له كتابا ان أدركه وهو فى حدود الشام رجع عن فتح مصر ، وإن أدركه وهو داخل حدود مصر استمر فى عمله

وصل عمرو الحدود المصرية ومعه أربعة آلاف جندى ، وبلغ مدينة « الفرما » المعروفة باللاتينية باسم « بلوزيم » فسقطت فى يده بعد شهر

ثم واصل السير جنوباً الى « بلبيس » وهى حصن منيع فافتتحها بعد قتال عنيف ، ويقال إن ابنة المقوقس — حاكم مصر من قبل الروم — كانت بها حين دخلها المسلمون فأرسلها عمرو الى أبيها معززة مكرمة

حصن بابليون ثم سار قاصداً « حصن بابليون » وهو قلعة على الضفة اليمنى للنيل أمام « منف » القائمة على الضفة اليسرى ، شيدها الفرس قديماً واتخذها الرومان معقلا لجنودهم لتوسطها بين مصر السفلى والعليا ، ولأن الاسكندرية — وهى قاعدة حكمهم — لم تكن مركزاً صالحاً لمراقبة أحوال البلاد

أم دنين وفى أثناء سيره اعترضته حامية صغيرة بقرية « أم دنين » وكانت على شاطىء النيل الأيمن (حيث يوجد الآن حى الأزبكية)، فاستولى عمرو عليها بعد بضعة أسابيع

ولما رأى قلة جنده ، اقتنع أنه ليس فى طاقته مهاجمة « حصن بابليون » قبل أن يصل اليه المدد الذى طلبه من أمير المؤمنين ، فعبر النيل الى منف فى قوارب صغيرة وقصد الفيوم لاشغال عسكره ريثما يحضر المدد ولما عاد الى عين شمس وجد عمر قد أرسل اليه مدادا كبيراً يقوده جماعة من المدربين على القتال يرأسهم الزبير بن العوام والمقداد ابن الاسود نخف الرومان لمناجزتهم ، وقسم عمرو جيشه الى ثلاث فرق إحداها فى عين شمس والثانية شمال قلعة بابليون (شرقى العباسية) والثالثة عند أم دنين . ولما هاجم الرومان الفرقة الأولى التى كان يقودها عمرو انقضت الفرقتان الاخريان على ساقة الجيش الرومانى وجناحيه ، فدارت الدائرة على الرومان وتعرف هذه الواقعة بواقعة عين شمس واقعة عين شمس ٦٤٠ م

سنة ٦٤٠ واستولى العرب على مدينة مصر حيث يوجد حصن بابليون . ولولا فيضان النيل الذى غمر الأرض لتمكن عمرو من الاستيلاء على جميع أرض الدلتا ، ولهذا اكتفى بحصار حصن بابليون من الجهة الشرقية

وضاق الخناق على الرومان عند انتهاء الفيضان حتى يئس المقوقس من صد العرب ، وعاهدهم فى جزيرة الروضة أمام الحصن — بغير علم الحامية — وأرسل بالمعاهدات الى هرقل فجزع جزعاً شديداً واستدعى المقوقس الى القسطنطينية ، فجد العرب فى حصار الحصن حتى سلمت الحامية بعد نحو ثمانية أشهر وكان ذلك فى ابريل سنة ٦٤١ م ويرجع ذلك إلى موت هرقل ، وما أحدثه من الأثر فى نفوس حامية الحصن ، كما يرجع الى ماأبداه الزبير بن العوام من البسالة والجرأة

ولما أحرز العرب هذا الانتصار الباهر انضم اليهم الأقباط جهرة مساعدة الاقباط العرب
وأخذوا ينتقمون من الرومان الذين كانوا يضطهدونهم أشد الاضطهاد لمخالفتهم فى المذهب الدينى ، اذ كان الروم من الملكانيين والأقباط من اليعقوبيين ، وقد بلغ من اضطهاد الملكانيين لليعقوبيين أنهم صادروا حرية عبادتهم ، وشتتوا شمل قساوستهم ، وألجأوا بطريقهم الى الاعتصام بالصحراء عدة سنين ، فجعل الأقباط يساعدون العرب فى بناء الاستحكامات والقناطر ويسهلون عليهم الزحف من مكان الى آخر

وقد أسرع عمرو بعد استلام الحصن إلى أخذ الفيوم ، ثم ترك حامية صغيرة فى بابليون وسار الى الاسكندرية محاذيا فرع رشيد وتغلب على من قابله من الرومان عند دمنهور وألجأوهم الى الاحتماء بالاسكندرية

وعسكر العرب حولها ولم يكن فى مقدورهم حصرها براً وبحراً ، ولذا استمر الحصار عدة أشهر ثم سلمت فى ديسمبر سنة ٦٤١ بسبب ما لحق حكومة القسطنطينية من الضعف والوهن على أثر موت هرقل ، وبسبب سآمة أهل الاسكندرية تقلبات الحكم البوزنطى وما يتبعه من اضطهاد دينى ، ولأن المقوقس أقنعهم بأن التسليم للعرب خير لهم ، وربما كان غرضه أن يستقل ببطريقية الاسكندرية عن القسطنطينية . وأهم شروط معاهدة التسليم أن يعطى الرومان مهلة أحد عشر شهراً يجلون فيها عن الاسكندرية . وأن يترك المسلمون لأهل البلاد الحرية الدينية

سقوط الاسكندرية

خاتمة عمر

وكان عمر أول من أنشأ الديوان وعين القضاة وجعل السلطة القضائية مستقلة عن السلطة الادارية ، ووضع التاريخ الاسلامى مبتدئاً من أول سنة قمرية جاءت بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة . وهو أول من سمى أمير المؤمنين وكان لا يشغله شاغل عن تدبير أمور المسلمين وإصلاح شئونهم . وقد حقد عليه أبو لؤلؤة المجوسى فقتله وهو يصلى بالناس فى آخر سنة ٢٣ هـ — ٦٤٤ م

خلافة عثمان (٢٤ — ٣٥ هـ — ٦٤٤ — ٦٥٦ م)

اختيار الخليفة

بعد أن طعن عمر لزم البيت من جراحته ودخل عليه المهاجرون يسألونه أن يستخلف عليهم فلم يقره ضميره على اختيار واحد . فاختار ستة وهم على وعثمان وطلحة والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وأشرك ابنه عبد الله فى الرأى بشرط ألا تكون

له الخلافة . وأوصاهم أن يتشاوروا ثلاثة أيام يختارون فى أثنائها خليفة من بينهم . فاختار المجلس عثمان وكان من أحب المقربين الى رسول الله ورعاً لين الجانب، لم يكن له حزم أبى بكر وعمر ، ترك شئون الحكومة فى يد أهله ولا سيما مروان بن الحكم كاتم سره

ضعف عثمان

ولما آنس العرب ضعف عثمان تجددت بينهم الانقسامات . وثارت القبائل تريد استرجاع حريتها الأولى ، بعد أن كبحت جماحهم شخصية النبى وهيبة وحزم أبى بكر وشدة عمر ، وزاد الطين بلة أن عثمان جعل يعزل الولاة الذين عينهم عمر ويحل محلهم رجالا أقل منهم كفاية من أهل قرابته، فعزل عمرو بن العاص عن مصر وأقام بدله عبد الله بن أبى السرح

استمرار الفتح شرقاً

وقد احتمل الناس على مضض السنين الست الأولى من خلافته وما ذلك إلا لتخوفهم من الانقسام فيما بينهم وهم معرضون لفتك الأعداء بهم ، إذ كان الاتراك يهددون الحدود الشرقية ويغيرون على ما فتحه المسلمون ، فاضطر هؤلاء لصد هذه الغارات وامتدت الفتوح شرقاً الى بلخ وكابل وهرات . وكذلك قامت ثورة فى جنوب فارس ألزمت العرب أن يفتحوا كرمان وسجستان

انشاء اسطول فى بحر المشرق

أما فى الشمال فقد أغارت الدولة الشرقية على سوريا فردهم عنها معاوية سنة ٦٤٦ وغزا الأناضول حتى قرب من شواطىء البحر الأسود وفى السنة نفسها هجم الأسطول الرومانى على الاسكندرية واستولى عليها ولكن العرب استرجعوها فرأى معاوية ضرورة إنشاء أسطول ووافقه الخليفة على ذلك فأنشأ أسطولا ، وصار للعرب السيادة فى بحر المشرق

النهضة الأدبية

وبينما كانت جيوش الاسلام تتقدم شرقاً وغرباً اهتم العرب بالشئون التجارية والعلمية فصححوا نسخ القرآن المتداولة وعنوا بالقوانين الشرعية واللغة والفلسفة والمنطق . وكان أئمة هذه النهضة على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس اللذين قاما بالقاء محاضرات أسبوعية فى هذه الموضوعات بجامع المدينة

أواخر حكم عثمان

ثم بدأت الأقاليم تشكو من جور الحكام الذين عينهم عثمان، وذهبت الى المدينة وفود مصر والعراق وغيرهما وشكوا الى الصحابة سوء تصرف حكامهم فقام على وغيره من كبار الصحابة بنصح الخليفة وأنذاره سوء المنقلب اذا هو لم ينظر فى الأمر ، فعين محمد بن أبى بكر عاملا على مصر وبينما هو فى الطريق إذ وقع فى يده كتاب بختم عثمان يأمر عامل مصر بالقبض على زعماء الوفد وقتل محمد بن أبى بكر ، فعاد الوفد الى المدينة

مقتل عثمان

وأنكر الخليفة الكتاب وقرّ عزم الوفود على مهاجمته ، وأرسل الصحابة أبناءهم وفيهم الحسن والحسين للدفاع عن عثمان. ولكن رجالا من الوفود تسلقوا الجدران وقتلوه من غير أن يشعر المدافعون عنه فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (١٧ يونية سنة ٦٥٦ م) . وقد أخذ على عثمان رضى الله عنه أنه أعطى خمس ريع أفريقية لمروان ، واتخذ أكثر الولاة من قرابته ، وترك شورى المهاجرين والأنصار

خلافة سيدنا على (٣٥ — ٤٠ هـ — ٦٥٦ — ٦٦١ م)

بعد مقتل عثمان انتخب على بالإجماع وبويع فى المدينة لمكانته ولما له من حق الوراثة عن النبى ، فبدأ بعزل الحكام الذين علت منهم

الشكوى ورد الى بيت المال ما كان عثمان قد منحه لبني أمية ، فعارضه هؤلاء منذ الساعة الأولى . وكان معاوية بن أبي سفيان قد حكم الشام نحو عشرين عاماً وجمع حوله «مائة ألف فارس كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون علياً ولا قرابته » فأعلن العصيان واستعد لمقاومة علي ، فتشجع غيره من بني أمية وحلفائهم واتهموا علياً بالتقاعد عن نصرة عثمان . فنقض طلحة بن عبد الله والزبير بن العوام بيعة عليّ ، وفرا الى مكة واتفقا مع السيدة عائشة لما كانا يعلمان من طول بغضها لعلي معارضة بني أمية

ثم انتقل طلحة والزبير الى الكوفة ولحقت بهما عائشة وجمعوا جيشاً لمقاومة الخليفة ، وقد بذل عليّ كل جهده لإقناعهم بالتسليم فأبوا . وحدثت واقعة الجمل بالقرب من الكوفة وفيها قتل طلحة والزبير ، وأخذت عائشة أسيرة فأكرمها الخليفة وردها الى المدينة معززة مكرمة. ومن ذلك الوقت اتخذ عليّ «الكوفة» مركزاً للخلافة بدلا من «المدينة» موقعة الجمل

واعتمد معاوية على كثرة أعوانه وتقدم نحو العراق فقابله علي عند « صِفّين » غربي « الرّقة » وحاول الخليفة إقناع معاوية فلم يفلح ، فعرض عليه — حقنا للدماء — أن ينازله ، فأبى معاوية وبدأ بالهجوم فهزمه عليّ في ثلاث مواقع استعد بعدها معاوية للفرار موقعة صفين

وعند ذلك اقترح عمرو بن العاص على معاوية أن يرفع جنوده المصاحف على أسنة الرماح ويطلبوا تحكيم القرآن فانخدع جنود عليّ ، وعبثاً حاول أن يقنعهم أن هذه إنما هي خدعة . ولكنهم أصروا فضاع انتصاره سدى وارتد مغاضباً إلى الكوفة خدعة عمرو

التحكيم انتخب معاوية عمرو بن العاص مفوضاً عنه وعزم عليّ أن يعين عبد الله بن عباس . فجاءه صحبه وألحوا بلزوم تعيين أبي موسى الأشعرى لكبر سنه وصلاحه فأذعن لطلبهم على كره منه . واتفق الحكمان أن يصدر اقرارهما بعد ستة أشهر أو أكثر إذا اقتضى الحال ، وعاد معاوية الى دمشق وعليّ الى الكوفة .

الخوارج وفى أثناء سير جيش عليّ الى مقر خلافته فكر رجال من جيشه — أكثرهم من قبائل تميم وبكر — أن إصرارهم على التحكيم كان خطأ يجب أن يكفروا عنه بمعاودة القتال ضد معاوية ، وندم آخرون على تخاذلهم عن تعضيد الخليفة وطلبوا إليه أن يرفض التحكيم الذى أكرهوه عليه ، فأبت له مروءته أن يرجع فى وعده ، فاجتمع منهم أثنا عشر ألفاً وقرروا الخروج على عليّ ومعاوية على السواء . ولجأ هؤلاء الخوارج الى الصحراء فتتبعهم عليّ وقتل منهم عدداً كبيراً فى واقعة « النهروان » وفر الباقون الى البحرين والاحساء وكونوا نواة فرقة الخوارج . ومن رأيهم ألا يخضعوا لحكومة سياسية

نتيجة التحكيم وفى أثناء ذلك كان الحكمان قد اجتمعا فى «دومة الجندل» حيث تفوق عمرو بحذقه ومهارته . فأقنع أبا موسى بخلع عليّ ومعاوية وإخلاء السبيل لانتخاب خليفة جديد . فلما جاء الموعد أعلن أبو موسى خلع عليّ من الخلافة ، ثم قام عمرو فأقر خلع عليّ وثبت معاوية . فاحتج أبو موسى على هذا الغدر والخيانة وذهل جميع الناس . ولم يجرؤ معاوية أن يلقب نفسه خليفة إلا بعد سنين . وأراد عليّ أن يخضع الشام فتخاذل عنه أهل

العراق أولئك القوم القلب. وانتهى الأمر بعزم ثلاثة من الخوارج على قتل عليّ، ومعاوية وعمرو، فقتل علي ونجا الآخران

أخلاق علي

كان علي شهماً مهاباً حكيما ذا مروءة وبطولة، حريصاً على المصلحة العامة متهاوناً في حقوقه الخاصة إلى حد التفريط، ولو أتيحت له شدة عمر وصلابة أبي بكر لنال الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وبموت علي سنة ٦٦١ انقضى عهد الجمهورية الاسلامية الأولى المعروف بعهد الخلفاء الراشدين

خلافة الحسن بن علي

بويع بعد عليّ ابنه الأكبر الحسن — بايعه أهل الكوفة وما يليها ولم يكد يستوى في مركزه الجديد، حتى غزا معاوية العراق فقصد الحسن «المدائن». ولكن جنده ثاروا عليه ونهبوا أمتعته وظهر أنهم يريدون تسليمه إلى معاوية، فتأكد أن أهل العراق — الذين غرروا بوالده — لا يمكن الاعتماد عليهم فقفل راجعاً وقابل معاوية وتنازل له عن الخلافة فأخذ معاوية بيعة العراقيين. وتعرف هذه السنة سنة ٤٠ هـ. و ٦٦١ م بالسنة الجامعة لاجتماع كلمة المسلمين فيها

ولم يعمر الحسن بعد ذلك إلا بضعة أشهر ومات مسموماً في الغالب

الدولة الاموية

(٤٠ – ١٣٢ هـ ٦٦١–٧٥٠ م) ٩٧

بعد تنازل الحسن صار معاوية حاكما على المسلمين ونقل مقر الخلافة الى دمشق، وانما ساعده على ذلك أنه ظل حاكما على الشام عشرين عاماً

تمكن أثناءها من إيجاد جيش وأسطول قويين، وتحبب الى الناس بالأعطية والوعود. وقد اعتمد معاوية أيضاً على عمرو بن العاص الذى ولاه مصر وزياد بن أبيه [١] الذى ولىّ الأقاليم الشرقية

صعوبة فتح افريقية

وكان معاوية سياسياً حازماً كريماً حليماً، وحد كلمة المسلمين ومد فتوحهم فى أفريقية. وكانت هذه البلاد — على عكس مصر وسوريا — قد صبغت بالصبغة الرومانية، وكانت قريبة من صقلية التى كانت ترسل اليها المدد أحياناً ولذلك صعب فتحها، وزاد هذه الصعوبة أن جبالها كان يسكنها البربر الذين أبوا الخضوع للرومان وظلوا يدافعون عن استقلالهم معتصمين بالجبال، فلما دخل العرب بلادهم قاوموهم مقاومة عنيفة فاستغرق فتح أفريقية ستين عاماً

عقبة بن نافع

وقد أرسل معاوية عقبة بن نافع (سنة ٥٠هـ ٦٧٠م) لفتح أفريقية فانتصر على الرومان وأسس مدينة القيروان جنوبى تونس، ولكن البربر كادوا له وقتلوه هو وأكثر جيشه سنة ٦٨١

وفى حكمه أيضاً قام المهلب بن أبى صفرة بفتح السند ثم أخضع القسم الشرقى من أفغانستان. وانتصر معاوية على الرومان براً وبحراً

عهد معاوية لابنه يزيد

وقد خالف معاوية المبدأ الجمهورى من ترك الناس يختارون خليفتهم، وعهد الى ابنه « يزيد وطلب الى الناس أن يبايعوه واستعمل فى ذلك الدهاء والتهديد والترغيب والشدة والرشوة حتى بايعته وفود جميع الجهات، الا الحجاز حيث لم يزل فى السويداء رجال ينتصرون للفضيلة ويأبون أن

---

(١) زياد هذا ابن أمة لم يعترف معاوية بأنه أخوه لابه الا بعد أن ظهرت مواهب زياد وخدماته

يحكمهم رجل متبذل كيزيد . وأهم هؤلاء الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر . ومات معاوية سنة ٦٨٠ وقد تشبه بكبار الملوك فتنعم فى مأكله وملبسه وأقام الحراس والحجاب ، ولكنه كان مكباً على أعمال حكومته يصرف أكثر وقته فى النظر فى جلائل الأمور ودقائقها

موت معاوية

يزيد بن معاوية (٦٨٠ — ٦٨٣ م)

قام بالأمر بعد معاوية ابنه يزيد وهو — بصرف النظر عن مبالغة أعداء بنى أمية فى ذمه — ظالم غليظ القلب لا يعبأ بالدين ولا المبادىء السامية ، ولهذا ثار عليه الحسين بن على . ولو بقى الحسين فى المدينة أومكة لبايعه الناس ولتم له الأمر ، ولكن أهل العراق أرسلوا اليه يلحون عليه أن ينتقل اليهم ، فنصح له أصدقاؤه ألا يركن الى العراقيين ، ولكنه انخدع ووقع فى الفخ الذى وقع فيه أبوه وأخوه من قبل ، فسار نحو العراق مع أهله وقليل من أتباعه حتى وصل الى « كربلاء » قرب الفرات دون أن يرى أثراً لجيش العراق الذى وعد أن يستقبله ، لأنهم خافوا فتك عبيد الله بن زياد بن أبيه الذى ولاه يزيد عليهم . ثم هاجمه جيش ابن زياد وحال بينه وبين الماء . فطلب الحسين أن يسمح له فيرجع الى المدينة أو يتقدم الى الحدود الشرقية القصوى لحماية البلاد من غارات الأتراك ، أو يؤخذ الى يزيد . فأبى الأعداء إلا الحرب واستشهد الحسين وكل من معه من الرجال . ولم ينج إلا النساء وطفل صغير وهو علىّ زين العابدين ابن الحسين . ومنه تناسلت ذرية النبى صلى الله عليه وسلم

الحسين ويزيد

كربلاء

وقد أثارت حادثة كربلاء استياء المسلمين جميعاً وبخاصة الفرس والحجاز ولم يزل هذا الاستياء ينمو فى فارس حتى ساعد على اقامة الدولة العباسية على انقاض ملك بنى أمية

تخريب المدينة — أما فى الحجاز فثار أهل المدينة وعصوا يزيد ، فأرسل لهم جيشاً بقيادة « مسلم بن عقبه » فقابله أهل المدينة فى وقعة « الحرة » حيث استشهد كثير من سلالة المهاجرين والأنصار ، وانتقم يزيد من أهل المدينة فخربها جيشه ودمرها فعادت الى حالتها قبل الاسلام

ثم مكة — ثم انتقل الأمويون الى مكة حيث قام بالخلافة عبد الله بن الزبير وحاصروها وهدموا كثيراً من بيوتها ولم يستثنوا الكعبة ، الا أنه فاجأهم موت يزيد فرفعوا الحصار وعادوا الى الشام

معاوية الثانى — وخلف يزيد ابنه معاوية وكان شاباً تقياً شب على حب بنى هاشم فأعلن مخالفته لسياسة سلفه ولكنه مات بعد أشهر وبموته انقرض فرع أبى سفيان بن حرب

مروان بن الحكم (٦٨٣ — ٦٨٥ م)

بموت معاوية الثانى انقسم الأمويون على أنفسهم واستعد مروان بن الحكم — وهو زعيم أكبر حزب الأمويين — أن يبايع عبد الله بن الزبير

عبدالله بن الزبير — الذى بايعه أهل الحجاز والعراق وخراسان وفارس ومصر ولم تخل الشام من أعوان له . ولو خرج عبد الله من مكة وأظهر نشاطا وإقداما لنال البيعة فى الشام أيضا ، ولكنه تخوف وتباطأ حتى تشجع مروان واحتال على زعماء قومه فأعلنوه خليفة . واستعان بالقحطانيين وبهم تقدم الى لقاء أنصار

عبد الله من المضريين يقودهم «الضحاك بن قيس» الذى ولاه عبد الله على الشام ، فقابلهم عند « مرج راهط » وهى على بضعة أميال شمالى شرقى دمشق ونشب القتال حتى فنى المضريون عن آخرهم . وأصبح مروان خليفة فى دمشق ، ولكنه مات سنة ٦٨٥ بعد أن عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز

عبد الملك بن مروان

(٦٥ — ٨٦ هـ ٦٨٥ — ٧٠٥ م)

كان عبد الملك نموذجاً من بنى أمية فى نشاطه ودسائسه وعدم تقيده بالقوانين الأدبية . وقد أنكب بمقدرته الفائقة على تقوية مركزه ، فأرسل جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد لاخضاع الخوارج فى العراق ، ولكنهم أبادوه انتقاما لمقتل الحسين . ثم وجه جيشا بقيادة الحجاج إلى مكة فضيق الخناق عليها حتى حصلت فيها مجاعة عظيمة وانفض كثير من أتباع عبد الله عنه ولم يبق معه إلا نفر قليل ، فأشارت عليه أمه « أسماء » بنت أبى بكر أن يموت شهيد الحق (١) فهاجم الأعداء وصدهم إلا أنهم تكاثروا عليه وقتلوه وحملوا رأسه إلى المدينة ثم إلى الشام وبذلك انتهت خلافة عبد الله بن الزبير بعد أن استمر تسع سنين يخطب باسمه ويحكم العالم الاسلامى ماعدا الشام

استبسال ابن الزبير

وأهم فتح حصل فى عهد عبد الملك هو إتمام فتح أفريقية إذ أرسل جيشا سنة ٦٩٣ يقوده «زهير» نائب عقبة بن نافع فتوغل فى البلاد ، ولكن جاء

فتح أفريقية

(١) مما قالته له فى ذلك « يابنى عش كريما أو مت كريما » قال « يا أماه ما يخوفنى الا أن يمثل القوم بى » قالت « يابنى ما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها »

المدد الى الرومان من صقلية فقتل زهير وارتد جيشه الى برقة . فرأى عبد الملك أن يهاجم أفريقية من طريق البحر وتغلب عامله « حسان بن نعمان » على الروم والبربر واسترجع القيروان. وترك الرومان افريقية للعرب سنة ٦٩٨ ، الا أن البربر ثاروا بقيادة أمرأة تلقب « الكاهنة » وفتكوا بجيش حسان وردوه الى برقه . فأرسل عبد الملك جيشا آخر استطاع به حسان أن يقضى على قوة « الكاهنة » فخضع البربر واعتنقوا الاسلام. ولم يبق الا مراكش التى فتحها موسى بن نصير سنة ٧٠٨ فى خلافة الوليد

اصلاحات عبد الملك

وأهم اصلاحاته أستعمال اللغة العربية فى كتابة الدواوين بدل اللغات المحلية التى كانت تستعمل فى الولايات المختلفة ، وضرب نقود خاصة للعرب بعد أن كانوا يتعاملون بنقود الرومان والفرس فضرب فى عهده الدينار وهو نصف جنيه بالتقريب ، والدرهم ويساوى أربعة قروش (١)

ومات عبد الملك فى الثانية والستين من عمره سنة ٨٦ هـ وكان يحب الشعر والشعراء حريصا ، قاسيا جريئا قوى الارادة لاينثنى عن عزمه

الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ : ٧٠٥ ـ ٧١٥ م)

ولى الوليد الأول الخلافة بعد أبيه ، لان عمه عبد العزيز بن مروان كان قد مات . وفى عهده بلغت دولة بنى أمية أعلى درجة فى الفتوح والثروة والمدنية ، فان الاتراك نقضوا عهدهم مع المسلمين وقتلوا منهم من وقع تحت يدهم ، فتقدم « قتيبة » عامل خراسان وأغار على بخارى وطخارستان وفرغانه ، ولما فتحت هذه البلاد لم يقتصر على امتلاكها بل

(١) والدينار معرب عن اللاتينية والدرهم معرب عن الاغريقية

نزلت بها أسر عربية بقصد الاقامة وانتشر فيهم فقهاء المسلمين ، فاعتنق أهل البلاد الاسلام واشتد تعلقهم به ونبغ منهم علماء فطاحل

كذلك وجد « محمد بن قاسم » عامل مكران أن القبائل التى بين السند وبلوتشستان لا تنفك عن مناوأته فضم السند وملتان وجزءاً من البنجاب ، واستوطن العرب هذه الجهات أيضاً ونشروا الاسلام فيها

وكان مسلمة بن عبد الملك — أخو الخليفة — يقود الجيوش فى آسيا الصغرى فاستولى على أكثرها

عمر بن عبد العزيز

وعين الوليد بن عمه عمر بن عبد العزيز عاملاً على الحجاز فسار على نهج الخلفاء الراشدين وأحسن ادارة البلاد وعمّر مكة والمدينة وحفر الآبار وأصلح الطرق تسهيلاً على الحجاج ، فعاد الى هذه البلاد رونقها الاول وأمّها كثير من أهل العراق فراراً من الحجاج بن يوسف الثقفى ، فشكا هذا الى الخليفة أنه لا يستطيع أن يحكم ولايته مادام يسمح لاهلها أن يفروا الى الحجاز ، وانتهى الامر بعزل عمر بعد أن حكم نحو خمس سنين أعادت الى الاذهان ذكرى السلف الصالح

فتح الاندلس

وبينما أفريقية متمتعة بالتسامح والعدل كانت اسبانيا تئن من حكم القوط الغربيين وفظائع الاقطاع ، وكان اليهود المقيمون فيها مضطهدين من جانب الاشراف ورجال الدين حتى اعتبروا جميعاً عبيداً ، ولهذا هرب كثير من المضطهدين الى أفريقية وطلبوا إلى موسى بن نصير — عامل بنى أمية على أفريقية — أن يخلصهم من ظلم « لزريق Roderick » مغتصب الملك . وانضم

اليهم أبناء الملك المخلوع و « الـكونت جوليا » حاكم « سبته » وكان يبغض لزريق ويحسده

فاستأذن موسى بن نصير فى فتح الاندلس واحتل جزائر ميورقة ومنورقة وأرسل جماعة يقودهم طريف بن مالك لاستطلاع الاحوال فى اسبانيا ، ثم نزل طارق بن زياد بالاندلس ومعه سبعة آلاف ، سنة ٧١١ وتقدم داخل البلاد . وجاء المدد من أفريقية وهزم جيش « لزريق » فى موقعة « شريش » وغرق الملك ، ودخل العرب قرطبة وغرناطة وطليطلة وكانت العاصمـة . ثم انضم موسى الى طـارق وتمما فتح اسبانيا الى جبال البرانس . وفى هـذا الوقت استدعى موسى بن نصير الى دمشق فوصلها بعد موت الوليد وأساء الخليفة الجديد سليمان ابن عبد الملك مقابلته فمات فقيراً

أما العرب فى الاندلس فعبروا البرانس وفتحوا جنوب فرنسا ، والتحموا بجيش « شارل مرتل » فى موقعة « بواتيه أوتور » سنة ٧٢٣ كما تقدم . ومات قائدهم «عبدالرحمن الغافقى» وارتدالعرب الى أسبانيا ولم يعودوا لفتح فرنسا بعد ذلك

انتهاء دول بنى أمية

وتولى بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك . وأهم ما حـدث فى عصره أنه أرسل جيشاً عبر الدردنيل وأخضع تراقيا وحاصر القسطنطينية سنة ٩٨ ه ، الا أن المجاعة والمرض ألزما المسلمين رفع الحصار . ومات سليمان فى العالم التالى ٧١٧ — وأعقبه بن عمه عمر بن عبد العزيز وهو ينتسب الى عمر بن الخطاب وشهرته بالتقوى والعدل أشهر من أن تذكر ، وكان قصده توطيد دعائم الخلافة ورد المظالم وتحسين حال الرعية ، غير

متطلع للفتوحات الخارجية وجاء بعده يزيد الثانى وهشام بن عبد الملك ومروان الثانى ، وفى مدة هؤلاء ظهرت الدعوة لبنى هاشم التى أدت إلى انقضاء الدولة الأموية سنة ٧٥٠

وأهم مميزات هذه الدولة :

أهم مميزات الدولة الاموية

١ أنها كانت سياسية أكثر منها دينية فكان كثير من خلفائها لا يهتمون كثيراً لأمر الدين ، بل كان بعضهم غير مكترث بالشعائر الاسلامية يدمنون الخمر ويتلهون بالصيد ، ولكنهم على العموم كانوا على جانب عظيم من المهارة السياسية والكفاءة الادارية ، فامتد سلطانهم شرقاً وغرباً ووحدوا كلمة المسلمين وأحسنوا ادارة الأقاليم

٢ كانت دولة بنى أمية عربية بحتة تعتمد على العرب فى الأمور الحربية والسياسية . وكان العرب إذ ذاك شعباً مقتصداً قوياً متفانياً فى نشر الاسلام. وقد استطاع الأمويون أن يستفيدوا من جهود القحطانيين والعدنانيين ، وانتشرت فى عهدهم اللغة العربية وارتقى الشعر

٣ اعتمدت الدولة على ما أوتيت من قوة وسلطان ولم تركن الى الرأى العام ولم تحاول كسبه ، حتى مال الناس عنهم وانحازوا الى جانب بنى هاشم كما سيأتى بعد

الدولة العباسية

(١٣٢ — ٦٥٦ هـ : ٧٥٠ — ١٢٥٨ م)

الشيعة

لما جعل الامويون يضطهدون بنى هاشم ظهر حزب يعارض الأمويين ويعضد أبناء على ويعرف هذا الحزب بالشيعة . وهم يخالفون

أهل السنة فى اعتقادهم ببطلان خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، وبأن لعلى الحق المقدس فى الخلافة . وشاعت هذه الدعوة فى العراق وفارس وخراسان ، لبعدها عن مقر الخلافة ولأن الموالى من الفرس وغيرهم أرادوا أن ينالوا نصيباً فى إدارة الحكومة ، فصارت الدعوة تناوىء بنى أمية خاصة ، والعرب عامة

قتل زعماء بنى على

وقد حاول كثير من بنى على الخروج على الأمويين ، وانتزاع الخلافة من أيديهم فلم يوفقوا ، بل ضاعوا ضحية هذه الثورات حتى انتهى أمرهم بقتل زيد بن على زين العابدين وابنه الامام يحيى ، وبذا خلا الميدان لبنى العباس ، وكانوا يسعون للخلافة أيضا لانتسابهم إلى العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم

أبو مسلم

وأكبر عضد للعباسيين أبو مسلم الخرسانى الذى دخل خدمة زعماء بنى العباس منذ صغره ، ولما ظهرت خبرته وذكاؤه صار زعيما لنشر الدعوة فى خراسان وما زال يستحث الهمم حتى تمكن سنة ٧٤٧ من نشر العلم العباسى الاسود [١] فى مرو عاصمة خراسان ، منتهزاً فرصة اشتغال الأمويين بقمع ثورات الخوارج . فطلب نصر بن سيار عامل الأمويين إلى مروان الثانى أن ينهض للقضاء على الدعوة [٢]

---

(١) أختار العباسيون العلم الاسود لان النبى كان يحارب فى بعض غزواته ناشراً علماً اسود ، وقد يكون سبب اختيار هذا اللون دلالته على الانتقام والبغض . أما الأمويون فكان شعارهم اللون الابيض . بينما كان الخوارج يرفعون العلم الاحمر

(٢) ولما أبطأ مروان الرد كتب اليه نصر

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون له ضرام
لئن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا لحينهم نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام

فقبض مروان على إبراهيم زعيم العباسيين وقتله ، ولكن أخويه أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور فرّا الى الكوفة حيث اختبآ ، وتقدم أبو مسلم غربا سنة ٧٤٩ واستولى على العراق . ثم تقابل جيش العباسيين بقيادة « ابن عون » وجيش الأمويين بقيادة مروان عند « نهر الزاب » قرب الموصل فانهزم مروان وفر إلى دمشق ، فتتبعه العباسيون واستولوا عليها وطاردوه إلى أن قتل فى أبى صير بصعيد مصر سنة ٧٥٠ ، وبموته انتقلت الخلافة لبنى العباس فانتقموا من الأمويين وأفنوهم عن آخرهم . ولم ينج منهم إلا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى فر الى الأندلس وأنشأ فيها دولة مستقلة :

موقعة الزاب ونهاية حكم الامويين

فرار عبد الرحمن الاموى الى الاندلس

وكان قد بويع أبو العباس عبد الله السفاح فى الكوفة فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٢ هـ (٢٥ نوفمبر سنة ٨٤٩) . وكان السفاح رغم قسوته كريماً ملتفتاً الى واجباته أخضع الثورات التى قامت فى دمشق وفلسطين، وولى على الأقاليم رجالا من بنى العباس يثق بهم ، وعهد بالخلافة لأخيه أبى جعفر المنصور

خلافة أبى جعفر المنصور ٧٥٤ — ٧٧٥

يعد أبو جعفر المؤسس الحقيقى للدولة ، لأنه أحكم الرابطة بين القوة الزمنية والسلطة الدينية ، فكانت الثانية مصدرا مهما من مصادر قوة الدولة وعماداً متيناً لها وبدأ سلسلة الاصلاحات وجلائل الأعمال التى على منوالها نسج من أتى بعده . وأهمها استبدال العمال بغيرهم حيناً بعد حين ، وعزل من يخشى استقلالهم بالحكم من ذوى العصبيات القوية وأهم أعماله بناء بغداد على الشاطىء الغربى لدجلة قرب المدائن

بناء بغداد

سنة ٧٦٦، وقتل أبا مسلم الخراسانى خوفا من عظم نفوذه ، وأخضع الثورة التى قام بها أتباع أبى مسلم وحصن الحدود التى بينه وبين الروم واتخذ خالد ابن برمك وزيراً له . فبدأت عظمة البرامكة ، الذين قاموا بأعباء الوزارة فى صدر الدولة العباسية ، وكانوا من أكبر دعائم التقدم والرقى فيها

وكان المنصور يشرف على كل أعمال الدولة بنفسه ويستعرض الجند ويفتش الحصون ويراجع الدخل والمنصرف ويحاسب عماله حسابا دقيقا

ولما أنهكت الأعمال صحة المنصور قصد مكة ليقضى فيها بقية حياته فمات على بضع ساعات منها سنة ٧٧٥ وخلفه ابنه المهدى

خلافة المهدى والهادى (١٥٨ — ١٧٠ هـ : ٧٧٥ — ٧٨٦ م)

كان محمد المهدى على عكس والده ، كريماً رحيما وكانت دولة العباسيين قد رسخت قدمها فعزم المهدى على ازالة أثر كل إساءة اقترفها المنصور ، فعفا عن كثير من المسجونين السياسيين ، ورد الى بنى هاشم ما كان قد أخذه والده منهم ، ووسع المدارس وزاد فى عددها .

الزنادقة

وفى أيامه ظهر فى جرجان شرقى بحر قزوين حزب من الزنادقة يدعو إلى عقائد مجوسية واسلامية والى اشتراكية متطرفة ، ويحتقر الآداب والنظام فقضى عليه المهدى . ثم أكثر الروم من الأغارة على أملاكه فتقدم اليهم هو وابنه هرون الرشيد وهزمهم وسار الى البسفور ، فصالحته « أيرين » القائمة بالحكم فى قسطنطينية على دفع جزية سنوية

وخلفه ابنه موسى الهادى ولم يحكم غير سنتين وحدثت فى عصره ثورة فى المدينة ، فرّ على أثرها أحد أحفاد الحسن بن على وهو ادريس الى المغرب فعظمه البربر وأنشأ الدولة الادريسية فى أفريقية فيما بعد

الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ — ٧٨٦ — ٨٠٩ م)

يعد الرشيد من أكبر حكام العالم فقد كان متمسكا بدينه تقيا محسنا ، محباً مع هـذا لمظاهر العظمة ماهراً فى قيادة الجيوش ، كثير التجول فى أملاكه بقصد القضاء على الفوضى وتوطيد الامن وتعرف أحوال الرعية ، فصارت الطرق سابلة بالامن وتقلب فيها التجار والعلماء والحجاج من أقصاها الى أقصاها . وقد شيد من المساجد والكليات والمدارس والمستشفيات والصيدليات والقناطر والترع ما يشهد له بالحرص على صالح رعيته وراحتهم

البرامكة

وينسب بعض عظمة عصر الرشيد الى الرجال الذين قاموا بادارة البلاد فى الجزء الاول من حكمه ، لأن يحيى بن خالد البرمكى كان معلماً للرشيد فلما صار خليفة استوزره وأطلق يده فى كل الامور ، فأدارها بالحكمة والعدل والاحسان وساعده ابناه الفضل وجعفر وخلف الاخير والده فى الوزارة فقام بها خير قيام

بدء انفصال أفريقية

ولما كثرت الثورات فى أفريقية واستنزفت أموالاً طائلة ، قبل الرشيد أن يكون حكمها وراثيا فى بنى ابراهيم بن الاغلب نظير جزية سنوية قدرها أربعون ألف دينار ، فصارت أفريقيـة بذلك مستقلة استقلالاً اداريا

وقد مد الرشيد حـدود الخلافة شرقاً الى جبال هندوكوش ، وفصل الحدود الرومانية عن غيرها وجعلها تحت الحكم العسكرى

العواصم

لتقوى على الدفاع وسماها العواصم . وفى سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) عهد

لابنائه الامين ثم المأمون ثم القاسم ، وأقام الامين على الغرب والمأمون على الشرق والقاسم على ما بين النهرين والعواصم . وكان الرشيد يثق بعبد الله المأمون دون الأمين

الفتك بالبرامكة

وبعد أن خدم البرامكة الدولة سبع عشرة سنة باخلاص وحزم ، حتى زادت ثروة البلاد على عهدهم وعمرت الارض وارتقت الصناعات وجميع وسائل الحضارة حسدهم كبار الدولة على علو مكانتهم ، فأوقع الخليفة بهم على حين غفلة ، والسبب الحقيقي أنهم قبضوا على ناصية الأمور كلها ، بيدهم كل الدخل والخرج حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا باذن من الوزير ، فضلا عن أن كرمهم حببهم الى عامة الشعب ، فسارت بمديحهم الركبان ، وفاقت شهرتهم شهرة أمير المؤمنين ، فأمر بقتل جعفر وسجن يحيي وبقية أبنائه حتى مات يحيي والفضل ثم عفا الامين عنهم ورد اليهم المأمون فى خلافته ضياعهم

ثم مات الرشيد بعد أن حكم ثلاثا وعشرين سنة بلغت شهرته مبلغاً لم يبلغه خليفة قبله حتى اتصل بامبراطور الصين وتبادل شرلمان الهدايا معه ، فأرسل اليه الرشيد هدايا كثيرة تشير الى ما عليه الدولة من الثروة والتمدين ، ولا سيما الساعة المائية التى دهش لها أهل أوربا قاطبة

(الامين ١٩٣ — ١٩٨ هـ — ٨٠٩ — ٨١٣ م)

ضعف الأمين

كان الأمين ضعيفاً مسرفاً مغرما بالبذخ والترف ، فنفدت أموال الخزانة ، وأغراه وزيره الفضل بن الربيع بخلع أخويه ، والعهد الى أبنائه دونهما . وأرسل جيشا يأتيه بالمأمون فانهزم عند الرى فأعلن المأمون

نفسه خليفة وقبلته فارس بأجمعها وحاصر بغداد فتهدم جزء كبير منها ، ثم وافق الأمين أن يسلم نفسه لأخيه ولكن بعض الجنود الفارسية قتلته في الطريق ، فحزن المأمون وأكرم أبناء أخيه وزوجهم من بناته انتصار المأمون

المأمون والمعتصم والواثق (١٩٨ — ٢٣٢ هـ — ٨١٣ — ٨٤٦)

بعد موت الأمين حصل هرج كثير في العراق والشام استمر بضع سنين ، فلما هدأت العاصفة تولى طاهر بن الحسين قائدا للمأمون الشرق وتولى ابنه عبد الله بن طاهر سوريا ومصر وكان عصر المأمون أزهر عصور الحضارة كما سيأتي بعد . ومما يدل على بعد نظره وولعه بالعلم انه لم يقنع ببقاء نشر التعليم متوقفاً على سخاء الخليفة ، بل قرر أموالا ووقف أوقافا يصرف منها على المدارس في جميع أنحاء الدولة ، وأباح الاستخدام في مناصب الحكومة لجميع المتعلمين على اختلاف أديانهم ونحلهم عظمة المأمون المدارس

وخلفه أخوه المعتصم فقفا أثره بوجه عام ، الا أنه أراد أن يكبح جماح جيوشه الفارسية فكون جيشاً جديداً من الاتراك وغيرهم من الاجانب يقودهم ضباط من بينهم تحت امرة الخليفة مباشرة . ولما ضاقت بهم بغداد انتقل المعتصم وجيشه الجديد الى « سر من رأى » أو سامرا . وسرعان ما صار لهؤلاء الأتراك من القوة ما كان للحرس الروماني حتى أصبح بيدهم عزل الخلفاء وتعيينهم . ولما تولى الواثق بالله تمم خطة أبيه وزاد نفوذ الترك وأهمل الجيوش العربية والفارسية . وعين أشناس التركي سلطاناً للدولة يقوم بأدارتها باسم الخليفة . بدء استخدام الترك في الجيش تعيين أشناس سلطانا

وكان الواثق مغرماً بالعلوم والآداب والموسيقى مشجعاً للزراعة والصناعة . وبموته انقضى عهد عظمة العباسيين اذ لم يخلفه إلا رجال يرتقون الخلافة ولا قوة لهم ، ويموتون غير مأسوف عليهم ، يوليهم الفرس أو الاتراك ذوو النفوذ فى الجيش ويعزلونهم أو يقتلونهم متى أرادوا . ولقلة أهميتهم فى التاريخ ، أهملنا ذكرهم

نهاية عظمة العباسيين

وقد استمر اسم الخلافة العباسية ببغداد الى (سنة ٦٥٦هـ—١٢٥٨م) حين أغار عليها « هولاكو »التتارى وقتل المستعصم آخر خليفة عباسى فانقضت بذلك الدولة العباسية

الفصل الثالث

الحضارة الاسلامية

عهد الخلفاء الراشدين والامويين

انتخاب الخليفة

كانت الخلافة انتخابية ، وكان الانتخاب فى الواقع بيد المسلمين المقيمين فى المدينة حيث يحصل الانتخاب وتؤخذ البيعة بمسجدها الجامع، ومتى تم اختيار الخليفة بهذه الطريقة بايعه باقى المسلمين عن طيب خاطر . واستمر ذلك مرعياً كما بينا الى أن استقرت الخلافة لمعاوية فأصبح أمير المؤمنين يعين خلفه ويأخذ له البيعة فى حياته، مستعملا فى ذلك سلطانه ونفوذه ، وبهذا صارت الخلافة انتخابية فى شكلها وراثية استبدادية فى الواقع ونفس الأمر

الحكومة

وكانت الرياسة للخليفة يعاونه كبار الصحابة فى القيام بأعباء الدولة ففى زمن أبى بكر مثلا كان عمر يقوم بالقضاء . وكان على كاتم السر ومنوطاً بالنظر فى أمر الاسرى وفديتهم . وكان ولاة الاقاليم ينوبون عن الخليفة فى الأمور الدينية والسياسية ، ثم فصل عمر القضاء عن الادارة وجعل القاضى مسئولا أمامه فقط ومستقلا عن الوالى

موارد الدولة

كانت أهم موارد الدولة الزكاة وضريبة الاراضى وفرضة الرءوس والجزيات التى نصت عليها المعاهدات وخمس غنائم الحرب ودخل أرض الحكومة والمكوس ، وأكبر أبواب المصروفات تكاليف الإدارة ، واعتمادات الحرب والمعاشات المختلفة التى كانت تصرف للصحابة والجند ،

ولضبط حساب الوارد والمنصرف استعان عمر بالنظام الفارسي ورتب الديوان أو بيت المال حيث كانت تقيد الواردات والمصروفات ، وكان عمر لا يسمح لجنده أن يملكوا أرضاً في البلاد التي فتحها العرب ، رغبة منه في الاحتفاظ بالصفات الحربية في العرب وصيانة لحقوق فلاحي البلاد الاصليين. أما باقي نظم الحكومة فلم يتم تكوينها إلا أيام الأمويين والعباسيين

عهد العباسيين ومعاصريهم

كلمة عامة

ينقسم حكم العباسيين الى قسمين متميزين : الاول من ابتداء خلافتهم الى موت الواثق بالله (٧٥٠—٨٤٧) ويعرف بالعصر الذهبي والثاني من ذلك التاريخ إلى نهاية حكمهم سنة ١٢٥٨

اعتمد العباسيون على أهل فارس وخراسان الذين أوصلوهم الى منصب الخلافة واتخذوا منهم الوزراء ورجال الدولة . فعين أبو العباس خالد بن برمك على ديوان الدخل . وزاد النفوذ الفارسي حتى بلغ أعلى درجاته في عصر المأمون . ولما رأى المنصور أن دمشق مرتبطة بذكر الامويين وبعيدة عن فارس ، بنى بغداد التي فاقت دمشق والكوفة والبصرة في النبوغ العلمي . وكثيراً ما شاعت العادات الفارسية وبدأت كتب الاغريق تترجم الى العربية وظهرت هذه النهضة في عهد الرشيد بتشجيع البرامكة ولا سيما يحيي وابنيه الفضل وجعفر ، وكان البرامكة من الفرس العريقين في المجد ، ويقال إنهم كانوا يمالئون الشيعة الا أن كرمهم ومعاضدتهم للعلم ومقدرتهم في الادارة خففت كثيراً مما

كان بين العرب والفرس من التنافس ، حتى ظهر فى مدتهم عدد كبير من الشعراء من عرب وعجم ومولدين كأبى نواس وأبى العتاهية والعباس ابن الاحنف ومسلم بن الوليد ، ونبغ الواقدى المؤرخ والكسائى النحوى والاصمعى اللغوى وأبو يوسف القاضى ، فاضاءت بهم خلافة الرشيد . وفى عهده أيضاً اتسعت تجارة المسلمين وامتدت شرقاً إلى الصين وغرباً إلى امبراطورية شرلمان . وكان المأمون محبا للأبحاث العامية فشجع العلماء على درس الفقه والشريعة والطب والرياضة والفلك والتاريخ الطبيعى

الحكومة فى صدر الدولة العباسية

كان الخليفـة من آل محمد صلى الله عليه وسلم فكانت له الرياسة الدينية والزمنية ، وقد ساعد نفوذهم الدينى على عظم شأنهم كما أطال فى عمر دولتهم ، لان احترام السلطة الدينية التى للخليفة كان عميقا فى قلوب الناس ، حتى أن الحكام الذين استقلوا عنهم سياسيا لم يفكروا فى الاستقلال الدينى بل كانوا دائما يطلبون من الخليفة مرسوما يجعل مركزهم مشروعا ، حتى السلاجقة أنفسهم لم يصيروا خلفاء إلا بطريق الوراثة عن بنى العباس الخليفة

كان العباسيون يعهدون بالخلافة لمن بعدهم ويأخذون لهم البيعة من وجوه الناس . وكان الخليفة إماما وقائداً وأمينا لبيت المال وقاضيا ، كما كانت الحال زمن الامويين . ولكن اتساع الملك اضطره إلى أن يكل القيام بواجباته الى رجال عديدين بعضهم فى مقر الخلافة وبعضهم فى الاقاليم ، وأهم وظيفة أحدثها العباسيون هى وظيفة الوزير الذى كان الوزير

ينوب عن الخليفة ويستعمل السلطة المطلقة باسمه ، يخضع له كل الموظفين وينوبون عنه فى واجباته ، فكان الوزير بيده كل مكاتبات الدولة ودخلها ومصروفاتها وتعيين الموظفين وعزلهم

مجلس العزيز — كان رؤساء المصالح يجتمعون فى مجلس برياسة الوزير يسمى « مجلس العزيز » وأهم المصالح فى ذلك الوقت ديوان الخراج وديوان الضياع وديوان الجند وديوان الشرطة وديوان الرسائل وديوان البريد وديوان النظر فى المظالم وديوان الزمام وديوان الاكرة

أهم الدواوين — وكان ديوان الخراج أهمها ، أما ديوان الرسائل فكان واجب رئيسه وضع المرسومات والمكاتبات السياسية وتسجيل ردود الخليفة على الطلبات والشكايات المختلفة ، وأما ديوان الزمام فأنشأه المهدى فى المراكز المهمة فتحسنت الادارة بوجوده تحسناً كبيراً وكان يشبه قلم المراجعة ، بينما كان صاحب البريد يراقب توزيع المكاتبات الرسمية ويستطيع الاخبار الهامة وكان له أعوان فى الاقاليم يرسلون اليه التقارير السرية عن أحوالها ، على أن هؤلاء لم يستغن بهم عن رجال البوليس السرى ، وأما ديوان الاكرة فكان يعنى بشئون الفلاحة والفلاحين

القضاء — كل القضايا المدنية لغير المسلمين كانت توكل لقضاتهم ورؤساء دياناتهم وأما المسلمون فكان يفصل بينهم القضاة وكان فى كل مدينة كبيرة قاض ينوب عنه قضاة فى النواحى التابعة للمدينة ، ويرئسهم جميعاً قاضى القضاة وهو يشبه وزير الحقانية للدلة كلها

وكان القضايا الجنائية فى يد صاحب المظالم ، والمحكمة العليا تسمى ديوان النظر فى المظالم ، رئيسها الخليفة وأعضاؤها قاضى القضاة والحاجب

وكبار الرؤساء ويدعى اليها بعض رجال الافتاء . وكان هذا المجلس غير الرسمى لا ينظر الا فى قضايا المظلماء ، التى لا يستطيع أن يفصل فيها صاحب المظالم الذى يشبه من بعض الوجوه النائب العمومى

صاحب الشرطة والمحتسب

كان بكل مدينة شرطة خاصة برتب عسكرية خاضعة لرئيس تعينه الحكومة مباشرة يسمى صاحب الشرطة يقوم بحماية أرواح الرعية وأملاكها ويشبه الحكمدار ، أما المحتسب فأول من عينه المهدى وكان رئس بوليساً مدنياً يلاحظ الاسواق ويختبر الموازين والمكاييل والمقاييس ويعاقب كل من يحاول الغش أو الاختلاس

الضرائب

كان أهم موارد الخزانة من الخارج والزكاة والفرضة وخمس حاصل المناجم ورسوم المصانع وضريبة الملح والمصايد والمكوس ، وكانت الضريبة تقبل نقداً أو من عين المحصول

الحكومة المحلية

كانت كل مدينة تقوم بشئونها الخاصة الى درجة كبيرة وكانت الحكومة العليا لا تتدخل الا لقمع الاضطراب ، فكان لكل مدينة مهمة مجلس يعرف « بديوان الشورى » مكون من أعيان المدينة تحت ريارسة « الصدر » الذى ينتخبه الاعضاء . وكان هذ الديوان يدير شئون المدينة ويجبى الضرائب ويدفع للدولة القيمة المحددة ، وكانت الحكومة العليا تقتصر على تعيين القاضى وصاحب الشرطة وصاحب البريد والحاكم الذى كانت الحكومة تختاره من رجال الجهة . وكذلك كانت تكتفى باستلام الضرائب ومراقبة الرى وغيره من الاعمال الزراعية

الصناعة والتجارة والزراعة

تمهيد

رأينا أنه فى عهد الأمويين صارت العربية لغة المكاتبات الرسمية والدين والشعر والعلم فى جميع أنحاء الدولة ، وأن الاعاجم ولا سيما الفرس اشتركوا فى النهضة واشتدت المنافسة بينهم وبين العرب . ولكن هذه المنافسة خفت حدتها كثيراً فى صدر الدولة العباسية لأن الفرس استعربوا لغة وعادات وأسماء ولمتزج العنصران حتى لم يعد يمكن التفريق بينهما أيام المأمون . وأخذ الجميع يتبارون — لا فى ميدان الانساب — بل فى ميادين التقدم المادى والنشاط الادبى

الصناعات

استغل العرب موارد ثروتهم الصناعية فاستخرجوا الحديد من خراسان وفارس والفضة والرصاص والملح الجبلى والكبريت من فارس أيضاً ، والنفط من القوقاز والمرمر من تبريز ، واشتهرت دمشق والموصل بالتطعيم بالفضة والذهب وصنع الاسلحة الدمشقية المعروفة ، وصنع الزجاج والآجر المصقول فى البصرة وعظم شأن هذه الصناعة فى خلافة المعتصم ، فانه أقام المصانع فى بغداد وغيرها وشاعت صناعة المصابيح البلورية المحلاة بالذهب وغيره من الألوان فى دمشق

تفوّق العرب فى التطريز والسجاجيد والحرير والاطلس والكتان والوبر والشعر وشاعت صناعتها فى كل الجهات ، وإن دمشق امتازت بالكتان والكوفة بالحرير خصوصاً المناديل وخراسان بالسجاجيد والاصواف وخوزتان بتكرير السكر والزيوت والاعطار . واكتشفت عملية تكرير السكر وصنع الورق ، وتقدم صنع المعادن فتمتعت أوربا بنتائج اختراعات المسلمين ونبوغهم العلمى

التجارة وكانت التجارة لا تقل شأناً عن الصناعة فصارت البصرة مركزاً للتجارة مع الهند والصين بطريق البحر، واتجروا مع شاطىء أفريقية الشرقى وتوغلوا إلى البحيرات العظمى، وكشفوا جزائر آسورة واتجروا مع شاطىء غينيا، واخترقت قوافلهم صحراء أفريقية إلى النيجر عن طريق المغرب ومصر فكشفوا الصحراء العظمى لاول مرة فى تاريخ الحضارة، ونشطت قوافل بغداد الى الهند والصين وبحر قزوين والبحر الاسود وتغلغلوا فى روسيا حتى وصلت النقود العباسية الى شواطىء البلطيق وداخل السويد وامتدت تجارتهم الى قسطنطينية وثغور البحر الابيض المتوسط

الرحلات وقد صحب هذا التوسع حركة فكرية هامة إذ قام العلماء برحلات إلى البلاد الاجنبية ودونوا حقائق هامة عن أرضها وأهلها ولغاتها وعاداتها فكان أحياء العلوم فى الدولة العباسية لم يكن إلا مظهراً من مظاهر النهضة العامة التى وسعت كل شئون الحياة، شأن إحياء العلوم فى النهضة الاوربية

الزراعة كان العراق تحت اشراف الحكومة العليا مباشرة فنال حظاً وافراً من عنايتها فتحسنت طرق الرى التى ورثها العرب عن الفرس تحسناً عظيما وأصبح بالبلاد شبكة واسعة النطاق من الترع والمصارف. ولم تحرم بقية الاقاليم من مثل هـذه العناية بل كانت الزراعة وفلاحة البساتين تعد من أول واجبات الحكومة

وقد وجه العرب جهدهم لتطبيق العلم على العمل فى دراسة النبات ودرسوا صلاحية التربة لنباتات خاصة، واستعملوا الاسمـدة المختلفة لصنوف النباتات المتباينة، وعرفوا التطعيم وتوليد اصناف جديدة من

أشجار الفاكهة وغيرها ، وجلبوا إلى بلادهم مالم يكن معروفاً بهـا من قبل،واشتهرت الاهواز وفارس بزراعة قصب السكر،وأقام عبد الرحمن الأول بستان نباتات بقرطبة جلب اليه البذور النادرة من الشرق .وقد أدخل العرب الى أوربا نباتات كثيرة لم تكن معروفة أهمها الارز وقصب السكر والمشمش والخرشوف

فن البناء والزخرفة

لما جاء الاسـلام وأبطل عبادة الاوثان جرى الناس على كراهة التمثيل والتصوير، فوجه ذوو الـكفاية الفنية هممهم الى البناء والزخرفة مستمدين الفن من الحياة النباتية والحيوانية والاشكال الهندسية والمناظر الطبيعية ، متحاشين تصوير الجسم الانسانى ، فشادوا مساجد وقصوراً آية فى الجمال والابداع الهندسى كما تشهد بذلك آثارهم فى قصر الحمراء بقرطبة ومساجدهم بالقاهرة ودمشق وغيرها

العلوم

لما استقر العرب بالبلاد التى انبعثت فيها المدنيات القديمة كسوريا ومصر وفارس والهند وتولى الخلافة رجال مستنيرون كالرشيد والمأمون واستتب الأمن فى أنحـاء الدولة وعمها الرخاء ، توجهت الهمم الى استطلاع علوم الاقدمين ، ومتابعة السير فى ابحاثهم العلمية المختلفة رجاء الوصول الى كشف ما يحيط بهم من أسرار الطبيعة وعجائبها ، واستخدم ماقد يتاح لهم من القوانين العلمية فى ترقية أحوالهم المعاشية من زراعية وصناعية .

وأهم المدنيات التى نقل عنها العرب مدنية الاغريق التى كانت آثارها لا تزال باقية فى مدن سوريا ومصر والاناضول ، لاسيما ان مـدارس الطـائفة المسيحية المعروفة بالنسطورية ، والتى اضطدهـا أباطرة الدولة

الرومانية الشرقية ، اضطرت الى الالتجاء الى العراق وفارس فسهل على العرب الاستفادة منها . زد على ذلك أن الخلفاء فى صدر الدولة العباسية كانوا يرسلون بعوثاً للبحث والتنقيب فى الكنائس والاديرة عما خلفه القدماء من العلوم وذهب بعضهم إلى القسطنطينية والهند فى عهد المأمون أما العلوم التى أخذها العرب عن الأغريق فأعظمها شأناً الطب والفلفسة والجغرافيا والهندسة والفلك

وأما عن الهند فأخذ العرب الأرقام الحسابية والفلك وحساب المثلثات وأما عن الفرس فأخذ العرب النظم الحكومية والبريد وبعض الكتب الطبيعية التى نقلها الفرس عن الأغريق

وقد بدأ العرب بترجمة هذه العلوم إلى لغتهم ثم أضافوا اليها أبحاثا جديدة لم يكن قد طرقها الأقدمون . ففى الرياضة أنشأوا علم الجبر وطبقوه على الهندسة وابتكروا الخط المماس المستعمل فى حساب المثلثات وقوانين أخرى جديدة فى هذا العلم وكانوا أول من استعمل الكسور العشرية أما فى الطبيعة والكمياء فقد ضربوا بسهم صائب لاسيما فى الكمياء فكتبوا عن العدسات ووضعوا نظريات جديدة فى انكسار الضوء وفى شكل الصور فى الموايا المنحنية . واكتشفوا خواص القلى والاحماض وابتدعوا مركبات جديدة كالكحول وحامض الكبريتيك وتحضير الزئبق وابتكروا أجهزة للتصعيد والتقطير والخلط والمزج

وأما فى الطب والصيدلة فأدخل العرب فى الطب نباتات كثيرة كان يجهلها اليونان كالراوند والكافور ووضعوا علم الجراحة ووصفوا آلاته وعملياته وجبر العظام، وكتبوا فى أنواع الحمى ووصفوا جميع الحيوانات

والبناتات والأحجار والمعادن ذات الخواص الطبية . وهم أول من أقام المستشفيات والصيدليات

العلماء

وأشهر المبتكرين والنابغين فى الفلك محمد بن موسى واخوته والكندى وابن يونس المصرى الذى بنى مرصدا بجبل المقطم واخترع بندول الساعة الدقاقة سنة ١٠٠٧ م .

وفى الطبيعة الحسن بن الهيثم المتوفى بالقاهرة سنة ١٣٠٨ م . وفى الطب ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٦) والفخر الرازى وأبو القاسم بن على وقد بقيت كتبهم تدرس بأوربا عدة قرون ، واشتهر فى المادة الطبية ابن البيطار ، وفى الفلسفة ابن رشد ، ونبغ فى الجغرافيا الادريسى المولود بالمغرب سنة ١٠٩٩ والذى بقيت خريطته وكتبه تدرس بأوربا أكثر من ٣٥٠ سنة بعد وفاته . وظهر فى التاريخ الطبرى فى القرن العاشر والمسعودى وأبو الفداء وابن خلدون والمقريزى فى القرن الرابع عشر

المدارس

وقد اهتم العرب بشئون التربية والتعليم وسبقوا كل ما كان معروفا بأوربا فى تلك العصور أو بعدها ، فقامت المدارس والمكاتب والجامعات فى أهم مدن الدولة العربية كبغداد والقاهرة وقرطبة وانطاكيا ونيسابور وأمها الطلاب من كل فج يحضرون دروس الجامعات

أثر العرب فى أوربا

وقد وصلت ابحاث العرب وعلومهم إلى أوربا أثناء العصور الوسطى عن طريق الاندلس وجنوب ايطاليا ، حيث شاد العرب جامعات ومدارس زاهرة قصدها طلاب العلم من اليهود والمسيحيين الذين كانوا يحضرون دروس الجامعات جنبا إلى جنب مع العرب ، فارتشفوا من عذب مناهلها ووصلوا الى علوم الأغريق القدماء التى كانت تدرس بها . وقد نقلوا

ماعلموه إلى اللغة اللاتينية فذاعت دراسة كتب ارسطاليس المنقولة عن العربية ، كما ذاعت كتب اقليدس فى الهندسة وكتب بطليموس فى الجغرافيا .

ومن الطلبة الذين تعلموا فى جامعات العرب وكان لهم شأن فى إنعاش الحركة العلمية فى أوربا فى العصور الوسطى، الإمبراطور فردريك الثانى الذى لم يدخر وسعاً فى حث الأوربيين على دراسة العلوم الشرقية

وقد وصلت بعض مدنية العرب الى أوربا على أثر اتصال أوربا بالشرق فى الحروب الصليبية ، فكان تجار البندقية وجنوه وغيرهما من ثغور إيطاليا ينقلون الصليبيين إلى الشرق على سفنهم ويعودون بها إلى أوربا مثقلة بما وصلت اليه أيديهم من نفائس الشرق ومصنوعاته وكتبه وما لبثت هذه التحف الشرقيـة أن انتشرت من إيطاليا إلى بقية أسواق أوربا

ومن ذلك يتضح أن أوربا أخذت عن العرب القبس الذى سطع فى إيطاليا أولا ثم فى بقية أوربا ، وأخذ شكله النهائى فى النهضة الأوربية . فالأوربيون مدينون للعرب بافاقتهم من سباتهم العميق فى العصر الوسيط بل ببعثهم من رمس العصور المظلمة إلى هـذه الحياة الملأى بالأعمال والآمال

الفصل الرابع

قيام دولة الفرنجة

شرلمان . (٧٦٨ — ٨١٤)

شخصية شرلمان

لا تكاد شخصية توجد فى العصر الوسيط أعظم أثراً من شخصية « شرلمان Charlemagne » وليس من شك فى أنه أكبر ملك ظهر فى ذلك العصر

كان شرلمان نشيطاً جلداً على مزاولة العمل لا يعتريه الكلال من ممارسة الحروب ، وأولع بتشييد المبانى الفخمة والقصور الشاهقة يحب العلم ويؤثر مجلس العلماء وقد أداه ولعه بالعلم الى استحضار العالم الانجليزى « السكوين Alcuin » من مدينة يورك لفتح مدارس لتعليم أبناء أشراف الجرمان فاضاءت بعصره ظلمة العصور الوسطى ولم تنطفىء الجذوة التى أذكاها حتى بعد موته . وقد بذل شرلمان جهداً كبيراً لرفع المستوى الأدبى بين أشراف الجرمان ، بفضل ما كان هو عليه من التقوى والاخلاص للدين والدولة وأهلها (ط ـ ت)

حبه للعلم

فتوحه

كان يرمى الى جمع كل قبائل الجرمان تحت لواء مسيحى واحد ، ولم يكن مانع من ايجاد هذه الوحدة إلا قبائل السكسون الذين بقوا على وثنيتهم معتصمين بغابات بلادهم ومستنقعاتها ، فأرسل اليهم شرلمان الحملة تلو الحملة حتى أخضعهم لحكمه ، ونشر بينهم الدين المسيحى وبنى الكنائس فى بلادهم ففاز بغرضيه جميعاً

اخضاع السكسون

التغلب على اللبارد

انتهز اللبارد فرصة اشتغال شرلمان بحملاته على السكسون فعملوا

على استرجاع مملكتهم فى ايطاليا ، فهاجموا رومة واستغاث البابا بشرلمان فلبى الطلب سنة ٧٧٣ وتقدم الى ايطاليا وحاصر ملك اللمبارد فى « بافيا » حتى سلم وأضيف أملاكه إلى أملاك شرلمان فسمى نفسه ملك الفرنجة واللمبارد . وقد وسع شرلمان أملاك البابا وزاد فى قوته.

حروبه مع الصقالبة — لم يقنع شرلمان بحكم ألمانيا بل عبر الألب وأخضع القبائل الصقلبية التى كانت تسكن بولندة وروسيا كما أخضع « التشك » فى بوهيميا و « الآفار » فيما يسمى الآن النمسا والمجر وقد ألزم الآفار أن يعتنقوا المسيحية ، وضم بفاريا نهائياً إلى ملكه . ولحماية الحدود الشرقية لدولته ، كون أمارات عسكرية شرقى نهر الألب ، تشبه العواصم التى كونها الرشيد ، لصد غارات القبائل المتبربرة التى كانت تغير على الدولة.

غزو أسبانيا — وفى أواخر القرن الثامن اختلف أمراء العرب فى أسبانيا واستعان أحدهم بشرلمان فدخلها وأخذ برشلونه سنة ٧٩٨ فملك جزءاً جنوب البرانس كان مهد القوة التى طردت العرب من الاندلس بعد قرون عدة

شرلمان والبابوية — وبقيت كنيسة رومة تعترف بسيادة امبراطور الدولة الشرقية حتى قام النزاع بينهما على عبادة الصور المقدسة وغيرها وأصدر البابا ، قرار الحرمان ضد الامبراطور . وشرعت الكنيسة فى الغرب ترتبط بالفرنجة وتتطلع لحمايتهم كما تقدم . ثم نشب نزاع بين أشراف رومة والبابا « ليو الثالث . Leo III. » وكان الاشراف يريدون اعادة الجمهورية، فاضطر

تتويج شرلمان امبراطور — « ليو » أن يفر إلى شرلمان ويسأله المعونة على أعدائه فدخل شرلمان رومة وأعاده إلى عرش البابوية . وبينما هو راكع أمام المذبح فى كنيسة الرسول بطرس فى عيد ميلاد سنة ٨٠٠ اذا بالبابا قد وضع على رأسه تاج

الامبراطورية ، فأظهر شرلمان الدهشة كأنه فوجيء بهذا العمل ولكن لا شك فى أنه صادف هوى فى فؤاده

وإنما دعا البابا إلى تتويج شرلمان أن الامبراطورية البوزنطية لم تعن بأمور الغرب ولا سيما بعد أن نشأ الخلاف الدينى ، فاحتاج البابا الى حكومة قوية تحميه . فضلا عن أن شرلمان جدد بفتوحاته العظيمة ومنزلته وأخلاقه ذكرى الامبراطورية الرومانية القديمة التى لم تبرح من الاذهان فكان جديراً أن يكون امبراطوراً

وبهذا أعيد تكوين الدولة الرومانية التى سميت بعد ذلك مقدسة ، والتى بقيت رغم النوائب والمحن الى سنة ١٨٠٦ حين رأى امبراطورها أنه لا فائدة من تمسكه بأهداب هذا اللقب مع وجود الامبراطور نابليون ، فتنازل عنه . ونجم عن تتويج شرلمان

نتائج تتويج شرلمان

(١) ان ارتبطت ايطاليا وألمانيا وصار خلفاء شرلمان ملزمين — بصفتهم خلفاء أباطرة الرومان القدماء — أن يخضعوا ايطاليا . فقسموا جهودهم بين هذه البلاد وألمانيا وضعفت قوة الامبراطور فيهما ، وقوى أمراء العهد الاقطاعى فتأخر اتحاد ألمانيا وايطاليا إلى القرن التاسع عشر

(٢) أخذ البابوات يدعون أنهم هم الذين عينوا شرلمان امبراطوراً وان الامبراطور يجب أن يخضع للبابا، فنشب الكفاح بين الامبراطورية والبابوية طول العصور الوسطى

سياسة شرلمان

سعى شرلمان فى توحيد ممتلكاته فشدد الرقابة على أمراء الأقاليم الذين أصبح كل منهم يلقب « كونت Count » وبيده كل السلطة المدنية والحربية وجعل يرسل رسله « Missi Dominici » الى الجهات المختلفة

ليتفقدوا أحوال البلاد ويتنظروا فى شكاوى الاهلين ويوافوه بتقاريرهم

نشاط شرلمان وكان شرلمان مثال النشاط يجوب البلاد ليحافظ على صالح الرعية ، وينشر العلم بينهم بفتح المدارس فى الكنائس والأديرة وكان قصره مجمع العلماء حتى سمى مدرسة القصر

وبلغ من بعد صيته أن اهتم الرشيد بمصادقته حتى يساعده على الدولة الاندلسية. ومات شرلمان سنة ٨١٤ بعد أن ترك فى أذهان الاجيال

اتساع ملكه التالية فى العصور الوسطى أثراً لا يمحى ، وقد وسعت دولته الممالك المعروفة الآن بفرنسا وبلجيكا وهولندا وغرب ألمانيا وسويسره والنمسا والمجر وشمال ايطاليا وجزءاً من اسبانيا . وكانت عاصمته « آخن » وهى « اكس لاشابل »

تجزؤ دولة شرلمان

تمكن شرلمان بعزمه وحزمه أن يحكم أملاكه الشاسعة حكما مستنيرا قويا ، الا أن العوامل الجغرافية والجنسية واللغوية كانت تنزع الى تفكيك عراها ، فكانت الجبال تفصل ايطاليا واستراسيا ونستريا وكانت القبائل الجرمانية البحتة فى استراسيا متميزة عن أهل نستريا وأهل ايطاليا وعن الصقالبة ولذلك لم تتماسك دولته طويلا

لويس التقى خلف لويس التقى Lewis أباه وكان ضعيفاً منقاداً للكنيسة تاركا حبل الأمور على غاربها فكثرت الثورات وزادت سلطة الكنيسة حتى انتخب البابا بغير علمه . وخلف لويس أبناؤه الثلاثة واحتدم الخصام بينهم ، فاتفقوا على

تقسيم فردان تقسيم الامبراطورية فيما يعرف «بمعاهدة فردان» سنة ٨٤٣، فأخذ «لوثير Lothaire» لقب الامبراطورية والاراضي المتوسطة في أملاكها وأهمها هولندا الحالية وحوض الرين إلى قربماينز وحوض الرون وسويسره وشمال ايطاليا، ولا تزال اللورين تذكرنا باسمه الى الآن، وأخذ «لويس Lewis» الجزء الشرقي من امبراطورية شرلمان وأخذ «شارل Charles» الجزء الغربي. ولم تدم هذه المعاهدة طويلا إلا أنها تركت آثارا باقية، لان القسم الشرقي صار ألمانيا فيما بعد، والقسم الغربي صار فرنسا والقسم الأوسط كان ولا يزال موضع النزاع بينهما

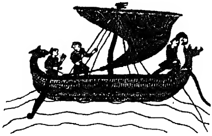
لم يكن تنازع أحفاد شرلمان السبب الوحيد في انحلال دولته، بل يضاف إلى ذلك العوامل الجغرافية والجنسية واللغوية التي تقدم ذكرها

هجوم قبائل متبربرة جديدة وكثر الهجوم على هذه الاملاك من نواحي عدة

فكان المجر كثيراً ما يخربون شمال ايطاليا والاجزاء المتحضرة من ألمانيا، وأهم من هذا، الغارات التي قامت بها جماعات من سكان اسكندناوه والدانمرقة جعلت تنهب شواطىء المانيا وفرنسا وانجلترا ثم تعود الى بلادها. وعرف هؤلاء فيما بعد باسم «النرمنديين» وتركوا آثارهم في أكثر أنحاء أوربا

النرمنديون ولما رأى هؤلاء ضعف الجهات التي كانوا يغيرون عليها شرعوا يقيمون بها، ولما سئم ملوك فرنسا توالي هجوم النرمنديين اتفقوا سنة ٩١١ مع رئيسهم «روللو Rollo» أن يكفوا عن الهجوم ويقيموا في المقاطعة التي صارت تعرف بنرمندية وسرعان ما اندمج النرمنديون في الفرنجة واعتنقوا المسيحية واستعملوا لغة فرنسا وعاداتها. ثم فتحوا انجترا سنة ١٠٦٦

وفى القرن الحادى عشر نزل قوم من النرمنديين بجنوب ايطاليا بقيادة زعيمهم « روبرت جسكارد «Robert Guiscard» وانتزعوا الحكم من الدولة الرومانية الشرقية ثم عبروا الى صقلية سنة ١٠٦٠ وطردوا العرب منها ، وأقاموا مملكة عظم شأنها أيام ملكها « روجر الثانى Roger II. » حتى صارت تشمل صقلية والنصف الجنوبى من ايطاليا



سفينة نرمندية

الفصل الخامس

النظام الاقطاعى

نشأة الاقطاع

لما عجزت الحكومة العليا عن صد الغارات السالفة الذكر اضطر أمراء كل جهة أن يعتمدوا على أنفسهم فى الدفاع عن بلادهم ، فسلحوا أتباعهم لحمايتها وكسبوا بذلك رضاء الأهالى وورث أبناؤهم مكانتهم هذه فأصبحوا شبه مستقلين لا يملكون الاراضى فحسب ، بل يحكمون المقيمين بها ويقضون بينهم ويقودون جيوشها ويجمعون منهم الضرائب ولا يسمحون لملك أو أمبراطور أن يتدخل فى هذه الشئون التى عدوها حقاً لهم ، وإن تظاهروا بالخضوع لمليك البلاد وقدموا له بعض المساعدة أثناء الحرب

ويطلق «الاقطاع» على الروابط الاقتصادية والاجتماعية التى ربطت المجتمعات فى غرب أوربا قرونا طوالا ، وقد أخذ شكله النهائى فى خلال القرن التاسع بعد الميلاد واستمر سائداً الى القرن الثالث عشر ثم أخذ فى الاضمحلال ، على أن آثاره لم تمحها إلا الثورة الفرنسية

تلك الروابط كانت مؤسسة على ثلاث اعتبارات مهمة

١ — ملكية الارض

كانت الأرض حسب النظرية السائدة فى عصر الاقطاع ملكا لله تعالى وأنه منحها للملك وأن الملك أقطعها لأتباعه . ولم يدرك الناس إذ ذاك نظرية تملك الأرض التى نعرفها ، القائمة على أن كل قطعة من

الأرض لها مالك خاص، يتصرف فيها بالبيع والرهن والهبة كيفما شاء لا ينازعه أحد، بل كانوا يعتقدون أن لكل أرض سيداً فوقه سيد آخر وفوق هذا سيد أكبر منه وهكذا.

ولما ضعفت الحكومة المركزية وأخذ القوى يتغلب على الضعيف لم يأمن صغار الملاك على أنفسهم ولا على أرضهم لان الأمر كان للقوة، فلجأوا الى كبار الملاك ووضعوا أرضهم تحت سيادتهم وتسلموها منهم ثانية بشروط يوفون بها مقابل حماية السيد لهم.

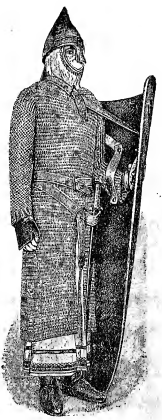
أما كبار الملاك فان الظروف قضت عليهم بالتفرغ للحروب المحلية دفاعية كانت أم هجومية، فوجدوا أن خير طريقة تعود عليهم بالمنفعة أن يقطعوا بعض أراضيهم الواسعة لرجال أحرار يصبحون أتباعاً لهم مقابل الوفاء بشروط معينة. والأرض التي يتسلمها صاحبها بهذه الصفة تسمى قطيعة.

وأخذت هذه الطريقة تنشر بين كل الطبقات فى جميع أنحاء غرب أوربا حتى لم يبق أرض غير مقطعة. وكثيراً ما كان التابع يأخذ القطيعة من السيد فيقطعها هو لأناس يصيرون أتباعاً له وهكذا، وكانت القطيعة يرثها الأبناء عن الآباء مقابل رسوم يقوم بها الوارث نحو سيد الأرض.

٢ — الرابطة بين التابع وسيده

نشأت بين التابع وسيده حقوق وواجبات لم يكن بد من مراعاتها والا فسد التعاقد الذى حصل بينهما. فواجب السيد أن يحمى تابعه ويدفع عنه العدوان، وأن يفصل فى القضايا التى يعرضها عليه، وعلى التابع

أن يقسم يمين الولاء والاخلاص لسيده فى حفلة دينية ، فيركع عارى



فارس اقطاعى فى القرن التاسع

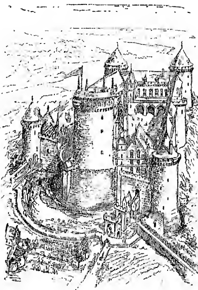
الرأس ويضع يديه بين يدى سيده ويقسم على الانجيل أن يكون صادقا مطيعاً لسيده معادياً لأعدائه فيُقبِّلُه السيد ويأخذ بيده

وعلى التابع أن يحضر محكمة سيده ويشترك فى نظر القضايا المعروضة عليها وأن يحارب تحت لوائه ، ويقدم له منحة مالية فى كل ظرف من الظروف الثلاثة الآتية وهى حفلة فروسية ابنه الأكبر وزواج ابنته الكبرى ، وافتداؤه من الأسر. وهناك واجبات تختلف باختلاف الأحوال كأن يقدم التابع للسيد متى زاره قدراً معيناً من الماشية أو الطير أو العسل وما الى ذلك مما يحتاج اليه السيد

٣ ــ الاستقلال المحلى

وعلى أثر تجزؤ دولة شرلمان وضعف الحكومة العليا تخلص حكام الأقاليم من رقابة الحكومة وورثوا وظائفهم لأبنائهم ، فأنشأوا المحاكم وبنوا القصور الحصينة وقاموا بجميع الأعمال الادارية والحربية التى كانت للحكومة من قبل. وقلدهم فى ذلك كله كبار الملاك فى جهاتهم المختلفة فقامت ألوف من الحكومات الصغيرة ، كل منها مستقلة عن الأخرى فى الادارة والقضاء والحرب على الرغم من اعتراف الجميع — نظريا —

بسيادة الملك أو الامبراطور. ولم تسلم الكنيسة نفسها من نظام الاقطاع بل اضطرت الكنائس والاديرة كما اضطرت القرى والمدن إلى الاحتماء بأقوى الأشراف المجاورين لها. وبذلك صار الاساقفة ورؤساء الاديرة تابعين لأولئك الاشراف من جهة، ومن جهة أخرى قسم الأساقفة ورؤساء الأديرة أرض الكنيسة إلى إقطاعات منحوها أناساً أصبحوا أتباعاً لهم



وقد اضطر كل مجتمع صغير أن يعتمد على نفسه فى انتاج كل ما تدعو الحاجة اليه إذ لم يكن فى استطاعته أن يعتمد على انتاج الآخرين بسبب الحروب التى كثيراً ما كانت تشجر بينه وبين جيرانه وبسبب الفوضى العامة وسوء طرق المواصلات

عدد عظيم [redacted] وكان يقوم بالانتاج من زراعة وصناعة رقيق الارض فى النظام الأقطاعى بطبقة «رقيق الارض» وأصل هذه الطبقة من نسل الارقاء الباقين من عهد الدولة الرومانية ومن الاحرار الذين أصبحوا

لا يملكون أرضاً فاستخدمهم الملاك فى حراثة الأرض ، وبتوالى الأجيال التصقوا بها بحيث إذا انتقلت ملكيتها من سيد إلى آخر بقوا عليها

وكان السيد يمنح الرقيق قطعة من الارض يزرعها لنفسه خاصة نظير جزء من المحصول يقدمه لسيده ، ونظير انقطاعه للعمل فى أرضه أياما مقررة من كل أسبوع ولم يكن للرقيق أن يغادر أرض سيده ولا أن يزوج أولاده بغير اذنه . ويجوز أن يتخلص من الرق مقابل مبلغ يتفق مع السيد على دفعه وقد رغب بعض السادة فى جمع المال بهذه الوسيلة خصوصاً عند ما أرادوا القيام بالحروب الصليبية

الفوضى فى عهد الاقطاع

وقد يتسرب إلى الذهن أن الاقطاع أوجد الأمن فى البلاد وصان مصالح الناس بالدقة ، ولكن الحقيقة غير ذلك فقد ظلت المنازعات والحروب سائدة وكثيراً ما كان التابع يحنث فى يمينه وينتهز أول فرصة لينقلب على سيده متى أنس منه ضعفاً ، ولا سيما اذا كان السيد قاصراً أو امرأة ، فلم تكد تفتر الحروب بين الساده المتجاورين وبين كل سيد وأتباعه وبين الاتباع فيما بينهم . وليس ذلك بعجيب من قوم شغفوا بالحرب والفروسية إلى حد أنهم كانوا إذا أعوزتهم الحروب عمدوا إلى التسلى باقامة حفلات حربية يدعى اليها الفرسان من بلاد قاصية يتبارون بالرماح والسيوف حتى تسيل الدماء فى هذه الالعاب

الهدنة الربانية

وبقى الاشراف عاكفين على هذه المنازعات حتى سئمت الكنيسة هدر الدماء وأرادت أن تخفف من ويلات الحرب ، فأعلنت الأشراف والفرسان أن يكفوا عن القتال ثلاثة أيام من كل أسبوع وهددت

بالحرمان كل من يخالف هذه « الهدنة الربانية » ثم انهزت قيام الحروب الصليبية فحولت الحماسة نحو الشرق



المبارزة فى العصر الوسيط

مساوىء الاقطاع

ومن مساوىء الاقطاع أنه حال دون تكوين ممالك متحدة فقد كان فى فرنسا مثلا أكثر من مائة قسم من امارة كبيرة تكاد تكون دولة مستقلة ، الى قطيعة لاتتجاوز بضعة أفدنة ، وكذلك الشأن فى بقية ممالك أوربا . وعلى الرغم من اعتراف الامراء بسيادة الملك أو الامبراطور — اسماً — كانوا لايترددون فى الاستفادة من ضعفه وشن الغارة عليه فى كل فرصة

وسهّل عليهم ذلك أن الاتباع كانوا يقسمون يمين الولاء والاخلاص لسيدهم المباشر دون الملك ، فكانوا فى حل من القتال تحت لواء سيدهم ولو ضد الملك . ولا ننسى أنه لم يكن للملك فى عهد الاقطاع جيش دائم

كالجيوش الحالية ، بل كان يعتمد أولاً على الفرسان المتقدمين في قطيعته الخاصة وثانيا على الفئات التى يمده بها أمراء البلاد، وكان نظام الاقطاع يقضى على أمير أن يقدم للملك عند الحرب عدداً معيناً من الفرسان مزوداً بالخيل والسلاح والمؤن ، فكان الجيش العام عبارة عن وحدات متباينة تحت قيادة رؤساء مختلفين

ومن المساوىء أيضاً انقسام الشعب إلى طبقات عدة لكل طبقة مصالح وأغراض خاصة تعمل على الوصول اليها بالجود على حقوق الطبقات الاخرى وأهم هذه الطبقات الاشراف والفرسان والرقيق

العوامل التى أضعفت الاقطاع : —

الملك والشعب ان الاشراف هم وحدهم الذين استفادوا فى عهد الاقطاع إذ تسرب إلى أيديهم الشطر الاعظم من سلطة الملوك ، فأضحى هؤلاء لا يكادون يتمتعون بأكثر من لقب الملكية فأخذوا يتحينون الفرص للقضاء على نفوذ الاشراف واسترجاع ما كان لهم من القوة فاستمالوا العامة الذين كانوا يألمون من الفوضى والظلم المقترن بالنظام الاقطاعى والذى حال دون استتباب الامن اللازم لتنمية الصناعة والتجارة ، وبذلك اتحدت مصالح الملك والشعب فعملوا معاً على التخلص من نفوذ عدوهم المشترك — رغم أنه فى بعض الممالك بقيت للاشراف أملاكهم وألقابهم — ولا سيما بعد أن صار الملك يختار مستشاريه وموظفيه من الشعب

الحروب الصليبية لما قامت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر كان الاشراف والفرسان أول من لبى نداء البابا، وخرج منهم عدد كبير إلى

الشرق قتل أكثرهم وأقام آخرون فى الأرض المقدسة ، فقلّ بذلك عدد الأشراف فى أوربا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان إعداد الحملات الصليبية اضطرهم الى بيع املاكهم كلها أو بعضها كما اضطرهم الى تحرير أرقائهم مقابل مبالغ أداها اليهم الأرقاء . وقد أقام هؤلاء العُتقاء فى المدن واشتغلوا بالصناعة والتجارة فزادت أهمية المدن وقويت الطبقة الوسطى واستطاعت المدن بفضل جدها وثروتها أن تشترى هى أيضا حريتها من الأشراف ذوى السيادة عليها ، وتكتفى بحماية الملك أو الامبراطور

ظهور المدن

كان أمراء الإقطاع يعتمدون على مناعة حصونهم ودروع فرسانهم فلما اخترع البارود واستعمل فى أوربا فى القرن الرابع عشر وسلح به الملك رجاله من عامة الشعب ، لم تعد للحصون والدروع حصانتها الاولى فضعفت قوة الامراء وزاد سلطان الملك

اختراع البارود

أما أهم محاسن الاقطاع فانه صان أوربا من هجوم القبائل المتبربرة التى كانت تهددها ، فقد وقف زحف الصقلب والمجر من جهة الشرق ، وقاوم غزو أهل الشمال من نرمنديين ودانمرقيين ، كما قاوم أمراء الاقطاع فى جنوب فرنسا وفى ايطاليا محاولة عرب المغرب فتح هذه البلاد

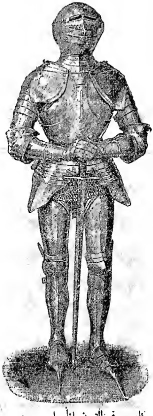
محاسن الاقطاع

ولما طال استقلال الامراء فى اقطاعياتهم تولد فيهم روح الحرية وصعبت عليهم الاستكانة لظلم الملوك الغاشمين . وسنرى الاشراف فى انجلترا يوقفون الملك يوحنا عند حده ويجبرونه سنة ١٢١٥ على أن يمنحهم « العهد الأعظم Magna Carta الذى كان أساساً لحرية الشعب الانجليزى

الفروسية

وربما كان أهم ما خلفه العهد الاقطاعي ظهور الفروسية التي تنطوى على مبادىء انكار الذات وإيثار الغير والمروءة والشهامة ونصرة الضعيف واحترام المرأة

كان العرب يعتمدون على الخيل فى حروبهم فلما قابلهم «شارل مارتل» فى موقعة «تور» سنة ٧٣٢ أعجب بما للخيل من الصفات الحربية فكوّن فرقاً من الفرسان على النسق العربى ، ومن ثم انتشر النظام فى كل أوربا .



فارس فى القرن الخامس عشر

وكان الفرسان يلبسون دروعاً ثقيلة من المعادن المختلفة لوقاية أجسامهم ويحاربون بالرماح والسيوف

نشأة الفارس

وكان أبناء الأشراف ينضمون من سن السابعة إلى فارس مشهور ينشأون معه ويقومون بخدمته ويتعلمون منه ضروب القتال وآداب المائدة والحديث والاستقبال ويصحبونه فى الصيد والحرب . وفى سن الحادية والعشرين يحتفل بتلقيب الشاب فارساً . وكانت الحفلة بسيطة فى أول أمرها ولكنها صارت دينية فأصبح الشاب يقضى ليلة الحفلة فى العبادة تاركا سيفه على المذبح ليباركه القسيس ، فاذا أصبح حضر الصلاة ثم تقدم سيده فضرب كتفه بعرض السيف قائلا

« قم فأنت فارس » ويلقنه واجبات الفروسية ويقسم الشاب أن يكون خادماً للكنيسة حامياً للمظلوم والضعيف عفوفاً طاهر الذيل كريماً محافظاً على مواعيده مضحيا كل شيء لأجل دينه ووطنه وصحبه

ومن هذا يتضح أن الفروسية كان لها مظهران ، مظهر حربى تولد من نظام الاقطاع ، ومظهر إنسانى جاء عن طريق الكنيسة . وكان يرجى من عهد الفروسية أن يخدم المجتمع فى عصر كثرت حروبه وانحطت فيه الأخلاق ، لولا أن الفروسية كانت أرستقراطية قبل كل شيء فلم يستفد عامة الشعب منها كثيراً

الفصل السادس

ظهور البابوية والرهبنة

مصادر قوة الكنيسة : قوة الايمان

إن أول مصدر لقوة الكنيسة جاء من اعتقاد الناس بأنها هى الواسطة فى غفران الذنوب ، والواسطة فى دخول الجنة . وقد كان الاهتمام بشئون الحياة الأخرى شغلهم الشاغل ومن شدة خوف الناس من عقاب الآخرة كانوا يعكفون فى بيوتهم ويكرسون حياتهم لعبادة الله يعذبون أنفسهم فى هذه الحياة كيما يخف عقابهم فى الآخرة . ولما كان رضاء الكنيسة ضروريا لغفران الذنوب وكان غضبها مما يؤدى الى غضب الله ودخول النار ، أصبح للكنيسة سلطان قوى على الجميع

استقلال الكنيسة

المصدر الثانى لقوة الكنيسة هو استقلالها إذ بقيت الكنيسة تحت حكم الامبراطورية الرومانية حين كانت قوية ، فلما ضعفت الحكومة المركزية ودخل البرابرة الأقاليم الرومانية أخذت الكنيسة تتخلص تدريجاً من تدخل الحكومة فى شئونها ورقابتها عليها ، وجاهر أحد أساقفة رومة فى القرن الخامس » بأن العالم تحكمه قوتان : قوة الكنيسة وقوة الملك والأولى تفوق الثانية لأن الكنيسة مسئولة أمام الله عن أعمال الجميع حتى الملوك أنفسهم »

ظهور البابوية

كان الناس يعتقدون أن كنيسة رومة أسسها الرسول بطرس، صاحب المنزلة الأولى فى نظر المسيح عليه السلام والمسيحيين ولذلك اعتبرت الأولى بين الكنائس فى الغرب إذ ليس من بينها من تستطيع أن تفاخر بأن مؤسسها رسول. وساعد على ذلك أن رومة كانت سيدة العالم وعاصمة الامبراطورية ، فاعتبر أسقفها أول الاساقفة

البابا ليو الأكبر

ولما صار ليو الأكبر Leo (٤٤٠ — ٤٦١) أسقفاً لرومة وكان رجلا عالى الهمة شجاعا كبير الآمال والاطماع ، وضع أساساً لقوة البابوية بأن حث ڤالنتنيان الثالث Valentinian III أمبراطور الغرب أن يصدر سنة ٤٤٥ منشوراً يعلن فيه أن أسقف رومة فائق على جميع أساقفة الغرب ، وأنه يعتبر المرجع الاعلى لهم جميعاً ، وحتم على الاساقفة اتباع أسقف رومة فى كل ما يقرره وهدد كل من يخالف ذلك ببطش الحكومة وقوتها . وتعتبر مساعى « ليو » الخطوة الاولى فى تفوق البابا فى غرب أوربا ، فلما سقطت الامبراطورية الغربية أصبح أسقف رومة بطبيعة الحال الوارث للامبراطورية واعتبره الجميع زعيما وممثلا لهم أمام قواد البرابرة ، وأخذ الأسقف يباشر بعض أعمال الحكومة

البابا غريغورى الاكبر (٥٩٠ — ٦٠٤)

ويعتبر « غريغورى Gregory » أول من رفع منار البابوية بعد ان كانت مجرد أسقفية ، وذلك لما كان له من اليد الطولى فى ارسال القسس والرهبان ليبشروا بالدين ، بين الوثنيين ، واعادة المسيحية فى جنوب انجلترا بعد ان محاها السكسون الوثنيون

وزيادة على ذلك زادت قوة الكنيسة وثروتها واتسعت أملاكها فصرف غريغورى جزءاً من وقته فى إدارة « إرث الرسول بطرس » إدارة منطوية على الدقة والرحمة . وقد وجه التفاته ايضاً الى ترتيب الطقوس الدينية والموسيقى والصلوات فى الكنيسة ، وبهذه الوسيلة اجتذبت الكنيسة غير المسيحيين اجتذابا لم يكن لها من قبل ، ولم يكن عمله فقط هو الذى رفع اسمه بل شخصيته أيضا ، فان الاحترام والتوقير الذى استحقه أدى تسجيله قديسا بعد موته . ومن المؤكد أن الكنيسة لم تفقد إلى الآن أثر الروح الذى بثه فيها غريغورى

أثر ظهور الاسلام

ولما ظهر الاسلام واستحوذ على أهم مراكز المسيحية فى الشرق خصوصاً الكنائس التى أسسها الرسل وهى بيت المقدس واسكندرية وانطاكية ، لم يعد ينافس رومة الا القسطنطينية ولكن أسقف الأخيرة بقى تحت سلطة الامبراطور ، بينما كان أسقف رومة بعيداً عنه ومستقلا عن نفوذه

ثم مالبث قرب الاسلام من الدولة الرومانية الشرقية أن أدى إلى

لزوم الاصلاح باخراج الصور والتماثيل المقدسة من الكنائس ، والامتناع من عبادة العذراء ، ووجوب تزوج القسس ، وانضم الامبراطور «ليو الثالث Leo III» إلى هذه الحركة فأثار سخط الكنائس الغربية وأعلن مجلس رومة سنة ٧٣٢ أن تحطيم هذه الصور زيغ، وأصدر البابا قرار الحرمان ضد ليو ، واتسعت مسافة الخلف بين كنيسة رومة وكنيسة القسطنطينية . وزادت قوة رومة باعتمادها على تلك الدولة الفتية — دولة الفرنجة — ذلك الاعتماد الذى حدا بالبابا أن يتوج «پيپين» ملكا سنة ٧٥١ ، ثم شرلمان أمبراطوراً سنة ٨٠٠ كما تقدم

الرهبنة والأديرة

الرهبنة فكرة فلسفية قديمة كانت معروفة قبل المسيحية ، اد كثيراً ما كانت تنعزل عن العالم طوائف من الرجال وطوائف من النساء رجاء أن يعيشوا عيشة طاهرة

ابتداء الرهبنة — ابتدأت الرهبنة فى الشرق حيث نفَر الرهبان زرافات إلى صحراء مصر وغيرها ، ليعيشوا فى الكهوف والاكواخ الحقيرة وليقطعوا حياتهم فى التعبد. ومن السابقين الى الرهبنة القديس «أنطنيوس» المصرى، (٢٥١ — ٣٥٦) وكان تقياً ورعاً حج إلى بيت المقدس ثم باع أملاكه وتصدق بثمنها ولجأ إلى الصحراء واقتدى به آخرون ، ومن ثم جعل الرهبان يجتمعون تحت سقف واحد فنشأت الأديرة حول سنة ٢٨٥م . ووضع كل دير نظاماً خاصاً به . ومن مصر انتقلت الرهبنة إلى شمال أفريقية وصقلية ومنها إلى ايطاليا وبقية أوربا

القديس بندكت وبقى نظام الأديرة غير مستقر حتى ظهر القديس « بندكت St. Benedict » (٤٨٠ — ٥٤٣) ووضع للأديرة نظاماً خاصاً مكنها من أن تقوم بدور جدى فى تاريخ أوربا . وقد امتازت الأديرة التى اتبعت تعليماته

(١) بأن التى كان يدخل الدير صار يقسم ويتعهد أن يعيش فقيراً أعزب وأن يطيع رئيسه ما دام حياً

(٢) وبأن حياة الراهب صارت حياة كد وكدح متواصل فى الكنيسة والدير والحقل ، لكل ساعة من ساعات اليوم عمل خاص فجعلت الأديرة تقوم بالزراعة ورفعت من شأنها وضاعفت فى حاصلاتها ، فضلا عن أنها صارت معاهد للعلم

(٣) ولما كانت الرهبنة تفسر أحياناً بالعزلة قاوم « بندكت » هذه الفكرة أشد مقاومة فحتم على اتباعه أن يعيشوا معاً ويناموا معاً ويعملوا معاً ويقوموا بكل صغيرة وكبيرة — لا أفراداً — بل بهيئة مجتمع

(٤) وكان كل دير يقوم بجميع شئون نفسه ولا يخضع لأسقف ما سوى البابا شخصياً

(٥) وقد أغفل بندكت فى قبول الرهبان كل الفروق الاجتماعية والمالية والجنسية فظهرت المساواة والاخاء داخل الأديرة بين الرومانى والمتبربر والعبد والحر

وما جاء القرن العاشر حتى تطرق الضعف والفساد الى نظام الاديرة دير كلونى ولزم اصلاحها من جديد ، فنهض دير « كلونى Cluny » بفرنسا الذى تأسس سنة ٩١٠ ، ورأسه جماعة من أكفأ الرهبان ، عرفوا بالصلاح

والحزم والنشاط فغص الدير بالرهبان .وتفرع عنه عدة أديرة سارت على نسقه وأصبحت نظم دير « كلونى » سائدة فى أكثر الأديرة الأوربية

وقد سار دير كلونى على قواعد القديس بندكت باخلاص وحماسة عظيمين إلا أنه غير نظام الحكم فى الأديرة فبعد ان كان كل دير ينتخب رئيسه صار رئيس دير كلونى صاحب الحق المطلق فى تعيين رؤساء الاديرة الاخرى وكان القصد من ذلك تدارك ما عساه يحدث من التراخى فى أحد الاديرة بادخال عنصر جديد من دير نشيط وفى دير كلونى تخرج الراهب « هلدبرند » الذى تولى البابوية باسم غريغورى السابع وأدخل مبدأ حكومة الفرد الى نظام الكنيسة

وفى أوائل القرن الثالث عشر بدأت حركة رهبنة أخرى على يدى القديس « فرنسيس St. Francis »

ظهور الاخوان الفرنشسكان

نشأ فرنسيس فى أسرة غنية من مدينة «أسيسى» فى ايطاليا وقضى مدة صباه فى الترف واللهو حتى مرض وجعل يفكر فى الهوة التى تفصل الاغنياء والموسرين عن الفقراء والمعسرين ، فعطف قلبه على المرضى والمساكين ورغب فى مواساتهم وتخفيف آلامهم ، ولم يأبه بتهديد والده إياه بحرمانه من الميراث ان لم يترك صحبه هؤلاء البؤساء ، بل نزع ملابسه وارتدى ملابس الفقر وخرج يبشر بالانجيل فى وسط ايطاليا. وانضم اليه كثيرون من أمثاله فأسس عهد « الاخوان الفرنشسكان » ونال موافقة البابا « أنوسنت الثالث Innocent III » سنة ١٢٠٩ م وقد تشبه الفرنشسكان بالسيد المسيح عليه السلام فشرعوا يجوبون البلاد حفاة بملابس رثة ،

يعيشون بكدهم وجدوا عملا ، فاذا أعوزهم العمل عاشوا على الصدقات مُهمتهم العناية بالمرضى وزيارة المسجونين وتفريج كرب البائسين

ولم تمض سبع سنين حتى زاد أتباع فرنسيس فانتشروا فى جميع أنحاء اوربا يبشرون بالدين ويساعدون المحتاجين


راهب فرنشسكان

وقد خاف فرنسيس أن تتغير أخلاق الاخوان اذا هم قبلوا ما يعرض عليهم من الهبات فحتم عليهم أن يعيشوا فى هذه الدنيا غرباء لا يقتنون شيئاً مفضلين الفقر والتواضع فى خدمة ربهم

ولم يكد فرنسيس يغادر الحياة سنة ١٢٢٦ حتى توالت على الاخوان الهبات وزاد ايرادهم ففسد نظامهم كما فسدت كل نظم الاديرة حين أغدقت عليها العطايا ، فزالت عنهم الحماسة الدينية والتقشف الذى صحبها

ظهور الاخوان الدومنيكان

وبينما كان فرنسيس يكوّن جماعته قام القديس «دومنيك St. Dominic» بتكوين عهد آخر للرهبان الشحاذين، وهو اللقب الذى اطلق على اتباع فرنسيس ودومنيك

ولد «دومنيك» بأسبانيا وكان على عكس فرنسيس مثقفاً بالتعليم الدينى، تخرج فى جامعة أسبانية ودخل فى خدمة الكنيسة وذهب

سنة ١٢٠٨ إلى جنوب فرنسا حيث روعه إلحاد طائفة « الالبيجنس » فعزم على أن يكرس حياته لاقتلاع بذور الالحاد وانضم اليه نفر قليل وطلبوا من البابا أن يعترف بعهدهم فأجابهم إلى ذلك بعد تردد يسير. وبدأ ينشر دعوته حتى استطاع أن يؤسس ستين ديراً قبل سنة ١٢٢٠. وقد سار الاخوان الدومنيكان سيرة الفرنشسكان فى جوب البلاد والتزام الفقر غير أن الدومنيكان كانوا علماء بأمور الدين مهتمين باقناع الملحدين وهداية الضالين وارجاعهم إلى أحضان الكنيسة، ولهذا اعتمد عليهم البابا فى تنظيم محاكم التفتيش.

ويمتاز الرهبان « الشحاذون » عن سابقيهم بأنهم لم يقضوا حياتهم فى الاديرة، بل جابوا الآفاق واختلطوا بصنوف الناس رجاء أن يخلصوهم من غواية الشيطان، واعتبروا أنفسهم جند المسيح عليه السلام يأتمرون بأمر رئيس العهد كما يأتمر الجندى بأمر قائده

ولما أدرك البابا عظم الخدمات التى يؤديها الرهبان الشحاذون للكنيسة رفع من شأنهم وأباح لهم تأدية الواجبات الدينية التى كانت قاصرة على القسس، فنشأ العداء بين الطائفتين — الرهبان والقساوسة — وفاز الأولون ونالوا رضاء الخاصة والعامة. ولما كثرت الهبات على الدومنيكان أصابهم ما أصاب اخوانهم الفرنشسكان

أثر الاديرة

ولقد كان للأديرة أثر عظيم فى المجتمع أهم عناصره ما يأتى:

(١) قامت الاديرة بانهاض الصناعة وإصلاح كثير من الأراضى التى لم تزرع من قبل، وكانت مثلا حسناً لمن حولها من الزراع والصناع

(٢) كانت الاديرة ملاجىء يأوى اليها المريض ، ويعول عليها ابن السبيل فى وقت لم تكن فيه المستشفيات والملاجىء معروفة

(٣) بينما العلوم تنحط فى كل مكان آخر حافظت الأديرة على جذوة العلم التى انتفع بها علماء النهضة الحديثة واحياء العلوم فيما بعد

(٤) وأهم من هذا كله الخدمات التى بها أيدت الأديرة نظام الكنيسة وأعلنت سلطة البابا لأنه رغم تشاحنها مع الاساقفة القريبين منها كانت دائما تحض على طاعة رئيس الكنيسة كلها حتى أن كل تطور فى الرهبنة كان يصحبه تطور يماثله فى البابوية وكان كل دير حصناً منيعاً ونقطة دفاع عن بابا رومة ، وسيفاً مسلولا على رقاب كل من جرؤ على مخالفته

الفصل السابع

ظهور الممالك الحديثة فى أوربا

١ — فرنسا

يبدأ تاريخ فرنسا من معاهدة « ڤردان » ٨٤٣ م حين صار القسم الواقع غربى الرين والرون مملكة مستقلة يحكمها «شارل» حفيد شرلمان وقد بقيت هذه البلاد عرضة لغارات العرب والنرمنديين مدة قرن من الزمان ، وعجزت الحكومة عن صد هؤلاء المغيرين واستفحل الخطب أيما استفحال ، فصارت القوة الحقيقية بيد أمراء الاقطاع وكبار الملاك أما الملوك فكادوا يكونون بلا مملكة ولا جند ولا ايراد اللهم الا ماسمح أتباعهم بتقديمه لهم

وقد اشتد غارات النرمنديين فى أواخر القرن التاسع حتى حاصروا باريس سنة ٨٨٥ ، ولم يجد الملك حيلة فى ردهم عنها . فانبرى «أودو Odo» كونت باريس للدفاع عنها ، فرفع النرمنديون الحصار . ولم تمض ثلاث سنين حتى انتخب الاشراف «أودو» ملكا عليهم بعد أن عزلوا آخر ملك من أحفاد شرلمان . ولكن هذا الانتخاب لم يزد فى قوته كثيراً لتمسك كل شريف باستقلاله فى مقاطعته الخاصة، ولمنافسة بقايا أسرة شرلمان له ولمن خلفوه ، ولاستمرار هجوم النرمنديين الى سنة ٩١١ حين اتفق الملك معهم أن يكفوا عن المشاغبة وأن يقيموا فى المقاطعة التى عرفت فيما بعد باسم نرمندية ، فصاروا يحكمون هذه الجهة مستقلين فى الواقع ،

ولـكنهم يعترفون للملك فرنسا بنوع من السيادة الاسمية، وقد اعتنقوا المسيحية بعد ذلك واندمجوا فى الفرنجة وأصبحت بلادهم من أحسن وأرقى البلاد بأوربا

انتخاب هيوكابت

بقى الملوك يتمتعون بسيادة اسمية الى أن انتخب سنة ٩٨٧ «هيو كابت Hugh Capet » من أسرة أودو ملـكا على فرنسا . ومن هذا الملك تناسل كل الملوك الذين حكموا فرنسا منذ ذلك الوقت . وكان «هيو» أميراً قويا استعمل هو وخلفاؤه هذه القوة لرفع شأن التاج الفرنسى حتى انتهى الأمر باخضاع جميع أمراء الاقطاع ، وصار الملوك يحكمون البلاد بلا منافس ولا يكادون يتقيدون بقيد ما

كان «هيوكابت» وقت انتخابه ملـكا يحكم أرضا بين نهرى السوم واللوار تشمل باريس وأرليان وتعرف باسم «دوقية فرنسا» . وفيما عدا ذلك يحكم فى كل مقاطعة أمير مستقل يعترف للملك بشىء من الطاعة ويقدم له بعض الخدمات أحيانا . وقد قضى ملوك فرنسا ثلاثة قرون يوسعون ملـكهم ويجورون على أملاك الامراء باشكال وطرق شتى، الى أن صارت فرنسا كلها لهم ، وصار كل فرنسى رعية للملك ، وان بقى للأشراف كثير من الاملاك

آرة البوربو ١٧

فليب الاول (١٠٦٠ — ١١٠٨)

هو أول ملك ترى فى عهده زيادة فى قوة التاج وما ذلك إلى لحادثين حصلا فى أيامه ساعدا على هذه الزيادة بطريق غير مباشر: الاول ان «وليم William » دوق نرمندية — أقوى أتباع الملك — غزا انجلترا سنة ١٠٦٦ م وهزم « هرولد Harold » ملك الانجليز والسكسون فى واقعة « هيستنجس

« Hastings » وصار ملكا لانجلترا . وبالرغم من أن هذا الفتح ضاعف قوة وليم ، الا أنه أبعده عن فرنسا التى صار لأحفاده فيها أملاك شاسعة استطاع الملوك الفرنسيون ضمها اليهم . والحادث الثانى أنه عام ١٠٩٥ دعا البابا الى الحرب الصليبية الأولى فى « كليرمنت Clermont » وخرج الى الشرق كثير من أدواق فرنسا الأقوياء لم يرجع منهم إلا القليل وقل بذلك عدد المعارضين للملك

لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠)

تزوج من «اليانور Eleanor» وارثة «أكتين» فأصبح من المحتمل اضافة هذه الدوقية العظيمة الى أملاك التاج الفرنسى ولكنهما لم يتفقا فطلقها لويس بدعوى أن قرابتها منه تحرمها عليه . ولسوء حظ فرنسا أن تزوجت «اليانور» من « هنرى الثانى Henry II» ملك انجلترا فصار له فى فرنسا «نرمندية» و « انجو» و«أكتين » ومجموعها أكبر من أملاك التاج الفرنسى . ولكن لويس نجح فى سياسته الداخلية، وأهم شىء فى حكمه تحسين الادارة فى دوقية فرنسا ، وحصر السلطة فى يد الملك والتفاف رجال — لا من الأشراف فحسب — بل من رجال الدين والمحامين حوله ، يخلصون كلهم فى خدمته ، وبهذا قويت الطبقة الوسطى التى صارت أقوى معاضد للملوك .

ظهور الطبقة الوسطى

فليب اغسطس Phillip Augustus (١١٨٠ — ١٢٢٣)

هو أول ملك سعى فى تحويل دوقية فرنسا الى مملكة فرنسا ، وذلك أن تابعه «هنرى الثانى» ملك انجلترا نال بفضل المصاهرات املاكا

فى فرنسا أكثر وأغنى مما يملكه فليب نفسه . وورث هذه الاملاك ابنا هنرى « رتشارد Richard » ثم «جون John » وكان جون هذا ملكا ضعيفاً غبياً ، اقترف كثيراً من السيئات فدعاه ملك فرنسا ليحاسبه على خطئه فأبى الحضور أمام متبوعه ، فعاقبه هذا بمصادرة أملاكه الفرنسية ما عدا أكتين ، وساعدت الكنيسة فليب فانتصر على

موقعة بوفين

أعدائه فى موقعة « بوفين Bouvines » سنة ١٢١٤ وهى موقعة من أهم المواقع فى التاريخ الأوربى بها أحرز التاج الفرنسى نرمندية وأنجو ، ثم صار للملك أراض أخرى واسعة حصل عليها بانتصاراته ، فأضحى ملك فرنسا أكبر أمير فيها لأول مرة وأضحى فى وسعه أن يناضل بقية الامراء

اصلاحات فليب

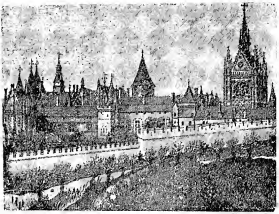
لم ينس فليب أثناء توسيع أملاكه أن يدخل اصلاحات مهمة سيكون لها شأن كبير فى المستقبل فحافظ على حسن الرابطة بين التاج والكنيسة رغم الاختلاف فى بعض الاحيان، وثابر على سياسة جمع الطبقة الوسطى حول الملك ، بأن سمح للمدن بشطر من الحكومة الذاتية وكون مدناً جديدة ، وشجع التجارة ، فصارت باريس أعظم مدن فرنسا وزادت مساحتها وثروتها وأهميتها زيادة كبيرة فى عهده

وفوق هذا ، أوجد حكومة نظامية ومالية ثابتة وجيشاً قوياً . أما الموظفون فاختارهم فليب من الطبقة الوسطى — دون الاشراف — وجعلهم متوقفين عليه فى كل شىء . وأهم الموظفين هم النواب الذين كانوا يمثلون الملك فى الجهات المختلفة ويحافظون على حقوقه ونفوذه . ويراقبون محاكم الاشراف ويقيمون ميزان العدل فى البلاد . وهم يشبهون رسل

شرلمان Missi Dominici . وأما الخزانة فملأها فليب بفضل اتساع ملكه وبأخذه نقوداً من أتباعه بدل الخدمات الاقطاعية التى كانوا يقومون بها ، وبحماية اليهود نظير هبات مالية يقدمونها له . وأما الجيش فلم يقنع فليب بالوحدات الاقطاعية التى كان يرسلها اتباعه ، بل أنشأ جيشا من رجال يختارهم هو ويدفع مرتباتهم ، فيخلصون فى خدمته

لويس التاسع (١٢٢٦ — ١٢٧٠)

صلاحه كان هذا الملك قديساً مخلصاً لا يقل من هذه الناحية عن القديس فرنسيس رغم أن أحدهما كان أقوى ملك فى أوروبا بينما عاهد الآخر نفسه أن يعيش فقيراً . كان لويس تقياًمتقشفاً متواضعا يخالط الفقراء ويعطف عليهم . وكان مع هذا حلو الشمائل دائم السرور محبوبا لدى رعيته



قصر لويس التاسع على السين

وسائر المسيحيين ، حتى كانت الدول الأوربية ترجع إليه للفصل فى مشاكلها الخاصة

ولم يحل صلاح لويس دون تمسكه بكل حقوقه إزاء الاشراف ، بل

إزاء الكنيسة والبابوية . فقد أكد للأشراف أنه لن ينقص من امتيازاتهم ،

تمسكه بحقوقه أزاء الاشراف والبابوية

فلما ثاروا عليه سنة ١٢٤٢ ، قضى عليهم بكل حزم وبأس حتى لم يعد يخشى على التاج منهم . وحتم عليهم بعد ذلك أن يتعاملوا بالنقود التى يضربها الملك وأن يسمحوا لنائبه بحضور جلسات محاكمهم . كذلك لم يحل صلاح لويس دون تمسكه بحقوقه أمام البابوية نفسها ، فلم يسمح لها بالتعدى على الحقوق التى كسبتها الكنيسة الفرنسية من قبل

وفى أواخر حكمه صار أخوه «شارل دوق أنجو Charles duc d'Anjou » ملكا على صقلية ونابلى ، وزاد هذا فى عظمة الأسرة المالكة فى فرنسا . وقد قام لويس بحملتين صليبيتين سيأتى الكلام عليهما فيما بعد

تقسيم مجلس الملك

أما أعظم أعماله أثراً ، فهو ابتداء توزيع أعمال الحكومة وتقسيم مجلس الملك العام إلى ثلاثة أقسام أو ظهوره بثلاثة مظاهر مختلفة : ١) قسم يعنى بالأمور الخارجية خاصة والسياسة عامة ٢) وقسم ينظر فى المسائل المالية ويشمل أعضاء المجلس الذين لهم خبرة أو ميل إلى هذا العمل ٣) وقسم يقوم بالقضاء ويحضره الأعضاء العارفون بالقوانين

البرلمان

واشتهر هذا القسم الاخير باسم «البرلمان Parlement »، ولكنه لم يكن كبرلمان انجلترا يؤدى وظيفة التشريع ، بل كان محكمة عليا تستأنف اليها القضايا المهمة . وقد نشط البرلمان ووسع اختصاصه وحرم محاكم الاشراف من بعض القضايا التى كانت تقدم اليها سابقاً ، فصار بذلك دعامة من أكبر الدعائم التى عليها شيدت قوة الملكية

وفى حكم لويس صارت ممتلكات التاج تمتد بدون فاصل من بحر الشمال إلى البحر الأبيض المتوسط

فليب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤)

حاجة فليب الى المال

كان فليب ملكا قويا جريئا، اتسع فى عهده ميدان أعمال الحكومة وزاد موظفوها فاحتاج الى المال وسعى الى تحصيله بكل وسيلة. وساعده فى هذا وغيره موظفون اختارهم من الطبقة الوسطى ممن تشبعوا بروح القانون الرومانى وما ينطوى عليه من تعظيم شأن الملك واطلاق يده فى جميع أمور الدولة. ويمكن اعتبار حاجة فليب الى المال مفتاحاً لسياسته فانها جرته الى محاربة فلندرة والشحناء مع البابوية

حرب فلندرة

وكانت فلندرة من أهم الاقطاعات التابعة لفرنسا. وقد نشأت بها مدن صناعية تجارية زادت ثروتها بصناعة الصوف وغيره من المنسوجات، فأراد فليب أن يستولى عليها لتدر عليه خيراتها. فتغلب على أميرها وحكمها سنتين، الا أن الأهالى ساءهم استبداد الملك بالسلطة، ولم يكونوا تعودوا الخضوع المطلق، فثاروا على الفرنسيين وانتصروا عليهم فى موقعة «كرتراى Courtrai» سنة ١٣٠٢، فاضطر فليب أن يقنع باضافة جزء يسير من فلاندرة الى ملك التاج

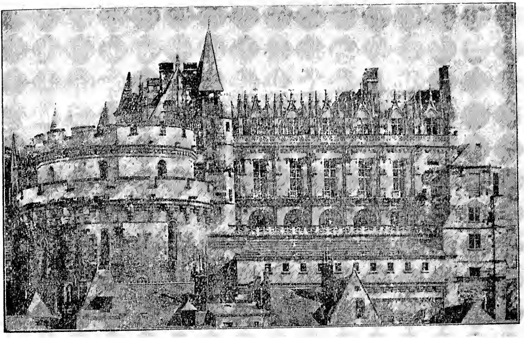
تشاحن فليب والبابوية

وأراد فليب سنة ١٢٩٩ أن يزيد موارد خزانته، ففرض ضرائب على رجال الدين أسوة بغيرهم من رعاياه، فأصدر البابا قراراً حرم فيه على رجال الدين دفع هذه الضرائب، فانتقم الملك بمنع انتقال الذهب من فرنسا إلى إيطاليا فخسرت البابوية كل ما كانت تجبيه من الكنائس الفرنسية واضطر البابا أن يعدل عن خطته وأن يصالح فليب

تحسين القضاء

وكان فليب مولعاً بتقليد « جستنيان » وباستبدال طرق التقاضى

الاقطاعية بطريقة التحقيق وإقامة الأدلة ، وقد جدّ قضـاة البرلمان فى رفع ملـكهم الى مستوى الامبراطور الرومانى وجعله صاحب النفوذ المطلق ، فأصبحت كل القضايا العادية التى تحدث فى ممتلـكات التاج تعرض على البرلمان ، وكثر الاستئناف اليه حتى أثقل كاهله فتضاعفت سلطة الملك فى القضاء ، وفاقت محاكمه محاكم الأمراء



قصر امبواز من عهد شارل الثامن

مجلس طبقات الامة

ولم يكن مجلس الأمة الى ذلك الوقت جزءاً مهماً فى الحـكومة ، واقتصر حضوره على كبار الأشراف والأساقفة ورؤساء الأديرة ، فلما شجر الخلاف بين فليب والبابا ، أراد أن يتأكد أن الأمة فى جانبه ، فدعا المجلس للانعقاد سنة ١٣٠٢ وطلب الى كل مدينة أن ترسل لحضوره مندوبين أو ثلاثة « ليسمعوا ما يقول الملك ويوافقوا عليه وينفذوا ما يأمرهم به » فقرر

المجلس موافقته على خطة الملك ، ثم عقده فليب عدة مرات على هذه الصورة فاصبح يعرف « بمجلس طبقات الأمة Etats Généraux » : الأشراف والكنيسة والشعب المسمى « الطبقة الثالثة »

وبهذه الوسائل تمكن ملوك فرنسا من توطيد قوتهم ونشر نفوذهم واخضاع منافسيهم وجمع الشعب حولهم، والاستئثار بكل السلطة فى البلاد

٢ — انجلترا

من عهد سحيق انتقل قوم من الجنس الكلتى من سكان مقاطعة «برطانية» فى شمال غربى فرنسا إلى الجزيرة المواجهة لهم وسموها «بريطانيا» باسم بلادهم الاصلية ، ومنها نزلوا ايرلنده . وقد بقى هؤلاء الاقوام أصحاب الشأن فى البلاد محافظين على العادات الكلتية التى سبق ذكرها ، الى أن دخلوا ضمن الامبراطورية الرومانية فى عهد الامبراطور « كلوديوس Claudius » عام ٤٤ م وبقوا خاضعين لها حتى أخذت الدولة فى الضعف واضطرت نحو سنة ٤١٠ م . إلى سحب حامياتها من هذه الجهات النائية لتحمى وطنها الاصلى من غارات «المتبربرين» ؛ فترك الرومان بريطانيا بعد أن نسى أهلها صفاتهم الحربية الاولى وأصبحوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم . فلما أغارت عليهم قبائل «الانجليز» «والسكسون» و«الجوت» — الذين جاءوا من ألمانيا أثناء القرنين الخامس والسادس عقب سقوط الدولة الرومانية الغربية — سهل عليهم التغلب على البريطانيين الذين احتموا بالمستنقعات والجبال الغربية، واصبحت البلاد تعرف باسم «انجلند» أى أرض الانجليز . ولذا يحسن التكلم عن هؤلاء المغيرين باسم الانجليز

نزول الانجليز والسكسون

تحولهم الى المسيحية

كان الانجليز وثنيين عند ما هاجموا بريطانيا فأولعوا بنهب الاديرة والكنائس ، ولكن البابا « غريغورى الاكبر » أرسل اليهم الراهب أغسطين Augustine سنة ٥٩٧م فانتشرت المسيحية بين الأنجليز أنفسهم وارتبطوا من ذلك العهد بأسقفية رومة

تغلب وسكس

أما من الوجهة السياسية فقد أنشأوا ممالك صغيرة متنافرة ما زالت فى نزاع وشحناء حتى تغلبت « وسكس » (أى مملكة السكسون الغربيين) على جميع الانجليز سنة ٨٢٥ ، فأصبح « أجبرت Egbert » ملكا على جميع انجلترا وأدخل بعض اصلاحات نقلها عن شرلمان الذى كان يعرفه شخصياً.

ولكن عهد السكينة لم يطل ، إذ أن « أهل الشمال Northmen » الذين رأيناهم يغيرون على أمبراطورية شرلمان وغيرها — أخذوا يغيرون على انجلترا أيضاً ، ولا سيما الشواطىء الشرقية التى أصبحت عرضة لهجوم جماعات من الدنمرقيين . واستمر الكفاح بين الطرفين إلى أن

الفرد الاكبر

ظهر فى وسكس ملكها « الفرد الاكبر Alfred » (٨٧١—٩٠١) فقاوم الاعداء مقاومة عنيفة حتى اضطرهم فى النهاية أن يعاهدوه فى « ودمور Wedmore » سنة ٨٧٨ على الانسحاب من جنوب انجلترا والاكتفاء بنصفها الشمالى الشرقى ، وأن يعتنق ملكهم الدين المسيحى .

اصلاحاته

وبعد هذا ، أصلح « الفرد » حال الجيش والاسطول استعداداً للطوارىء ، ووضع نظاما لرفع مستوى التعليم بين رجال الدين ، وشجع المكتشفين واهتم بالعلوم والآداب وأمر بترجمة كتب الاقدمين الى الانجليزية السكسونية فارتقت هذه اللغة ، وبدأ فى عهده السجل

الانجليزى السكسونى «The Anglo-Saxon Chronicle» وهو أهم المستندات التاريخية عن انجلترا من الأزمنة القديمة إلى سنة ١١٥٤

ولما مات «الفرد» قام خلفاؤه بتقوية وسكس وإضعاف الدنمرقيين مدة قرن من الزمان ، حتى بلغت هذه المملكة الصغيرة شأواً عظيماً فى عهد «ادجار Edgar» (٩٥٩ — ٩٧٥) بفضل مساعدة الكنيسة ولكنها بدأت تنحط قوتها بينما زادت قوة أعدائها بانضمام النرويج والدنمرقة تحت حكم ملك واحد وهو «كانوت Canute» الذى استطاع أن يحكم انجلترا أيضاً سنة ١٠١٧ فسار بالعدل والرحمة ولم يغير كثيراً من نظام البلاد بل أناب عنه حاكما من أهلها فى كل قسم من الأقسام الأربعة الكبرى ادجار

ولم يطل عمر دولة كانوت بل تفرقت بعد موته واصبح «ادوارد الملقب بالتقى Edward The Confessor» ملكا فى وسكس وكانت حكومته ضعيفة فعظم أمراء الأقطاع . ولما مات سنة ١٠٦٦ دون أن يترك ولداً ادعى العرش رجال كثيرون منهم وليم دوق نرمندية الذى عبر «المانش» وقابل «هرولد Harold» الملك الذى انتخبه وسكس وهزمه فى موقعة «هستنجس Hastings» سنة ١٠٦٦ وعرف باسم «وليم الفاتح» ثم توج ملكا على انجلترا وليم الفاتح

حكم النرمنديين وأسرة انجو

أراد وليم من أول الأمر أن يكسر شوكة أتباعه فى ملكه الجديد وأن يحول دون تقوية نظام الأقطاع فى انجلترا ، فكان يمنح كل تابع مساحات صغيرة فى أقاليم متباعدة حتى لا يستطيع ضم شمل أعوانه لمناوأة الملك ، وأقام الحصون فى الجهات المختلفة ليشرف منها عليهم مقاومة الاقطاع

ثم طعن الاقطاع طعنة نجلاء ، اذ كان المعروف في أوربا أنه اذا حدثت حرب بين الملك والشريف وجب على اتباع الشريف أن يحاربوا تحت لواء سيدهم ضد الملك ، ولمنع هذا الخطر العظيم جمع وليم كل ملاك الأرض من جميع الطبقات سواء أكانوا تابعين له مباشرة أم للبارونات ، فركعوا أمامه واقسموا يمين الطاعة والاخلاص أن يكونوا فى صف الملك اذا حصل نزاع بينه وبين أحد الأشراف . واستعان وليم بالبابا الذى شجعه على هذا الفتح وسمح للكنيسة أن يكون لها محاكم منفصلة فى انجلترا فعمل رجال الدين على تأييد العرش

الاحصاء

وقد أمر وليم بمسح جميع الأراضى واحصاء كل السكان والممتلكات والمواشى ، وأسس حكومة مركزية قوية أدت الى امتزاج النرمنديين بالانجليز واختلطت عادات الجانبين ولغتهما ونظمهما وصارت اللغة الفرنسية لغة البلاط والطبقات العليا . وكان من نتائج الفتح ان اتصلت انجلترا ثانية بأوربا فنشطت الحركة التجارية واشتبكت هذه المملكة فى السياسة الأوربية العامة ، خصوصاً لما زادت الممتلكات الفرنسية فى يد ملك انجلترا وتطلع ملوك فرنسا الى طردهم منها كما تقدم

اتصال انجلترا باوربا

هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩)

هو أول ملوك أسرة «أنجو أو البلانتجنت» وقد سبق الكلام على ممتلكاته الواسعة فى فرنسا ، أما أهم أعماله فى انجلترا فيفضلها جميعاً تقويته الحكومة الى حد لم يعرف فى العصور الوسطى ونشأ عن ذلك اتحاد الشعب ونمو البرلمان وقد بدأ بهدم الحصون التى بناها البارونات حديثاً ،

واسترجع كثيراً من الأراضى التى منحوها سابقاً فلم يستطع أحد منهم أن يعصى له أمراً . وقد مهد لسيادة الملكية بتحسين القضاء والادارة فكوّن محكمة الملك ، وجعل قضاتها يجوبون البلاد ويحضرون المحاكم المحلية فأصبحت كل القضايا المهمة فى يد قضاة الملك، ولا يخفى أن القضاء فى العصور الوسطى كان مورداً مهماً من موارد الحكومة القضاء

وكان يساعد القضاة المتجولين اعيان البلاد الذين كانوا يقدمون اسماء المجرمين لينالوا جزاءهم . ومن هذا الأصل نبتت فكرة وجود « محلفين » وجرت العادة أن يكون عددهم أثنى عشر يحضرون المحاكمة ويقررون أن المتهم مدين أو برىء أصل المحلفين

ولما كان هنرى لا يعول على الوحدات الأقطاعية فى الحرب اهمل طلبها وفرض بدل الخدمة العسكرية ضريبة خاصة تعينه على إيجاد جيش تحت أمره مباشرة ، وأمهر من جيوش الأقطاع الجيش

ونجم عن هذه الاعمال أن تيقن البارونات أن لا سبيل الى استقلالهم عن الملك ، فلجأوا الى التقوّى عليه بالانضمام الى الشعب وبدأت تنمحى الفروق اللغوية والجنسية بين الانجليز والنرمنديين ، وكون الأشراف مع عامة الشعب ذلك الاتحاد الذى ستظهر نتائجه الخطيرة أيام الملوك الضعاف اتحاد الشعب

وقد تولى بعد هنرى ابنه « رتشارد » (١١٨٩ — ١١٩٩) المشهور «بقلب الأسد» الذى قضى أكثر أيام حكمه فى الحروب الصليبية واشتهر بالشجاعة والكرم والشعر ، ولكن انجلترا لم تستفد إلا استنزاف ثروتها فى حروبه وافتدائه من الأسر رتشارد قلب الاسد

وتولى بعده أخوه « جون John » وكان ضعيفاً سيء التصرف ميالا

إلى الظلم والغدر، جلب على نفسه سخط رعيته من أول الأمر، وزاد السخط لما عجز عن حماية أملاكه فى فرنسا فضاعت نرمندية ثم لحق بها غيرها سنة ١٢١٤ عقب موقعة «بوفين Bouvines» التى أوقعها به فليب أغسطس قرب «ليل Lille» فاستاء بعض الاشراف لما فقدوا ما كان لهم من الأملاك فى فرنسا واستاء الشعب لما حل به من العار، وأحسّوا أن «جون» لا تصعب الثورة فى وجهه. وشجعهم على ذلك وجود خلاف بين الملك والبابا على تعيين رئيس أساقفة انجلترا، أدى الى اصدار قرار الحرمان ضد المملكة كلها، وحض البابا ملك فرنسا على غزو انجلترا فاضطر الملك «جون» الى الخضوع الى حد أنه قبل أن يحكم البلاد كتابع للبابا وأقسم يمين الولاء على ذلك

سخط الشعب

وبلغ استياء الشعب أشده سنة ١٢١٥، فثار الاشراف وضموا اليهم رجال الدين وأهل لندرة وغيرهم وأرغموا الملك على منح «الميثاق العظيم Magna Carta» وهو يعتبر أساس حرية الشعب الانجليزى. وأهم نصوصه:

الميثاق العظيم

١ — أنه لا يجوز للملك أن يقبض على شخص أو يسجنه أو ينفيه أو يصادر أملاكه أو يحرمه من حقوقه إلا اذا حوكم هذا الشخص أمام محكمة مكونة من نظرائه. وفى هذا تقييد لسلطة الملك التنفيذية وقد فسرت هذه المادة بأنها أساس حرية الفرد ونظام «المحلفين Jury» فى انجلترا

٢ — ليس للملك أن يفرض ضريبة أو يطلب منحة إلا بموافقة المجلس الاعظم ماعدا حقوق الملك الاقطاعية المعروفة. وقد فسرت هذه المادة بأنها تحرم على الملك أن يفرض ضريبة دون موافقة البرلمان، وهذا تحديد لسلطة الملك التشريعية

٣ — ليس للملك أن يعبث بالعدالة فينكر حق أحد أو يؤخره أو

يساوم فيه بأى طريق ، وبذلك أصبحت سلطة الملك فى القضاء محدودة
ورغم أن العهد الأعظم لم يضمن المحاكمة أمام محلفين ، ولم يشرك الشعب فى القوة السياسية ، ورغم أنه كان مستنداً إقطاعيا إلا أنه لايزال يعد أساساً للدستور الانجليزى ، وقد أبى جون أن يرتبط به فأعلن الاشراف عليه الحرب واستعانوا بملك فرنسا ولم يخلصهم من هذه الورطة الاموت جون سنة ١٢١٦

وقد تنبه القائمون ضد الملك أنه لا يكفى ارغامه على اعطاء وعد أو تهديده بالحرب اذا أبى تنفيذ وعده بل لا بد لهم — اذا أرادوا الاشراف على الحكومة أو الاشتراك فيها — أن تكون لهم هيئة دائمة تمثلهم وتنفذ رغباتهم . ولم يكن مثل هذه الهيئة جديداً فى انجلترا بل كان يوجد أيام ملوك الانجليز السكسون مجلس من عقلاء الرجال يسمى « وتان Witen » لا يكاد الملك يعمل عملا مهماً دون أخذ رأيهم . وكان هذا المجلس يحضره الاشراف والاساقفة ، فلما فتح وليم انجلترا استدعى الى مجلسه كل من تسلموا أرضهم من الملك وسماه المجلس الأعظم الذى بدأ فى أيام هنرى الثالث يسمى « البرلمان » أصل البرلمان

هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢)

كان هنرى الثالث Henry III أحسن من أبيه رغم طيشه وضعف إرادته ، ولم يكن من رأيه أن يستمر فى المشاحنات التى أثارها والده وكذلك كان البارونات يودون أن يعطوه فرصة يظهر فيها اخلاصه وأمانته

ولكن الملك أخطأ فى سياسته الخارجية وفرض ضرائب باهظة للسير فيها ، فقاومه الاشراف برياسة « سيمون دى منتفورت سيمون دى منتفورت

Simon de Montfort» واجبروه على دعوة المجلس الى « أكسفود » سنة ١٢٥٨ ، حيث تقرر أن يجتمع المجلس الذى بدأ يسمى « برلمانا » ثلاث مرات فى العام ويكون البرلمان على اتصال تام مع خمسة عشر عضواً يعينهم بنفسه للاشراف على جميع أعمال الملك وكذلك اشترط البرلمان أن يكون له تعيين كبار الموظفين مثل قاضى القضاة وأمين الخزانة . وبهذا زادت حقوق الشعب وتقيدت سلطة الملك ولكن كل هذه الاحتياطات لم تمنع وقوع الحرب الاهلية التى هزم فيها الملك وأخذ أسيراً وصار « سيمون دى منتفورت » يدير الشئون باسم هنرى الثالث فجمع سنة ١٢٦٥ برلمانا دعا اليه البارونات والاساقفة ورؤساء الاديرة كالمعتاد ، ثم أراد أن يبرهن للملك أن الامة مجمعة على خطته فكلف حكام الاقاليم أن يرسلوا الى البرلمان فارسين عن كل مقاطعة وعضوين عن كل مدينة فأصبح نواب الشعب يشتركون فى البرلمان لأول مرة على قاعدة المساواة مع عظماء الاشراف ورجال الدين ، وكان الجميع فى أول الأمر يجلسون فى قاعة واحدة ولكنهم انقسموا بعد ذلك الى مجلسين : مجلس العموم ومجلس اللوردة ويجمع الاشراف ورجال الدين

الحرب الاهلية

اشتراك العامة فى البرلمان

أدوارد الاول (١٢٧٢ — ١٣٠٧)

يعد حكم ادوارد Edward من أهم العصور فى تاريخ انجلترا ان لم يكن أهمها جميعاً ، فانه كان فى وسعه أن يقضى على قوة البرلمان الذى عارض أباه وجده ، ولكن حزمه هداه الى أن البرلمان يمكن استعماله كوسيلة من وسائل الحكم . وقام فى هذا الشأن بتجارب عدة حتى اذا كانت سنة

١٢٩٥، تورط الملك فى حروب مع فرنسا واسكتلنده، وبدل أن ينتهز هذه الفرصة للتخلص من رقابة الأمة عمد الى الاستعانة بها فجمع برلمانًا على نسق برلمان سنة ١٢٦٥ ويفوقه بتمثيل الشعب تمثيلا أقرب الى الكمال وصار هذا الاجتماع نموذجًا للبرلمانات المقبلة وبقى البرلمان على هذا النظام بدون تعديل أساسى الى عام ١٨٣٢

البرلمان النموذج

وبعد ذلك بعامين أيد أدوارد كل العهود التى منحت للشعب ووعد من جديد ألا يجبى ضريبة أو يطلب منحة الا بموافقة البرلمان، فثبت مركز هذه الهيئة ورسخت قدمها فى السيطرة على الحكومة، بينما جمعية طبقات الشعب الفرنسية التى جمعها فليب الرابع سنة ١٣٠٢ لم تقو على مقاومة الملكية. وما ذلك إلا لأن اشتراك الشعب مع الملك قديم فى انجلترا إذ كان موجودًا قبل الفتح النرمندى كما ذكرنا، بينما لم يوجد فى فرنسا الا فى حكم فليب الرابع، ولأن البرلمان الانجليزى انقسم الى نواب ولوردة فقط، وانقسمت جمعية طبقات الأمة فى فرنسا الى أشراف ورجال كنيسة وشعب، فصارت الطبقة العليا للطبقتين الممتازتين، ولأن لقب اللورد وكرسيه فى مجلس اللوردات يرثهما ابنه الأكبر فقط بينما أبناؤه الآخرون يجتهدون فى دخول مجلس العموم، ولأن البرلمان الانجليزى نجح فى التشبث بلزوم موافقته على الضرائب والمنح وبهذا وحده نال حقوقًا كثيرة من الملوك. أما مجلس طبقات الأمة فلم ينجح، بل صار للملوك فى فرنسا منذ سنة ١٤٢٩ حق فرض الضرائب دون موافقته، لان موقع فرنسا بين أمم معادية دعا الى ايجاد جيش مستديم صار خطرًا على حقوق الشعب وحريته، بينما كان الانجليز فى غنى عن الجيوش

برلمان انجلترا وجمعية طبقات الشعب بفرنسا

المستديمة بفضل تحصنهم وراء أمواج البحار . فتضاءلت هذه الهيئة ولم تدع للاجتماع بعد سنة ١٦١٤ الا قبيل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩

ولم يخل عهد أدوارد الاول من حروب مهمة فقد انتصر على أهل ويلز واستولى على جزء من بلادهم سنة ١٢٨٤ ولقب ولى عهده «أمير ويلز Prince of Wales» ومن ذلك العهد صار ولى عهد انجلترا يعرف بهذا اللقب. وكذلك حارب اسكتلنده وضمها الى ملكه، ولكن الاسكتلنديين ثاروا وانتخبوا «روبرت بروس Robert Bruce» ملكا عليهم واستردوا استقلالهم

٣ — ألمانيا وايطاليا بعد سقوط دولة شرلمان

يختلف تاريخ القسم الشرقى من أمبراطورية شرلمان عن تاريخ القسم الغربى لأنه بمعاهدة « ڤردان Verdun » سنة ٨٤٣ صارت « استراسيا » مقسمة الى ست دوقيات مستقلة وهى سكسونيا وبڤاريا وفرنكونيا وسوابيا وثورنجيا ولورين

تمسك الادواق بحقوقهم

وكانت كل دوقية تمثل قبيلة خاصة وتحرص على مصلحتها الذاتية . ولا تعبأ كثيراً بالمصلحة العامة ، رغم خضوع الجميع لاحفاد شرلمان خضوعاً أسمياً . وزاد الطين بلة أن القبائل المتبربرة من المجر والصقالبة أكثروا من الاغارة على الدولة وضعف الملوك عن حماية ملكهم فاعتمدت كل دوقية على نفسها ووكلت القيادة الحربية الى دوقها ، فقوى نفوذ الادواق وصعب على الملوك اخضاعهم فعمت الفوضى وزاد الاضطراب وتطلبت الظروف رجلا يجدد عهد شرلمان

أسرة سكسونيا

انتخاب هنرى السكسوني ملكا

ومن الغريب أن ذلك الرجل المنشود لم يظهر من بين أحفاد

شرلمان ولا من الفرنجة ، بل من السكسون الذين كانوا أشد أعدائه والذين لم يخضعوا له إلا بعد حروب طاحنة . إذ فى سنة ٩١٩ خلا عرش ألمانيا وكانت الملكية انتخابية ولكن بطريقة غير منظمة ، فاجتمع قوم من سكسونيا وفرانكونيا وانتخبوا هنرى السكسونى ملكا ووافق الباقون على هذا الاختيار فعرف باسم « هنرى الأول » الملقب « بالصياد »

هنرى الأول (٩١٩ — ٩٣٦)

كان هنرى يعلم أنه لا سبيل إلى التغلب على الادواق لشدة بأسهم فى عصره فوجه همه إلى الدفاع عن البلاد ومد نفوذه فيما وراء نهر الألب وانتصر على عدة قبائل صقلبية وفتح البلاد التى سميت فيما بعد « براندنبرج » التى سيكون لها شأن مهم فى تاريخ ألمانيا وكذلك احتل الشطر الجنوبى من الدنمرقة ونشر المسيحية فيه . ولكن أكبر معضلة قابلها هى اخضاع المجر الذين كانوا يسكنون حوض الطونه الاوسط ويخربون بجموعهم الهمجية البلاد المجاورة لهم . فعالج هنرى مقاومتهم ببناء مدن حصينة فى الجهات التى اعتادوا الاغارة عليها ونظم قوة من الفرسان لاقتفاء أثرهم وتمكن بهاتين الوسيلتين من كسر شوكتهم سنة ٩٣٣

أما حكمه فى داخلية البلاد فكان مؤسساً على كسب طاعة الادواق بالطرق الودية ومعاملتهم كأنهم أمراء مستقلون فكانت ألمانيا تحالفاً من ست دوقيات لا مملكة مركزية

أتو الأول أو الأكبر (٩٣٦ — ٩٧٣)

انتخب ملكا بعد أبيه فأتم عمله فى الدفاع عن ألمانيا وتنظيمها

وتقوية الملكية ثم توج امبراطورا كما توج شرلمان من قبل . وقد وسع «أتو Otto» نطاق الاستعمار الجرمانى فيما وراء نهر الألب . وللدفاع عن أملاكه أنشأ على حدودها دوقيات تحت الحكم العسكرى تشبه العواصم فى عهد الرشيد تتلقى أول هجوم يقوم به الاعداء واشتهرت هذه باسم «مارك Mark» وقد حارب المجر وهزمهم قرب اجزبرج سنة ٩٥٥ هزيمة

هزيمة المجر

قضت على شرهم فلم يعودوا يهددون المانيا بل أقاموا بالبلاد التى عرفت باسمهم فيما بعد ودخلوا الدين المسيحى وتقدموا تقدما سريعاً

وقد حاول «أتو» أن يخضع الدوقيات وينشىء مملكة متحدة فنجح فى ذلك بعض الشىء بأن عين أقاربه بدل بعض الادواق الثائرين وربط آخرين برباط المصاهرة مع الاسرة المالكة ، غير أن هذا لم يقض على أطماعهم بل بقوا يحاربون «أتو» ومن جاء من بعده قروناً عديدة

حال ايطاليا

وكانت ايطاليا إذ ذاك فى أتعس حال تشملها الفوضى والاختلال لأن الامبراطور الذى ورث أملاك «شرلمان» فيها كان يقيم فى الشمال بلا حول ولا طول لا يستطيع حماية هذا الجزء من غارات المجر ، وكان الوسط نهباً للعرب الذين استطاعوا أن يحكموه نحو ثلاثين سنة فى أول القرن العاشر ، وأما الجنوب فكان بعضه بيد الدولة الرومانية الشرقية ولكن قرصان المغرب كانوا لا يفتأون يغيرون عليه ، فكان النظام والاتحاد منعدمين فى ايطاليا ، وزادها خبالا ضعف البابوات واشتغالهم بمصالحهم الذاتية حتى عد القرن العاشر أظلم عصر فى تاريخ البابوية ، إذ كانت رومة تمزقها الاحزاب المتنازعة على خيرات البابوية بينما البابوات أنفسهم لا يهمهم الا التمتع بايراد وظيفتهم

وفى أثناء هذا الاضطراب دخل «أتو» ايطاليا لأن «أدليد Adelaide» أتو فى ايطاليا
أرملة «لوثير Lothaire» آخر ملوك الدولة الوسطى من سلالة شرلمان — استجارت به لينقذها من «برنجار Beringar» الحاكم الجديد الذى أراد أن يكرهها على التزوج بابنه، فعبر «أتو» جبال الألب سنة ٩٥١ وأنقذ «أدليد» بزواجه منها واعلان نفسه ملكاً على لمبارديا. وبذلك صار صاحب القوة فى ايطاليا وألمانيا معاً وأصبح قريباً من البابا وزاد اهتمامه بشأنه

وفى سنة ٩٦٢ اختلف البابا مع بعض أحزاب فى رومة اتهمته بمخازى شنيعة فطلب الى «أتو» المساعدة فحضر وايد سلطة البابا وأعاده الى عرشه، فاتضح للناس أن «أتو» يشبه شرلمان فى أنه حارب الوثنيين ونشر الدين بينهم وصار أكبر حاكم فى عصره وشد أزر الكنيسة، وانه لهذا يستحق أن يتوج أمبراطورا فتوجه البابا فى ٢ فبراير سنة ٩٦٢ تتويج أتو أمبراطورا

وتعتبر الأمبراطورية الرومانية المقدسة التى بدأت «بأتو» مكملة لامبراطورية «شرلمان» ووارثة لها بعد انقراض الاسرة الكارولنجية. ولكن مع التشابه بين الامبراطوريتين يوجد أيضاً مفارقات إذ كانت أمبراطورية «أتو» لا تشمل الا ألمانيا وبعض ايطاليا بينما كان شرلمان يحكم فى فرنسا واسبانيا أيضاً — تلك الجهات التى كانت متأثرة بحضارة الرومان تأثراً عميقاً وعلى ذلك لم يكن لامبراطورية «أتو» من الصفة الرومانية ما كان لامبراطورية شرلمان

وقد كان لتتويج «أتو» نتائج بعيدة المدى لأن أخلافه ورثوا أثر تتويجه
عبئاً ثقيلا أبهظ كاهلهم بمحاولتهم الاحتفاظ بايطاليا ودوام الرقابة على البابوية، بدل التفرغ لخدمة بلادهم. وبعد حروب دموية طاحنة خرجت

ايطاليا من أيديهم واستقلت البابوية عنهم وبقيت المانيا متفرقة الـكلمة بدل أن تتحد وتندمج الى شعب قوى كما اتحدت فرنسا وانجلترا واسبانيا

وفى حكم خلفيه « أتو الثانى » و « أتو الثالث » بدأت تتكون بولندة على نهر الأودر وشرقيه ، وقويت مملكة المجر بعد أن صارت مسيحية وأخذت هاتان القوتان تهاجمان المانيا من حين لآخر

أسرة فرانكونيا (١٠٢٤ — ١١٢٥)

كنراد الثانى

أولها « كنراد الثانى » وقد زاد سلطة الامبراطور بكل الطرق الممكنة ونال دوقية برغندية بطريق الوراثة وسلم دوقيات المانيا لاقاربه أو حكمها بنفسه ، وحاول أن يضعف الاقطاع بجعل الولايات كلها ملزمة بالمحاربة تحت لوائه وكسب محبة صغار الملاك بجعل أرضهم وراثية ومنع حرمانهم منها الا بسبب وجيه . وبتوسيع الامبراطورية وتقوية حدودها بالاستيلاء على الدوقيات وربط صغار الأشراف بشخصه مهد السبيل لحكم ابنه « هنرى الثالث Henry III. » (١٠٣٩ — ١٠٥٦)

اعمال هنرى الثالث

كبح هنرى جماح الأشراف فى المانيا بتصدره لتنفيذ الخطة التى وضعتها الـكنيسة للمحافظة على السلام وهى اعلان « الهدنة الربانية » من مساء الاربعاء الى صبيحة الاثنين ومنع الحرب أثناء هذه الهدنة ، وقد انتخب الأتقياء الأكفاء أساقفة ورؤساء أديرة ولم يحاول أبداً أن يبيع الوظائف الدينية ، بل شجع الاصلاح الذى قام به دير « كاونى » وبذل جهده لرفع مستوى أخلاق رجال الدين بتطبيق هذا الاصلاح

فى ألمانيا ، ونهض بمدارس الأديرة وأنشأ مدارس لغير رجال الدين وكان يحتم على أبناء الاشراف دخولها

وقد زار إيطاليا سنة ١٠٤٥ ليتوج امبراطورا فوجد ثلاثة بابوات كل يدعى أنه صاحب الحق الوحيد ويستند الى تعضيد حزب من أحزاب المدينة فعزلهم جميعاً وولى بابا جديداً . وفى بقية حكمه عين ثلاثة بابوات كلهم من الأكفاء ، وقاوم الرشوة وساعد المصلحين على رفع الكنيسة إلى المكانة اللائقة بها

فالأباطرة اذن هم الذين أنقذوا البابوية من مخالب أحزاب رومة ورفعوها من دركات الرشوة والانحطاط الى درجات الوقار والعزة . وكانوا ينتظرون أن يعرف لهم رجال الدين هذا الجميل فيخلصوا لهم ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، بل انتهزت البابوية فرصة تولى هنرى الرابع فى سن السادسة وعملت على التخلص من رقابة الامبراطورية وانضم اليها رجال الدين واستعد البابوات لمناهضة الاباطرة ومزاحمتهم على القوة الزمنية

الفصل الثامن

الكفاح بين البابوية والامبراطورية

لما ساد نظام الاقطاع في أوروبا أثناء القرن العاشر انحط شأن البابوية وأصبح مركزها موضع نزاع الاحزاب في رومة ، واعتلى عرشها أناس لاخلاق لهم كانوا سبباً في تشويه سمعتها الدينية فسقطت أهميتها في نظر المسيحيين . ويرجع الضعف الذى لحق البابوية في القرن العاشر إلى الأمور الآتية :

أسباب ضعف البابوية

(١) الاملاك العظيمة التى كانت لرجال الدين . فأصبح الاساقفة ورؤساء الأديرة بسبب ما يملكون من الارض تابعين للملوك أو للاشراف حسب نظام الاقطاع ، ولما كانوا بحكم مراكزهم الدينية غير قادرين على توريث أرضهم أصبح للملك أو للشريف حق تقليد الاسقف الجديد أو رئيس الدير وظيفته ، بعد أن يقسم له يمين الطاعة والولاء ويتسلم منه شارات الوظيفة . من ذلك نرى أن البابوية أو الكنيسة فقدت قوة هائلة باتصال كبار رجال الدين وأرضهم بالسلطة السياسية

الاقطاع

(٢) كانت الكنيسة تحبذ عدم الزواج بين رجال الدين ولكن جاء القرن العاشر والحادى عشر فانتشر الزواج خصوصاً بين صغارهم فخشيت الكنيسة أن يتسرب إيرادها إلى أولادهم ، وقد يكونون من غير رجال الدين أو العلمانيين (١)

زواج القسس

(٣) لما أصبحت الوظائف الدينيــة مرغوباً فيها بسبب الأرض الواسعة التى كانت تابعة لها أخذ الامراء يبيعون هذه الوظائف، ثم اتبع الاساقفة وبقية رجال الـكنيسة هذه الطريقة وصاروا يبيعون الوظائف لمن هم أقل منهم فانحطت الوظائف الدينية فى نظر الناس بيع الوظائف

واستمر انحطاط الكنيسة والبابوية حتى جاء الامبراطور « هنرى الثالث » فاهتم بالوظائف الدينية وعين فيها رجالا ذوى كفاءة ومقدرة ، وعند ذلك بدأ البابوات يشعرون بقوتهم ويعملون على اصلاح المساوىء حتى يعيدوا مجد البابوية الأولى وتتمتع الـكنيسة باستقلالها وترغم الملوك والامراء على طاعتها . وعلى ذلك بدأ فى القرن الحادى عشر دور كفاح بين السلطتين الزمنية والدينية . وقد نشأت فى هذا النزاع نظريتان

الأولى هى أن السلطة الزمنية فائقة على الروحية، وهى النظرية التى قال بها حزب الامبراطور وأيد أقواله بآيات من الانجيل وشواهد من التاريخ فمثلا يقول السيد المسيح : — « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وقالوا أيضاً إن المنح التى أعطاها « بيبين Pépin » و « شرلمان » للبابا من شأنها أن تجعل القوة الروحانية تابعة للزمنية نظرية الامبراطور

والثانية هى أن القوة الروحية فائقة على القوة الزمنية حتى فى الشئون المدنية البحتة . وهـذه هى النظرية التى قال بها الحزب البابوى وأيد هذا الحزب أقواله كذلك بآيات من الانجيل ، ومما قالوه إن الـكنيسة مسئولة عن أرواح العالم واعمالهم وفى مقدمة هؤلاء أعمال الأباطرة . وشبهوا القوتين بالشمس والقمر فقالوا كما أن الله خالق فى السماء نورين: نظرية البابا

نور الشمس ونور القمر ، كذلك أوجد فى العالم قوتين : قوة البابا وقوة الامبراطور ولكن كما أن القمر يستمد نوره من الشمس كذلك تستمد القوة السياسية سلطانها من القوة الدينية

وانقسم العالم المسيحى فى غرب اوربا الى فريقين كبيرين — فريق البابوية وفريق الامبراطورية — وشرع كل فريق فى اخضاع الفريق الآخر

بدء الكفاح

تقوت البابوية بظهور حركة إصلاح فى الرهبنة مركزها « ديركاونى » فى برغندية دعت الأديرة الى لزوم التمسك بالنظام الذى وضعه القديس « بندكت » وأشهر الذين قاموا بتقوية البابوية « هلدبرند Hildebrand » هلدبرند

الذى ارتقى عرش البابوية فيما بعد باسم « غريغورى السابع Gregory VII » وليس فى تاريخ الكنيسة فى العصور الوسطى رجل أشهر ولا أكثر نفوذاً من « هلد برند » هذا

وقد قضى هلد برند زمناً فى دير كاونى ثم تركه سنة ١٠٤٩ حين ذهب الى رومة وعين سكرتيرا للبابا « ليو التاسع Leo. IX » ومن ذلك الوقت صار صاحب النفوذ الأكبر فى الأمور الدينية وبقى كذلك الى أن مات سنة ١٠٨٥ ، ويعد هلدبرند المثل الأعلى للبابوية ، وكان ضئيل الجسم ذا عزيمة لا تفل ويقين لا يتزعزع ، فى أن الكنيسة صاحبة السيادة فى العالم كله ، تستمد نفوذها من الله مباشرة وتعد هى ملوك الأرض وأمراءها بالنفوذ . وكان يعتقد أن البابا له مركز فذ فى العالم فهو الذى يولى الاساقفة ويخلعهم ، وله الحق فى خلع الأباطرة لأنه سيدهم الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

وقد بدأ تنفيذ خطته بأن جعل انتخاب البابا بواسطة الكردينالات وهم الرؤساء الدينيون فى رومة ، وبذلك تخلص من القوة الزمنية التى كانت تسيطر على انتخاب البابا واستحث البابوات على اجراء الاصلاح فى الكنيسة وإعلاء شأن البابوية وكلمتها ، وكان مقتنعاً تمام الاقتناع بلزوم فوقان البابوية وتوليها رياسة العالم المسيحى المتحد

غريغورى السابع

ولما وصل غريغورى السابع الى كرسى البابوية سنة ١٠٧٣ ، أعلن خطأ النظرية القائلة بأن الامبراطور ظل الله فى الأرض . وقال إن الامبراطورية لا يمكن أن تكون كذلك لانها تعتمد على القوة الغاشمة وأما الكنيسة فتعتمد على الفضيلة ، وهى بهذا معصومة من الخطأ . واستنتج أن رئيس الكنيسة يجب أن يسيطر على الناس جميعاً

جمع السلطة فى يده

رأى غريغورى أنه يجب أن تكون الكنيسة وحدة متجانسة تخضع لرئيس واحد هو البابا ، وعلى ذلك حتم على الاساقفة أن يقسموا يمين الولاء له وحرمهم استقلالهم المحلى ، وأعلن حق استئناف جميع القضايا المهمة اليه رأساً ، ثم أعلن أن كلمة البابا هى العليا فى الكنيسة وأن إراداته فوق اكبر هيئة دينية وهى المجالس الملية ، ثم أرسل نوابه الى كل الممالك يمثلونه أمام الملوك والامراء وينفذون إرادته فكانوا له بمثابة عيون وسفراء يخبرونه بما يجرى من الشئون المختلفة ، وأخذ يكتب للملوك يذكرهم بتبعية أراضيهم للرسول بطرس ويطلب اليهم ارسال الاعشار

تقليد الاساقفة

وحرم غريغورى سنة ١٠٧٥ زواج القساوسة وحرم قبول المناصب الدينية من العلمانيين وهدد رجال الدين بالحرمان اذا هم قبلوها . وكذلك

هدد الملوك والاشراف اذا هم ساعدوهم على قبول تلك الوظائف منهم رأساً

هنرى الرابع

وفى سنة ١٠٦٥ بلغ « هنرى الرابع Henry IV » امبراطور المانيا (١٠٥٦—١١٠٦) سن الرشد فأخذ يحكم بمفرده وكان شابا نشيطاً ذكياً لا بأس بمواهبه ولا ينقصه إلا قليل من صدق العزيمة والشجاعة الأدبية ولو أوتيهما لعد من كبار رجال التاريخ ، ولكنه كان مدعياً متكبرا شديداً فى معاملته لأ دواقه

ولما رأى البابا أن هنرى الرابع امبراطور المانيا لم يكترث بقراراته ، أرسل اليه رسولاً يطلبه للحضور أمامه ويهدده بالحرمان اذا هو لم يحضر، فاعتبر هنرى هذا بمثابة إعلان للحرب وعقد مجلساً سنة ١٠٧٦ وأعلن عزل البابا ، فاجاب غريغورى بعزل الامبراطور وحرمانه ومن ثم بدأ النزاع على أيهما صاحب السلطة العليا

الحرمان

والحرمان أمضى سلاح استعمله غريغورى ومن جاء بعده من البابوات لتهديد معارضيهم وإكراههم على الاذعان ، فاذا صدر قرار الحرمان ضد شخص هجره الناس، واذا كان ملكا أصبح أتباعه فى حل من أن يخالفوا أوامره، وإذا مات حرم من صلوات الكنيسة ولم يدفن دفنه مسيحية ، وإذا نزلت نقمة الحرمان على امة اغلقت كنائسها وخفتت أصوات نواقيسها ووقفت حركتا الزواج والدفن . ولا يجب أن يقلل من أهمية هذا السلاح فقد كان الناس فى القرون الوسطى لايهتمون بأمر اهتمامهم برضاء الكنيسة وطاعة أوامرها

الاشراف يوالون الامبراطور

ولذلك ليس بغريب أن يضعف مركز هنرى بعد قرار الحرمان ، فانتهز الاشراف فى المانيا فرصة ضعف الملك وحاولوا الاستفادة من

نكبته ، فعقدوا اجتماعا فى غيابه وقرروا نزول هنرى عن مظاهر الملكية ولزوم سعيه فى التماس العفو من البابا فى مدة سنة

عند ذلك أسرع هنرى إلى ايطاليا ليحول دون حضور غريغورى لأنه رأى فى حضوره ضياع سلطته السياسية . ووقف هنرى مستأذناً على باب قلعة « كانوسا Canossa» فى شمال ايطاليا بالقرب من « پارما » حيث كان البابا نازلا وهو فى طريقه إلى ألمانيا ، والتمس المثول بين يديه ثلاثة أيام متوالية وهو عارى الرأس حافى الأقدام لابساً لباساً من الوبر . وأخيراً أذن البابا له بالمثول وغفر له ذنبه ورفع عنه النقمة . ويعد هذا إذلالا للملكية لا مثيل له فى التاريخ إذلال كانوسا

غير أن مركز هنرى بدأ يقوى بعد حادثة كانوسا ، فسيرجيشين إلى ايطاليا وأخذ رومة سنة ١٠٨٤ وكاد البابا يقع أسيراً فى يده ، ولكن النرمنديين جاءوا برياسة « روبرت جسكارد Robert Guiscard » فانسحب هنرى وترك لهم رومة فنهبوها وأحرقوها ، فثار أهلها على البابا وحلفائه وأخرجوهم منها وفر غريغورى إلى « سالرنو » وهى من أهم المدن النرمندية ، حيث مات منفياً سنة ١٠٨٥ . ولكن البابوية لم تضعف بعده بل زادت قوتها بالدعوة إلى الحروب الصليبية وبالنجاح الذى أحرزته الحملات الأولى من هذه الحروب . أما هنرى الرابع فمات سنة ١١٠٦ ، منغصاً بسبب حروبه مع أبنائه . الحرب بين البابا والامبراطور

ولم تحل مشكلة تقليد الاساقفة إلا فى عهد هنرى الخامس سنة ١١٢٢ باتفاق «ورمس Worms » وبمقتضاه نزل الامبراطور للبابا عن حق تقليد الاساقفة السلطة الدينية . وصار الأساقفة ورؤساء الأديرة ينتخبون اتفاق ورمس

بواسطة الكنيسة بحضور الملك أو من يمثله ، ثم يقلدهم الامبراطور سلطتهم السياسية والقضائية والمدنية ويعطيهم الصولجان ، كما يفعل مع أتباعه من العلمانيين ، أما الخاتم والعصا — اللذان هما شارتا الوظيفة الدينية — فتقوم الكنيسة بتسليمها للاساقفة أو لرؤساء الأديرة مباشرة

أسرة هوهنشتاوفن (١١٣٨ — ١٢٥٤)

لم يحسم اتفاق « ورمس » النزاع بين البابا والامبراطور فتجدد النضال فى حكم الامبراطور « فردريك بربروس » وذلك أنه بعد أن انقرضت أسرة فرانكونيا انتخب أمير سوابيا « كنراد الثالث .Conrad III» ملكا سنة ١١٣٨ وكانت الاسرة تنتسب إلى هوهنشتاوفن Hohenstaufen وهو حصن فى جنوب سوابيا

فردريك بربروس

وخلف « كنراد » سنة ١١٥٢ ابن أخيه « فردريك الاول » الذى عرف فيما بعد باسم « فردريك بربروس Frederick Barbarossa » أى ذى اللحية الحمراء ، وهو أجل أباطرة العصور الوسطى . وكان عصره فى ألمانيا عصر عظمة حربية ورخاء تجارى وتقدم فى العلوم والفنون .

نمو المدن

وكانت قد نمت فى ألمانيا مدن لا تقل عن مدن ايطاليا طلبا للاستقلال وحباً للرقى العلمى والفنى ، وكثرت هذه المدن فى الجنوب والغرب ، وبرزت منها كولونيا ومانيز واجزبرج . وخوفا من أمراء الاقطاع التجأت المدن إلى الامبراطور ليحميها ، فصارت قوة للامبراطورية تعينها على الادواق وتساعدها فى حروبها المختلفة

مطامع بربروس

وكان فردريك قديراً واسع الخيال طموحاً الى المعالى لا يرضيه

إلا أن تكون للامبراطورية قوة محسوسة فى سياسة أوربا ، فكان يسمى للتمتع بحقيقة الملك واقامة حكومة قوية متحدة فى المانيا وبرغندية وايطاليا باخضاع كل من يعارضه من أمراء ومدن

اخضاع ثورة رومة

وانتهز فردريك فرصة قيام ثورة فى رومه فدخل ايطاليا واتفق مع البابا «هدريان الرابع Hadrian IV» على أن يتوجه أمبراطورا مقابل مساعدته على قمع الثورة ، وتم ذلك سنة ١١٥٥

ولكنه ما كاد يعبر جبال الألب عائداً حتى بدأ سوء التفاهم بين البابا والامبراطور ، وذلك لسبب ادعاء البابا أن الامبراطور مدين له بتاجه وأن الامبراطورية انما هى منحة منحها البابا لفردريك وقامت المدن

اخضاع مدن اللمبارد

اللمباردية بقيادة ميلان تعاكس الامبراطور وتعاون البابا فى كفاحه ، ولما آنس الامبراطور من هذه المدن صلابة فى مقاومة أوامره حاربها وانتهى الامر بأن ضرب ميلان التى تعد زعيمة لتلك المدن سنة ١١٦٢ بعد حصار ثلاث سنين . عند ذلك وجدت المدن خلاصها فى الاتحاد فاتحدت ، وبمساعدة البابا « اسكندر الثالث .Alexander III » تكونت «عصبة مدن اللمبارد» سنة ١١٦٧ . وباتحادها تجدد بناء ميلان وأسست مدينة « السندرية » نسبة للبابا اسكندر الثالث لتناوىء « باڤيا Pavia » التى كانت موالية للامبراطور

موقعة لنيانو

فلما عاد فردريك الى ايطاليا وتقابل سنة ١١٧٦ مع عصابة مدن اللمبارد بالقرب من ميلان، انهزم فى واقعة «لنيانو Legnano» وهى من الوقائع الحاسمة فى تاريخ العصور الوسطى اذ بعدها اضطر الامبراطور الى التماس

اذلال البندقية

العفو من البابا فتقابلا فى البندقية ١١٧٧ وأعيدت حادثة «كانوسا» بعد مضى

مائة عام بالضبط وبمقتضى هذا الاتفاق (اتفاق البندقية) لم يعد الامبراطور يمس استقلال مدن اللمبارد واكتفى منها بالاعتراف له بالسيادة الاسمية

البابا اسكندر الثالث

أما البابا اسكندر الثالث — الذى كان سببا فى هذا الانتصار — فكان شيخاً سياسياً عنيداً شديد المراس ، قاد المعارضة ضد الأباطرة مدة خمسة عشر عاما بدون أن يمل ، وانتهى الأمر بانتصار البابوية حين ركع الامبراطور فردريك أمام البابا طالبا الغفران فى البندقية سنة ١١٧٧ كما ذكرنا . وقد قام فردريك بحملة صليبية وغرق فى الطريق سنة ١١٩٠ فى نهر فى كيليكية فى آسيا الصغرى

اصل دوقية النمسا

ومن أهم ماحصل فى عصره استئناف نشر الحضارة الجرمانية شرقى نهر الألب بعد أن اكتسحها هجوم الصقالبة والمجر ، ففى سنة ١١٥٦ صارت الاراضى الواقعة شرقى بفاريا على نهر الطونة الاوسط دوقية منفصلة سميت النمسا بعد قليل ، وكان القصد منها تأمين المانيا من غارات المجر ، واليها انتقلت أسرة « هبسبرج Habsburg » التى خلفت أسرة هوهنشتاوفن وسادت المانيا بل أوربا جميعها .

وحوالى ذلك الوقت أيضاً ظهرت فى الشمال تلك القوة التى مابرحت تقوى رويداً رويداً حتى ضارعت النمسا بل وفاقتها ، ألا وهى « دوقية

أصل بروسيا

براندنبرج Brandenburg » التى أنشئت لتكون درعا لالمانيا يقيها غارات الصقالبة ، وتأيد مركز حاكمها بمنحه لقب « منتخب » سنة ١١٤١ . ولما انتقل حكم هذه الامارة الى أسرة « هوهنزلرن Hohenzollern » بعد ذلك بقرنين ، أخذت تنمو نمواً بطيئاً حتى صار أمراؤها ملوكا فى بروسيا سنة ١٧٠٠ ثم أباطرة فى المانيا سنة ١٨٧١

الكفاح بين البابا انسنت الثالث «Innocent III» وخلفائه

والامبراطور فردريك الثانى Frederick II

يعتبر «انسنت الثالث» (١١٩٨—١٢١٦) وغريغورى السابع أعظم ممثلين للبابوية فى أوج عزها فى العصر الوسيط. تعلم إنسنت فى جامعتى باريس وبولونى فى إيطاليا حتى صار ضليعاً فى القانون، فصبغ ادعاءات البابوية بصبغة قانونية

خطة انسنت الثالث

وتتلخص خطة «انسنت» فيما يلى:

(١) أن يصبح البابا السيد المطلق فى إيطاليا. وعلى ذلك منع الامبراطور من تثبيت نفوذه فى تلك البلاد

(٢) أن يكون البابا الرقيب الاعلى على ملوك أوربا

(٣) أن يخلص بيت المقدس من أيدى المسلمين وأن يخضع الكنائس الشرقية وخصوصاً الكنيسة الشرقية البوزنطية — كنيسة القسطنطينية — لسلطة البابا وأن يقضى على الملحدين فى كل مكان

والمدهش أن البابا انسنت هذا قد نجح فى تنفيذ خطته إلى درجة ما

سلطان البابا فى ايطاليا

(١) أما من حيث النقطة الأولى فان الحظ قد خدم البابا، فأصبح فردريك الثانى ملكا على صقلية سنة ١١٩٧، ولم يكن له من العمر الا ثلاث سنوات أو ما حول ذلك. ثم ما لبثت أمه أن ماتت فتعين «انسنت الثالث» قيما على القاصر وبذلك أصبح البابا يدير شئون صقلية

سلطان البابا على الملوك

(٢) أما من حيث النقطة الثانية فان البابا قد نجح فى ذلك نجاحا

باهراً ، فأصبحت كلمته مسموعة فى كل الحكومات وأصبحت القضايا تستأنف أمامه من كل الجهات. وليس أدل على قوة نفوذه من الحوادث الآتية فى فرنسا وانجلترا وغيرهما

أما فى فرنسا فانه أرغم الملك «فليب أغسطس» على رد زوجته الأولى فلما رفض الملك ، أصدر ضده قرار الحرمان فلم يسعه إلا الاذعان

وأما فى انجلترا فان البابا حتم على الملك «جون» أو « يوحنا » تعيين «استيفن لنجتن Stephen Langton » — أحد رجال الدين المنتمين له — رئيساً لأساقفة « كانتربرى Canterbury » فرفض الملك هذا التعيين وصادر ممتلكات الكنيسة وحرم ارسال النقود إلى البابا . فأصدر هذا ضده قرار الحرمان وأنزل النقمة بانجلترا وأعلن عليه حربا صليبية ، وحرض فليب أغسطس على مهاجمة أملاك يوحنا وضمها اليه سنة ١٢١٣ م. فاضطر الملك يوحنا نهائياً إلى طلب الغفران فغفر له البابا بعد أن قدم له انجلترا هدية وتسلمها قطيعة وقد اعترفت دول أخرى بسيادة البابا عليها وأهمها مملكة الصقليتين والسويد والدنمرقة والبرتغال وأرغونة

وعلى الكنيسة الشرقية

(٣) أما من حيث النقطة الثالثة فى المنهج فان البابا «انسنت الثالث» أثار شعور القوم فى أوربا نحو حرب صليبية جديدة ، وهى الحرب الصليبية الرابعة التى وصلت الى القسطنطينية ، وهناك خلعت الامبراطور البوزنطى وأقامت حكومة لاتينية فى القسطنطينية وعلى ذلك أصبحت الكنيسة تابعة للبابا

كذلك أثار البابا حربا شعواء ضد الملحدين الذين ظهروا فى جنوب فرنسا فى ذلك الوقت حول مدينة تولوز وعرفوا « بالألبجنس

Albigenses نسبة الى مدينة « البى » وكانت لهم مدنية زاهرة فى هذه البقاع فقضى عليها بهذه الحرب

فردريك الثانى (١١٩٧ — ١٢٥٠)

أما الامبراطورية فكان يمثلها فى ذلك العصر فردريك الثانى وكان قصيراً ضئيلاً ، إلا أن مواهبه النادرة ومبتكراته فى الافكار والاعمال أكسبته لقب « أعجوبة العالم » ولا شك فى أنه أرقى ملك فى العصور الوسطى من حيث التعليم والتسامح الدينى والكفاية الادارية السياسية، بل هو أكثر شبهاً برجال العصور الحديثة

كان فردريك يقرض الشعر باللغة العامية الشائعة فى جنوب ايطاليا ، نبوغ فردريك ويعد من هذه الوجهة من السابقين فى ميدان أدبيات اللغات القومية التى شملت أوربا فى أواخر العصر الوسيط . كذلك كان فردريك يجيد ست لغات من بينها اللغة العربية ، ولوعاً بتشجيع العلوم والفلسفة ولذا أنشأ جامعة فى « نابلى » ومدرسة للطب فى « سلرنو Salerno » وحديقة للحيوانات فى «بالرمو Palermo »فتجلت فى جنوب ايطاليا نهضة علمية فنية لم تعد اليها بعد عصره ، وكان يكرم العلماء ويتحبب اليهم وخصوصاً علماء العرب . وبفضله نشأت أول حكومة مستنيرة فى أوربا وهى حكومة الصقليتين، الا أن استنارته وحبه للعلوم جلبا عليه سخط البابوية التى وسمته بالالحاد وشوهت سمعته .

أما فى المانيا فان اهمال الامبراطور زاد فى نفوذ الامراء وكان كل من البابا والامبراطور يتطلع أن يكون سيد ايطاليا ولذا ألح النزاع بين البابا والامبراطور

البابا على فردريك أن يفى بوعده فى القيام بحرب صليبية حتى يبعده ، فخرج إلى الشرق سنة ١٢٢٨ ونال بسياسته مالم ينله غيره من قبله بسيوفهم من تأمين الحجاج والاتفاق مع السلطان الكامل ملك مصر . ثم ذهب إلى بيت المقدس فتوج نفسه ملكا عليها وعاد الى نابلى فوجد البابا «غريغورى التاسع Gregory IX » قد أعلن عليه حرباً صليبية ونهب بلاده ، فطرد فردريك جيوش البابوية وعقد الصلح بينهما . ولم يدم الصلح طويلا لأن البابا عزل فردريك وساعد مدن اللمبارد عليه

كنراد الرابع

وبموت فردريك انتقل التاج الى ابنه « كنراد الرابع Conrad IV » ولم تكن له قوة العارضة ولا حسن الادارة اللتين كانتا لأبيه فلم يفلح فى تأييد مركزه فى المانيا ، وحاول أن يكسب معونة نابلى ففاجأته منيته سنة ١٢٥٤ قبل أن يتوج امبراطورا

وبقيت المانيا بعد وفاته بدون ملك إلى سنة ١٢٧٣ وتعرف هذه المدة « بالفترة » التى انتهت بانتخاب « رودلف هبسبرج Rudolf Habsburg » ملكا وهو مؤسس أسرة هبسبرج المعروفة ولم تكن له ولا لأخلافه قوة تذكر لان ألمانيا انقسمت إلى نحو أربعمائة امارة اقطاعية

ظهور أسرة هبسبرج

وأهم ماحدث بعد رودلف انضمام بوهيميا الى املاك أسرة هبسبرج بطريق الوراثة ولم تمض مدة طويلة حتى ألف الناس انتخاب الامبراطور من أسرة هبسبرج دون سواها . وقد زادت ممتلكات هذه الاسرة بفضل المصاهرات مع الاسر المالكة فى برغندية ثم فى أرغونة وقشتالة فأصبح السبيل ممهداً لعظمة الامبراطورية فى عهد شارل الخامس المعروف بشرلكان (١٥١٩ — ١٥٥٥)

أما مملكة الصقليتين فقد قدم البابا « اربان الرابع Urban IV » — وكان فرنسياً — تاجها الى شارل دوق انجو — أخى الملك لويس التاسع خذلانها الروحى
عام ١٢٦١ ولم تمض سبع سنين حتى قضى شارل على بقايا أسرة هوهنشتاوفن فى ايطاليا، وصار الامر فى مملكة نابلى للفرنسيين . وبهذا انتصرت البابوية على الامبراطورية ولكنها لم تصل الى هذا النصر الا بعد أن استعملت وسائل مخزية كانت فى النهاية شراً عليها من الهزيمة ، اذ تذرعت بأسمى انتصار البابوية
الاغراض الدينية وأجل القوى الروحية لنيل مآرب واطماع شخصية بحتة . فلا عجب اذا لم ينقض ثلاثون عاماً حتى استحال انتصار البابوية خذلاناً، وان الخذلان أنزلته بها فرنسا التى كانت سبب انتصارها على الهوهنشتاوفن

الفصل التاسع

الحروب الصليبية

تمهيد : حالة الشرق قبيل الحروب الصليبية

عرفنا كيف امتدت أملاك الدولة الاسلامية فى القرن السابع فوسعت بلاد العراق والفرس والشام ومصر . وكيف امتدت هذه الفتوحات فى القرن الثامن حتى شملت بلاد المغرب والاندلس غرباً وحتى وصلت إلى نهر جيحون شرقا . ولم يكن من المستطاع بقاء هذه الممتلكات الواسعة خاضعة لحكومة واحدة مدة طويلة ، وذلك بسبب تعدد الاجناس المختلفة وبسبب النزاع والتنافس القائم بين القبائل العربية (مثل مضر وحمير) وبسبب ظهور الخوارج . لذلك ما لبثت الدولة أن تمزقت واستقلت الاجزاء المتطرفة منها كبلاد الاندلس وبلاد المغرب ثم مصر ثم الشام ثم شمال شرقى بلاد الفرس ، وعلى ذلك ضعف سلطان الخليفة العباسى منذ القرن العاشر ولم يتعد نفوذه بلاد العراق

ظهور الاتراك السلاجقة : ثم كثرت الجنود المرتزقة من الاتراك فى خدمة الخليفة واغتصبوا السلطة السياسية منه تدريجاً ، فظهرت قوة الاتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر ويعرفون بذلك نسبة الى زعيمهم « سلجوق » . ومهدهم الاصلى الاراضى التى حول بحر قزوين ووراء نهر جيحون . والمؤسس لسلطتهم السياسية هو « طغرل بك » السالف الذكر اذ قلده الخليفة «القائم بأمر الله » السلطة الزمنية سنة ١٠٥٥ واقتصر الخليفة على سلطته الدينية

وقرن اسمه باسمه فى الخطبة . وأخذ السلاجقة يمدون نفوذهم شيئاً فشيئاً حتى شمل بلاد العجم والعراق والشام وآسيا الصغرى

ألب أرسلان وفى عهد السلطان « ألب أرسلان » الذى خلف طغرل بك (١٠٦٢ — ١٠٧٢) هدد السلاجقة ممتلكات الدولة البوزنطية فى آسيا الصغرى وهددوا حدود مصر أيضاً ، ولما شعر البوزنطيون بالخطر الداهم ثاروا على امبراطورهم وولوا عليهم جنديا اسمه «رومانوس» فهاجم السلاجقة بقوة بوزنطية عظيمة وتقابل الفريقان فى أرمينيا وانهزم البوزنطيون أخيراً سنة ١٠٧١ فى واقعة « ملاذكرد Manzikert » قرب بحيرة « وان ». وتعد هذه الواقعة من الوقائع الحاسمة لأنها مدت سلطان السلاجقة الى سواحل بحر مرمره وعرضت عاصمة الدولة البوزنطية للخطر حتى صار الأمبراطور يدفع الجزية للسلاجقة

وإلى السلاجقة يرجع الفضل فى تجديد قوة الاسلام واعادة تكوين وحدته السياسية فقضوا على الدويلات التى قامت فى الاقاليم الاسلامية بسبب ضعف الخلافة . وكان الأتراك السلاجقة مفطورين على حب فضل السلاجقة البساطة والحروب كما كان العرب فى أول أمرهم فلم يتأثروا بالسكنى فى الحضر ومعيشة الترف ، فأدخلوا روحاً جديداً فى الاسلام ونهضوا به نهضة عظيمة فى القرن الحادى عشر

الملك شاه وجاء بعد «ألب أرسلان» ابنه السلطان جلال الدين « الملك شاه » (١٠٧٢ — ١٠٩٢) وهو أعظم سلاطينهم ووزيره «نظام الملك» من أعظم وزراء الاسلام وكان ملكه يمتد من نهر السند الى البسفور واهتم «الملك شاه» بشئون الحكومة بنفسه وظل طول حياته يجول فى الاقاليم المختلفة

نظام الملك ليتعرف أحوال رعيته فنظم القوانين ونشر العدالة واهتم بالتعليم وعضد الشعراء والعلماء وظهرت المدارس والجامعات فى المدن الاسلامية واهمها المدرسة النظامية والمدرسة الحنفية فى بغداد ومازال « نظام الملك » ساعياً فى نشر العلم حتى وشى به فعزل

ولما مات الملك شاه سنة ١٠٩٢ ضعفت دولة السلاجقة وانقسمت بين

الاتابكة أبنائه وأقاربه الذين كان يعينهم حكاماً ويطلق عليهم اسم « الاتابكة » — وعلى ذلك قامت على أنقاض دولته حكومات صغيرة تعرف بحكومات الاتابكة ، وكان هؤلاء يتشبهون «بالملك شاه» ويحاولون مواصلة خطته من حيث الاهتمام بالقانون والتعليم

وبسبب تمزق دولة السلاجقة عاد الاسلام ضعيفاً كما كان قبل ظهورهم وتفككت اواصر وحدته السياسية وحرم زعيماقويا يقود القوات الاسلامية ضد المهاجمين من الصليبيين واستمر الحال كذلك الى سنة ١١٢٧ حين ظهور « عماد الدين زنكى » كما سيأتى بعد

ولو أن الحروب الصليبية التى ابتدأت بعد أربع سنين من موت الملك شاه جاءت متقدمة قليلا لتعذر نجاحها ، ولكن البابا « اربان الثانى Urban II » اختار للحملات الصليبية الوقت المناسب فنجحت الحملة الاولى

الحروب الصليبية

الحروب الصليبية حملات دينية عظيمة قامت بها أوربا مدة من الزمان من القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر لتخليص

الأراضى المقدسة فى فلسطين من أيدى المسلمين ، ولايجاد كنيسة وحكومة لاتينية فى الشرق . وانما سميت بهذا الاسم لان الذين اشتركوا فيها من أهل أوروبا كانوا يضعون علامة الصليب على أكتافهم إشارة لمهتهم المقدسة . والاسباب التى دفعت أوربا الى خوض غمار هذه الحروب هى : —

(١) كان الناس فى العصور الوسطى يعتقدون فى قوة الكنيسة الشعور الدينى
ويخشون بأسها وعقابها ويمتثلون أوامر رجالها ، وكانوا لشدة جهلهم وانحطاط حالهم يقترفون آثاماً كثيرة ويحملون أنفسهم خطايا عديدة ، ولم يكن أمام المسيحيين فى ذلك الوقت سبيل لرفع هذه الخطايا إلا القيام بالأعمال الصالحة كالحج والصوم وتعذيب الجسم والتخشن فى الملبس واقتناء المخلفات ، وأهم هذه الأعمال فى نظر الناس الحج الى الاماكن المقدسة التى وطئها أقدام السيد المسيح وعذب فيها من أجل دعوته الدينية واذا كان ثواب الحج فى نظر الناس عظيما فكم يكون عظيما ثواب القتال فى سبيل تحرير هذه البلاد من أيدى المسلمين .

ولقد ظل السبيل الى زيارة الاماكن المقدسة متيسراً فى عهد دولة الخلافة العربية وعهد استيلاء الفاطميين على فلسطين . فقد كانت تلك الأماكن محترمة فى نظر المسلمين كما كانت فى نظر المسيحيين . ولكن لما استولى السلاجقة على فلسطين سنة ١٠٧٦ — وكانوا حديثى عهد بالاسلام — أظهروا تمسكا شديداً بالدين ونسوا أنه مؤسس على التسامح فتغيرت الحال فلم يعد يلاقى حجاج بيت المقدس من التسامح فى الدين جهل السلاجقة بتسامح الاسلام
ما كانوا يلقونه من قبل على أيدى أكثر الناس معرفة بحقيقة الاسلام

مطامع البابوية

(٢) رغبة البابا أو الكنيسة الغربية فى السيطرة على جميع العالم المسيحى وقد شاهدنا نهوض البابوية فى عهد غريغورى السابع وانسنت الثالث وعلمنا كيف أن البابا أراد أن يكون العالم المسيحى تحت حكومة دينية واحدة رئيسها البابا ، فكان طبيعياً أن ترحب الكنيسة بفرصة تكون نتيجتها اخراج المسلمين من بيت المقدس واخضاع الكنيسة الشرقية لنفوذها

الحالة العامة فى أوربا

(٣) وهنالك أسباب ثانوية كميل الفرسان والاشراف الى المخاطرات والسياحة ورغبة بعضهم فى تكوين إمارات وحكومات فى الشرق ورغبة الرقيق فى التخلص من قيود الاقطاع التى كانت تربطهم بأراضيهم

الظروف التى مهدت السبيل لهذه الحروب

(١) انقسام دولة السلاجقة عقب موت الملك شاه وتفكك الوحدة الاسلامية وعدم ظهور زعيم قوى يجمع شتات القوات الاسلامية .

(٢) قيام المدن فى ايطاليا وخصوصاً جمهوريات جنوه والبندقية وبيزا اذ لولا تكوين هذه القوات البحرية والتغلب على قرصان البحر الابيض المتوسط من العرب وأهل بلاد المغرب واحتلال النرمنديين لجنوب إيطاليا وصقلية ، لتعذر على الصليبيين عبور البحر الأبيض المتوسط إلى فلسطين

(٣) تحول المجريين الى المسيحية الامر الذى فتح الطريق بين غربى أوربا والشرق

(٤) انتصار البابوية على الامبراطورية ، وتفوق البابا فى غرب أوربا جعل كلمته مسموعة وجعل كل الحكومات تسارع الى تلبية ندائه

أما السبب المباشر للحرب الصليبية فهو استنجاد امبراطور السبب المباشر القسطنطينية بدول الغرب ، فانه لما انتصر السلاجقة وأصبح مركز الامبراطورية مهدداً عمد الامبراطور إلى الاستنجاد بأقوى أمير فى غرب أوربا وهو البابا ، وصادف أن أول طلب للامبراطور وصل إلى البابا غريغورى السابع سنة ١٠٨٠ فكان وفق أمانيه . ولولا اشتغاله بنزاعه مع الامبراطور لبدأت حركة الحروب الصليبية فى عهده

ثم استنجد الامبراطور « الكسيوس Alexius » مرة ثانية بالبابا « اربان الثانى Urban II » وكان هذا البابا فرنسى الأصل تخرج فى دير كلونى Cluny . وبفضل ما أوتيه من العلم وما كانت عليه البابوية من القوة جمع سنة ١٠٩٥ مجلساً عاماً فى كلير منت Clermont ، تمثلت فيه كل الطوائف من جميع انحاء غرب أوربا وحضره من الأساقفة مائتان وخمسة وعشرون أسقفاً . فخطب البابا هذا الجمع كما خطبهم سفراء الكسيوس وكان « اربان » خطيباً مؤثراً ، فشرح حالة بيت المقدس وأعلن لزوم انقاذه من أيدى المسلمين وحرض الناس على الانضمام للحركة . وأعلن حماية الكنيسة لاملاك المحاربين وعائلاتهم وغفرانها ذنوب الخاطئين ، ووعد الذين يموتون فى سبيل هذه الحرب جنات النعيم ، فأجاب الجميع بصوت واحد « هكذا أراد الله Dieu le veut » هكذا أراد الله عند ذلك وضع البابا الصلبان على أذرع الذين تطوعوا ولذا سميت الحروب بالصليبية

وسرت فى الناس روح دينية قوية تسربت إلى أعماق نفوسهم فهرعوا من جميع غرب أوربا ومعهم عائلاتهم مدفوعين بهذه الفكرة

الجديدة . والحقيقة أن أوربا المتنازعة المتنافرة ، المنقسمة إلى دوقيات واقطاعات عدة ، قد اتحدت لأول مرة بعد سقوط الدولة الرومانية وأصبحت يداً واحدة وتمسكت بفكرة عامة . ومما يزيد فى أهمية هذه الحركة أنه لم يظهر فى الشرق مثل هـذا الشعور أمام خطر هجوم الصليبيين ، بل ظل الأمراء المسلمون متنازعين حتى ظهر صلاح الدين بعد قرن من الزمان

وعلى أثر انتشار الدعوة اجتمعت الطبقات المنحطة من رقيق ومساجين وأشقياء ، وساروا من غير نظام ولا استعداد يريدون تخليص بيت المقدس غير عالمين بطول المسافة بين بلادهم وبين هـذه الجهة . واقترفوا فى طريقهم جرائم وفظائع أدت الى قيام المجريين والبوزنطيين ضدهم وأخيراً وصلوا الى القسطنطينية ورأى الامبراطور ان يتخلص منهم فساعدهم على العبور، فوصلوا الى « نيقية » وكان عددهم ثلثمائة ألف فقابلهم هناك السلاجقة وأفنوهم عن آخرهم سنة ١٠٩٦ . والمسئول عن هذه الحملة « بطرس الناسك » الذى جعل يطوف فى أوربا يحث الناس على محاربة المسلمين ، والفارس الفرنسى الملقب « ولتر المفلس »

حملة بطرس الناسك

الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٧ — ١٠٩٩)

فى هذه الاثناء كان الاستعداد للحملة الأولى قائماً على قدم وساق وكثر المتطوعون من الفرنسيس والبرغنديين والنرمنديين . ورؤساء هذه الحملة من طبقة الاشراف والامراء التى تلى طبقة الملوك . وأهمهم «جدفرى Godfrey» دوق اللورين و «ريموند Raymond » دوق بروفنس

زعماء الحملة

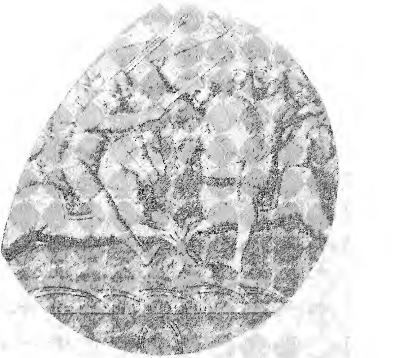
فى جنوب فرنسا و «بوهمند Bohemond » ابن روبرت جسكارد مؤسس مملكة النرمنديين فى جنوب ايطاليا

ويعد «جدفرى» أصلح الصليبيين وأحبهم الى الناس ، أما ريموند فكان أرفعهم منزلة ، وأما « بوهمند » فكان أقواهم وأشدهم مراساً . واتخذ كل زعيم طريقاً خاصاً مع اتباعه واتفقوا على أن يجتمعوا فى القسطنطينية جميعاً سنة ١٠٩٧ ، لان ذهابهم مجتمعين يجعل المؤونة صعبة فلما اجتمعوا فى القسطنطينية بلغوا مائة الف فارس وستمائة الف من المشاة من حجاج وقساوسة وغير ذلك خلا النساء والأطفال

خوف الكسيوس منهم ولم يكن الامبراطور الكسيوس مستعداً لقبول هذا العدد العظيم فى عاصمة ملكه وخاف أن يدبر الصليبيون خلعه، وكل ما كان يرمى اليه من الاستعانة بأوربا هو أن ترسل اليه نجدة تساعده على السلاجقة . فلما سمع بهذا العدد العظيم والزعماء المشهورين وعدم مبالاتهم بسلامة دولته أخذ الحيطة لنفسه وحاول أن يستخدمهم فى تحقيق أغراضه. فكان لا يكاد زعيم يصل الى العاصمة حتى يقنعه الامبراطور أن يرد إلى الدولة ما عسى أن يستولى عليه من مدن وأقاليم كانت إلى عهد قريب تابعة لها، نظير إمداد الصليبيين بالمؤن والذخائر أثناء سيرهم إلى بيت المقدس

ولما انتظم عقدهم، عبروا إلى الأناضول فى صيف سنة ١٠٩٧ وحاصروا « نيقية » فنقل « قليج أرسلان » صاحب سلطنة الروم عاصمته إلى قونية وبعد الاستيلاء على نيقية تقدم الصليبيون الى دوريليم (اسكى شهر) موقعة دوريليم حيث هزموا جيوش ارسلان فلم يعد يعترض سبيلهم. وتفرغ الكسيوس الى استرجاع آسيا الصغرى ويئس من اتفاق الغربيين فكف عن

مساعدتهم ، بل جعل يناهضهم رجاء أن ينتزع كل ما دخل فى حوزتهم) بعد موقعة دوريليم أرسل بوهمند أخاه « تنكرد » للاستيلاء على كيليكيا ، فتقدم الى «الرها — ارفا — Edessa » وانتزعها من يد الأمير التركى وكون فيها أول إمارة لاتينية سنة ١٠٩٨



قتال بين الصليبيين والمصريين (الصليبيين على اليسار)

فتح انطاكية

أما بقية الصليبيين فزحفوا الى انطاكية وحاصروها فى اكتوبر سنة ١٠٩٧ فقاومت تسعة اشهر ذاق فيها الغربيون ويلات الجوع والبرد والطاعون حتى كاد يستولى عليهم اليأس . ولو اتحد أمراء المسلمين فى سوريا لقضوا على الحملة اذ ذاك ، ولكن انقسامهم مكن الصليبيين من الانتصار فأذاقوا أهل المدينة سوء العذاب وقتلوا منهم عشرات الالوف

وانتخبوا « بوهمند » أميراً على انطاكية وما يليها

وبعد أن استراحت الجنود تقدم كثير منهم الى «أورشليم» فى يونيه سنة ١٠٩٩ وكانت فى يد حامية مصرية صغيرة . فحاصروها خمسة أسابيع ثم وعدوا بالمحافظة على رجال الحامية ، ولكنهم ما كادوا يدخلونها حتى حدثت مذبحة عظيمة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً ، وكتبوا إلى البابا يهنئونه بقولهم « اذا أردت أن تعلم بما جرى لاعدائنا فثق أنه فى ايوان سليمان ومعبده، كانت خيلنا تخوض فى بحر من دماء الشرقيين الى ركبتيها» فتح بيت المقدس

وبعد الفتح انتخبوا « جدفرى» ملكا على بيت المقدس ولكنه اكتفى بلقب حامى قبر المسيح . وانتخب بعده أخوه بلدوين وشرع الغربيون يخضعون المدن الباقية فى فلسطين ، وسهل عليهم هذه المهمة المساعدات التى كانت تقدمها لهم أساطيل المدن الايطالية فأخذوا عكا سنة ١١٠٤ ، وصور سنة ١١٢٤ ، وأنشأوا امارة طرابلس وولوا عليها ريمو ند دوق تولوز

نتائج الحرب الصليبية الاولى

١ — تكونت أربع إمارات لاتينية فى الشام (ا) بيت المقدس وحاكمه جدفرى ثم من بعده أخوه بلدوين(ب) انطاكية وأميرها بوهمند أولا وأخوه تنكرد ثانياً (ج) طرابلس وأميرها ريموند (د) الرها وحاكمها بلدوين . ولم يحاول الصليبيون أخضاع بلاد الشام ، بل اقتصروا على احتلال السواحل وتركوا المدن الهامة التى فى الداخل مثل دمشق وحلب

٢ — ضمت الدولة البوزنطية جزءاً عظيما من آسيا الصغرى بعد أن فتحه الصليبيون

٣ — بدأت جمهوريات جنوه والبندقية وبيزه تؤسس علاقاتها التجارية مع الشرق بفضل مساعدة الصليبيين ، وجاء الى بلاد فلسطين كثير من الأوربيين

٤ — قامت العلاقات بين أمراء الصليبيين وأشرافهم وفق نظام الاقطاع المتبع فى أوربا ، فكانت كل إمارة مستقلة تماماً عن الأخرى رغم أنهم اعتبروا ملك بيت المقدس سيداً لهم

٥ — لما كان العنصر الفرنسى متغلباً على غيره أصبحت اللغة الفرنسية هى السائدة وأطلق العرب عليهم جميعاً لقب الفرنجة

الفرسان الرهبان

٦ — ظهرت طوائف جمعت بين مبادىء الرهبنة ومبادىء الفروسية مهمتها حماية المسيحيين والعناية بالمرضى والجرحى أثناء الحروب ، وكانوا يأخذون على أنفسهم العهود المتبعة وهى الفقر والطهارة والطاعة . وأهم هذه الطوائف «فرسان المعبد Knights of the Temple» وأعضاء هذه المهد يسمون Templars و « فرسان القديس يوحنا Knights of St. John » ويلقبون باسم Hospitaliers و « فرسان التيتون » وغيرهم . وما لبث ان انضم الاشراف والفرسان بكثرة الى هذه الطوائف وانهالت عليهم المنح والاراضى والاموال ، حتى أصبحوا من أغنى الطوائف

امتزاج الصليبيين بالاهالى

٧ — لم يمض جيل على وجود الصليبيين بالاراضى المقدسة حتى اندمجوا فى الاهالى وتصاهروا معهم وتأثروا بالبيئة الجغرافية . وقد كان المسيحيون الشرقيون ضد الصليبيين ، والدليل على ذلك أنه فى الحروب المقبلة لم يستنجد الصليبيون بمسيحيي الشرق مثل الشام مثلا

الحرب الصليبية الثانية

تمهيد

من أهم العوامل التى ساعدت الصليبيين على نجاحهم فى الحرب الاولى ، انقسام دولة السلاجقة وعدم ظهور زعيم يجمع شتات القوات الاسلامية ويقودها ضد الصليبيين . ولكن فى سنة ١١٢٧ ظهر أول زعيم من أمراء السلاجقة عمل على توحيد قوى المسلمين وإيجاد وحدة قوية فى الشرق تناوىء الصليبيين وتطردهم من ديارها ، وهذا هو عماد الدين زنكى الذى عين فى تلك السنة أتابكَ على الموصل والعراق . عماد الدين
ولما كانت أملاكه مهددة بوجود الصليبيين فى الرها توفرت أسباب النزاع بينهم . ثم مالبث أن استنجد به بعض مدن الشام مثل حلب وحماة ودمشق ضد الصليبيين فسار إلى الشام واحتل حلب وبعض مدن أخرى .

وفى سنة ١١٤٤ تمكن من فتح مدينة الرها وكانت من أمنع وأهم ممتلكات الصليبيين . وأثناء ما كان يواصل فتوحاته مات مقتولا سنة ١١٤٦ . وكان أميراً مصلحاً شهماً مشجعاً للتجارة والعلوم ، أعاد الأمن فى البلاد والثقة فى نفوس القوم وترك من أولاده « سيف الدين » الذى خلف أباه فى الموصل و « نور الدين محمود » الذى خلفه فى الشام واتخذ حلب مقراً له

نشأ نور الدين فى معسكر أبيه أميراً شجاعاً مشرعا عادلا مستنيراً ، نور الدين
واصل سياسة أبيه فى مكافحة الصليبيين وتوحيد القوات الاسلامية ضدهم

وفى سنــة ١١٤٧ دمر مدينة الرها على أثر فتنة قام بها الأرمن ، فأثارت هذه الحادثة الشعور الدينى فى أوربا من جديد وقامت الحرب الصليبية الثانية خوفا من تقدم المسلمين بزعامة نور الدين

الحرب الصليبية الثانية ١١٤٧ — ١١٤٩

انزعج الناس فى أوربا وخافوا نتيجة انتصارات نور الدين فقامت حركة دينية شبيهة بالحركة التى سبقت الحرب الاولى ، ويرجع الفضل فى تحريك همم المحاربين هذه المرة إلى الراهب الفرنسى « سان برنارد » ، وكان ذا نفوذ عظيم فى جميع غرب أوربا ، ذكياً فصيحاً ، أمكنه بهذا التأثير أن يضم الى صفوف المحاربين الملوك والامراء . وفعلا انضم ملك فرنسا لويس السابع وامبراطور المانيا كنراد الثالث . وكان العنصر الألمانى فى هذه الحرب يفوق كل العناصر الاخرى . وقد أخذ ملك فرنسا زوجته معه وكثر عدد السيدات فى هذه الحملة زعماء الحملة

وأول من بدأ بالسير هم الالمان بقيادة الامبراطور فاتخذ طريق البر ورحب به المجريون والبوزنطيون للصلة العائلية التى تصله بامبراطور الشرق . ولم يشأ أن ينتظر ملك فرنسا ، فعبر البحر الى آسيا الصغرى واخترقها وتكبد خسائر عظيمة بسبب الجوع ومهاجمة السلاجقة له . مقاومة السلاجقة فاضطر الى الرجوع الى نيقية حيث تقابل مع الفرنسيس وساروا فى طريق ازاء سواحل آسيا الصغرى ، ولكن هجمات السلاجقة لم تنقطع فأكملوا طريقهم بحراً ووصل الفرنسيون الى انطاكية سنة ١١٤٨

أما الامبراطور كنراد فوصل الى عكا وانضم الفريقان بعد أن باد

ثلاثة أرباع قواتهم الأصلية وقصدوا دمشق وبذلك ارتكبوا غلطة سياسية لأن أمير دمشق كان مواليا للصليبيين — وجاء أتابكة الموصل وأتابكة حلب واجتمعت قوات سيف الدين وقوات نور الدين للدفاع عن دمشق ، فلما لم يقو الصليبيون على أخذها عاد الامبراطور ثم ملك فرنسا الى أوربا . وفشلت الحرب الصليبية الثانية فشلا كانت نتيجته تقوية الوحدة بين المسلمين وإظهار ضعف الصليبيين فى الشام ، فقل عدد الحجاج وانقضت أربعون سنة دون قيام حملة كبيرة فشل الحملة

مقدمة الحرب الصليبية الثالثة

استيلاء نور الدين على دمشق

بقيت أمام نور الدين مشكلتان (١) أخذ دمشق التى كان أميرها مواليا للصليبيين (٢) محاولة أخذ مصر ومنع الصليبيين من تقوية نفوذهم فيها . أما دمشق فقد استولى عليها نور الدين سنة ١١٥٤ على أثر استنجاد أهلها به ضد الصليبيين ، وتعد هذه خطوة هامة فى سبيل توحيد القوات الاسلامية .

لمن تكون مصر؟

بقيت مسألة مصر ولما كان حكامها من الفاطميين الذين هم من الشيعة لم يشأ السلاجقة الانضمام اليهم . وكانت الخلافة الفاطمية فى آخر أيامها فى منتهى الضعف ، والقوة كلها فى أيدى وزراء لا همّ لهم الا استبقاء السلطة فى أيديهم . لذلك طمع كل من السلاجقة والصليبيين فى الاستيلاء عليها وتسابق الى امتلاكها الفريقان — أما الصليبيون فكانوا يريدون مصر لعدة أسباب منها مركزها الحربى والايراد الذى يمكن الحصول عليه منها ، ولاهميتها من جهة المواصلات البحرية بين الصليبيين وبين

أوربا . أما أهميتها لنور الدين فهى أنها تضيق على الصيليبيين الخناق من جهة الجنوب فتحصرهم بين نارين . ويُلخّص النزاع من أجل مصر بين نور الدين والصليبيين فى الأدوار الآتية : —

الدورر الاول
سنة ١١٦٤

بدأ النزاع بين وزيرين مصريين وهما ضرغام وشاور فى عهد «العاضد» (١١٦٠ — ١١٧١) آخر الخلفاء الفاطميين وكان شاور وزيراً فى الصعيد فعزله

ضرغام وشاور

ضرغام فاستنجد بنور الدين وقدم له شروطاً عظيمة وهى ثلث ايراد مصر يدفع بمثابة جزية عدا تكاليف الحملة ولكن نور الدين تردد فى ذلك لعدم ثقته فى شاور ولان ارسال الحملة يعرضها لخطر مهاجمة الصليبيين . الا انه بعد الالحاح قبل نور الدين ولبى الطلب . فلما وصل هذا الخبر الى ضرغام أيقن بالانهزام ففكر فى الامر وتم رأيه على أن يستنجد بالصليبيين فاتفق مع « أمورى Amalric » ملك بيت المقدس (١١٦٣ — ١١٧٤)

شيركوه في مصر

وأرسل نور الدين قوة تحت قيادة « أسد الدين شيركوه » هزمت الصليبيين ومن معهم من المصريين ، وقتل ضرغام فخلا الجو لشاور وأصبح وزيراً ، فلما تم له الامر فى مصر غير سياسته واراد التخلص من السلاجقة ونسى كل ما تعهد به لهم سابقاً . ولكى يأمن شرهم كاتب الصليبيين الذين سرعان ما جاءوا لنجدته ولكنهم عجزوا عن طرد

جلاء السلاجقة والصليبيين

شيركوه بعد أن حاصروه ثلاثة أشهر فى بلبيس ، فاتفق الطرفان على أن يخليا مصر وتعهد الصليبيون بعدم التدخل فى شئونها

الدور الثانى
سنة ١١٦٧

قبل أن يغادر الصليبيون مصر اتفق معهم شاور اتفاقاً سرياً ، فلما نمى الى علم نور الدين خبر هذه المعاهدة اقتنع برأى شيركوه الذى ما فتىء ينصح لسيده بفتح مصر

وفى سنة ١١٦٧ جرد نور الدين حملة بقيادة شيركوه فسارت نحو مصر واخترقت الصحراء وعبرت نهر النيل الى الجيزة . وما لبث أن جاء الصليبيون حسب الاتفاق السرى وعسكروا بالفسطاط وأرادوا أن يتثبتوا من المعاهدة فاستوثقوا من ذلك بعد مقابلة الخليفة الفاطمى «العاضد» وامضائها منه ، وبعد أن وصل الصليبيون للشاطىء الغربى من النهر تقابل الجيشان فى واقعة « البابين » جنوب المنيا بعشرة أميال وانهزم الصليبيون واقعة البابين ودخل شيركوه الاسكندرية وعين ابن أخيه صلاح الدين حاكما عليها . ولكن حاصره الصليبيون بمساعدة البوزنطيين من جهة البحر . ولما لم يتمكن من رد المحاصرين اتفق الفريقان على الهدنة ثم غادر شيركوه مصر بعد أن أخذ مبلغاً من المال من الملك «أمورى» وكذلك غادرها الصليبيون بعد أن تركوا بها حامية منهم

الدور الثالث ١١٦٨ اعترض بعض الصليبيين على الخطة التى اتبعها الملك أمورى فى الحرب السابقة وأظهروا له ضرورة الاستيلاء على مصر ، لأنها المنفذ الوحيد للصليبيين بعد أن اشتد الضغط عليهم من الشمال فدخل الصليبيون مصر فاتحين هذه المرة وقتلوا أهل بلبيس واقترفوا فظائع شتى لكى يرهبوا البلاد وعسكروا قرب الفسطاط

عند ذلك خشى شاور نجاح الصليبيين فقر رأيه على حرق الفسطاط منعاً لتقدمهم ، فاستمرت النيران بها أربعة وخمسين يوماً ، ولا تزال آثار هذه الحرائق موجودة بالفسطاط بالجهة الجنوبية الغربية من القاهرة حرق الفسطاط

وعند ذلك استنجد الخليفة العاضد بنور الدين فجاء شيركوه للمرة الثانية يقود حملته فاستقبله المصريون كمخلص ولما كانت مملكة

بيت المقدس مهددة من الشمال بقوات نور الدين غادر الصليبيون البلاد بعد أن فشلوا فى الاستيلاء على مصر ، وحاول شاور أن يتودد إلى شيركوه فلم يفلح وقتل شاور سنة ١١٦٩ وأصبح شيركوه وزيراً على مصر ولم يبق فى الحكم الا شهرين ثم مات وخلفه ابن أخيه صلاح الدين

صلاح الدين

تولى حكم مصر بعد شيركوه سنة ١١٦٩ فهو الذى انتفع بكل جهود عمه ولُقب صلاح الدين بالملك الناصر وكان عمره اذ ذاك احدى وثلاثين سنة وكان رجلا تقياً هادىء الأخلاق بسيطاً فى معيشته، عاهد نفسه منذ أن تولى أمر مصر أن يهب حياته لطرد الصليبيين من الشرق . وكان مركز صلاح الدين السياسى فى أول الأمر فى منتهى الدقة ، وذلك لانه كان رئيس وزارة الخليفة الفاطمى الشيعى، وفى الوقت نفسه قائدا من قواد السلطان نور الدين السنى المعين من قبل الخليفة العباسى ، وزيادة على ذلك لم يكن صلاح الدين أكبر قواد نور الدين الموجودين فى مصر فى ذلك الوقت ، ولذا كان يخشى كثيراً أن يدعوه نور الدين إلى الشام ويعين قائدا بدله فى مصر

خلقه

موقفه

غير أن صلاح الدين بمهارته وحذقه السياسى أمكنه أن يوفق بين التناقض الظاهر فى وظيفته وأملت عليه سياسته أن يتريث فى تحويل المذهب الشيعى فى مصر . فبدأ بذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة ،ثم أخذ يحبب للناس التعاليم السنية ففتح المدارس وأحضر العلماء وأخذ يهيىء الجو للتغيير الدينى المنتظر ، ثم عمل

حذقه السياسى

على أن يقوى مركزه فى مصر من غير اثارة شكوك نور الدين فدعا اليها أهله وأقاربه واعتز بهم وصاروا من أخلص المؤيدين لسلطته ، ثم تحبب إلى المصريين وأحسن معاملتهم وأجرى العدل بينهم

ولما شعر صلاح الدين بأن أعوان الخليفة الفاطمى يدبرون خطة ضده أخذ يضعف من قوتهم وقتل «جوهر» رئيس حرس الخليفة وكان من السودانيين ، وعلى أثر ذلك قامت فتنة السودانيين فى الصعيد سنة فتنة السودانيين
١١٦٩ واستمرت مدة ثم وصل الى علمه ميل الخليفة العباسى والسلطان نور الدين الى اقامة الشعائر السنية فى مصر بدل مذهب الشيعة فقرر أن تكون خطبة الجمعة باسم الخليفة العباسى وكان ذلك سنة ١١٧١

وبعدها بأيام مات «العاضد» آخر خلفاء الفاطميين فى مصر دون أن يعلم بما حصل وبموته انقضت الخلافة الفاطمية وتحولت مصر الى المذهب مصر لصلاح الدين
السنى نهائيا وأصبح صلاح الدين الحاكم المطلق فى مصر . وقد حاول الصليبيون الذين فى بيت المقدس أن يحولوا دون امتلاكه إياها ، فحاصروا دمياط بحراً بالاشتراك مع البوزنطيين ولكنهم ارتدوا عنها وتكبدوا خسائر فادحة ، وكانت هذه آخر حرب هجومية قامت بها مملكة بيت المقدس فى مصر

العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين

لما قوى مركز صلاح الدين فى مصر ورأى نور الدين أن الزعامة فى الشرق قد تنتقل اليه توترت العلاقات بين الاثنين ، ولكن مافتىء صلاح الدين للنهاية يظهر خضوعه وولاءه لنور الدين وينفذ أوامره .

وبهذه السياسة تمكن صلاح الدين من توسيع نفوذه ففتح بلاد النوبة واليمن ، غير أن كل هذا لم يمنع نور الدين من أن يضمر له بعض السوء الى أن مات نور الدين فجأة سنة ١١٧٤ وخلا الجو لصلاح الدين

ولا شك أن نور الدين يعتبر من خيرة السلاطين الذين حكموا فى الشرق باتفاق آراء المؤرخين المسلمين والصليبيين فى ذلك الوقت ، إذ هو الذى أحيا دولة السلطان ملك شاه وحقق أمانى عماد الدين زنكى ، فوحد القوات الاسلامية فى الشام وحال دون انقسام كلمة المسلمين ازاء الصليبيين . بموته أصبح صلاح الدين أقوى أمير مسلم فى الشرق

أما ابن نور الدين الذى خلفه وهو « الملك الصالح » فلم يكن له من العمر إلا إحدى عشرة سنة ، فوقع تحت نفوذ بعض وزرائه وحاول صلاح الدين أن يتفق مع الملك الصالح فيكون تابعاً له كما كان تابعاً لابيه فلم يفلح وقامت الحرب بينهما وكان طبيعياً أن يحارب صلاح الدين حتى تبقى وحدة المسلمين وإلا ضاعت المجهودات التى صرفت وانقسم المسلمون فى الشرق كما حصل على أثر موت عماد الدين زنكى ، وانتهت الحرب بهزيمة الملك الصالح وأخذ صلاح الدين دمشق وأصبح سلطان مصر والشام بموافقة الخليفة العباسى سنة ١١٧٥ صلاح الدين والملك الصالح

ثم مات الملك الصالح سنة ١١٨١ فلم يجد صلاح الدين صعوبة فى أخذ حلب ثم الموصل وصار السيد الوحيد فى غرب آسيا بما فى ذلك سلطنة سلاجقة الروم . وعلى ذلك تحققت سياسة نور الدين وأصبح الصليبيون فى بيت المقدس محصورين بين قوات اسلامية متحدة من الشمال والجنوب والشرق

علاقات صلاح الدين مع الصليبيين فى بيت المقدس

ان الحروب التى قامت قبل ذلك بين المسلمين والصليبيين فى الشام لم تكن فى الحقيقة إلا مناوشات بسيطة انتهت بهدنة بينهم وبين صلاح الدين سنة ١١٨٠ . وأما الحرب العامة التى ستنتهى باخراج الصليبيين من بيت المقدس فسببها أنه سنة ١١٨٦ قام نزاع بين صلاح الدين والصليبيين بسبب ما كان يفعله أحد فرسان الصليبيين المسمى «ريجينولد Reginald of Chatillon» صاحب حصن الكرك من قطع طريق الحجاج والمسافرين إلى مصر وسلب القوافل. وقد حدث أنه سلب قافلة فيها أخت صلاح الدين فصمم هذا على الانتقام وزاده تصميما قيام «ريجينولد» بحملة يقصد بها تدمير مكة والمدينة فقامت الحرب العامة بين المسلمين والصليبيين بقيادة صلاح الدين وسقط حصن الكرك. ثم تقابل صاحب الكرك



قلعة الكرك

الفريقان فى واقعة «حطين» فى يولية ١١٨٧ فانهزم الصليبيون انهزاماً حاسما وقتل منهم عشرة آلاف ووقع رؤساؤهم أسرى فى أيدى صلاح الدين، ومن هؤلاء الأسرى صاحب الكرك و «جاى دى لوزنيان واقعة حطين

Guy de Lusignan » ملك بيت المقدس ثم سقطت عكا ونابلس والرملة وقيسارية ويافا وبيروت ، وكلها كانت حصوناً هامة فتحت أبوابها للمسلمين من غير مقاومة

فتح بيت المقدس

ثم فتح بيت المقدس عنوة ، وأظهر صلاح الدين تسامحاً وليناً مقرونين بالشفقة والرحمة نحو فقراء الصليبيين والنساء والأطفال ، فقد ترك لهم فرصة اربعين يوما لاخلاء البلد ، وفرض دية شخصية كان يدفع بعضها من جيبه الخاص . وقد سمح بفك أسر « جاى دى لوزنيان » بعد أن أقسم الا يحاربه ولم يبق للصليبيين من إماراتهم وممتلكاتهم سوى صور .

الاسباب التى ساعدت على ضعف الصليبيين فى بيت المقدس

١ — لما مات الملك أمورى اعتلى العرش ملوك أطفال ضعاف وسادت المنازعات الاهلية

٢ — أن الصليبيين كانوا منقسمين على انفسهم فلا اتحاد بين من كان منهم فى انطاكية مثلا ومن كان فى بيت المقدس

٣ — ساعد على ضعف الحكومة المركزية تفوق نظام الاقطاع بين الصليبيين

٤ — فساد أخلاق الصليبيين بسبب تأثير البيئة فيهم وخصوصاً أن عدداً كبيراً منهم كان من أسر وضيعة فى أوربا

٥ — إن الشئون الاقتصادية أصبحت فى ايدى تجار ايطاليين من جنوه والبندقية فلم يستفد الصليبيون من ذلك شيئاً

الحرب الصليبية الثالثة

لما ذاع خبر انهزام الصليبيين فى حطين وفتح المسلمين بيت المقدس وانكماش دولة الصليبيين فى الشام ، تهيأت أوربا لحرب صليبية جديدة — وكانت الحالة فى أوربا قد تغيرت فى القرن الثانى عشر عما كانت عليه فى القرن الحادى عشر ، اذ بدأ الملوك فى أوربا يتغلبون على النظم الاقطاعية تدريجياً وأصبح سلطانهم قويا فى البلاد ، وعلى ذلك لم يكن البابا هو المحرك الوحيد للحرب الثالثة كما حصل فى الحرب الأولى .

وقد كانت هذه الحملة مكونة من جيوش قوية منظمة لا من طوائف همجية مدفوعة بعامل الحماسة الدينية من غير نظام ولا استعداد. زعماء الحملة وزعماء هذه الحملة هم الامبراطور فريدريك بربروس وفليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا غير أنه إن صعب توحيد القوات الصليبية فى الحرب الأولى فان توحيدها فى الحرب الثالثة كان أصعب لتقدم روح القومية فى ممالك أوربا وما جرّت اليه من التنافس . ومع ذلك كله فان وقع خبر سقوط بيت المقدس فى نفوس الناس كان سبباً فى تخفيف تلك الفروق والمنافسات بين الملوك فى مبدأ الحرب الثالثة

وكان الامبراطور « فردريك بربروس» أول من تحرك للحرب إذ بربروس اجتمع الالمان فى راتسبون Ratisbon سنة ١١٨٩ واتخذوا الطريق البرى إلى آسيا الصغرى مخترقين بلاد المجر والبلقان. ثم ذهبوا إلى آسيا واخترقوا جبال طوروس ودخلوا بلاد الارمن فى كيليكيا سنة ١١٩٠ وهناك غرق الامبراطور فى نهر «سالف» أثناء عبوره. وكان لموت فريدريك بربروس أثر

سيء في نفوس أتباعه فتشتت شملهم و بدأوا ينخذلون بعد أن كانوا منتصرين ، وعاد جزء من الجيش الى المانيا وسار الباقون بقيادة « دوق سوابيا » وهو ابن الامبراطور بربروس ، ولكنه هو أيضاً مات في الطريق فتبدد الباقون ولم يصل منهم إلى عكا الا النزر اليسير

فليب أغسطس وقلب الاسد

وفي أثناء ذلك اجتمع «فليب أغسطس» ملك فرنسا مع «رتشارد» ملك انجلترا وقاما من مرسيليا ومعهما جيوشهما وكثير من الأشراف سنة ١١٩٠ فوصلوا الى صقلية ولبثوا فيها مدة سنة ، ثم قاما قاصدين عكا ولكنهما عرجا على قبرص فاحتلها رتشارد وبقي هنالك الى أن استنجد به الصليبيون في الشام ، لان جاي دى لوزنيان عاد فحنث بيمينه ودعا نفسه ملك بيت المقدس وبدأ يحاصر عكا ، فجاء صلاح الدين بقواته وحاصره وضيق عليه وعلى من معه الخناق مدة طويلة

ويلاحظ أن صلاح الدين اكتفى بتفوقه البرى ولم يحاول حصار الصليبيين من جهة البحر ، وعلى ذلك أصبح هؤلاء متصلين بأوربا بحراً فكانت تأتى اليهم المؤن والرجال والذخائر . واستمر الحصار حتى جاء فليب أغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الاسد ملك انجلترا وسقطت عكا في أيديهما سنة ١١٩١

عند ذلك دبّ النزاع بين الصليبيين وخاصة بين رتشارد وفليب فغادر فليب الشام وأصبح رتشارد بمفرده ، وأراد أن يواصل انتصاراته فأظهر في حروبه ضد المسلمين فروسية اكسبته شهرة عظيمة وانتصر على صلاح الدين في واقعة « ارسوف » ولكن هذه الانتصارات لم تكن حاسمة . وعلى ذلك بدأت مفاوضات الصلح بين رتشارد وسيف الدين

واقعة ارسوف

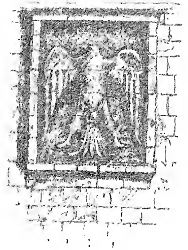
أخى صلاح الدين واتفقا نهائياً سنة ١١٩٢ على صلح الرملة وهـو عبارة عن هدنة تستمر ثلاث سنوات وثمانية أشهر ويقضى بما يأتى : — صلح الرملة ١١٩٢

١ — يترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين بشرط أن يسمح للمسيحيين بالزيارة والحج

٢ — أن يحمى الصليبيون ساحل الشام من صور الى يافا

٣ — أن يرد المسلمون المخلفات الدينية

وغادر رتشارد الشرق سنة ١١٩٢ وفى أثناء الطريق وقع أسيراً فى يد « ليوبلد دوق النمسا » الذى سلمه الى الامبراطور هنرى السادس، ولم يفك هذا أسره الا بعد أن دفع دية كبيرة : وما لبث صلاح الدين أن مات سنة ١١٩٣



نسر صلاح الدين

وكانت نتيجة الحرب الصليبية الثالثة ان أصبحت عكا مركزاً سياسياً للصليبيين بدل بيت المقدس، وامتد أجل بقائهم فى الشام مائة سنة أخرى . أما أملهم فى الاستيلاء على بيت المقدس فقد تبدد نهائياً

الحرب الصليبية الرابعة (١٢٠٢ — ١٢٠٤)

انضم الى الحملة الرابعة عدد كبير من الطبقات الوضيعة مثل الحملة الاولى . وكان السبب فى قيام هذه الحملة تحريض البابا « انسنت الثالث »

وأهم زعمائها « بلدوين دوق فلندرة » واتفق الصليبيون مع رئيس جمهورية البندقية « الدوج دندولو » — وكان رجلا كبير السن كفيف البصر سياسياً كثير المكر والخداع — على أن يمدهم بالسفن والمؤونة مقابل مبلغ من المال وتعهدوا له أن يقتسموا معه كل الغنائم والاراضى التى تقع فى أيديهم

الدوج دندولو

وكان غرض الصليبيين الوحيد الوصول إلى مصر ولكن « الدوج دندولو Dandolo » بمهارته أمكنه أن يؤثر فى الصليبيين وأن يستخدمهم فى مصالح البندقية الخاصة، فساعدوه فى اخضاع مدينة «زارا» سنة ١٢٠٢ وكانت تابعة للمجر . ثم زارهم امبراطور القسطنطينية المخلوع واستنجد بهم ومنَّاهم اذا هم ساعدوه فى استرداد عرشه . فقصدوا القسطنطينية سنة ١٢٠٣ ولم يلقوا صعوبة فى الاستيلاء عليها . ثم طالبوا الامبراطور بالمبلغ الذى وعدهم به،واشتط هذا فى جمع النقود من الناس فقاموا بالثورة ضد الصليبيين . عند ذلك فر الامبراطور وقام الصليبيون يدافعون عن أنفسهم فدمروا وقتلوا وسلبوا ونهبوا وكسروا التماثيل التى كانت بالميادين

الاستيلاء على الدولة البيزنطية

وأخذوا الصور الفنية ، وأصبحت القسطنطينية وباقى ممتلكات الدولة فى أيدى الصليبيين والبنادقة مناصفة . والمدهش أن هذه الحركة لم تسبب قيام المسيحيين فى أوربا ضد ما اقترفه الصليبيون فى القسطنطينية . وهذا يدل على أن شعور الأوربيين من حيث الحروب الصليبية أخذ يضعف

وقد قابل البابا انسنت الثالث قيام الحكومة والكنيسة اللاتينية فى القسطنطينية بالاستحسان . واختار الصليبيون « بلدوين دوق فلندرة» امبراطورا على القسطنطينية وتركوا للبنادقة اختيار الرئيس الدينى

للقسطنطينية . وقد قسم الصليبيون البلاد إلى اقطاعيات حسب نظام الاقطاع وأصبح أشراف الصليبيين أدواقا على هذه الاقطاعات ، ونشأت دوقيات فى سلانيك ونيقية وفى أثينا . أما البنادقة فاكتفوا باحتلال المرافىء والسواحل وأصبحت حركة التجارة فى أيديهم

وقد استمرت حكومة اللاتينيين فى القسطنطينية الى سنة ١٢٦١ وقامت فى هذه الاثناء حرب بينهم وبين البلغار انهزم فيها الصليبيون . وفى النهاية تمكن أحد البوزنطيين المسمى « ميخائيل باليولوغس » من تأسيس إمارة فى نيقية سنة ١٢٥٩ . ثم هاجم القسطنطينية وزالت دولة الصليبيين الذى قاموا بالحملة الرابعة . واستمر بقاء البوزنطيين فى القسطنطينية الى سنة ١٤٥٣ حين جاء الترك . ولم يكن للحملة الصليبية الرابعة نتيجة سوى أضعاف وسائل الدفاع فى القسطنطينية

نهاية الحروب الصليبية

أما الحروب الصليبية التى تلت ذلك فهى حملات ثانوية ليس لها من الاهمية ما لسابقتها . وآخر مظهر من المظاهر الدينية التى استولت على الأوربيين الحملة التى قام بها الاطفال سنة ١٢١١ فى ألمانيا وفى فرنسا . فقد قام هؤلاء الاطفال واجتمعوا وصمموا على الذهاب إلى بيت المقدس بعد أن انتخبوا منهم رؤساء أما الاطفال الذين جاءوا من ألمانيا فأرجعهم البابا ، وأما اطفال فرنسا فذهبوا الى مرسيليا ومنها أخذهم بعض التجار وباعهم فى الاسواق بيع السلع ، بعد أن مناهم بأنه سيحملهم إلى بيت المقدس

الحملات الصليبية التى وجهت ضد مصر

لما مات صلاح الدين سنة ١١٩٣ ،قسمت دولته بين أولاده الثلاثة وبين إخوته وقامت الحروب بين افراد العائلة ، ولكن لحسن الحظ ما لبثت الحال إلا قليلا حتى ظهر سيف الدين — أخو صلاح الدين وساعده الأيمن فى حروبه — فحال دون انقسام الدولة وكان يلقب بالملك العادل وكان أكفأ القواد وأمهر السياسيين ورجال الدين ، فاتفق مع أحد أبناءصلاح الدين واحتفظ بوحدة المسلمين فى غرب آسيا وأصبح لمصر المكانة الاولى بين تلك الامارات وكان « القاضى الفاضل » المشهور بأدبه وعلمه يساعد سيف الدين فى شئون البلاد

ولما أيقن الأوربيون أنه لا فائدة من استرداد بيت المقدس ما دام السلطان الايوبى قوياً فى مصر . وجهوا حملاتهم ضدها . وأول هذه الحملات حملة « جان دى برين Jean de Brienne » سنة ١٢١٨

الحملة الاولى هاجم الصليبيون دمياط وعلى الرغم من مناعة المدينة وكبر حاميتها سقطت وأتوا فيها بفظائع كثيرة ، واستعد الصليبيون بعد انتصارهم فى دمياط للزحف على القاهرة وفى هذه الاثناء مات الملك العادل حزيناً ، والقى مسئولية طرد الصليبيين من مصر على عاتق ابنه «الملك الكامل» (١٢١٩ — ١٢٣٨) الذى ورث جميع الصفات الحسنة التى كانت لأبيه وعمه ، فاقام الملك الكامل الاستحكامات للدفع عن المنصورة . ولما خشى من اطراد نجاح الصليبيين تقدم لهم بشروط مدهشة وهى ترك مصر وأخذ بيت

المقدس . ولكنهم لم يقبلوا لأنهم كانوا منتصرين ولأن مأربهم كان القضاء على مصر لأنها أهم من بيت المقدس ، ولان الروح الدينية كانت قد ضعفت وحلت محلها المصلحة المادية، ولأن بيت المقدس محاط بامارات إسلامية فلا يسهل الاحتفاظ به

وقد أخطأ الصليبيون فى اتخاذ الطريق الى القاهرة فساروا من وسط الدلتا حيث الترع منتشرة وتركوا الطريق الذى يخترق الصحراء الشرقية . وقد وقف لهم الملك الكامل فى المنصورة مع النجدات التى جاءت إليه من جميع الممالك الاسلامية وكان الوقت أثناء الفيضان ، فقطع المصريون الجسور وأحاطت المياه بالصليبيين فلم يروا بداً من طلب الصلح وعادوا سنة ١٢٢١

حملة الامبراطور فردريك الثانى

الحملة الثانية

كان الامبراطور فردريك قد وعد البابا انسنت الثالث بالقيام بحرب صليبية ولكنه ظل ينتحل الاعذار حتى قام سنة ١٢٢٨ . وكان قد تزوج بابنة « جان دبرين » واتخذ لقب ملك بيت المقدس شرفاً . ولما قام بحملته كان محروما من الكنيسة ولم يأخذ معه سوى خمسمائة فارس فكانت حملته غريبة من كل الوجوه. ومع ذلك فانه بسياسته، ولما اشتهر عنه من عطفه على المسلمين ، صادفت حملته نجاحا لم تصادفه الحملات السابقة إذ اتفق مع السلطان الكامل — وكان متخوفا من ضياع دمياط وتهديد القاهرة مرة أخرى — فسارع لعقد اتفاق مع فردريك الثانى بمقتضاه

اتفاق الكامل وفردريك

(١) أعطى فردريك بيت المقدس بشرط أن يحتفظ المسلمون بالأماكن الاسلامية المقدسة ، ومقابل ذلك يتعهد فردريك بمساعدة الملك الكامل ضد اعدائه سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين

(٢) يتعهد فردريك بعدم إرسال النجدة للامارات الصليبية الموجودة فى الشام

ولما ذاع خبر هذا الاتفاق أنكره المسلمون والصليبيون فى وقت واحد ، والحقيقة أنه من الصعب الحكم على مزايا الاتفاق وهل هى فى مصلحة المسلمين أو من مصلحة الصليبيين. ولكن أهميته للمسلمين هى أن احتفاظ الملك الكامل بمصر أهم بكثير من بيت المقدس لأن مصر بلد خصب ورخاء فى حين أن بيت المقدس بلد جدب

أما الصليبيون فقد كان الاتفاق ضرراً عليهم لأنه نص على الا تأتيهم النجدات من أوربا وهذا إضعاف لهم ، ولا يغنى عنهم حكمهم بيت المقدس وحوله الامارات الاسلامية، لأن المسلمين لا بد أن يستولوا عليه يوما ما

عودة فردريك

ومع ذلك فأن فردريك الثانى والملك الكامل قد قبلا هذه الشروط ودخل فردريك الثانى بيت المقدس وتوج نفسه ملكا هناك ، ولكنه لما كان محروما من الكنيسة انفض عنه الصليبيون فغادر بلاد الشام وعاد إلى أوربا واصطلح مع البابا موقتاً نخفف البابا من حدته. وبقى بيت المقدس فى أيدى الصليبيين حتى جاء الملك الصالح أيوب واسترده سنة ١٢٤٤

الحملة الثالثة

حملة لويس التاسع St. Louis ملك فرنسا سنة ١٢٨٤

لم تكن هذه الحملة حملة صليبية عامة بل كانت قاصرة على الفرنسيين

وكان لويس التاسع ملكا تقياً صالحاً مدفوعاً بالعمل الديني وهو يشبه جدفري دوق بويون .

قصد الفرنسيون مصر واستولوا على دمياط سنة ١٢٤٩ . وارتد سقوط دمياط
المصريون الى المنصورة وحصنوا موقفهم هناك ، ولكن لويس التاسع ارتكب الغلطة التي ارتكبها جان دي برين من قبل وهي السير الى القاهرة عن طريق الدلتا حيث تكثر الترع . عبر الصليبيون النهر وأقاموا استحكامات أمام المنصورة عند البحر الصغير وبنوا قنطرة على هذه الترعة ، وفي هذه الاثناء مات الملك الصالح أيوب الذي خلف أباه الملك شجرة الدر
الكامل . ولكن زوجته « شجرة الدر » اتفقت مع باقي الأمراء على مواصلة الدفاع ضد الصليبيين من غير أن يعلم الناس خبر موت السلطان. وأخذت تباشر الحكم الى أن جاء « توران شاه » بن الملك الصالح وتركت له مهمة الدفاع

توران شاه

لم يكد توران شاه يتسلم الامر حتى نظم قوات الدفاع، فنقل أجزاء السفن على ظهور الجمال الى دمياط وعندها ركبت السفن ونزلت بالبحر وهاجمت الصليبيين في دمياط . وفي أثناء ذلك كان لويس قد أعياه الوقوف أمام المنصورة وفشا المرض بين جنوده وحاول الهجوم على المسلمين فلم يفلح .وعلى ذلك قرر التقهقر نحو دمياط وحرق كل العدد والاستحكامات التي كانت مع الصليبيين ما عدا القنطرة التي كانت على البحر الصغير . وتعقبهم المسلمون ولحقوا بهم عند فارسكور وانسدّ أمامهم واقعة فارسكور

الطريق بسبب وقوع دمياط فى أيدى المسلمين فانهزم الصليبيون انهزاماً حاسماً . وقتل منهـم نحو ثلاثين ألفاً وأسر الملك ومن معه من الطبقات الشريفة ، ولم يفك أسره إلا بعد دفع دية عظيمة من المـال

أسر لويس التاسع

أما توران شـاه فقتله المماليك لشدته . وكان المماليك من أقوى العناصر التى ساعدت على هزيـمة الصليبيين فقوى مركزهم وعملوا على أخذ الملك من أيدى الايوبيين

وبموت توران شاه انتهى عهد الأيوبيين فى مصر وبدأ عهد سلاطين المماليك البحرية . وقد أدى الايوبيون لمصر خدمات جليلة اذ حموها من هجمات الصليبيين .وكان أكثر ملوكهم ذوى مقدرة وكفاية وكذلك كان الوزراء ، وقد كانت سياستهم التجارية حازمة فاتفقوا مع البنادقة وعقدوا معاهدات تجارية كان من شأنها ان زادت فى ثروة مصر ، وقد اهتموا بالعلوم والادبيات اهتماماً عظيما فظهر فى عهدهم الـكتاب والمؤرخون مثل القاضى الفاضل وبهاء الدين زهير وكثر المتعلمون وانتشرت المدارس وظهرت نهضة أدبية عظيمة

بدء المماليك البحريه

خدمات الايوبيين

وبعد استيلاء جنود الملك الصالح أيوب على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ لم يبق للصليبيين إلا بعض مدن على الساحل وعادت الحال إلى ما كانت عليه سنة ١١٨٧ أى بعد واقعة حطين . واستمر لقب بيت المقدس يتوارثه أبناء أسرة الهوهنشتاوفن الى أن انقرضت هذه الأسرة فاتخذ ملوك قبرص هـذا اللقب (لأنهم من نسل جاى دى لوزنيان) وظلت عكا أهم مركز سياسى وتجارى فى يد الصليبيين واستمرت المنازعات الداخلية قائمة بينهم وبين تجار البندقية وجنوه

وفى أثناء هـذا النزاع كانت قد ظهرت دولة المغول فى الشرق واستولت على البلاد الشرقية واستولى « هولاكو » المغول على بغداد سنة ١٢٥٨ ودمرها وقتل الخليفة العباسى وقضى على الخلافة العباسية . وحاول الصليبيون أن يستميلوا المغول نحوهم ضد المسلمين . ولـكن جاء أحد سلاطين المماليك المدعو « قطز » وانتصر على المغولى فى واقعة « عين جالوت » فى الشام سنة ١٢٦٠ وهى من الوقائع الحاسمة فى تاريخ الشرق

واقعة عين جالوت

« ثم جاء السلطان بيبرس » سنة ١٢٦٢ ، وجدد عهد صلاح الدين فى غرب آسيا . وأخذ يخضع ممتلكات الصليبيين مدينة بعد أخرى وحصناً بعد آخر ، فاستولى على يافا سنة ١٢٦٨ ثم اتجه شمالا وأخذ انطاكية . وفى سنة ١٢٨٩ سقطت طرابلس وأخيراً سقطت عكا سنة ١٢٩١ وانتهى عهد الصليبيين فى الشرق

نتائج الحروب الصليبية

كان للحروب الصليبية نتائج ظاهرة أهمها ما يأتى :

١ — صانت دولة البوزنطيين وحالت دون مهاجمة السلاجقة لأوربا . ولو ترك السلاجقة لابتلعوا جزءاً كبيراً منها

٢ — ظهور المدن فى أوربا وخصوصاً المدن التجارية وشراء حريتها من الاشراف بالمال والتقليل من نفوذ الاشراف وظهور الطبقات الوسطى وتقوية مركز الملوك فى أوربا ، ومعنى هـذا القضاء على نظام الاقطاع وازالة بعض الفوارق التى كانت تفرق بين الطبقات فى أوربا . ومن أهم المـدن التى نشأت فى ذلك الوقت مدن ايطاليـا المستقلة ، وكانت هـذه المدن واسطة الاتصال بين الشرق والغرب فأدخلت الى

أوربا كثيراً من نفائس المصنوعات والمحصولات الشرقية

٣ — اختلط الغربيون بمدنية أرقى من مدنيتهم، فتعلموا منها أشياء كثيرة لطفت من خشونتهم وهذبت أخلاقهم . وقد أدى اتصال المسيحيين بالمسلمين الى تخفيف حدة التعصب الديني الذي ينشأ عادة من جهل الناس بأحوال الشعوب الأخرى . وقد أدى هذا الاتصال أيضاً الى تسرب علوم المسلمين الى أوربا وانتشارها هنالك بالتدريج ، حتى نشطت أفكار الاوربيين من عقالها ونفضت عنها غبار العصور الوسطى وما زالت هذه الحركة الفكرية تنمو حتى أخذت شكلها النهائي فى النهضة الأوربية .

٤ — بدأ اهتمام الناس بأخبار الرحلات والاستكشافات وذلك على أثر ما حمله الصليبيون الى بلادهم من حوادث وأخبار البلاد التى زاروها . وكانت نتيجة ذلك أن ظهر الرحالة « مركو بولو Marco Polo » فى القرن الثالث عشر . وهذه الرحلات مهدت الطريق لظهور خرستوف كلمب » فيما بعد

٥ — علمت شعوب أوربا وملوكها الاتحاد من أجل غرض واحد

٦ — قوت مركز البابا فى نزاعه مع الامبراطور

٧ — نشطت التجارة بين الشرق والغرب وصارت مصر وسوريا سوقاً تجارية بين الغرب والشرق ، فزادت ثروة الحكومة والاهالى زيادة عظيمة ظهر أثرها فيما شيده سلاطين المماليك من الآثار . وبقى الأمر كذلك الى ان كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت التجارة والنهضة من الشرق الى الغرب

الفصل العاشر

ضعف البابوية فى اوربا

إن فى قيام الحرب الصليبية لدليلا محسوساً على ما كان للبابا من القوة والنفوذ فى أوربا فى العصور الوسطى. وان تأسيس الامارات الصليبية فى سوريا وفلسطين واتصال الصليبيين فيها بالكنيسة اللاتينية فى رومة بعد الحملة الاولى جعل للبابا فى أوربا مركزاً متفوقا، بلغ منتهى قوته عند ما أقام الصليبيون كنيسة لاتينية فى القسطنطينية من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٦١. غير أننا إذا دققنا النظر وجدنا أن هذا التفوق لم يكن حقيقيا، وأنه قد بدأ يضعف فى القرن الثالث عشر، فقوة الشعور الدينى التى ظهرت فى الحروب الصليبية الأولى لم يعد لها أثر يذكر فى الحرب الرابعة وما تلاها

ويمكن فهم أسباب ضعف البابوية منذ القرن الثالث عشر إذا عرفنا أهم الاسباب التى ساعدت على تقويتها فى العصور الوسطى

أسباب ضعف الكنيسة — قوى مركز الكنيسة فى العصور الوسطى لضعف الملوك والسلطات المركزية ولتفشى نظام الاقطاع بما ينطوى عليه هذا النظام من اضطراب الأمن وانتشار الحروب الفردية والداخلية، ولاحتكار رجال الدين لكل وظائف الحكومة والاعتماد عليهم فى كل شىء لانهم كانوا وحدهم المتعلمين فى العصور الوسطى

بدء قوة الملوك — ولكن ما جاء القرن الثالث عشر حتى كان الملوك قد نجحوا فى تكوين

حكومات قوية ، وفى اخضاع الاشراف والمدن ، وفى القضاء على نظام الاقطاع تدريجاً ، وكان قد ظهر من غير رجال الدين رجال وثق بهم الملوك فعينوهم فى الوظائف واستعانوا بهم على تحقيق اغراضهم . وأهم من ذلك كله تمكن الملوك من كسب الشعوب إلى جانبهم ، فأصبحت الشعوب أهم عضد لهم فى مناوأة الكنيسة

نزاع جديد بين البابوات والملوك

ولما شعر الملوك بقوتهم أنكروا على السلطة الدينية تدخلها فى شئونهم الداخلية والسياسية . ولم يقبلوا أوامر البابا أو يكترثوا بتهديداته كما كانوا يفعلون سابقاً . وعلى ذلك قام النزاع ثانيا بين السلطتين فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر كما قام فى القرن الحادى عشر بين غريغورى السابع وهنرى الرابع ، ولكن فى حين أن الاول كان من أجل تقليد رجال الدين الوظائف كان النزاع الثانى من أجل فرض الضرائب على رجال الدين بعد أن كانوا معفين منها ، فرفضت الكنيسة ذلك واعتمدت على أن الأرض موقوفة لخدمة الله فلا يصح أن يأخذ الملك عنها ضرائب . اما الملوك فإنهم لما اشتدت حاجتهم للمال بسبب كثرة مصاريفهم طمعوا فى ممتلكات رجال الدين الواسعة ورغبوا فى فرض الضرائب عليها

البابا بونيفاس الثامن

وأول ماظهر هذا الكفاح بين السلطتين كان بين البابا « بونيفاس الثامن Boniface VIII » (١٢٩٤ — ١٣٠٣) وبين الملك « فليب الرابع » (١٢٨٥ — ١٣١٤) ملك فرنسا رغم ما كانت بينهما من العلاقات الودية ، وكان لملك فرنسا المنزلة الأولى فى أوربا وبعد سقوط أسرة الهوهنشتاوفن وضعف الامبراطورية

وكان البابا بونيفاس الثامن — آخر البابوات العظام الذين ظهروا في العصر الوسيط — شيخاً طاعناً في السن شديد المراس متمسكا بحقوق البابوية كما وضعها غريغوري السابع وكما شرعها ونفذها أنسنت الثالث ، ولكن لم تكن له من القوة في هذا الكفاح مثل ما كان لهما

فليب الرابع أما فليب الرابع ملك فرنسا فهو الذي قلنا عنه إنه كان يساعده رجال القانون ويحضونه على التشبه بأباطرة الرومان . وقد فرض ضريبة ثقيلة على رجال الدين ، فاصدر البابا سنة ١٢٩٩ قانونا يقضي بعدم دفع ضرائب لأية سلطة زمنية ويهدد بالحرمان كل من يقبل دفع هذه الضريبة من رجال الدين وكل من يصر من رجال السلطة السياسية على أخذها

وعلى ذلك بدأ الكفاح بين البابا والملك . واعتمد الملك على تعضيد الشعب له فأصدر قراراً يحرم تصدير الذهب والفضة الى الخارج ، والغرض من ذلك حرمان الكنيسة من الأموال التي كانت تجبيها من فرنسا ، فتخوف البابا وسعى في الصلح سنة ١٣٠٠

إلا أن فليب صمم على عقاب البابا وإظهار تفوّقه عليه ، فجمع سنة ١٣٠٢ مجلس طبقات الامة ، دعا اليه ممثلين المدن والشعب زيادة على ممثلي الاشراف ورجال الدين ، فقرر المجلس أن ليس للبابا سلطة في فرنسا إلا في الشئون الدينية وأنه لا رئيس الملك إلا الله ، وأقسم نواب الطبقات إنهم يحاربون من أجل الملك ويضحون كل شيء في سبيل تأييده

القبض على البابا وبينما البابا يستعد لاصدار قرار بعزل الملك ، أرسل هذا اليه قوة قبضت عليه في بلدة « أناني Anagni » في ايطاليا ، فقام أهل المدينة وخلصوه ودخل البابا رومة ولكنه مات حزينا سنة ١٣٠٣ . وتعتبر

حادثة « أناني » انتقاماً لحادثتى كانوسا والبندقية . ويجب ألاّ يفوتنا أن تفوق البابا الدينى كان معترفا به ، وأن وجه النزاع كان بشأن تدخل البابا فى الشئون الداخلية والسياسية

بين بونيفاس وملك انجلترا

كذلك قام النزاع بين « بونيفاس الثامن .Boniface VIII » وأدوارد الاول Edward I ملك انجلترا للسبب نفسه . فجمع الملك البرلمان سنة ١٣٠١ وقرر أن ليس للبابا حق التدخل فى الشئون الداخلية . وامتنعت انجلترا بعد ذلك عن تقديم المنحة التى تقيد بدفعها الملك يوحنا مع البابا أنسنت الثالث . ويعتبر بونيفاس الثامن آخر العظماء من بابوات العصور الوسطى ، ومن بعده لم تعد للكنيسة قوتها الأولى

الاسر البابلى

واختلف الكرادلة فى انتخاب خلف « لبونيفاس الثامن » وانقسموا إلى حزبين : حزب يؤيد ملك فرنسا وهو الحزب القوى وحزب ضعيف يحبذ مافعله البابا بونيفاس الثامن، وقد تغلب الحزب الفرنسى نهائياً، بعدأن بقى كرسى البابوية خاليا سنتين . وانتخب « كلمنت الخامس .Clement V » وهو فرنسى يعضده ملك فرنسا . وكان من قبل أسقفاً «لبردو» فى فرنسا. لذلك اختار البابا الجديد ان يتخذ مقره فى « أفنيون » قرب نهر الرون فى مقاطعة «بروفانس» ليكون قريبا من ملك فرنسا . واستمر البابوات فى « أفنيون » إلى سنة ١٣٧٧ ، وتعرف هذه المدة بمدة « الأسر البابلى » تشبيهاً لها بما لحق اليهود قديماً لما أخرجوا من ديارهم وأسروا فى بابل وعادوا بعد مدة . ومدة الأسر البابلى سبعون سنة وكان البابوات فى هذ المدة خادمين لمصالح فرنسا منفذين لسياسة ملكها ، وانتهزت بعض الحكومات هذه الفرصة وأعلنت استقلال ملوكها عن البابوية وقلت

موارد الثروة لدى البابوات ، فلجأوا الى جمع الأموال بطرق أثارت انتقادات الناس كبيع الوظائف وبيع صكوك الغفران الخ وشيد البابوات قصراً فخماً فى « أڤنيون » وعاشوا معيشة البذخ والتنعم ، وإن كانوا على العموم رجالا أقوياء صالحين حسنى الاخلاق

وأخيراً سادت الفوضى فى ممتلكات البابوية فى ايطاليا وخصوصاً فى رومة نفسها ، فتأثر البابا « غريغورى الحادى عشر Gregory XI » وقرر العودة الى رومة سنة ١٣٧٧ ، وسرعان ما بدأ عهد الانقسام العظيم الذى استمر نحو أربعين سنة (١٣٧٨ — ١٤١٥) وهو أن العالم المسيحى فى غرب أوربا انقسم الى قسمين على كل قسم بابا يدعى أنه صاحب الحق الشرعى وأنه يستمد سلطانه من الرسول بطرس الانقسام العظيم

وتعرضت البابوية لانتقادات شديدة بسبب هذا الانقسام وقلت مهابتها فى نظر القوم، وأصبح المسيحيون فى حيرة أمام البابوية واشتغلت الجامعـات ببحث الموضوع واقتراح الحلول التى قد تؤدى الى علاج الحالة ، وبدأ الناس يفكرون فى إصلاح الكنيسة

ويكلف Wyclif (١٣٢٠ — ١٣٨٤)

وأهم الذين نادوا بالاصلاح فى القرون الوسطى « ويكلف » الذى ولد سنة ١٣٢٠ ، وبينما كان استاذاً فى جامعة اكسفورد طلب البابا المنحة المفروضة على انجلترا ، فكتب «ويكلف» معارضا له ثم تدرج من ذلك وأعلن حق السلطة الزمنية فى ممتلكات الكنيسة إذا أساءت الكنيسة إدارة هـذه الممتلكات ، وأعلن أن ليس للبابا قدرة إلا فى حدود

الكتب المقدسة ، وأخذ يطعن فى البابوية وادعاءاتها ونظمها والأساليب التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . وكان «ويكلف» يعظ باللغة الانجليزية واتهم بإثارة الفتن والتحريض على الثورة ومات سنة ١٣٨٤

وسرعان ما انتشرت آراؤه فى أوربا وخصوصاً فى بوهيميا حيث كانت الصلات بينها وبين انجلترا ودية،فقام «يوحناهوس» من جامعة براغ ونشر آراء ويكلف

يوحنا هوس John Huss

ولد يوحنا هوس سنة١٣٦٩ وكان فى جامعة براغ عاصمة بوهيميا حين انتشرت آراء وكتابات « ويكلف » فأعلن أنه لايحق للانسان أن يطيع أوامر أناس مثقلين بالذنوب والخطايا ، فخشيت السلطة الدينية والسلطة السياسية انتشار أفكاره

المجالس الدينية — ويعتبر « ويكلف » و « هوس » رسل حركة الاصلاح الدينى التى بدأت فى أوربا فى عصر النهضة . ولما اشتد انتقاد الكنيسة والبابوية اقترحت جامعة باريس أن يعقد مجلس دينى عام تكون سلطته وإرادته فوق إرادة البابا ويترك لهذا المجلس علاج الحال . وأخيراً تغلبت فكرة دعوة المجلس وبدأت الحركة المعروفة بحركة « المجالس الدينية Conciliar movement »

مجلس بيزا — عقد أول مجلس فى بيزا سنة ١٤٠٩ باتفاق الجانبين — الجانب الرومانى والجانب الفرنسى — ولما لم يحضر البابوان قرر المجلس عزلهما وانتخب بابا جديداً فأضاف المجلس ثالثاً ، لأن الآخرين لم يقبلا

أن ينزلا عن كرسى البابوية ، وعلى ذلك انفض المجلس بعد أن زادت المسألة تعقداً وقر الرأى على اجتماع مجلس آخر

مجلس كنستانس سنة ١٤١٤

لما كانت نتيجة مجلس « بيزا » زيادة تعقيد المسألة قر الرأى على اجتماع مجلس آخر فى « كنستانس » سنة ١٤١٤ . ويعتبر مؤتمر « كنستانس » هذا من أهم المؤتمرات الدولية فى العصور الوسطى ، استمر منعقداً ثلاث سنوات وحضره الامبراطور « سجزمند Sigismond » والكرادلة والاساقفة ورؤساء الاديرة من كل أنحاء أوربا ، وحضره البابا الرومانى أولا ولكنه عاد فرجع إلى رومة

وأهم المسائل التى نظر فيها المجلس هى :

(١) علاج الانقسام داخل الكنيسة وتوحيد البابوية

(٢) القضاء على فكرة الالحاد والنظر فى قضية يوحنا هوس

(٣) النظر فى اصلاح الكنيسة اصلاحا عاماً

عودة الوحدة الدينية

أعلن المجلس فى أول أمره تفوقه على البابا وعزل البابا الرومانى ثم استقال البابا الذى تعين فى مجلس « بيزا » ولم يبق إلا البابا الفرنسى فى « أڤنيون » وهو « بندكت الثالث عشر Benedict XIII » فانه أبى أن يستقيل معتمداً على قوة الفرنسيين والاسبان . ولكن الفرنسيين انفضوا من حوله لرغبتهم فى علاج الحالة ولم يبق معه غير الاسبان فقرر المجلس عزله سنة ١٤١٧ ، وانتخب بابا جديداً وهو مارتن الخامس Martin V » وبذلك انتهى الانقسام العظيم

محاكمة هوس

وقد نظر المجلس فى قضية يوحنا هوس — وكان الامبراطور قد أعطاه الامان للحضور أمام المجلس فى « كنستانس — وحاول أن يقنعه

بعدم التشبث بآرائه فلم يفلح ، وقصر المجلس بحثه فى القضية على المسألة الآتية : وهى أنه إذا كانت الآراء التى أبداها « هوس » فى كتاباته توافق مصلحة وآراء الكنيسة كان بها ونجا من العقاب ، وأما إذا كانت تخالف تعاليم الكنيسة فيجب عقابه ، ولما كان الحل ظاهراً وهو أن الكتابات تخالف آراء الكنيسة إذ ذاك ، والا فلم يكن من داع لكتابتها رأى المجلس نفسه مضطراً الى اثبات ادانته فى حين أنه كان يريد به الخير .

احراق هوس

فلما ظهرت ادانته للمجلس قبض عليه ، ثم تسلمته السلطة المدنية وأحرق وكان ذلك على غير رغبة الامبراطور ولكنه لم يجد سبيلا لحمايته، ولم يقدر أن يفوه ببنت شفه فى هذا الموضوع خشية أن يتهم بالالحاد: ولم يكن لحرق هوس من نتيجة سوى تقوية حركة الالحاد فى بوهيميا

مسألة الاصلاح

أما المسألة الثالثة التى نظر فيها المجلس وهى مسألة الاصلاح فقد اقترحت اصلاحات عدة تناقش فيها المجلس مدة طويلة ولكنه لم يتخذ أى قرار نهائى بشأنها ، وكل ما أثبته أن سبب الفساد فى الكنيسة يرجع الى إهمال البابا استدعاء المجلس الدينى . وعلى ذلك اقترح المجلس لزوم عقد مجلس دينى مرة على الأقل فى كل عشر سنوات

ويمكن القول بوجه عام أن مجلس « كنستانس » لم ينجح إلا فى مسألة واحدة وهى علاج الانقسام وتوحيد البابوية . وبعد ذلك عقدت مجالس دينية كثيرة لم تقم بعمل يذكر . وما لبثت النهضة أن جاءت وظهرت حركة الاصلاح الدينى فى أوربا

الفصل الحادى عشر

فرنسا وانجلـــــترا

فى نهاية العصر الوسيط

حرب مائة السنة

هى عبارة عن عدة حروب متقطعة تخللتها فترات طويلة ، قامت بين انجلترا وفرنسا واستمرت من سنة ١٣٣٨ الى سنة ١٤٣٥

سبب الحرب — والسبب فى قيام هذه الحروب مسألة مهمة هى : هل يسمح الملك انجلترا بعد أن فقد نرمندية وانجو سنة ١٢١٤ أن يملك بواتو واكتين وغسقونية ، وبذلك يعرقل مساعى ملك فرنسا فى سبيل توحيد مملــكته سياسياً ؟

ولما كان ملوك انجلترا متمسكين بحقوقهم فى هذه الاقاليم لم تكن ثمة مندوحة عن قيام الحرب ، إذ صمم ملوك فرنسا على نشر سلطانهم على جميع هذه البلاد . وكان من الطبيعى أن تنتهى الحرب باحدى النتيجتين الآتيتين . اما أن ملك انجلترا ينجح فى إخضاع فرنسا وإعلان نفسه ملــكا عليها ، أو أن ملك فرنسا يتمكن من طرد الانجليز نهائيا ويضم أملاكهم الفرنسية الى فرنسا . ومما يسهل فهم هذه الحروب بيان ملوك فرنسا وانجلترا فى اثنائها . أما ملوك فرنسا فهم :

فليب السادس	١٣٢٨ - ١٣٥٠
يوحنا	١٣٥٠ - ١٣٦٤
شارل الخامس	١٣٦٤ - ١٣٨٠
شارل السادس	١٣٨٠ — ١٤٢٢
شارل السابع	١٤٢٢ — ١٤٦١

وأما ملوك انجلترا فهم :

ادوارد الثالث	١٣٢٧ - ١٣٧٧
رتشارد الثانى	١٣٧٧ - ١٣٩٩
هنرى الرابع	١٣٩٩ — ١٤١٣
هنرى الخامس	١٤١٣ — ١٤٢٢
هنرى السادس	١٤٢٢ — ١٤٦١

ظهرت بوادر النزاع بين انجلترا وفرنسا على أثر انقراض أسرة هيوكابت — الأسرة الحاكمة فى فرنسا — سنة ١٣٢٨ بموت الابن الثالث لفليب الرابع ، وبادعاء أدوارد الثالث ملك انجلترا حق تتويج نفسه ملكا على فرنسا بما أن والدته هى ابنة فليب الرابع . غير أن علماء القانون فى فرنسا لما رأوا مطامع ملك انجلترا أعلنوا أنه — حسب التقاليد الفرنجية القديمة — لايجوز لسيدة أو وريثها اعتلاء عرش فرنسا . وعلى ذلك انتخب فليب السادس أول ملوك أسرة « فالوا Valois » ملكا على فرنسا وأصبح نجاح أدوارد الثالث بعيد الوقوع . وفى أول الأمر لم ير الملك أدوارد الثالث بدأ من قبول الحالة . ولكن سرعان ما قام النزاع بسبب الحادثة الآتية :

قام النزاع بين مدن فلندرة و بين ملك فرنسا إذ حاولت هذه المدن
الاستقلال فأمر ملك فرنسا حاكمها بقمع هذه الحركة ، وكانت هذه المدن من أغنى مدن أوربا فى العصور الوسطى لاشتهارها بالمنسوجات الصوفية وكانت علاقتها بانجلترا متينة بسبب الروابط التجارية التى كانت تربط الاقليمين ، وكانت انجلترا تصدر أحسن الاصواف التى كانت تعتمد هـذه المدن عليها فى منسوجاتها . لذلك لما أعلن أدوارد الثالث حقه فى تاج فرنسا انحازت مدن فلندرة إلى جانبه مدن فلندره

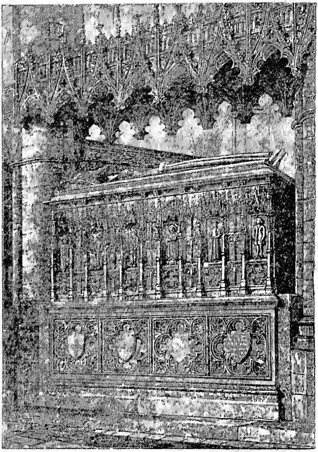
وفى سنـة ١٣٣٦ أمر حاكم فلندره بسجن كل التجار الانجليز الموجودين فى بلاده ، وأجاب أدوارد الثالث بمنع تصدير الصوف ومنع استيراد المنسوجات الصوفية رغبة فى شل الحركة التجارية . وفى الوقت نفسه سعى فى حماية الصناع الفلمنكيين فنقلهم الى بلاده وأسكنهم فى إقليم « نور فلك Norfolk » وبدأت تظهر صناعة الاصواف فى تلك الاقاليم وكانت السفن الانجليزية تعمل فى البحار للاحتفاظ بسيادة الانجليز على البحر بين فرنسا وانجلترا المقاطعة التجارية

هذه هى مقدمات حرب مائة السنة التى لم تبدأ فى فرنسا حتى سنة ١٣٤٦ ، إذ هاجم أدوارد الثالث ساحل نرمندية وتوغل فى الداخل حتى اقترب من باريس ثم عاد وقابل الفرنسيين فى واقعة « كرسى Crecy » حيث انتصر الانجليز ولهذه الواقعة أهمية فى التاريخ اذ ظهر للعالم أن الصفوف المتراصة من المشاة اذا عملت بالاتحـاد وأحكمت استعمال الأقواس والنشاب ، أمكنها أن تنتصر على الفرسان بسهولة . وعلى أثر هـذه الموقعة أخذ الانجليز « كاليه » وبقيت فى قبضتهم مدة قرن من الزمان موقعة كرسى

وقد اضطر الجانبان الى الكف عن القتال بسبب انتشار الطاعون الموت الاسود المعروف « بالموت الاسود » الذى اجتاح اوربا كلها ١٣٤٨ — ١٣٤٩ وأفنى نصف السكان تقريباً

بواتييه ١٣٥٦ ثم تقابل الانجليز مع الفرنسيين فى حرب أخرى سنة ١٣٥٦ فانتصر الامير ادوارد الملقب بالامير الاسود (ابن ادوارد الثالث) فى واقعة « بواتييه Poitiers » وفيها أظهر الانجليز مهارة فى استعمال الاقواس والنشاب وأخذ يوحنا ملك فرنسا أسيراً الى لندن ، ولكن كل هذه الانتصارات معاهدة برتني ١٣٦٠ لم تكن حاسمة واضطر ادوارد الثالث فى النهاية الى عقد معاهدة « برتني Bretigny » سنة ١٣٦٠، وبمقتضاها نزل ادوارد الثالث عن حقه فى تاج فرنسا وعن حقوقه فى نرمندية . وفى مقابل ذلك أخذ « بواتووغيين وغسقونيا وكاليه » ، وتبلغ مساحتها ثلث مساحة فرنسا تقريباً ، يحكمها من غير الاعتراف بسيادة ملك فرنسا عليها

الا أن هذه المعاهدة لم تبق لم نافذة المفعول مدة طويلة فان « الأمير الأسود » الذى حكم الأقاليم الجنوبية نيابة عن والده — اشتد فى معاملة الأهالى الذين كانوا يفضلون الحكم الفرنسى بطبيعة الحال على الحكم الانجليزى ، فقاموا بالثورة ضد الانجليز وشجعهم على ذلك مرض « الامير الاسود » وموته وضعف أدوارد الثالث فى شيخوخته . وتمكن ملك فرنسا « شارل الخامس » (١٣٦٤ — ١٣٨٠) من استرداد الاقاليم التى أخذها الانجليز بالتدريج ولم يبق لهؤلاء بعد موت ادوارد الثالث سنة ١٣٧٧ من الممتلكات فى فرنسا سوى « كاليه » وإقليم صغير حول « بوردو »



قبر ادوارد الثالث

بعد هذا وقفت الحرب بين فرنسا و بين انجلترا بسبب سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى المملكتين ، ففى فرنسا التى كانت ميدانا لهذه الحروب تعطلت الزراعة والصناعة والتجارة وانتشر الجنود وعاشوا بالنهب من مهاجمة البلاد

أما فى انجلترا فانه لما قامت الأيدى العاملة بسبب الموت الأسود أثر الحروب فى انجلترا

الآنف الذكر واحتاج الأشراف إلى عمال يعملون فى ضياعهم ومزارعهم ارتفعت أجور العمل لدرجة جعلت هؤلاء الأشراف يلجأون الى الحكومة فأصدرت هذه قانوناً يهدد بسجن من يأبى قبول الاجور القديمة ، فتذمر رقيق الارض وقام الفلاحون بالثورة سنة ١٣٨١ واجتمع منهم نحو مائة ألف فى جنوب وغرب انجلترا ، فهاجموا قصور الأشراف وحرقوها ودمروا مابها وأبادوا سجلات عبوديتهم ، وفتحت لهم «لندرة» الأبواب فدخلوها وطلبوا مقابلة الملك الصغير «رتشارد الثانى» فقابلهم ووعدهم بالغاء الرق فتفرقوا . وتمكن الأشراف من الانتقام من زعماء الحركة انتقاماً مريعاً

ثورة الفلاحين ١٣٨١

مواصلة الحرب ضد فرنسا

وفى سنة ١٣٩٦ اغتصب هنرى الرابع العرش من رتشارد الثانى فأراد هنرى الخامس ابن هنرى الرابع أن يقوى مركز أسرته فى انجلترا ويستميل اليه الناس بواسطة الحرب ضد فرنسا . فأعلن حقه فى تاجها سنة ١٤١٥ وهاجمها فى السنة التالية وانتصر على الفرنسيين فى واقعة «أجنكورت Agincourt» بالقرب من «كرسى» وكانت الحالة فى فرنسا سيئة للغاية لأن شارل السادس كانت قواه العقلية ضعيفة ، فقام النزاع بين كبار الاشراف فى فرنسا كل يحاول الاستئثار بالسلطة . وكان أهم هؤلاء الأشراف «دوق برغندية» الذى حاول إنشاء دولة مستقلة بين فرنسا وألمانيا و«دوق ارلينز» .

اجنكورت ١٤١٥

الحالة فى فرنسا

معاهدة تروى

وفى هذه الظروف العصيبة اضطرت الحكومة إلى عقد معاهدة «تروى Troyes» سنة ١٤٢٠ التى تقرر فيها أن يكون هنرى الخامس نائبا عن الملك فى فرنسا وأن يتوج ملكا عليها بعد موت شارل السادس

غير أنه فى سنة ١٤٢٢ مات الاثنان وترك هنرى الخامس بعده ابنه هنرى السادس وعمره بضعة أشهر فعين « دوق بدفورد Bedford » وصياً على الملك فأحسن القوامة عليه وواصل الانتصار على فرنسا. وبمساعيه أعلن هنرى السادس ملكا على شمال فرنسا إلى نهر اللوار جنوباً فأسقط فى يد ولى العهد — الدوفن Dauphin — الذى لم يجرؤ على تتويج نفسه ملكا. وكان ولى العهد «شارل السابع» خملا بليداً لم يحاول توحيد الصفوف الفرنسية وبث العاطفة الوطنية والحماسة الحربية ضد الانجليز، شارل السابع



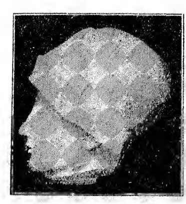
شارل السابع

فقوى مركز هنرى السادس فى فرنسا ولا سيما حين انضمت إلى جانبه برغندية بعد أن قتل دوقها فى وليمة أقامها «الدوفن» وكانت برغندية من أغنى وأقوى مقاطعات فرنسا — واستطاع الإنجليز أن يحاصروا « أورليان » وتعتبر أورليان مفتاحاً لجنوب فرنسا

وبينما المدينة مشرفة على التسليم جاء المدد الى فرنسا من ناحية لم تكن فى الحسبان. ففى وسط هذا الانخذال والانهزام ظهرت فى شرق فرنسا فتاة قروية اسمها « جان دارك Jeanne d'Arc » أعلنت للناس انها سمعت منادياً يناديها بأن تقوم وتحارب على رأس الجيش الفرنسىء فتطرد الإنجليزى من فرنسا وتأخذ بيد ولى العهد فتتوجه ملكا على فرنسا فى كنيسة « ريم Reims » جان دارك

وقالت إن مصدر هذه الرسالة سر إلهي ، وإنها مدفوعة بالقوة الالهية لتنفيذ مهمتها فاستخف الناس بدعوتها في أول الأمر ، ولكنها نجحت في مقابلة ولي العهد « الدوفن » وأجابها إلى طلباتها . وكان مجرد وجود جان دارك ، تلك الفتاة الطيبة القلب المخلصة ، في وسط الجنود الفرنسية كافياً لتحميسهم وتوليد روح جديد لا عهد للفرنسيين به من قبل — روح الاستبسال والاستماتة في سبيل الدفاع عن أرض فرنسا .

فسار الجيش الفرنسي وعلى رأسه جان دارك مرتدية ملابس الرجال وبفضل ما أظهره الفرنسيون من الشجاعة انهزم الانجليز سنة ١٤٢٩ ورفعوا الحصار عن « أورليان » وبعد ذلك حققت باقي برنامجها وتوج الدوفن في كنيسة « ريم » ملكا على فرنسا في السنة نفسها وأرادت أن تعود الى قريتها ولكن الملك ألح في لزوم بقائها في الجيش حتى يتم طرد الانجليز فبقيت جان دارك ودبت في نفوس القواد



جان دارك

عوامل الحسد والغيرة ، فتركوها تقع أسيرة في أيدي البرغنديين وباعها هؤلاء لحلفائهم الانجليز الذين لم يعاملوها كأسيرة بل عاملوها كساحرة ملحدة وكونوا محكمة دينية لمحاكمتها فحكمت عليها بالإحراق ونفذ الحكم في مدينة « روان »

طرد الانجليز

بعد ذلك مات دوق بدفورد وانحاز البرغنديون إلى جانب فرنسا سنة ١٤٣٥ . وكان ذلك أقوى العوامل التي ساعدت الفرنسيين على

طرد الانجليز سنة ١٤٥٣ فلم يبق لهم إلا «كاليه». وتم بذلك توحيد فرنسا سياسياً وبدأ ملوكها يثبتون عرشهم ويقوون سلطانهم فى البلاد حتى أصبحت فرنسا من أقوى الممالك فى أوربا إذ استطاع لويس الحادى عشر (١٤٦١ – ١٤٨٣) ومن بعده شارل الثامن (١٤٨٣ – ١٤٩٨) أن يحتفظوا بجيش دائم ويوطدوا السلطة الملكية الاستبدادية. وقد نجح لويس الحادى عشر فى ضم دوقية برغندية وبروفانس الى التاج الفرنسى حتى لم يبق من الدوقيات المهمة سوى برطانية وهذه ضمها شارل الثامن سنة ١٤٩١ بزواجه من وارثتها. فأصبحت فرنسا كتلة واحدة فى وسعها أن تشرع فى غزو جيرانها الضعفاء حتى ولم يتأخر شارل الثامن عن غزو ايطاليا سنة ١٤٩٤. وبدخول هذه الحملة فى ايطاليا سرت روح النهضة الحديثة إلى الفرنسيين فخرجوا من العصور الوسطى اتحاد فرنسا

أما فى انجلترا فقامت حروب داخلية بين الاحزاب المختلفة من الأشراف تعرف « بحروب الوردتين » نسبة إلى الوردة الحمراء التى كانت شارة أسرة « لنكستر » والوردة البيضاء التى كانت رمز أسرة « يورك » وكانت كل من الاسرتين تدعى أنها أحق بالملك من منافستها حرب الوردتين

وبدأ النزاع حين ثار دوق يورك على الملك هنرى الثالث وطرده وتوج نفسه سنة ١٤٦١ باسم أدوارد الرابع (١٤٦١ – ١٤٨٣) وبقى النزاع مستمراً حتى مات أدوارد الرابع وخلفه ابنه أدوارد الخامس فى الثانية عشر من عمره، وقام بالوصاية عليه عمه « دوق جلستر » الذى زج به وبأخيه وأقاربه فى السجن، واعتلى العرش باسم رتشارد الثالث (١٤٨٣ – ١٤٨٥) ولم يهدأ له بال حتى قضى على ابنى أخيه فى السجن

فسخط عليه الشعب وقام دوق « رتشمند Richmond » من سلالة أدوارد الثالث من أسرة لنكستر وحارب رتشارد وانتصر عليه فى واقعة « بزورث Bosworth » سنة ١٤٨٥ وقتل رتشارد فى المعركة . وأعلن رتشمند ملكا على انجلترا باسم « هنرى السابع » فوضع بذلك أساس حكم « أسرة تيدور Tudor فى انجلترا ، وحسم النزاع بتزوجه من اليصابات Elizabeth » وارثة أسرة يورك

أسرة تيودور

وبتولى أسرة « تيودور » بدأت عوامل النهضة تظهر فى انجلترا وبدأ تاريخها الحديث

الفصل الثاني عشر

الدولة العربية فى الاندلس

أثر الفتح العربى

كان لفتح العرب اسبانيا أثر عظيم فى تقدم حالة البلاد الاجتماعية إذ أزال الفوارق التى كانت تفصل بين الطبقات وقضى على امتيازات الاشراف ورجال الدين ، وحرر رقيق الارض إذا هم اعتنقوا الإسلام وأعطى الذين بقوا فى المسيحية حق الشكوى من أسيادهم ، وأوجد فى البلاد حكومة مستنيرة تجبي الضرائب من الجميع على السواء وتعمل لمصلحة الجميع . وترك العرب للمسيحيين كنائسهم وأديرتهم وحريتهم التامة واكتفوا منهم بدفع الجزية يقدرونها حسب ثروة الأفراد . أما اليهود فقد رفع عنهم الاضطهاد وأصبحوا أحراراً فى عقائدهم والقيام بشئونهم الخاصة . وما لبث الاطمئنان أن عاد الى نفوس المسيحيين فى اسبانيا وفضلوا الحكم العربى على الحكم القوطى

حكام الاندلس

لما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك عامليه موسى بن نصير وطارق بن زياد ، أصبح حكم البلاد بيد عبد العزيز بن موسى بن نصير فاظهر كفاية عظيمة وعين مجلساً خاصاً للنظر فى وضع القوانين والتوفيق بين مصالح القبائل المختلفة من العرب وأهمهم الحميرية والعراقية والشامية ، وشجعهم على الاختلاط والتصاهر مع المسيحيين وبدأ هو بتزوج أرملة « لزريق » ولما كان كثير من العرب الذين نزلوا بأسبانيا قد باشروا الصناعة والزراعة والتجارة بمصر والشام ، كان أول اهتمامهم فى اسبانيا

عبد العزيز ابن موسى

موجهاً إلى اصلاح الاراضى والعناية بالزراعة فاستثمروا أراضيها الخصبة واستدروا خيراتها الكثيرة ، فانتعشت البلاد بعد قليل من الزمن وأصبحت الاندلس من أحسن بلاد العالم وأرقاها من جميع الوجوه

ولما قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير أخذ أمراء أفريقية الذين كان مركزهم « القيروان » يعينون حكاماً للاندلس من قبلهم ، واستمر الحال كذلك حتى أرسل عمر بن عبد العزيز حاكما من قبله وهو « السمح ابن مالك » الذى قاد العرب شمالا ففتح « أربونة » على الساحل الشرقى بعد أن عبر جبال البرانس ودخل مقاطعة « اكيتين » ووصل الى « طولوشة » وهناك قابله الفرنجة واشتبك معهم فى واقعة قتل فيها سنة ٧٢١ م ، وتعرف هذه الواقعة عند العرب باسم « بلاط الشهداء » . وعلى أثرها تقهقر العرب جنوبا وحصنوا « أربونة » فأصبحت مركزاً حربياً بحرياً وقاعدة فتوحاتهم البحر الابيض المتوسط

السمح بن مالك

عبد الرحمن الغافقى

من أهم الحكام الذين عينهم الخلفاء الأمويون على اسبانيا وأعظمهم كفاية عبد الرحمن الغافقى وكان محبوباً لدى الجند حازماً عادلا ، وطد النظام والطمأنينة بالبلاد واستطاع بحكمته أن يوفق بين المضريين والحميريين

موقعة تور سنة ٧٣٢

وسار عبد الرحمن بجيشه شمالا فاحتل « بردو » وهزم دوق اكتين ودخل برغندية واحتل « ليون » ثم سار شمالا واحتل نهر اللوار فقابله الفرنجة بين « تور » و « بواتييه » واستمرت المعركة بضعة أيام كانت نتيجتها قتل

عبد الرحمن وانهزام العرب سنة ٧٣٢ . وكان يقود الفرنجة « شارل مرتل »

أسباب هزيمة تور

ويعزى هذا الانهزام للأسباب الاتية :

(١) أن العرب تركوا حاميات عديدة فى المدن والحصون التى فتحوها فى طريقهم إلى الشمال فأضعف ذلك من قوة الجيش

(٢) أن العرب كانوا مثقلين بالغنائم والأسلاب ولم يطيقوا صبراً على إهمالها بل فضلوا المحافظة عليها على الحرب ، وكان اهتمامهم بها من أشد أسباب انهزامهم

(٣) أن الفرنجة كانوا أكثر عدداً وقد انضم اليهم الألمان من الأقاليم المجاورة

(٤) وقوع النفور بين العرب والبربر

وتعد هذه الواقعة من الوقائع الحاسمة فى التاريخ لانها وقفت العرب عند حد لم يتعدوه ، إذ لو نجحوا فى هذه الموقعة لوقع غرب أوربا تحت حكمهم . وكانت نتيجة واقعة تور أن الفرنجة فطنوا للخطر الداهم من ناحية العرب فى أسبانيا ، فوثقوا علاقاتهم مع اللمبارديين ومع الإمارات المسيحية فى شرق أسبانيا وزال الخوف من نفوس الفرنجة ، وتركوا العرب يتطاحنون إلى أن تتضعضع قوتهم

نتائجها

ولما انتقل الملك من الامويين إلى العباسيين أخذ الخلفاء يقتلون الامويين ويشردونهم ، فأفلت منهم عبد الرحمن الملقب « بالداخل » وهو ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان . هرب إلى مصر ومنها إلى برقة ثم الى بلاد المغرب وخاطب جماعة من أنصار الأمويين فى أسبانيا فبثوا له الدعوة . ثم عبر البحر إلى أسبانيا فى خلافة أبى جعفر

المنصور العباسى فانتصر على « يوسف الفهرى » الوالى العباسى فى واقعة « موزارة » واستقل بالحكم فبايعه القوم سنة ٧٥٦

(عبد الرحمن الداخل ٧٥٦ — ٧٨٧)

استقل بحكم أسبانيا سنة ٧٥٦ ميلادية أى بعد موقعة « الزاب » التى هزم فيها الامويون بست سنوات وأسس حكومة مستقلة عن مركز الخلافة ، وراثية فى نسله فقطع الخطبة عن العباسيين ولكنه لم يأخذ لنفسه لقب الخليفة بل تركه للعباسيين وكذلك فعل من جاء بعده الى أن ضعف سلطان الخلافة العباسية

أعماله ولما ثبتت قدم عبد الرحمن الداخل الأموى بالأندلس أخذ فى بناء المسجد والقصر فى قرطبة ، ووجد أن العرب والبربر يميلون الى الأخذ بنظام الإقطاع السائر فى أوربا فيستقل كل منهم فى مقاطعة ويتحدون وقت الخطر ، فأخذ عبد الرحمن يناهض هذه الحركة التى كانت فى مصلحة الاعداء الذين بدأوا يزحفون جنوباً

وكان عبد الرحمن صادق النظر السياسى لطيف الطبع شديد الميل الى ما تنتجه الفنون والصنائع من الأعمال الجليلة وما تبتدعه العقول السليمة من الاشياء التى ترفع العقل وترقيه ، وقد لقبه رعاياه « بالعادل » ومات سنة ٧٨٧ ، وخلفه ابنه هشام وكان حليما محسناً فأحبته الرعية ، وخلفه ابنه الحكم سنة ٧٩٥ وكان قاسياً غليظ الطبع معتزلا عن الناس (١)

---

(١) وكانت البلاد تموج بالفتن وبخاصة طليطلة وقرطبة فقضى عليها بكل حزم كما قضى على الفتن التى قام بها عماه سليمان وعبد الله ويشبهه بعض المؤرخين بابى جعفر المنصور لان كليهما ثبت دعائم دولته

وفى عهده تمكن شرلمان من أخذ برشلونة والجزء الشمالى من أسبانيا ، ثم جاء «عبدالرحمن الاوسط» أوالثانى وفى عهده جاء النورمنديون وهاجموا سواحل أسبانيا ودمروا الثغور والمدن فردهم خاسرين ، وفى عهده ظهرت براعة دولة الأندلس فى العلوم والفنون والآداب ، وجاء من بغداد «ذرياب» أحد المشهورين فى الموسيقى والغناء فوضع أساس الحركة الاندلسية الشهيرة فى الطرب والغناء والموسيقى ، وفى عهده أيضاً أصبح بلاط الملك مثالا ينسج على منواله من حيث الآداب والسلوك وظهرت الفروسية بأجلى مظاهرها فى أسبانيا ومنها نقلت الى أوربا .

عبد الرحمن الأوسط

الأدب والفن

عبد الرحمن (الثالث الناصر) ٩١٢ — ٩٦١

هو أكفأ من حكم أسبانيا من الأمويين ، وجد بلاد الاندلس مضطربة فأخضع الثوار واحتل حصونهم ومدنهم وأصبح السيد المطاع فى البلاد ودانت له الأندلس فى سائر جهاتها ماعدا إقليمى «ليون» فى الشمال «وكتالونيا» فى الشمال الشرقى . وسرعان ماعادت الأندلس إلى سابق مجدها وشوكتها . وهو أول من اتخذ لقب الخلافة لنفسه ولقب بأمير المؤمنين فى الأندلس وذلك على أثر ضعف الخلافة العباسية وتسلط موالى الاتراك فى بغداد . وظهر أمره فى أوربا وخافته الدول فأرسلت اليه سفراءها يخطبون وده ، وفى خلافته صارت مدينة قرطبة — عاصمة الأندلس — مركز العلوم والآداب وكثر فيها العلماء من كل فن وجاء الطلبة من جميع الاصقاع لحضور دروس جامعاتها ، وشيد المبانى والقصور الفاخرة . ومن قصوره العجيبة قصر «الروضة» ساق اليه المياه من أعلى الجبل . ومن منشآته أيضاً ضاحية الزهراء التى اتخذها داراً للملك وبنى

نهضة الأندلس العلمية

بها من المبانى والقصور ما يقصر دونه الوصف (١)

ولما رأى عبد الرحمن أن أمراء العرب يحاولون الاستقلال عن الخلافة وأنه لا يمكن الاعتماد عليهم كثيراً ، أخذ يدخل فى خدمته أطفالا من رقيق الأجانب من الجنس الصقلبى رباهم تربية إسلامية وعهد اليهم بمهام الاعمال. وفى عهده استفحل أمراء الفاطميين فى شمال أفريقية وكان يريد أن يقضى على دولتهم لولا اشتغاله بمراقبة حركات الإمارات المسيحية فى الشمال . ووصلت فى عهده الزراعة والتجارة والصناعة إلى أعلى درجات الرقى فى بلاد الاندلس

استخدام الاجانب

وجاء بعده ابنه « الحكم الثانى » وواصل خطة أبيه فى كل شىء ومات سنة ٩٧٦ . وبموته انتهت عظمة الدولة الاموية فى الأندلس إذ ترك بعده ابنه هشام وهو ابن إحدى عشرة سنة وجعل الوصاية عليه لحاجب الدولة « محمد بن عبد الله بن على » وكان رجلا حازماً كثير الطمع قادراً ، فأخذ مقاليد الأمور بيده وحجز الخليفة فى قصره ولم يترك له عملا ما ومنع اتصال الشعب به وقام بدور يشبه دور « حجاب القصر » فى دولة الفرنجة ، وقد قضى أغلب مدته يحارب الامارات المسيحية فى أسبانيا فانتصر عليهم مراراً ولكنه عجز عن كسر شوكتهم . وتشبه محمد بن على بالخلفاء فلقب نفسه « بالمنصور » وذكر اسمه فى الخطبة مع اسم الخليفة ووضع اسمه كذلك على النقود . وجعل منصبه وراثياً فى أسرته ومات سنة ١٠٠٢ بعد أن أدهش الاسبانيين والعالم بأعماله وجرأته ومقدرته

الحجاب

المنصور

---

(١) وقد قيل فى وصف قرطبة

بأربع فاقت الامصار قرطبة — منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان اثنتان والزهراء ثالثة — والعلم أرفع شىء وهو رابعها

ويعد عهده من أزهر وأينع عصور الأندلس، ويفضل بعض المؤرخين عهده على عهد عبد الرحمن الناصر . وخلفه ابنه «عبد الملك» وواصل سياسة أبيه فى الحكم . ولكن الناس مع تقديرهم لأعمال أفراد هذه الاسرة كرهوا أن يفتات على حقوق صاحب الحق الشرعى . وكان النزاع بين الطبقات قد استحكم وقامت الثورة على أثر موت عبد الملك واستمرت مدة من الزمن انتهز فى أثنائها الحكام الامراء الفرصة واستقلوا فى مقاطعاتهم . وانتهى عهد خلفاء بنى أمية وجاء عهد ملوك الطوائف

عبد الملك

ملوك الطوائف

انتهى عهد خلفاء بنى أمية سنة ١٠٢٩ وجاء عهد ملوك الطوائف فظهر « بنو عباد » فى أشبيلية و « بنو ذى النون » فى طليطلة وصار عرب أسبانيا منقسمين الى أكثر من عشر ممالك ، فى كل منها أمير يدعى أن له حق السيادة على الآخرين فلا يفتأ كل منهم يغير على الآخر حتى حل بهم الدمار على أن هؤلاء الملوك كانوا من أنصار العلم والأدب وعلى ذلك استمرت النهضة العلمية فى البلاد على الرغم من ضعف الحالة السياسية .

ولقد اتضح تماماً أن مصير الاسبانيين إلى الفوز على العرب عاجلا أو آجلا ، ولولا أن العرب استنجدوا بالبربر فى شمال افريقية لتمكن الاسبانيون من طردهم من أسبانيا فى القرن الحادى عشر

انتصار الامراء الاسبانيين

وانتفع الاسبانيون بذلك الانقسام والضعف ، فأخذوا يحرضون الأمراء ضد بعضهم . وأول زعيم للاسبانيين فى الشمال « سانكو » العظيم ٩٧٠ — ١٠٣٥ وهو مالك نفاره وقشتالة ثم أخذ خلفاؤه يوسعون أملاكهم تدريجاً نحو الجنوب حتى وصلوا الى نهر « التاجه » واتفق « الفونس

السادس » مع ابن عباد الثالث أمير أشبيلية وأخذوا طليطلة وهى من أقوى حصون العرب سنة ١٠٨٥ ومن أهم الاسباب التى ساعدت ملوك قشتالة على النجاح اتحاد بعض أمراء العرب معهم على البعض الآخر ، وهذا يدل على أن الاعتبارات الدينية لم تكن وحدها سبباً للحروب فى القرن الحادى عشر

دولة المرابطين أو الملثمين

فى أثناء تضعضع دولة المسلمين فى أسبانيا ظهر جماعة من البربر فى شمال أفريقية يعرفون بالمرابطين نشروا سلطانهم من غمبيا إلى الجزائر . ومؤسس هذه الاسرة هو «عبد الله بن تاشفين » الذى بنى مدينة مراكش ، وأهم ملوكها « يوسف بن تاشفين »وكان تقياً سياسياً قوى العزيمة دانت له بلاد المغرب كلها سنة ١٠٩٤ ، وكان عرب الاندلس قد استنجدوا به قبل ذلك لما أخذ ملك قشتالة « ألفونس السادس Alfonso VI » طليطلة وهدد قرطبة ، فدخل المرابطون بلاد الاندلس بجيش جرار عمت به الحماسة كل العرب وقابلوا المسيحيين فى واقعة « زلاقة » سنة ١٠٨٦ التى انتصر فيها البربر وانهزم الاسبانيون انهزاماً تاماً ، ورجع المرابطون الى أفريقية ولكنهم لم ينسوا الاندلس ، بل عادوا اليها المرة بعد المرة ، وفى نهاية الامر لم يبر يوسف بن تاشفين بالعهود التى كانت بينه وبين ملوك الطوائف ، بل ضم إقليم « إندلوسيا » إلى دولة المرابطين فأصبحت تابعة لدولة البربر فى أفريقية . وقد حاول أن يثبت قدمه فى أسبانيا باستصدار تقليد بحكمها من قبل الخليفة العباسى . وخلفه ابنه « على »سنة

١١٠٧ فعامل العرب معاملة أمة مغلوبة ، واستحضر لذلك قبائل جمة من أفريقية فجردوا القبائل العربيــة من أملاكها ، فنشبت الحرب الداخلية وانبرى الاسبانيون للتغلب على المسلمين بمساعدة كثير من الصليبيين

دولة الموحدين

قامت دولتهم بفضل مجهودات زعيمهم « محمد بن تومرت » الملقب بالمهدى ووزيره وقائد جيوشه عبد المؤمن

تلقى محمد العلم على الامام الغزالى وأدرك كيف ينال الحكم بواسطة العقائد الدينية ، ثم عاد إلى المغرب لنشر مذهب الغزالى وادعى أنه المهدى المنتظر فلما قوى حزبه شرع يقاتل المرابطين بمساعدة تلميذه عبد المؤمن ابن على الذى ولى الامر من بعده وكان خبيراً بالحروب ، فاخضع دولة المرابطين واستنجد اهل الاندلس بالموحدين سـنة ١١٤٧ فعبروا البحر ودخلوا البلاد فازالوا منها بقايا المرابطين

وكان ملوك هذه الدولة من الفقهاء المستنيرين الذين عضـدوا العلم والأدب فى الاندلس . وأهم ملوكهم ابو يعقوب يوسف وخلفه ابنـه يعقوب بن يوسف وهو الذى حارب ملك البرتغـال فى واقعة « الاراك Alarcon » (قرب بطليوس) سنة ١١٩٥ فانتصر عليهم وكاد يظفر بطليطلة . وكان « ابو يعقوب » وأبنه معاصرين لصلاح الدين ، وفى عصرهما ظهر جماعة من كبار الفلاسفة والحكماء أمثال ابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨) وابن زهر ، وكثرت المدارس والمساجد والمستشفيات

ولما مات يعقوب انتهز المسيحيون الفرصة فقاموا وأعلنوا حرباً صليبية على العرب فى أسبانيا . وساعد على إذكاء نار هذه الحرب البابا أنسنت الثالث فاجتمع المسيحيون وقاتلوا المسلمين فى واقعة «لورقه» أو « لركة » سنة ١٢١٢ « Las Navas de Tolosa » انهزم فيها العرب انهزاماً تاماً ولم تقم لهم بعدها قائمة فى أسبانيا . وأخذ الأسبانيون يستولون على مدينة بعد أخرى ويفرقون بين أمراء العرب فيساعدون البعض ضد الآخر ، حتى اقتصر سلطان العرب على ما وراء « غرناطة » فى الجنوب الشرقى من أسبانيا ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى استولى الأسبانيون على قرطبة وبلنسية وأشبيلية

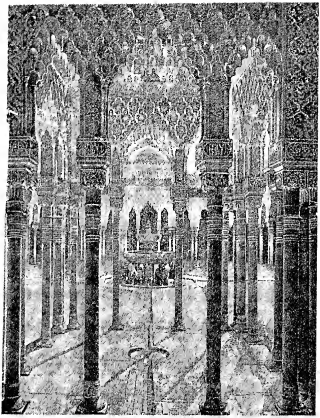
إمارة غرناطة

وفى أثناء ذلك تمكن «ابن الأحمر» من تثبيت سلطانه على غرناطة وما حولها فأنشأ حكومة قاومت الاسبانيين مدة قرنين من الزمان واتخذت غرناطة مقراً الحكمه وبنى قصر «الحمراء» الشهير، ووثق العلاقات بينه وبين المغاربة ليستعين بهم ضد الأسبانيين عند الحاجة . وقد أعاد بنو الاحمر فى غرناطة مجد الاندلس السالف واحتفظوا بتفوقها العلمى والصناعى والزراعى فى هذه الأقاليم

ومات ابن الأحمر سنة ١٢٧١ ، واستمر الحكم فى هذه الأسرة حتى قوى ملوك قشتالة وصارت الحرب بينهم وبين المسلمين سجالا ، فأخذت قشتالة مدينة جبل طارق واتحدت مع البرتغال فى موقعة « ريصالادو Salado » التى انتصرتا فيها انتصاراً مبيناً سنة ١٣٤٠

واضطر سلطان غرناطة الى الاعتراف لملك قشتالة بالسيادة ودفع الجزية سنة ١٤٥٣ . ثم اتحدت أرغونة وقشتالة بزواج « فرديننذ » ملك

أرغونة « بأيزابلا » ملكة قشتالة ١٤٦٩ فصار لهما التصرف فى هذه الممالك ، وتصادف أن انقسمت الأسرة المالكة فى غرناطة على نفسها



بهو السباع فى غرناطة

واستعان أحد أمرائها بفرديننذ ، فتقدم لمساعدته وانتصر سنة ١٤٩٠ قرب مدينة « لورقة » واستمر فردينند وأيزابلا يعملان على طرد العرب من الاندلس قد سقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ وبذلك تم تكوين دولة أسبانيا الحديثة

الفصل الثالث عشر

مصر منذ الفتح العربى

مصر أيام الخلفاء (٦٤١ — ٨٦٨)

أثر الفتح الاسلامى العاصمة

لما استقر أمر العرب فى مصر حدثت التغيرات الآتية : —

١ أنهم نقلوا العاصمة من الاسكندرية لبعدها عن الخلافة فى البلاد العربية وبنوا عاصمة لهم فى النقطة التى عسكروا بها حول حصن بابليون، وعرف هذا الموضوع باسم « الفسطاط » وهو مقابل منف ، وإنما فضلوا هذا الموضوع ليسهل الاتصال مباشرة ببلاد العرب . ورغبة فى سرعة الاتصال ببلاد العرب اهتم عمرو بن العاص بإعادة حفر القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر ، فسارت السفن من مصر الى الحجاز حاملة حاصلات مصر

اسلام بعض اهل مصر

٢ انضم كثير من سكان مصر الى العرب واعتنقوا الاسلام وأصبحت مصر من ذلك الوقت مركزاً هاماً فى العالم الاسلامى ، وقل عدد الأسر المسيحية

٣ اهتم العرب بالشئون الزراعية فأعادوا حفر الترع وعنوا بالرى وأصلحوا الطرق ، فتحسنت حال الفلاح وتدرج فى الرخاء الرقى

٤ بقيت الحكومة المدنية دون تغيير يذكر وبقى كثير من الموظفين الرومانيين فى مراكزهم الأولى وكل وظيفة خلت حل فيها مصرى ، واكتفى العرب بالاشراف على الحكومة

أما الضرائب التى نصت عليها المعاهدة فكانت أخف حملا من أمثالها فى عهد الرومان ، وكانت الضرائب هى الفرصة وضرائب الاراضى والأخيرة تختلف حسب الفيضان وحال الزراعة كل سنة . هذا إلى أنه أيام الرومان كان أناس كثيرون ومدن مثل الاسكندرية تعفى من الضرائب ، بينما العرب كانوا يأخذون الضرائب من الجميع على السواء

ومن الخطأ الشائع أن عمراً أحرق مكتبة الاسكندرية بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، والحقيقة أن المكتبة التى بدأت فى عهد « بطليموس فيلادلف » أحرقت سنة ٤٨ ق م على أثر إحراق « قيصر » أسطوله . فيقول المؤرخ الرومانى « بلوتارك Plutarch » « بينما كان الاعداء يستولون على أسطوله ، اضطر أن يردهم بالنار واندلع لهيبها من الحياض وأتلف المكتبة» ويكرر ذلك كتّاب كثيرون . فينتج من ذلك أن مكتبة الاسكندرية الكبرى أحرقت سنة ٤٨ ق م مكتبة الاسكندرية

وبعد هذه الحادثة بثمان سنين تجددت بالاسكندرية مكتبة، إلا أنه فى أواخر القرن الرابع جعل المسيحيون يخربون المعاهد الوثنية ومنها جامعة الاسكندرية حيث كانت الكتب ، وتم اعدامها عن آخرها سنة ٣٩١ م

وعلى فرض وجود المكتبة عند الفتح فانه لا يعقل أن الرومان أغفلوا نقل الكتب أثناء الهدنة وهى أحدعشر شهراً، ولا يعقل أيضاً أن العرب ، الذين كانوا يعتقون الاسير اذا علم عشرة من الصبيان القراءة والكتابة ، يحاربون العلم

وقد بقيت مصر بعد الفتح أكثر من قرنين من الزمان تابعة للخلافة يولى عليها الخليفة حاكما من قبله ، وهـذا الحاكم كثيراً ما كان يعين كبار الموظفين مثل أمير الجند وصاحب الخراج والقاضى

عمرو بن العاص

وقد بقى عمرو بن العاص يحكم مصر كلها أو بعضها مدة خلافة عمر وأهم ما حدث فى عصره صد الحملة التى بها استرجع الرومان الاسكندرية سنة ٦٤٥ وحاولوا استرجاع مصر كلها فقابلهم عمرو وشتت شملهم .

عبد الله بن أبى سرح

وجاء بعد عمرو عبد الله بن سعيد بن أبى السرح ففتح النوبة وعاهد أهلها عام ٦٥٢ على جزية سنوية بقيت تدفع إلى عصر المماليك

وبعد ذلك بثلاث سنين أرسل الرومان اسطولا عظيما لاستعادة مصر فقابلهم العرب باسطول صغير وبعد تراشق بالنبال والحجارة تقاتلوا بالسيوف حتى لاذ الرومان بالفرار ، وتعرف هذه الواقعة بواقعة « ذات السوار » . ومن نتائجها أن بقيت مصر نهائياً للخلافة ولم يفلح الرومان فى استرجاعها

مصر والنزاع بين على ومعاوية

ولما اشتط عبد الله بن سعد فى جمع الخراج ورفعه الى ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار سخط عليه الشعب وبعثوا الى الخليفة وفداً كان له ضلع فى قتل عثمان

ولما قام النزاع بين على ومعاوية انقسم العرب بمصر الى فريقين بقيا فى حروب وشقاق الى أن تغلب عمرو بن العاص المولى من قبل معاوية ودخل الفسطاط سنة ٦٥٨ . وبقى حاكما بهـا حتى مات فى سن التسعين سنة ٦٦٤ وقد كافأه معاوية على سالف خدماته فى التحكيم وغيره بإعطائه خراج مصر له

ولم يتغير شكل حكومة مصر أيام الأمويين والعباسيين . وانما كانت تتأثر الادارة بروح الحاكم ومقدار محافظته على الحق وحرصه على صالح الاهالى . وكان الحكام زمن الأمويين كلهم من العرب ومنهم أربعة من أبناء الخلفاء أو إخوتهم

وقد التجأ مروان الثانى آخر ملوك بنى أمية الى مصر رجاء مقاومة العباسيين ولكنه هزم وقتل فى بوصير ، واستولى « صالح بن على » التجاء مروان الثانى الى مصر
قائد العباسيين على مصر دون مقاومة وجعل بنو العباس يولون على مصر رجالا من بيت الخلافة خاصة ومن العرب عامة حتى سنة ٨٥٦ ، حين بدأ الخلفاء يعينون الاتراك ، ويقطعون البلاد لقواد الفرق التركية الذين بدأوا يستخدمونها بدل العرب والفرس ، ولكن هؤلاء القواد لم يحضروا بانفسهم الى مصر بل كانوا يعينون عليها ولاة من قبلهم يديرون شئونها ويرسلون ما يبقى من الايراد

وقد بنى العباسيون شمالى الفسطاط مقراً لحكمهم يعرف «بالعسكر» بناء العسكر
نسبة الى المكان الذى عسكر به صالح بن على سنة ٧٥٠ ، وبنوا كذلك قبة الهواء (٨٠٩ — ٨١٠) على سفح المقطم موضع القلعة الآن ، وكان الحكام يفضلونها على العسكر أيام الصيف

وكان ولاة العباسيين لا يكاد يستقر أحدهم فى مركزه حتى يخلفه غيره ولذا كان الامن مضطرباً والشغب كثيراً ، وزادها سوءاً الخلاف الذى وقع على أثر موت هرون الرشيد بين ولديه الأمين والمأمون . ولم يستقر للبلاد قرار حتى أرسل المأمون سنة ٨٢٦
« عبد الله بن طاهر » وهو من أشهر قواده عصره فأخضع عرب الحوف عبد الله ابن طاهر

الذين كانوا ثائرين ضد الحاكم ، واستخلص الاسكندرية من يد جماعة من مهاجرى الأندلس كانوا قد استولوا عليها ثم تغلب على الحاكم الذى كان يمثل « الأمين » وأعاد الأمن الى نصابه . وكان عبد الله عادلا رحيما تقياً محباً للعلماء والشعراء

ولم يكد عبد الله يغادر مصر حتى رفعت الثورة عقيرتها واضطر المأمون أن يحضر بنفسه لاخضاعها فقضى عليها وترك البلاد هادئة . ومن ذلك الوقت قلت الثورات وكثر دخول المصريين فى الاسلام حتى صار معظم السكان مسلمين

وقد اشتهر فى هذا العصر عدد من القضاة كانوا مثالا للزهد والنزاهة والعدل وكثيراً ما كان القاضى يستمر فى عمله مع ولاة مختلفين وكان بعضهم لا يلى القضاء إلا مكرها

ولا يكاد يوجد بين الولاة خير من «عنبسة» آخر من ولى مصر من العرب وكان «عنبسة» متواضعاً حريصاً على خدمة الرعية وإقامة الشعائر الدينية ، وفى مدته استولى الرومان على دمياط وخربوها سنة ٨٥٣ وتقدموا الى بلبيس فهمّ « عنبسة » للقائهم فلم يسعهم إلا الفرار ، وفى السنة التالية رفض النوبيون دفع الجزية وغزا ملكهم « على بابا » بلاد الصعيد بجيش كبير ونهب اسنا وادفو فاستعان عنبسة بالخليفة ، فهزم « على بابا » بعد حرب طاحنة ورضى بدفع الجزية

وجاء بعد عنبسة ولاة من الترك جلهم جفاة لا عهد لهم بالحكم تفاقمت فى أيامهم الثورات وعمت الفوضى ، ولم ينتشل البلاد من هذه الوهدة إلا أحمد بن طولون .

الدولة الطولونية (٨٦٨ — ٩٠٥)

كان « طولون » مملوكا تركيا ممن أرسلهم حاكم بخارى هدية للخليفة المأمون سنة ٨١٥ فنال الحظوة لديه ، وقد ولد ابنه أو متبناه « احمد ابن طولون » سنة ٨٣٥ فنشأ نشأة طيبة وبرع فى علوم اللغة والقرآن والشريعة وأولع بالتعليم العسكرى الذى كان يربى عليه فتيان الأتراك فى سر من رأى (سمارا)

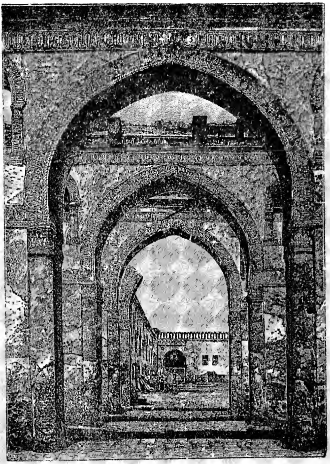
ولحسن حظه أن الأمير « بقبق » الذى تزوج من أرملة طولون منح ولاية مصر (نحو سنة ٨٥٤) واختار أحمد نائباً عنه فيها ، فحضر اليها سنة ٨٦٨ وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وكان أبو العباس أحمد بن طولون قديراً خبيراً باختيار الرجال فلم يمض وقت طويل حتى أحس الناس نفوذه . ومن أكبر المساعدين له كاتم سره أحمد الواسطى

حرج موقفه كان موقف ابن طولون محوطاً بالمصاعب وأهمها دسائس « ابن المدبر » صاحب الخراج الذى أثرى على الاختلاس وابتزاز الأموال بمختلف الضرائب والمكوس . ثم قيام العلويين فى غرب الاسكندرية وفى اسنا ومقاومتهم له مدة

ولم يقلل من حظ ابن طولون قتل الأمير « بقبق » إذ أن الخليفة منح مصر للأمير « برقوق » وهو حمو ابن طولون ولهذا أطلق يده فى مصر وضم اليه الاسكندرية وغيرها مما لم يكن داخلا تحت نفوذه أولا . ومازال نفوذ ابن طولون يزداد حتى أعطيت مصر طعمة «للموفق» أخى الخليفة سنة ٨٧٢ فلم يعبأ ابن طولون بهذا التغيير واسترضى الخليفة بالهدايا

والتحف وصار فى الواقع ملكا مستقلا فى مصر ولا سيما بعد أن تخلص من أكبر منافس له فى داخلية البلاد وهو ابن المدبر الذى بقى صاحب الخراج مدة طويلة ثبت فى أثنائها مركزه ، ولكنه قبل عن طيب خاطر مثل وظيفته فى الشام خوفاً من بطش ابن طولون

ولما استقر الأمر لاحمد بن طولون وكثر جنده وحاشيته بنى لهم



جامع ابن طولون

مدينة «القطائع» على «جبل يشكر»[1] وجعل لكل طائفة من أتباعه قطيعة خاصة يقيمون بها،وشاد لنفسه قصراً فخماً تحت قبة الهواء بهحديقة غناء وميدان لسباق الجياد. وأما مسجده المعروف فلم يشرع فى بنائه إلا سنة ٨٧٦ واستغرق عامين كاملين فى بنائه وأهم ما يلاحظ فيه إقامة الأعمدة من الآجر لأول مرة بدل نقل أعمدة حجرية من الآثار القديمة، وأنه أول بناء استعمل فيه العقد المخموس الذى لم يستعمل فى انجلترا إلا بعد ذلك بقرنين من الزمان

القطائع

مسجد ابن طولون

ولما عظمت نفقات ابن طولون على مبانيه وجيشه وحصونه وتضاعفت صلاته للعلماء وصدقاته على الفقراء لم يستطع أن يرسل شيئاً الى «الموفق» فجهز هذا جيشا لاخراج ابن طولون من مصر ولكنه لم يقدر على إنفاذه لقلة المال. فتشجع ابن طولون وقر عزمه على توسيع ملكه فانتهز فرصة موت «ماجور» والى الشام وساق جيشه اليها سنة ٨٧٨ بحجة أن الخليفة كان قد أذن له بالاستيلاء عليها قبل تولية «ماجور» ففتحت دمشق أبوابها وقدم رجال الدولة وأعيان البلاد خضوعهم له حتى صار ملكه يمتد من نهر الفرات الى برقة، ومن جبال طوروس الى شلال اسوان.

اتساع ملكه

وبعد أن ترك ابن طولون حاميات الرقة وحران ودمشق عاد الى مصر لأن ابنه العباس الذى كان يحكم البلاد فى غياب أبيه أراد أن يستقل بملكها فلما حضر أبوه التجأ العباس الى برقة وقاوم سنتين حتى هزم وقضى حياته سجيناً

---

(١) بين ميدان القلعة وزين العابدين

وقد شجر الخلاف بين ابن طولون والموفق دون أن يظفر أحدهما بالآخر . وكذلك شجر الخلاف بينه وبين الروم فانتصرت جيوش ابن طولون عليهم قرب طرسوس سنة ٨٨٣ وغنمت أموالا طائلة . وقد أعياه الجهد فمرض وحمل على سرير الى مصر حيث لم يجده حذق الاطباء فمات فى مايو سنة ٨٨٤ قبل أن يبلغ الخمسين

انتصاره على الروم ٨٨٣

صفات ابن طولون

وكان احمد بن طولون كريما شجاعاً تقياً خبيراً بأخلاق الرجال يشرف على أعمال الدولة بنفسه ويستطلع أحوال رعيته، ويقرب العلماء ويجزل لهم العطاء ويشجع الزراع ويؤمنهم على أملاكهم .وهو أول حاكم بعد الفتح الاسلامى أنهض قوة مصر وجمّل عاصمتها

خمارويه

وقد خلف أحمد بن طولون ابنه الثانى «أبو الجيش خمارويه» وكان فى العشرين من عمره ميالا للترف يجهل الحكومة والحروب،فلاعجب إن تآمر أعداؤه مع نائبه فى دمشق على إرجاع الشام الى حكم الخليفة ، ودخل « أبو العباس بن الموفق » دمشق وتقدم جنوباً حيث قابله خمارويه ومعه ٧٠٠٠٠ مقاتل عند « الطواحين» قرب الرملة فذعر خمارويه وفر بأكثر جيشه إلى مصر ، وثبت قائده « سعد الأعسر » مع بقية الجند فهزم الأعداء وأبى الخضوع لسيده فنهض خمارويه وهزمه فى دمشق سنة ٨٨٦ وطارد أعداءه إلى «سمارا» فولاه الخليفة مصر والشام والعواصم على الحدود الرومانية لمدة ٣٠ سنة . وقد تشجع خمارويه فدخل عدة حروب أبدت مقدرته الحربية

استرجاع الشام

زواج قطر الندى

ثم زوج ابنته « قطر الندى » للخليفة « المعتضد » وتكلف فى ذلك ما يقصر دونه الوصف من بناء القصور على طول الطريق من مصر الى

بغداد لنزول العروس كل ليلة وقد أكثر من الجواهر والتحف إلى غير ذلك مما دعا إلى صرف الف الف دينار !

ما زال خمارويه يسرف فى البناء وأنواع الترف حتى كادت موارد ثروته تنضب ، وأهم ما شيده توسيع قصر أبيه « بالقطائع » وتحويل الميدان حديقة غناء يتضوع منها عبير أزهار شتى ، صفت بأشكال بديعة، تغرد فوقها الاطيار التى أكثر من جمعها فيهـا . كذلك زين « بيتـه الذهبى » بتماثيل منقوشة تمثله وزوجاته وقيانه . ولما كثر أرقه ملئت له بركة من الزئبق يترجح عليه سريره ، وقد شد بخيوط من حرير إلى عمد من الفضة

وقد حقد عليه بعض جواريه فاغرين به من قتله وهو فى طريقه الى دمشق سنة ٨٩٦

ابو العساكر

وخلفه ابنه الاكبر « أبو العساكر جيش » وكان فى الرابعة عشرة من عمره لا يفقه لمركزه الخطير معنى ،منغمساً فى لهوه نخرجت سوريا وما يليها عن طاعته وعمت الفوضى فروع الادارة ونفذت أموال الخزانة فعزله جنده بعد أشهر من اعتلائه العرش

خاتمة الدولة الطولونية

وجاء بعده أناس ضعاف لم يحسنوا القيام بواجبات الحكم فأرسل الخليفة الى مصر جيشاً بقيادة « محمد بن سليمان » هزم الطولونيين وخرب القطائع عن آخرها ما عدا جامع طولون

وقد عمرت الدولة الطولونية ٣٧ سنة كانت مصرفيها مستقل فى الواقع ، ولذا استعادت كثيراً من عظمتها السالفة وبلغت من الحضارة والرخاء درجة لم تبلغها منذ الفتح الاسامى

الدولة الاخشيدية (٩٣٥ — ٩٦٩)

بقيت مصر بعد زوال دولة ابن طولون ثلاثين عاماً فى هرج ومرج، لأنها كانت تابعة للخلفاء العباسيين وكان هؤلاء ضعافاً لا يستطيعون تأييد الحكام الذين يعينونهم على البلاد فأصبح الأمر والنهى بيد الجند الاتراك وقوادهم واضطر الحكام الى استرضاء الجند بالعطاء كلما أمكن ذلك عودة مصر للخلافة

وليس أدل على ضعف الخلفاء العباسيين وولاتهم فى مصر ورغبة المصريين فى التخلص منهم من تمكن « محمد الخالنجى » — وهو شاب من عامة الناس — من جمع عدد صغير من المصريين فى فلسطين سنة ٩٠٥ وإعادة الخطبة للطولونيين هناك، ثم دخول مصر وحكمه إياها ثمانية أشهر باسم الطولونيين

وأدهى من ذلك وأمر، أن مصر كانت عرضة للغزو من جانب الخلفاء الفاطميين الذين ظهرت دولتهم فى المغرب الاقصى حتى نهبوا الاسكندرية ووصلت جيوشهم إلى الفيوم سنة ٩١٤، وعجز الحكام عن طردهم ست سنوات كاملة رغم حضور المدد من بغداد أكثر من مرة

إلا أن طرد جيوش الفاطميين لم يعقبه القضاء على الفوضى الضاربة أطنابها فى البلاد، بل بقى الجند يجوسون خلال الديار ويسومون أهلها سوء العذاب مدة خمس عشرة سنة، حتى ولى أمرها « محمد الاخشيد » سنة ٩٣٥ بأمر الخليفة الراضى. والاخشيد لقب ملوك « فرغانة » السابقين « ومحمد بن طغج » هذا من سلالة هؤلاء الملوك كان جده الاخشيد

ضابطاً فى جيش المعتصم وخدم أبوه مدة فى جيش خمارويه . وكان محمد الاخشيد قوى الساعدين لا يقدر رجل آخر أن ينزع في قوسه . وكان قائداً حذراً يفضل السلم على المغامرة فى الحروب وبدخوله مصر عاد اليها الامن والسكينة ولم يجرؤ أحد على الثورة فى وجه جيش الاخشيد وفيه ٤٠,٠٠٠ مقاتل

وقد سبق أن خلفاء بنى العباس كانوا اذ ذاك فى منتهى الضعف ليس لهم من أمر الملك شىء وأن « بنى بويه » حكموا فارس « والحمدانيين » حكموا العراق مستقلين عن الخليفة وكذلك حكم الاخشيد مصر مستقلا بها ، ولكن لا يتأخر من مدّ يد المساعدة للخليفة البائس

وبينما الاخشيد هادىء فى ملكه إذ انقض « ابن رائق » على حمص ودمشق فقاتله المصريون وتم الصلح على أن تكون سوريا شمالى « الرملة » لابن رائق وجنوبيها للاخشيد. ولما مات ابن رائق أخذ الاخشيد سوريا كلها بغير قتال وأضاف اليه الخليفة مكة والمدينة ثم جعل مصر له ولأبنائه مدة ثلاثين سنة ، فأخذ الأخشيد لابنه البيعة من قواد الجند ووجوه الناس الحرب فى سوريا

ثم أغار سيف الدولة الحمدانى على دمشق وهزم الجيوش المصرية بقيادة كافور ، فخرج اليه الأخشيد ومزق جيشه كل ممزق فى واقعة « قنسرين » ودخل حلب ودمشق ولكنه مع ذلك تنازل عن حلب وشمال سوريا لسيف الدولة حباً فى مسالمته . ومات الاخشيد بدمشق سنة ٩٤٦ ودفن ببيت المقدس موت الاخشيد

ويذكر الاخشيد باعادة الامن الى نصابه وبجعل مركزه وراثياً

وإن كان لمدة محدودة ، مما أدى الى استقلال مصر استقلالا فعليا ، فأصبحت تجبى اليها ثمرات سوريا وغيرها من البلاد التابعة لها

وتولى بعد الاخشيد ابناه « ابو القاسم » أنجور (٩٤٦ — ٩٦١) وأبو الحسن على (٩٦١ — ٩٦٥) ولكنهما لم يعطيا فرصة لاظهار مقدرتهما إذ كانا تحت وصاية «كافور» حاكم مصر الحقيقي. كان أبو المسك كافور عبداً حبشياً اشتراه الأخشيد بثمن بخس وولاه قيادة الجيوش ثم نصبه استاذاً لأولاده ، وقد نجح كافور بعد حروب مع الحمدانيين فى مد أملاك مصر الى حدود الأناضول وأحاط نفسه بالشعراء والعلماء وبذل لهم الهبات

كافور

ولما مات أبو الحسن على الاخشيد سنة ٩٦٥ اعتلى العرش «كافور» ومنحه الخليفة لقب استاذ مصر وأملاكها ، فبقى يدير شئونها فى بذخ وتنعم حتى مات سنة ٩٦٨ بعد أن حكم مصر اثنتين وعشرين سنة ، وبمجرد موته اجتمع رجال البلاط وانتخبوا — من تلقاء أنفسهم وبدون رجوع لأمر الخليفة العباسى — من بنى الاخشيد ملكا لمصر وممتلكاتها كما انتخبوا ولى عهد له ، إلا أنهما لم يضطلعا باعباء الحكم فتطلع « المعز » رابع الخلفاء الفاطميين الى ضم مصر الى أملاكه فلم تمض سنة على موت كافور حتى دخل الجيش الفاطمى الفسطاط سنة ٩٦٩ وانفصلت مصر عن بغداد نهائيا

الدولة الفاطمية (٩٦٩ — ١١٧١)

لما توفى النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يعين خلفه انتخب مسلمو المدينة أبا بكر ثم عمر ثم عثمان خلفاء عليهم وأقر المسلمون عامة ذلك الانتخاب ، إلا أناساً كانوا يرون مبدأ الانتخاب يجر الى مشاكل كثيرة وأن الاولى اتباع مبدأ الوراثة ، وان على بن أبي طالب يجب أن يكون الوارث الوحيد للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه ابن عمه وزوج ابنته فاطمة الزهراء وأبو حفيديه الحسن والحسين

وأصحاب هذا المذهب يعرفون «بالشيعة» لتشيعهم وتشجيعهم لعلى وأولاده ، وقد أزكى تحمسهم لاهل البيت الاضطهادات الكثيرة التى أوقعها الامويون بآل محمد والتى بدأت بحادثة « كَرْبَلاء » وأدت إلى سقوط دولة بنى أمية وقيام دولة بنى العباس مكانها ، إلا أن العباسيين اضطروا إلى اضطهاد العلويين خوفاً من نفوذهم وكثرة الموالين لهم وتعدد الثورات التى قام بها الشيعة يحاولون القضاء على الدولة العباسية وإحلال أحفاد « على » محلها . والذى يعنينا الآن انتشار دعوة الشيعة بين البربر الشيعة فى أفريقية فى شمال أفريقية

لم تكن أفريقية يوماً ما مرتبطة بالأمويين ولا بالعباسيين ارتباطاً شديداً ، بل كانت كثيرة الثورات والقلاقل كما رأينا حتى تركها الرشيد شبه مستقلة تحت إمرة بنى الأغلب . لهذا ، ولبُعدها عن بغداد ، ولتفشى الجهل بين أهلها وتصديقهم ما يقصه دعاة الشيعة من المظالم التى لا تفتأ تقع على آل بيت محمد ، ولسهولة إثارة حميتهم لدعوة دينية فى

الظاهر ، — لكل هذه الأسباب وغيرها كانت أفريقية تربة خصبة لبث الدعوة لبنى على وفاطمة

عبيد الله المهدى

وأكبر الدعاة لبنى فاطمة فى المغرب «أبو عبد الله الشيعى» ، وقد بدأ ينشر الدعوة سنة ٨٩٣ « لعبيد الله بن محمد » من نسل جعفر الصادق فتبعه خلق كثير أقنعهم بقرب ظهور المهدى المنتظر من بيت النبوة ، ولم تمض سنون قليلة حتى بلغ جيشه مائتى ألف مقاتل وحتى قضى على الدولة « الاغلبية » من شمال أفريقية وأعلن « عبيد الله المهدى » أنه المهدى المنتظر وانه وحده خليفة النبي ، سنة ٩١٠ وعرف نسله بالفاطميين (١)

وكان عبيد الله حاكما نشيطاً دان له شمال أفريقية من مصر الى قرب شواطىء المحيط الأطلسى ، وقضى على ما كان يرمى اليه الشيعة أنفسهم من إهمال الدين والانغماس فى اللهو ونشر المذاهب الفوضوية

القائم بأمر الله

وخلفه ابنه « القائم بأمر الله » (٩٣٤ — ٩٤٦) وقد أرسل جيشاً استولى على الاسكندرية سنة ٩٣٥ فطرده جند محمد الاخشيد وأوقع به هزيمة منكرة . ثم اشتغل « القائم » بأخضاع ثورة داخلية فى المغرب استمرت إلى حكم الخليفة الثالث الملقب بالمنصور (٩٤٦ — ٩٥٣)

المعز لدين الله

ثم أعقبهم «المعز لدين الله» (٩٥٣ — ٩٧٥) فافتتح عصراً جديداً ، وكان المعز سياسياً محنكا يعرف الشروط التى لا بد من توافرها لاحراز النجاح ، ولا يترك فرصة تمر به دون أن يستخدمها لمصالحه ، هذا الا أنه كان مثقفاً تأخذ بلاغته بالالباب واسع الكرم محبا للعدل

بدأ المعز بالطواف فى ملكه الشاسع لاستطلاع أدواء الرعية

---

(١) انتساب عبيد الله الى سيدنا علي موضع شك كبير

ووصف دائها وعين « جوهر الصقلى » وزيراً وقائداً لجنوده ففتح بقية المغرب الى شاطيء المحيط ، ولكن أ كبر أمانيه كانت فتح مصر لعظم ثروتها ووفرة تجارتها ونشاط أهلها ، ولما علمه من ضعف الحكومة بعد موت كافور ، وعصيان الجند وانخفاض النيل سنة ٩٦٧ وما تلاه من قحط ووباء فنى به خلق كثير

جوهر وفتح مصر

شرع المعز بحفر الآبار على طول الطريق من « القيروان » عاصمة ملكه الى الاسكندرية وتخزين المؤن والذخائر وسير جوهر القائد من القيروان فى فبراير ٩٦٩ بمائة ألف جندى . فلما وصل إلى الاسكندرية طلب السكان منه الأمان فأمنهم وسار الى الفسطاط فاستولى عليها بعد مقاومة يسيرة ، ولم يبت ليلته حتى وضع أساس القاهرة حيث شيد قصرين عظيمين أحدهما قصر الخليفة الخاص والآخر كان بمثابة متنزه يطل على حديقة كافور بينهما ميدان لاستعراض الجند يعرف باسم « ما بين القصرين » . وكان الخليفة يمر من أحد القصرين الى الآخر بطريق تحت الأرض خشية أن تكثر رؤية الناس له فيستهينوا به . وقد بالغ المؤرخون فى وصف هذين القصرين مبالغة عظيمة ، وبنى « الجامع الأزهر » كذلك (٩٧٠ — ٩٧٢) ليصلى فيه الخليفة بالناس يوم الجمعة

ثم التفت إلى إعادة السكينة وتخفيف وطأة القحط بما أرسله المعز من الحبوب وبالزام جميع التجار أن يبيعوا حبوبهم بأثمان معتدلة أمام المحتسب (مندوب الحكومة فى السوق) . ولضمان العدالة جعل حكم كل جهة بيد حاكم مصرى وآخر مغربى وما لبثت بلاد النوبة أن قبلت أن تدفع له الجزية المعتادة وخطب له الحمدانيون فى شمال الشام وأخضع

اتساع ملكه

جنوب الشام وطرد منه حسين الأخشيد

دخول المعز مصر

وعند ذلك ألح جوهر على سيده أن يبادر بالحضور الى عاصمته الجديدة فحضر اليها بأهله وولده ، بل ورفات أسلافه ، ودخلها فى مايو سنة ٩٧٣ فاستقبله أهل البلاد بالترحاب وأعجبهم كرمه وبلاغته

عماله

وبحضور المعز صارت لمصر السيادة — لا على بلاد النوبة وجنوب الشام فقط — بل على الحجاز وبلاد المغرب نفسها ، اذ كانت مركز دولة الفاطميين وقلبها النابض ، منها تصدر الأوامر الى أنحاء الدولة وتدبر شئونها ومنها يذهب الحكام لبقية البلاد

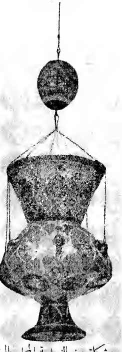
وقد انتفع المعز بثغور مصر لزيادة أسطوله فأقام حوضاً فى المقس — وهى ثغر القاهرة قبل بولاق — وبنى به ستين سفينة وهو أكبر أسطول رأتهُ مصر منذ الفتح الإسلامى واستبقى الجيش فى كفاية حربية عظيمة ، وعنى بالنيل والرى والزراعة والقضاء

وفى آخر حكمه غزا « القرامطة » مصر ووصلوا الى عين شمس سنة ٩٧٤ وانتشروا فى جميع أنحاء القطر يفسدون ويخربون ، ثم حاصروا القاهرة وكادوا يستولون عليها لولا أن عمد الخليفة الى تقديم مبلغ كبير من الذهب الزائف الى شيخ بنى طى أكبر حليف للقرامطة ، فتخاذل فى الموقعة التالية . واستطاع «المعز» أن يطارد القرامطة الى سوريا ومات سنة ٩٧٥ فى السادسة والاربعين من عمره . وقد ترك لمصر دولة مترامية الاطراف لم يقو خلفاؤه على الاحتفاظ بها كاملة بل استقلت عنهم أفريقية سنة ١٠٤٦ وضعف نفوذهم فى سوريا التى كانت مهداً للقلاقل . ولم يخضع لهم عن طيب خاطر الا الحجاز رغم ماكان لهم من قوة برية وبحرية إذ

اتخذوا جنوداً من البربر ، وآخرين من الترك وغيرهم من السودان

العزيز خلف العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦) أباه وكان حسن الطلعة قائدا جريئاً ميالا للتسامح حتى مع أعدائه . وقد استوزر من أول حكمه « يعقوب ابن كلس » وهو يهودى اعتنق الإسلام وبقى متربعاً فى كرسى الوزارة نحو خمسة عشر عاماً وكذلك استوزر « عيسى بن نسطريوس » وبفضل هذين الوزيرين امتلأت الخزانة وانتشرت السكينة فى ربوع البلاد، ولكنهما كانا يحبان جمع المال ويؤثران مظاهر العظمة والابهة ولا يقلان عن سيدهما فى حب التحف النادرة والملابس الفاخرة والاحجار الكريمة وغيرها من لوازم الترف والثروة التى جعلت مصر فى عهد الفاطميين مضرب الامثال

وأهم من هذا آثار العمارة والهندسة وتنظيم الحكومة فى عهده ، فقد بنى الجامع المعروف بجامع الحاكم لأن الحاكم هو الذى أتمه ، وحفر ترعاً عديدة وشيد القناطر والحياض


مشكاة من الزجاجة المحلى بالمينا

و « العزيز » أول من نظم الحفلات الرسمية وأول من أعطى موظفيه مرتباً معيناً كما أنه أول من أدخل مماليك الترك فى جيش مصر فكانوا وبالا عليها . ويعتبر العزيز أحزم خلفاء الفاطميين وأرشدهم . ولسوء حظ مصر لم يعقب العزيز الا ابنا واحداً من أم مسيحية هو الحاكم بامر الله (٩٩٦ — ١٠٢١)

الحاكم

تولى الحاكم فى سن الحادية عشرة وكان أبوه قد عين « بيرجوان »[1] أستاذاً له أى وصياً عليه ، وأسندت قيادة الجند « لابن عمار المغربى » ولقب أمين الدولة وأصبح فى الواقع نائباً عن الخليفة ففضل أبناء جلدته وأعانهم على الجند الاتراك الذين جلبهم العزيز ، فكثر الشجار بين الطرفين فى الطرقات وشاع نهب المتاجر وانتهى الامر بفوز الترك وقتل ابن عمار .

وأصبح الامر بيد « بيرجوان » ولكنه ترك حبل الامور على غاربها فبدأ « الحاكم » يباشر الإدارة بنفسه وظهر ميله لسفك الدماء ، فقتل

شذوذ الحاكم

« بيرجوان » وتجلى شذوذه لرعيته فى عدة أوامر خارقة للعادة منها قفل الحوانيت نهارا ولزوم فتحها وفتح المنازل واضاءتها ليلا وتحريم صنع أحذية للنساء حتى لا يستطعن الخروج من منازلهن وقطع الكروم ومنع الناس من أكل الزبيب والملوخية والعسل !

وبعد أن قضى عشر سنين من حكمه دون أن يتدخل فى الامور الدينية لغير المسلمين ، أخذته نوبة من التعصب الاعمى حدت به الى إصدار خطرات من وساوسه تضيق على المسيحيين واليهود فى حين أنه كان يختار منهم أعاظم رجال دولته . وقد تمادى هذا الخليفة الشاذ فى سفك الدماء حتى كان وزراؤه وقواده لا يثقون باستقرار رءوسهم على أجسادهم مهما جلت خدماتهم له

ابو ركوة

وفى عهده توالت ثلاث سنين مجدبة ساءت لها حال البلاد حتى طمع فى غزوها « أبو ركوة » وهو من الاسرة المالكية فى الاندلس ، فرّ منها وأقام نفسه خليفة فى المغرب ثم غزا برقة ومصر حتى نزل بالجيزة

(١) لايزال شارع بيرجوان بالخرنفش يسمى باسمه

وعسكر قرب الاهرام ولم تتغلب عليه جيوش الحاكم إلا بعد مطاردته إلى النوبة بجهد جهيد

ومن أهم آثاره إتمام جامع الحاكم الذى بدأه العزيز قرب باب النصر وتشييد « دار العلم » أو « دار الحكمة » لنشر مذهب الشيعة خاصة وتشجيع العلوم عامة . وكانت دار العلم قصرا فخماً بها مكتبة كبيرة مباحة للخاص والعام يقصدها العلماء من الاقطار النائية

نهاية الحاكم أما « الحاكم » فما زال جنونه يشتد حتى خيُل اليه أنه إله جدير بالعبادة وساعده ملحدون أتوا من المغرب ومن الفرس وأشهرهم «درازى» الذى أسس مذهب « الدروز » فى لبنان على اعتقاد ألوهية الحاكم . وقد أثارت دعوته هذه ثائرة المسلمين ووقعت البلاد فى محنة كبيرة ووقف دولاب العمل فى كل مكان وخرج عليه الجند الترك والمغاربة وانضمت اليهم أخت الحاكم « سيدة الملك » فهزموا الجنود السودانية التى كانت تحميه . وقتل الحاكم وهو يجول فى الصحراء ولم يعثر له على أثر ولا يزال « الدروز » يعتقدون أنه سيعود بعد اختفائه فيصلح العالم

الظاهر وخلفه ابنه الظاهر (١٠٢١ — ١٠٣٦) وكان فى السادسة عشرة من عمره فقامت بأعباء الحكم عمته « سيدة الملك » فلما أدركها الموت التف حول الخليفة ثلاثة شيوخ أقصوا عنه كل ناصح أمين وأهملوا الرعية ، وجاء على أثر ذلك انخفاض النيل فعم الكرب واشتد الغلاء وأصبحت الحرب فى الطرقات سجالا بين الجند والاهالى — كل ذلك والخليفة منغمس فى ملذاته عاكف على لهوه وقسوته

المستنصر ولما مات بالطاعون خلفه ابنه المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤) وعمره

سبع سنين ، وكانت مصر قدفقدت كل ممتلكاتها تقريباً فحاول المستنصر أن يسترجع المغرب فأرسل عرب « بنى هلال » المشهورين ففتحوا برقة وطرابلس فقط وأقاموا فيهما

أما بلاد العرب فعظم نفوذ الفاطميين فيها ، لا بجهودهم أنفسهم ، بل بقيام دعاة لمذهب الشيعة ملكوا الحجاز واليمن سنة ١٠٦٣ وأعلنوا حق الفاطميين المقدس فى الخلافة

وقد توالى الوزراء فى أول حكم المستنصر دون أن يتمكن أحدهم من الاحتفاظ بمركزه طويلا حتى تربع فى دستها رجل عصامى يسمى « اليازورى » (١٠٥٠ — ١٠٥٨) أراد إصلاح حال الفلاح وزيادة الايراد

اضطراب البلاد فحرم على المرابين شراء المحصولات من الفلاحين قبل حصادها بثمن بخس وادخر القمح اتقاء القحط ، ولكنه رغم ذلك لم يفلح لسوء الحال العامة . وكان اليازورى محباً للفنون مشجعاً للعلماء ومات مسموماً سنة ١٠٥٨

وبموت اليازورى تعاقب وزراء كثيرون لم يستقروا فى الحكم إلا قليلا لضعف الخليفة وتآمر من حوله من حاشية وجيش ، حتى عمت شكوى الرعية من كثرة التغيير والتبديل فى موظفى الحكومة المسئولين وزاد الطين بلة أن اشتد النزاع بين الجند السودانية والأتراك وتغلب الترك وطردوا أعداءهم الى الوجه القبلى فأصبح الصعيد كله فى قبضة السودانيين . واستولى الترك وحلفاؤهم من البربر بزعامة « ناصر الدولة بن حمدان » على الوجه البحرى وخربوه . وتوالى القحط سبع سنين لغاية ١٠٧٢ حتى بيع الرغيف بخمسة عشر ديناراً وأكل الناس الخيل والحمير والكلاب والقطط حتى أتوا على آخرها ، ثم انقلبوا يأكل بعضهم بعضاً وصار لحم الآدمى يباع فى الاسواق

ولما فنيت ثروة المستنصر — وكانت ثروة لم يسمع بمثلها — نهب الجند الاتراك قصره ونفائسه وبددو المكتبة الكبرى وكان فيها مايربو على ١٠٠ر٠٠٠ كتاب من أنفس الكتب فى جميع العلوم التى عرفها العرب

عصر الوزراء العظام

بدر الجمالى وقد ضاق الخليفة ذرعاً بمساوىء الجند ولاسيما الترك منهم فاستقدم « بدر الجمالى » حاكم عكا وكان أول أمره مملوكا أرمنياً ارتقى فى سلك الوظائف الكبرى حتى عين حاكما لجهات عدة — فحضر بجنده وأمرهم باغتيال زعماء الترك فى ليلة واحدة فاستراح العباد من شرهم سنة ١٠٧٤ ونزل الجمالى بشارع بيرجوان وأطلق الخليفة يده فى جميع الأمور فأخذ يعيد لقصر الخليفة كل ماعثر عليه من نفائسه السالفة ، ثم فتح البلاد من جديد وخلص الدلتا من يد البربر والصعيد من يد السودانية ، فاطمأن الفلاحون تحت حكمه العادل وعادوا لفلح أرضهم فكانت العشرون سنة الأخيرة من حكم المستنصر عهد أمن ورخاء . وقد بنى « بدر الجمالى » سوراً حول القاهرة وأزال الأبواب القديمة وبنى باب النصر وباب الفتوح سور القاهرة وباب زويله فى مواقع مختلفة من السور كما ترى الآن — بناها على نمط الحصون البوزنطية لما علم من مناعتها

ومات بدر الجمالى فى ربيع سنة ١٠٩٤ فى الثمانين من عمره وخلفه فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه ومات المستنصر فى السنة نفسها

وهنا يجدر بنا أن نلم بنظام الحكم فى مصر الفاطميين :

الجيش كان الجيش ذا طبقات عديدة أهمها طبقة الأمراء وضباط حرس

الخليفة يرئسهم الاساتذة ورجال الحرس وعددهم ٥٠٠٠ ، وكانت فرق الجيش كثيرة تسمى كل فرقة باسم الخليفة أو الوزير الذى أوجدها أو حسب جنسيتها كالحافظية والسودانية والرومية والصقلية ، وكان عدد الجيش يزيد وينقص من حين لآخر

الاسطول وكان أسطول الفاطميين مركباً من نحو خمس وسبعين سفينة حربية بلوازمها من النقالات وغيرها وموزعا على الاسكندرية ودمياط وعسقلان

الموظفون وكان الموظفون قسمين رجال السيف ورجال القلم ، أما رجال السيف فمنهم الوزير عادة والحاجب وهو يلى الوزير فى المرتبة وقائد الجيوش العام وحامل مظلة الخليفة وحامل سيفه وحامل رمحه وصاحبا شرطة القاهرة والفسطاط ثم خدم القصر

أما رجال القلم فمنهم الوزير أحياناً وقاضى القضاة ، وكان يشرف على ضرب النقود ويجلس للقضاء فى جامع عمرو يومى السبت والثلاثاء ومدير دار الحكمة والمحتسب وخازن بيت المال ، ويتبع رجال القلم صغار الموظفين فى مصالح الحكومة غير العسكرية

الاقاليم كانت مصر مقسمة الى أربعة أقسام كبرى الصعيد ويسمى إقليم قوص يقوم بأمره حاكم عظيم ، والشرقية وهى كل ما يلى فرع دمياط شرقاً وأهم مدنه بلبيس وقليوب ، والغربية وهى ما بين فرعى النيل وأهم مدنها المحلة ومنوف وابيار ، واسكندرية منضما اليها البحيرة . وكان حاكم كل إقليم يولى من قبله حكاما على النواحى والقرى ، وتقوم الحكومة المحلية بكل الاعمال التى تعنى الجهة بما فى ذلك الاحتفاظ بالترع والجسور المحلية ، أما الجسور العامة فكان يلاحظها موظف تنتخبه الحكومة العليا سنويا ويساعده عدد كبير من الخبراء

ولما مات بدر الجمالى والمستنصر سنة ١٠٩٤ لم يعد للخلفاء الفاطميين حول ولا قوة وأصبح الحكم فى مصر بيد وزراء متنازعين يريد كل منهم أن يصرف الامور كما يهوى لا يتقيد برغبة الخليفة . ولذا اهملت طريقة الوراثة فى الخلافة وصار كل وزير يختار من بين سلالة الفاطميين أصغرهم سناً أو أضعفهم إرادة ليملأ به عرش الخلفاء كلما خلا . فلنترك هؤلاء الخلفاء المستضعفين جانباً ولنأت على شىء من ذكر الوزراء الذين ساسوا البلاد إلى انقضاء دولة الفاطميين

خلف بدر الجمالى ابنه الأفضل شاهنشاه فسار سيرة أبيه بالعدل والحزم واستمرت الطمأنينة والرخاء . وكان شغله الشاغل إتقاء الخطر الذى يتهدد مصر من جانب الشرق حيث نزلت الحملة الصليبية الاولى فى سوريا وشرعت تنتزعها من يد السلاجقة والمصريين على السواء . وكانت سوريا بوجه عام تابعة لمصر من أيام ابن طولون ، لم تشذ عن حكمها إلا فى فترات يسيرة ، فلما استولى الصليبيون على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ من الجنود المصرية وتوغلوا فى جنوب فلسطين، حاول «الافضل» أن يصد غاراتهم فهاجمهم مراراً دون جدوى حتى تشجع « بلدوين » ملك بيت المقدس ودخل الحدود المصرية سنة ١١١٧ وأحرق «الفرما» وتقدم الى « تنيس » ولم يرجعه عن فتح مصر كلها إلا مرضه . ومن ذلك الوقت التزمت مصر خطة الدفاع عن نفسها وقتل « الافضل » بايعاز من الخليفة سنة ١١٢١ وبقيت مصر بعده فى فوضى لا تكاد سلطة الحكومة تمتد خارج قصر الخليفة حتى تولى الوزارة « طلائع بن رزيق » بلقب الملك الصالح سنة ١١٥٤ فضرب بيد من حديد على زعماء الفوضى وعاقب

الافضل شاهنشاه

طلائع بن رزيق

المجرمين وكانت مصر شديدة الحاجة الى رجل قوى مثله بعد أن فقدت عسقلان فى السنة السالفة وكانت عسقلان آخر حصن من فلسطين فى يد المصريين ، يتطلع ملوك بيت المقدس الى الاستيلاء عليه وتدافع عنه مصر بكل جهدها

طمع الصليبيين فى مصر

فلما استولى ملك بيت المقدس على عسقلان لم يبق أمامه ما يمنعه من غزو مصر ، اللهم إلا خوفه من أن ينقض السلطان « نور الدين محمود » صاحب حلب على مملكته أثناء تغيبه بمصر ، لاسيما حين دخلت دمشق فى حوزة نور الدين سنة ١١٥٤ بعد أن كان أميرها حليف الصليبيين

ومن ذلك الوقت تطلع كل من سلطان حلب وملك بيت المقدس الى منع الآخر من امتلاك مصر . وقد بذل « طلائع » كل ما فى وسعه لمحالفة نور الدين بقصد طرد الصليبيين من « سوريا » ولكن نور الدين لم يبت فى الامر فصرف «طلائع» همته الى توطيد دعائم الأمن فى مصر نفسها ، حيث عرف بقوة العارضة والكرم واستماع شكايات الرعية على اختلاف طبقاتها ومد يد المعونة الى ذوى الفطنة والعلم

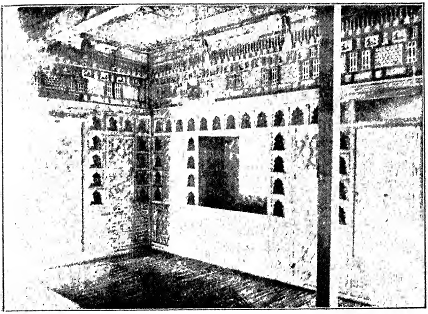
ولما قتل «طلائع» بدسائس القصر خلفه ابنه « العادل رزيق » . ولم تأت سنة ١١٦٣ حتى تغلب عليه « شاور » وقتله ، إلا أن « شاور » لم يتم سنة فى الوزارة حتى نازعه فيها « ضرغام » حاجب الخليفة . ففر «شاور» الى نور الدين واستنجد به وتعهد أن يقوم بجميع تكاليف الحملة اللازمة لعزل ضرغام من الوزارة ، ويدفع ثلث إيراد مصر جزية سنوية لنور الدين

أما « ضرغام » فلم يجد بداً من الاستعانة « بأمورى » ملك بيت المقدس ، فلما حضر هذا إلى مصر اضطر نور الدين الى ارسال حملة بقيادة

أسد الدين شيركوه تغلبت على ضرغام والصليبيين ونصبت شاور وزيراً
وما زال نور الدين وأمورى يتنازعان على مصر حتى انتهى الأمر بفوز نور الدين وصارت مركزا لدولة صلاح الدين الأيوبى كما تراه مفصلا فى الحروب الصليبية

ولمازالت دولة الأيوبيين سنة ١٢٥٠ أعقبهم مماليكهم البحرية الذين كانوا سبباً فى محو دولتهم وبقى الحكم وراثياً تارة ، وتارة يتولاه أقوى أمراء هؤلاء المماليك حتى استقر الملك ردحاً من الدهر فى أسرة قلاوون (١٢٧٩ — ١٣٨٢) . ولضعف السلاطين الأخرين من هذه الأسرة عظم شأن فئـة المماليك الشراكسة حتى استطاع أحدهم أن يعزل آخر خلفاء قلاوون ويتولى الملك باسم « الظاهر سيف الدين برقوق » المماليك البحرية المماليك الشراكسة

ولم يستطع أحد من المماليك الشراكسة أن يستقل بالسلطة عن زملائه تمام الاستقلال أو أن يورث أبناءه الملك ، بل استمروا يختلف أقوياؤهم على عرش مصر حتى انهزم آخر سلاطينهم « الغورى » و «طومان باى » أمام قوات السلطان العثمانى « سليم الأول » سنة ١٥١٧ ففقدت مصر استقلالها الذى تمتعت به طول العصور الوسطى ودخلت ضمن ولايات دولة الاتراك العثمانيين .



صورة حجرة بمنزل فى رشيد مأخوذة من دار الآثار

الفصل الرابع عشر

نشأة الاتراك العثمانيين

أصلهم

الاتراك العثمانيون — كأسلافهم الاتراك السلجوقيين، وكقبائل الهون الذين زحفوا على أوربا فى القرن الخامس — من الجنس المغولى أو التورانى ، ومهدهم الاصلى وسط آسيا وشمالها . وينتسب إلى هذا الجنس أيضاً قبائل البلغار الذين زحفوا على شرق أوربا واستوطنوه أثناء القرنين السابع والتاسع

أول ظهورهم فى التاريخ

والاتراك العثمانيون آخر القبائل الاسيوية التى زحفت على أوربا واستوطنتها ، وأهم وأثبت الدول المغولية التى ظهرت فى التاريخ (١)

ولقد بدأ تاريخ العثمانيين بحادثة روائية جليلة الشأن ، وتدل على ما فى أخلاقهم من الشهامة والبطولة . ففى منتصف القرن الثالث عشر كانت قبيلة صغيرة من قبائل وسط آسيا — التى اكتسحها المغول —

---

(١) ظهور المغول فى التاريخ كأمة حاكمة كان فى القرن الحادى عشر . وأول زعيم عظيم لهم هو « جنكزخان » (١٢٠٦ — ١٢٢٧) ، ويعد من أشد وأقسى القواد الذين روى التاريخ أخبارهم . فقد اكتسحت جموعه شمال الصين وتركستان والفرس وروسيا ودمرت كل ما وقع تحت نظرها وامتد سلطان المغول بعد موته الى وسط أوربا . وقضى حفيده « هولاكو » على الخلافة العباسية ١٢٥٨

ومن أهم خلفائه « قبلاى خان » (١٢٥٩ — ١٢٩٤) الذى اتخذ « بكين » عاصمة له ، وجاءت اليه الوفود والسفراء من كل الانحاء . الا أن دولته اضمحلت بعد موته .

وجاء « تيمورلنك » (١٣٦٩ — ١٤٠٥) فوحد الدولة من جديد . واتخذ « سمرقند » عاصمة له . وكان يريد اخضاع جميع العالم لسلطته . لكن دولته انقرضت بعد موته . ولم يبق لها أثر الا فى الهند حيث أسس « بابر » وهو من نسل تيمورلنك — سنة ١٥٢٥ دولة المغول العظيمة التى خلفت فيها أبدع الآثار واستمرت الى أن قضى عليها الانجليز فى القرن الثامن عشر

تجول بقيادة رئيسها « أرطغرل » فى آسيا الصغرى قرب أنقره، إذ رأت جيشين يقتتلان فى معركة قد حمى وطيسها ، فما كان من رجال هذه القبيلة الصغيرة الا أن اقتحموا ميدان القتال ، مدفوعين بغريزتهم الحربية آخذين جانب الضعيف من المتحاربين ، فدارت الدائرة على الاقوياء وانتصر « أرطغرل » وحلفاؤه الضعاف

ولشد ما دهش « أرطغرل » ورجاله عند ما علموا أنهم ما نزلوا الا لمساعدة بنى قرابتهم — الاتراك السلاجقة — ضد جموع المغول المغيرين على سلطنة « قونية » ومليكها إذ ذاك « السلطان علاء الدين »

جزاء الشهامة

وقد كافأ علاء الدين تلك القبيلة الصغيرة على صنيعها الجميل بأن أقطعها جزءاً من مملكته قرب « بروسة » — تلك القبيلة الصغيرة هى أصل الاتراك العثمانيين ، ورئيسها « أرطغرل » هذا هو والد عثمان الذى سميت باسمه الأمة والدولة

عثمان

ولما مات « أرطغرل » ١٢٨٨ ، خلفه ابنه الاكبر عثمان وأبدى شجاعة عظيمة فى التغلب على القبائل والقلاع المجاورة له والتى كانت بأيدى الروم . وكان جزاؤه أن رقاه السلطان « علاء الدين » إلى رتبة الامراء وجعله حاكما مستقلا فى جميع الاراضى التى فتحها

استقلاله

وفى عام ١٣٠٠ أغار المغول على دولة السلاجقة بآسيا الصغرى فقضوا عليها ، وتوفى السلطان علاء الدين ، واستقل كل أمير بمقاطعته واصبح عثمان مستقلا تمام الاستقلال فى إمارته ، فجعل يوسع أملاكه رويداً رويداً حتى سمع بفتح « بروسة » وهو على فراش الموت

وقد اهتم عثمان بتنظيم جيشه وحكومته ، فكبر اسمه وعظم شأن دولته وطار صيت آل عثمان بين الأمراء . لذلك كله اعتبر عثمان المؤسس الأول لدولة آل عثمان ولهذا أيضاً انتسبت اليه الدولة والأمة

وفى سنة ١٣٢٦ مات عثمان وخلفه ابنه « أورخان » الذى تدرب على أعمال الحرب والحكم فى عهد أبيه . وكان « أورخان » عالى الهمة شجاعاً ، فواصل الحرب حتى استولى على بروسة واتخذها مقراً للدولة الحديثة وبذلك اقترب آل عثمان من القسطنطينية مقر الدولة البوزنطية. أورخان

ولم يكن بد من استمرار الحرب بين حكومتين إحداهما فتية قوية تريد أن توسع سلطانها والاخرى هرمة آخذة فى الاضمحلال،فاستولى أورخان على أزميد. ولكن قبل أن يتمكن العثمانيون من الوصول الى القسطنطينية رأى أورخان ضرورة القيام بعدة إصلاحات كان لها أثر مباشر فى الانتصارات التى كسبها العثمانيون بآسيا الصغرى أولا ثم فى أوربا

وأهم الاصلاحات فى عهد أورخان تنظيمه للجيش وإنشاء فرقة الانكشارية ومعناها الجيش الجديد . وقد كان الجيش فى أول الأمر عبارة عن عدد من الفرسان يجتمعون وقت الحرب من غير نظام أو معرفة ثم ينصرفون بعد الموقعة ، فعول أورخان على أن يكون جيشه ثابتاً ووضع نظاماً خاصاً لتدريب الجند وأشار عليه أحد وزرائه بتكوين فرقة من الشبان الاسرى من أبناء المسيحيين يجمعونهم ويفصلونهم عن كل ما يذكرهم بوسطهم الأول فينشأون على حب الدين الاسلامى والوطنية العثمانية ، لا يعرفون سوى السلطان أباً والحروب والجهاد ديدناً. بدء الانكشارية

ولما كانوا مقطوعين عن الاهالى صار لا يخشى من عصبيتهم أو تحزبهم

فأعجب السلطان بهذا المشروع وأمر بتنفيذه وبذلك نشأت طائفة من أقوى الطوائف العسكرية التى ظهرت فى التاريخ . وبعد ظهورها من أهم العوامل التى ساعدت الدولة على فتوحها العظيمة فى أوربا والشرق . ولما كان مجال الرقى مفتوحاً أمام أفراد هذه الطائفة استبسل الجميع فى الحروب وخاضوا غمارها مضحين بكل شىء الا الشرف .وكان السلطان يجمع لهذه الفرقة



جندى انكشارى

ألفاً من أبناء المسيحيين كل سنة . ولما وقفت الفتوح فرضتها الحكومة جزية على المسيحيين من رعاياها واستمرت هذه الطائفة عوناً للسلطان والحكومة مدة ثلاثة قرون وصل فيها أفرادها الى أرقى الدرجات [1]

اصلاحاته الداخلية

ومن اصلاحات أورخان أنه ولى أخاه الاكبر « علاء الدين » الوزارة وأمر بسك العملة وأسس المدارس والتكايا . ولما مات علاء الدين خلفه فى الوزارة أكبر أولاد أورخان وهو « سليمان » وعهد اليه السلطان فى كثير من الحروب فاجتاز سليمان باشا مضيق الدردنيل سنة ١٣٥٥ ومعه عددمن

أول فتح فى أوربا

(١) لما ضعفت الحكومة المركزية فى القرن الثامن عشر استأثر ضباط الانكشارية بالسلطة وأساؤا التصرف وكانوا سبباً فى وقوع كثير من القلاقل والاضطرابات واستمروا فى شغب وتمرد حتى قضى عليهم السلطان محمود الثانى سنة ١٨٢٦

أقوى جنوده ، حتى اذا وصلوا الى الشاطىء الأوربى أخذوا ما كان به من قوارب وعادوا تحت جنح الظلام ، ونقلوا عليها جيشهم وكان يبلغ ثلاثين ألفاً فتمكنوا من احتلال « غاليبولى » وبعض مدن أخرى كانت مبدأ فتوح العثمانيين فى أوربا

وفى سنة ١٣٥٩ مات سليمان باشا ولى العهد فحزن عليه أورخان حزناً مفرطاً ولم يعمر بعده سوى سنة ، وتولى بعده ابنه مراد الأول مراد الاول

وواصل مراد الفتوح كأسلافه وكانت فاتحة أعماله أن استولى على فتح أنقره « أنقرة » مقر سلطنة بعض أمراء السلاجقة الذين مافتئوا مستقلين فى آسيا الصغرى والذين مالبثوا أن اندمجوا تدريجاً فى دولة العثمانيين . أما على الساحل الأوربى ففتح مراد مدناً مهمة أولها « أدرنة » سنة ١٣٦١ التى نقل العاصمة نقل اليها عاصمته لحصانة موقعها ولقربها من الميدان الأوربى . وفتح أيضاً « فلبة » وغيرها من المدن وبذلك أحاط العثمانيون بالقسطنطينية وحالوا دون اتصالها بالممالك المسيحية الأخرى فى البلقان ولما عظم اتصال أملاك الترك بالساحل الأوربى رأى السلطان مراد ضرورة العناية ببناء بعض بدء الاسطول السفن الصغيرة فى بحر مرمرة وبذا تكونت نواة القوة البحرية العثمانية

ولما رأى المسيحيون ازدياد قوة العثمانيين فى أوربا هالهم الأمر وخشوا حلف أوربا أن يكتسح الترك شرق أوربا فأجمعوا أمرهم وتكون حلف من ملوك الصرب والبلغار والمجر وكاتبوا البابا وطلبوا اليه أن تساعدهم أوربا ضد تقدم الاتراك وسار جيش الحلفاء قاصداً « أدرنة » فارتدوا عنها خاسرين . وتقدم الاتراك غرباً يضمون أراضى البلغار ثم الصرب وتقابل الجيشان فى سهول « قوصوه » سنة ١٣٨٩ حيث قامت معركة هائلة من أشهر معارك معركة قوصو

التاريخ دافع فيها الصربيون ومن تطوع لمساعدتهم من أهل أوربا دفاع الابطال واستمرت الحرب سجالا بين الجانبين مدة من الزمن الى أن ضعفت مقاومة الحلفاء أمام هجمات الاتراك فانهزم الصرب وقتل ملكهم وكانت نتيجة هذه الموقعة أن فقدت الصرب والبلغار استقلالهما ومات كثير من أمراء وأعيان أوربا

وبينما كان السلطان مراد يتفقد ميدان الحرب بعد الموقعة قام جندى من بين القتلى وطعنه بخنجره فخر صريعاً ومات لوقته ، بعد أن وصلت حدود دولته فى أوربا الى شواطىء نهر الطونة

الصاعقة

وخلفه السلطان «بايزيد الأول» الملقب «بالصاعقة» وكان كأسلافه على جانب عظيم من الشجاعة والاقدام والمهارة الحربية ، بدأ أعماله بأن أمن جانب الصرب الذين أظهروا فى حروبهم وفى سبيل صيانة استقلالهم استبسالا واستماتة خليقين بالاعجاب ، فعين «اطفان» بن «لازار» الملك المقتول ملكا مستقلا على صربيا يحكم البلاد حسب قوانينها وعاداتها بشرط دفع الجزية وتقديم عدد معين من الجنود يشترك مع العثمانيين فى حروبهم . وتأييداً لهذا الاتفاق قبل السلطان أن يتزوج بأخت الملك اسطفان

استرضاء الصرب

رد الأوربيين

ثم اهتم بتوطيد السلم فى آسيا الصغرى حيث لم يزل بقايا آل سلجوق يثورون ضد الدولة من حين لآخر ، فضم كثيراً من مدنهم وأملاكهم ، ثم عاد الى أوربا فواصل الفتح فيها فاحتل « سلانيك » وحاصر القسطنطينية ، ثم بلغه أن أوربا كونت حلفاً جديداً اشترك فيه عدد عظيم من فرسان المجر وبولندة وفرنسا وألمانيا برياسة «سنجسمند

Sigismond » ملك المجر ، فسار اليهم السلطان بايزيد وأدركهم يحاصرون « نيقوبوليس » فانقض عليهم بايزيد وأوقع بهم شر هزيمة سنة ١٣٩٦ . وأخذ بايزيد بعد هذا النصر المبين يخترق بلاد مقدونيا واليونان ويفتح المدن ، وبينما هو يستعد لفتح القسطنطينية إذ وصل اليه خبر هجوم المغول أو التتار على آسيا الصغرى بقيادة الطاغية « تيمورلنك » أى تيمور الاعرج ، فجمع جيوشه وتقابل الجيشان فى سهل أنقرة سنة ١٤٠٢ ، ولما بدأت المعركة انحاز عدد كبير من جنود بايزيد الاسيوية الى أمرائهم الاصليين الذين انضموا الى تيمور بعد أن استولى العثمانيون على بلادهم ، لذلك ضعف جانب العثمانيين فى الموقعة ودارت الدائرة على بايزيد فوقع أسيراً هو وابنه وانكسر العثمانيون شر انكسار . أما بايزيد فمات فى الأسر كمداً سنة ١٤٠٣ ، وسمح تيمور بنقل رفاته الى بروسة ليدفن بجانب أجداده . وهذا يدل على أن تيمور كان يكرم بايزيد

نيقوبوليس

هجوم المغول

هزيمة انقرة

وقد كادت هزيمة أنقرة تفضى الى زوال دولة العثمانيين لولا تجزؤ دولة المغول على أثر موت تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وهو فى طريقه الى الصين

الانقسام

وقد تجزأت الدولة بعد بايزيد وعاد أمراء آل سلجوق الى إماراتهم كما استقل الصرب والبلغار والافلاق . وقد زاد حرج الحالة أن أبناء بايزيد تنازعوا فيما بينهم على العرش واستمرت الحروب بينهم الى أن تغلب « محمد الأول » (١٤١٣ — ١٤٢١) فوحد الدولة من جديد وقمع الفتن وقضى على الفوضى والثورات واسترد جميع ما كان للدولة قبل واقعة أنقرة ، وعقد المعاهدات مع أمبراطور القسطنطينية والامراء

لم الشعب

المسيحيين ، ليتفرغ إلى توطيد دعائم الدولة فى الداخل . وبينما هو مجد فى ذلك فاجأته المنية عام ١٤٢١ فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وخلفه ابنه «مراد الثانى» (١٤٢١ — ١٤٥١) فسار وفق الخطة التى ورثها عن أجداده

القضاء على الفتنة

وهى العمل على توسيع رقعة الدولة ومواصلة الفتوح فى أوربا . وكان امبراطور القسطنطينية قد اتفق مع مصطفى ابن مراد الأول أحد المطالبين بالعرش ، فزوده بالسفن والجيوش وسيره لمقاتلة أخيه فانحاز جنوده الى مراد الثانى وقبض على مصطفى وقتل .

وأراد مراد أن ينتقم من امبراطور القسطنطينية فأعد جيشاً عظيما وحاصر المدينة عام ١٤٢١ وبعد قتال عنيف ارتد عنها العثمانيون لمقاتلة بعض أمراء آسيا الصغرى حيث انتصر مراد واستأنف فتوحه فى أوربا ،

هنياد

فقام المجر بجمع جيش أوربى عظيم بقيادة القائد المجرى « هنياد » فسار الجيش مخترقاً بلاد البلقان حتى وصل الى «ورنة» على ساحل البحر الاسود سنة ١٤٤٤ فانتصر العثمانيون انتصاراً باهرا وقتل «لادسلاس Ladislas» ملك المجر وبولونيه . ومات مراد سنة ١٤٥١ بعد أن ثبت حكم الأتراك فى أوربا . ولم يقف فى طريقه سوى اسكندر بك زعيم البانيا الذى أحسن الدفاع عن بلاده وساعدته حصانتها ووعرة مسالكها

وخلفه ابنه محمد الثانى أو الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) وهو الذى أحرز أعظم نصر بفتحه القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، و بذلك قضى على الدولة الرومانية الشرقية التى صارت تعرف بالدولة البوزنطية أو الاغريقية بعد أن عاشت عشرة قرون بعد سقوط رومة فى الغرب

وقبل أن نختم الكلام عن نشأة الترك يجدر بنا أن نعرف شيئاً

عن أسباب ضعف الدولة البوزنطية وعن الخدمات التى قامت بها نحو أوربا .

خدمات الدولة الشرقية لأوربا

أما خدماتها فانها بطبيعة موقعها وقفت تحرس أوربا وتصونها من خطر هجوم الشعوب الشرقية كالفرس والعرب والسلاجقة ، وبعملها هذا ساعدت الممالك الحديثة على المضى فى سبيل تكوينها السياسى والدستورى . ومن خدماتها للمدنية والعلم أنها فى الوقت الذى عمت فيه الجهالة فى أوربا كانت عاصمتها العظيمة مركزاً حصيناً لمختلف العلوم والفنون وفيها احتفظ بالكنوز الادبية التى خلفها الاغريق والرومان القدماء . ومن خدماتها أيضاً أنها مدينت القبائل الصقلبية التى نزلت بالبلقان ووسط أوربا ونشرت بينهم المذهب الارثوذكسى . وهذا هو سبب ارتباط الشعوب الصقلبية ببعضها ذلك الارتباط المتين

الشعوب الصقلبية

والشعوب الصقلبية بأوروبا قسمان . القسم الشمالى ويشمل البولونيين سكان بولونيــة أو بولندة ، والتشك فى بوهيميا وهؤلاء قد تحولوا فى القرن العاشر إلى المسيحية بواسطة مرسلين من الغرب فكان مذهبهم الكاثوليكى لا الارثوذكسى . أما صقالبة الجنوب فمنهم الصرب الذين نزلوا بالبلقان فى القرن السابع وتحولوا الى المذهب الارثوذكسى فى القرن التاسع وأسسوا دولة عظيمة برياسة ملكهم «دوشان» (١٣٣١ — ١٣٥٥) ومع أن هذه الدولة تجزأت عقب موته فانها قاومت العثمانيين طويلا كما رأينا . ومنهم أهل البوسنة أو البشناق والهرسك والجبل الاسود

الشعوب المغولية

أما البلغار فمن الجنس المغولى كالاتراك نزلوا بالبلقان فى القرن السابع وتحولوا إلى المذهب الارثوذكسى كالصقالبة والمجر كذلك من

الجنس المغولى نزلوا فى أوربا فى القرن التاسع ولكنهم اعتنقوا المذهب الكاثوليكى . وقد اختاروا عليهم ملكا من الأسرة الحاكمة فى فرنسا فى القرن الرابع عشر (١٣٠٨) فأدخل فيها المدنية الغربية . وقد قاموا بدور عظيم فى مكافحة الاتراك وخاصة بعد سقوط القسطنطينية .

أسباب ضعف الدولة

أما أسباب ضعف الدولة البوزنطية فتتلخص فيما يأتى : —

(١) ظهور دول شرقية فتية قوية كالفرس والعرب أخذت من الدولة معظم أملاكها فى الشرق وجعلت سلطانها قاصراً على شبه جزيرة البلقان وبذلك قلت موارد ثروتها

(٢) ظهور الشعوب الصقلبية فى البلقان وتكوينهم ممالك كثيراً ما شنت الغارة على الدولة وحاولت الاستيلاء على القسطنطينية نفسها

(٣) كان استيلاء الصليبيين على أملاك الدولة كما بينا فى الحرب الصليبية الرابعة سبباً لتجزئة أملاك الدولة وإيجاد الشحناء والاضطرابات الداخلية

(٤) انقسام الآراء الدينية داخل البلاد وخاصة فى القسطنطينية فقسم الأشراف كان يرى ضم الكنيسة إلى بابا رومة حتى تنتفع البلاد بمساعدة البابا وملوك أوربا ضد غارة الأتراك ، وقسم الشعب يرى وجوب استقلال الكنيسة الارثوذكسية . أضف إلى هذه الاسباب التنازع على الملك وانتشار الوباء المعروف « بالموت الاسود » الذى ظهر فى شرق أوربا سنة ١٣٤٧ وفتك بالناس فتكا ذريعاً مما أثر فى تجنيد الجيوش وجمعها .

فتح القسطنطينية

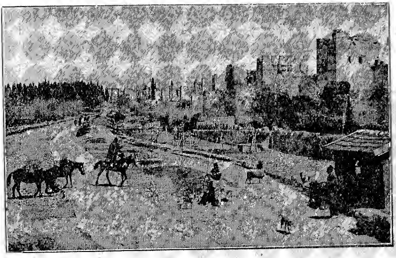
غير أن من أهم العوامل التى أدت الى سقوط الدولة البوزنطية ظهور الترك وتضييقهم الخناق على الدولة من كل جهة حتى صارت فى آخر أمرها قاصرة على مدينة القسطنطينية وما حولها . ولما استعد السلطان محمد الثانى للحرب الحاسمة بينه وبين البوزنطيين حاصر القسطنطينية براً وبحراً فكان جيشه يبلغ ٢٥٠٠٠٠ وأما السفن فعددها ٨٠ سفينة وأقام حول أسوار المدينة عدداً من المدافع الضخمة التى كانت تقذف كرات عظيمة من الحجر الى مسافات بعيدة وكانت القسطنطينية فى غاية المنعة من الاسوار والبروج الحصار

وكان امبراطور القسطنطينية « قسطنطين باليولوغس » آخر الاباطرة رجلا شجاعا وطد عزمه على أن يموت فى سبيل الدفاع عن عاصمته ، فاستنجد بأوربا فلم تلب الدعوة سوى جمهورية جنوة إذ أرسلت عدداً من السفن عليها بضعة آلاف من الجنود ولما رأى السلطان دخول الميناء متعذراً لوجود سلاسل ضخمة على باب الميناء المعروف « بالقرن الذهبى » تحول دون دخول السفن ، فكر فى طريقة تغنيه عن اقتحام الميناء من جهة السلسلة وذلك بأن يصنع طريقاً من الخشب تنزلق عليه السفن على البر حتى تصل الى القرن الذهبى وفعلا وجد المحصورون أنفسهم فى صبيحة ذات يوم أمام سبعين سفينة كانت قد انزلقت الى الميناء تحت جنح الظلام واستمر الحصار أكثر من خمسين يوماً أظهر فيها الجانبان بسالة نادرة . تسيير السفن على اليابس

وقد قتل قسطنطين بينما كان يدافع بنفسه على أسوار المدينة وفى ٢١ مايو

١٤٥٣ هجم الاتراك هجومهم الأخير فتسلقوا الاسوار ودخلوا المدينة وأعملوا السيف فيمن اعترض طريقهم واحتلوا سراى الامبراطور ودخلوا كنيسة « القديسة صوفيا » وكان جمهور المسيحيين واقفاً فى الميدان ينتظر نزول ملاك من السماء ينقذ المدينة فى الساعة الاخيرة ، فقتل العثمانيون منهم وأسروا

تأمين السكان — ولما دخل السلطان المدينة أبطل النهب والسلب ودخل كنيسة القديسة صوفيا وحولها الى مسجد جامع للمسلمين كما حول بعض كنائس



أسوار القسطنطينية .

أخرى بالمدينة ، وترك الكنائس الباقية للمسيحيين وأعلن الاهالى أنه لا يعارضهم فى إقامة شعائرهم الدينية وأنه يضمن لهم حرية دينهم وأملا كهم ودعاهم الى انتخاب بطريق لهم تكون له ولاساقفته السلطة القانونية التامة فى جميع قضايا المسيحيين المدنية والجنائية وهذه المنح تدل على مقدار ما أظهره الاتراك من التسامح مع رعاياهم من المسيحيين

اقامة البطريق

ويعتبر المؤرخون سقوط القسطنطينية فى أيدى الترك من الحوادث العالمية التى تدل على نهاية عهد وبدء عهد جديد ، وذلك لعظم أهمية القسطنطينية من جهة ، وللنهضة العلمية التى أحدثها علماء الاغريق وذيوع الادبيات الاغريقية القديمة بفضل هجرة بعض علماء الاغريق على أثر تهديد الاتراك القسطنطينية

بقية أعمال محمد الفاتح

وقد واصل محمد الثانى فتوحه بعد سقوط القسطنطينية فأخضع معظم شبه جزيرة الموره : وتم له إخضاع البوسنة والصرب والبانيا والقرم . ولم يقف أمامه سوى « هنياد » القائد المجرى وأمير ترانسلوانيا الذى صده عن بلغراد عام ١٤٥٦ . وقد حاول فتح ايطاليا فلم يوفق إلا لاحتلال «أترَنتو» عام ١٨٤٠

ثم مات سنة ١٤٨١ وخلفه ابنه « بايزيد » الثانى ١٤٨١ — ١٥١٢ وكان ضعيفاً فثار عليه أخوه الاصغر ، وبدأ الانكشارية يدخلون فى سياسة الدولة حتى أرغموا بايزيد على النزول عن العرش . وأعلن ابنه سليم الأول ١٥١٢ — ١٥٢٠ الذى هاجم فارس وفتح مصر وضمها للدولة عام ١٥١٧ ، ونزل له الخليفة العباسى بمصر عن لقب الخلافة فأصبحت له ولمن جاء بعده من سلاطين آل عثمان الزعامة الدينية والادبية فى العالم الاسلامي الشرقى ، وقد بلغت الدولة منتهى قوتها فى عهد سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) وبدأت تركيا تدخل فى السياسة الأوربية العامة وتأخذ مكانها بين الدول

الفصل الثامن عشر

حضارة العصور الوسطى فى أوربا

يمكن تقسيم العصور الوسطى بوجه عام الى قسمين

القسم الأول يبتدىء من سقوط الدولة الرومانية الغربية الى القرن العاشر وتعرف هذه المدة بالعصور المظلمة ، لانها كانت عصر جهل وفوضى لم تستقر فى غضونها القبائل المتبربرة فى مكان واحد ولم تقم حكومات مركزية قوية ، بل كانت السلطة العليا ضعيفة والحروب الداخلية لا تخمد نارها

وأما القسم الثانى فيبدأ بالقرن الحادى عشر وينتهى بظهور معالم النهضة الأوربية وفيه ظهرت بوادر الرقى على أثر قيام الحروب الصليبية فتكونت المدن واشتد ساعد الملوك ونشأت القوميات الأوربية المختلفة بعد أن اضمحلت قوة الاقطاع وانحط شأن البابوية وفى هذا العصر ظهرت الجامعات ونبتت فكرة البحث العلمى الحديث

الحالة الاجتماعية

لما بدأت غارات المتبربرين أخذت المدن التى كانت عامرة زاهرة فى طول الامبراطورية وعرضها تضعف تدريجاً وتفقد أهميتها بسبب الفوضى التى عمت البلاد فنقص عمرانها جميعاً وعفت آثار أكثرها وصارت المعيشة فى الارياف هى السائدة

وكان مركز الحياة الاجتماعية « ضيعة » السيد حيث يقيم الشريف أو

الاسقف أو رئيس الدير وكانت الضيعة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها مستقلة عن بقية العالم تنتج كل ماتحتاج اليه من مأكل وملبس ومسكن ، ولما كان أهل كل ضيعة يتعاملون بطريق المبادلة ويدفعون الضرائب من نفس محصولهم لم تدع الضرورة الى كثرة النقد.

وقد ولدت العزلة عن العالم شعور الأخاء بين أهل الضيعة الواحدة وقوى فيهم هذا الروح اجتماعهم فى كنيسة واحدة وتبعيتهم لسيد واحد واشتراكهم فى الحضور بمحكمة الضيعة حيث يفصلون فى القضايا ويفضون المشاكل باشراف السيد أو نائبه

طبقات المجتمع

الملوك (١) لم يكن الملوك يتميزون عن عظماء الاشراف بغير اللقب فلم يكن للملك إيراد ثابت ولا جيش دائم . إذا كان اعتماده فى كل ذلك على مايمده به اتباعه وكثيراً ما كان يوجد بين أتباع الملك من هم أكثر منه ثروة وأعز نفراً ، لايترددون فى محاربته وانتقاص أملاكه وكسر شوكته

الاشراف (٢) كان كل شريف مستقلا فى قطيعته يتصرف فيها كيف شاء ، بيده حق الادارة والقضاء والتجنيد وسك العملة ، يقضى وقته فى الصيد والحروب التى يثيرها على جيرانه أو اتباعه ويعيش فى قصر حصين مشيد فى الغالب على جبل أو تل يحيط به خندق واسع لايسهل عبوره إلا بواسطة قنطرة متحركة يخفرها فرسان مدججون بالسلاح ، وفى قمة القصر برج للدفاع عنه إذا هاجمه عدو وفى الطبقات السفلى منه مخازن لحفظ

المؤن والذخائر وكل مايحتاج اليه أهل القصر من مأكل ومشرب وعدة حتى لا يؤخذوا على غرة إذا هم حوصروا ، وكذلك كان بهذه الطبقات كهوف ضيقة مظلمة أعدت لحبس المجرمين أو الاسرى والاعداء ، وفى أحد أبهاء القصر كان الشريف يعقد محكمته بحضور أتباعه ويولم الولائم أيام الاعياد والافراح



ملابس سيد في القرن الخامس عشر

الفرسان (٣) كان للفروسية عهد يربط أفراد هذه الطبقة على تباين درجاتهم وجنسياتهم ولا يعد فارساً إلا من يملك إيراداً سنويا معيناً وجواداً مطهماً وما لا يستغنى عنه الفارس من دروع ورماح وأسياف ، وكانوا ينشأون فى خدمة الاشراف حتى ينالوا لقب الفروسية فيقضوا معظم وقتهم فى الحروب والنزال

الرقيق (٤) كان السواد الأعظم من القائمين بفلح الأرض وغيره من الاعمال من طبقة رقيق الاراضى وكانوا مرتبطين بالارض وملزمين بالعمل فى أرض السيد الخاصة نحو نصف الاسبوع، ويزرع كل منهم قطعاً صغيرة مبعثرة فى أنحاء الضيعة يمنحه الشريف اياها ويتقاضى عنها جزءاً معيناً مما تنتجه

وكانت حال هذه الطبقة فى منتهى البؤس يعيشون فى أكواخ حقيرة من غرفة واحدة لا يدخلها الهواء والنور إلا من نافذة صغيرة ، هى أيضاً المخرج الوحيد للدخان ولا يكاد يوجد بها من الاثاث أكثر مما نراه اليوم عند فقراء الفلاحين في بلادنا



ملابس سيدة فى القرن الخامس عشر



ملابس سيدة فى القرن التاسع

وقد بقى رقيق الأراضى على حالهم هذه حتى حدثت الحروب الصليبية ونشطت حركة التجارة وزاد النقد واستطاع الارقاء أن يبيعوا ما يزيد عن حاجاتهم فى أسواق المدن المجاورة ، فلما أحسوا بما يعود عليهم

من هذه الارباح رغبوا فى الاتفاق مع السيد على أداء مبلغ معين بدل ما يقومون له به من الخدمات حتى يتفرغوا لاعمالهم الخاصة و بدأ نظام الرقيق يتلاشى فى القرن الثانى عشر وإن بقيت آثاره فى بعض الممالك الى القرن الثامن عشر بل التاسع عشر

المدن

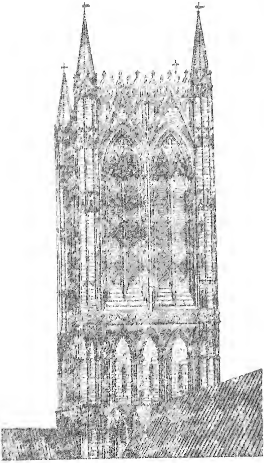
كانت المدن عند اليونان والرومان مركز الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية بل والسياسية . ولا تزال المدن فى عصرنا منبعث هـذه القوى وعماد الدول ولا تقوم الحياة الريفية نفسها بدونها. وقد بدأت تظهر المدن بكثرة فى العصور الوسطى من أول القرن الحادى عشر ، تتألف حول

ضيعة السيد أو حول حصنه أو قرب دير كبير . ولما كان الدافع الأول لتكوين المدينة حماية أهلها واللاجئين اليها من غارات الاعداء دعت الحاجة إلى إحاطتها باسوار تكون درعا لها . ولهذا السبب أيضاً كانت بيوتها متقاربة وأزقتها ضيقة على عكس ما كانت عليه المدن الرومانية من السعة والعظمة فجاءت مدن العصور الوسطى خلواً من المبانى العامة كالحمامات والمدرجات والميادين واقتصر على فضاء صغير تعقد فيـه السوق . ولم تستطع المدن أن ترقى إلا بعد أن تحررت من تبعيتها للسيد وأقامت من أهلها حكومة محلية موافقة لمصالحهم وأفكارهم.

بناؤها

ومن مميزات المدينة تشييد برج شاهق يوضع فيـه ناقوس كبير ويقوم رجال بحراسته ليل نهار يدقونه ساعة الخطر ، وكان البرج يعد رمزاً لاستقلال المدينة : وبدأ أكثر المدن يقيم منذ القرن الرابع عشر قصوراً للبلدية وتعقد فيها الاجتماعات العامة ولا يزال السياح يؤمون

هذه القصور كما يؤمون الكنائس الجامعة التى بقيت من آثار المدن
فى تلك الايام



برج كتدرائية لنكلن بانجلترا

النقابات

وتحت إشراف نقابة التجار والصناع التى قامت المدينة على كاهلها
نمت نقابات فرعية عدة لكل صناعة نقابة واجبها حماية أفراد المهنة وحرمان
غير الاعضاء الاشتغال بها ، فكانت النقابة تحدد عدد من يلحقون بها
وسنى التمرين فى حرفتها الخاصة وعدد « الصبيان » الذين يباح لكل
« معلم » قبولهم ، كما كانت تحدد ساعات العمل وأسعار السلع فى الاسواق

وقد أدت هذه النقابات للمدن خدمات قيمة فى عصر سادت فيه الفوضى واشتد ساعد الاشراف فهى التي حمت حرية المدينة من عبث الامراء والاشراف المشاغبين



بلدية بروج فى بلجيكا

التجارة

لما اضمحلت الدولة الرومانية قلت العناية بالطرق التى كانت شرايين التجارة من أقصى الدولة الى أقصاها واضطرب الامن بسبب توغل المتبربرين فى انحاء الدولة فكسدت التجارة والصناعة، فلما زالت الدولة

الرومانية العالمية وحلت محلها إمارات ضئيلة محلية واكتفت كل بما تنتجه أهملت الطرق نهائياً ووقفت حركة التبادل وقل النقد. أما فى ايطاليا مدن ايط
فلم تنعدم التجارة جملة بل بقيت فيها مدن كالبندقية وجنوه تقوم بجزء من تجارة البحر الأبيض المتوسط، وقد رأينا هذه المدن تقدم للصليبيين والحجاج مايحتاجون اليه من سفن ومؤن تكفل لهم الوصول الى الاراضى المقدسة ومنها يعود تجار هذه المدن محملين بنفائس الشرق نفائس الش
وسرعان ماأقاموا محطات تجارية على سواحل بحر المشرق واتصلوا بتجار القوافل الذين كانوا يجلبون السلع النادرة من بلاد العرب والهند والصين

ومما زاد نشاط التجارة فى جنوب أوربا عامة وإيطاليا وجنوب فرنسا خاصة وجود العرب فى شمال أفريقية وفى الاندلس وصقلية. ومن الجنوب سرت التجارة إلى بقية أوربا فجمل التجار يعرضون نفائس الشرق فى الاسواق، فحركت رغبة الاهلين فى الحصول عليها ودعاهم هذا إلى أن ينتجوا فوق ما يحتاج اليه مجتمعهم الصغير ليبيعوا الزائد ويشتروا بثمنه تلك النفائس الجذابة من منسوجات حريرية وأبسطة قيمة وأعطار نادرة وآنية من الصين وتوابل من جزر الهند الشرقية

ولما وصلت هذه المصنوعات الى أيدى الغربيين حاولوا تقليدها فقامت صناعة الحرير والزجاج والمخمل واستعملت الأصباغ الشرقية وبدأت المدن الفلمنكية بتصدير المنسوجات الصوفية الى الشرق وما جاء القرن الثالث عشر حتى تكونت مراكز مهمة للتجارة مثل همبرج ولوبك وبريمن فى شمال ألمانيا ومثل نورمبرج وأجزبرج فى جنوبها وعلى الطريق التجارى بين إيطاليا والشمال ومثل غنت وبروج فى الأراضى المنخفضة

قيود التجارة فى العصور الوسطى

ولم تكن التجارة فى تلك العصور حرة كما هى الآن، بل كان المتعارف أن لكل سلعة ثمناً عادلا هو ثمن المواد الغفل وتكاليفها وأتعاب صانعها من غير نظر إلى قانون العرض والطلب ، ولهذا كان كل منتج ملزما أن يبيع سلعة للمستهلك مباشرة دون وساطة تاجر الجملة

ولا يقل عن هذا التقييد اعتقاد الناس أنه لايجوز أخذ ربح على النقود المسلفة وأن هذا يعد ربا، وقد حرمته الكنيسة فى العصور الوسطى تحريماً باتاً فامتنع المسيحيون من التعامل بالربا ، ولما كان قرض المال ضروريا لترقية الصناعة والتجارة لجأ المنتجون الى اليهود . وكثيراً ما كانوا يفرضون على المدينين ربا فاحشاً يتغاضى عنه الملوك نظير ما يفرضونه على هؤلاء المرابين من الاتاوات ، فلا عجب إن أصبح اليهود فى غرب أوربا موضع السخط والاضطهاد فكانوا يميزون عن غيرهم بشارات خاصة ويضطرون للاقامة فى حى خاص من كل مدينة

على أن تحريم الربح أخذ شكلا جديداً حين أباحت الكنيسة إقراض النقود للمنتجين الذين يستغلونها مع بقائه محرما على غير المنتجين . وعلى أثر ذلك ظهرت البيوت المالية فى لمباردية وقامت شركات تجارية، وتداعت العقبات التى عطلت التجارة فى العصور المظلمة

ومن القيود الثقيلة التى عاقت سير التجارة فى العصور الوسطى اضطرار التاجر أن يدفع عوائد وضرائب متباينة على الطرق العامة وعلى رءوس القناطر والمعابر ودخول المدن وعبور حدود كل مقاطعة فضلا عما يحدث من ضياع الوقت والنهب . ومنها اختلاف النقد من جهة الى أخرى فى حدود المملكة الواحدة والاخطار المظيمة التى كانت تحيط

بالتجارة فى البحر من هجوم القرصان وقلة المنائر على الشواطىء وسوء حالة الثغور وقلة الحياض

وللتغلب على هذه المصاعب تكونت عصابات من المدن أهمها عصابة « مدن الهنسا » فى شمال المانيا التى بلغت شأواً عظيما من القرن الرابع عشر إلى أول السادس عشر وكانت تضم نحو سبعين مدينة أكثرها على ساحل بحر البلطيق وشواطىء نهر الرين ولها محطات فى أكثر الممالك التجارية ، وأشهر مدن الهنسالوبك وكولونى ودنزج وبرنزويك . وقد أنشأت أسطولا للقضاء على القرصان كما كان لها سفراء يمثلونها فى لندن وغيرها ، وظلت عصابة الهنسا صاحبة السيطرة التجارية فى شمال وغرب أوربا إلى أن كشفت أمريكا

ولما عظمت ثروة التجار زاحموا الطبقتين الممتازتين فزاحموا رجال الدين فى تحصيل العلم ونافسوا الاشراف فى الترفه والتنعم ، فاهتم الكتاب منذ القرن الرابع عشر بسد حاجة هذه الطبقة الجديدة للعلم فارتفع شأنها وجعل الملوك يعنون برغباتها ويحسبون حسابها فى سياستهم . ويعتبر ظهور الطبقة الوسطى من أكبر العوامل فى التاريخ الحديث

الحالة العلمية فى القرون الوسطى

على الرغم من فناء الدولة الرومانية الغربية بقيت اللغة اللاتينية مستعملة طول العصر الوسيط فكانت تستعمل فى الكنائس وفى الجامعات وكتابة المعاهدات والتقاضى والتأليف ، فلا عجب إذا أصبحت معرفتها معياراً لما يبلغه كل شخص من التربية والتعليم . وبفضل استعمال اللغة

اللاتينية فى غرب أوربا، بقيت شعوبها مرتبطة وسهل على البابا الاتصال بجميع رجال الدين واستطاع الرهبان والتجار وطلاب العلم أن ينتقلوا من جهة إلى أخرى غير حاسبين حساباً لاختلاف اللغات المحلية مادام فى قدرتهم أن يتفاهموا باللغة اللاتينية. على أنه لا يصح أن يتبادر إلى الذهن أن اللاتينية المستعملة إذ ذاك كانت اللاتينية التى كان يتكلمها الرومان أيام عظمتهم لأن هذه لها قواعد وأصول يصعب على المتبربرين فى العصر الوسيط أن يفقهوها، فجعلت لغة الكلام تبعد تدريجاً عن

ظهور اللغات الحديثة

اللغة اللاتينية الصحيحة وتتفرع إلى لهجات عدة فى كل جهة لهجة خاصة. ومازالت هذه اللهجات تنمو وتبعد عن اللاتينية حتى أصبحت كل لهجة لغة قائمة بنفسها رغم أنها جميعاً مشتقة ومؤسسة على اللغة اللاتينية، وأهم هذه اللغات الطليانية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية

أما الأقاليم التى لم تتأثر كثيراً بحضارة الرومان أو لم تدخل فى حدود الدولة يوماً من الايام، فبقيت على لهجاتها الجرمانية الاصلية وقويت هذه اللهجات المتفرقة حتى نشأت منها اللغات الالمانية والدانمرقية والهولندية والانجليزية وغيرها

وكل هذه اللهجات سواء منها المؤسسة على الجرمانية والمؤسسة على اللاتينية بقيت مستعملة فى الكلام — من غير أن تكتب — مدة طويلة وتغنى بها الشعراء والرواة وتناقل الشعب قصائدهم وقصصهم بطريق السماع والحفظ ولم يكتب بها شىء قبل عهد شرلمان

وأول ماظهر من اللغات الجرمانية المكتوبة الانجليزية السكسونية، فقد دون بها فى نهاية القرن الثامن وشجع الكتابة بها الملك « ألفريد

الأكبر » ومن ذلك الوقت ظهر السجل « الانجليزى السكسونى » واستمر تدوين الحوادث بها الى سنة ١١٥٤ ، وكانت اللغة الانجليزية السكسونية فى ذلك الوقت تختلف اختلافاً بيناً عن اللغة الانجليزية الحالية ولم تقرب منها قرباً محسوساً إلا فى عهد أدوارد الأول فى أول القرن الرابع عشر

وأما اللغات التى ترجع فى أصلها الى اللاتينية فكان أكثرها شيوعاً اللغة الفرنسية ولم تكن لغة واحدة اذ ذاك بل كان فى النصف الشمالى لغة تختلف عن لغة النصف الجنوبى ، وبكليهما تغنى الشعراء والعامة وقصوا تواريخ أبطالهم . ولم يدون شىء بهاتين اللغتين قبل أول القرن الثانى عشر وأهم ما دون أنشودة « رولند » أحد فرسان شرلمان الذى مات فى جبال البرانس أثناء عودته من قتال المسلمين فى أسبانيا

وما لبثت لغة الجنوب « برڤنسال Provençal » أن بلغت أوج عظمتها حين ظهر جماعة « التروبادور Troubadours » وقصدوا القصائد ووضعوا الأغانى وترددوا على قصور الأشراف يوقعون أشعارهم على نغمات الآلات وخاصة القيثارة . وبهؤلاء الشعراء أزهرت اللغة والأدب والحضارة فى جنوب فرنسا وخصوصا فى إمارة « تولوز » الى أوائل القرن الثالث عشر الشعراء

وظهر فى ألمانيا جماعة يشبهون « التروبادور » ويسمون « منسنجرس Minnesingers » أنشدوا القصائد الغرامية وعظم شأنهم فى القرن الثالث عشر أيضاً

وعلى الرغم من التقدم اللغوى الذى سبق ذكره كان الجهل متفشياً

جهل العصر الوسيط

فى العصر الوسيط لأن علوم القدماء وآدابهم كانت مدونة بأحدى اللغتين الاغريقية واللاتينية ولم يكن لها تراجم باللغات الحديثة . ولما كانت معرفة هاتين اللغتين قاصرة على القليل النادر من الناس بقيت العلوم والآداب كنوزاً مغلقة لا تعرف قيمتها بل لا يحس لها وجود ، فكان مبلغ علمهم بالتاريخ عبارة عن تصورات ابتدعها الوهم وجسمها الخيال تدور حول أشخاص من العظماء السابقين كالاسكندر وقيصر وشرلمان

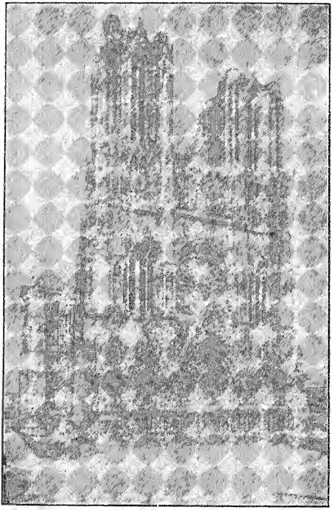
وأما من حيث العلوم الطبيعية فكانت أدمغتهم محشوة بالخرافات إذ كانوا يعتقدون بوجود حيوانات كالغول والعنقاء ووحيد القرن

الفنون

كانت الفنون ناطقة بافكار العصر وعاداته وأولها ظهوراً التصوير إذ كان الرهبان ينسخون الكتب بأيديهم ويحلون صدورها وبعض صفحاتها بصور صغيرة تمثل موضوعاً دينياً على الأكثر ، وكانوا يستعملون فى تصويرها الألوان البهجة ويسرفون فى اللون الذهبى ، وأهم ماعنى الرهبان بتحليته صدور الكتب الدينية التى يتناولها كبار القساوسة ، وتدرجوا من ذلك الى تصوير الرسل والقديسين والأسرة المقدسة وبعض المناظر المذكورة فى الانجيل كالجنة والجحيم والشيطان ، حثاً على الفضيلة وتنفيراً من الرذيلة

كذلك كانت الكتب غير الدينية تحلى بصور مألوفة مأخوذة من الحياة اليومية أو بصور خيالية . وقد شاع أيضاً تزيين هوامش الكتب والحروف الاولى من كل فصل من فصولها بأشكال هندسية وصور بديعة منقولة عن الطبيعة كالازهار والأوراق والأشجار . ولم يكن المصور

حراً فى صناعته ، بل كان مقيداً بما جرى به العرف من أن لكل لون استعمالا خاصاً ولكل شكل وضعاً معيناً لا بد من مراعاته



كنيسة ريم فى فرنسا من أبدع نماذج البناء القوطى

الحفر أما الحفر فكان مقصوراً على زخرفة البناء دون تجاوز ذلك الى تمثيل الجسم الانسانى كما كان يفعل القدماء لذلك كان الحفر فى العصر

البناء الوسيط خادما لفن العمارة وبلغت العمارة إذ ذاك شأواً بعيداً إذ كانت الشعوب بل المدن تتبارى فى تشييد الكنائس الجامعة التى لا تزال موضع إعجاب العصر الحاضر ، وكان النمط الشائع فى البناء الى القرن الثالث عشر هو النمط الرومانى وأهم مميزاته العقود المستديرة والعمد الاسطوانية الضخمة والقباب الشاهقة والنوافذ الصغيرة والمقوسة . وأما بعد ذلك الوقت فانتشر استعمال النمط القوطى ويمتاز بالعقود المخموسة المتداخلة والدعائم البارزة : وتفنن المصورون فى زخرفة الكنائس بأنواع شتى من صور وتهاويل وتماثيل أكثرها غريب ذو روعة

ويلى الكنائس فى الاهمية دور البلديات التى أقيمت فى القرن الرابع عشر على النمط القوطى أيضا . أما قصور الاشراف فلم يراع فيها سوى المتانة والمناعة فكانت جدرانها سميكة ونافذتها صغيرة وأبهاؤها عارية من كل زخرف

ظهور الجامعات

استمر الناس فى جهلهم حتى أوائل القرن الثانى عشر حين ظهر ابيلارد شاب من إقليم بريطانيا غربى فرنسا اسمه « ابيلارد Abelard » وأخذ يجوب انحاء البلاد طلباً للعلم الذى كان مداه قاصرا على الفلسفة والمنطق والمناظرة والجدل والبيان وعلوم الدين . واستقر به المقام فى باريس حيث حضر على أساتذتها واشترك معهم فى الجدل ، ومالبث أن بدأ يحاضر فالتف حوله آلاف من الطلبة . وكان مبدؤه فى التعليم مناقشة مايعرضه على تلاميذه من الحقائق ، حتى الدينية منها ، مناقشة عقلية بحتة فما وافق

العقل قبله، وما خالفه رفضه بغض النظر عما جاء فى كتب الدين. وبظهور « ابيلارد » ظهرت طريقة تحكيم العقل واستعمال الاسئلة للوصول الى الحقيقة واتباع قواعد منطقة ارستطاليس . وقد أثارت طريقته هـذه سخط رجال الدين وانبرى لمعارضته القديس «برنارد St. Bernard» الذى كان يعتقد صحة الـكتابات الدينية دون مناقشة ، ومازال أبيلارد يعانى هذه المعارضة حتى مات سنة ١١٤٢

مبدأ الجامعات

وقد مهد أبيلارد السبيل لظهور جامعـة باريس وذلك لان حماسته للعلم وحسن أسلوبه وطريقة البحث التى سلـكها — كل ذلك رغب الناس فى تلقى العلم فكثر المعلمون والمتعلمون فى باريس ورأوا — ضماناً لمصالحهم — أن يكونوا نقابة تدافع عن حقوقهم وتقيهم شر العدوان شأن غيرهم من الطوائف فى العصر الوسيط . وتم تأليف هذه النقابة قبل نهاية القرن الثانى عشر وسميت « جامعـة Universitas» ومنها أخذت التسمية الحديثة لمعاهد العلم الـكبرى

وقد تسابق البابوات وملوك فرنسا الى منح الجامعات حقوقاً وامتيازات تشابه ما كان للقسس والرهبان على اعتقاد أن العلم من خواص رجال الدين

وبينما أبيلارد وبرنارد يتجادلان بدأ معهد للعلم فى بولونيا فى شمال إيطاليا ولم يشتغل علماء بولونيا بالعلوم الدينية كما كانت الحال فى جامعة باريس ، بل تفرغوا لدراسة القانون الرومانى وقانون الـكنيسة ، فلما وضع الراهب « جرسيان Gratian » سنة ١١٤٣ مجموعة لقوانين الـكنيسة خالية من التناقض والتكرار وشاملة لما أصدره البابوات والمجالس الملية

دراسة القانون

من القرارات الدينية ، هرع الطلبة الى بولونيا من كل صقع لارتشاف علم القانون بفرعيه ونشأت جامعة بولونيا على أثر ذلك

جامعات انجلترا

وفى نحو هذا الوقت نشأت جامعة « اكسفورد » فى حكم هنرى الثانى وربما كان سبب انشائها انفصال جماعة من الطلبة والمدرسين الانجليز عن جامعة باريس . وتلتها جامعة «كمبردج» فى انجلترا وجامعات أخرى فى فرنسا وايطاليا وأسبانيا فى القرن الثالث عشر . أما جامعات المانيا فقد جاءت متأخرة ولم تبلغ شأناً يذكر قبل القرن الرابع عشر بل الخامس عشر وقد اتخذت جامعات شمال أوروبا جامعة باريس نموذجاً لها بينما حذت جامعات الجنوب حذو جامعة بولونيا

الدراسة فى الجامعة

ولم يكن للجامعة بناء معين بل كان الطلبة والمعلمون يجتمعون حيثما شاءوا فى الحى الذى يقيمون فيه ، ولم تكن الحاجة ماسة الى معامل أو مكاتب أو مقاعد لان كل ما كان مطلوبا هو نسخة من الكتاب الذى يدرس ، فيجلس الطلبة على الأرض حول أستاذهم ويأخذ هذا فى تفسير الكتاب جملة جملة بينما الطلبة يستمعون ويأخذون مذكرات أحياناً كما لا يزال متبعاً فى الازهر . ومتى أتم الطالب مدة فى تلقى العلم أمتحنه أساتذته فاذا نجح أعطى درجة تخول له التدريس . وقد تطلع الى الدرجات العلمية من الجامعات أناس لا يريدون الاشتغال بالتعليم، فصارت الدرجات شرفاً يصبو اليه محبو العلم

وكانت مواد الدراسة فى الغالب قاصرة على كتب ارسطاليس باللغة اللاتينية ، وكان ارسطاليس موضع أعجاب العلماء حتى أن دراسة كتبه فى المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة والأخلاق وغيرها من الموضوعات

المختلفة التى طرقها كان يعد غاية ما وصل اليه العقل البشرى . ولم يكن معروفاً من هذه الكتب أولا غير المنطق فلما جاء القرن الثالث عشر كانت قد وصلت الى أوربا بقية كتابات ارسطاليس عن طريق العرب فى أسبانيا أو جنوب ايطاليا أو عن طريق قسطنطينية

وكان هم الاستاذ منصرفاً إلى ثلاثة أمور مهمة : أولها فهم الترجمة اللاتينية الركيكة التى كانت بيده ، وثانيها تعليق علماء العرب عليها ، وثالثها التوفيق بين ما كتبه ارسطاليس وبين ما جاء فى الانجيل

وكان الناس قد افتتنوا بمنطق «المعلم الأول» وخطب لبهم ما أتيح له من العلوم التى كانوا يعتبرونها منتهى ما يصل اليه العقل الانسانى فلقبوه «الفيلسوف الأوحد» ورفعوه الى مستوى الانجيل والقانون الرومانى

بدء البحث العلمى

على أن القرن الثالث عشر لم يخل من علماء يخالفون أهل عصرهم فى الاعتماد كل الاعتماد على ارسطاليس ، اذ ظهر راهب انجليزى من الاخوان الفرنشسكان اسمه « روجر بيكون Roger Bacon » المتوفى سنة ١٢٩٠ درس علوم العرب وتشبع بطريقتهم العلمية فجاهر بلزوم ترك كتابات ارسطاليس ونبذ الجدل جانباً ، ودعا الناس إلى دراسة طبيعة الاشياء من نبات وحيوان ، وملاحظة تركيبها وغرائزها وخطأ الفكرة القائلة بأن ارسطاليس بلغ غاية ما يمكن أن تصل اليه الفطنة البشرية ، لأن العلم لا نهاية له ولان الانسان لو عاش الى الابد لما أحاط علما بكل شىء ، وأبان أن الطريقة المثلى للوصول الى الحقائق العلمية انما هى اختبار الاشياء كما هى فى حالتها الطبيعية وأجراء التجارب الكثيرة عليها ، وأن هذه الطريقة أفضل ألف مرة من الانكباب على التراجم المحرفة لكتب

ارستطاليس . وبالتدريج شاعت طريقة البحث العلمى الجديدة وقضى على طريقة علماء العصر الوسيط

مظاهر التقدم العام فى العصور الوسطى

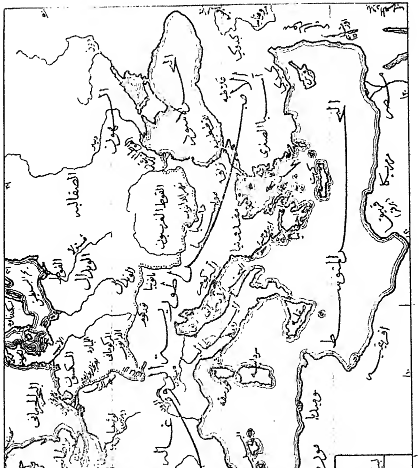
(١) **القوميات الجديدة** : كانت الدولة الرومانية تحكم غرب أوربا بنظام واحد لا يراعى فيه اختلاف عادات أهالى الاقاليم المختلفة وما تتطلبه بيئتهم الخاصة . ثم حل محلها حكومات محلية أقطاعية عقب هجوم المتبربرين ، ولا ينافى ذلك قيام دولة شرلمان لانها تمزقت بعد موته وقوى أمراء الاقطاع . وبعد ذلك أخذت قوة الملوك تزداد واتحد معهم أهل المدن فنشأت حكومات وطنية تعمل على استقلالها التام فيما عدا ايطاليا والمانيا

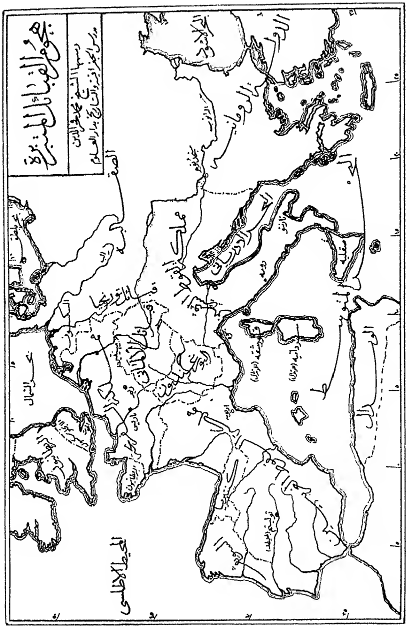
(٢) **تفوق القومية على الكنيسة**: بعد أن كانت الكنيسة تعتبر نفسها وارثة للدولة الرومانية وبعد أن كان لها السيطرة فى كل غرب أوربا خصوصاً فى عهد « غريغورى السابع » و « انسنت الثالث » لم ينته القرن الثالث عشر حتى ظهرت القوميات الحديثة وشرعت تتخلص من سلطان البابوية وتقصر الكنيسة على الواجبات الدينية وتنتزع منها ماعدا ذلك من السلطات كما فعلت فرنسا فى حكم فليب الرابع وانجلترا فى حكم أدوارد الأول

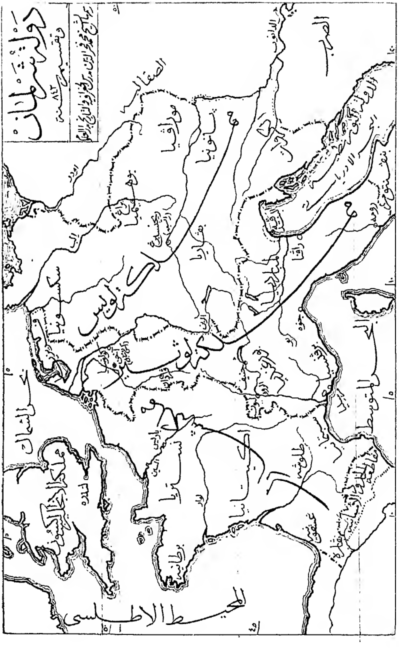
(٣) **ظهور الطبقة الوسطى** : لما اتسعت حركة التجارة وتحرر الرقيق ونمت المدن استطاع أهلوها من تجار وصناع أن يحصلوا على الثورة التى بها تمكنوا من ترقية شئونهم الاجتماعية والعلمية حتى أصبحوا ذوى نفوذ عظيم ، الى جانب الاشراف والفرسان ورجال الدين

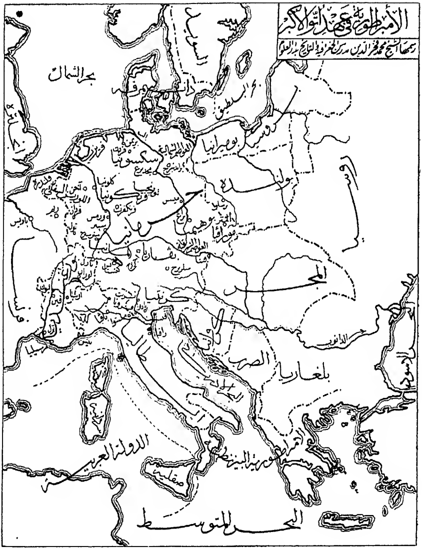
(٤) *ظهور ادبيات اللغات الحديثة* : كانت اللاتينية لغة الكتابة الى نهاية القرن العاشر ، فلما ترعرعت اللهجات القومية أخذ الكتاب بعد القرن الحادى عشر يدونون بها فصار فى وسع عامة الشعب أن يفهموا ما دون من حكايات وأشعار وأناشيد . وكذلك استطاع غير رجال الدين أن يظهروا فى ميدان الكتابة والعلم اللذين كانا وقفا على القساوسة والرهبان ، وأدت رغبة الناس فى تحصيل العلوم الى قيام الجامعات وهى من أهم مميزات الرقى الحديث

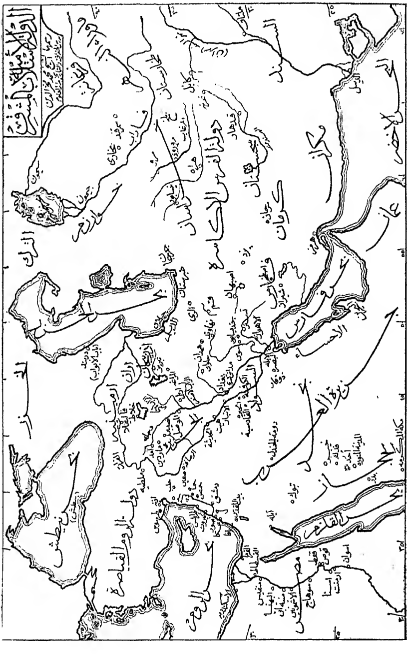
ومن هذه الجامعات نشأت طريقة البحث العلمى الذى فتح باب الاكتشافات والاختراع أمام علماء العصر الحديث فاماطوا اللثام عن أسرار الطبيعة وقوتها الكامنة مما لم يسبق له مثيل

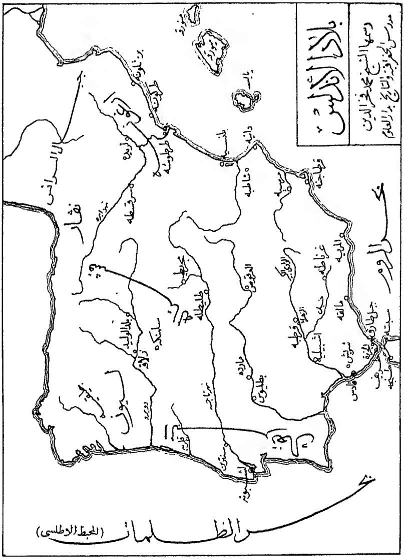



هجوم القبائل المتبربرة
رسمها الشيخ محمد محيي الدين
مدرس الجغرافيا والتاريخ بدار العلوم
المحيط الاطلسي

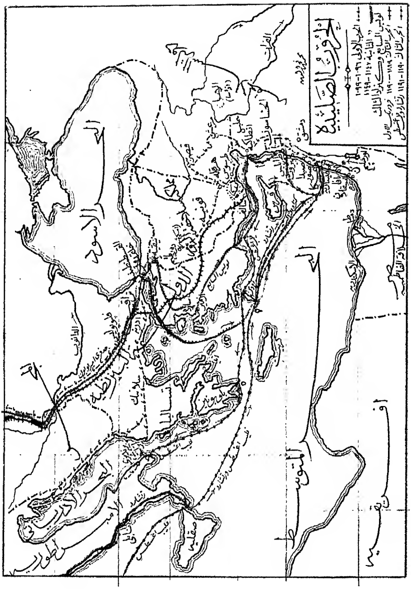

المحيط الاطلسى

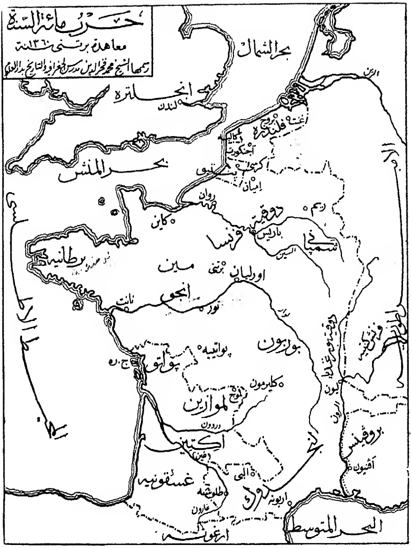

الأمبراطورية في عهد أتو الأكبر
رسمها الشيخ محمد فخر الدين مدرس الجغرافية والتاريخ بدار العلوم
بحر الشمال
سكسونيا
بوميرانيا
بولندة
بوهيميا
المجر
الصرب
بلغاريا
الدانوب
صقلية
الدولة العربية
الامبراطورية البيزنطية
البحر المتوسط





بلاد الأندلس
رسمها الشيخ محمد فخر الدين
مدرس الجغرافيا والتاريخ بدار العلوم
بحر الروم
بحر الظلمات
(المحيط الاطلسى)


الحروب الصليبية



حرب مائة السنة
معاهدة برتنى سنة ١٣٦٠
رسمها الشيخ محمد فخر الدين مدرس الجغرافية والتاريخ بدار العلوم
بحر الشمال
انجلترة
لندن
بحر المانش
فلندرة
غنت
كاليه
آجنكورت
كريسى
ايميان
روان
كاين
باريس
شمبانى
فرنسا
برطانيه
مين
اورليان
انجو
نانت
تور
بواتيه
بواتو
بوربون
كليرمون
ليموزين
اكتين
البى
طلوشه
غسقونيه
اربونه
اغونه
ليون
بروفنس
آفنيون
البحر المتوسط

قررت وزارة المعارف العمومية استعمال هذا الكتاب بمدارسها الثانوية

معالم تاريخ أوربا الحديث

حسب مقرر التاريخ للسنة الثالثة بالمدارس الثانوية

تأليف

محمد رفعت
ناظر مدرسة بنى سويف الثانوية

و

محمد أحمد حسونة
المفتش بوزارة المعارف

الطبعة الخامسة

محرم ١٣٤٧ هـ — يونيه ١٩٢٨ م

الثمن ٢٠ مـ

يطلب من مكتبة الهلال بشارع الفجالة بمصر

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن محمد موسى شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

القصد الأول من هذا الكتاب الصغير أن يقدم لراغبى دراسة التاريخ الأوربى الحديث عامة ، ولطلاب السنة الثالثة بالمدارس الثانوية خاصة القدر اللازم من منهج التاريخ بطريقة ترمى الى استقصاء الحقائق وربط بعضها ببعض ، وتوجيه النظر الى الأمور المهمة مع ترك التفاصيل والحوادث التى لاتدخل فى جوهر الموضوع

والقصد الثانى محاولة وضع كتاب وجيز فى موضوع طويل بكيفية علمية مبناها تأدية المعانى بعبارات لا تتجاوزها ولا تقصر دونها ، وان أدى هذا الى خلو الأسلوب من الطلاوة فى بعض الأحيان ، لأن تقديم المعانى ضحية للألفاظ مسخ لا يمكن اغتفاره فى التاريخ

محمد رفعت   محمد احمد حسونه

محرم سنة ١٣٤٧ هـ — يونيه سنة ١٩٢٨ م

فهرس

الصور

الخرائط

الفصل الأول

عصر النهضة الحديثة بأوربا

تمهيد — تكون الممالك الحديثة ونشوء الامبراطورية

بقيت الدولة الرومانية صاحبة السلطان جنوبى وغربى أوربا ، وبقيت حضارتها من دين ولغة وقانون وعادات سائدة فى تلك البقاع ، إلى أن ظهر ضعفها وتدخل فى شئونها أهل القبائل المتبربرة التى كانت تسكن سواحل البلطيق وأودية الطونة والرين خلف حدود الدولة شمالا وشرقاً . وما لبثوا أن صار بأيديهم قسم عظيم من القوة جعلهم يشنون الغارات حيناً وآخر على الأمبراطورية ، حتى انتهى الأمر بتغلبهم على الدولة الرومانية الغربية فى سنة ٤٧٦ ميلادية حين تمكن « أدوَكر » أحد قواد القبائل الألمانية المتبربرة من القضاء على سلطة « رُميولُوس » آخر أمبراطور للدولة الرومانية الغربية وتنصيب نفسه حاكما لرومة

وبزوال سلطان رومة وانتشار المتبربرين فى أنحاء الدولة عمت الفوضى وانحلت الرابطة التى كانت تجمع تلك الاقسام المختلفة ، وقضى على كثير من معالم الحضارة الرومانية ، فأصبحت البلاد متنازعة بين أقوام همج لا عهد لهم بأساليب الحكومات المنتظمة ، فأهملت الطرق وسبل التجارة وأصبحت كل جهة منعزلة عن غيرها ، وقصرت انتاجها على ما يسد حاجتها . فأهملت الصناعة والزراعة واحتمى كل جماعة من الضعفاء بزعيم تكفل بالذود عنهم ضد المغيرين عليهم من جيرانهم ، وتعهدوا هم بخدمته ونصرته ، وأدى ذلك الى النظام المعروف فى تاريخ العصور الوسطى بنظام الاقطاع

ولم يحل دون القضاء على البقية الباقية من حضارة رومة إلا بقاء نظام الكنيسة المسيحية من غير أن تمسه يد المغيرين ، فكان رجال الكنيسة دعاة الصلح بين المتبربرين والشعوب المحكومة ، فتعلم المتبربرون احترامهم وتبجيلهم ورأوا فى الدين المسيحى ومدنيته الممثلة فى القسس ، تفوقا ورقيا حببا إليهم اعتناق الديانة المسيحية ، وسرعان ما صاروا مسيحيين مدينين للكنيسة بتهذيبهم وخضوع الشعوب لهم عن طيب خاطر . وزادت بذلك سلطة الكنيسة عما كانت عليه أيام الدولة الرومانية ،وذلك لخضوع الحكام الجدد لها لفرط تعلقهم بالدين الجديد . وما لبست الكنيسة أن زادت ثروتها وأصبحت أكبر وأقوى وأثرى نظم العصور الوسطى

ومن أقوى القبائل التى أغارت على أملاك الدولة الرومانية قبائل الفرنجة التى استوطنت ما يعرف الآن بفرنسا وغربى ألمانيا . وقد نجح حكام هذه القبائل فى توسيع نفوذهم حتى أصبح لهم ملك عظيم بلغ أوج عظمته فى عهد شرلمان (٧٦٨ — ٨١٤ م) الذى وسع ملكه وأدخل فيه من الاصلاحات الحسية والمعنوية ما جعل الأمن سائداً فى ربوع دولته ، وذكر الناس بعهد الدولة الرومانية القديمة فتوجه البابا أمبراطوراً سنة ٨٠٠ م وأطلق على ملكه اسم الدولة الرومانية

ولما مات شرلمان تعذر على خلفه الاحتفاظ بوحدة الدولة فقسمت فى « معاهدة فردان » سنة ٨٤٣ م بين أحفاده إلى ثلاثة أقسام : فالقسم الشرقى عرف فيما بعد بألمانيا ، والقسم الغربى عرف فيما بعد بفرنسا، والقسم الأوسط كان يشمل الأقاليم التى بين القسمين الآخرين . وتولى الحكم فى كل منها حفيد من أحفاد شرلمان ولم يكن لهم ما كان لجدهم من القوة وسعة النفوذ ، فاستقل عمالهم بالحكم فى مراكزهم وعم نظام الاقطاع الحقيقى بأجلى مظاهره ، ولم يبق للملك إلا مجرد الاسم

واستمرت هذه الفوضى المعروفة « بالعصور المظلمة » إلى أن انقرض فرع أسرة شرلمان الذى كان يحكم ألمانيا وانتخب الألمان أميراً وطنياً من بينهم هو هنرى الاول (٩١٩ — ٩٣٦ م) دوق سكسونيا ، الذى أخذ يسترجع نفوذ الملكية . وورثه إبنه « اتو الاول » (٩٣٦ — ٩٧٣ م) الملقب بالأكبر فى منتصف القرن العاشر فوطد دعائم الملك فى ألمانيا وصار ملكه يشبه من بعض الوجوه ملك شرلمان . وحدث أن أجاب دعوة البابا لتخليصه من أعدائه فى رومة فتوجه ملكا على إيطاليا ثم أمبراطوراً سنة ٩٦٢م . ومن ذلك الوقت نشأت « الدولة الرومانية المقدسة » ، وقدعرفت هذه الدولة فى التاريخ بالدولة الرومانية المقدسة لشدة علاقتها بالبابوية وبالكنيسة ولتميزها عن الدولة الرومانية القديمة الوثنية .

وارتبطت ألمانيا وإيطاليا ارتباطا أدى بالأمبراطور إلى إهمال ملكه فى ألمانيا ، حتى تمكن الأمراء من توطيد سلطانهم فى أماراتهم لاشتغال الأمبراطور حينا فآخر بمنازعات البابا وحروبه فى إيطاليا،فكان ذلك من الأسباب التى دعت الى تأخر قيام وحدة قومية فى ألمانيا وايطاليا ، بينما تمكن ملوك انجلترا وفرنسا واسبانيا من إيجاد ممالك قوية موحدة

وبلغ من ضعف الأمبراطور فى ألمانيا أن توصل الأمراء العظام إلى قصر حق انتخاب الامبراطور على أنفسهم وهم سبعة كانوا ينتخبون الأمبراطور عادة حسب ما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة ، وفى سنة ١٢٧٣ انتخبوا « رودلف » رئيس « أسرة هبسبرج » أمبراطوراً ولم يكن له إذ ذاك إلا أمارة صغيرة فيما يعرف الآن بسويسرة . فأخذ رودلف هذا يوسع أملاكه حتى أصبحت أسرة هبسبرج مالكة لدوقية النمسا ثم بوهيميا وجعلت عاصمة ملكها « ڤينا » . وما لبث أن انحصر انتخاب الامبراطورية فى هذه الاسرة مع بقائها انتخابية اسما ، وأخذت أملاك هذه الاسرة تزداد

شيئا فشيئا بفضل ما ساقه إليها الحظ من المصاهرات السعيدة . فمن ذلك ان تزوّج الأمبراطور « مكسمليان » فى سنة ١٤٧٧ من « ماريه » صاحبة برغندية وارثة أملاك شارل الجسور وأهمها الاراضى المنخفضة . وتصادف أنه فى سنة ١٤٩٦ تزوج « فليب » بن مكسمليان من « جوانا » وارثة أملاك « فرديننذ وايزبلا » فى أسبانيا و إيطاليا والدنيا الجديدة . وعلى ذلك أصبح لابن فليب وجوانا وهو شارل المعروف بالامبراطور « شارل الخامس » بعد سنة ١٥١٩ ملك واسع لم يتح لملك آخر فى أوربا من قبل

و يجدر بنا قبل ترك موضوع الامبراطورية أن نعلم شيأ من نظامها : استمرت الامبراطورية انتخابية اسما ينتخب الامبراطور المنتخبون العظام السبعه وهم رؤساء أساقفة « ماينز » و « كولونى » و « تريف » وملك « بوهيميا » ودوق « سكسونيا » وأمير « برندنبرج » وأمير « مقاطعات الرين البلاتينية » وكان هؤلاء وباقى الأمراء والأساقفة وعلى رأسهم الأمبراطور يكونون المجمع الالمانى المسمى « دياط » ، ويجتمع هذا المجمع فى مدينة يتفق عليها للنظر فى شئون الأمبراطورية . ولم يكن للامبراطور حق تشريع أى قانون أو إصدار أى قرار ما لم يوافق عليه المجمع

أمامن الوجهة التنفيذية فلم تكن هناك هيئة مسئولة ، بل كان كل أمير حراً فى تنفيذ أوامر المجمع ، ولم يكن للامبراطورية جيش ولا دخل ولا قوة إدارية فكان هذا عاملا مساعداً على تفكك ألمانيا وتأخر اتحادها، فاذا ظهر أمبراطور قوى مثل شارل الخامس فما ذلك إلا لاعتماده على موارد أملاكه الخاصة ، لا بفضل مركزه فى الامبراطورية التى بقيت على نظامها العتيق ، رغم التطور الحديث الذى شمل الأنظمة الاوربية الاخرى بانبثاق فجر النهضة الاوربية الجديدة

النهضة الاوربية الحديثة

كان بعض المؤرخين يطلقون على هذه الحركة إسم « إحياء العلوم » ولكن ذلك خطأ ، لأن حركة إحياء العلوم انما هى مظهر من مظاهر النهضة التى هى فى الحقيقة بمثابة بعث أو ميلاد جديد (كما تدل عليه كلمة Renaissance) عمّ أثره جميع مرافق الحياة

ولا يمكن تعيين وقت خاص يعتبر مبدأ لهذه الحركة لأن التدرج فى التقدم أو فى التأخر ظاهرة طبيعية . إلا أنه يمكن أن يقال أن آثار النهضة ظهرت فى أوربا أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ولا ينبغى أن يتبادر إلى الذهن أن النهضة الجديدة حصلت مفاجأة ، بل يمكن تتبع نشوء هذه الحركة من أواخر العصور الوسطى التى لم تكن خلواً من حضارة خاصة بها ، على الرغم من الجمود والمنازعات التى كانت سائدة . وإليك أهم أوجه الرقى فى أواخر العصور الوسطى .

١ — **الرقى اللغوى والعلمى** : كانت اللاتينية لغة الكتابة بين العلماء ثم انحطت ولم يعد يعرفها إلا رجال الكنيسة ، ثم تشكلت حسب الشعوب المختلفة. ونشأ من ذلك لهجات مستقلة مؤسسة على الأصل اللاتينى فى إيطاليا وفرنسا واسبانيا . أما شمالى أوربا فظهرت لهجات متباينة ترجع إلى أصل تيوتونى

ولم تكن هذه اللغات المحلية مكتوبة فى أول الأمر ولكنها أخذت ترقى فى أواخر العصور الوسطى ، فتغنى بها الشعراء وروى بها القصصيون وأصبح لها أدبيات ان لم تكن مكتوبة ، فقد كانت محفوظة متداولة . فظهر شمالى فرنسا جماعة « التروڤير » وغنوا وقصدوا القصائد باللغة الفرنسية الشمالية،

وظهر جماعة « التروبادور » جنوبيها ، وظهر في ألمانيا جماعة « المنسنجرس » يطوفون الجهات مرددين أناشيدهم الغرامية باللغة الألمانية . وما لبث أن كتب « دانتى » كتابه « الكوميديا الالهية » باللغة الطليانية وكتب « شوسر » الإنجليزى « حكايات كنتربرى » باللغة الإنجليزية السكسونية القديمة . كذلك ظهرت في اسبانيا أنشودة « السيد » باللغة الاسبانية . وهكذا تكونت جراثيم اللغات الاوروبية الجديدة

أما التعليم فكان مقصوراً على علوم الدين والقانون الرومانى وقانون الكنيسة وفلسفة ارسطاليس . وعلى الرغم من ذلك فقد ظهرت فى ذلك الوقت حركة جدلية أدبية قامت بين زعماء معلمى ذلك العصر ، وأشهرها مناظرة « بطرس أبيلارد » الذى كان متمسكا بمذهب الاقتناع بالعقل لا بمجرد نص القوانين الإلهية ، وبين « الأب برنارد » الذى كان ينتصر للكنيسة وتعاليمها . وقد طال أمد هذه المناظرة واشتهر أمرها حتى شغلت بال المفكرين فى أوربا . وعلى الرغم من تعضيد الكنيسة للأب برنارد وإصدار حكمها ضد « أبيلارد » وتعاليمه ، قامت جامعة باريس على أثر هذه المناظرة ثم تلتها سلرنو وبولونيا فى إيطاليا ، ثم اكسفورد فى انجلترا وظهر من العلماء المبتكرين « توماس أكويناس » ، و « روجربيكن » صاحب نظرية البحث العلمى واستنباط القواعد الطبيعية من المشاهدة

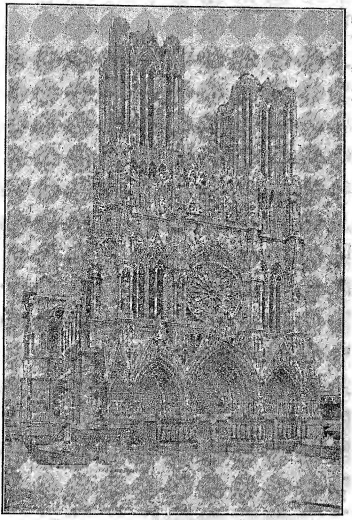
ولاشك فى أن جزءاً كبيراً من النهضة التى قامت فى أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، يرجع إلى أثر الحضارة التى نشرها العرب جنوبى أوربا وخاصة فى الاندلس ، حيث درس بعض علماء أوربا ونقلوا عنها فلسفة القدماء وعلوم العرب . وهؤلاء العلماء بفضل ماذاع من علومهم مهدوا طريق الرقى وتحرير العقول ، وتهيئة النفوس لقبول الانقلاب العظيم الذى حصل بعد قرن .

ب — **الرقى السياسى** : كانت النظرية السائدة فى جميع أنحاء

أوربا أن البابا والامبراطور يقتسمان فيما بينهما السيادة الدينية والسياسية على العالم المسيحى ، لعدم ظهور قوميات مستقلة فى الممالك المختلفة . وما ذلك إلا لتشتت السلطة بين أمراء عهد الاقطاع العديدين فى الممالك المختلفة، فلما قوى أحد هؤلاء الأمراء وأمكنه أن يتفوق على الآخرين بالحرب أو بالسياسة أو بالمصاهرة ، تمكن من تكوين حكومة قوية أخضعت ما حولها . ثم مالبث ان ظهرت روح قومية أيدت تلك الحكومات وساعدت الملوك على التخلص من العوامل التى كانت تحول دون التمتع بالاستقلال التام فى الداخل وفى الخارج . فظهر فى فرنسا أسرة « هيوكابت » وظهر فى انجلترا أسرة « النرمنديين والأنجفن » وظهر في اسبانيا أسرتا « قشتالة وأرغونة »، وحاولت أسرة « هوهنستوفن » تكوين ملكية قومية فى ألمانيا فى القرن الثالث عشر فأخفقت لمعارضة البابا . حتى ايطاليا لم تخل من حركة اتحاد قومية اذ قام الوطنى « رينزى » فى منتصف القرن الرابع عشر وحاول تحرير ايطاليا وتوحيدها

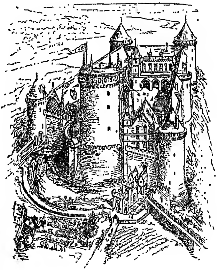
وليس أدل على روح هذا العصر من ظهور كتاب « الامير » الذى وضعه « مكيافلى » — وهو كاتب سياسى من أهل فلورنسة — شرح فيه واجبات الملوك والامراء من حيث ضرورة الوصول الى أغراضهم بكل الوسائل الممكنة سواء سوغتها التقاليد أولم تسوغها فمن ذلك قوله « إن الامير الذى يريد حفظ كيان دولته لا بد له فى كثير من الاحيان أن يخالف الذمة والمروءة والانسانية والدين »

حـ — **التقدم الفنى** : ظهر هذا التقدم فى بناء الكنائس اذ كان بناؤها موضوع مفاخرة الاقاليم فأبدعوا فى بنائها على النمط المعروف بالقوطى .



صورة كنيسة ريمس بفرنسا
وهى من أحسن نماذج البناء القوطى

وقد وجد الرسامون والمصورون مجالا لهم فى النقش على صفحات الكتب الدينية التى كان ينسخها الرهبان في أديرتهم إلا أنهم كانوا مقيدين بموضوعات خاصة واستعمال ألوان وأوضاع خاصة يتحتم على الرسام اتباعها ، وكانوا يستمدون موضوعاتهم من سير الكتاب المقدس . ومن أمثلة التقدم الفنى فى تلك العصور بناء قصور الأشراف التى راعوا فيها العزلة والمناعة حسب مقتضى الحالة الاجتماعية والسياسية فى ذلك العصر



قصر حصين من قصور العصور الوسطى

ى — **التقدم الاجتماعى** — كان من نتائج الحروب الصليبية أن أضعفت شوكة الأشراف لفناء بعضهم فى الشرق واحتياج كثير منهم الى المال ، مما أدى الى الاستغناء عن كثير من رقيق الأراضى فنزح هؤلاء الى القرى واشتغلوا بالصناعات ، وسرعان ماقامت المدن التى اشترت بالمال حريتها واستقلالها من أمراء الاقطاع . وعلى ذلك ظهرت الطبقة الوسطى بجانب الأشراف ورجال الكنيسة . ولما كانت مصلحة هـذه الطبقة تتفق مع

مصلحة الملك عاونوه على إضعاف منافسيه فى النفوذ من الأشراف ورجال الكنيسة ونشأ من ذلك أن تشجع الملوك على تحديد نفوذ البابا الذى كان اذ ذاك فى منتهى القوة سياسياً ودينياً

ويرجع المبدأ الحقيقى للنهضة الى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ولكن القوم اعتبروا مبدأها فى القرن الخامس عشر اعترافاً بفضل ماانبعث فيه من الأدبيات القديمة اليونانية والرومانية لما لها من المزايا التى غضت من شأن كل عهد قبله لم يعن بها

وقد بدأت حركة النهضة فى ايطاليا وذلك لأنها كانت فى العصور الوسطى مركزاً مهما للتجارة بين الشرق والغرب ولا سيما بعد ابتداء الحروب الصليبية حين زاد طلب أوربا لنفائس الشرق ، فكانت هذه تحمل الى الموانى الايطالية ومنها تنقل الى الأسواق الأوربية الأخرى ، فزادت بذلك ثروة الايطاليين واستنارت أفكارهم بما اقتبسوه من حضارة أمم كانت أرقى منهم مدنية . وقام على أثر ذلك حكومات مستنيرة قوية فى المدن الايطالية المختلفة وكانت أنظمة هذه الحكومات تشبه بوجه عام نظم الحكومات التى قامت أيام عظمة الحضارة الاعريقية القديمة . وكان من مميزات هذه الحكومات اشراك الشعب فى سياستها وتعضيد أمرائها للآداب والفنون ، فكان ذلك باعثاً للأدباء وأهل الفنون على النبوغ والابداع . ثم أخذت كل مدينة تنافس غيرها فى عمل واقتناء أنفس الكتب وأبدع الصور وتشييد أفخر المبانى والمعاهد ، وما لبثت أفكار الناس أن تنبهت الى ماحولهم من آثار أجدادهم الأول الذين خلفوا من الآثار والمبانى والتماثيل والأدبيات ما أدهش عقول علماء ذلك العصر ، فخيل اليهم ان هذه الأدبيات أفضل وأجمل مايمكن أن تنتجه عقول البشر وأنه لا كمال لفرد أو لشعب لم يدرس ويستوعب ويحاك هذه الآيات القديمة . ومما مهد لهم

سبيل التغلغل فى تفهم روح هذه الأدبيات تقارب الطليانية الحديثة واللاتينية القديمة وإحساسهم بأن مابين ظهرانيهم من الآثار إنما هو رمز لسالف مجدهم وعظمتهم

لذلك كان الغرض الاول من الحركة الجديدة هو التنقيب عن الأدبيات القديمة والتشبع بروحها والنسج على منوالها ، فبدءوا يدرسون الإغريقية القديمة على أساتذة يونانيين جاءوا إلى ايطاليا من قبل الدولة البيزنطية يستنجدون بالبابا وبقية الأمراء ، وأشهر هؤلاء العلماء « كرسلوراس » الذى دعته فلورنسه ليحاضر فى اللغة اليونانية فى جامعتها . وكان كلما ضيق العثمانيون الخناق على البيزنطيين رحل بعضهم إلى إيطاليا لما أحسوا به من الرابطة الأدبية بين الشعبين ، وأخذوا اليها نفائس مقتنياتهم الإغريقية . وسرعان مافشا تعلم الاغريقية وأصبحت آداب الاغريق متداولة بين العلماء الذين انكبوا على دراستها بشغف زائد فكانت المنهل العذب الذى اغترف الناس منه معلوماتهم فى الفلسفة والعلوم والسياسة فطالعوا أشعار «هوميروس» ودرسوا فلسفة سقراط وسياسة أفلاطون وأرسطاليس وأعجبوا بروايات « سوفكليز » و « اربيديس » وأخذوا علوم الطبيعة والفلك عن « إقليدس وبطليموس » كما درسوا أشعار وكتابات « فرجيل » و « هوراس » و « شيشيرون » والقوانين الرومانية . وعلى العموم يمكن القول بأن دراسة أدبيات الاغريق كانت من أقوى العوامل التى هدمت نظريات العصور الوسطى ووضعت أساس النهضة الأوربية الحديثة

وقد ساعد على توسيع نطاق النهضة وإيصالها إلى عامة الشعب فى الممالك المختلفة اختراع آلة الطباعة ذات الحروف المنفصلة ، اخترعها «يوحنا جوتنبرج» بمدينة ماينز بألمانيا فى منتصف القرن الخامس عشر ، وكان الإنجيل أول كتاب طبع بهذه الطريقة سنة ١٤٥٥ فأحدث هذا الاختراع الذى يعتبر

أكبر اختراع فى العصور الحديثة انقلاباً عظيما فى عالم الكتابة والأدب .
ومن أكبر رسل النهضة فى إيطاليا : —

دانتى — (١٢٦٥ — ١٣٢١) أول كاتب ظهر من غير رجال الكنيسة وأول من كتب بالطليانية الحديثة لا باللاتينية ، فكان من هذه الوجهة مبشراً بالنهضة الحديثة وأول رسلها ، وإن لم يستطع الخروج عن أفكار العصور الوسطى ، يدلنا على ذلك ماجاء فى كتابه الشهير « الكوميديا الالهية » من الخرافات الدينية التى كانت مألوفة فى تلك العصور ، ودفاعه عن نظرية الأمبراطورية ، وموضوع روايته « الكوميديا » عبارة عن زيارة خيالية للجنة والجحيم وما بينهما حادث فى أثنائها سكان تلك الاقاليم من رجال الأدب والعلم القدماء وذكر كثيراً من شعراء الرومان والإغريق الوثنيين بالإعجاب والتبجيل وإن لم تسمح له أفكاره الدينية بأن يكون مثواهم الجنة

بترارك — (١٣٠٤ — ١٣٧٤) أول من قدر الأدبيات الرومانية القديمة وأعجب بها أيما إعجاب ، وكان يحث تلاميذه وغيرهم على اقتناء المؤلفات القديمة ومطالعتها وقد جمع هو عدداً عظيما منها وبلغ به شغفه أن نسخ بيده كتابات شيشيرون ، وكان يرى أن اللاتينية هى لغة الأدباء ويحتقر الطليانيـة ويعيب على دانتى استعماله اياها . ومن الصفات التى من أجلهـا عد « بترارك » من رسل النهضة الحديثة عنايته بالآثار القديمة وإكبارها ، وولعه بجمال الطبيعة وهوالأمر الذى حمله على السياحة وتسلق الجبال لمحض شغفه بالمناظر الطبيعية التى لم يأبه لها أهل العصور الوسطى اذ كانوا يعتقدون أن الغابات والجبال مأوى للشياطين ، ومن أنشط تلاميذه فى نشر الآداب القديمة « بوكاشيو » ومن كبار مشجعى هذه الحركة أيضاً البابا « نقولا الخامس » الذى جمع عدداً عظيما من المخطوطات ووضع أساس

المكتبة المعروفة فى الفاتيكان و «لورنزودى مديشى» حاكم فلورنسة

— ه **التقدم الفنى** — أما فى عالم الفنون فإن دراسة الاغريقية نبهت الأذهان إلى محاكاة ماتركه الاغريق من التماثيل والصور والمبانى التى تمثلت فيها القوة والجمال والعواطف إلى حد لا مثيل له فى التاريخ . وقد بهر ذلك عقول الناس فنبذوا قيود العصور الوسطى التى كانت تقصر دائرة الفن على الموضوعات الدينية الخالية من تمثيل العواطف وجمال الجسم الإنسانى ، فنبغ من المصورين والحفارين « جيوتو ، وجيبرتى ، وليوناردودى فنشى ، وروفائيل ، وميخائيل انجلو ، وتيسان ، ودلسارتو » فأطلقوا لخيالهم العنان وأخرجوا من آيات الفن ماخلده لهم التاريخ ولم يبلغ شأوه إلا أساتذتهم من الاغريق والرومان

ولما أشرقت شمس النهضة وعم نورها جامعات إيطاليا ارتحل اليها طلاب العلوم والفنون من انحاء أوربا المختلفة فوردوا منهلها العذب، ومالبثت النهضة أن تعدت حدود إيطاليا إلى بقية أوربا فظهرت فى كل مملكة بمظهر خاص حسب استعداد الاقوام المختلفة . فظهر فى المانيا بمظهر دينى فلسفى ومن أكبر رجال نهضتها « يوحنا روخان » و « لوثر » و « هلبين » المصور

أما فى فرنسا فاهتمت جامعة باريس بالآداب القديمة واقتطف أدباؤها منها شيئاً كثيراً ظهرت آثاره فى كتاباتهم . وظهر فى الاراضى المنخفضة العالم الكبير :

أرزمس — (١٤٦٧ — ١٥٣٦) الذى لم تقتصر شهرته على هولندا بل طبقت كل أنحاء أوربا حتى أن كلا من فرنسا وانجلترا والمانيا كانت تدعيه لنفسها لانه أقام بكل منها زمنا فالتف حوله عدد عظيم من علماء تلك البلاد ، وكان هو وكثير من المفكرين فى عصره يشعرون بمعايب الكنيسة



ارزمس

والاديرة ويرون ضرورة إصلاحها . وقد بلغ ذروة شهرته قبيل ظهور لوثر . وكذلك ظهر « ڤان ديك » المصور الهولندى الشهير

أما فى انجلترا فظهر فى أواخر القرن الخامس عشر جماعة يعرفون بمصلحى اكسفورد أهمهم « توماس كوليت » الذى يرجع اليه الفضل فى ادخال تعليم اللغة الاغريقية فى جامعة اكسفورد و « السير توماس مور » وكان هو وكوليت من أكبر أصدقاء ارزمس ، وأهم كتبه كتاب « يوتوبيا » أو عالم الكمال وهو وصف اجتماعى سياسى لما ينبغى أن تكون عليه حالة أحسن حكومة وشعب وقد أصبح اسم كتابه رمزاً لكل مشروع خيالى لايمكن تنفيذه ، وقد استمرت النهضة فى انجلترا إلى أن بلغت أوج عظمتها فى عصر شكسبير

أما فى أسبانيا فنبغ المصور « فلاسكويز » الذى كاد يتفوق على المصورين الطليان .

نتائج النهضة — تلك الحركة التى بدأت فى ايطاليا قضت على الماضى قضاء لامردّ له وصار الناس فى عالم جديد فى أفكارهم وأحوالهم، فأصبحوا يرغبون فى التمتع بالحياة واستقصاء مافيها من ظواهر طبيعية وملاذ ، واعتقدوا بانه لايلزم تضحيتها أملا فى حياة خالدة فى عالم آخر ، واستطاعوا أن يسلطوا أشعة العقل على ماحولهم من أنظمة وأفكار ومعتقدات فبحثوا ونقبوا

وانتقدوا بلا وجل ولا خوف على عقائدهم . وبدءوا يمزجون الافكار الوثنية التى أخذوها عن الأغريق والرومان القدماء بالمسيحية ، ونشأ من ذلك الاجتهاد في التوفيق بين الدين المسيحى والعلوم الحديثة

ومن أهم مظاهر النهضة تطور الأفكار السياسية : فبعد أن كان الناس يعتقدون ان البابا والأمبراطور أو الملك كليهما ظل الله فى أرضه لا يصح محاسبتهما على أفعالها تشبعت عقول المفكرين بآراء الاغريق ومباحثهم فى أنظمة الحكومات ، فأدركوا ان خير حكومة هى ما كانت فى صالح المحكومين وبدءوا يقولون بوجوب اشتراك الشعب فى الحكومة وانه لامعنى لوجود نظام ثابت لا يقبل تحويلا ولا تبديلا . وليس أدل على تطور الافكار السياسية من كتاب « الأمير » الذى وضعه «مكيافلى» وكتاب « يوتوبيا » الذى وضعه « توماس مور »

ومن مظاهرها أيضا التطور الاجتماعى : إذ بظهور شخصية الفرد أصبح كلٌّ مولعاً بالرقى والسبق في مضمار الحياة بعد أن كان الفرد فى العصور الوسطى لا يعمل الا طوع ارادة القسس . وقد أدى هذا التنافس الى الاجتماع فى المدن والعمل على اكتساب الشهرة فى المجتمع من غير كبير احترام للدين وتعاليمه حتى وصلت الحال وخاصة فى إيطاليا الى نبذ الدين والازدراء بتعاليمه وبالتقاليد التى كانت مألوفة الى ذلك الوقت ، فنجم عن ذلك استخفاف عظيم بالآداب العامة وأصبح التبذل والتهتك والانغماس فى الملذات من النتائج السيئة لحركة النهضة الحديثة

الاستكشافات

ومن أهم النتائج العملية لحركة النهضة الاستكشافات الجغرافية التى قام بها الملاحون فى أواخر القرن الخامس عشر على إثر انتشار العلم وظهور روح

البحث والتنقيب وتقدم علم الفلك، والاهتداء لعدة آلات نافعة مثل بيت الابرة (البوصلة) والاسطرلاب اللذين كان لهما الفضل الاكبر فى توسيع نطاق الملاحة وتسهيل سبل الاستكشاف . وفي مقدمه أصحاب الفضل فى تقدم تلك العلوم في ذلك العصر «كوبرنيكس» (١٤٧٣ — ١٥٤٣) إذ وصل الى أن الأرض تدور حول الشمس وأن الشمس هى المحور الذى تدور حوله مجموعة الكواكب التى منها الأرض . وكان الرأى السائد قبل ذلك أن الارض هى مركز العالم ، وقد أدت هذه المكشوفات العلمية الى تغيير معلومات الناس الجغرافية التى كانت ضئيلة مهوشة . فكانوا يعتقدون مثلا أن الأرض قرص منبسط مركزه بيت المقدس يحيط به البحر ، وصور لهم الوهم مالا حقيقة له من الاخطار والمخاوف . ومصوراتهم توضح جلياً ما بلغه علم الجغرافية من الانحطاط . فترى فى إحدى هذه المصورات المرسومة فى القرن الحادى عشر ان بيت المقدس فى وسطها ، وفى أعلاها الجنة ، ورسم يمثل آدم وحواء والانهار العظمى التى كانوا يعتقدون انها تنبع منها . أما أفريقية فكانت ملأى بالمخلوقات العجيبة . والفضل فى تقدم عمل المصورات يرجع إلى الايطاليين الذين أخذوا في أواخر العصور الوسطى فى رسم نوع مخصوص منها لارشاد الملاحين . ومن الايطاليين الذين لهم فضل السبق في تنوير عقول العالم الأوربى من الوجهة الجغرافية «مركوبولو» أحد تجار البندقية الذى قام بسياحات طويلة فى آسيا ولا سيما فى الصين واستمرت رحلته هو وصحبه من أسرته عدة سنوات فى نهاية القرن الثالث عشر ، فلما عادوا إلى بلادهم سنة ١٢٩٥ أثاروا دهشة القوم وحماستهم بما أذاعوه من حكايات تكاد تكون خرافية عما شاهدوه من كنوز الثروة فى الشرق ، فلما سقطت الطرق التجارية القديمة التى كانت بين الشرق والغرب فى أيدى الاتراك العثمانيين وضيقوا

على الاوربيين سبل التجارة مع الشرق ، قام البرتغاليون والاسبان يريدون الوصول إلى الشرق من طرق أخرى لشدة حاجة أوربا إلى حاصلاته لا سيما التوابل والاعطار والنفائس

كان البرتغاليون أول من فتح للاوربيين باب الاستكشاف المطرد ، ورائدهم الامير هنرى الملقب بالملاح (١٣٤٩ — ١٤٦٠) وكان غرضه ترقية فن الملاحة والعمل على أضعاف المسلمين فى المغرب . فبدأ بارسال البعوث البحرية لكشف الشاطىء الافريقى . ودبت روح الاقدام والاستطلاع فى البرتغاليين وأخذ الدافع الدينى فى الضعف شيئاً فشيئاً وحل محله التطلع إلى انتزاع التجارة من يد العرب ونقلها إلى بلادهم . فبعد أن كشف البرتغاليون جزائر الخالدات ومديرا وأسوره فى القرن الرابع عشر أخذوا يتقدمون جنوباً حتى وصلوا إلى الرأس الاخضر (١٤٤٥) وساحل غانه ثم ساحل الذهب وجزيرة « فرنندبو »

وفى سنة ١٤٨٧ بلغ « برثلميو » رأس الرجا الصالح . وبعد ذلك تمكن الملاح البرتغالى فاسكو دى جاما (١٤٩٨) من السياحة حول رأس الرجا الصالح والوصول إلى « قالقوت » على الساحل الغربى للهند

وكانت تجارة الهند فى ذلك العهد فى أيدى العرب فكان هؤلاء ينقلون المتاجر الشرقية الفنيسة عن طريق البحر الأحمر وطريق خليج العجم ونهر الفرات إلى الاسكندرية والموانى السورية . ومن هذه الثغور يتناولها تجار البندقية وجنوة فيوزعونها فى أوربا . وكانت هذه التجارة مصدر خير عميم للبنادقة والمماليك على وجه خاص . فلذلك قام النزاع بينهم وبين البرتغاليين على هذه التجارة . وكانت موقعة « ديو » البحرية أمام بمباى سنة ١٥٠٩ التى انهزم فيها السلطان الغورى وحلفاؤه وفصل فى أمر تجارة الهند ووقوعها جميعها فى يد البرتغال

وقد نجح البرتغاليون بعد «دي جاما» في تكوين أول دولة بحرية استعمارية حديثة بفضل «كبرال» و«الميدا» الذي قاتل العرب في شرق أفريقية وأخذ منهم مزنبيق وكلوه وهو الذي كسب واقعة «ديو» التي سبق ذكرها ثم «البوكوك» وهو الذي وطد ملك البرتغال في الشرق وضم ملقا وجاوه وهرمز وعدن

استكشاف الاسبان

وفي أثناء محاولة البرتغال الوصول إلى الشرق عرض «كرستوف كلومبس» الجنوى الاصل فكرة إمكان الوصول الى الشرق بالسير غربا من مضيق جبل طارق . وقد تملكت هذه الفكرة كرستوف كلومبس ، فشرع يعرض عزمه على ملوك أوربا وأمرائها إبتغاء أن يمدوه بما يلزم لهذا الأمر الخطير فرفضت البرتغال وانجلترا وجنوه والبندقية . أما فرديننذ و إيزبلا أصحاب الأمر في أسبانيا فلبيا طلبه

وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٤٩٢ رسا كلومبس على إحدى جزر الهند الغربية بعد سياحة ٣٢ يوما ومنها انتقل الى كوبا معتقداً أنه وصل إلى آسيا . ولما مرّ على جزيرة «هيتي» ظنها اليابان . وقد قام بعد ذلك بثلاث رحلات أخرى وصل في أثنائها إلى نهر «أرينوقو» ومات غير عالم بأنه كشف قارة جديدة . وواصلت اسبانيا الكشف بعد كلومبس فطاف ماجلان سنة (١٥١٩ — ١٥٢٢) حول الارض وبهذه الرحلة ظهر جلياً وجود قارة عظيمة بين أوربا وآسيا

وفي تلك الآونة حاولت الممالك الاوربية الاخرى استكشاف طرق أخرى للشرق فكشف «يوحنا كابوت» لانجلترا سواحل أمريكا الشمالية أثناء محاولته الوصول للشرق عن طريق الشمال الغربي ، وكذلك حاولت فرنسا الوصول للشرق من هذا الطريق وكشفت جزءاً من سواحل كندا

ولما رأى الاسبان ماعليه القارة الجديدة من الثروة انصرفوا عن الشرق وبدءوا استعمارهم بالاستيلاء على الجزائر الكبرى من جزائر الهند الغربية ومنها صاروا يرسلون البعثات للشواطئ الامريكية . فخرجت عام ١٥١٩ من جزيرة كوبا حملة بقيادة « كرتيز » لفتح المكسيك ، وعلى الرغم مما كان بهذه البلاد من الحضارة التى لم تخطر بالبال فرّ أهلها من مدافع الاسبان وخيولهم وتمكن هؤلاء من التغلب على هذه البلاد بعد سنتين . وفى سنة ١٥٣١ فتح « بيزارو » بلاد « بيرو » وأخضعها لاسبانيا . وتغلب الاسبان بعد ذلك على ما بقى من جنوبى أمريكا ما عدا البرازيل فانها كانت تحت حكم البرتغاليين بعد استكشاف « كبرال » الملاح البرتغالى لها عام ١٤٩٦

ومع أن البرتغال كانت أول من طرق باب الاستكشاف والاستعمار فانها لم تحتفظ بكل مستعمراتها طويلا لقلة سكانها ولدخولها تحت حكم اسبانيا أيام فليب الثانى ، فاستولت أسبانيا على كثير من مستعمرات البرتغال ، ثم ظهرت قوة هولنده البحرية أثناء كفاحها مع أسبانيا فى طلب الاستقلال فاستولت على كثير من مستعمرات البرتغال فى الشرق ، ثم ظهرت انجلترا وفرنسا وبدأ تنافسهما فى سبيل الاستعمار

وكان من نتائج هذه الاستكشافات أن تحولت التجارة من البحر الابيض المتوسط إلى المحيطات الكبرى وبذا ضعف شأن جنوه والبندقية ومصر وقوى مركز اسبانيا والبرتغال فى أول الامر وغيرهما من الامم الغربية فيما بعد واتجهت أنظار الامم الاوربية إلى عبور البحار الشاسعة لتكوين مستعمرات وراءها ، وقد أدى ذلك إلى تصادم مصالح الدول المختلفة فى البحار والمستعمرات مما سبب كثيرا من الحروب الاوربية فى البر والبحر ، وفى أول الامر اجتهد البابا أن يمنع ذلك التصادم فقرر سنة ١٤٩٣ تصور خط واصل بين القطبين على بعد ٣٧٠ فرسخ من جزائر « أسورة » يكون كل ما كشف

شرقيه للبرتغال وما كشف غربيه للاسبان فوقعت بذلك البرازيل فى جوزة البرتغال

ومما يجدر ملاحظته أن الاستكشافات كانت نقمة على أصحاب البلاد الاصليين الذين لم يكونوا فى حالة وحشية كما يتصور بعضهم فلم يلبثوا أن قضت عليهم الحروب والامراض الاوربية ، ومن بقى منهم أصبح مسوداً بعد أن كان سيداً ، وقد تحسنت حالتهم فى أمريكا الجنوبية إذ اختلط بهم المستعمرون من الاسبان والبرتغال فكونوا بذلك عنصراً هاما فى السكان الحاليين فى تلك القاره أما فى أمريكا الشمالية فبقوا منعزلين عن المستعمرين من الانجليز وغيرهم وأخذوا فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً وليس هناك الآن إلا عدد يسير منهم فى غرب الولايات المتحدة وكندا

الفصل الثانى

الاصلاح الدينى

ظلت الكنيسة صاحبة الكلمة العليا فى أوربا طول العصور الوسطى ، فكان لها المنزلة الأولى فى جميع شئون الحياة ، ففى عالم السياسة كان رجالها يشغلون أرقى وأهم المناصب فى الحكومات المختلفة وكانت فى أيديهم شئون التعليم ومنهم المؤلفون والكتاب . زد على ذلك ما كان للبابا من السيطرة على السلطة السياسية وما كان يدعيه من حق السيادة على الأباطرة والملوك وقد بلغت البابوية منتهى قوتها في عهد « غريغورى السابع » و « أنوسنت الثالث » حتى قال الأخير « أنه لا خلاص لانسان فى العالم مالم يخضع للبابا فأنا قيصر وأنا الامبراطور الحقيقى صاحب السيادة على جميع أمراء الارض »

ولم يكن يخطر على بال أحد فى تلك العصور أن هذا النظام يمكن أن يثلم بحال من الأحوال ، إذ لم يكن هناك من يتطرق إلى ذهنه الشك فى سلطة البابا أو التفكير فى تغيير التقاليد الدينية المألوفة . أجل قامت حركتان ضد الكنيسة فى العصور الوسطى : الاولى جنوبى فرنسا وهى حركة « الالبيجنس » فى أوائل القرن الثالث عشر ، والثانية على أثر انتقال تعاليم « وكلف » الانجليزى إلى بوهيميا فى أواخر القرن الرابع عشر وقيام «حناهوس» يعارض البابا وينقد أعمال الكنيسة غير أن الكنيسة تمكنت من قمع الحركتين مستعملة القسوة الزائدة ضد الملحدين

أما الثورة البروتستنتية التى قام بها الاستاذ « مارتن لوثر » ضد الكنيسة فقد هزت أرجاء أوربا فاستمرت في عراك وحروب طاحنة

بسبب هذا الانشقاق الدينى أكثر من قرنين قامت الحروب فى اثنائهما فى كل صقع من أصقاع اوربا ، واليك الاسباب الرئيسية التى أدت إلى استفحال أمر هذه الثورة الدينية :

ا — **روح الانتقاد** : التى ظهرت على أثر حركة احياء العلوم وتناولت كل الأنظمة التى اعتادها الانسان وفى مقدمتها الانظمة الدينية ، فسلط المفكرون على نظام الكنيسة نور العقل والمنطق والحكمة فزاغ الناس فى الجنوب ونبذوا الدين ظهريا . اما فى الشمال فان الناس لم يكونوا أهل عواطف وشعور بل هم على الاكثر أهل رزانة وتعقل فانكبوا على كتب الفلسفة وعلى دراسة كتب الديانة الاولى بلغاتها الاصلية العبرية واليونانية واللاتينية ، ولما لم يكن لاهل الشمال مدنية قديمة كأهل الجنوب ، ولما كان كل ما أخذوه من المدنية جاء من طريق الكنيسة دفعتهم النهضة الى الاهتمام بمصدر مدنيتهم وهى الكنيسة فنقبوا عن الاصول الدينية وكتب القديسين الاوائل ولما وقفوا على حقائق دينهم وقرنوا ذلك بما وصلت اليه الكنيسة من الانحطاط ثارت حميتهم يبغون اصلاحها

وكانت الكنيسة تهتم بظواهر الدين دون لبه فكان الناس يعنون باقتناء مخلفات القديسين والرسل ، وبالحج الى مدافن القديسين ، وبتعذيب أجسادهم ، وبتلاوة الادعية اللاتينية المغلطة التى لا يفقهون لها معنى ، ويحرصون على طاعة القسس طاعة عمياء بينا كان أكثر هؤلاء يعيشون عيش البذخ والترف والفساد ، وكان البابا وحاشيته يتنعمون فى رومة تنعما أثار الشكوك فى أحقية خلافتهم لرسل المسيحية الاولى . فلما جاءت النهضة شجعت الناس على حرية النقد ومضى العهد الذى كان فيه القسيس مطاعا من غير مناقشة

ب — **تشجيع الامراء** : — ومما ساعد على نجاح حركة الاصلاح الدينى رغبة الأمراء فى التخلص من تدخل الكنيسة والبابا فقد كان لهما حق تعيين الرؤساء الدينيين ، والتدخل مباشرة فى الأحوال الشخصية وجباية الأعشار من الممالك المختلفة . زد على ذلك ما كان للكنيسة فى كل مملكة من الأراضى الواسعة المعفاة من الضرائب يستغلها رجال الدين خاصة . لذلك شعر الملوك والأمراء ان استقلالهم فى الحقيقة ناقص وأنه يجب انتهاز هذه الفرصة للتخلص من سيطرة رومة والاستحواذ على مافى أيدى رجال الدين من الممتلكات . وقد كانت وطأة تدخل الكنيسة أشد مايكون فى ألمانيا لعدم وجود حكومة مركزية قوية تقاوم النفوذ الأجنبى كما كان الشأن فى انجلترا وفرنسا ، فلاعجب إذا دفع أمراء ألمانيا بأنفسهم فى تيار الاصلاح وتعضيد لوثر

ح — **صكوك الغفران** : — أما السبب المباشر الذى ساعد على قيام لوثر بالثورة ضد البابا فيرجع إلى بيع الكنيسة صكوك الغفران . وأصلها اعفاء البابا للمذنب من طائلة العقاب الذى يلحقه حتى بعد غفران القسيس له ، فلم يكن المقصود منها غفران الذنوب لان ذلك يلزم أن يسبق الاعفاء ، إنما كان المفهوم أنه لابد من تطهير المذنب من أدران ذنبه حتى بعد التوبة قبل دخول الجنة . فلتخفيف عذاب التطهير أو رفعه كان البابا يرسل رسلا من لدنه يبيعون صكوك الغفران للمذنبين ، فكان كل يشترى هذه الصكوك حسب مقدرته وكانت أحيانا تعطى مجانا للفقراء

ثم أخذ الناس يشترون هذه الصكوك لتخفيف عذاب موتاهم ولغفران ماتقدم من ذنوبهم وما تأخر ، وشجعتهم الكنيسة على ذلك لما يعود عليها من الارباح الطائلة خصوصا وأن البابا « ليو العاشر » كان قبل ظهور « لوثر » فى حاجة إلى المال لبناء كنيسة القديس بطرس الشهيرة برومة فكثر انتقاد المفكرين على تصرفات الكنيسة وبدأ طلب الاصلاح

ظهور المصلحين

ومن أسبق من عملوا على إصلاح الكنيسة «ارزمس» فقد أدرك ما كان في نسخة الأنجيل اللاتينية المتداولة إذ ذاك من الاغاليط والأوهام فعمد إلى نشر النسخة الاغريقية الاصلية مرفقة بترجمة لاتينية صحيحة وعلق عليها بتفسيرات جديدة . فكان لعمله هـذا أعظم أثر في ايقاف الناس على أصل دينهم وحقيقته ، وظهر للعيان مقدار ماطرأ على الدين من التحريف ، وكان رأيه في الاصلاح أن يثقف عقول الناس بالادبيات القديمة حتى يتمسكوا بلب الدين دون ظواهره ، أما الخروج على البابا والكنيسة فكان يعده نقمة . ومن المصلحين الذين ظهروا قبيل لوثر « كلين » الذى انكب على درس اللغة العبرية واستعان بها على تفسير الكتاب المقدس وأخذ يحض العلماء على الاهتمام بشأنها فأثارت دعوته ضجة جدلية بين علماء العصور الوسطى وعلماء النهضة . وبينما كان أرزمس يمنى نفسه بهذا الاصلاح السلمى البطىء المحقق النتيجة إذا بضجة قامت في ألمانيا كدرت عليه صفو عيشه وذلك بظهور « مارتن لوثر »



مارتن لوثر

ولد « مارتن لوثر » لأبوين فقيرين سنة ١٤٨٣ في بلدة صغيرة في سكسونيا ، وقد أرسله أبوه إلى المدرسة ليعده لدراسة القانون ثم أدخله

جامعة « ارفورت » فبقى بها أربع سنوات ولكنه غير عزمه فجاة ودخل ديراً من أديرة القديس « أغسطين » سنة ١٥٠٥ لما خالجه من الشكوك فى ايمانه، فجد فى العبادة من صيام وقيام وتعذيب ولكن كل ذلك لم يرح ضميره ٠

ولما أشرف على القنوط نصح له رئيس الدير ألا يعول كثيراً على صالح أعماله بل يضع كل ثقته فى رحمة الله فأخذ يدرس كتب الرسل الأول حتى اعتقد أن لا خلاص إلا بالايمان برحمة الله فاطمأن قلبه ٠ الا انه بدأ يرى أن الكنيسة تحض الناس على الأعمال الصالحة وتهمل ارشادهم الى الايمان الصحيح

وفى سنة ١٥٠٨ دعاه « فردريك » منتخب سكسونيا ليدرس فى جامعة « وتنبرج » فأخذ يبث فى تلاميده عقيدة التبرير بالايمان بدون أن يفكر فى قلب الكنيسة ، بل دعاه تعلقه بها إلى زيارة رومة سنة ١٥١١ فتبرك هناك بكل الاماكن المقدسة ولكنه أزعجه ما شاهده من فساد أخلاق رجال الدين وما سمعه من سوء سيرة البابوات فعاد وقلبه مفعم بالسخط على رجال الكنيسة . وما لبث أن سنحت له الفرصة فى سنة ١٥١٧ لاظهار ما يكنه صدره للعالم الالمانى ٠ وذلك أن البابا أرسل إلى مدينة وتنبرج الراهب « حناتزل » لبيع صكوك الغفران فما كان من لوثر إلا أن كتب ورقة بها ٩٥ حجة من صكوك الغفران وعلقها على باب الكنيسة داعيا للمناقشة كل من يريد من العلماء . فاشتهر أمرها وترجمت إلى الألمانية ووزعت فى طول البلاد وعرضها

فلما بلغت البابا دعاه لرده عن زيغه فتوسط له منتخب سكسونيا واكتفى البابا بتكليف رجاله فى المانيا أن يقنعوه ، فدارت مناظرة عظيمة بين تلاميذ مارتن لوثر ورجال البابا أدت إلى اعلان لوثر أن صكوك الغفران والبابوية كلها بدع مستحدثة لم تكن معروفة أيام الرسل الأولين ، وبدأ

إذ ذاك يشعر انه يوشك أن يقود ثورة ضد الكنيسة . فالتفت حوله رجال الادب وأشهرهم الفارس « فن هوتن » الذى جمع الفرسان حول مارتن لوثر لحمايته فتشجع لوثر واشتد فى طعنه على الكنيسة ودعا الفرسان والامراء سنة ١٥١٩ للقيام بالاصلاح . وأهم ما فى دعوته أن يكون رجال الدين خاضعين للسلطة المدنية وأن ليس للبابا حق احتكار تفسير الانجيل ونصح بتقليل الاديرة وبترك الحج وبزواج القسس وانكر على القسس قدرتهم على تحويل العشاء الربانى . فلما علم البابا بذلك لم يسعه إلا إصدار قرار الحرمان ضد لوثر فلم يعبأ بقراره الامراء وكان جواب لوثر عليه أن أحرق قرار البابا علنا

قرار مجمع ورمس : — ولما طلب البابا إلى الامبراطور شارل الخامس تنفيذ قرار الحرمان ضد لوثر عقد الامبراطور المجمع الالمانى فى « ورمس » سنة ١٥٢٠ ودعا لوثر إلى الحضور وطلب اليه أن يرجع عن زيغه فأبى إلا أن يقنعوه بحجج من الكتاب المقدس ، فعد المجمع ذلك بمثابة رفض للاذعان لأوامره ، فحكم عليه بالطرد خارج القانون وأهدر دمه وحرمت قراءة كتاباته . وبينما كان لوثر مهدداً بالقبض عليه فى أية لحظة ، حمله بعض أصحابه إلى حصن « ورتبرج » فى حماية منتخب سكسونيا ، وبقى مختبئا به عامين ترجم فى أثنائهما الانجيل إلى اللغة الالمانية ، فكان ذلك أول كتاب قيم طبع بهذه اللغة ففتح لها عهداً جديداً ، وأصبح نموذجا نسج على منواله فيما بعد. ومن ذلك الوقت استطاع الشعب أن يطلع على الكتابات الدينية بنفسه ، وكثر أنصار لوثر فان كل طبقة كانت ترى مصلحتها فى الانضمام اليه ، فكان الفلاحون يريدون التخلص من قيود الاقطاع ، والفرسان يريدون توسيع نفوذهم ، والامراء يرغبون فى الاستيلاء على أملاك الكنيسة

حرب الفلاحين : — فلا عجب إذن أن عم الهرج ودخل الناس

الكنائس وكسروا مافيها من صور وتماثيل وهجموا على الأديرة فأخرجوا الرهبان والراهبات ، فذعر « مارتن لوثر » وخرج من مخبئه ونصح لأتباعه بالتؤدة والاعتدال ، ولكن الهياج استمر وخرجت قيادة الحركة من يده فقام الفرسان وهاجموا حصون الأساقفة والأمراء ولكن هؤلاء اتحدوا وقضوا على الفرسان قضاء مبرما وكان ذلك سنة ١٥٢٢ ، فأوجس الموالون للكنيسة خيفة وأجمعوا أمرهم على مناوأة الحركة الجديدة التى رأوا فيها روح العنف والثورة . ولكن الفلاحين كانوا قد فطنوا الى مارزحوا تحته من أعباء وقيود فانتهزوا هذه الفرصة وقاموا باسم الدين يعملون على تحرير أنفسهم سنة ١٥٢٤ — ١٥٢٥ فخربوا ونهبوا وقتلوا . وحاول لوثر أن يخفف من غلوائهم رغبة منه فى الاحتفاظ بتعضيد الامراء والحكومات له فلم يفلح فانقلب عليهم وحث الامراء على اخضاعهم بالشدة فقضوا على الحركة ونكلوا بالفلاحين وأعملوا فيهم السيف والنار فساءت أحوالهم كثيراً

مجمعا اسبير — ولغياب الامبراطور شارل الخامس عن ألمانيا واشتغاله بمحاربة فرنسوا الاول بقيت المسألة الدينية معلقة . فلما التأم المجمع الالمانى فى مدينة « اسبير » سنة ١٥٢٦ قرر أن يكون لكل أمير الحق فى اختيار المذهب الذى يتبع فى بلاده فأصبح لأنصار لوثر مركز معترف به ، ولكن عاد الامبراطور فأمر المجمع المنعقد فى « اسبير » سنة ١٥٢٩ بتنفيذ قرار مجمع « ورمس » ضد اللوثريين ، ولما كان أنصار لوثر أقلية فى المجمع قدموا احتجاجا ضد هذا القرار فعرفوا من ذلك الوقت « بالمحتجين » او « البروتستنت »

فلما عاد الامبراطور إلى ألمانيا سنة ١٥٣٠ منتصراً فى حروبه جمع المجمع الالمانى فى مدينة « اجزبرج » على أمل حسم النزاع الدينى فى ألمانيا فأمر « البروتستنت » بتحديد عقيدتهم فقدموا « اعتراف اجزبرج » وبينوا فيه مذهبهم متوخين الاعتدال والحيطة ليظهروا أن الفرق بين المذهبين تافه .

ففند الكاثوليك هذا الاعتراف ولم يسع الامبراطور الا الانحياز لجانبهم ، فخاف « البرتستنت » عاقبة تحزب الكاثوليك ضدهم فلموا شعثهم وعقدوا حلف « شمالكلد » سنة ١٥٣١ فانقسمت ألمانيا بذلك الى حزبين عظيمين متعادين ، وكادت الحرب تنشب لولا ماقام فى وجه الامبراطور من المشاكل السياسية . إذ توترت العلاقة بينه وبين فرنسا ، وأخذ السلطان سليمان القانونى يهدد تخوم بلاده وكانت الاحوال فى اسبانيا مضطربة ، فأحجم لهذه الاسباب عن مناوأة البروتستنت وتسامح معهم رجاء مساعدتهم إياه فى حروبه الخارجية الا أنه أضمر لهم الشر منتظراً سنوح الفرصة

فلما فرغ من مشكلاته وعقد مع فرنسا صلح « كربى » أو « كرسبى » سنة ١٥٤٤ اجتهد فى استمالة بعض أمراء البروتستنت وأظهر لهم أن غرضه سياسى لاديني أى انه لايريد اخماد الاصلاح الدينى بل يريد القضاء على حلف « شمالكلد » الذى كان يهدد الحكومة . وكان أعظم أمير نجح فى استمالته هوموريس السكسونى الذى انحاز الى الامبراطور لما كان بينه وبين بعض أعضاء الحلف من العداء والشحناء ، ولما كان الامبراطور يعده ويمنيه به من تعيينه منتخباً لسكسونيا ، وأصبحت الحرب قاب قوسين أو أدنى وكان لوثر يكره مالابد أن تجر اليه دعوته من سفك الدماء ولكن قدرله ألايرى بلاده فى حرب أهلية بسبب دعوته اذ مات سنة ١٥٤٦ ، ونشبت الحرب بعد ذلك بقليل وانتصر الامبراطور فى موقعة « مهلبرج » عام ١٥٤٧ انتصاراً مبينا فخضع معظم أمراء البروتستنت للامبراطور . ولكن ما كاد موريس يظفر بأمنيته حتى قلب للامبراطور ظهر المجن ، وكان موريس من أمهر قواد عصره ، فاشتد ساعد البروتستنت به وبانضمام فرنسا لهم ، فلما بدأت الحرب ثانية عام ١٥٥٢ رجحت كفة الامراء البروتستنت وكاد الامبراطور يقع أسيراً فى أيدى أعدائه ، فاضطر الى الاتفاق معهم وعقد صلح «اجزبرج»

سنة ١٥٥٥ وبه أخمدت نار الفتن الدينية مدة ثلاث وستين سنة حتى اشتعلت ثانية فى حرب الثلاثين سنة عام ١٦١٨

صلح اجزبرج : — وأهم شروط هذا الصلح أن يكون لكل أمير الحق فى انتخاب المذهب الذى يريد اتباعه فى ولايته ، وكل فرد لا يرضى بمذهب الولاية له أن يهاجر منها ويأخذ معه جميع أمتعته ، وأن جميع أملاك الكنيسة التى استولى عليها غير رجال الدين قبل عام ١٥٥٢ تبقى لهم ، وأما ما استولوا عليه بعد هذا التاريخ فيعاد إلى الكنيسة . ويلاحظ أن فى هذا الصلح نقائص حدث عنها مشكلات فى المستقبل : فأول نقص فيه أنه لم يمنح الحرية الدينية للافراد بل ترك الفصل فى أمر دين الفرد الى حاكمه . والنقص الثانى خاص بأمر أملاك الكنيسة وهو أنه لم تكن هناك سلطة تنفيذية ترد الى الكنيسة الكاثوليكية أملاكها ، على أن أعظم نقص فى الصلح انه لم يذكر شيئاً عن اتباع المصلحين الآخرين كاتباع « زونجلى » و « كلفن » اللذين ظهرا فى سويسرا وفرنسا

زونجلى ١٤٨٤ — ١٥٣١

حالة سويسرا : — ظهر المصلح زونجلى فى سويسره وكانت هذه البلاد فى القرون الوسطى مكونة من مدن ومقاطعات تعترف بسيادة الامبراطور ، ولم تكن هذه السيادة إلا اسمية فقط . فلما أرادت أسرة هبسبرج أن تقبض على زمام الامور فى هذه البلاد نفر أهلها لما طبعوا عليه من حب الاستقلال لمناعة بلادهم وسهولة الاعتصام بجبالها وكونت المقاطعات الثلاث المجاورة لبحيرة « لوسرن » حلفا كان نواة للجمهورية السويسرية ، دافع عن استقلال البلاد حتى انتصر على أسرة هبسبرج

فى موقعة « مورجاتن » عام ١٣١٥ وأخذ الحلف يزداد قوة باستمالة المقاطعات والمدن الاخرى اليه حتى تخلصت البلاد نهائيا من سيادة الامبراطور سنة ١٤٩٩ ، وإن لم يعترف باستقلالها دولياً إلا بمقتضى معاهدة «وستفاليا» سنة ١٦٤٨ ، غير أن المقاطعات المختلفة لم تندمج اندماجا تاما بسبب الاختلاف الجنسى واللغوى والتاريخى بين المقاطعات الالمانية والفرنسية والطليانية

لذلك لما قام زونجلى — من غير أن يتأثر بتعليم لوثر — فى زيوريخ سنة ١٥١٨ يطعن فى صكوك الغفران وفى استخدام البابا رجال سويسرا فى حروبه ويدعو إلى زواج القسس و إلى التعويل على الأنجيل دون تعاليم الكنيسة انحازت زيوريخ الى جانبه وتبعها بعض المدن ولكن أهل المقاطعات الاصلية المجاورة لبحيرة لوسرن قاموا فى وجهه خوفا على ضياع نفوذهم فنشبت الحرب وانتهت بانتصار الكاثوليك فى موقعة «كابل» سنة ١٥٣١ التى مات فيها زونجلى ، ولكن الانتصار لم يحمل الكاثوليك على القضاء على مخالفيهم بل اصطلح الفريقان على أن يكون لكل مقاطعة أومدينة حق اختيار المذهب الذى تسير عليه ، فبقيت سويسره كالمانيا مقسمة بين بروتستنت وكاثوليك وأهم أثر لتعاليم زونجلى فى أوربا هو رأيه فى أن العشاء الربانى ما هو إلا رمز يراد به الذكرى فقط . وبعد زونجلى بقليل ظهر « حنا كافن » المصلح البروتستنتى الذى فاقت شهرته زونجلى ولوثر .

كافن ١٥٠٩ — ١٥٦٤ .

ولد كافن ببلدة نويون بأقليم بيكارى بفرنسا وأرسله والده إلى جامعة باريس ليتم دراسته بها وكان يريده أن يدرس الحقوق فذهب إلى أورليان حيث أخذ عن أحد المتضلعين فى القانون فى ذلك العصر ، وحوالى سنة ١٥٣٤ خرج عن مذهب الكنيسة واتبع مذهب لوثر وحينئذ اضطر إلى

مغادرة فرنسا — لأن ملكها فرنسوا الاول أخذ يضطهد البروتستنت — ونزل ببلدة بازل بسويسره حيث نشر كتابه الهام « قواعد الدين المسيحي » الذي بين منهجه في الاصلاح الديني ، وبعد نشر هذا المؤلف دعته مدينة جنيف سنة ١٥٣٦ فأقام فيها معظم باقي حياته ومن هذه المدينة أخذ اسمه وشهرته يفشوان في كل أوربا . وقد مهدت له حال هذه المدينة السياسية أن ينهض بتعليماته وينشرها

وخلاصة مذهب كلفن : الايمان بالقضاء والقدر وأن الله سبحانه وتعالى قدر أعمال كل انسان من يوم مولده فلا سبيل إلى تغييرها ، وأن الخلاص بمحض فضل الله ورحمته لادخل لعمل العبد فيه . وقد أدت هذه العقيدة إلى تعلق الناس بالكنيسة والخضوع لاوامرها والعمل على نشر الدعوة الدينية بلا خوف ولا وجل غير حاسبين للامراء أو الحكومات حسابا .

وكان نظام كنيسة كلفن يقضي بادماج السلطة المدنية في السلطة الدينية واشراك غير القسس معهم في ادارة شئون الكنيسة ، وتخويل الشعب حق اختيار القائمين بها فكان هذا النظام ديمقراطيا من هذه الوجهة . وبمقتضى هذا النظام كان للكنيسة حق الاشراف على الآداب العامة فكانت تعاقب من يتخلف عن الصلاة وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، فأصبحت جنيف كعبة يؤمها طلاب الاصلاح والمضطهدون من الممالك المختلفة ولا سيما فرنسا واسكتلنده وانجلترا والاراضي المنخفضة وألمانيا . فلما عاد هؤلاء إلى بلادهم عملوا على نشر مذهب كلفن ، وأدى ذلك الى مناوأة الحكومات التي كانت تخشى على سلطانها من انتشار ذلك المذهب — مذهب الاستبسال والديمقراطية — الذي سرعان ما أذكى نار الحروب الدينية الاهلية في أوربا ودفع أهل الحمية من أنصاره إلى خوض غمار البحار وتأسيس المستعمرات في شمال أمريكا وجنوب أفريقية . وقد ظهرت روح مذهب كلفن في

حروب الهيجونوت فى فرنسا وفى كفاح الهولنديين ضد اسبانيا والبيوريتان فى انجلترا والبرسبتريان فى اسكتلندا ، واستمر كلفن فى جنيف الحاكم المطلق دينياً وسياسيا إلى أن مات سنة ١٥٦٤

حركة الاصطلاح الكاثوليكية

ولقد هال الكاثوليك انتشار البروتستنتية فى أنحاء أوربا ورأوا انه لم يعد فى الامكان تأجيل اصلاح الكنيسة الكاثوليكية الذى طالما نادى به المصلحون من قبل ظهور لوثر ومن بعده ، ولم يكن المراد من هذا الاصلاح ادخال تغييرات أساسية فى العقيدة بل كان المراد تطهير الكنيسة مما علق بها من ضروب الفساد فى نظامها وسلوك رجالها وقد بدأت حركة الاصلاح داخل الكنيسة فى منتصف القرن السادس عشر حين اعتلى بولس الرابع كرسى البابوية (١٥٤٥ — ١٥٥٩) فكان أول من فطن من البابوات إلى سوء حال الكنيسة وضرورة البدء فى التحسين ، فنبذ طريقة البابوات الذين تقدموا ، وصرف كل وقته فى خدمة الكنيسة فارتفع بذلك المستوى الادبى والدينى بين رجال الكنيسة من البابا فمن دونه . وعلى أثر ذلك ظهرت عوامل جديدة ساعدت على مواصلة الاصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية . وأهم هذه العوامل ظهور جمعية الجزويت أو اليسوعيين ومجمع ترنت

اليسوعيون — يرجع تأسيس جمعية اليسوعيين إلى فارس اسبانى اسمه «اجنات ليولا» بدأ حياته فى جيش الامبراطور شارل الخامس وجرح سنة ١٥٢١ فى حصار «بامبلونا» أثناء الحرب التى قامت بين فرنسا والامبراطور شارل لكان (شارل الخامس) فى نفارة ، فاضطر الى ترك الجيش ، وفى أثناء مرضه انكب على مطالعة سير القديسين الاول فثارت فى نفسه حمية دينية جديدة، حدت

به الى التشبه بهؤلاء الأبطال ، ورأى أن ذلك لايكون الا بالعلم فبدأ يتعلم اللاتينية والحكمة والديانة فى جامعة باريس بعد أن بلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة . وهناك استمال اليه عدداً قليلا من زملائه وأسسوا سنة ١٥٣٤ «جمعية اليسوعيين» بقصد التبشير بالدين المسيحى بين أهل المذاهب الاخرى ، ثم قدموا أنفسهم للبابا فى رومة فأقر جمعيتهم وشملهم بعنايته سنة ١٥٤٠ ، وكان نظام الجمعية عسكريا صارما أساسه الطاعة العمياء للرؤساء الذين كان لهم التصرف المطلق فى رجال الجمعية وأموالها وكان من المحتم على أعضاء الجمعية أن يقطعوا كل رابطة تصلهم بأسراتهم وأن يخصصوا حياتهم لخدمة مبادئ الجمعية والكنيسة الكاثوليكية وكان من المفروض عليهم أن يظهروا الخضوع والتذلل والتخشن حتى يستميلوا النفوس اليهم . وكانت الجمعية رهن اشارة البابا فأغدق عليهم من الامتيازات والنعم ماأثار عليهم حسد رجال الكنيسة

وقد أخذ اليسوعيون أول الأمر فى محاربة البروتستنتية بطرق مختلفة منها أن بعض رجالها كان يلج أبواب السياسة خدمة للبابوية فكان منهم مستشارون ووزراء ذوو نفوذ . على أن أكبر مجال ضربوا فيه بسهم صائب كان فى التربية والتعليم اذ كانت مدارسهم أحسن مدارس أوربا ، وأمكنهم بحسن نظام هذه المدارس وجودة تعليمها أن يفوقوا علماء النهضة الذين كانوا وقتئذ يحتكرون التعليم ، ونتج عن ذلك أنهم أصبحوا مسيطرين على عقول شبيبة أوربا أى رجال الأجيال التى تلت فكثر تحول الأمراء المتعلمين فى مدارسهم من البروتستنتية الى الكاثوليكية ، وقد نجم عن هذا النشاط المنقطع النظير أن سادت الفتن الداخلية فى الممالك البروتستنتية فى القرن السابع عشر . ولم يكن أمرهم مقصوراً على النهوض بالمذهب الكاثوليكى

ونشره وتثبيت سيادته فى أوربا ، بل كان لاقدامهم وشجاعتهم اليد الطولى فى نشره فى أمريكا والشرق الاقصى وغيرهما من الانحاء النائية . ومن أشهر رجالهم « زافير » الذى يرجع اليه الفضل فى نشر الكاثوليكية فى الشرق .

ولما عظم نفوذ الجمعية وزادت ممتلكاتها كثيراً بسبب ما أغدقه عليها البابا من الامتيازات والممتلكات حنق عليها رجال الدين وأوقعوا بين رجالها وبين البابا ثم مالبثت الجمعية أن اهتمت بالماديات فاشتغل أعضاؤها بالتجارة وقضت محاكم باريس سنة ١٧٦٤ بطرد الجزويت من فرنسا ثم أصدر البابا قراراً بالغاء الجمعية سنة ١٧٧٣ . الا أن الجمعية عادت وتكونت من جديد سنة ١٨١٤ ولها للآن معاهد فى كثير من البلدان

مجلس ترنت : — أما « مجلس ترنت » فقد انعقد فيما بين سنتى ١٥٤٥ — ١٥٦٣ تحت تأثير فريق من المصلحين الكاثوليك . وقد اضطر البابا أن يقبل تشكيل هذا المجلس للنظر فى الأمور الدينية بعد أن شدد شارل الخامس فى ذلك الأمر . وكان غرض شارل من تشكيل المجلس أن يوفق بين المذهبين البروتستنتى والكاثوليكى الا أنه لم يفلح فى ذلك لتسلط أنصار البابا على المجلس . وعلى ذلك قصر المجلس غرضه على النظر فى الشئون الخاصة بالكنيسة نفسها واصلاح مافسد فيها ، فقرر أن سلطة البابا مستمدة من المسيح وأن عقائد لوثر ضرب من ضروب الزيغ والكفر وعلى الأخص فيما يتعلق بالرجوع الى الكتاب المقدس وبعقيدة التبرير بالايمان فقط بدون واسطة أحد من البشر . ثم أوضح كل الأمور الدينية تماما حتى لايخطئ أحد فى تفهم شىء منها ، وحتم على كل القساوسة والرهبان أن يكونوا مثالا حسناً فى أفعالهم وأقوالهم . وكانت نتيجة أعمال هذا المجلس توضيح وتحديد المذهب الكاثوليكى وتمييزه عن المذهب البروتستنتى تمييزاً بينا . هذا الى ماحتمه على رجال الدين من لزوم التخلق بالصلاح والتقوى فى معاملاتهم

محاكم التفتيش — وبينما كانت الكنيسة تقوم بهذه الاصلاحات فكرت فى طريقة سريعة تستأصل بها شأفة البروتستنتية من الممالك الكاثوليكية والبروتستنتية ان أمكن ، فأعادت تنظيم محاكم التفتيش التى طالما استعانت بها الكنيسة فى العصور الوسطى للقضاء على حركات الملحدين كما استخدمها البابا « أنسنت الثالث » فى أوائل القرن الثالث عشر فى سحق حركة « الألبيجنس »جنوبى فرنسا كما ذكرنا ، فكان طبيعيا أن تلجأ الكنيسة الى استعمال هذا السلاح المرهف ضد أتباع لوثر وكلفن

وكانت هذه المحاكم دينية محضة تستمد سلطتها من البابا مباشرة ولا دخل للحكومات فى تصرفاتها اللهم إلا قيامها بتنفيذ أحكامها . أما قضاتها فكانوا من رجال الدين المعروفين بتعصبهم الشديد للكاثوليكية ، وكانت المحاكمة فى هذه المحاكم سرية . ومن واجباتها مراقبة المطبوعات والمدارس وتقرير الكتب التى يسمح بتداولها واحراق الكتب التى لاتتفق مع المذهب الكاثوليكى . ومن وظيفتها التجسس بكل الطرق على من يشتبه فى عقيدتهم والقبض عليهم ومحاكمتهم فى جلسات سرية وتعذيبهم بمختلف الطرق القاسية حتى تكرههم على الاعتراف بالالحاد وحينئذ يوقع عليهم العقاب بالاحراق أو السجن المؤبد ومصادرة أملاكهم ، حتى التائبون منهم كانوا يسجنون طول حياتهم تطهيراً لهم من جريمة الالحاد . وكان لهذه المحاكم شأن مهم وأثر خالد فى ايطاليا وفى اسبانيا حيث كان « فليب الثانى » يضحى كل شىء فى سبيل خدمة الكنيسة . أما فى الاراضى المنخفضة فقد أتت محاكم التفتيش بعكس ما كانت ترمى اليه اذ بغضت الى الناس حكم اسبانيا فثاروا عليها وظلوا يحاربونها حتى ظفروا بالاستقلال ويذكر التاريخ هذه المحاكم بالسخط لما جرته على الشعوب البريئة من الويلات والحروب .



صورة الاسرة المقدسة من عمل المصور الطليانى دلسارتو

الفصل الثالث

اسبانيا

تمهيد — لما اضمحلت الدولة الرومانية باغارة القبائل المتبربرة على أملاكها فى القرن الخامس بعد الميلاد وقعت أسبانيا فى أيدى قبائل القوط الغربيين الذين بقوا حتى سنة ٧١١ ميلادية حين بدأ العرب بقيادة طارق ابن زياد عامل موسى بن نصير يغزون هذه البلاد ويتوغلون شمالا حتى عبروا جبال البرانس وحاولوا بقيادة عبد الرحمن الغافقى عامل بنى أمية على الاندلس اخضاع بلاد الفرنجة فصدهم هؤلاء بقيادة « شارل مارتل » فى واقعة « تور » أو « بواتييه » على نهر « اللوار » سنة ٧٣٢ م. فتقهقر العرب بسبب قتل قائدهم وانهماكهم فى جمع الاسلاب والاحتفاظ بها ، وبعدهم عن قاعدتهم الحربية ، وتعتبر هذه الواقعة من المواقع الحاسمة فى التاريخ لانها وضعت حداً لتقدم الجنس السامى العربى إلى داخل شمالى أوربا

شرع العرب بعد ذلك ينظمون حكومتهم فى الأندلس فقضوا على نظام الاقطاع الذى كان سائداً فى تلك البلاد إذ ذاك وأقاموا حكومة مستنيرة تعمل للصالح العام غير متحيزة إلى فئة دون أخرى ضاربة صفحاً عن الاختلافات الدينية والجنسية . ولما انقضت دولة بنى أمية سنة ٧٥٠ م جاء إلى الأندلس « عبد الرحمن بن معاوية بن هشام » الأموى فارا من وجه العباسيين ، فانحاز اليه أنصار أسرته واستطاع بعد اعوام قليلة أن يؤسس دولة عربية مستقلة مقرها قرطبة

وما برحت هذه الدولة تنمو وترقى فى مدارج الحضارة حتى تسنمت ذروة

المجد فى عصر « عبد الرحمن الثالث » الملقب بالناصر (٩١٢ — ٩٦١) وهو أول من اتخذ لنفسه لقب الخلافة فى الأندلس إذ بلغت البلاد مبلغا عظيما من الرقى المادى والأدبى ، فتقدمت الزراعة حتى صارت البلاد روضة غناء ونمت التجارة واتسع نطاق الصناعة ، وشيدت المدن والقصور وجامعات العلم التى صارت مقصد الطلاب من جميع انحاء العالم الشرقى والغربى ، ونبغ فيها من العلماء أمثال «ابن رشد» أشهر حكماء عصره وعنه أخذ الافرنج علوم فلاسفة اليونان فكان ذلك من دواعى تنبيه أذهانهم إلى الاهتمام بالأدبيات والعلوم القديمة التى يعتبر إحياؤها من أكبر مظاهر النهضة .

وقد واصل خلفاء عبد الرحمن الثالث السير على خطته ولكن بدأت الفتن تظهر بين المسلمين عقب استئثار « المنصور بن أبى عامر » حاجب الدولة بالحكم إذ أثار عمله وعمل أبنائه من بعده غضب الأمراء والأهالى فعمت الفوضى واشتد الخصام بين العرب وأهل المغرب الذين جاءوا من إفريقية وزاد ضعف مركزهم أن بقايا القوط كانوا قد اعتصموا بالجبال شمالى البلاد وغربيها وأسسوا دويلات مسيحية صغيرة أهمها قشتالة ونفارة وأرجونة والبرتغال وليون ، وأخذت هذه الأمارات تنمو شيئا فشيئا حتى تجلى ضعف العرب فضم المسيحيون صفوفهم وأخذوا يهاجمون « ملوك الطوائف » الذين قاموا على انقاض دولة الخلافة بقرطبة فاستعان ملوك الطوائف « بالمرابطين » وهم دولة من البربر قامت شمالى إفريقية بزعامة « يوسف بن تاشفين » فجاؤا إلى الأندلس واستولوا عليها سنة ١٠٨٦ م ثم مالبثت أن قامت دولة « الموحدين » على انقاض دولة المرابطين ، إلا أن كل ذلك لم يجد المسلمين نفعا فى حين كانت الامارات المسيحية تزداد قوة وتزحزح العرب خطوة خطوة وتستولى على مدنهم واحدة بعد أخرى حتى سقطت فى أيديهم قرطبة سنة ١٢٣٦ م وبعدها اعتصم المسلمون فى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة الاندلس وأقام « بنو الاحمر » أمارة غرناطة الشهيرة التى جددت

مجد الأندلس الأول ، يشهد بذلك «قصر الحمراء» الذى لا يزال قائماً فى غرناطة والذى يعد من أبدع ماصنعته يد الانسان فى هندسته ودقه صنعه وجمال بنيانه ونقوشه

وفى تلك الأثناء كانت الأمارات المسيحية تزداد قوة على قوة حتى ظهرت بينها إمارتان عظيمتان هما أرجونه وقشتالة ، فلما تزوج « فرديند » وارث أرجونه من « ايزبلا » وارثة قشتالة فى آخر القرن الخامس عشر صارت هاتان المملكتان كأنهما مملكة واحدة ، ولذا يعتبر هذا الزواج حادثة سياسية كبرى جمعت كلمة المسيحيين فى شبه جزيرة الاندلس ولم يبق خارجاً عن نفوذها إلا البرتغال ونفاره وغرناطة

ولما صار الملك بيد فرديند وايزبلا عقدا النية على إخراج المسلمين من الاندلس فبدأت جيوشهما تضيق الخناق على غرناطة ولم ينته عام ١٤٩٢م حتى سقطت فى أيديهما وغلوا فى اضطهاد المسلمين حتى فر كثير منهم إلى بلاد المغرب وواصل ملوك اسبانيا من بعدها هذه الخطة القاسية حتى تم طرد جميع من لم يعتنقوا المسيحية سنة ١٦٠٩ فى عهد « فليب الثالث ».

ولما ماتت إيزبلا سنة ١٥٠٤ انفرد فرديند بالحكم بقية حياته إلى أن مات سنة ١٥١٦ فخلفه فى ملك اسبانيا حفيده « شارل » ابن ابنته «جوانا» التى كانت قد تزوجت من « فليب » حاكم الاراضى المنخفضة وهو ابن الامبراطور مكسمليان ووالدته «مارى» بنت شارل الجسور دوقة برغندية

فرديند (أرجونه) = تزوج ازبلا (قشتاله) | الامبراطور مكسمليان = تزوج ماريه وارثة برغندية
(١٤٦٩ م) | (١٤٧٧ م)

جوانا = تزوجت فليب (١٤٩٦)

فرديند | شارل الخامس

اسبانيا فى عهد شارلكان — (١٥١٦ — ١٥٥٦) ما كاد الاسبان يظفرون بلم شعثهم وتوحيد كلمتهم واجلاء المسلمين عن بلادهم حتى بدءوا عهداً جديداً رقت اثناءه اسبانيا مدراج التقدم والثروة والملك الشاسع ، إذ سطعت فى بلادهم أشعة النهضة فاصاخ فرديناند وإيزبلا إلى ما عرضه عليهما « كرستوف كلومبس » من امكان الوصول إلى الهند — وهى إذ ذاك منتهى آمال المستكشفين الاوربيين — بمتابعة السير غربا فى عرض المحيط الاطلسى ، وكانت نتيجة تعضيدهما إياه ان صار لاسبانيا ملك واسع الارجاء فى القارة الجديدة ، ومالبثت أن أرسلت اليها الحملات الحربية ففتحتها وفتشت عن كنوزها المعدنية العظيمة واحتكرت التجارة فيها وفى البحار المحيطة بها ، فدرت على الاسبانيين خيرات عميمة من ذهب وفضة سرعان ماصارت بها اسبانيا أثرى دول أوربا وأعظمها قوة براً وبحراً فنبغ الاسبان فى ضروب التجارة وفاقوا غيرهم في الفنون الحربية والسياسية

وأدرك اسبانيا الحظ بمصاهرات سعيدة ربطتها بأعرق الاسر المالكة فى أوربا إذ أن شارل المعروف فى اسبانيا بشار الاول ورث عن جديه فرديناند وإزبلا ملك اسبانيا ومستعمراتها في الدنيا الجديدة ومملكة نابلى أو الصقليتين التى ضمها فرديناند إلى ممتلكاته سنة ١٥٠٤ . وكان قد ورث عن والده فليب الاراضى المنخفضة سنة ١٥٠٦ وورث عن جده مكسمليان أملاك أسرة هبسبرج سنة ١٥١٩ فأصبح شارل أقوى ملك فى أوربا

وإذ كانت الامبراطورية لاتزال انتخابية شرع منتخبو المانيا السبعة يفكرون فيمن يولونه عليهم ، وانتهز أعاظم ملوك أوربا هذه الفرصة لوقف ازدياد نفوذ شارل حتى لايصبح خطراً على كيان بقية الدول الاوربية ، فظهر له من المنافسين « فرنسوا الاول » ملك فرنسا « وهنرى الثامن » ملك انجلترا ، وحاول كل واحد من هؤلاء الثلاثة أن يفوز بتاج الامبراطورية

واتخذوا للوصول إلى ذلك طرقا شتى ، إلا أن الوطنية الالمانية حدت بالمنتخبين فى نهاية الأمر إلى انتخاب رئيس أسرة هبسبرج وهو شارل الذى أصبح الامبراطور شارل الخامس أو شارلكان



شارل الخامس

ولد « شارل » فى مدينة « غنت » سنة ١٥٠٠ ولما كان يحيط به من الآلام العائلية بسبب ضعف قوى أمه العقلية وتنازع أبيه وجده فرديننـد ونزاعه شخصيا مع جده بعد موت أبيه ، كانت تلوح على محياه كآبة يخيل إلى الرائى أنها غباوة ، والحقيقة أنه كان على جانب لا يستهان به من الحكمة السياسية وبعد النظر والخبرة بأخلاق الرجال والأمم حتى أنه ليعد من أعظم سواس العصور الحديثة كما ظهر ذلك فى المنازعات التى قامت بينه وبين منافسة فرنسوا الاول ملك فرنسا

المنافسة بين شارل وفرنسوا : وقد بدأت هذه المنازعات منذ تولى شارل عرش الامبراطورية لان فرنسوا وجد بلاده محوطة من كل جانب بأملاك شارلكان فلم يكن بد من وقوع الشقاق بينهما ، فضلا عن اختلافهما على أملاك برغندية وكفاحهما على ميلان التى استولى عليها فرنسوا سنة ١٥١٥ على أثر انتصاره فى موقعة « مارنيانو » فى حين كان الامبراطور يدعيها ملكا له لعلاقتها الاقطاعية بالامبراطورية من قديم . كذلك قام

النزاع بينهما على نابلى التى ورثها شارل عن جده فرديناند بينما كان فرنسوا يعدها من أملاك التاج الفرنسى منذ كانت لأسرة « انجو » الفرنسية .

وإذا وازنا بين مركز المتنافسين تبين لنا أن فرنسوا كان يمتاز بأنه يحكم مملكة متحدة فى الجنس واللغة والدين ، لها جيش ثابت ومالية منتظمة . أما شارل فكان يحكم دولة مترامية الاطراف مختلفة أجزاؤها فى الجنس واللغة والدين ، إلا أن موارد ثروته وجيوشه كانت أوسع وأكثر . لذلك كانت الحرب سجالا .

سياسة انجلترا — لهذا حاولت انجلترا بحذق وزيرها « ولزى » أن تستفيد من هذا الموقف الدولى الخاص وتجعل لنفسها مركزاً ممتازا فى أوربا فاوثق « ولزى » عرا المودة بين بلاده وبين كل من الطرفين على انفراد حتى صار كلاهما يحرص على اجتذابها لجانبه ، بينما ولزى يثير البغضاء بينهما حتى يحفظ التوازن ، فيعين المنهزم حتى لاترجح الكفة الاخرى . وقد نجحت هذه السياسة إلى حد أن زار شارلكان الملك هنرى الثامن فى بلاده سنة ١٥٢٠ ، وعقب ذلك بقليل تقابل هنرى وفرنسوا بالقرب من كاليه وكانت إذ ذاك من أملاك انجلترا .

بدء الحرب — وفى أول الامر انحاز هنرى إلى جانب شارل لما بينهما من المصاهرة إذ كان هنرى زوجا لخالة الامبراطور وكذلك انحاز البابا إلى الامبراطور ، وبدأت فرنسا الحرب باحتلال اقليم نفاره ، وأما جنود الامبراطور فدخلت ميلان وأعيد عرشها إلى أسرة « سفورزا » ثم ما لبث أن انحاز « دوق بربون » أقوى قواد فرنسوا إلى الامبراطور فانتصر الاخير فى موقعة « بافيا » فى سهل لمبرديا سنه ١٥٢٥ وجرح فرنسوا ووقع اسيرا وأرغم على إمضاء شروط معاهدة « مدريد » فى يناير سنه ١٥٢٦ وبها نزل فرنسوا عن حقه فى دوقيه برغندية وفلندرة وارتوا وعن كل حقوقه

فى نابلى وميلان ، وترك ولديه لدى الامبراطور ضماناً لتنفيذ هذه المعاهدة ، الا انه لم يكد يصل الى فرنسا حتى أعلن انه أمضى المعاهدة كرهاً وانه لن ينفذ شرطاً واحداً من شروطها .

ولما ظهر فواق شارل على خصمه حقد عليه البابا « كلمنت السابع » خوفا على أملاكه ، وتكون حلف « كنياك » من البابا وفرنسوا والبندقية وانجلترا وميلان لأن دوقها أراد أن يفوز باستقلاله عن الامبراطور ، وعلى الرغم من اشتغال الامبراطور إذ ذاك بمسألة الاصلاح الدينى فى ألمانيا وتهديد الأتراك فى عهد سليمان القانونى أملاك هبسبرج فى المجر استطاع شارل أن ينتصر على أعدائه فدخلت جنوده رومة سنة ١٥٢٧ ونهبتها وأسرت البابا . ثم انتصر على فرنسوا الذى حاول استرجاع نابلى فاضطر فرنسوا إلى عقد صلح « كمبراى » سنة ١٥٢٩ وبمقتضى هـذا الصلح تأيدت شروط صلح مدريد فيما عدا برغندية التى تنازل عنها شارل واسترد فرنسوا ولديه ، فخرجت أسرة هبسبرج من هذه الحروب التى استمرت تسع سنوات أقوى دولة فى أوربا

مشاغل شارل — وأراد شارل أن يتفرغ لحل المشكلة الدينية فى ألمانيا الا أنه شغل عن ذلك بحادثين مهمين . الأول مهاجمة الأتراك حدود أملاكه من الشرق وتعضيدهم « زابوليا » ملك المجر ضد أخيه فرديناند الذى ولاه الامبراطور على أملاكه النمسوية ومحاصرة فينا سنة ١٥٢٩ ، واستمر الحصار مدة أسابيع ارتد بعدها الترك لرداءة الجو وقلة المدافع ثم تم الصلح على تقسيم بلاد المجر بين زابوليا وفرديناند ، ولما مات زابوليا تعهد فرديناند بدفع جزية سنوية للسلطان عن المجر وترنسلوانيا

أما الحادث الثانى فهو ان قرصان المغرب فى البحر الابيض المتوسط اخذوا يناوئون الامبراطور بالاغارة على شواطئ أسبانيا ونابلى وجمعوا

صفوفهم تحت أمرة « خير الدين بربروس » الذى شجعه السلطان سليمان بتوليته رياسة الأسطول العثمانى ، حتى خشى شارل أن ينال الترك السيادة فى البحر الأبيض المتوسط فجمع أسطولا بقيادة « أندريا دوريا » أعاد نفوذ الامبراطور على سواحل إفريقية الشمالية

وفى تلك الأثناء كان فرنسوا يؤلب أعداء الامبراطور استعداداً لاستئناف الحرب ، فعاهد سليمان القانونى وصافى هنرى الثامن ملك انجلترا وجيمس الخامس ملك اسكتلندا ، وحاول أن يتحد مع حلف « شمالكلد » البروتستنتى فى ألمانيا ولكن أمراء ألمانيا أبوا أن يستنصروا بالأجنبى ، وقامت الحرب بين الفريقين وبقيت سجالا إلى سنة ١٥٤٤ حين انتهت بعقد « معاهدة كريى أو كرسپى » وبها تأيدت شروط صلح كمبراى وتعاهد فرنسوا وشارل على الشدة فى قمع حركة اللوثريين والتعاون ضد الأتراك . وبذلك ختمت الحرب التى بدأت بين شارل وفرنسوا سنة ١٥٢١ ومات فرنسوا سنة ١٥٤٧ أما شارل فحاول قمع البروتستنت بالقوة فلم يفلح بل اضطر أن يعقد معهم صلح « اجزبرج » كما تقدم

أما اسبانيا فكان من سوء طالعها أن انتخب شارل امبراطوراً إذ أن مركزه هذا ألزمه إهمال شئون اسبانيا الداخلية لاشتغاله بأمور الامبراطورية ومشاكلها العديدة الدينية والسياسية التى لم يعد منها فائدة على أسبانيا ، بل كان الأمر على عكس ذلك لأن تلك الحروب استنزفت موارد اسبانيا من رجال وثروة — وان تم فى عهده فتح المكسيك وبيرو — وبلغ من استياء الاسبان فى قشتالة ان قام مجلسهم النيابى المعروف باسم « كورتيز » يحتج على خطة الامبراطور فما كان منه إلا ان قضى على حرية هذا المجلس ونفوذه واستعان بمحاكم التفتيش فى الفتك بالملحدين من مسلمين ويهود وبروتستنت .

ومن الرغم من أنه ولد فى هولندا ولم يتعلم الاسبانية كانت أسبانيا أحب ممتلكاته إليه وكانت أخلاقه أقرب إلى أخلاق الاسبان ، ولهذا لما خابت آماله فى التوفيق بين المذهبين الكاثوليكى والبروتستنتى والاحتفاظ بالوحدة الدينية فى امبراطوريته اعتزل العمل سنة ١٥٥٦ ولجأ إلى دير فى أسبانيا بقى فيه الى أن مات سنة ١٥٥٨ تاركا لأخيه «فرديند» ممتلكاته فى النمسا ومرشحا إياه للامبراطورية وترك لابنه «فليب» اسبانيا ومستعمراتها والاراضى المنخفضة ونابلى وميلان .

فليب الثانى (١٥٥٦ — ١٥٩٨)

وجدت أسبانيا فى فليب ملكا اسبانيا بحتا ولد وشب محباً لاسبانيا متشبعاً بأخلاق أهلها متمسكا بمذهبهم الدينى ، يخالف أباه فى اعتداله إذ كان متعصباً للمذهب الكاثوليكى إلى حد ألهاه عن التفرغ لخدمة بلاده من



فليب الثانى

لوجهة الاقتصادية والسياسية ، فقد كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الخروج على الكنيسة والبابا خروج على الحكومة والملك ، فبذل كل ما يملك من ثروة ووقت وجهد فى قمع كل مذهب يخالف المذهب الكاثوليكى ، واعتمد فى تنفيذ مأربه على محاكم التفتيش التى استحثها على مواصلة عملها بجد وعدم

مبالاة فاتسع نفوذها فى عهده وكثر احراق المشبوهين والمتهمين بالالحاد وكان الشعب الاسبانى معجبا بخطة مليكه حتى كان يحتفل باحراق المتهمين ابتهاجاً وسروراً ، وقد جر تعصب فليب لمذهبه حروبا طويلة شنها على الهولنديين والانجليز والهوجونوت فى فرنسا

حروب فليب — وأول حرب اشتبك فيها هى الحرب التى ورثها عن والده ضد هنرى الثانى الذى خلف فرنسوا الاول على عرش فرنسا وانتصر فليب فى موقعة « سان كنتين » سنة ١٥٥٧ وساعدته زوجته « مارى تيودور » ملكة انجلترا بدخولها الحرب معه ضد فرنسا . وانتهت الحرب بمعاهدة « كاتوكمبريسيس » سنة ١٥٥٩ وبها فقدت انجلترا كاليه آخر أملاكها فى فرنسا ، واحتفظت فرنسا بالاسقفيات التى استولى عليها هنرى الثانى وهى تول ومتز وفردن . ولهذه المعاهدة أهمية تاريخية لانها أنهت المنافسة والحروب التى استمرت بين فرنسا وأسبانيا مدة طويلة

ثم وجه فليب التفاته إلى اقتلاع بذرة البروتستنتية من أوربا وبدا بتطهير أملاكه فى الاراضى المنخفضة فقامت الثورة فيها وشغلت أسبانيا سنين عديدة أتت فيها اسبانيا بكثير من الفظائع واستبسل الهولنديون فى مقاومة فليب حتى ثار شعور بقية الشعوب البروتستنتية فجر ذلك إلى حرب « الارمادا » بين فليب وانجلترا سنة ١٥٨٨ انهزم فيها فليب رغم ضخامة أسطوله وأخذت انجلترا تغتصب السيادة البحرية من أسبانيا تدريجا

ولم يفتر الترك مدة حكم فليب عن مناوأة النفوذ الاسبانى فى البحر الابيض المتوسط ، فقد استولوا بالتدريج على أكثر ممتلكات البندقية وأخذوا قبرص وهددوا مالطة ومافتىء القرصان يروعون السفن التجارية حتى خشيت أوربا عاقبة فواق العثمانيين فى البحر ، فتكون حلف من أسبانيا والبندقية والبابا وجمعوا أساطيلهم بقيادة « دون جوان » النمساوى أخى

فليب فاشتبكوا مع العثمانيين فى موقعة بحرية سنة ١٥٧١ فى خليج «ليبانتو» غربى بلاد اليونان فانتصر دون جوان ولم تعد للعثمانيين السيادة التى كانت لهم فى البحر الأبيض ، ونال فليب بذلك شهرة واسعة فى العالم المسيحى الغربى . ومن أهم خدمات فليب للنفوذ الاسبانى الذى بلغ أوجه فى عهده أنه تمكن من ضم البرتغال الى اسبانيا سنة ١٥٨٠ اعتمادا على الروابط التى كانت تربط الأسرتين إحداهما بالأخرى ، ولكن هذا الضم لم يدم أكثر من ستين سنة إذ استردت البرتغال استقلالها عن أسبانيا سنة ١٦٤٠ ونصبت عليها ملكا من أسرة « براجنزا » البرتغالية ، ومات فليب سنة ١٥٩٨ .

تقدير أعمال فليب — يعتبر الاسبان « فليب الثانى » بطلا من أبطال تاريخهم يذكرونه بالعطف والاحترام إلى وقتنا هذا ، أما شمالى وغربى أوربا فيعتبر فليب مثال التعصب والاستبداد ويقرن اسمه بفظائع محاكم التفتيش . والحقيقة أن فليب كان ملكا عظيم الهمة مثابراً رابط الجأش قاسياً شديد الحذر يباشر تفاصيل شئون الحكومة بنفسه مما كان سبباً فى شل قوة التفكير والاختراع فى البلاد وكان يعتمد فى أموره على القساوسة والكهنة المقربين إليه ، وقد أدى هذا الاستبداد والتعصب الدينى الذى لازم الاسبان وملوكهم إلى سرعة تدهور اسبانيا رغم ما نالته من الانتصار فى ميادين القتال وما جنته من الثروة الطائلة من مستعمراتها فى أمريكا .

ومن الأسباب التى أدت إلى انحطاط اسبانيا سوء حالها الاقتصادية فقد عول الاسبان على موارد مستعمراتهم وأهملوا الشئون الصناعية والتجارية وطردوا العناصر العاملة من العرب واليهود ، وحالوا دون وصول الكتب والمؤلفات العلمية الحديثة إلى بلادهم خوفاً مما قد يتسبب عنها من الالحاد ، فوقفت الحركة الفكرية وترفع الاسبان أنفسهم عن العمل ونضب معين ثروتهم

فى الحروب التى شنوها على الشعوب الأخرى ، فخلاميدان التقدم الصناعى والتجارى والادبى لغيرهم من الامم المجاورة فظهرت عليهم انجلترا وهولندا وفرنسا ، ونزلت اسبانيا الى الصف الثانى بين الدول

وظهر تدهور أسبانيا فى عهد فليب الثالث (١٥٩٨ — ١٦٢١) لشدة ضعفه ولاضطراره الى عقد هدنة مع الهولنديين الثائرين سنة **١٦٠٩** كانت بمثابة اعتراف من أسبانيا بهزيمتها واستقلال هولندا استقلالا فعليا .

وفى عهد فليب الرابع (١٦٢١ — ١٦٦٥) انحطت اسبانيا نهائيا وختمت حياتها السياسية بمعاهدتى « وستفاليا » سنة ١٦٤٨ والبرانس سنة ١٦٥٩ لأن الأولى أفقدتها الأراضى المنخفضة نهائيا وفى الثانية تنازلت لفرنسا عن ارتوا وفلندرة ومقاطعة روسيون على الحدود الفرنسية الاسبانية .

الفصل الرابع

ثورة الاراضى المنخفضة

(١٥٦٦ — ١٦٤٨)

كانت الاراضى المنخفضة ضمن مملكة « لوتير » حفيد شرلمان الذى نالها بمقتضى « معاهدة فردان » سنة ٨٤٣ ، ولما تجزأت هذه المملكة فى العصور الوسطى انقسمت الاراضى المنخفضة إلى دوقيات مختلفة مستقلة كفلندرة وارتوا وهولنده ، وكان سكان المقاطعات الجنوبية ينتسبون إلى الجنس الكلتى مثل فرنسا وسكان الشمال ينتسبون إلى الجنس التيوتونى ويعرفون « بالدتش » ، وبين هذين كانت توجد شعبة من الجنس التيوتونى اندمجت فى الجنوب وصارت لها لغة خاصة وتعرف بالفلمنك

والمحيط من قديم الزمان يهدد سواحل هذه البلاد لانخفاضها عن سطح البحر ، كما تهددها الانهار العظيمة التى تخترقها كالرين والشلد إذا زاد فيضانهما . لذلك كان أهل الاراضى المنخفضة فى نضال مستمر مع الطبيعة يقيمون السدود لرد غارات المحيط ويحفرون الترع لصرف مياه الانهار . وبفضل هذه الترع تقدمت البلاد زراعيا وصناعيا وتجاريا واشتهرت مدنها منذ العصور الوسطى بمنسوجاتها وتجارتها وبخاصة الصوف ، وقد حاولت أسرة برغندية بفضل جهود « فليب الطيب » وإبنه « شارل الجسور » أن يكونوا من أراضيهم مملكة مستقلة بين ألمانيا وفرنسا فحال ملوك فرنسا دون تحقيق هذه الامنية . ولما مات شارل الجسور سنة ١٤٧٧ بدون وارث

غير إبنته مارى ، ضم لويس الحادى عشر دوقية برغندية إلى فرنسا وتزوج الامبراطور مكسمليان من «مارى» فورث ابنهما فليب الاراضى المنخفضة وعنه ورثها إبنه شارلكان سنة ١٥٠٦

وقد اهتم شارلكان بأمر هذه البلاد اهتماما خاصا لانه ولد ونشأ بها فنظم إدارة البلاد وكوّن مجلسا من ممثلى طبقات الامة ، وفتح المجال أمام الاهالى لتقلد الاحكام ببلادهم واتسعت التجارة فى عهده ، ولم يفشل شارل إلا من الوجهة الدينية إذا اعتنق كثير من سكان الشمال مذهب كلفن ، فاشتد فى معاملة هؤلاء وأقام محاكم التفتيش سنة ١٥٥٠ وهذه أحرقت عدداً كبيراً من البروتستنت ولم يظهر شارل أقل تردد فى القضاء على حركة الاصلاح فى الاراضى المنخفضة كما أظهر فى ألمانيا ، ذلك لانه فى الاولى كان صاحب السلطان المطلق .

خطة فليب — فلما اعتزل شارل الملك خلفه ابنه فليب الثانى ملك أسبانيا الذى واصل سياسة الاضطهاد فى حين أن الاهالى كانوا يبغضونه باعتباره أجنبيا عنهم ، ولتعصبه الاعمى للمذهب الكاثوليكى ولاعتماده على الاسبان فى الحكم فقد ولى على البلاد «مرغريت دوقة بارما» أخته لابيه وكانت مرغريت معتدلة فى آرائها ولكن فليب عين لها مستشارين من الاسبان معروفين بعدائهم للهولنديين ، وقد حرص هؤلاء على تنفيذ رغبات فليب فبقيت محاكم التفتيش تضطهد البروتستنت بينما الجنود الاسبانية تتحرش بالاهالى ، ولم تدع الجمعية العمومية للاشتراك فى الشئون ، فأثار هذا الحيف سخط القوم وظهرت روح المقاومة وقام الاشراف بزعامة ، وليم صاحب «أورنج» و«أجمنت» و«هورن» وسار الاشراف متظاهرين إلى بركسل سنة ١٥٦٦ ، وقدموا الى مرغريت التماسا يطلبون به إلغاء محاكم التفتيش وعزل بعض المستشارين وعقد الجمعية العمومية

مركز الثورة — وتدل هذه المطالب على أن الحركة لم تكن ترمى إلى طرد الاسبان أو الخروج عن طاعة فليب ، وكانت مرغريت تعطف على هذه المطالب فأوصت أخاها أن يجيبها ولكنه أضمر الثأر من الاشراف وكان الشعب قداندفع فى تيارالتمرد فانقض الناس على الكنائس الكاثوليكية وكسروا مافيها من تماثيل وصور . وزاد التخريب فنصح وليم أورنج واصحابه إلى مواطنيهم بالكف عن أعمال العنف التى أفقدتهم عطف إخوانهم الكاثوليك فهدأت الحال ، إلا أن فليب انتهزهذه الفرصة وعول على القضاء على البروتستنت فأرسل « دوق ألفا » على رأس جيش عظيم من الاسبان لمعاقبة الثوار فاضطرت مرغريت إلى اعتزال الحكم سنة ١٥٦٧ . ومن ذلك التاريخ دخلت الثورة فى دورها الجدى وكان « الفا » من أكفأقوادعصره وأشدهم غلظة ، وأول عمل قام به هو تكوين مجلس لمحاكمة الثوار عرف فى التاريخ باسم « مجلس الدم » لكثرة ما أراقه من الدماء ، وقد نكل « الفا » بالزعماء إلا أنه لحسن حظ هولندا نجا وليم ولجأ إلى ألمانيا ، وظل « الفا » قابضاً على البلاد بيد من حديد حتى خمدت الحركة ، ولم يعد أحد يجرأ على المجاهرة بمخالفة الحكومة بعد أن اقترف « الفا » من الفظائع مايندر وجود مثله فى التاريخ .

مثابرة وليم ونجاح الثورة — وفى تلك الأثناء كان وليم يؤلف جيشا من المهاجرين ويحاول دخول الأراضى المنخفضة لاشعال نار الثورة ولكن محاولاته الأولى قضى عليها بالفشل لقيام حكم الارهاب فى البلاد . ومع ذلك لم يتسرب اليأس إلى عزيمة وليم ، بل أظهر جلداً على المصائب وصبراً فى الشدائد حتى لقبوه « بالصامت » وما برح يبث روح الوطنية بين قومه إلى أن تهيأت ظروف الثورة من جديد

وذلك أن « الفا » فرض سنة ١٥٦٩ ضرائب فادحة على كل مايباع

من السلع فى الاسواق تتراوح بين ٥ و ١٠ فى المائة من قيمة السلع فشلت حركة التجارة ووقعت البلاد فى أزمة شديدة ناء بأعبائها البروتستنت والكاثوليك على السواء ، فقامت الثورة فى الشمال والجنوب ونال الثوار النصر لأول مرة . وقد جاء النصر من طريق البحر إذ أن عدداً من الهولنديين المخاطرين فى البحار لبوا دعوة وليم وأخذوا يسطون على السفن الاسبانية ومتاجرها ويلجئون إلى الثغور الانجليزية احتماء بها . فلما احتج فليب لدى « اليصابات » ملكة انجلترا ، وأبعدتهم هذه عن موانيها ، قصدوا ميناء صغيرة فى هولندة هى « برل » سنة ١٥٧٢ فاحتلوها واستولوا عليها باسم وليم ؛ ثم توالت انتصارات هؤلاء الثوار المعروفين باسم « شحاذى البحار » حتى عجز « الفا » عن مقاومتهم بحراً فطلب إلى سيده أن يقيله من منصبه سنه ١٥٧٣

وجاء بعده « ركوسنس » وكان معتدلا فألغى « مجلس الدم » وأعلن العفو العام وحاول أن يتفق مع وليم فلم يوفق ، وواصل قمع الثورة . وأهم حادث فى عهده حصار الأسبان لحصن « ليدن » الذى استمر ستة أشهر فلما كاد يسقط فى يد العدو عمد الثوار إلى قطع السدود فطغى الماء وغمر الأرض ووصلت سفن الهولنديين إلى أسوار المدينة وتشتت شمل الاسبان . ويدل عمل الهولنديين على مقدار استبسالهم واستماتتهم فى مقاومة الاسبان . ومات « ركوسنس » سنة ١٥٧٦ وبقيت البلاد من غير حاكم مدة تمرد فى أثنائها الجنود الاسبان لتأخر مرتباتهم فدخلوا مدينة « انفرس » وهى أهم مدن الجنوب وسلبوا متاجرها وخربوا المنازل والكنائس فكان هذا الحادث من أقوى العوامل التى سهلت اتفاق أهل الشمال والجنوب ومكنت وليم من عقد « اتفاق غنت » سنة ١٥٧٦ الذى تقرر فيه طرد الاسبان من البلاد وعقد الجمعية العمومية والغاء محاكم التفتيش واعلان حرية التجارة فى جميع أنحاء البلاد وترك المسائل الدينية للجمعية

ثم عين فليب أخاه « دون جوان » المتساوى حاكما فحصر همه فى فصل الجنوب عن الشمال وفعلا تمكن بدهائه من استمالة الـكاثوليك اليه . واقتصر وليم أورنج على الزعامة فى الشمال ، ولما مات دون جوان سنة ١٥٧٨ عين بدله « اسكندر دوق بارما » بن مرغريت فواصل سياسة سلفه فى فصل ولايات الجنوب عن الشمال وتم على يده هذا الانفصال وبقى الى عصرنا هذا فتأثر وليم أورنج وخاف من انتشار سياسة اسبانيا فى الشمال كما سادت في الجنوب فكوّن « اتحاد اترخت » سنة ١٥٧٩ من ولايات الشمال السبع وأهمها هولندة وزيلندة وفريزلندة واترخت ، ويعتبر هذا الاتحاد مبدأ لظهور الجمهورية الهولندية .

موت وليم — ولما رأى فليب الثانى أن وليم هو روح الثورة وأنه نجح فى اقامة حكومة مستقلة فى الشمال أهدر دمه ووعد بمكافأة قاتله بالأموال والأراضى والالقاب فكثرت محاولة قتله ، وأخيراً نجح فى اغتياله « جيرارد » سنة ١٥٨٤ ومع أن وليم لم يكن قائداً شجاعا أو سياسياً ماهراً الا أن ذكره فى التاريخ يفوق كثيراً من السياسيين والقواد بسبب ما أظهره من الصفات العظيمة وسط اليأس وعوامل الخوف والارهاب التى عمت البلاد . فبفضل مثابرته وجلده وقوة إيمانه أمكنه كواشنجتن أن يوحد الصفوف وأن يقود مواطنيه الى الظفر والنصر المبين

على أن موت وليم لم يفل من عزم الهولنديين فولوا ابنه « موريس » رياسة الاتحاد والقيادة العامة فأظهر وهو في السابعة عشرة من عمره مهارة فائقة فى قيادة جنوده وساعده فى السياسة وزيره المحنك « يوحنا بارنفلد » وكان « الدوق بارما » يواصل انتصاراته ويتوغل فى الشمال ، فخشيت اليصابات ملـكة انجلترا من ازدياد نفوذ الاسبان فأرسلت فى سنة ١٥٨٥ حمله لمساعدة موريس ولكنها فشلت ، وإنما أنقذ هولنده من غائلة عدوها

الحالة الدولية فى أوربا فى ذلك الوقت : اذ قامت حرب « الارمادا » بين انجلترا وإسبانيا فشغلت فليب عن هولنده ثم تلتها الحرب بين أسبانيا وفرنسا سنة ١٥٨٩ « ومات الدوق بارما » سنة ١٥٩٢ وتبعه فليب سنة ١٥٩٨

وبالرغم من هذا كله أبت أسبانيا أن تعترف بهزيمتها أمام الهولنديين الى سنة ١٦٠٩ حين عقد « فليب الثالث » معهم هدنة لمدة اثنتى عشرة سنة فصارت هولنده مستقلة فى الواقع وان لم يعترف لها باستقلالها رسميا إلا فى معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨

وما كادت هولنده تستقل حتى صارت من أقوى دول أوربا فى البحر واوسعها تجارة ولاسيما فى الشرق ، وساعدها على ذلك اضمحلال أسبانيا والبرتغال . وكانت قد أسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٢ واستعمرت « صومطره وجاوة وسلبز » وجزءاً كبيراً من « بورنيو » وأصبحت « بتافيا » عاصمة ملكها فى الشرق ، واستعمرت جنوب أفريقية ، وكشف بحارتها سواحل نيوزيلندة واستراليا ولم يتهم عن استعمارها إلا مصادفة كشفهم الاجزاء القاحلة منها . وبهذا كله صار لهولنده شأن كبير فى عالم التجارة والتصوير والادب والحكمة مما بهر أوربا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

الفصل الخامس

حرب الثلاثين سنة

(١٦١٨ — ١٦٤٨)

لم يكن بد من قيام حروب دينية فى أوربا أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر وذلك للأسباب الآتية : —

أولا — أن مذهب كالفن وانتشار تعاليمه الشديدة قد أوجد روحا جديدة بين أنصاره فقاموا يعارضون الحكومات ويجاهدون ضد مساعى الكنائس الحكومية مقدمين أنفسهم للتضحية من غيرما وجل ، ولم تكن مثل هذه الروح ظاهرة بين اتباع لوثر الذى اعتمد على تعضيد الأمراء والحكومات ولم يدع قط الى التبشير والجهاد فى سبيل مذهبه

ثانياً — ان حركة الاصلاح الكاثوليكية قد أوجدت بين الكاثوليك رغبة أكيدة فى القضاء على حركة الالحاد بكل الطرق وقد رأينا كيف أن فليب الثانى — أكبر نصير للحركة — قد ضحى موارد اسبانيا العظيمة فى سبيل القضاء على الشعوب البروتستنتية .

ثالثاً — ان فكرة التسامح الدينى وترك حرية اختيار المذهب للفرد لم تكن معروفة أو معقولة فى ذلك الوقت ، بل كان المفهوم أنه متى اعتقد الانسان صحة مذهبه عليه أن يسعى بكل الطرق لاقناع مخالفيه باعتناق مذهبه ولو أدى ذلك الى استعمال القوة والقسوة . وكان المفهوم بين الملوك

والأمراء ان الشخص الذى يدين بمذهب يغاير مذهب الحاكم يعد خارجا عليه سياسياً

رابعاً — لم يكن صلح أوجزبرج سنة ١٥٥٥ حلا نهائيا للمنازعات الدينية التى قسمت ألمانيا بل وأوربا شطرين . فقد كانت فى هذا الصلح عيوب ساعدت على تقوية هـذا الخلاف : منها أنه لم يعترف فى صلح أوجزبرج بالمذاهب البروتستنتية الأخرى كمذهب كلفن مثلا الذى انتشر انتشاراً عظيما جنوبى ألمانيا وغربيها ، ومنها انه قد اشترط بقاء ممتلكات الأساقفة للكنيسة فى حال اعتناقهم المذهب البروتستنتى ولم يكن هناك قوة لتنفيذ مثل ذلك الشرط

وعلى كل حال كانت نتيجة صلح أوجزبرج أن ظن البروتستنت أنهم هم المنتصرون . وأخذت البروتستنتية تنتشر شمالى ألمانيا بل وجنوبيها ، مما دعا الكنيسة والأمراء الكاثوليك الى العمل بجد فى حركة الاصلاح الكاثوليكية فقام « فليب الثانى » ملك اسبانيا و « اليسوعيون » بخدمات عظيمة للكنيسة . وأخذت الحكومات الكاثوليكية فى ألمانيا تضطهد البروتستنت فرجع عدد كثير من الأمراء الى المذهب الكاثوليكى . فخاف البروتستنت مغبة ذلك وكوّنوا اتحاداً سموه « الاتحاد البروتستنتى سنة ١٦٠٨ » وتبعهم الكاثوليك فكوّنوا فى السنة التالية عصابة سميت « بالعصابة الكاثوليكية » وكان يرأسها « مكسمليان » دوق بفاريا وهو رجل ذو حزم وهمة نشأ على مبادئ الجزويت منذ صغره وتشبع بمبادئهم وأغراضهم ، اما البروتستنت فلم يكن لهم عاهل سوى « فردريك » صاحب مقاطعات لرين البلاتينية ولم يكن على جانب عظيم من القوة والحزم ، ولكنه كان صهر « جيمس الاول » ملك انجلترا وهى من أقوى الدول البروتستنتية . بذلك صارت ألمانيا منقسمة الى حزبين عظيمين كلاهما مستعد للذود عن

مصالحه والدخول فى الحرب من أجل عقائده ، غير أن الفرصة لم تسنح الا سنة ١٦١٨ . وذلك لانه فى هذه السنة ثار البروتستنت فى بوهيميا ضد اضطهاد الحكومة الامبراطورية ، وكان سكان هذه البلاد من أشد أعداء الكنيسة الكاثوليكية منذ قام «يوحناهوس» ودعا الى الاصلاح فى القرن الرابع عشر ، فقاموا بقيادة «تورن» وهجموا على الحصون ومبانى الحكومة وألقوا بعمالها من النوافذ وطردوا الكاثوليك وأعلنوا زوال حق أسرة هبسبرج فى بوهيميا وأنشأوا حكومة جديدة فكان ذلك مدعاة الى نشوب حرب الثلاثين سنة وسنقسمها الى أربعة أدوار وهى : —

الدور الاول البوهيمى (١٦١٨ — ١٦٢٣): فى هذا الدور لم تخرج الحرب عن بوهيميا والبلاتينات . وذلك أنه لما ثار البروتستنت فى بوهيميا طلبوا المساعدة من الاتحاد البروتستنتى واختاروا « فردريك » منتخب البلاتينات ملكا عليهم ، وكان الامبراطور فى ذلك الوقت « فرديناند الثانى » (١٦١٩ — ١٦٣٧) فأراد رجع بوهيميا الى الكاثوليكية ، ولم يكن لديه مال كاف أو جيش مدرب فطلب من مكسمليان دوق بفاريا ورئيس العصابة الكاثوليكية أن يعضده ، وتقابل الجانبان فى موقعة « التل الابيض » سنة ١٦٢٠ وفيها انتصرت العصابة الكاثوليكية بقيادة القائد الشهير « تلى » وانهزم البروتستنت لعدم كفاية « فردريك » ولضعف الاتحاد البروتستنتى . وكانت نتيجة انهزامهم أن أعيدت بوهيميا الى حكم الامبراطورية كما كانت وكان يمكن أن تنتهى الحرب بذلك لولا مغالاة الكاثوليك وتوغلهم داخل ممتلكات فردريك البلاتينية واحتلالهم هذه المقاطعات انتقاما منه . فأثار هذا العمل الشعور البروتستنتى فى كل أنحاء اوربا ، وكان الدين لا يزال أكثر العوامل تأثيراً فى نفوس القوم ، غير أنه فى ذلك الوقت

كان « جيمس الأول » ملك انجلترا وصهر فردريك مشتغلا بمنازعاته مع البرلمان وكان من مبدئه عدم الدخول فى حرب ما ، كذلك كان « جستاف أدلف » ملك السويد مشتغلا بحروبه ضد الروسيا ، ولم يكن هناك غير ملك الدنمرقة « كرستيان الرابع » فدخل الحرب سنة ١٦٢٥ فى جانب البروتستنت مستمداً المعونة المالية من انجلترا .

الدور الدنمرقى (١٦٢٥ — ١٦٢٩) : يلاحظ فى هذا الدور بدء اشتراك أوربا فى الحرب ، فبعد أن كانت ألمانية محلية صارت أوربيـة ، وبدخول الدنمرقة انتقل ميدان الحرب من الجنوب الى الشمال ، ولم يجـد الكاثوليك أدنى صعوبة فى هزيمة البروتستنت . وذلك لأن الكاثوليك كان لهم قائدان عظيمان هما « تلى » و « ولنستين » : الأول قائد العصابة الكاثوليكية الذى كسب موقعة « التل الأبيض » والثانى أحـد أشراف بوهيميا قدم نفسه للأمبراطور ووعد بتكوين جيش تؤلف جنوده من المخاطرين الذين يحاربون حبا فى الحرب والغنيمة والنهب من غير تمييز بين المذاهب ، وكان لولنستين مزايا حببته الى الجنود وجعلت له مركزاً فذاً فى ألمانيا ، وبعد أن هزما كرستيان تتبعاه الى الدنمرقة وحاصرا «ستترالسند» وأخيراً اضطراه الى عقد صلح «لوبك» سنة ١٦٢٩ وبمقتضاه وعد كرستيان بألايتدخل فى شئون ألمانيا مطلقاً

وفى أثناء ذلك كان « ولنستين » يشتغل بتنفيذ خطة سياسية غريبة : وهى انه انتهز فرصة وجود الجيش فى الشمال فأراد أن يثبت سلطة الامبراطور فى الأمارات الالمانية ويقلل من سلطة أمراء المقاطعات كيما تصير ألمانيا خاضعة تماما لسيد واحد ، وبذلك يتم اتحاد المانيا تحت لواء الامبراطور ، فأخذ ينشر جنوده فى المدن لهذا الغرض وكان الامبراطور

يعضده ، فاشتد فى معاملة البروتستنت حتى أثار الشعور مرة أخرى . ولكن قبل أن تنشب الحرب مرة ثانية كانت قد اجتمعت الجمعية الألمانية فى «راتسبن» سنة ١٦٣٠ وطاب الأمراء الى الأمبراطور عزل « ولنستين » لأنهم خافوا عواقب سياسته ، فعزل ولنستين فى أحرج الاوقات إذ أن « جستاف أدلف » ملك السويد قرر أن يتدخل فى الحرب . وكان الكاثوليك قد اشتطوا فى اضطهاد البروتستنت وأوغروا صدورهم بمختلف الوسائل ، ومن ذلك أن الامبراطور أصدر قراراً سنة ١٦٣٠ خول فيه للكنيسة حق استرجاع الأراضى التى انتزعت منها منذ معاهدة اوجزبرج سنة ١٥٥٥ ، لذلك رحب البروتستنت نهائيا بدخول الأجنبى بلادهم وتحالفوا معه ضد أمبراطور البلاد

الدور السويدى (١٦٣٠ — ١٦٣٥) : وهاك بعض أسباب دخول جستاف .

أولا — أن سياسة السويد كانت ترمى الى جعل بحر البلطيق تحت النفوذ السويدى ولذلك الغرض دخل جستاف فى حروب مع روسيا وبولنده

ثانيا — خشى جستاف أن تنجح سياسة ولنستين فتقوى أسرة هبسبرج وتكون دولة قوية مجاورة للسويد ، ثم لابد أن تكون هناك أسباب أخرى قوية وأهمها الدين وعظمة السويد . وكان « ريشليو » وزير فرنسا فى ذلك الوقت يخشى نفوذ أسرة هبسبرج فى أوربا ويريد أن يكون لفرنسا المنزلة الاولى ، فعلى الرغم من كون فرنسا كاثوليكية شجع ريشليو « جستاف » على محاربة الامبراطور وعقدا محالفة سنة ١٦٣١ ، غير أن ريشليو اقتصر على امداد جستاف بالمال فى أول الأمر ، وبعد ذلك اجتهد جستاف فى استمالة الامارات البروتستنتية الى جانبه فبعد تردد انضمت اليه سكسونيا أولا ثم تبعها باقى الامارات البروتستنتية . ذلك لانه لما دخل الجيش السويدى

ألمانيا كان « تلى » يحاصر مدينة « مجدبرج » فى سكسونيا ويذبح الآلاف من سكانها البروتستنت ، فتقابل الجيشان وانهزم « تلى » سنة ١٦٣١ فى موقعة « بريتنفلد » بجانب ليبزج انهزاما جعل ألمانيا الشمالية تحت رحمة السويد . وأخذ جستاف والحلف البروتستنتى يواصل انتصاره حتى ساد النفوذ البروتستنتى وهدد مونيخ وفينا وبراغ . فلما رأى الامبراطور الخطر محدقا به اضطر الى دعوة ولنستين وقبل كل شروطه وأهمها ألا يوجد للامبراطور غير جيش واحد وذلك ليقضى على نفوذ العصابة الكاثوليكية وأن يلغى مرسوم سنة ١٦٣٠ القاضى بارجاع ممتلكات الكنيسة التى كانت فى حوزة البروتستنت وذلك لأن ولنستين كان يعتمد فى جمع جيوشه على البروتستنت والكاثوليك على السواء . وتقابل أعظم قوادذلك العصر فى موقعة « لتزن » سنة ١٦٣٢ حيث أبلى الجانبان بلاء حسنا انتهى بهزيمة ولنستين ، غير أن السويد خسروا جستاف قائدهم وملكهم الذى قتل فى تلك المعركة

وبعد موت جستاف أخذ « اكسنسترن » يدير سكان السياسة ولم يكن عسكرياً ولذلك لم يستفد الجيش من تعيينه ، وانهزم السويد فى موقعة « نوردلنجن » سنة ١٦٣٤ وفى هذه السنة أيضاً قتل ولنستين بسبب مساعيه للصلح ضد رغبة الامبراطور

بعد ذلك أو شكت أن تنتهى الحرب لأن كلا من الكاثوليك والبروتستنت فى ألمانيا سئم ماجرته من الويلات والخراب ، وعلى ذلك عقد صلح «براغ» ١٦٣٥ بين الامبراطور وسكسونيا ثم تلاها باقى الامارات البروتستنتية الالمانية ، فكأن الحرب بالنسبة لالمانيا كانت قد انتهت بصلح براغ . ولكن ظهرت عوامل جديدة كانت سبباً فى اطالة الحرب ثلاث عشرة سنة وذلك أن فرنسا لما علمت بهزيمة السويد دخلت الحرب

فعلا سنة ١٦٣٥ ، وبدخولها انقضى العامل الدينى للحرب كلية لأن فرنسا الكاثوليكية أصبحت بفضل سياسة ريشليو تحارب فى صفوف البروتستنت ضد فرعى أسرة هبسبرج الكاثوليكية رغبة فى انزال أسرة هبسبرج من مركز الزعامة فى أوربا وأخذ هذا المركز لفرنسا .

الدور الفرنسى السياسى — (١٦٣٥ — ١٦٤٨) : استمرت الحرب بين الجانبين وانتقل ميدانها الى الأراضى المنخفضة التى كانت تابعة لاسبانيا حليفة الأمبراطور ولم تكن الجيوش الفرنسية فى أول الأمر من الاستعداد بحيث تستطيع الظهور على جنود اسبانيا والنمسا المدربة ، لذلك انهزمت فرنسا أولا ثم مالبثت جنودها أن تدربت على القتال والحرب وأظهرت فرنسا قائدين من أعظم قواد ذلك العصر وهما « كندية وتورن » فبدأت فرنسا تنتصر فى مواقع عدة أهمها موقعة « ركروا » فى الاراضى المنخفضة سنة ١٦٤٣ ، وكان قد لحق المانيا أضرار بليغة من جراء الحرب إذ تعطلت مصالحها وتخربت أغلب القرى وعمت الفوضى وانتشر الفساد بانتشار الجنود فى البلاد ومات الامبراطور فرديننر الثانى ١٦٣٧ وجاء بعده الامبراطور « فردينند الثالث » (١٦٣٧ — ١٦٥٧) وبعد مفاضات طويلة انتهى الأمر بصلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ وهى من المعاهدات الاوربية المهمة التى لم تغير معالمها إلا الثورة الفرنسية . واليك أهم شروطها

١ — فيما يختص بالأقاليم التى أخذتها الممالك المنتصرة السويد وفرنسا:

أ — أخذت السويد نصف بومرانيا الغربى ، وبريمن وفردن على مصب الالب والوزر

ب — أخذت فرنسا مقاطعة الالزاس ماعدا استراسبورج وأيدت امتلاكها لتول ومتز وفردان

٢ — فيما يختص بالشئون الدينية :

ثبتت شروط صلح أوجزبرج واعترف بمذهب كلفن وخول لاصحابه نفس الحقوق التى كانت للوثريين ولم ينص على شىء بشأن اعلان التسامح الدينى وترك حرية اختيار المذهب للفرد ، بل بقى المبدأ القائل بأن لكل أمير الحق فى اقرار المذهب الموافق . غير أن الاعتراف بمذهب كلفن رسميا قد وضع أساس فكرة التسامح الدينى

وأما بخصوص أملاك الكنيسة فقد حدد أول يناير سنة ١٦٢٤ حداً فاصلا بمعنى أن الحقوق التى كانت للوثريين فى ذلك الوقت تبقى لهم وكذلك الاراضى التى كانت للكاثوليك تبقى فى حوزتهم

٣ — بشأن التعديلات السياسية فى ألمانيا :

أعطى للامراء حق عقد المعاهدات مع الممالك الاجنبية وحق التمثيل الخارجى وتكوين الجيوش وبذلك صارت أمارات المانيا كأنها مستقلة . ووسعت « برندنبرج » و « سكسونيا » ممتلكاتهما فأخذت « برندنبرج » بومرانيا الشرقية وأسقفية مجدبرج . وبذا زاد نفوذ برندنبرج شمالى المانيا . وضمت سكسونيا « لوساشيا » وضمت بفاريا البلاتينات العليا وأصبح مكسمليان دوق بفاريا منتخبا وتركت البلاتينات السفلى لابن فردريك محتفظا بلقب منتخب

٤ — الاعتراف باستقلال سويسره وهولنده وانفصالها عن الامبراطورية واسبانيا

نتائج هذه الحرب : وبانتهاء حرب الثلاثين انتهت الحروب الدينية العامة ، وبدأ الناس يفكرون فى مبدأ التسامح الدينى . ولقد خرجت فرنسا

من حرب الثلاثين فائقة براً وبحراً فى أوربا وبذلك مهدت الطريق لفتوحات لويس الرابع عشر .

أما السويد فوصلت بهذه المعاهدة إلى أقصى ماوصلت إليه من العظمة والرقى وبدأ تدهورها سريعاً بعد ذلك بسبب ظهور قوة الروسيا من الشرق ودوقية برندنبرج شمال ألمانيا .

أما فى ألمانيا فقد كان لهـذه الحروب تأثير سيء لانها ظلت ميداناً للحرب فريسة للنهب مدة ثلاثين سنة هلك فيها نصف سكانها تقريبا واندثرت فيها معالم الصناعة والتجارة والفنون ، ولاتنس مالحق الامبراطور من الضعف بسبب ما كسبه الامراء الالمان من الامتيازات الواسعة التى كانت من أقوى أسباب تأخر تكوين الوحدة الالمانية .

الفصل السادس

فرنسا

تمهيد — أصل سكان فرنسا من الجنس الكلتى وكانوا يعرفون « بالغلوا » نسبة إلى « غال » الاسم القديم لفرنسا ، وقد فتح هذه البلاد « يوليوس قيصر » وبقيت ضمن الدولة الرومانية حتى أغارت عليها قبائل الفرنجة فى القرن الخامس الميلادى . ومن أشهر حكامهم « شار مارتل » ٧١٤ — ٧٤١ الذى هزم العرب فى موقعة « تور » سنة ٧٣٢ ميلادية وردهم إلى ماوراء جبال البرانس وجاء من بعده ابنه « بيبين » الذى ساعد البابا على أعدائه فكافأه بأن توّجه ملكا على الفرنجة سنة ٧٥١ م

وخلف « بيبين » على العرش ابنه « شرلمان » (٧٦٨ — ٨١٤) ولا يعرف تاريخ العصور الوسطى عهداً ازهر من عهده ، ففضلا عن فواقه على ملوك ذلك العصر وامتداد سلطانه إلى حد مكنه من تكوين دولة مترامية الأطراف شملت شمالى أسبانيا الشرقى وجميع فرنسا وشمالى ألمانيا ووسطها وجزءاً عظيما من النمسا وشمالى إيطاليا ووسطها فقد كان يرمى إلى اعادة سالف مجد الدولة الرومانية بجعل هذه الأملاك العظيمة متماسكا بعضها ببعض ، وعلى ذلك توجه البابا أمبراطوراً رومانياً عام ٨٠٠ فبدأت الدولة التى عرفت فى التاريخ باسم الدولة الرومانية المقدسة كما تقدم

ولما مات « شرلمان » وقع الخلاف بين أحفاده الثلاثة فاقتسموا دولة جدهم فى معاهدة « فردان » سنة ٨٤٣ م فاستولى أحدهم « لويس » على الأراضى التى شرق نهر الرين وهى الأساس الذى قامت عليه ألمانيا فيمابعد واستولى « شارل » على الأراضى الواقعة غربى الرون وهى التى صارت

فرنسا فيما بعد ، ونال « لوتير » الأراضى التى بين أملاك أخويه وكانت تمتد من بحر الشمالى الى البحر الأبيض المتوسط وتشمل حوض الرين الأسفل وحوض الرون و إيطاليا ، وأصبحت الدولة الوسطى موضع تنازع الدولتين الشرقية والغربية أى ألمانيا وفرنسا من ذلك العصر الى يومنا هذا ، ولم يكن تنازع أحفاد شرلمان السبب الوحيد فى انحلال دولته بل كانت هنالك أسباب أبعد تأثيرا أهمها غارات القبائل المتبربرة من النورمنديين والمجر والصقلب ، وقيام النظام المعروف بالنظام الاقطاعى

وبانحلال دولة شرلمان عمت الفوضى واشتغل كل حاكم أو دوق بمقاطعته ، وظلت الحال على ذلك الى أن ظهرت سنة ٩٨٧ م أسرة « هيو كابت » دوق باريس فصار الملك فى أيديها الى سنة ١٣٢٨ ، ومن عهدها أخذت الملكية تقوى تدريجاً ، وأهم ملوك هذه الأسرة « لويس التاسع » (١٢٢٦ — ١٢٧٠) الذى أدخل اصلاحات عظيمة فى حكومة فرنسا وضيق على حرية الأشراف ، وأنشأ البرلمان ، وهو فى فرنسا عبارة عن محكمة عليا للاستئناف ولمحاكمة الأشراف ، و « لويس التاسع » هذا هو الذى هزم فى الحروب الصليبية أمام المنصورة ثم « فليب الرابع » (١٢٨٥ — ١٣١٤) وفى عهده اجتمع مجلس طبقات الأمة الذى كان يمثل الأشراف ورجال الدين والشعب ، وبعد انقراض أسرة « كابت » تقلدت الحكم أسرة « ڤالوا » وفى عهد ملوكها « فليب السادس وشارل السادس وشارل السابع » وقعت « حرب المائة السنة » بين ملوك فرنسا وملوك انجلترا الذين كانوا يمتلكون مقاطعات عظيمة فى فرنسا وكانت الغلبة فى أول الأمر لملوك انجلترا ، غير أنه ظهرت « جان دارك » برسالتها المشهورة فى فرنسا وكانت سببا فى بث روح الحماسة والوطنية الصادقة فى قلوب الفرنسيين ، فبدأت الجيوش الفرنسية تنتصر على انجلترا . واخيرا طرد الانجليز من أرض فرنسا وخسروا

جميع ممتلكاتهم ماعدا « كاليه » سنة ١٤٥٣

شارل السابع (١٤٢٢ - ١٤٦١) ولويس الحادى عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣)

فى عهد هذين الملكين فقدت فرنسا كثيراً من معالمها الاقطاعية ، وذلك بفضل حرب « المائة السنة » التى قضت على سلطة الأشراف وقللت من عددهم ، وقد تقوى الملك باضافة ممتلكات ملك انجلترا اليه ، وصار له جيش ثابت بدل الفضائل التى كان يرسلها له الأشراف وقت الحرب ثم صارت له أيضاً مالية مستقلة ثابتة وذلك بسبب وضع ضريبة الخراج المعروفة « بالتاى » سنة ١٤٣٩ ، ولما كانت هـذه الضريبة ثابتة لايحتاج الملك فى جمعها الى موافقة مجالس طبقات الأمة أهمل ملوك فرنسا اشراك الامة معهم فى الحكم ، وهذا خلاف ما كان متبعاً فى انجلترا فان برلمانها احتفظ بحق تقرير الضرائب والاعتمادات اللازمة للملك . كل هذه الأمور ساعدت فى تقوية الملكية وجعلت حكومتها مطلقة .

ولما اعتلى « لويس الحادى عشر » عرش فرنسا وضع قانون ضم كل مقاطعة يموت صاحبها من غير وارث ، وكان لويس ذا دهاء وسياسة من شأنها تعزيز سلطة ملك فرنسا وتوحيد رقعتها وكان أقوى الأشراف فى عهده وأعظم منافسيه « شارل الجسور » دوق برغندية وكان قد ضم الى ممتلكاته مقاطعات كثيرة مثل ارتوا وفلندره والأراضى المنخفضة ، وكان شارل يريد أن يكون مملكة مستقلة بين ألمانيا وفرنسا . ولكن فشل مشروعه لمعارضة فرنسا من جهة والامبراطورية من جهة أخرى ، وظل لويس يحارب شارل حتى مات الأخير سنة ١٤٧٧ ولا وارث له سوى ابنته « مارى » فوضع لويس يده على دوقية برغندية ، ولما مات لويس الحادى عشر كان قد ضم الى ملك فرنسا انجووميين وبروفنس . وأخلاق هـذا الرجل ومراميه مرآة لتطور الأفكار فى ذلك العهد اذ كان لويس من

الامراء الذين أخذوا بمذهب « مكيافلي » في سياسة الملك ، على أن ما ارتكبه لويس من الآثام لم يكن لغاية شخصية ، بل كان لتوحيد الكلمة في فرنسا وتنظيم أمورها بتوطيد نفوذ الملك في سائر أنحائها ، ويعتبر لويس الحادى عشر أول الملوك الذين أقاموا دولة فرنسا الحديثة .

شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩٨) : لم يبق من مقاطعات فرنسا بعد أن تولى « شارل » غير تابع للملك سوى إقليم « برطنية » في الشمال الغربي فتزوج بوارثة هذه المقاطعة وبذلك تم توحيد فرنسا ، وبدأت تتجه همم ملوكها إلى الفتوحات الخارجية فجهز « شارل » حملة وسار نحو « نابلى » مخترقا ايطاليا سنة ١٤٩٤ وحتلها بسهولة مدهشة ، وكانت ايطاليا في ذلك الوقت عبارة عن بلاد فقدت أسباب الاتحاد الوطني فانقسمت إلى عدة حكومات مستقلة أهمها جمهورية البندقية ومملكة نابلى وصقليه لاسبانيا وكانت من قبل لأسرة انجو الفرنسية ، ثم ممتلكات البابا الواقعة في وسط ايطاليا، وفلورنسة وكانت جمهورية في الأصل ثم صارت في أيدى أسرة مديشى ، ودوقية ميلان لأسرة سفورزا منذ سنة ١٤٥٠

وفضلا عن انقسام ايطاليا كانت المنافسة والبغضاء شديدة بين هذه الحكومات وكان التدهور في الاخلاق فاشياً بين الناس على أثر انتشار حركة النهضة ، وعلى ذلك لم يكن مرجواً أن يظهر الايطاليون من القوة والاتحاد ما يحول دون الاغارة على بلادهم ، ولكن هذا الانتصار اثار حقد أسبانيا فكونت عصابة من ميلان والبندقية والبابا والامبراطورية وفرديننذ ملك أرغونة ، ويعتبر هذا التحالف أول مظهر جدى لذلك المبدأ السياسى الشهير وهو المحافظة على التوازن الدولى في أوربا ، وفحواه انه لايسمح لأحدى الدول بأن تزيد في أملاكها في أوربا لأى سبب كان الى درجة تصبح بعدها مهددة لأملاك الدول الاخرى وخطراً

على السلم العام ، وعلى ذلك أرغم « شارل » على الخروج من إيطاليا ، وتنازلت فرنسا عن نابلى « لفرديناند » ملك أرغونة سنة ١٥٠٤ وكان شارل شاباً كثير الاحلام سقيم الرأى مسرفا فى الملذات ، وقد بدأ بحملته على ايطاليا خطة دولية جديدة اذ تفتحت أعين الدول الى تفكك إيطاليا وضعف الروح الوطنية فيها وعمل كل منها على كسب جزء من أرضها

ولما اعتلى العرش « لويس الثانى عشر » (١٤٩٨ — ١٥١٥) جدد مشروع الفتح فى ايطاليا فأراد أن يستحوذ على ميلان فداهمها واحتلها سنة ١٤٩٩ ولما كانت ميلان تحت سيادة الامبراطور اسمياً تكونت ضده « العصابة المقدسة » وكانت مؤلفة من البابا والامبراطور والبندقية وأسبانيا وانجلترا ، فطرد الفرنسيون من ايطاليا سنة ١٥١٢

وجاء بعده «فرنسوا الاول (١٥١٥ — ١٥٤٧) وكان عالى الهمة ولوعا بالشهرة الحربية فواصل خطة سلفه حال اعتلائه العرش بشأن الفتوح الخارجية فسير جيشا ضد ميلان وعبر جبال الالب وانتصر انتصاراً باهرا فى موقعة « مارنيانو » سنة ١٥١٥ ، وظلت العلاقات بين أسبانيا وفرنسا سلمية الى أن انتخب « شارل الخامس » امبراطورا فتجدد النزاع بينهما وكان امتلاك ميلان من أسباب الحروب الطاحنة التى دارت رحاها بين «شارل الخامس» و « فرنسوا الاول » كما تقدم ويمكن تلخيصها فيما يأتى :

١ — الحروب الاولى (١٥٢١ — ١٥٢٦) وهي الحرب التى انتصر فيها الامبراطور في واقعة بافيا ١٥٢٥ وانتهت بصلح مدريد

٢ — الحرب الثانية (١٥٢٧ — ١٥٢٩ وهي الحرب التى اتحد فيها البابا وفرنسوا ضد شارل ودخلت اثناءها جنود الامبراطور رومة وخربتها سنة ١٥٢٧ وانتهت بمعاهدة كمبراى

٣ — الحرب الثالثة (١٥٣٦ — ١٥٣٨) وهى الحرب التى اتفق

فيها فرنسوا مع السلطان سليمان القانونى وفيها حارب الأمبراطور قرصان البحر وانتصر العثمانيون فى الجر وانتهت بهدنة نيس

٤ — الحرب الرابعة (١٥٤٢ — ١٥٤٤) وهي التى انتهت بمعاهدة كرسبي سنة ١٥٤٤ وبمقتضاها نزل الامبراطور عن حقوقه فى برغندية ونزل فرنسوا عن حقوقه فى ميلان ونابلى وعن سيادته فى فلندره وارتوا

حركة الاصلاح الدينى فى فرنسا

بينما كانت فرنسا تعمل لنصرة البروتستنت فى المانيا رغبة منها فى معارضة أسرة هبسبرج وأخذ الزعامة منها كانت الحركة البروتستنتية تنتشر بسرعة داخل حدودها ، وأول من ظهر من المصلحين الدينيين فى فرنسا « جاك ليفيفر » أحد أساتذة الدين فى باريس واليه يرجع الفضل فى ترجمة الانجيل الى الفرنسية وتحبيذ عقيدة التبرير بالايمان التى اشتهر بها لوثر فيما بعد . وأول ما ظهرت بوادر هذه الحركة فى عهد فرنسوا الاول الذى عرف بتعضيده المشتغلين بحركة النهضة الجديدة فكان يقرب منه أهل الأدب والفن ، غير أنه لم يكن من أنصار حركة الاصلاح الدينى ولو أنه لم يظهر اهتماما عظيما بالشئون الدينية ، يدلنا على ذلك حنثه فى اليمين التى قطعها على نفسه فى صلح مدريد سنة (١٥٢٦) وتحالفه مع السلطان سليمان القانونى فى وقت كان تعصب الناس فيه للدين شديداً ، ومما جعل الملك يتسامح مع البروتستنتية فى أول ظهورها كراهيته لجامعة السربون وللبرلمان فى باريس وكانا موئل الكاثوليكية والمحافظين .

ولولا انهزم فرنسوا فى واقعة بافيا سنة ١٥٢٥ لاستمر نصيراً لحركة الآداب والاصلاح الحديثة فى فرنسا ولكن قضت عليه السياسة بعد موقعة بافيا بالتحالف مع البابا ضد الامبراطور ولا يعقل أن يكون فرنسوا

مخالفا للبابا ومشجعا للبروتستنت فى وقت واحد ، لذلك أخذ يقسو افى معاملة القائمين بحركة الاصلاح الدينى فى فرنسا

وفي سنة ١٥٤٧ مات فرنسوا ، وخلفه ابنه هنرى الثانى (١٥٤٧—١٥٥٩)، وكان « كلفن » أثناء ذلك قد ترك أثراً عظيما فى حركة الاصلاح فى فرنسا فاتبعه كثير من البروتستنت فى فرنسا ويعرفون بالهوجونوت ، ولقد علمنا أن مبادىء كلفن كانت خطرا على الحكومات لأنها كانت تقضى باستقلال الكنيسة عن الأمراء والحكومات ولأنها كانت تعتمد فى اختيار رؤسائها ومجالسها على الانتخاب فلم يكن للحكومات حق تعيين أساقفة أو غيرهم كما هو الحال فى الكنائس الكاثوليكية أو اللوثرية ، لذلك زادت حركة الاضطهاد في عهد هنرى الثانى . ولقد أقسم فى أول عهده أنه لابد من تطهير فرنسا من الملحدين فقضى على كثيرين بالاحراق، غيرأن نتيجة هذا الاضطهاد الدينى فى فرنسا لم تكن تختلف عن غيرها فى الممالك الأخرى فازداد تمسك الهوجونوت بمبادئهم وكثر عددهم . ثم خلفه ابنه فرنسوا الثانى (١٥٥٩ — ١٥٦٠) وقد بلغ عدد الهوجونوت فى فرنسا نحو أربعمائة الف نفس كان أكثرهم من صغار أبناء الاشراف ومن التجار وسكان المدن وكانت نفوسهم متشبعة بالروح العسكرية فنظموا جماعاتهم وعينوا مراكز لها ، وكان من رؤساء هذه الطائفة أمير البحر كولينى والأمير كنديه . ولو كان لملوك فرنسا فى ذلك الوقت من القوة ما كان لاسلافهم لقاموا بأحد أمرين إما ادماج طائفة الهوجونوت فى الامة وتفادى الحروب الاهلية التى قامت على أثر تنظيم طائفة الهوجونوت فى فرنسا وإما القضاء على الحركة وهى فى مبدئها بالشدة.

ولكن من سوء حظ فرنسا فى ذلك الوقت ان كان ملوكها ضعافا صغار السن قاصرين وأن مجلس طبقات الامة كان مهملا لم يدعه الملوك للاجتماع إلا نادرا

وعلى ذلك تشجع الاشراف وقامت الاحزاب المختلفة منتهزة فرصة ضعف الحكومة المركزية فعبثت بالحكومة وقامت المنازعات الداخلية .

ومن الاسباب التى ساعدت على قيام هذه الحروب أن أسرة «فالوا» وهى الاسرة الحاكمة كانت أوشكت أن تنقرض لان هنرى الثانى خلف بعده أربعة أبناء أكبرهم وهو فرنسوا الثانى كان فى الرابعة عشرة من عمره وما لبث فرنسوا أن مات بعد سنة واحدة ولم يخلف وارثا من بعده

ومن أسباب ضعف فرنسا فى ذلك الوقت أن الحروب الخارجية المستمرة فى العهد الماضى أنهكت قواها وأن الضرائب قد زادت لهذا السبب واشتد سخط الطبقات المتوسطة لشدة وقع هذه الضرائب ، وأهم الاحزاب التى قامت تناضل لاجل الغلبة والسلطة واعتلاء العرش بعد أسرة فالوا هي حزب أسرة جيز وحزب أسرة البربون وحزب كترين دى مديشى . وكانت أسرة البربون أقرب فرع لوراثة الملك بعد أسرة «فالوا» ورئيس هذه الاسرة ملك نفارة وهى أمارة صغيرة فى الجنوب الغربى بين أسبانيا وفرنسا واتصلت هذه الاسرة بطائفة الهوجونوت باعتناق ملك نفارة مذهب البروتستنت وذلك تقوية لمركزه ومركز أسرته وهذا ما جعل المنازعات الدينية فى فرنسا مرتبطة ارتباطا متينا بالمنازعات السياسية لأن اتصال الهوجونوت بأسرة البربون صبغ أغراضهم بصبغة سياسية

وأما أسرة جيز فهى أسرة عريقة فى الكاثوليكية جاءت من اللورين وعلى ذلك لم تكن محبوبة فى نظر كبار الاشراف، والقرابة بينها وبين الاسرة المالكة نشأت بزواج مارى استيورت إبنة ملك اسكتلنده بفرنسوا الثانى . وكانت والدة مارى استيورت وأخوالها من أسرة جيز ، ومن زعماء هذه الاسرة الدوق فرنسوا دى جيز والكردينال شارل دى جيز وكانت الاسرة محبوبة من طبقات عامة الكاثوليك وخصوصا فى باريس وكان

الدوق فرنسوا قائداً حربياً شهيرا وهو الذى استولى على كاليه من الانجليز سنة ١٥٥٨

أما كترين دى مديشى فكانت زوجة الملك هنرى الثانى وهى من أسرة دى مديشى الايطالية الشهيرة التي كانت تحكم فى فلورنسه فورثت من هـذه الأسرة كفاية إدارية وحذقا سياسيا وكانت معتدلة فى سياستها لاتتعصب لمذهب من المذاهب بالرغم من كونها كاثوليكية غير أنها كانت تعمد إلى الدسائس إذ ماهدد مركزها منازع

ولما اعتلى فرنسوا الثانى العرش كانت اسرة جيز هى القابضة على ناصية الأعمال فكان الدوق دى جيز على رأس الجيش والكردينال على رأس الادارة فتصرف الاثنان فى جميع الأمور حسب أهوائهما وذلك لأن الملك كان صغير السن ولأن زوجته مارى استيورت إبنة ملك اسكتلنده كانت صغيرة أيضا ولم تكن لها قدرة على مزاولة الأعمال ، فتركت الأمور فى يد أخوالها ، ولكن مالبث أن مات الملك فرنسوا الثانى بعد سنة من حكمه فوقعت السلطة فى أيدى كترين دى مديشى وزال نفوذ أسرة دى جيز

شارل التاسع — (١٥٦٠ — ١٥٧٤) لما كان عمره عشر سنوات صارت أمه « كترين دى مديشى » نائبة عنه فى الحكم ولأجل تقوية حزب المعارضين انضم حزب البوربون إلى الهوجونوت ، واعتنق أفراد هـذه الأسرة المذهب الجديد إما تظاهرا أو باخلاص . وإنما المهم هو اتحاد مصالح البوربون والهوجونوت سياسيا ، على أن كترين سلكت فى حكمها مسلكا قويما به أرادت ارضاء الطرفين — الكاثوليك والهوجونوت — على السواء فدعت إلى مجالسها مستشارين من الطرفين ، ولم تضطهد الهوجونوت ، ولكن أفكار ذلك العصر وشعور الرأى العام كان على غير رأى كترين من جهة التسامح ، ففشلت سياستها وبدأت الحروب والمذابح الأهلية التى

تشوهت تاريخ فرنسا فى تلك العصور ، وهاك بعض أسباب هذه الحروب

(١) ضعف الملكية والحكومة المركزية وعجزها عن اتخاذ تدابير قوية لمنع الاضطراب والقلاقل الداخلية

(٢) اغتنام الاشراف فرصة ضعف الملكية ليزيدوا قوتهم وامتيازاتهم الشخصية

(٣) تغلب الفكرة الدينية على عواطف الناس فى تلك العصور وجهل القوم أى معنى للصلح أو للتسامح فلم يروا حلا لمشا كلهم سوى تغلب قسم على الآخر أو افنائه كلية ، لذلك كانت الحروب الدينية فى فرنسا حروباً دموية مصحوبة بانواع الفظائع والجرائم .

ولما بلغ « شارل التاسع » رشده أراد أن يضع حداً لمصائب الحروب الداخلية فعقد معاهدة صلح « سان جرمين » سنة ١٥٧٠ ، وبها نال الهوجونوت حرية العبادة داخل مدن خاصة وأعيدت لهم وظائفهم وحقوقهم المدنية ؛ ودعا الملك الى جانبه « كولينى » زعيم الهوجونوت فصار أحب وزير للملك وتحسنت علاقاته بالهوجونوت بدرجة انه قرر زواج أخته من هنرى صاحب نفارة رئيس الهوجونوت

مذبحة سان برثلميو — ولما اقترب يوم الزفاف تدفق الهوجونوت من كل صقع لمشاهدة حفلة الزواج فى أغسطس سنة ١٥٧٢ وكان الحزب الكاثوليكى حانقا على خطة الملك حاقداً على الهوجونوت لفوزهم فى مجلس الملك وكانت كترين دى مديشى تتأكل حسداً لفقد سلطتها وعظم تاثير « كولينى » فى الملك ، فحدث أنه بينما كان كولينى ماراً فى الطريق رمى بالرصاص فأصابه ولكنه لم يمت فآلى الملك بالانتقام من المجرم والتمثيل به فخاف الكاثوليك عاقبة التحقيق وانفضاح أمرهم فبيتوا مساء ٢٤ أغسطس — يوم عيد « القديس برثلميو » — مذبحة هائلة ووضعوا العلامات على بيوت

الهوجونوت وماأصبح الصباح حتى جرت شوارع باريس بدماء الهوجونوت وكان « كولينى » أول المذبوحين . وانتقل الخبر من باريس الى الاقاليم فقلدوا عمل باريس وكانت النتيجة أن قتل من الهوجونوت ٢٠٠٠ نفس فى باريس و ٨٠٠٠ فى الاقاليم . وعقب ذلك فاق الحزب الكاثوليكى على الملك ومات شارل سنة ١٥٧٤ وكان ضعيف الارادة كثير التردد فى سياسته على الرغم من حسن نيته نحو فرنسا ونحو الهوجونوت . وخلفه أخوه وهو الاخير من أسرة فالوا

هنرى الثالث (١٥٧٤ — ١٥٨٩) وكان خليعا محبا للهو أراد فى أول الامر أن يستميل الهوجونوت فعقد صلحا معهم يعرف بصلح « مسيو » سنة ١٥٧٦ نال به الهوجونوت أحسن شروط ممكنة اذ صرح لهم بحرية العبادة فى أى مكان شاءوا ماعدا باريس وأملاك كبار الاشراف وأحيلت قضاياهم على محاكم خاصة مكونة من الهوجونوت والكاثوليك فحقد الكاثوليك على الملك ولما لم يكن له وارث صار من المحقق اعتلاء هنرى صاحب نفارة عرش فرنسا ، ولما كان هنرى بروتستنتيا قام الكاثوليك وألفوا العصابة المقدسة برياسة « هنرى جيز » للدفاع عن المذهب الكاثوليكى حتى ضد الملك نفسه وكان الملك كباقى اخوته ضعيفا فخضع للعصابة وألغى صلح مسيو وقامت الحروب من جديد ، ولما خشى الملك « هنرى الثالث » استفحال سلطان « هنرى جيز » دعاه اليه وأرسل اليه من قتله ، عقب ذلك قررت العصابة عزله ففر الى نفارة . وأثناء سياحته قتله راهب سنة ١٥٨٩ وبموته انقرضت أسرة فالوا واعتلى العرش هنرى الرابع

هنرى الرابع (١٥٨٩ — ١٦١٠) هو أول ملك من ملوك أسرة بوربون وكان وديع الاخلاق باسلا وذكيا محبوبا لدى أتباعه ، وقد اضطر الكاثوليك الى الخضوع لكون هنرى صاحب الحق الوحيد فى وراثة التاج

ولكن بقيت العصابة الكاثوليكية قائمة يعضدها « فليب الثانى » ملك اسبانيا الى أن ضعف مركز اسبانيا بسبب هزيمة الارمادا سنة ١٥٨٨ وهزيمتها أمام هنرى فى موقعة « أفرى » سنة ١٥٩٣ وأخيراً رأى « هنرى » ان خير طريق لحسم النزاع القائم فى فرنسا ارتداده عن المذهب البروتستنتى وتحوله الى الكاثوليكية ففعل ذلك فى سنة ١٥٩٣ ومن وقتها اكتسب لنفسه حب الشعب الفرنسى وتوج ملكا على فرنسا سنة ١٥٩٤

وليس هناك شك فى ان سبب هذا التغيير المذهبى وطنى لاديني محض يدل على ذلك أول عمل مهم أصدره لحسم المشاكل الدينية فى فرنسا وهو سنه « مرسوم نانت » سنة ١٥٩٨ وبمقتضى هـذا المرسوم صار للبروتستنت (١) حرية العبادة فى أى بلد عدا باريس وأقاليم خاصة (٢) تساوى البروتستنت والكاثوليك أمام القانون وتشكيل محاكم خاصـة لمقاضاة الهوجونوت مكونة من الكاثوليك والهوجونوت (٣) منح الهوجونوت بعض بلدان يكون لهـم حق تحصينها أهمها « لاروشل » وذلك ضمانا لحريتهم وتاميناً لهم ، ويلاحظ فى هذه اللائحة الضرر الظاهر فى الامر الاخير إذ بذلك أصبح الهوجونوت كطائفة مستقلة داخل الحكومة الفرنسية وصار لهم جيش وحصون يلوذون بها متى أرادوا وكان ذلك ضد آراء الوزراء العظام وسيكون سببا فى تجديد الحرب الدينية أيام « ريشليو » . كذلك تم فى نفس هذه السنة السلم بين فرنسا واسبانيا وذلك بمقتضى صلح « فرفن » وبمقتضاه رد كل من الطرفين ما أخذه من الآخر

ولما تم توطيد حكومة الملكية فى فرنسا اتجهت الهمم الى اصلاح داخلية البلاد وكان وزير هنرى « دوق سلى » هو المنفذ لتلك الاصلاحات التى عادت على فرنسا بالنفع العظيم ، فقد أصلح المالية والتجارة والصناعة وانتشل فرنسا من الخراب الذى انتابها أثناء الحروب الدينية ، وظهرت

اصلاحات الدوق سلى بصفة خاصة فى المشروعات الاقتصادية اذ اهتم بالشئون الزراعية لاعتقاده ان فرنسا بلد زراعى وأن الشعب الزراعى يكون أكثر ولاء للملك فخفف المستنقعات وأصلح الاراضى وزادت المحصولات الزراعية زيادة أدته الى تصدير الزائد منها للخارج وشجع الصادرات وقلل من الواردات حسب المبدأ الاقتصادى الذى ساد طول القرنين السابع عشر والثامن عشر وهو المبدأ المعروف فى الاقتصاد السياسى بنظام الحماية، والغرض من هذه السياسة ان تتمكن المملكة من زيادة ثروتها الداخلية فتعتمد عليها وتغنيها عن السلع الاجنبية وخاصة أيام الحرب ، فالفكرة من هذه الوجهة لم تكن اقتصادية بحتة بل كانت وطنية أيضاً

ومن اصلاحات هنرى الداخلية اعتماده على الطبقة الوسطى واضعافه للاشراف الذين انتهزوا فرصة الحروب الداخلية وأرادوا أن يتمتعوا بامتيازاتهم القديمة . ولما قويت فرنسا داخليا وضع «هنرى» مشروعا ما وأقاأسرة هبسبرج فى أوربا، وفعلا جهز جيوشه للهجوم وبدأ بالتنفيذ واذا به قد قتل سنة ١٦١٠ تاركا لخلفائه مهمة أخذ الزعامة فى أوربا لفرنسا

عظمة فرنسا

عصر ريشليو ومزراله — بعد موت « هنرى الرابع » سنة ١٦١٠ كان يبدو أنه لا سبيل الى تنفيذ الخطة التى وضعها للسير فى داخلية فرنسا وخارجيتها لان ابنه « لويس الثالث عشر » (١٦١٠ — ١٦٤٣) كان لايزال قاصراً وكانت أمه «مارى دى مديشى» وصية عليه ، وكانت آراؤها السياسية تخالف آراء زوجها تمام المخالفة اذ كان من قصدها أن تربط الاسرة المالكة فى فرنسا بالاسرة المالكة فى اسبانيا ، رغم ما كان بينهما من العداء ورغم معارضة الرأى العام فى فرنسا . وفى سنة ١٦١٢ تم الاتفاق على أن يتزوج

« لويس الثالث عشر » « بآن النمسوية » بنت فليب الثانى ملك اسبانيا، وفى سنة ١٦١٤ أصبح لويس قادرا على الحكم ثم أتم زواجه بالاميرة الاسبانية ولكن الاحوال لم تتحسن بتقليده الحكم فعلا وظل الاشراف متنازعين فيما بينهم على الاستئثار بالسلطة وتشجع الهوجونوت فقاموا سنة ١٦٢٠ وحاولوا تكوين جمهورية صغيرة فى جنوب فرنسا ولكن لويس الثالث عشر جهز جيشا وأظهر كفاية عسكرية جديرة بالثناء وانتصر على الهوجونوت وعقد معهم صلح «منبلييه» سنة ١٦٢٢ وبمقتضى هذا الصلح حرم عليهم الاجتماعات السياسية ولم يمسس حقوقهم الدينية وقصر حصونهم على مدينتى لاروشل ومنتوبان ، وفى سنة ١٦٢٤ أصبح ريشليو وزيرا للملك .

وبتولى الكردينال ريشليو زمام الامور عام ١٦٢٤ حدث تغيير تام وبدأت صحيفة جديدة فى تاريخ فرنسا ، وكان أول ظهور هذا الرجل أن انتحب خطيبا عن طائفة القساوسة بمجلس طبقات الامة سنة ١٦١٤ ثم اتخذته الملكة مستشارا ولم يكن إذ ذاك يبدو عليه شيء من علامات العبقرية أو المقدرة ، ولكنه لما تولى منصب الوزارة أصبح أكبر سياسى فى أوربا كلها والحاكم الحقيقى لفرنسا

وكان موقف ريشليو غريبا اذ أنه بينما كان أسقفا وكردينالا وكاثوليكيا صميما داخل فرنسا كان منحازا دائما الى البروتستنت فى سياسته الخارجية وكان ريشليو يعمل على تحقيق غرضين هما فى نظره مظهران لغرض واحد : «الاول» اتحاد عناصر الأمة وزيادة نفوذ الملك داخل البلاد وتوطيد سلطانه بالقضاء على كل هيئة منافسة له سواء فى ذلك الاشراف أو الهوجونوت أو المجالس الوطنية ، و «الثانى» فواق فرنسا فى أوربا وهذا يستلزم قهر آل هبسبرج في ألمانيا واسبانيا ، ومع أن ريشليو كان ضعيف البنية منحرف الصحة الا انه بقوة ارادته وخبرته التامة بالحال السياسية فى أوربا والداخلية فى

فرنسا ساد أوربا في عصر كان الفواق فيه للقوة المادية ولذا يعد من أكبر ساسة فرنسا

سياسة الداخلية — أول ما استافت نظره طائفة « الهوجونوت » على أنه لم يكن يكره معتقداتهم ولم يكن فى أوربا سياسى أكثر منه تسامحا فى قبول العقائد المختلفة أساسا لحياة المملكة ، ولكن الامتيازات التى خولهم إياها « مرسوم نانت » جعلتهم عقبة فى سبيل توحيد فرنسا تحت سلطان الملك ، فقد كان لهم حق عقد اجتماعات دينية يمكن اعتبارها مجالس نيابية بينما كانت الحاميات والحصون التى لهم تجعلهم قوة حربية خارجة عن نفوذ الملك . وقد استلزم إخضاعهم عدة حروب شجعهم على القيام بها انتظار المدد من انجلترا وترقبهم قيام الاشراف ضد ريشليو ، وكان آخر أمرهم أن حاصر ريشليو بنفسه ثغر «لاروشل» أكبر حصن لهم ومنع مساعدة انجلترا بانشاء سد أمام الثغر ، وقد دافع سكانها دفاعا لم يسبق له مثيل ولكن المجاعة اضطرتهم الى التسليم سنة ١٦٢٨

بعد ذلك أتم ريشليو اخضاع مدنهم الاخرى ولم يأت أغسطس من سنة ١٦٢٩ حتى تم له الامر وعمل معهم صلحا جديدا يعرف بصلح « اليه » به جدد لهم كل الامتيازات الدينيةالتى منحهم إياها «مرسوم نانت » وجردهم من كل قوة حربية ، ونصح لهم أن يركنوا فى المستقبل الى شرف الملك ؛ ولا شك فى أن ريشليو كان مخلصا فى وعده ولم يخطر بباله أن شرف الملك قد يلعب به التعصب الدينى فلا يغنى عن البروتستنت شيئا

«أما الاشراف» فقد قضى ريشليو مدة وزارته في كفاح دائم رجاء أن يقضى على قوتهم ومزاعمهم ، لانه وان كان زمن الاقطاع قد مضى ولم يعد الاشراف يناظرون الملك فى القوة ، إلا أنهم لم يزالوا أقوياء أغنياء ميالين للحروب شديدى التمسك بما يزعمون انه حق وامتياز لطائفتهم

فكانوا بذلك أكبر منافس للملكية رغم ما حاق بهم من الويلات قبل ذلك

وأغرب شيء في موقف ريشليو أنه بينما كان يقتص للتاج من الاشراف إذا بالاشراف يجدون من بيت الملك حلفاء ، فكانت الملكة وأم الملك وأخوه يتآمرون مع الاشراف على خلعه ، وكان ريشليو لا يعفو عن أحد من الاشراف متى وقع في يده متلبسا بالجريمة فقتل دوق « منتمورنسى » وكان من أشد أعداء الحكومة لانه اشترك في الخروج عليه سنة ١٦٣٢ ، وفي آخر أيامه دبر « سنك مار » مؤامرة ضد ريشليو بالاشتراك مع اسبانيا فلم ينجه علو مكانته ولا حب الملك إياه من المشنقة التي أعدها الكردينال للرؤساء أعداء الملك ، ولم يقتصر ريشليو على الشنق والحرب بل عمد الى طرق أبعد مدى وأدوم نتيجة فحرم المبارزة وهدم حصون الاشراف إلا ما كان منها على الحدود

وأهم من ذلك كله أن نفوذ الاشراف في المقاطعات كان عظيما لانهم كانوا يحكمونها ويستعملون مناصبهم في مقاومة الملك أحيانا فنزع الكردينال هذه السلطة من أيديهم وعين مكانهم رجالا جلهم من الطبقة الوسطى سماهم « مراقبي البوليس والمالية » وقد انتقلت القوة الحقيقية الى هؤلاء المستخدمين الذين يعاضدون الحكومة المركزية التي منها يستمدون نفوذهم فأصبح في يدهم جمع الجنود والضرائب وتنفيذ القانون ، وقد بقي المراقبون أهم عمال الحكومة بعد الوزراء الى عهد الثورة

كذلك قضى ريشليو على كل نظام شبيه بالنيابي فأبى أن يدعو مجلس طبقات الأمة فكان آخر اجتماع له قبل نشوب الثورة سنة ١٦١٤ ، وقصر عمل البرلمانات على القضاء ومنعها من التدخل في التشريع أو السياسة ، وأما مجالس المديريات فكان يمحوها متى وجد مسوغا من ثورة أو سخط ويحل مستخدمي الحكومة محلها ، فان لم يجد مسوغا عاملها بالشدة ونقل جزءاً كبيرا من أعمالها الى يد المراقبين ، أما الاعيان الذين كان الملك ينتخبهم ويدعوهم

وكان عملهم مقصوراً على ابداء النصح فلم يتعرض لهم ريشليو إذ كان لايخشى على نفوذ الملك منهم .

سياسته الخارجية — كان هم ريشليو موجها الى الاعمال الخارجية دائما فكان لتدخله فى حرب الثلاثين سنة وفى السياسة الدولية على العموم تأثير حاسم حتى انه ليشك فيما اذا كان ظهر قبل بسمرك سياسى أوسع منه نفوذاً

وكان قصده القضاء على قوة «هبسبرج» فى النمسا واسبانيا لانه كان يرى فيها المنافس الوحيد لفرنسا ، بل العائق الوحيد لسيادتها فى أوربا ، ولذا جعل يرقب حرب الثلاثين سنة بقلق متزايد حتى سنحت الفرصة فتدخل فى جانب البروتستنت كما سبق ذكره ، ومن مهارة ريشليو السياسية أن خلق لاسبانيا أعداء من بلادها فثارت باغرائه البرتغال سنة ١٦٤٠ وشقت «كتالونيا» عصا الطاعة سنين عديدة ، حتى بدأ النصر يظهر فى جانب فرنسا حين مات ريشليو سنة ١٦٤٢ وتبعه «لويس الثالث عشر» بعد أشهر

ويتهم ريشليو بالقسوة والشدة المتناهية ويقول بعضهم أنه أقام حكومة بوسائل الارهاب ولكن الحقيقة انه لم يقس ولم يتشدد إلا فى معاملة المجرمين. وإن حالة فرنسا فى ذلك الوقت كانت تتطلب مثل هذه الشدة مادام الاشراف والهوجونوت يعملون على كسب امتيازات خاصة قد تكون سببا فى أضعاف الحكومة المركزية ، وكان ريشليو سريع الحكم صلب الارادة ذا همة لاتعرف الملل واضعا نصب عينيه مصلحة الحكومة والملك دون أى اعتبار آخر وكانت نتيجة سياسته أن صارت فرنسا وحدة وطنية وأصبح ملكها قوى الدعائم ذا مركز فائق فى أوربا ، وساعد ريشليو على تعضيد الآداب والفنون ولكنه لم يعن بالاصلاحات الاقتصادية كدوق سلى وزير هنرى الرابع أو كلبر وزير لويس الرابع عشر ، وقد لقى ريشليو من لويس الثالث عشر أكبر معضد له فى سياسته فأخلص له الخدمة أيما اخلاص

مزران — ظن الناس بعد موت ريشليو أن سياسة فرنسا لابد أن تتغير ولكن ذلك لم يكن لان الكردينال أوصى بأن يخلفه « مزران » الذى كان يساعده فى الأعمال آخر أيامه وصار كردينالا سنة ١٦٤١ ، وكان مزران طليانيا مداهنا ماكراً محبا للظهور لايحسن التكلم بالفرنسية ولم يكن يحسن فهم الخلق الفرنسى ولم يكن له بطش ريشليو فى الأحوال الداخلية . أما فى السياسة الخارجية فكان نعم الخلف لأنه واصل اتباع الطريقة التى رسمها ريشليو إلى أن بلغ ما كان يرجوه . فقد تولى لويس الرابع عشر (١٦٣٤ — ١٧١٥) وهو دون الخامسة فأقيمت عليه أمه « آن النمسوية » وصية وساعدها « مزران » على جمع السلطة فى يدها

وقد بدأت جيوش فرنسا تفوق غيرها فى أيامه بفضل نبوغ جنديين عظيمين من أبنائها وهما : « تورن » و « كنديه » . وكان كنديه أجرأهما ولذلك سبق إلى الشهرة ، ولكن « تورن » كان من أقدر الخبيرين بالفنون الحربية وأشفق القوادالذين ظهروا فى أورباوقد نال انتصارات أكثر وخدم فرنسا باخلاص أكثر من منافسه وزميله ، ففى عام ١٦٤٧ انتصر كنديه فى موقعة « ركروا » على الحدود البلجيكية وقد اشتهرت هذه الموقعة لأن فيها هزمت رجالة اسبانيا هزيمة تامة لأول مرة منذ عهد شارل الخامس . وبعد ذلك بقليل بدأت المفاوضات ولكنها طالت لان النمسا كانت تضن بالتضحية المطلوبة . وأخيرا اضطرت النمسا إلى الرضاء وتم صلح « وستفاليا » وبه ثبت لفرنسا امتلاك « متز » و « تول » و « فردان » ونالت جميع الالزاس ماعدا استراسبرج ، فظهر فواقها وامتد نفوذها .

وبالرغم من أن صلح وستفاليا كان أكبر انتصار لمزران قامت المعارضة فى وجهه من جهات عديدة كلها تقصد تقييد سلطة الملك وذلك لان العبء المالى الذى استلزمته الحرب كان ثقيلا فانبنى عليه طلب تخفيض الضرائب ،

وكان الأشراف يؤملون استعادة نفوذهم وقامت الحرب الأهلية المعروفة بحرب « الفرند » (١٦٤٨ — ١٦٥٣) وهى آخر حرب أهلية كبرى قام بها الأشراف فى فرنسا رغبة فى إعادة امتيازاتهم الأولى ، وفيها انحاز كنديه إلى جانب الثائرين ولكن مزران تغلب فى النهاية بفضل مساعدة تورن فدخل الملك لويس الرابع عشر باريس سنة ١٦٥٣ وقضى نهائياً على حركة الفرند ، وعندها عاد مزران وواصل الحرب ضد اسبانيا ورأى ضرورة الاتفاق مع كرمول فى انجلترا فانتصر الحليفان على اسبانيا وانتهت الحرب بصلح البرانس سنة ١٦٥٩ فاستولت فرنسا على اقليمى روسيون وسردانى على الحدود الجنوبية وأخذت ارتوا وبعض مدن أخرى فى الأراضى المنخفضة

وبانتهاء حركة الفرند فاق الملك نهائياً وتهافت الأشراف على بلاطه وتنافسوا فى خدمته والاذعان لأوامره ومات مزران سنة ١٦٦١ وكانت إدارته الداخلية سيئة للغاية لأنه لم يعن إلا بشئونه الخاصة ، وكان الملك قد بلغ الثانية والعشرين من عمره فلم يتخذ بعد مزران رئيساً آخر للوزارة بل أبقى هذا المنصب لنفسه وظل إلى آخر عمره الحاكم المطلق فى فرنسا

لويس الرابع عشر (١٦٤٣ — ١٧١٥)

بدأ لويس الرابع عشر يحكم فرنسا فى وقت كان لها فيه السيادة العظمى والكلمة النافذة فى أوربا . وكان لويس داهية فى سياسته صبوراً على قضاء ما ربه قوى العزيمة لايعرف الكلل ذا قدرة عظيمة على مواصلة العمل بنفسه ، لايترك صغيرة ولا كبيرة الا تصرف فيها . أما وزراؤه فلم يكونوا فى نظره سوى منفذين لرغبات الملك وخدام له . وأصبح هو عنوان عظمة الحكومة والشعب وأطلق اسمه على النهضة التى ظهرت فى كل مرافق الحياة من مبان فاخرة ورقى فى التجارة والصناعة وأدبيات ورسوم وأزياء حديثة .

وقد ساعده فى ابان حكمه كثير من نوابغ الفرنسيين وفى مقدمتهم «كلبير» من أمهر المديرين الماليين و «ليون» السياسى المحنك و «كنديه» الفارس الشهير و «فوبان» المهندس الحربى العظيم و «لوفوا» وزير الحربية وغيرهم من كبار الرجال الذين اشتد بهم ساعده وزادت قوته ونال نصراً مبيناً وفلاحا عظيما فى سياسته الداخلية والخارجية أكثر مما نال ريشليو ومزران . لذلك كان لويس مهيبا فى أعين ملوك أوربا يعدونه نموذجا يقتدى به وأعماله درسا ينسج على منوالها



لويس الرابع عشر

وكان «للويس» ميزة خاصة وهى أنه كانت له من أبهة الملك وجلاله ماليس لأحد سواه من الملوك وكان يحسن الظهور بالعظمة من غير تكلف، كريما لمن فى حضرته جذابا فى حديثه ساميا فى ذوقه حسنا فى طلعته، وكانت حاشيته غاية فى العظمة والادب وقصره «فرساى» من أجل ما شيده ملوك

اوربا يؤمه العلماء والادباء ونوابغ الممثلين والفلاسفة . وقد كان ذلك سببا في أن أغلب الممالك الأوربية الاخرى اجتهدت فى محاكاة فرنسا فى ذوقها وصناعتها وآدابها وعلومها ولغتها حتى أصبحت الفرنسية لغة التخاطب بين الحكومات وانتشرت فى أوربا انتشاراً لم تسبقها فيه أية لغة أخرى

أما لويس فكانت له أطماع كبيرة فى الخارج اذ كان يريد الاستمرار فى فتوحه الى نهر الرين الذى يعتبره الفرنسيون حدهم الطبيعى من جهة الشرق حتى تكون فرنسا المسيطرة على جميع أصقاع أوربا الغربية ، ولكنه رأى أن يؤجل ذلك حتى ينجز اصلاحاته الداخلية

ظهر فى هذا العهد من المصلحين « كلبير » الوزير المالى الذى خدم فرنسا خدمات جليلة في اصلاح شئونها . نشأ كلبير فى خدمة « مزران » وكان لمهارته وخدمته محبوبا لدى سيده يستشيره فى كل أموره المالية ، فلما مات « مزران » ترك وراءه أعظم ذخر لفرنسا وأكبر ارث للويس وكانت طريقته كطريقة « سلى » فمنع الرشوة وأبطل بيع الوظائف وعمل على زيادة انتاج الثروة فى البلاد متبعاً مبدأ الحماية الاقتصادى

ورأى أن مالية البلاد فى غاية من الارتباك كما كانت قبل عهد « سلى » . وذلك لعدم انتظام طريقة جمع الضرائب واختلاس الجباة . فأصلح « كلبير » هذه الامور وخفف من ديون الامة وألغى بعضها وشدد على الجباة حتى انتظمت الحالة المالية وتحسنت كثيراً عما كانت عليه من قبل . ومن أعماله تخفيض الضرائب على الفلاحين ومحو المكوس من داخل البلاد وتحسين الطرق وحفر الترع ومنها « ترعة لنجدوك » التى توصل البحر الابيض المتوسط بالمحيط الاطلسى ، وكان يوجه عنايته إلى الصناعات وبوجه خاص صناعة المضرس من الثياب (الدنتلة) والزجاج والحرير غير أنه منع تصدير

الغلال خوفا من أن يحتاج إليها يوما ما ، ولو كان صدرها لجنت فرنسا من ورائها أرباحا طائلة .

وكانت التجارة فى يد شركات انجليزية وهولندية فأراد « كلبير » أن يكون لفرنسا حظ فيها فأسس شركات للاتجار فى البلطيق والهند وأمريكا وشرق البحر الأبيض المتوسط وجزر الهند الغربية ، فزادت تجارة فرنسا زيادة عظيمة ولتسهيل التجارة بنى السفن البحرية كما أنه زاد فى الأسطول لحماية التجارة غير أن سياسة « لويس » الخارجية أضرت بكل ما أتمه « كلبير » لفرنسا فانه أثقل كاهلها بعدة حروب متواصلة استمرت طول حكمه ومات « كلبير » سنة ١٦٨٣ بعد أن ساد النظام فى جميع الاعمال وخاصة فى الجيش .

حروب لويس الرابع عشر

كان الشطر الأول لحكم لويس مملوءاً بالاعمال التى استجلبت محبة الشعب لانه أقام العدل فى البلاد وبرهن أن لا شريف ينجو من العقاب الذى يفرضه القانون ، فكانت اعماله تقابل باستحسان وحماسة ، ولم ير الناس معنى للاشتراك معه فى الحكومة ، حتى حق له أن يقول « أنا الدولة » ولكن مدة السلم لم تدم طويلا فان لويس الرابع عشر لما رأى ماعليه فرنسا من الثروة والقوة والفواق على ماجاورها من الممالك أراد أن يوسع حدودها ، وكانت أسبانيا قد ضعفت ضعفاً عظيما بعد صلح البرانس وتفككت عرى الامبراطورية والامارات الالمانية بعد حرب الثلاثين ولم يبق فى أوربا من الدول مايشغل بال لويس سوى انجلترا وهولنده .

أما انجلترا فكان لويس واثقا من قريبه شارل الثانى فعمل على كسبه إلى جانبه بالمال وأما هولنده فكانت تعانى أزمة داخلية عصيبة فانتهز لويس الفرصة وغامر بفرنسا فى عدة حروب أنهكت قواها وأضعفت مركزها فى النهاية .

(١) **حرب الاراضي المنخفضة** (١٦٦٧ — ١٦٦٨) كانت الاراضي المنخفضة (بلجيكا) تابعة لاسبانيا ولما كانت هذه ضعيفة لم تلتفت إلى مصالحها فيها ، والاراضي المنخفضة بلاد مستوية التربة تسهل فيها الحركات العسكرية ولا يكلف الاستحواذ عليها مئونة عظيمة ، فأرسل لويس جيشه القوى لاحتلالها مستندا إلى حق زوجته — أخت ملك أسبانيا — في هذه البلاد ، غير أن هولنده ، وكانت من أقوى ممالك أوربا في ذلك العهد ، رأت أن وجود لويس بالأراضي المنخفضة خطر عليها فكونت المحالفة الثلاثية من انجلترا ، والسويد ، وهولنده ، ضد لويس ففضل هذا أن يصطلح بعد أن استولى على بضعة بلدان على الحدود أهمها شارلروا وكان ذلك بمقتضى معاهدة اكس لاشابل سنة ١٦٦٨

(٢) **الحرب الهولاندية** (١٦٧٢ — ١٦٧٨) استشاط لويس غيظا لما رأى أن هولنده هي المحرضة الأولى على تكوين العصابة ضده ، كذلك كان يسوءه أنها بروتستنتية وحكومتها جمهورية فأضمر لها العداء وأخذ يسعى في استمالة الحكومات الأخرى إليه وجعلها بمعزل إذا قامت الحرب فاتفق مع شارل الثاني ملك انجلترا وعقد معه معاهدة دوفر السرية سنة ١٦٧٠ كيما يشترك معه في الحرب ضد هولنده ثم عقد اتفاقا آخر مع السويد والامبراطور ليضمن حيادهما ثم أعلن الحرب سنة ١٦٧٢ وهي حرب لا يبررها أي حق . ولكنه هاجم أمة تدربت على الكفاح وتربت على الاستماتة في الذود عن حقها . وأخيراً سار الجيش الفرنسي على رأسه «تورن» و «كنديه» وتوغل في ولايات هولندة السبع . ولما اشتدت الأزمة الحربية لم يسع الهولنديين إلا قطع حواجز البحر عند «أمستردام» فطغى الماء وارتد الفرنسيون . ثم دخلت أسبانيا والامبراطور في جانب هولندة واضطر لويس إلى عقد معاهدة «نمويجن» سنة ١٦٧٨ ، وبمقتضاها لم تمس هولندة

بسوء ، إلا أن فرنسا كسبت قسم برغندية الحر « فرانش كنتيه » شرقى حدود فرنسا الشرقية ، ويعتبر صلح نمويجن مبدأ فشل لويس الرابع عشر في خطته لانه لم يحقق الاغراض التى من أجلها دخل الحرب وهي إخضاع هولنده كذلك يمكن اعتباره منتهى ما وصل اليه لويس من النجاح بسبب الاقاليم التى ضمتها فرنسا

الغاء مرسوم نانت سنة ١٦٨٥ — عقب الحرب الثانية صار لويس أقوى ملك بأوربا فزاد استكباره وساءت تصرفاته : ففى سنه ١٦٨١ احتل مدينة استراسبرج أقوى مدينة فى الألزاس وكانت تابعة للامبراطور وفى ذلك الوقت أيضا وقع لويس تحت تأثير « مدام ده مانتنون » مربية أولاده فأحبها وتزوجها وكانت تقية متعصبة للمذهب الكاثوليكى وعلى أثر زواجه بها تشدد لويس فى مراعاة الآداب الدينية فى البلاد وزالت الخلاعة واللهو ، وبتأثيرها أيضا انقضى الخلاف بين لويس وبين البابا وكان قد نشب النزاع بينهما رغبة من لويس فى استقلال الكنيسة فى فرنسا عن البابا حتى تصبح فرنسا متحدة دينيا كما انها اتحدت سياسيا ، ولهذا السبب نفسه لم يشأ لويس أن تبقى طائفة فى فرنسا تدين بمذهب يخالف مذهب الملك وعلى ذلك ختمت حركة اضطهاد البروتستنت بالغاء مرسوم نانت سنة ١٦٨٥ أى بعد سنتين من زواجه ، فصودرت الديانة البروتستنتية فى فرنسا وفقد الهوجونوت حرية العبادة والمساواة أمام القانون فهاجر سراعدد كثير منهم يقدر بخمسين ألف أسرة ، معهم ثروتهم وصناعتهم ولجئوا إلى هولنده وانجلترا وبروسيا وأمريكا ، فكانت خسارة فرنسا عظيمة بفقدها هذه الطائفة المثرية النشيطة

(٣) **حرب عصبة أوجز برج ١٦٩٧** : تكونت هذه العصبة سنة ١٦٨٨ وسببها سخط العالم البروتستنتى على سياسة لويس ضد الهوجونوت واحتلاله

مدينة استرسبرج على غير رغبة الامبراطور ، وكانت انجلترا احدى أفراد عصبة أو جزبرج وذلك لان « وليم » صاحب أورنج الذى صار حاكما على هولنده دعى لأن يكون مع زوجته ماريه ملكا لانجلترا سنة ١٦٨٨ ، وانتهت هذه الحرب بصلح « رزوك » سنة ١٦٩٧ من غير أن يحصل تغيير مافى الحالة الحربية وكان من مصلحة فرنسا بعد ذلك أن تبقى فى حالة سلم حتى تسترد قوتها وتنظم ماليتها وتخفف ضرائبها وتقلل جيوشها ولكن سرعان ما اشتبكت فى حروب جديدة

(٤) **حرب الوراثة الاسبانية** (١٧٠٠—١٧١٣) لم يكن «لشارل الثانى» ملك اسبانيا اذ ذاك من يرث الملك من بعده ، ولم يكن أحد ليعرف من سيخلفه ، غير أنه كان لشارل أخت كبرى زوجها للويس الرابع عشر وأخرى زوجها للامبراطور « ليوبولد » وحفيدة تزوجت من منتخب بفاريا . وكان لويس والامبراطور كلاهما يرمى إلى ملك اسبانيا ، غير أن الدول لم تقبل اتساع ممتلكات الامبراطور أو لويس الرابع عشر فى أوربا وذلك وفقا لمبدأ « التوازن الدولى » الذى كانت تستند اليه سياسة أوربا فى ذلك الوقت وهذا المبدأ يقضى بانه لايسمح لأية دولة بأن تزيد ممتلكاتها فى أوربا زيادة من شأنها احراج مركز الدول الاخرى

فطن لويس لذلك الامر فأراد أن يكسب رضاء « وليم الثالث » ملك انجلترا وكان أقوى أعداء لويس ، واتفق معه على تقسيم الوراثة الاسبانية بحيث يصبح منتخب بفاريا ملكا على اسبانيا ، ولما مات شارل الثانى سنة ١٧٠٠ وجد انه ترك وصية تقضى بأن يكون « فليب انجو » — حفيد لويس — الوارث الوحيد للممتلكات الاسبانية، وفى الحال لم يراع لويس اتفاقه مع وليم بل أرسل حفيده الى اسبانيا ووضع يده على كل شىء وأعلن أن جبال البرانس قد زالت من بين فرنسا واسبانيا ، فدهشت أوربا من هذا العمل

وتكونت المحالفة الكبرى ضد لويس من انجلترا وهولندة والامبراطور وبروسيا ، اذ عد عمله مخلا بالتوازن الدولى أيما اخلال ، لانه كانت لاسبانيا الاراضى المنخفضة وميلان ونابلى

وكان من أعظم قواد الحلفاء « الدوق مارلبرو » القائدالانجليزى الشهير والأمير « أوجين » صاحب سافوى . وكانت أهم ميادين القتال فى بفاريا والأراضى المنخفضة ، فكسب الحلفاء مواقع حربية عظيمة هزم فى جميعها لويس الرابع عشر . ومن أهمها موقعة « بلنهيم » سنة ١٧٠١ على نهرالدانوب الأعلى اذ طرد الفرنسيون من ألمانيا كلية ، ومواقع « رملليز » سنة ١٧٠٦ و « أودينار » سنة ١٧٠٨ وموقعة « ملبلاكيه » سنة ١٧٠٩ وكلها فى البلجيك . غير أن هذه المواقع لم تكن حاسمة وطال أمد الحرب فملتها انجلترا وأخيراً تحول مجرى الامور وذلك بأن تغيرت حكومة الاحرار فى انجلترا وصارت الحكومة فى أيدى المحافظين سنة ١٧١٠ وكانوا ضد مواصلة الحرب . وكذلك صار الدوق شارل المطالب بحق الوراثة الاسبانية امبراطوراً سنة ١٧١١ فأصبح من العبث إطالة الحرب . أما لويس فكان على وشك الافلاس وكان يريد الصلح . فانتهت الحرب بصلح اترخت سنة ١٧١٣ ، ومن شروطه

ا — أن يكون فليب دوق أنجو ملكا على اسبانيا بشرط ألا تضم هذه المملكة الى فرنسا يوما من الايام

ب — يستولى الامبراطور شارل على الاراضى المنخفضة وميلان ونابلى

ج — أخذت هولندة بعض بلدان على الحدود من جهة الاراضى المنخفضة

د — أخذت انجلترا بعض مستعمرات فرنسا بأمريكا : نيوفوندلند، نوفاسكوشيا ، خليج هدسن ، كما أخذت جزيرة منورقه وجبل طارق

ه — ضمت سردانيا إلى دوقية سافوى

أما الامبراطور شارل فانه رفض الموافقة على شروط صلح أترخت أولا إلا أنه أجبر على الخضوع بمقتضى صلح « راستاد » سنة ١٧١٤

وأهم مظاهر هذه المعاهدة

أولا — أن فرنسا لم تسد أوربا كما كان يرمى لويس الرابع عشر ولكنها انتصرت إذ اعترف بفليب الخامس حفيد لويس ملكا على اسبانيا وعلى ذلك لم تتحقق أغراض المحالفة التى تكونت ضد لويس ولم تنزل فرنسا عن مكانتها الأولى فى أوربا

ثانيا — أخذت الاحتياطات لمنع فرنسا من اتخاذ خطة الهجوم ضد أوربا باحتلال النمسا الاراضى المنخفضة الاسبانية وبتقوية دوقية سافوى

ثالثا — ظهر لأول مرة اهتمام انجلترا بمصلحتها التجارية الاستعمارية فلم تعن كثيراً بأوربا ، يدلنا على ذلك اهتمامها بضم بعض مستعمرات فرنسا فى أمريكا وبضم جبل طارق (أما جزيرة منورقه فردت إلى اسبانيا فيما بعد). وكانت نتيجة هذه الخطة أن أصبحت انجلترا صاحبة السيادة فى البحر ووضعت بذور المنافسة الاستعمارية الشديدة بين فرنسا وانجلترا

ومات لويس سنة ١٧١٥ حزيناً كئيباً لما جره على فرنسا من النكبات بسبب حروبه وأطماعه . ولأنه لم يخلف بعده إلا ابن حفيده وكان طفلا صغيراً فى الخامسة من عمره . ومع ذلك فقد كانت فرنسا فى عصرها الذهبى فى أيامه وخصوصاً فى الجزء الاول من حكمه . وقد ظهر فى أيامه من الشعراء والكتاب والعلماء عدد عظيم مثل « مليير وراسين »

الفصل السابع

انجلترا

تمهيد — من عهد سحيق انتقل قوم من الجنس الكلتى من سكان مقاطعة « برطنيه » شمالى غربى فرنسا إلى الجزيرة المواجهة لهم وسموها « بريطانيا » باسم بلادهم الاصلية ومنها انتقلوا إلى إيرلندة ، وقد بقى هؤلاء الافوام أصحاب الشأن فى هذه البلاد إلى أن دخلوا ضمن الامبراطورية الرومانية بعد حروب طويلة وبقوا خاضعين لها حتى أخذت الدولة الرومانية فى الضعف واضطرت إلى سحب حامياتها من هذه الجهات النائية لتحمى وطنها الأصلى

فترك الرومان بريطانيا بعد أن نسى أهلها صفاتهم الحربية الاولى وأصبحوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم ، فلما أغارت عليهم قبائل « الانجليز » و «السكسون» و «الجوت» الذين جاءوا من شمالى ألمانيا أثناء القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد عقب سقوط الدولة الرومانية سهل عليهم التغلب على البريطانيين الذين لجئوا إلى الجهات الجبلية فى الغرب وعرفت البلاد « بانجلند » أى أرض « الانجليز » وكوّنوا ممالك صغيرة منفصلة ومتنافرة بقيت كذلك إلى أن أغار « وليم » دوق نورمندية فى سنة ١٠٦٦ م على بلادهم وهزمهم فى موقعة «هاستنجس» وتوج ملكا على انجلترا

وقد امتزج النورمنديون بالسكان الاصليين، ومن امتزاج هذه الاجناس المختلفة نشأ الشعب الانجليزى الحديث الذى يعتبر ابتداء تكوينه من عهد الفتح النورمندى الذى به أصبح لملوك انجلترا مقاطعات كبيرة فى فرنسا نالوا أكثرها بالمصاهرات يحكمونها تحت سيادة فرنسا ، فدخلت انجلترا بذلك ميدان السياسة الاوربية العامة ، إذ قام النزاع بين ملوك انجلترا وملوك

فرنسا ودام زمنا طويلا إلى أن بلغ غايته فى حرب المائة السنة التى انتهت سنة ١٤٥٣ بعد أن فقدت انجلترا كل أملاكها فى فرنسا ماعدا ثغر «كاليه»

وأهم ما حصل فى عهد أسرة النورمنديين والانجفن التى تلتها نمو الدستور الانجليزى الذى انتشر فيما بعد بانتشار الجنس الانجليزى السكسونى إلى الولايات المتحدة وكندا واستراليا وجنوب إفريقية والذى حذت حذوه أمم أخرى

كان وليم الفاتح ملكا مطلقا لا يقيده إلا النظام الاقطاعى الشائع فى أوربا إذ ذاك ، على أنه قلل من قوة هذا النظام بأن جعل جميع سكان البلاد يقسمون يمين الطاعة أن لا يحاربوا فى صف أمراء الاقطاع إذا هم ثاروا عليه ، وقد اشتط بعض الملوك الذين خلفوا وليم فى مطالبهم فجعل الاشراف يتألبون عليهم ويرغمونهم من حين إلى آخر على إصدار عهود فيها يأخذون على انفسهم شططهم .

وفى حكم هنرى الثانى نشأ النظام المعروف بنظام المحلفين ، وفى أيام إبنه «جون» شق الاشراف ورجال الكنيسة عصا الطاعة وكوّنوا جيشاً لمحاربته فاضطر أن يمنحهم «العهد الاعظم» سنة ١٢١٥ الذى تعهد فيه الملك باحترام حقوق الاشراف وأعلن ألا يفرض ضريبة — غير الضرائب الاقطاعية المعتادة — إلا بموافقة المجلس الاعظم الذى يمثل طبقات الامة وتعهد بألا يقبض على أحد أو يسجنه ما لم يقرر ذلك مجلس مختص أو محكمة قانونية ، وعلى الرغم من أن العهد الاعظم لم ينفذ بحذافيره أصبح للملك مجلس أعظم من رجال الكنيسة والاشراف والفرسان ، وكان ممثلو الاقاليم يجتمعون وأعضاء هذا المجلس من حين إلى آخر وبأشكال مختلفة تقرب أو تبعد عن شكل البرلمان الحالى إلى أن جاءت سنة ١٢٩٥ م حين عقد اجتماع يمثل الكنيسة والاشراف والشعب ويقرب كثيراً من شكل البرلمان الحالى

وعلى ممر الأيام أخذ البرلمان ينال حقوقا من الملك وأهمها المراقبة المالية بحيث صار البرلمان مسيطراً على دخل الحكومة ومصروفاتها . وبهذا الحق كان البرلمان ينتزع من الملوك حقوقا أخرى مهدداً اياهم بعدم الموافقة على فرض الضرائب مالم يجيبوه الى طلبه ، وأهم هذه الحقوق محاسبة رجال الحكومة على أعمالهم وانزال العقاب بهم وسن القوانين التى تصير شرعية بموافقة الملك عليها ، وكان نواب البلاد يجتمعون معا فى أول الأمر ولكنه فى القرن الرابع عشر تم انقسامهم الى مجلس للوردة ، ومجلس للعموم يمثل الشعب

وفى عهد أسرة « لنكستر » زاد نفوذ البرلمان حتى ضعفت سلطة الملك وكان هذا من الأسباب التى أدت الى قيام حرب داخلية عرفت « بحرب الوردتين » (١٤٥٥ — ١٤٨٥) اشارة الى الوردة الحمراء التى كانت شارة بيت لنكستر والوردة البيضاء التى كانت شارة بيت يورك . وقد انتهى هذا النزاع بالقضاء على عدد كبير من الأشراف . وبانتصار أسرة لنكستر فى موقعة « بزورث » توج قريبهم « هنرى تيودور » دوق « رتشمند » ملكا على انجلترا باسم هنرى السابع

أسرة تيودور (١٤٨٥ — ١٦٠٣)

نظرة عامة — يعرف عصر هذه الأسرة بعصر الحكم المطلق وذلك لان ملوكها كانوا يعرفون الخلق الانجليزى معرفة تامة فلا يجاهرون بحقيقة أغراضهم ولا يحاولون تأييد مركزهم بالنظريات العامة التى قد تقبلها الأمة الفرنسية مثلا فى حين يمج الانجليز سماعها ، بل كانوا يتفادون عقد البرلمان بقدر الامكان ، وإذا عقدوه اوحوا الى زعمائه بعمل مايودون تنفيذه أو خوفوهم بالاخطار المحدقة ببلادهم أو أشركوا الزعماء فى المزايا المادية التى

تنجم من سن قانون خاص . بمثل هـذه الطرق كان ملوك أسرة تيودور يصلون الى غاياتهم بدون أن يمسوا نظام البرلمان أو يثيروا البغضاء بينهم وبينه ، حتى تركوا النظام النيابي فى انجلترا أقوى وأثبت مما كان عند بدء حكمهم

ولـكن لايصح أن ينسب خضوع البرلمان الى مجرد مهارة الملوك بل لابد من ذكر تأثير الظروف الخاصة التى كانت تحيط بالبلاد فى ذلك العصر فان الويلات التى اجتاحت البلاد أيام حرب الوردتين اقنعت الشعب أن ازدياد نفوذ البرلمان لايؤدى حتما الى الأمن والاطمئنان ، وانه لايستطيع أن يمحو أثر الفوضى والشقاق الا ملك مستنير يترك لحكمته وحسن تدبيره . فضلا عن أن هذه الحروب قد أفنت كثيراً من الأشراف الأقوياء الذين كانوا يعارضون سلطان الملوك . ومن الأسباب التى ساعدتهم على الاستبداد انصراف الناس عن المنازعات البرلمانية الى طلب العلوم أبان ظهور النهضة واكتساب الثروة من طريق التجارة عقب كشف أمريكا ، ولا يقل عن هذه الأسباب الأزمات الشديدة التى حلت بالبلاد مدة حركة الاصلاح الدينى وتهديد أسبانيا أن تغزوها وتعيدها الى الكنيسة الكاثوليكية

هنرى السابع (١٤٨٥ — ١٥٠٩)

حالما اعتلى هنرى السابع العرش أعلن عزمه على زواجه « باليصابات » وارثة أسرة يورك ، وذلك ليجمع كلمة الحزبين حوله ، وبعد ذلك أراد البرلمان على الاعتراف بحقه الشرعى فى العرش ، ثم وجه عنايته الى حال المملكة التى كانت قد أضعفتها الحرب الاهلية وتمرد فيها الاشراف وانتشرت الفوضى ، وقد رأى أن خير وسيلة لاستتباب الامن والعدل فى البلاد هى كسر شوكة من بقى من الاشراف وتشجيع الطبقة الوسطى وتقليدها المراكز

العمومية المهمة فعين منهم وكلاء الملك فى الأقاليم وقضاة الاخطاط ، ثم كبح جماح الاشراف فحرم عليهم جمع وتسليح أتباعهم والباسهم شارات خاصة

ثم نظر إلى القانون فرأى أن الغنى والقوى يمكنه أن ينال أغراضه بترغيب المحلفين أو تهديدهم فأنشأ « محكمة غرفة النجم » من أعضاء يعينهم الملك مباشرة للحكم على كل من يتداخل فى سير القضاء ، ومن اصلاحاته القضائية أنه حتم على رجال الدين أن يحاكموا أمام المحاكم المدنية بعد أن كانوا يحاكمون أمام محاكم الكنيسة فى القضايا الجنائية

وباستتباب النظام زاد ايراد الحكومة فى عهد هنرى السابع وكان حريصا محبا للمال ، غير أنه كان يريد الاستغناء عن عقد البرلمان الذى بدونه لا يتيسر فرض ضريبة ما . وللوصول إلى هذه الغاية استخدم أعواناً لجلب المال من الاهالى بصفة منح للملك أو قروض فأرهق هؤلاء الاعوان كثيراً من الأهالى وكانوا سببا فى كراهة الشعب لهنرى السابع

أما سياسة هنرى الخارجية فكان غرضه منها توثيق علاقات انجلترا التجارية والسياسية مع الممالك الاوربية ماعدا فرنسا التى كان يخشى اغارتها على انجلترا ، فعقد معاهدة تجارية مع « فليب » صاحب الاراضى المنخفضة وهو ابن الامبراطور « مكسمليان » ووالد الامبراطور « شارلكان » وزوج ابنه « آثر » بأميرة أسبانية هى « كترين » بنت فرديننـد وازبلا ، وزوج ابنته مرغريت من « جيمس الرابع » ملك اسكتلندا

ومات هنري سنة ١٥٠٩ مكروها من الاهالى بسبب ما أتاه أعوانه من طرق الارهاق فى جمع المال ، إلا أنه على الجملة كان ملكا حكيما مقتصدا نظم المملكة داخليا وأحيا الصناعة والتجارة فيها وجعل لها منزلة سياسية فى الخارج وساعد فى تقوية الملكية وإضعاف البرلمان والاشراف ، وكان مثل انجلترا فى ذلك مثل باقى الدول كفرنسا واسبانيا . وفى أيامه اكتشفت

أمريكا فشجع هنرى « جون كابوت » على سياحته الاستكشافية ، وشاع استعمال آلة الطبع الانجليزية التى كان قد اخترعها « كاكستون »

هنرى الثامن (١٥٠٩ — ١٥٤٧)

اعتلى هنرى الثامن العرش ، وكان شابا يبلغ عمره تسع عشرة سنة يخالف أباه من وجوه كثيرة فكان جميلا مغرما بالصيد وركوب الخيل واللهو والمزاح والترف والنعيم ، حاذقا فى انتخاب الوزراء الاكفاء . سار « هنرى الثامن » على منهج أبيه من ناحية إضعاف الاشراف ، وعدم دعوة البرلمان للانعقاد إلا نادرا ، والاعتماد على الطبقة الوسطى فى حفظ نظام داخلية البلاد ، ويمتاز هنرى عن أبيه بحبه للظهور ، فصرف المال الذى جمعه والده فى سبيل ذلك ، وبرغبته فى ارضاء الاهالى بكل الوسائط فمن ذلك أنه حال اعتلائه العرش أعدم « أمبسن » و « ددلى » أكبر أعوان هنرى السابع فى جمع المال من الامة

ولزى — وكان يساعده فى القيام بمهام الحكومة « توماس ولزى » الذى اختاره من بين رجال الكنيسة ليكون وزيراً له سنة ١٥١٢ . نشأ « ولزى » من أسرة حقيرة ولكنه كان منظما قادرا وخير كفء لمزاولة الاعمال الحربية والسياسية . فاستعان به هنرى وأعلن الحرب على فرنسا وملكها وقتئذ « لويس الثانى عشر » لا لسبب سوى اكتساب الشهرة فنزل هنرى « بكاليه » والتحم جيشه مع الجيش الفرنسى وكان النصر حليفه . غير أن اسكتلندا انتهزت فرصة اشتباكه مع فرنسا فهاجم « جيمس الرابع » حدود انجلترا الشمالية فقابلهم قائد الجيش الانجليزى « اللورد سرى » سنة ١٥١٣ وهزمهم شر هزيمة فى موقعة « فلدن » على الحدود وقتل فيها الملك « جيمس الرابع » وكانت آخر موقعة دموية بين المملكتين .

بعد ذلك اصطلح « هنرى » مع « لويس الثانى عشر » ، وأخذ «ولزى» يفكر فى سياسة تعلى منزلة انجلترا من غير أن تدخل فى حرب ما ، وقد تغيرت الحال السياسية فى أوربا بموت « لويس الثانى عشر » ملك فرنسا واعتلاء « فرنسوا الأول » العرش سنة ١٥١٥ ، ثم بموت « فرديننـد » ملك اسبانيا واعتلاء حفيده « شارل » عرشها سنة ١٥١٦ . إذ من ذلك الوقت بدأ التنافس بين شارل وفرنسوا . وزاد هـذا التنافس سنة ١٥١٩ لما انتخب « شارل » أمبرطورا على ألمانيا . فـكانت سياسة «ولزى» ترمى إلى حفظ التوازن بين الفريقين . وبمهارته السياسية جعل الحـكومتين تخطبان ود حكومة انجلترا كما سبق .

« ظهور حركة احياء العلوم والاصلاح الدينى فى انجلترا » — فى عهد « هنرى الثامن » ظهرت حركة إحياء العلوم فى انجلترا وكان من زعماء هـذه الحركة « كولت » الذى كان أستاذاً للغة اليونانية فى جامعة « أكسفورد » و « توماس مور » الذى تقلد أكبر المناصب فى الحـكومة وألف كتاب « يوتوبيا » وظهر أيضاً « ارزمس » وكان صديقاً حميماً « لمور » وكان من رأى هؤلاء الادباء إصلاح حالة الـكنيسة والدين بالطرق السلمية ولم يكن من رأيهم الانفصال عن كنيسة رومة . ولما شاع أمر «لوثر» وقيامه ضد كنيسة رومة أخذ الملك هنرى الثامن يعضد البابا فأصدر سنة ١٥٢١ رسالة يرد فيها على لوثر أعجب بها البابا فمنحه لقب « حامى الدين » . ولكن سرعان ما زال حسن التفاهم بين الجانبين وذلك لظهور مسألة طلاق الملك لزوجه « كترين » . وبيان ذلك أن هنرى السابع زوج ابنه « أرثر » من الاميرة كترين فلما مات « أرثر » بعد زواجه بسنة فضل هنرى السابع أن تبقى العروس فى انجلترا ليزوجها من ابنه هنرى . ولما كان زواج المرء بامرأة

أخيه تحرمه الكنيسة ، استصدر إذنا خاصا من البابا ليكون الزواج شرعيا في سنة ١٥٠٣.



هنرى الثامن

ولما اعتلى هنرى الثامن العرش سنة ١٥٠٩ أتم زواجه بكترين وبقيا معا على وفاق حتى سنة ١٥٢٧ ، وحينئذ بدأ هنرى يبدى شكوكا فى زواجه ويقول إنه واقع فى خطيئة لزواجه بامرأة أخيه ، فطلب من البابا أن يمنحه الطلاق من زوجته . وكان يدفع هنرى الى هذا الطلاق رغبته فى أن يكون له وارث من بعده ولم يكن لكترين غير ابنة سقيمة هي « ماريه » وكان غرضه أن يتزوج من فتاة جميلة ظهرت اذ ذاك فى بلاطه واستهوت قلبه واسمها « آن بولين » فلم يستطع البابا « كلمنت السابع » اجابة هنرى الى طلبه وماطل فى النظر فى قضيته : أولا ، لعدم رغبة البابا فى نقض قرار بابا سابق له ، وثانيا ، لخوفه من الامبراطور « شارلكان » ابن أخت « كترين » وأخيراً فى سنة ١٥٢٩ عين البابا محكمة بانجلترا مكونة من « ولزى » وكردينال آخر للنظر فى القضيه ولكنهما ماطلا أيضا ولم يفصلا فيها واتهم هنرى وزيره « ولزى » بممالأة البابا فعزله سنة ١٥٢٩ وصادر أملاكه وأمر باعدامه الا أن ولزى مات قبل وصوله الى لندن

ولما يئس هنرى الثامن من اجابة البابا طلب طلاقه من كترين عزم على شق عصا الطاعة واعلان استقلال الكنيسة فى انجلترا عن البابا ، وساعده على هذا الرأى شكوى الاهالى من الضرائب التى كانت تأخذها كنيسة رومة ، ومن تدخل البابا فى الامور السياسية ، ورأى هنرى أنه إذا استقل بشئون الكنيسة فى انجلترا ، تيسر له الوصول إلى مآربه

وأول خطوة خطاها هنرى فى سبيل تنفيذ فكرته هى أنه أخضع رجال الكنيسة لسلطته وهددهم بالطرد أو الاعدام اذا ترددوا فى الموافقة ، ثم عين محكمة بدون موافقة البابا فحكمت له ضد كترين . وفى سنة ١٥٣٣ اتم زواجه من « آن بولين » وبعد ذلك استعان هنرى بالبرلمان فى اصدار القوانين الجديدة وكان البرلمان على العموم طول عهد حكم آل تيودور تحت تصرف الملك ، ومهمته الموافقة على ما يعرضه عليه الملك لا المناقشة فيه . ففى سنة ١٥٣٤ أصدر البرلمان القرارات الآتية :

(١) قرار بمنع استئناف القضايا الى رومة

(٢) قرار بمنع ارسال الضرائب الدينية المختلفة الى رومة

(٣) قرار بأن الملك هو الرئيس الدينى الوحيد للكنيسة فى انجلترا

وبعد ذلك عمد هنرى الى استعمال القسوة المتناهية فى اكراه الناس على قبول القوانين الجديدة وأعدم كثيرين من المخالفين ، ثم وقع هنرى تحت تأثير حركة الاصلاح الدينى بمساعى وزيره توماس كرمول ، فأدخلت بعض التغييرات فى الطقوس الدينية وترجم الانجيل إلى الانجليزية ، ولكن أهم التغييرات التى حدثت هى حل عدد عظيم من الاديرة ذات الثروة الطائلة وقد دعاه الى ذلك فساد نظام بعض الاديرة فى ذلك الوقت ، ورغبته فى احرازه الثروة ، فأصدر البرلمان قانونا بمنح الملك جميع أوقاف الاديرة ، وكان الملك يهب بعض هذه الممتلكات إلى المقربين من أعيان الطبقة الوسطى

ويخصص بعضها لانشاء المدارس وبعضها لتقوية البحرية وتحصين الموانى. وللصرف على بلاط الملك

على أنه بالرغم من هذه التغييرات كان هنرى كاثوليكيا فى قلبه غير ميال. الى المذهب اللوثرى ، فانتهز فرصة قيام حركة عدائية فى الشمال ورجع عن. بعض التغييرات الدينية التى أدخلت ، وساق « توماس كرومول » إلى المشنقة. سنة ١٥٣٩ وأصدر قراراً جديداً يشمل ست مواد دينية توافق المذهب. الكاثوليكى ، منها عدم زواج القسس وضرورة الاعتراف أمام القسس. والاعتقاد بتحول العشاء الى مادة المسيح الخ ، وأجبر الناس على قبولها ، وقضى باقى أيامه يضطهد المتطرفين من الجانبين — البروتستنت لعدم اتباعهم. المواد الست والكاثوليك لرفضهم الاعتراف بالرياسة الدينية للملك

بقى علينا أن نتتبع حكاية زواج هنرى . أما « آن بولين » فولدت له. بنتا هي «اليصابات» وأعدمت سنة ١٥٣٦ وبعدها تزوج من «حنه سيمور». ولدت له « ادورد » وطلق الرابعة وأعدم الخامسة وبقيت السادسة بعد. مماته سنة ١٥٤٧

وقبل موته أراد البرلمان على اصدار قانون بترتيب الوراثة — «ادورد». ثم « مارى» بعده ثم « اليصابات »

ادورد السادس (١٥٤٧—١٥٥٣)

تولى ادورد الحكم وعمره تسع سنوات وكان قد عين والده مجلساً للوصاية. عليه برآسة الدوق « سمرست » الذى لقب نفسه « بحامى المملكة » وكانت. أميال هذا الدوق لوثرية محضة فعمل على إدخال المذهب اللوثرى فى انجلترا؛ وعضده فى ذلك رئيس الاساقفة « توماس كرانمر » فهدمت التماثيل والصور. التى كانت فى الكنائس والغيت الصلاة باللاتينية ثم أصدر « كرانمر » كتاب.

الصلاة بالانجليزية فى سنة ١٥٤٩ وحلت الأديرة الباقية وصودرت أملا كها ثم أعدم سمرست وجاء بعده « نورثمبرلند » فواصل سياسة سلفه فى إدخال المذهب الجديد وكان ذلك على رغبة الملك ادورد السادس الذى كان شديد التمسك بمبادئ البروتستنتية

ولما رأى « نورثمبرلند » ضعف صحة ادورد خشى نتيجة اعتلاء ماريه العرش وأراد تحويل وراثة التاج الى « حنه غراى » البروتستنتية إحدى حفيدات هنرى السابع التى زوجها من ابنه . ولما مات ادورد توجت «حنه» ولكنها لم تبق إلا عشرة أيام إذ قام الشعب يعضد مارية صاحبة الحق الشرعى

ماريه تيودور (١٥٥٣ — ١٥٥٨)

رحب الشعب الانجليزى « بمارية » لأنها كانت الوارثة صاحبة الحق الشرعى ولأن الشعب كان قد سئم تصرفات «سمرست» و «نورثمبرلند» ولما قاسته مارية أيام صغرها على يدى والدها ، ولكن مارية نشأت على المذهب الكاثوليكى ولما كانت إسبانية من جهة أمها كان تعصبها لكنيسة رومة شديداً فعملت على رجع المذهب الكاثوليكى وإعادة سلطة البابا فى انجلترا والقضاء على البروتستنتية بالقوة . فجمعت البرلمان فى أول حكمها وأقنعته بإلغاء القوانين التى صدرت فى عهد هنرى الثامن وادوارد السادس ، فألغت قانون الرياسة الدينية سنة ١٥٥٤ وزال بذلك كل شقاق بين انجلترا والبابا الذى أرسل من لدنه نائباً وأصبحت انجلترا كاثوليكية رسمياً . غير أن تصرف مارية فى سبيل الكاثوليكية أثار سخط الشعب . وزاد هذا السخط لما تزوجت من فليب الثانى ملك إسبانيا تاركة له سلطة كبرى فى الحكومة . وتمادت مارية فى خطتها فأخذت تحرق عشرات من المخالفين لها فى الدين ومن بينهم « كرانمر » رئيس الأساقفة السابق

ولما اشتبكت إسبانيا فى حرب ضد فرنسا اضطرت انجلترا إلى الاشتراك مع اسبانيا وعلى ذلك احتل الفرنسيون « كاليه » آخر أملاك انجلترا فى فرنسا وقد نغص على مارية حياتها سقمها وهجران زوجها إياها وضياع كاليه وماتت كسيرة القلب سنة ١٥٥٨

اليصابات (١٥٥٨ — ١٦٠٣)

لما تولت اليصابات ابنة آن بولين الحكم فرح الشعب الانجليزى لخلاصه من قسوة مارية تيودور وزوجها فليب الثانى . وقد رأت هذه الملكة نتيجة تطرف سلفيها فى سبيل المذهب الدينى فرسمت لنفسها خطة مثلى لأنها كانت تريد جمع كلمة الأمة قبل كل شيء وإعلاء منزلة انجلترا . كانت اليصابات بروتستنتية ولكنها لم تكن متعصبة لمذهبها ولم تضطهد الكاثوليك إلا إذا اشتبكوا فى دسائس سياسية كما حصل فى آخر أيامها

وأول ما صنعته أن أصدر البرلمان فى سنة ١٥٥٩ قانوناً برجع الرياسة الدينية لتاج انجلترا ، وقانون توحيد العبادة فى جميع الكنائس ، وفرض غرامة على المتخلفين عن الحضور

كانت اليصابات ملكة حكيمة معجبة بنفسها يزينها وقار وثبات جأش عظيمان ، وكانت كأبيها تحسن اختيار وزرائها ومستشاريها وكانت تعتمد فى إدارة حكومتها على آراء « مجلس الملكة الخاص » . وكان السير « وليم سسل — لورد برلى » وزيرها المخلص وعضدها القوىّ فى الحكم . أما البرلمان فكانت سياستها نحوه نفس سياسة أسلافها من ملوك التيودور وهى تقليل انعقاده والاستغناء عنه بقدر ما يمكن ، غير أنه ظهر فى آخر أيام اليصابات بعض أعضاء ينتسبون الى طائفة « البيورتان » أخذوا يناقشون الحكومة ويطعنون فى سياستها الدينية . والبيورتان هم المتطرفون فى المذهب

البروتستنتي الذين كانوا يريدون تطهير مذهب كنيسة انجلترا من كل شيء كاثوليكي.

وأكبر عامل أثر في تاريخ حياة اليصابات هو ظهور «مارية استيورت» على مسرح السياسة الانجليزية ، كانت مارية استيورت إبنة جيمس الخامس ملك اسكتلندا (وهو ابن جيمس الرابع ووالدته مرغريت بنت هنري السابع أول ملوك التيودور) ، ولما مات والدها في سنة ١٥٤٢ كانت مارية طفلة صغيرة ، فأرسلت إلى فرنسا وطن أمها وتولت والدتها الحكم في اسكتلندا نيابة عنها وقد ظهر أثناء ذلك المصلح الديني الاسكتلندي « جون نوكس » الذي أدخل الاصلاح الجديد على حسب مذهب كالفن ، وأسس الكنيسة « البرسبتيرية » في اسكتلندا ، ولما كبرت مارية تزوجت من فرنسوا الثاني ملك فرنسا الذي مات عقب توليته بسنة عام ١٥٦٠ فعادت مارية الى ملكها في اسكتلندا ، ولما كانت كاثوليكية اشتبكت مع الأشراف في حروب أدت نهائياً إلى انهزامها والتجائها إلى اليصابات سنة ١٥٦٨ فأسكنتها قصراً وأبقتها في انجلترا شبه سجينة

غير ان وجود مارية بانجلترا كان من شأنه تنغيص اليصابات لان هذه رفضت أن تتزوج فلم يكن لها وارث للملك بعدها ولم يكن هناك من أقارب أسرة تيودور من يرث العرش غير مارية استيورت ، وكان العالم الكاثوليكي يتمنى فناء اليصابات بأى طريقة كي تعتلي مارية استيورت الكاثوليكية عرش انجلترا . وقد زاد المسألة إحراجا أن أصدر البابا سنة ١٥٧٠ قرار الحرمان ضد اليصابات وأعلن أن لرعاياها الحق في الخروج عليها

زد على ذلك أنه في هذا الوقت كانت حركة الاصلاح الكاثوليكية برآسة فليب الثاني في عنفوان قوتها فكان أعضاء جمعية اليسوعيين يدخلون انجلترا ويكيدون للملكة ويحضون رعاياها على الثورة . كل هذه الظروف اوغرت صدر اليصابات وجعلت رجال حكومتها يفكرون في طريقة لخلاص



اليصابات

الملكة من الخطر المحدق بها وهو خطر الاغتيال. فاشار واعليها بمحاكمة مارية

فلما بلغ فليب خبر إعدام مارية لم يجد بدًّا من مهاجمة انجلترا بأسطوله العظيم « الارمادا » سنة ١٥٨٨ . ومن الاسباب التى من أجلها هاجم فليب انجلترا مساعدة ملكتها لأهالى الاراضى المنخفضة الثائرين ضده ، والضرر والخسارة الواقعة بسفن الاسبان التى كانت تحمل كنوز أمريكا إلى اسبانيا ، فقد كان يسطو عليها فى الطريق البحارة المخاطرون من الانجليز الذين جعلوا مطاردة الاسبانيين وتجارتهم مهنة لهم ، ومن أشهر هؤلاء البحارة « هو كنز وفرنسيس دريك » وكانت الملكة تحسن استقبالهم وتشجعهم على معاكسة إسبانيا فاثار هذا غضب فليب ، وفى سنة ١٥٨٨ أبحر الارمادا وانتهى بالفشل

التام لضخامة سفنه وبطء حركتها وكثرة الجند عليها بدل البحارة وجهل أمير البحر الاسبانى بالحروب البحرية ، بينما كانت سفن الانجليز أخف حركة ، وأمهر قيادة ، وأكثر مدافعاً ، ولأن العواصف الغربية حطمت جزءاً كبيراً من الاسطول الاسبانى وحالت دون عودة الأسطول من بحر المانش

وكانت نتيجة فناء الارمادا ان أصبحت انجلترا أقوى مملكة بحرية ، وسنرى ان ذلك سيؤدى الى استعمارها لأراض جديدة ، كذلك أصبحت انجلترا زعيمة العالم البروتستنتى وصارت اليصابات فخر انجلترا وعنوان فخامتها ، وقد كان عصرها العصر الذهبى لانجلترا من حيث الأدبيات فقد ظهر شكسبير وبنسون وفرنسيس بيكون ، وماتت اليصابات سنة ١٦٠٣ حزينة الفؤاد لعدم وجود وارث لها غير جيمس السادس ملك اسكتلندا ابن منافستها ماريه استيورت

أسرة استيورت

جيمس الاول (١٦٠٣ — ١٦٢٥)

باعتلاء جيمس الاول عرش انجلترا أصبحت انجلترا واسكتلندا متحدتين فى شخص الملك فقط لافى الحكومة ، وكان جيمس يدعى الفلسفة ويقول بالحق المقدس للملك أى ان الملك معين من قبل الله تعالى وأن ليس لأحد من رعيته حق معارضته أومناقشته الحساب ، وقد أدى مبدؤه هذا الى نزاع عظيم بينه وبين البرلمان

خطة جيمس الدينية — تربى جيمس على المبادئ البروتستنتية فى أثناء طفولته فى اسكتلندا وعلى الرغم من ذلك كان معروفا بميله الى الكاثوليكية ولكنه حال دخوله انجلترا حتم على الناس اتباع الكنيسة الأسقفية وأخذ

يضطهد البيورتان ، وكان الكاثوليك يأملون خيراً على يدى جيمس فلما لم يحقق أمانيهم دبروا « مكيدة البارود » سنة ١٦٠٥ يريدون نسف البرلمان أثناء انعقاده فلم يفلحوا .

خطة الداخلية — كان البرلمان قد تمرن على العمل أثناء حكم التيودور وأظهر مقدرته فى المعارضة فى آخر أيام اليصابات فلما اعتلى جيمس العرش لم ين البرلمان عن مناوأة الملك العداء بسبب تشبثه بآرائه فى نظرية الحق المقدس ، وهناك اسباب أخرى دعت البرلمان الى معاكسة ملوك أسرة استيورت وموافقة ملوك التيودور وهي :

ان ملوك التيودور حكموا انجلترا على أثر الثورات الداخلية التى كادت تمزقها وكانت الحال تقتضى وجود حاكم قوى توضع فى يديه كل السلطة وكان الجزء الاعظم من البرلمان يمالئ ملوك التيودور بسبب مساعدة هؤلاء الملوك للطبقة الوسطى ، فضلا عن أن ملوك التيودور كانوا يعملون وفقاً لرغائب الشعب كالحرب ضد إسبانيا والانفصال عن البابا . أما ملوك أسرة استيورت فكثيرا ما كانوا يعملون ضد رغائب الشعب كاتفاق جيمس مع اسبانيا وزواج شارل الاول من أميرة فرنسية واتفاقه مع فرنسا . وكان ملوك التيودور يعتمدون كثيراً على ما يجمعونه من الهبات والمنح الجبرية والاختيارية وبذلك قل انعقاد البرلمان فى أيامهم . أما فى عهد ملوك أسرة استيورت فلم يكن هناك مناص من عقد البرلمان لتقرير الضرائب اللازمة .

خطة جيمس الخارجية — كان جيمس يميل الى أن يكون فى سلم مع جميع الممالك ولكنه كان يعتقد انه لا يتم السلم الا بتوثيق العلائق بين انجلترا أكبر مملكة بروتستنتية واسبانيا أكبر مملكة كاثوليكية فأتم هذا الاتفاق رغم إرادة الشعب . وفى حرب الثلاثين سنة تقاعد جيمس عن مساعدة صهره فردريك منتخب البلاتينات ، الا أنه اضطر فى آخر سنة من

حياته الى تنفيذ ارادة الشعب باعلان الحرب على إسبانيا سنة ١٦٢٥

التقدم الاستعمارى فى عهد جيمس — بدأت حركة الاستعمار فى أواخر أيام اليصابات وظهرت آثارها فى أيام جيمس ففى عهده أسست شركة الهند الشرقية الانجليزية وثبتت قدم الانجليز فى الهند من ناحية التجارة. وفى عهده أيضا سافر المضطهدون من البيورتان إلى أمريكا الشمالية وأسسوا هناك سنة ١٦٢٠ الاقسام التى أصبحت تعرف بانجلترا الجديدة على الساحل الشرقى واستعمرت فرجينيا . وفى عهده أيضا استعمر الجزء الشمالى من ايرلندا وهو « ألستر » وأصبح بروتستنتياً فى حين أن باقى ايرلندا كان ولا يزال كاثوليكيا

شارل الاول (١٦٢٥ — ١٦٤٩)

كان رأى شارل من جهة مبدأ « الحق المقدس للملك » كرأى أبيه غير أنه كان اسلم نية واسوأ حظا من والده لأن ما ورثه من المشاكل كان عظيما وخطراً . وهذه المشاكل تتلخص فى قيام حزب البيورتان وانتماء كثيرين من الشعب إليه ، والخلاف مع البرلمان بشأن تقرير الضرائب . وكان من فكر الملك أنه له الحق فى تقرير الضرائب بدون موافقة البرلمان . بينما البرلمان يرى أنه لا يجوز للملك تقرير ضرائب من غير موافقة البرلمان وزاد النزاع بين الجانبين وبدأ الشعب يتساءل عمن هو الحاكم : الملك بمفرده أم الملك والبرلمان ؟

ومما زاد فى اثارة سوء التفاهم بين الملك والشعب زواج شارل بأخت لويس الثالث عشر ملك فرنسا « هنريتا ماريه » ودخول ملك فرنسا فى معاهدة مع هذا الملك مقتضاها أن يكون لويس حاميا للكاثوليك فى انجلترا فارتاب الناس فى أغراض شارل وظنوا انه يريد سوءاً بالمذهب البروتستنتى وبدأ القوم ينضمون إلى البيورتان بكثرة

ثم احتاج الملك لمزاولة حربه ضد اسبانيا وقيامه بمساعدة الهوجونوت فى فرنسا أثناء حصرهم فى لاروشل . فلما طلب إلى البرلمان الموافقة على منحه المال اللازم ، اشترط عليه البرلمان مقابل ذلك أن يصلح بعض مساوىء الحكومة فوافق الملك على منح « ملتمس الحقوق » سنة ١٦٢٨ وبمقتضاه أصبحت المنح والهبات الجبرية غير قانونية ، وأصبح محرما على الجنود أن يكونوا عالة على الشعب ، وصار غير جائز القبض على أى شخص من غير محاكمة قانونية ويلاحظ أن هذه المواد استمدها أعوان البرلمان من العهد الأعظم الذى صدر سنة ١٢١٥

على أن اجابة الملتمس لم تحسم النزاع بين نواب الأمة والملك لانه بعد سنة قتل « الدوق بكنجهام » وهو من أقرب المقربين إلى الملك. وبدأ النزاع حول حق الملك فى جميع الضرائب الجمركية . ولما لم يمنحه البرلمان هذا الحق طول حياته كما كان المتبع فض الملك البرلمان سنة ١٦٢٩ . وأخذ يحكم حسب إرادته احدى عشرة سنة . وكان « وليم لود » رئيس الاساقفة مشيره فى الشئون الدينية ولورد « سترافورد » مشيره فى الشئون السياسية والداخلية . وكان من جراء استغناء الملك عن البرلمان أن فكر فى تقرير ضرائب جديدة وأهمها ضريبة السفن وهى قديمة كان القصد منها أولا أن تمد الموانى الاسطول بالسفن ولكن شارل استعاض بالسفن المال ثم عمم الضريبة على غير الموانى مما سبب معارضة الشعب له وقيام « جون همبدن » يعارض فى دفع الضريبة

ثم دفع شارل بنفسه فى مشروع خطير وهو ادخال مذهب الكنيسة الاسقفية فى اسكتلندا وارغام الاسكتلنديين على قبوله بالقوة . فاجتمع أشرافهم وتعاهدوا على أن يقاوموا الملك للنهاية ، فقامت الحرب بين الملك واسكتلندا سنة ١٦٣٧ وكان جيش الملك فى حال سيئة

- الثورة -

ولما عاد إلى انجلترا دعا البرلمان ليساعده بالمال فلما اجتمع طلب إلى الملك مطالب لم يسعه قبولها ففض البرلمان واستأنف الحرب مع اسكتلندا فرجع الملك مهزوماً . فدعا البرلمان سنة ١٦٤٠ ولطول مدة انعقاده عرف «بالبرلمان الطويل ١٦٤٠ — ١٦٥٣ » وكان جل أعضاء هذا البرلمان من زعماء الشعب الأقوياء الأكفاء أمثال « بم » و « همبدن » فانتهزوا فرصة ضعف الملك واحتياجه لهم وقبضوا على مقاليد الحكم بيد قوية . فأعدموا سترافورد وأتوا بتغييرات أخرى استفزت الملك فأرسل للبرلمان جنداً للقبض على زعمائه فثار الشعب فى لندرة ورفع البرلمان راية العصيان سنة ١٦٤٢ ففر الملك إلى الشمال وألف جيشاً لمناوءة البرلمان ، ثم ألف أعضاء البرلمان جيشاً آخر للدفاع عن أنفسهم .

وانقسم البرلمان والشعب الى حزبين حزب الملك والاسقفيين ويسمى جيشهم « بالفرسان » وكان قائده البرنس « روبرت » من البلاتينات وكان يمتد نفوذ الملك على شمال انجلترا وغربها وقاعدة جيشه يورك واكسفورد وعرف جيش البرلمان « بذوى الرءوس المستديرة » ويمتد نفوذه على جنوبى وشرقى انجلترا وقاعدة أعماله لندرة واستمرت الحرب بين الجانبين إلى سنة ١٦٤٤ بدون حدوث موقعة حاسمة ، ولكن الغلبة كانت فى جانب جيش الملك ، ثم ظهر « أولفر كرمول » وهو من البيورتان المشهود لهم بالقوة ومضاء العزيمة فكوّن جيشا جديدا من أتباعه المتطرفين وعلمه تعليما عسكريا منظما حتى أصبح فيما بعد من أقوى الجيوش فى أوربا وأطلق عليه اسم « الجيش الحديدى » .

عند ذلك تمكن حزب البرلمان من هزيمة الملك فى موقعتين مهمتين وهما

« مارستن مور » سنة ١٦٤٤ و « ناسبى » سنة ١٦٤٥ وفى سنة ١٦٤٦ سلم الملك نفسه للاسكتلنديين وكانوا قد دخلوا الحرب فى جانب البرلمان سنة ١٦٤٣ ثم استحوذ البرلمان على شخص الملك واعتقله

وكان من شروط دخول الاسكتلنديين الحرب أن يصير مذهب كنيسة اسكتلندا « البرسبتيرى » المذهب الرسمى فى انجلترا بعد انتصار البرلمان على الملك . ولشدة حاجة البرلمان للمساعدة فى أول الأمر لم يهتم بهذا الشرط ، ولكنه لم يرق فى أعين الجيش المنتصر وعلى رأسه « كرمول » رئيس الفرسان « وفرفاكس » رئيس المشاة إذ رأى كرمول أن إرغام الشعب الانجليزى على قبول المذهب الاسكتلندى لا يقل فظاعة عن إرغامه على قبول المذهب الاسقفى .

وكان الملك شارل يترقب وقوع نزاع وانقسام فى البرلمان ليستعيد مكانته وقوته ، فوقع النزاع بين القسمين الاسكتلندى والمستقل وانتهى الأمر بانتصار الحزب المستقل وهو حزب الجيش وكان ذلك سنة ١٦٤٨ ثم نظر كرمول إلى مجلس العموم فأرسل الضابط « بريد » لتطهيره من الأعضاء المائلين للملك والاسكتلنديين فلم يبق من المجلس إلا نفر قليل لا أهمية لهم ، ولما وجد أن مجلس اللوردة على غير سياسة الجيش ألغاه كلية . ثم شكلت محكمة خاصة لمحاكمة الملك واتهم بالخيانة وأعدم فى يناير سنة ١٦٤٩ وبذلك تهدم نظام الحكومة الانجليزية عن آخره ولم يبق إلا الجيش وعلى رأسه كرمول صاحب السلطة المطلقة

حكومة الجمهورية (١٦٤٩ — ١٦٦٠)

بعد أن أعدم الملك قرر البرلمان أن تكون حكومة انجلترا جمهورية . ثم بدأ كرمول فى اخضاع الثائرين ضد الجمهورية وكانت اسكتلندا وإيرلندا قد أعلنتا شارل الثانى بن شارل الأول ملكا عليهما فسار أولا إلى إيرلندا وأخضع الثائرين وانتقم منهم انتقاما شنيعا ولا سيما فى « دروغيدا » سنة ١٦٤٩ م

قصد اسكتلندا وهزم جيشها فى موقعة « دنبار » سنة ١٦٥٠ ، وكان قد نزل شارل الثانى باسكتلندا وألف جيشا وسار به نحو انجلترا عن طريق الشمال حيث كان شعور الشعب فى جانب الملك فتعقبه كرمول وانتصر عليه انتصاراً مبيناً فى موقعة « وستر » فى وسط انجلترا سنة ١٦٥١ ، وفر شارل إلى فرنسا فثبت بذلك قدم الجمهورية الفتية وألف مجلس على رأسه كرمول وضعت فى يده السلطة التنفيذية وأعطى كرمول لقب « حامى الجمهورية »



أولفر كرمول

أما السلطة التشريعية فبقيت فى مجلس واحد . ولما علم كرمول فساد باقى أعضاء البرلمان طردهم وانقضى بذلك عهد البرلمان الطويل سنة ١٦٥٣ واستمر كرمول صاحب الكلمة العليا إلى سنة ١٦٥٨ ودعا فى هذه الأثناء برلمانين لمساعدته فى الحكم إلا أنه لم يوجد وفاق بين الجانبين . وقد عرض التاج على كرمول فابى وبقى حاملا عبء الحكم للنهاية

كذلك أخفق كرمول فى خطته الدينية فلم يوفق إلى تنفيذ فكرته بشأن التسامح الدينى إذ لم تجد هذه الفكرة قبولا فى ذلك الوقت واضطر إلى اضطهاد المذاهب المخالفة للبيورتان . ومما دعا إلى فشل الجمهورية أن

الشعب الانجليزى لم يألف نظامها . وكانت أغلبيته واقفة على الحياد أثناء النزاع بين البرلمان والملك ، وأن حكومة الجمهورية كانت تستند إلى الجيش ولم تستمد قوتها من الشعب ، وأنها كانت قائمة على شخص كرمول فلما مات كرمول ماتت الجمهورية

أما خطته الخارجية — فكانت أحسن حظا من خطتيه الداخلية والدينية إذ وصلت انجلترا فى عهده إلى مصاف الدول العظمى . وكان لاسمه منزلة عظيمة بين ملوك ذلك الوقت . وفى عهده اشتبكت انجلترا مع هولندة فى حرب بحرية بسبب اصدار كرمول « قانون الملاحة سنة ١٦٥١ » القاضى بنقل واردات انجلترا على سفن انجليزية أو سفن تابعة للممالك المصدرة . وكان القصد من هذا القرار الاضرار بمصالح هولندة أول مملكة بحرية تجارية فى ذلك العصر .. فوقعت الحرب وانتصر كرمول على هولندة (١٦٥٢ — ١٦٥٤). ثم اتحد مع فرنسا وحارب إسبانيا سنة ١٦٥٧ وانتصر عليها أيضاً وكان نصيبه من هذا الانتصار جزيرة جميكا ودنكرك

ومات كرمول فى سبتمبر سنة ١٦٥٨ وبقيت انجلترا فى حالة الفوضى على الرغم من انتخاب إبنه « رتشرد » حاميا للجمهورية لأنه لم يكن كفئا للحكم وعزل سنة ١٦٥٩ واستمرت الحكومة فى أيدى الجيش إلى أن قر رأى الشعب بزعامة « منك » على استدعاء شارل الثانى للعرش فأصدر الملك عفواً عاما ونزل شارل الثانى بدوفر سنة ١٦٦٠ وسط حماس الشعب العظيم .

عودة الملكية

شارل الثانى (١٦٦٠ — ١٦٨٥)

كان شارل الثانى محبوباً لدى الرعية ، وكان التبذل والاسراف فى الملذات من شارات عهد العودة ، وذلك نتيجة طبيعية للقسوة والخشونة والتقشف فى العيش فى عهد الجمهورية وسيادة البيورتان . وبعودة شارل عادت الى عقول الناس الافكار الانجليزية القديمة وبدأت العناصر الملكية تتغلب على العناصر الجمهورية فانزوى الجمهوريون والبيورتان وقبل رجال الجيش رجوع الملكية دون أن يقاوموا بالقوة . ولما عادت الملكية نبذ القوم تخشن البيورتان ومالوا الى الملذات والملاهى والالعاب وانصرفوا الى الخلاعة والادمان فى السكر وكان مليكهم إماماً لهم فى كل ذلك فأحبوه حباً جما وكأن الشعب قد أراد أن يعوض على نفسه مافاته من الملذات فى السنين الماضية فأطلق الناس لأنفسهم العنان وفتحت المسارح التمثيلية بكثرة . أما الملك فدعا الى بلاطه جميلات النساء فكن يشتركن معه ومع وزرائه فى إدارة شئون البلاد ونسى الناس وسط هذا الفرح الشامل ماكان بين البرلمان وبين الملك من المنازعات

ولما اجتمع أول برلمان سنة ١٦٦١ كانت أميال أعضائه السياسية ملكية محضة ، وأما من جهة الدين فكان الاعضاء من انصار مذهب كنيسة انجلترا الاسقفى لا من الكاثوليك ولا من البيورتان . وأهم القوانين التى أصدرها هذا البرلمان هى :

قرار بأن حكومة انجلترا بيد الملك والبرلمان بمجلسيه ، وقانون بتحريم

حمل السلاح ضد الملك ، وقانون توحيد العبادة واتباع كتاب صلوات الكنيسة الاسقفية فى الكنائس ، وقانون الاختبار الدينى الذى أصدره سنة ١٦٧٣ وبمقتضاه كان يجب أن يكون جميع المستخدمين فى الحكومة والبلديات من مذهب كنيسة انجلترا كما يجب عليهم أيضاً أن يحلفوا يمين الطاعة للملك ، فحرم بذلك الكاثوليك والبيورتان من الاشتراك فى الحكومة ، وقانون « هابيس كوربس » وبمقتضاه يكون غير قانونى أن يسجن شخص دون أن يسمح له فى مدة وجيزة بالدفاع عن نفسه أمام المحاكم

غير أن شارل لم يكن بروتستنتياً مخلصا وكان ميالا للانضمام الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا الكاثوليكى ، وفى سنة ١٦٧٠ عقدا معاهدة دوفر السرية التى بها أعلن شارل نفسه كاثوليكيا ووعد بأن يساعد لويس فى حربه ضد هولندة ومقابل ذلك أخذ شارل من لويس مبلغا طائلا من المال — وكان دائما فى حاجة للمال بسبب اسرافه — ووعده لويس بالمساعدة إذا ثار عليه الشعب لسبب مذهبه

ثم دل شارل على نياته ضد البروتستنت بأن أصدر سنة ١٦٧٢ لائحة التسامح الدينى لرفع التضييقات الدينية عن الكاثوليك والبروتستنت على اختلافهم فشك البرلمان فى حسن نية شارل وأجبره على سحبها

ثم قامت الحرب بين لويس الرابع عشر وهولندة واضطر شارل الثانى الى اعلان الحرب على هولندة سنة ١٦٧٤ فدارت الحرب بين الجانبين سجالا وأظهر الجانبان شجاعة بحرية عظيمة ، وانتهت الحرب بأن غير قانون الملاحة فى صالح هولندة وأخذت انجلترا من هولندة « نيو أمستردام » فى أمريكا وسمتها « نيويورك » وانسحبت من الحرب

وفى عهد شارل الثانى ظهرت أرومة الاحزاب فى انجلترا وبدأت تظهر بوادر مسئولية الوزراء أمام البرلمان ، وقد تألف فى ذلك الوقت حزبان

حزب « التورى » الذى عرف فيما بعد بالمحافظين « والهويج » الذى عرف فيما بعـد بالأحرار . وكان الحزبان ضد الكاثوليك غير أنه كان من رأى حزب التورى اضطهاد جميع المذاهب الخارجة عن كنيسة انجلترا ، ومن فكر حزب الهويج التسامح الدينى للمذاهب البروتستنتية الأخرى . وكان يؤلف حزب التورى من كبار المزارعين وأصحاب الأراضى وساكنى الأرياف ، ويؤلف حزب الهويج من التجار والمتمولين وسكان المدن . ومات شارل سنة ١٦٨٥ معلنا ديانته الحقيقية وهى الكاثوليكية .

جيمس الثانى (١٦٨٥ — ١٦٨٨)

هو آخر ملوك استيورت فى انجلترا ، وكان غير محبوب لدى الشعب وذلك لانه كان كاثوليكيا صريحا ولانه كان على فكر والده من جهة اعتقاده فى الحق الالهى للملك ولذلك كان يجب عليه ألا يعمل على إثارة الشعب ضده إلا أنه كانت تعوزه الحكمة والاحتراس السياسى ، فأصدر سنة ١٦٨٧ لائحة التسامح الدينى وحاكم سبعة من الاساقفة لانهم امتنعوا عن قراءة اللائحة فى الكنيسة ، فأثار بذلك سخط الرأى العام فى انجلترا ولكن الناس كانوا يعللون أنفسهم بموت الملك وارتقاء ابنته مارية البروتستنتية — زوج وليم أورنج — عرش انجلترا ، فخاب أملهم عند ما ولد للملك ولد من زوجه الكاثوليكية فرأى كبار الامة أنهم إذا لم يقوموا ضد جيمس حكمهم من بعـده إبنه الكاثوليكى ، فثار الشعب واتحدت الأحزاب سنة ١٦٨٨ ودعا البرلمان مارية وزوجها وليم لقبول تاج انجلترا فلبيا الدعوة وفرّ جيمس إلى فرنسا . ثم اجتمع البرلمان رسميا وقدم التاج إلى وليم ومارية وبذلك فاق البرلمان على الملكية وانتهت ثورة سنة ١٦٨٨ من غير أن تسفك فيها الدماء ومن غير أن تقترف فيها الجرائم ، وسبب نجاح

هذه الثورة أن البرلمان لم ينقسم على نفسه كما انقسم سنة ١٦٤٢ ، وأن الاحزاب كلها اتفقت دينيا وسياسيا ، ولان مطالب الشعب اقتصرت على تعديل الدستور الانجليزى لا على قلبه

وفى سنة ١٦٨٩ أصدر البرلمان « قانون الحقوق » وهو من القواعد التى بنيت عليها الحرية الانجليزية مثل العهد الأعظم ولائحة سنة ١٦٢٨ ، وبمقتضاه منع جيمس وذريته من الكاثوليك من ارتقاء عرش انجلترا وأعلن أن حق الملك فى العرش مستمد من إرادة الشعب الممثل فى البرلمان ، وأن البرلمان له حق نقل التاج حسب المصلحة . وبذلك قضى نهائيا على فكرة الحق المقدس للملك . وبمقتضاه ايضا منع الملك من التدخل فى السلطة القضائيـة ومن جمع الجيوش وقت السلم ومن جمع الضرائب بدون اذن البرلمان ، وحرم الكاثوليك ايا كانوا من وراثة التاج فى انجلترا

وكما أن قانون الحقوق المدنية قد سوى النزاع السياسى بين الملك والبرلمان كذلك أصدر البرلمان سنة ١٦٨٩ قانونا حرية العبادة للطوائف البروتستنتية دون الكاثوليك وقانون التسامح الدينى للمذاهب البروتستنتية الاخرى لا للكاثوليك ، ومن ذلك العهد دخلت انجلترا فى دور تاريخى جديد

الفصل الثامن

الروسيا

تمهيد — الروس أو المسكوف قوم من العنصر الصقلبي (السلافى) انتشروا شرقى أوربا . ولما كانت بلادهم واقعة على طريق المغيرين من أواسط آسيا على أوربا ، وكانت عديمة المواصلات البحرية مع بقية أوربا المتمدنة ، بقوا فى حالة شبه متبربرة إلى أن خفت وطأة التتار فاتصلوا بغربى أوربا .

ولا يعرف للروس تاريخ صحيح قبل غزو النورمنديين بلادهم ويقال أن هؤلاء حضروا من بلاد « روس » باسكندناوة ، وأسس أحد أمرائهم « روريك » أسرة مالكة فى أواخر القرن التاسع واتخذ حاضرته فى « نفجرد » لتوسطها فى امارته . وقد بقى الروس على عبادة الطبيعة حتى بدأت علاقاتهم بالدولة البيزنطية حين شرعت المسيحية تنتشر بينهم ومعها شىء من المدنية . ثم غزا « جنكزخان » بلادهم سنة ١٢٢٤ وبقى أحفاده يحكمونها أ كثر من قرنين من الزمان فى آخرها تعهد لهم أمراء مسكو بجمع الخراج ؛ وبذلك سلبوا السلطة من أيديهم بالتدريج ، وتعود بقية أمراء روسيا الخضوع لأمير مسكو والارتباط به

ولما بدأت دولة المغول تضمحل أخذ أمراء مسكو يخضعون بقية الأمراء حتى تم لهم ذلك فى عهد « إيوان الثالث » الذى جمع شمل البلاد ، ولقب نفسه « قيصر » سنة ١٤٨٠ أى بعد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك . وفى هذا العام انتصر الروس على التتار وتخلصوا من حكمهم نهائياً فأصبحت روسيا مملكة مستقلة متحدة قوية وان بقيت بمعزل عن العالم المتحضر

ولما اعتلى العرش « ايوان الرابع » الملقب بالقاسى (١٥٣٢ — ١٥٨٤)، تزوج من بيت « رومانوف » أحد بيوتات المجد فى روسيا . والى هذا البيت آل الملك فيما بعد . وقد كان هذا القيصر يشبه « بطرس الأكبر » فى كثير من أحواله فهو الذى ضم للروسيا قازان سنة ١٥٥٢ واسترخان سنة ١٥٥٦ وأدخل اصلاحات كثيرة فى الكنيسة ووضع قانونا جديدا ، واهتم بنشر العلوم والمعارف فى بلاده واستحضر مهرة الصناع من أنحاء أوربا المختلفة وقد شن حروباً كثيرة للاستيلاء على بحر البلطيق فلم يفلح .

وفى سنة ١٦١٣ انقرضت أسرة « روريك » فانتخب الأعيان « ميخائيل رومانوف » قيصرا وتم فى عهده وعهد ابنه شىء من الاصلاح الداخلى ، فأصبح الطريق ممهداً لظهور بطرس الأكبر .

بطرس الاكبر (١٦٨٢ — ١٧٢٥)

هو حفيد ميخائيل رومانوف وأشهر قياصرة هذه الأسرة ويبدأ تاريخ روسيا الحديث من حكمه . حكم فى أول الأمر بالاشتراك مع أخيه . وإذا كانا صغيرين قامت بالوصاية عليهما أختهما « صوفيا » . فلما بلغ بطرس رشده عزل أخته وأودعها الدير . أما أخوه فلم يعمر طويلا . فانفرد بطرس بالحكم سنة ١٦٨٩ وكان إذ ذاك شابا منقطعا إلى المسرات والملاهى ، ولم يبدأ أعماله الجدية الا سنة ١٦٩٥ حين أعلن الحرب على تركيا واستولى على ميناء « آزاق » .

وكانت أغراض بطرس واضحة ترمى الى جعل سلطان القيصر مطلقا ، والى جعل روسيا دولة أوربية متمدنة ، وذلك بادخال العادات المعيشية والفكرية الاوربية الى بلاده ، وزيادة ثروة الروسيا بتعضيد التجارة والصناعة ومن أجل هذا أجبر الاشراف على الخضوع وعلمهم أن التربية والخدمة فى الجيش هما سبيلا الرقى ، وقضى على امتيازاتهم ، وعلى طرق الاختلاس والرشوة التى كانت سائدة فى الادارة .



بطرس الأكبر

وقام بطرس فى بعثة الى أوربا فزار انجلترا وبروسيا وهولندة والنمسا وكان يرجو من هذه البعثة الاطلاع على وجوه الاصلاح وممارسة الاعمال المختلفة . ففى هولندة تعلم بناء السفن ، وفى انجلترا درس الصناعات والبحرية وفى النمسا درس نظام الجيش . ولما عاد الى بلاده بدأ بتنفيذ خططه وأراد أن يعمل على فرنجة روسيا فلاقى فى هذا السبيل مقاومة كبيرة من جراء تعلق الناس بعاداتهم القديمة وتعضيد الكنيسة لهم فيها ، وقد تشدد بطرس الى حد الغلو حتى أمر الاشراف بحلق لحاهم وكانت من علامات الشرف عندهم ، ومع أن البطريق طرد من الكنيسة كل من أطاع هذا الأمر. نفذ القيصر مشروعه وفرض ضريبة على كل من أطال لحيته ، وشجع كذلك لبس الزى الأوربى والرقص الأوربى ، وجد فى نشر عادة السفور بين النساء وأدخل التاريخ المسيحى وجعل يناير أول السنة ، وأهم من هذا كله تشجيعه نشر العلوم واصلاح الادارة مستعيناً فى ذلك بالفيلسوف الالمانى « ليبنتز » .

وكان أشد معارضى بطرس فى اصلاحاته ، الحرس القيصرى والبطريق ، فأما الحرس فكان يشبه الانكشارية فى آخر عهدهم ، وكان أفراده كسالى

عديمى الكفاية كثيرى الامتيازات يعارضون الاصلاح وقد انتهزوا غياب بطرس عن روسيا فثاروا ولكنه عاد وأبادهم وذبح كثيراً منهم بيده . وأما البطريق فانه كان يعاقب بالحرمان كل من جرى على خطة الاصلاح فانتهز بطرس فرصة موته فى سنة ١٧٠٠ وألغى منصبه ، وأحل مكانه مجلسا مليا ينتخب القيصر أعضاءه وبهذا أصبح القيصر رئيساً دينياً أيضاً

سياسة الخارجية — كان بطرس منذ نعومة أظفاره مولعا بالسفن والحياة البحرية ، وقد أيدت تجاربه أنه لا حياة لروسيا إلا بوصولها الى البحر وكان الترك قابضين على سواحل البحر الاسود بينما بولندة والسويد تحكمان سواحل البلطيق، وكانت « اركنجل» وهي الثغر الروسي الوحيد منجمدة أكثر السنة ، لذلك لم تكن مندوحة عن نشوب الحرب بينه وبين تلك الدول الثلاث التى تحول بين بلاده وبين البحر ، وكان أول اشتباكه مع السويد

شارل الثانى عشر — تولى عرش السويد سنة ١٦٩٧ فى الخامسة عشرة من عمره وكان قديرا جسورا كثير الاطماع ، وكان فى مهارته الحربية لا يقل عن جستاف أدلف وفى ميدان القتال صاعقة ، ولكنه كان ينقصه حزم جستاف وحسن سياسته . وقد كانت أملاك السويد على الشاطئ الجنوبى للبلطيق مطمح الدنمرقة وبولنده والروسيا وقد أغراهم بالتعجيل بتنفيذ مطامعهم صغر سن الملك وفقر السويد وقلة سكانها فتحالفوا على مهاجمتها سنة ١٦٩٩

ولكن سرعان ما أفاقوا من أحلامهم بالمدهشات التى رأوها من شارل الذى انقض أولا على الدنمرقة حتى وقف على أبواب العاصمة وألزمها دفع غرامة حربية والانفصال عن حلفائها ، ثم أسرع الى مهاجمة الروس فى « نارفا » قرب خليج فنلندة وبثمانية آلاف جندى أباد جيشاً روسيا يربو على خمسة أمثال هذا العدد

وبعد ذلك التفت إلى بولندة وكان ملكها أغسطس (منتخب سكسونيا) أول من اقترح تقسيم أملاك السويد فقابله الجيش البولندى بشجاعته المعهودة ، ولكنه كان يعوزه النظام وكان عامة البولنديين لا يودون الحرب لنصرة ملكهم ، فتغلب شارل على الجيوش الضخمة التى قابلته ، بولندية كانت أوسكسونية ، واضطر الملك إلى التنازل عن عرش بولندة سنة ١٧٠٤ وأقام مكانه ملكا اختاره شارل بنفسه

أما بطرس فقد انتهز فرصة اشتغال شارل فى سكسونيا واغار على شواطىء البلطيق فاضطره شارل إلى تركها ثم سار بجيشه إلى مسكو لتتم حملته بالاستيلاء عليها ، ولكن مقاومة الروس كانت تشتد كلما توغل العدو فى بلادهم فترك شارل هذه الفكرة وسار جنوبا لينضم إلى القوزاق الثائرين وانتصر انتصارات باهرة على جيوش كثيرة ، ولكن شتاء روسيا أهلك كثيراً من رجاله وأضعف عزيمة الباقين . على أنه هاجم الروس فى « بلطاوة » قرب الحدود الروسية الجنوبية وكان عددهم عظيما وخنادقهم محكمة ، فأبادوا الجيش السويدى وأجبروا بقيته على التسليم

أما الملك ففر إلى تركيا وأغراها بالقضاء على روسيا قبل أن يستفحل أمرها ولكن بطرس كان لا يعبأ بالترك بعد انتصاره على السويد فاخترق ملدافيا إلى أن بلغ نهر بروث وهناك أحاط به الجيش العثمانى وأصبح فى قبضة الموت . ولم ينجه إلا خيانة بلطجى الذى اكتفى « بمعاهدة بروث » وبها تزلت روسيا عما كانت أخذته من العثمانيين

تقسيم أملاك السويد — استنفدت حروب جستاف ادلف وشارل الثانى عشر كل قوة السويد ولم تقم لها بعد ذلك قائمة حربية ومات شارل سنة ١٧١٨ أثناء حصاره مدينة بالنروج وبموته تهافت أعداء السويد

على انتهاب أملاكها فاخذت بروسيا جزءاً من بومرانيا فصارت أقوى دول البلطيق وأكبر منافس لروسيا ، ولكن هذه فازت بأكثر الغنيمة فأخذت جميع المقاطعات الواقعة حول خليج فنلندة وهى ليفونيا واستونيا وانجريا وكريليا ، وأخذت هانوفر برمن وفردن وأخذت الدنمرقة شلزوج واعترف بدوق سكسونيا ملكا شرعيا على بولندة وذلك كله « بمعاهدة نيستاد » سنة ١٧٢١ ، وبعد ذلك شيد بطرس الأكبر مدينته بطرسبرج لتكون عماد التجارة والبحرية الروسية ونقطة اتصالها بأوربا الغربية ، وفى السنة نفسها لقب « أبو الوطن بطرس الأكبر وقيصر جميع روسيا »

استمداد روسيا — صارت روسيا ملكية مطلقة ثابتة الادارة ، وقد رسم بطرس لخلفه سياسة فتح وتغلب ، وكانت البلاد المحيطة بها إما ضعيفة كالسويد وإما مضمحلة كتركيا وإما فوضى كبولندة وإما همجية كأواسط آسيا . ومات بطرس سنة ١٧٢٥ بعد أن نهض بروسيا من حالة البداوة والبربرة إلى مدارج الحضارة والعمران ومهد سبيل الفتوح العظيمة التى جعلت روسيا من أكبر دول أوربا

وتولت الحكم بعد بطرس الأكبر زوجه كترينا الأولى وتلاها بطرس الثانى ، وفى عهدها ساد الحزب الرجعى . أما فى عهد اليصابات فتقدمت الروسيا ودخلت فى سياسة أوربا ، إذ لعبت القيصرة دوراً مهما فى حرب السنين السبع . ولما ماتت عام ١٧٦٢ خلفها بطرس الثالث وكان ضعيف العقل ، فانتهزت زوجه « كترينا الثانية » هذه الفرصة وسعت فى قتله .

كترينا الثانية (١٧٦٢ — ١٧٩٦)

اعتلت العرش بعد أن داست على حقوق زوجها بالسعى فى عزله وقتله . وكانت محبوبة لدى الشعب بقدر ما كان زوجها مبغضا . وهى التى واصلت

اصلاحات بطرس الاكبر الداخلية كما واصلت سياسته الخارجية فكان عصرها عصر عظمة داخل البلاد وخارجها، وكانت حركة الاصلاح التى بذر بطرس الاكبر بذورها قد أثمرت وتركت أثراً عميقاً فى نفوس الجيل الجديد ، وخصوصا فى نفوس الاشراف الذين أخذوا يتشبهون بأشراف الممالك الغربية ، ويرسلون أبناءهم إلى الجامعات ، ويقومون بالسياحات ويتكلمون اللغة الفرنسية حتى انتشرت هذه فى روسيا انتشاراً عظيما

ومع ما كانت عليه كترينا من الغرور والكبرياء والانغماس فى اللهو أظهرت كفاية إدارية وسياسية وميلا عظيما للافكار الحرة والفلسفة والفنون ، فهى فى الحقيقة أول حاكم متمدين حكم الروسيا ، غير انه على الرغم من عظمة هذه المملكة فى عصرها لم يكن الناس فى غبطة وهناءة لاشتباك كترينا فى حروب عديدة اضطرتها إلى زيادة الضرائب ، ولما قامت الثورة الفرنسية تغيرت كترينا وأصبحت رجعية فى أفكارها ، كغيرها من ملوك أوربا

وواصلت كترينا فى سياستها الخارجية خطة بطرس الاكبر وعملت على مد نفوذ الروسيا غربا على حساب بولندة وجنوبا على حساب تركيا:

تجزئة بولندة

أما بولندة فلم تقم فيها حكومة ملكية كما حصل فى كثير من ممالك أوربا ، وذلك لاستفحال نفوذ الاشراف ورسوخ قدم الاقطاع فيها فبقيت الحكومة ملكية انتخابية فى يد أقلية من الاشراف لايكاد يفتر النزاع والشقاق فيما بينهم ، وكانت القوتان التشريعية والتنفيذية بيد مجلس يسمى « الدياط » لكل عضو من أعضائه حق « الفيتو » أى منع تنفيذ أى قرار لايوافق عليه ، فلا عجب أن كانت الحكومة دائمة الارتباك ، مشلولة الحركة

وقد أدت هذه المنازعات إلى انتخاب « دوق سكسونيا » ملكا عليهم فى عهد بطرس الأكبر ، فلما انتصرت الروسيا على السويد شرعت تتدخل فى شئون بولندة وكان من مصلحتها بقاء الفوضى فى هذه البلاد حتى يتسنى لها امتلاكها .

فلما أراد البولنديون سنه ١٧٦٨ أن يصلحوا نظام حكومتهم ، بجعل الملكية وراثية ، والغاء حق منع التنفيذ ، تدخلت روسيا وأجبرت حكومتهم على ألا تغير نظامها إلا بموافقة روسيا ، فقامت ثورة فى بولندة وكانت بروسيا قد خرجت فائزة من حرب السنين السبع فاقترح فردريك الاكبر على الروسيا والنمسا تقسيم بولندة ورضيت الروسيا بهذا الاقتراح بعد أن كانت تريد امتلاك كل بولندة ، فتم الاتفاق على التقسيم الاول بين الحكومات الثلاث سنة **١٧٧٢** وأخذت النمسا «غاليسيا» وامتدت حدود بروسيا إلى نهر « الفستولا » شرقا وأخذت الروسيا اقاليم واسعة جهة الجنوب وراء نهر « دوينا »

قضت بولندة ثمانى عشرة سنة بعد هذا التقسيم مهتمة باصلاح شئونها الاقتصادية وقد ساعدتها فرنسا فى هذا السبيل ، وفى سنة **١٧٩١** انضم الملك « ستانسلاس » الى الوطنيين ، وبدأوا يصلحون نظام الحكومة فخشيت الروسيا نتيجة الاصلاحات الجديدة ، وسعت فى تكوين حزب رجعى من البولنديين عضدته بالمال فقام يطالب ببقاء حال الفوضى الاولى ، فلما لم تجد هذه الوسيلة دخلت الروسيا بالقوة ، واحتلت العاصمة « فرسوفيا » سنة **١٧٩٢** واضطر الملك الى الخضوع ، فألغيت الاصلاحات واتفقت كترينا وفردريك على تقسيم بولندة مرة ثانية ، ولم تشترك النمسا معهما ، ولم تهتم سائر دول أوربا بهذا التقسيم لاشتغالهم جميعا بمقاومة الثورة الفرنسية ، وبهذه التجزئة أخذت بروسيا إقليم « بوزن » وأخذت الروسيا « أكرانيا » و « ليتوانيا »

وارغم « الدياط » البولندى بالقوة على اقرار هذه الأعمال سنة ١٧٩٣

بعد هذه التجزئة هاجر الوطنيون البولنديون إلى سكسونيا فراراً من انتقام روسيا ، وهناك كوّنوا حزباً قوياً برياسة « كشيسكو » وكان قد تعلم فى فرنسا ، واشترك فى حرب الاستقلال الأمريكى ، فنظم صفوف الوطنيين وكون جيشا قويا . وما لبثت أن قامت الثورة فى بولندة سنة ١٧٩٤ فتقهقرت الجنود الروسية ، ودخل « كشيسكو » فرسوفيا وأقام بها حكومة وطنية فاستنجدت الروسيا ببروسيا ، وانهزم الوطنيون سنة ١٧٩٥ واتفقت الروسيا وبروسيا والنمسا على محو بولندة من مصور أوربا السياسى وأجبر الملك « ستانسلاس » على الاستقالة وأصبح نهر « نيمن » الفاصل بين الروسيا وبروسيا . ويعتبر هذا العمل أكبر جرم ارتكبته السياسة فى العصور الحديثة ، فيه تتمثل سياسة القرن الثامن عشر التى خولت الأقوياء توسيع أملاكهم على حساب الأمم الضعيفة

ومع أن السياسة قد حرمت البولنديين من استقلالهم القومى ، فانها لم تستطع أن تخمد شعورهم بوطنيتهم فبقوا محتفظين بهذا الروح عاملين على النهوض المادى والأدبى ورفعة شأن بلادهم يتربصون الدوائر بالروسيا ، وينتهزون الفرص للثورة عليها ، كما تكرر أثناء القرن التاسع عشر ، إلى أن انتهت الحرب العظمى فأصلحت الدول خطأ القرن الثامن عشر واعترفت للبولنديين باستقلالهم وكان الفضل الأكبر فى ذلك لصديقتهم القديمة فرنسا

ولا يمكن أن تلقى مسئولية التجزئة على الروسيا وبروسيا والنمسا وحدها لأن بولندة نفسها مسئولة وذلك بسبب المنازعات التى كانت قائمة بين بعض الأشراف وبين بعضهم الآخر وبينهم وبين عامة الشعب .

أما الروسيا فأخطأت فى الموافقة على التجزئة لأن البولنديين من الجنس الصقلبى ولأن بولندة كانت موالية كل الولاء للروسيا ، أما التجزئة فحالت

دون تقدم الروسيا جهة الصرب وساعدت على تقوية النمسا وبروسيا أمام روسيا ، غير أنها رضيت بمشروع التجزئة خوفاً من اثارة حرب أوربية . أما النمسا فقبلت التجزئة لتعوض بعض مافقدته فى حرب السنوات السبع.

وأما عذر بروسيا فى قبول التجزئة فهو أن حدودها الشرقية ضعيفة وكانت تريد أن تربط بعض ممتلكاتها ببعض وذلك بضم بروسيا الشرقية التى كانت تابعة لبولندة

سياسة كترينا فى تركيا

كذلك نجحت روسيا فى مد نفوذها جنوبا على حساب تركيا فقامت الحرب بينهما فى سنة ١٧٦٨ وانتهت بانتصار روسيا وعقد معاهدة « كجوك كينارجه » فى سنة ١٧٧٤ وبمقتضاها اعترفت تركيا باستقلال القرم وبحماية الروسيا للكنيسة الأرثوذكسية فى قسطنطينية . وقد فسرت الروسيا هذه المعاهدة فيما بعد ، بأن لها حق التدخل فى شئون رعايا السلطان لأرثوذكس

ثم قامت الحرب ثانية فى سنة ١٧٨١ وانتهت بانتصار الروس أيضا وبصلح « ياسى » سنة ١٧٩٢ فوصلت حدودها إلى البحر الأسود ونهر « الدنيستر » ومع ذلك لم تقنع الروسيا بما كسبته ، وماتت كترينا سنة ١٧٩٦ تاركة بعدها سياسة الوصول إلى القسطنطينية . وتعتبر كترينا الثانية بالاشتراك مع بطرس الأكبر مؤسسة لنهضة الروسيا العظيمة

الفصل التاسع

نهضة بروسيا

تمهيد — أصل تكوين مملكة بروسيا دوقية « برندنبرج » فى شمالى المانيا الوسطى . وفى أوائل القرن الخامس عشر صارت أسرة «هوهنزلرن» الحاكمة على الدوقية ولها صوت فى انتخاب الامبراطور ، ثم أخذت هذه المقاطعة تتسع شيئا فشيئا الى أن وسعت ثلثى المانيا

أما مقاطعة بروسيا الاصلية فكانت عبارة عن الاقاليم التى شرق بحر البلطيق ونهر الفستولا وكانت تسكنها قبائل وثنية الى أن احتلها « الفرسان التيوتون » فى القرن الثالث عشر ، فادخلوا فيها الدين المسيحى وصبغوها بالصبغة الالمانية ، ثم دخلت ضمن مملكة بولنده فى القرن الخامس عشر حين كانت بولندة من أقوى دول الشمال ، غير أن بولندة ضمت الجزء الغربى من بروسيا إلى مملكتها وتركت جزء بروسيا الشرقى فى أيدى الفرسان التيوتون واكتفت باعلان السيادة على ذلك الجزء ، ولما ظهر لوثر انحل عهد الفرسان وصار رئيسهم دوقا على بروسيا الشرقية سنة ١٥٢٥ وكان من أسرة « هوهنزلرن » لذلك لما لم يكن هناك وارث لدوق بروسيا آلت لهذه الاسرة سنة ١٦١٨ مع بقاء السيادة لبولندة وفى ذلك الوقت أيضا ضمت «برندنبرج» بعض مقاطعات على نهر الرين

المنتخب الاعظم فردريك وليم (١٦٤٠ — ١٦٨٨)

هو أول من أكسب برندنبرج شأنا فى السياسة الاوربية . كانت حرب الثلاثين سنة لاتزال قائمة فى عهده حتى أصاب « برندنبرج » كثير

من التلف بسببها ، غير أنه بفضل سياسة فردريك وليم أمكن «برندنبرج» أن تكتسب لنفسها فى صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ مقاطعات وأسقفيات. ومدن أهمها : مجدبرج وبومرانيا الشرقية

وجد فردريك وليم أن ممتلكات «برندبرج» منفصل بعضها عن بعض فكان لها كليفز فى الغرب وبروسيا فى الشرق وبرندنبرج فى الوسط وكان لكل منها جمعية خاصة وادارة مستقلة فوجه همه إلى جمع هذه الممتلكات فى نظام واحد وفض الجمعيات وجعل نفسه السيد المطلق ووحد الجيش والادارة وأخذ يصلح فيهما

وفى سنة ١٦٥٥ انتهز فردريك وليم فرصة نشوب حرب بين بولندة وبين السويد فأخذ جانب بولندة ، وبحذقه وسياسته أمكنه أن ينال من بولندة حق السيادة المطلقة على بروسيا الشرقية بعد أن كانت السيادة لبولندة أولا

وفى سنة ١٦٧٢ كان لويس الرابع عشر يحارب هولندة وكانت السويد وقتئذ حليفة لويس ، ولما كانت مطامع «برندنبرج» ترمى إلى أخذ بومرانيا الغربية من السويد انتهز فردريك وليم هذه الفرصة وأخذ جانب الحلفاء ضد لويس ، ولما هاجمت السويد «برندنبرج» قابل فردريك وليم العدو وكسره فى موقعة «فهربلن» ، ثم واصل انتصاراته فطرد السويد من كل بومرانيا ، غير أنه فى صلح «نمويجن» سنة ١٦٧٨ أصر لويس الرابع عشر على الا تنقص أملاك حليفته فاضطر المنتخب الاعظم الى التخلى عن كل ما كان أخذه من السويد

فردريك الاول ملك بروسيا (١٦٨٨ — ١٧١٣)

كان فردريك هذا ضعيفا منصرفا الى اللهو غير انه فى عهده نالت أسرة «هوهنزلون» فخراً عظيما وذلك أن الامبراطور «ليوبولد» أراد أن يستعين بمنتخب برندنبرج فى حرب الوراثة الاسبانية فمنحه لقب ملك. ولما كانت برندنبرج خاضعة لسيادة الأمبراطور رأى المنتخب أن لقب ملك برندنبرج لا يخرجه عن هذه السيادة، وكان الامبراطور من جهة أخرى لا يود أن يرى بين أتباعه من يلقب ملكا، فاتفقا على اختيار لقب «ملك فى بروسيا» حيث كان للمنتخب السلطان المطلق. وبعد تتويجه عام ١٧٠٠ صار يطلق عليه اسم «فردريك الأول ملك بروسيا ومنتخب برندنبرج» وبمضى الزمن أهمل اللقب الثانى، وصارت أملاك الأسرة كلها تعرف باسم بروسيا

فردريك وليم الاول (١٧١٣ — ١٧٤٠)

اعاد فردريك وليم الأول عهد المنتخب الأعظم من ناحية الاصلاح الداخلى. وقد وجه عنايته على الخصوص الى تحسين الجيش والادارة، وكان من أشد الملوك حرصاً على المال. ومن أمهر الاقتصاديين. وهو فى الحقيقة واضع نظام الادارة البروسية المشهورة بالضبط والدقة والاقتصاد. ومع ولع فردريك وليم بالجيش، لم يستخدمه فى أية حرب مهمة، اللهم إلا فى محاربة السويد عقب اضمحلالها بعد موقعة «بلطاوة» حين احتل البروسيون «بومرانيا الغربية» سنة ١٧٢٠. وبذلك صار لبروسيا ميناء «ستتين» على ساحل البلطيق الغربى.

كان فردريك وليم ذا أطوار غريبة: أكثر من التجسس على رعيته والتدخل فى شئونهم الخاصة، وأساء معاملة ولى عهده المعروف فيما بعد

بفردريك الأكبر ، فسجنه فى قصر بمعزل عن عشرائه ، وكان شديد الولع بحرسه العسكرى حتى كان ينتقى له أضخم الرجال أجساماً من جميع انحاء أوربا . وأهمية فردريك مقصورة على سياسته الداخلية . وجاء بعده ابنه فردريك الثانى أو فردريك الأكبر

فردريك الثانى أو الأكبر (١٧٤٠ – ١٧٨٦)

كان فردريك هذا ولوعا بالشعر والأدب والموسيقى . وكان الناس لا يعرفون فيه الميول الحربية والعسكرية التى عهدوها فى والده . غير أن الظروف التى أحاطت به اضطرته الى أن يظهر ما كان عليه من المهارة التى مكنته من استخدام ذلك الجيش البروسى العظيم الذى كونه والده ، وصرف ما خلفه له من المال فى سبيل اعلاء شأن بروسيا وذلك أنه عام جلوسه على العرش مات الامبراطور « شارل السادس » بعد أن أقنع أغلب دول أوربا أن يقطعوا على أنفسهم عهداً يعرف «بالضمان الوراثى» تعهدوا فيه بالموافقة على أن تخلفه ابنته « مارية تريزا » فى ملكه ، وألا يمس أحد منهم ممتلكات أسرة « هبسبرج » بسوء وكان فردريك وليم الأول والد فرديك الأكبر من الموافقين على هذا الضمان .

حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ — ١٧٤٨)

كان فردريك أول من انتهز فرصة ضعف النمسا ، وسار فى جيشه واستولى على « سيليسيا » من أملاك النمسا ، بدعوى انها كانت لأجداده فى سالف الأيام . فلما رأت « مارية تريزا » ما حل بأملاكها احتجت لدى الدول على فعلة فردريك فلم يجدها ذلك نفعا ، بل كانت النتيجة أن تشجعت الدول الاخرى التى كانت تريد الاستفادة من ضعفها فانضم الى بروسيا بفاريا وسكسونيا وفرنسا وسافوى ، فاظهرت مارية تريزا كفاية ورباطة

جأش عظيمين . ولما لم تقو على رد فردريك عن سيليسيا ، نصحت لها انجلترا أن تصالحه ، حتى تستطيع التفرغ لبقية أعدائها فعقدت معه « صلح بزرلو » سنة ١٧٤٢ .

بذلك تمكنت النمسا فى السنة الثالثة من مواصلة الحرب بمؤازرة انجلترا وهولندة حتى احتلت بفاريا وهزمت الفرنسيين فخاف فردريك أن تنقلب عليه مارية بعد انتصاراتها فخاض غمار الحرب ثانية . وبدأت الحرب السيليسية الثانية ، وفيها هزمت النمسا هزمات متتالية أهمها « صهر » و « كسلزدورف » سنة ١٧٤٥ .

فلم تر مارية مناصاً من عقد « صلح درزدن » سنة ١٧٤٥ وبه تنازلت الفردريك عن سيليسيا مقابل اعترافه بزوجها « فرنسيس أمير اللورين » امبراطوراً باسم « فرنسيس الأول » وانتهت الحرب السيليسية الثانية

أما حرب الوراثة النمساوية العامة فبقيت بين الدول الأخرى إلى سنة ١٧٤٨ حين سئموا جميعاً استمرار الكفاح فعقدوا « صلح اكس لاشابل » وبمقتضاه سجل حق فردريك فى سيليسيا واعترف بمارية تريزا حاكمة على النمسا وبزوجها امبراطوراً ، فخرجت مارية من حرب الوراثة النمساوية حافظة لكيان ملكها الذى كادت تعصف به الأهواء ولم تفقد شيئاً مهماً غير سيليسيا .

فردريك وأعماله الداخلية — خرجت بروسيا من الحرب وقد غنمت سيليسيا فصارت من أقوى دول القارة ، والفضل فى ذلك يرجع إلى ملكها وما أبداه من المهارة الفائقة فى الشئون الحربية والادارية . وقد قضى فردريك السنوات العشر التى تلت هذه الحرب فى إنهاض البلاد ، فجففت المستنقعات وحفر الترع وشجع الصناعات ولا سيما صناعتى الحرير والصوف ، حتى سرى نشاطه إلى رعيته ، ثم شرع ينشر التعليم ويعضد الأدب وأنصاره ،

فكان بلاطه مجمع الأدباء والحكماء وقد زاره « فلتير » أعظم فلاسفة القرن الثامن عشر وبقى فى بلاطه ثلاث سنين

حرب السنين السبع (١٧٥٦ — ١٧٦٣)

لم يكن صلح « اكس لاشابل » فى الحقيقة سوى هدنة بين فرنسا وانجلترا بشأن المستعمرات من جهة وبين بروسيا والنمسا بشأن سيليسيا من جهة أخرى ، إذ لم تنس مارية تريزا أهمية سيليسيا بالنسبة للنمسا لثروتها المعدنية أولا ولأنها من عنصر ألمانى كأهالى النمسا ، وكان من صالح النمسا أن يقوى الجنس الألمانى حتى يتغلب على الجنس الصقلبى داخل أملاكها فأخذت مارية تريزا تعد العدة لاسترداد سيليسيا وكان فردريك يعلم ذلك حق العلم فتشبهت مارية تريزا بفردريك فأدخلت إصلاحات مهمة فى النمسا وجميع ممتلكات الهبسبرج واهتمت بالجيش خاصة وولاء الشعوب المحكومة للنمسا . فلما تقوت حكومتها فى الداخل بدأت تقوى مركزها فى الخارج فأكدت الصلات بينهما وبين الروسيا أولا واقترح عليها وزيرها الشاب « كونتز » أن تقلب سياسة النمسا القديمة — سياسة النضال بين أسرتى البربون والهبسبرج التى استمرت مدة قرنين من الزمان — وبرهن لها أن محالفتها مع انجلترا لاتعود على النمسا بفائدة كبيرة إذ لا مصلحة لانجلترا فى أن النمسا تسترد سيليسيا من فردريك وأن كل ماتهتم به انجلترا إنما هو التجارة والمستعمرات

وعلى ذلك يجب على النمسا أن تتفق مع فرنسا فهى الدولة الوحيدة التى يمكن للنمسا أن تعتمد عليها فى حربها المقبل ضد بروسيا فوافقت مارية تريزا على مشروع كونتز وأخذ هذا يمهد الطريق لحدوث هذا الانقلاب الدولى السياسى المهم فى أوربا

الانقلاب السياسي

وكانت نتيجة هذا الانقلاب اشتباك دول أوربا فى حرب طاحنة استمرت سبع سنوات ومما ساعد على تنفيذ خطة كونتز أن المناضلة الاستعمارية بين فرنسا وانجلترا فى الهند وفى أمريكا كانت قد بدأت فى ذلك الوقت وان انجلترا عقدت اتفاقا مع فردريك، الذى كان يحبه الشعب فى انجلترا حباً جماً ، للمحافظة على اقليم هانوفر الذى كان تابعا لملك انجلترا وذلك بمعاهدة وستمنستر سنة ١٧٥٥ — وعلى ذلك لم تجد فرنسا مناصا من الانضمام الى النمسا سنة ١٧٥٦ باتفاق فرساى ، وسرعان ما نشبت الحرب بين أقوى الامم البروتستنتية فى الشمال وبين أقوى الأمم الكاثوليكية فى الجنوب ، ولم تكتف النمسا بالاتفاق مع فرنسا فقط بل كان الاتفاق ممهداً لانضمام الروسيا والسويد وسكسونيا وبعض إمارات ألمانيا

ولما نشبت الحرب كانت مارية تريزا تعتقد بخذلان فردريك لا محالة — ولما رأى فردريك تألب أعدائه عليه خشى أن تجتمع قواهم فيصعب عليه مقاتلتهم ولذلك صمم على السرعة فى الحركة فأخذ أعداءه على غرة ودخلت جنوده سكونيا وبوهيميا ولكن ما لبث أن احتاط به الاعداء من جميع الجهات وتعذر عليه مقابلة كل عدو على حدته فهزمه النمساويون فى موقعة كولن سنة ١٧٥٧ وعلى أثرها دخل النمساويون سيليسيا وأعلنوا للملأ أن حقوقهم قد ردت اليهم ودخل الروس فى بروسيا الشرقية ودخل السويد بومرانيا وهددت القوات النمساوية والفرنساوية برلين نفسها وأصبح مركز فردريك حرجا للغاية سنة ١٧٥٧

وفى هذه الآونة العصيبة ظهرت مواهب فردريك الحربية إذ على الرغم

من قلة جنوده بالنسبة لجيوش أعدائه تذرع بالثبات والحزم وأوقع الهزيمة بجيوش أعدائه فهزم النمسا وفرنسا فى موقعة رسباخ وهزم النمسا فى موقعة ليتن قرب برزلو ، فذعرت السويد وترددت سكسونيا وتوقف الروس عن التقدم وتبددت فى الحال تلك الأزمة العصيبة

بعد ذلك جهزت انجلترا جيشا أكثره من الجنود المرتزقة الألمانية وأرسلته لمقاتلة الفرنسيين على سواحل نهر الرين وبذلك خدمت فردريك خدمة عظيمة لأن فرنسا اضطرت الى سحب جنودها وخف الضغط عن فردريك فوجه كل قواه ضد النمسا والروسيا فواجه الروس بمفردهم وهزمهم فى موقعة زرندرف سنة ١٧٥٨ ولكن الروسيا عادوا فهزموه فى موقعة كونرزدرف سنة ١٧٥٩ فتسرب الضعف الى صفوف فردريك ولم تقو أعصاب بروسيا على احتمال الحرب طول هذه المدة وخاصة بعد سقوط « وليم بت » الوزير الانجليزى الذى كان يساعده مساعدة فعلية ، ولم ينقذه من الهزيمة النهائية سوى حسن حظه فان عدوته اللدودة اليصابات قيصرة الروسيا وحليفة النمسا من أول الحرب قد ماتت فى سنة ١٧٦٢ وخلفها بطرس الثالث الذى انضم الى بروسيا ضد النمسا لاعجابه بفردريك ، ولكن لم يطل بقاء بطرس فجاءت بعده زوجه كترينا الثانية واكتفت بأن سحبت الجنود الروسية من الميدان

وفى نفس هذه السنه كان قد حصل اتفاق مبدئى بين فرنسا وانجلترا فى مفاوضات صلح فنتبلو التى انتهت بصلح باريس فلم يبق من المتحاربين سوى بروسيا والنمسا ، وحيث أنه لم يكن منتظراً أن تنتصر النمسا على فردريك بمفردها فى حين أنها عجزت ومعها نصف أوربا تقريبا ، اضطرت الى عقد الصلح حزينة الفؤاد فى هيوبرتسبرج سنة ١٧٦٣ وبمقتضاه كسب فردريك اقليم سيسليا نهائيا

نتيجة حرب السنين السبع — خرجت انجلترا أول الدول الاستعمارية على الاطلاق وذلك بسبب انتصاراتها فى عرض البحار وبسبب مساعدتها لفردريك ضد فرنسا فى حرب السنين السبع وأصبحت بروسيا وروسيا من دول الشمال فى صف واحد مع النمسا وفرنسا — أما المانيا فأصبحت ميداناً تتنازعه أسرة هوهنزلرن البروتستنتية وأسرة هبسبرج الكاثوليكية واستمر النضال بينهما الى سنة ١٨٦٦ حين فاقت بروسيا على النمسا فى حرب بينهما وخرجت النمسا من الاتحاد الالمانى ، أما النمسا فخرجت من الحرب مرفوعة الرأس لانها انتصرت فى مواقع عديدة فى حرب السنين السبع ولأنها احتفظت بوحدتها ولم تخسر الا إقليم سيليسيا — أما فرنسا وإسبانيا فقد عادت الحرب عليهما بالخسارة إذ فقدت فرنسا أكثر مستعمراتها فى أمريكا وفى الهند وكذلك خسرت أسبانيا — التى انضمت اليها فى نهاية الحرب — جزءاً من مستعمراتها فى أمريكا ، وظلت المحالفة بين فرنسا والنمسا مكروهة من الشعب الفرنسى الى أن انقطعت الصلات بينهما لما نشبت الثورة الفرنسية

أعمال فردريك — بقى فردريك بعد هذا الصلح ثلاثة وعشرين سنة قضاها فى إصلاح بروسيا ووسعت اصلاحاته كل شىء من انشاء بنوك وحفر ترع وإقامة صناعات واستخراج معادن وتجفيف مستنقعات ، وأهم الحوادث السياسية التى ظهرت فى هذه المدة مسألة تقسيم بولندة وقد عرفنا ما قام به فردريك إزاء هذه المسألة فى سنة ١٧٧٢

ففردريك الثانى أو الاكبر هو الذى تعهد الاصطلاحات التى قامت فى عهد المنتخب الاعظم وفى عهد فردريك وليم الاول فثبتها وقوى حدود بلاده ووسع ممتلكاتها ووضع بروسيا فى المكان الاول بين الدول وأولى

الامارات الألمانية بلا نزاع . ولم يصل ببلاده الى هذه المنزلة إلا بعد اشتباكه في حربين عظيمين تطاحنت فيهما أكثر دول أوربا . ولفردريك منزلة خاصة في القرن الثامن عشر لما حدث بسببه من الانقلاب السياسي الدولي ولنبوغه في الادارة والسياسة والقيادة العسكرية ولما أظهره من المثابرة واحتمال المصاعب وقوة البأس . ولم تكن سياسة فردريك وفق مبدأ خاص ، بل سار حسب الظروف والفرص التي كانت تتاح له — وهي الطريقة التي سادت في القرن الثامن عشر — غير مكترث بحقوق غيره كسعيه في تقسيم بولندة وضمه سيليسيا

الفصل العاشر

اتساع النفوذ الاوربى فى امريكا وآسيا

الى نهاية القرن الثامن عشر

الاستعمار الانجليزى

يرجع أول عهد اهتمام الانجليز بأمريكا إلى الرحلة التى قام بها « جون كابوت » هو وابنه سنة ١٤٩٦ التى كشف أثناءها « نيوفوندلند » ولكن لم يتبع ذلك استعمار فعلى إلا سنة ١٥٨٤ حين حاول السير « ولتر رالى » تأسيس مستعمرة سماها « فرجنيا » إشارة للملكة اليصابات ثم نال عهداً من الملك جيمس الاول بانشائها وامتلاكها ، فلما غضب عليه الملك سنة ١٦٠٦ عهد بها الى « شركة فرجنيا » : وكان أكثر أهلها من أتباع الكنيسة الانجليزية فلما كانت سنة ١٦٢٠ قامت السفينة الشهيرة « ماى فلور » وعليها جماعة من البيورتان عرفوا فيما بعد « بالآباء المهاجرين » نزلوا بالجهات الشمالية التى تعرف بانجلترا الجديدة ، وتشمل « مين وكُنُّكْتِكَت ونيوهمشير ورودايلند ومساتشوستس » وكان هؤلاء البيورتان ممن أبوا احتمال الاضطهاد الدينى فى عهد جيمس الاول وممن استهانوا بالاخطار فى سبيل التمتع بحرية عقيدتهم ، فلما نزلوا بهذه البلاد الجديدة أقبلوا على تعميرها بهمة ونشاط عظيمين .

وسنة ١٦٣٢ أسس الكاثوليك الذين اضطهدوا فى عهد شارل الاول مستعمرة « مارى لند » ، وتأسست بعد ذلك « كرولينا » بقسميها . ولما

قامت الحرب بين انجلترا وهولندة ، أرسلت انجلترا حملة سنة ١٦٦٤ للاستيلاء على الاملاك الهولندية فى أمريكا ، فاستولت على « نيوامستردام » وسمتها « نيويورك » وأنشئت بعد ذلك مستعمرة « بنسلفانيا » بفضل مجهودات « وليم بن » ومستعمرة « جورجيا » بقسميها فى عهد الملك جورج الثانى

وكانت حكومات هذه الاقاليم متباينة ، لكل مستعمرة حاكم من قبل الملك ومجلسان تشريعيان يشبهان بوجه عام مجلس اللوردة ومجلس العموم فى انجلترا ، غير أنه لم يكن لها ممثلون أمام الحكومة الانجليزية فكانت معلوماتها عن أمريكا مبنية على الخطأ المحض

وكانت انجلترا تحمى المستعمرات نظير الفوائد المادية التى كانت تجنيها حسب آراء ذلك العصر الذى كان ينظر الى المستعمرة كأنها موجودة لا لمصلحتها الذاتية بل لمصلحة البلاد الاصلية ، فكان يتحتم عليها بمقتضى « قانون الملاحة » نقل تجارتها على سفن انجليزية ، كما كان يحرم عليها صنع مايمكن شراؤه من انجلترا ولو أضر ذلك بمصلحتها ، وكان لايسمح لها بشراء مواد معينة من غير انجلترا ولو كانت من منتجات بلاد أخرى ، وقد أدت هذه القيود الى زيادة قيمة الواردات زيادة باهظة لم يتيسر لأهل المستعمرات مقابلتها إلا بالاتجار سراً مع أهل مستعمرات اسبانيا والهنود المجاورين لهم ، ومع ذلك فقد بقيت المستعمرات خاضعة لهذه القيود الثقيلة مادامت انجلترا تقوم بحمايتها من هجمات الفرنسيين

ويرجع دخول الفرنسيين أمريكا الى حكم فرنسوا الاول إذ قام « جاك كارتييه » ووصل الى مصب سنت لورانس سنة ١٥٣٤ ولكن لم يبدأ الاستعمار الفرنسى الحقيقى الا سنة ١٦٠٤ حين أنشأ « شامبلين » أول مستعمرة فرنسية وسماها « أكاديا » وهى الآن « نوفاسكوشيا » ثم أسس مستعمرة أخرى فى « كويبك » سنة ١٦٠٨ ، واهتمت الحكومة الفرنسية بشأن هذه

المستعمرة فأسست شركة لتولى إدارتها ودخل إليها كثير من اليسوعيين لنشر الكاثوليكية فيها ، ولكن نموها كان بطيئا بسبب عدم اهتمام الفرنسيين بالاستعمار إذ ذاك

وفى سنة ١٦٨٢ اهتدى « لاسال » إلى نهر مسيسبى وتتبعه إلى خليج المكسيك فنشأت فى هذه الأقاليم مستعمرة « لويزيانا » نسبة إلى لويس الرابع عشر فاهتم الفرنسيون بهذه المستعمرة وبذلوا الجهد في بناء حصون تصل بين لويزيانا على نهر المسيسبى وكندا على نهر سنت لورانس ، وقد خاف أهل المستعمرات الانجليزية أن تحول هذه الحصون دون تقدمهم داخل القارة وأن يصبحوا محصورين بين المحيط وجبال « الليجانى » لا يستطيعون توسيع بلادهم ، فيتمكن الفرنسيون من طردهم جملة ، فلم يكن بد من التحام الفريقين . وقد حدث ذلك سنة ١٧٥٤ وجاءت حرب السنين السبع فى أوربا وأمريكا والهند وكان النزاع الاستعمارى فى أمريكا والهند أكبر دافع لهاتين الدولتين

على أن مصالح فرنسا الحيوية فى القارة كانت تضطرها إلى ابقاء جيش عظيم فى أوربا فتعذر عليها صرف كل همتها لحماية مستعمراتها ومقاومة انجلترا — منافستها ، فى حين أن انجلترا كانت تحارب بحراً فقط وكان كل همها منصرفا للمستعمرات

وفى سنة ١٧٥٦ تولى الوزارة الانجليزية « وليم بت » الأكبر المعروف فيما بعد « بلوردتشتهام » وأخذ على عاتقه تنفيذ خطة سياسة الحرب بكل حزم وعزم ، فكوّن جيشا من الانجليز والاسكتلنديين وأصلح حال الجيش وضباطه فأمكنه أن يعوض الخسارة التى لحقت بانجلترا فى أول الحرب ووثق العلائق بين انجلترا وفردريك الأكبر فأرسل حملة انجليزية الى ألمانيا ، ثم ارسل الى أمريكا قواداً أكفاء من بينهم « ولف » . ولاشتغال

فرنسا فى أوربا لم تتمكن من ارسال المدد إلى أمريكا فزاد الجيش الانجليزى فيها زيادة عظيمة وأصبح موقف « مونتكام » قائد الجيش الفرنسى فى كندا حرجا

وفى سنة ١٧٥٩ وضع وليم بت خطة حربية للاستيلاء على كندا فأمر ثلاثة جيوش بالزحف عليها من ثلاث جهات مختلفة وكان ولف على رأس أحدها فوصل إلى نهر سنت لورانس بالقرب من كويبك ، وكان موقعها — وهي عاصمة كندا وقتئذ — حصينا جداً لوجودها بين نهرين ولوجود تلال ابراهام خلفها ، وكان منتكام قد أخذ الاحتياطات القوية ضد هجوم الجيوش الانجليزية ، إلا أن ولف أمكنه أن يعبر النهر هو وجنوده ليلا ثم أخذت الجنود تتسلق تلال ابراهام فلما أصبح الصبح كان الجيش الانجليزى يرقب الجيش الفرنسى من أعلى التل . ودارت المعركة بين الجيشين وكانت البسالة ظاهرة فى الجانبين ولكن سقطت كويبك فى أيدى الانجليز ، وما جاءت سنة ١٧٦٠ حتى كانت كل كندا فى أيديهم إلا أنهم خسروا « ولف » فى المعركة . كذلك مات « منتكام » لجراح أصابته . ولما انقضت حرب السنين السبع تقرر فى صلح باريس سنة ١٧٦٣ أن تأخذ انجلترا كندا ونوفاسكوشيا والأقاليم الواقعة شرق المسيسبى ما عدا نيوار ليانز .

حرب الاستقلال الامريكية

ولما خرجت انجلترا مثقلة بالديون من هذه الحرب التى خاضت غمارها فى سبيل حماية أهل المستعمرات رأت أنه يجب على المستعمرات أن تتحمل جزءاً من هذا الدين فوضعت سنة ١٧٦٤ ضرائب على بعض المواد معلنة حقها الطبيعى فى ذلك . فحنق عليها أهل المستعمرات بسبب هذا التضييق

وعقدوا الخناصر على الاستغناء بقدر الامكان عن وارداتها، ولما كان الصوف أهم مايردمنها امتنعوا عن أكل لحوم الضأن ليستغنوا بأصوافها عما يردمن انجلترا.

ولم تقف المسألة عند هذا الحد بل قررت الحكومة الانجليزية سنة ١٧٦٥ أن تكون المعاملات بين الناس على ورق تمغة يصرف الايراد الناتج منه على الجنود الانجليزية القائمة بحماية المستعمرات . وكانت هذه الضريبة تختلف عن الضرائب الجمركية التى اعتاد المستعمرون دفعها ولذلك احتجوا على فرض هذه الضريبة الداخلية وطلبوا الى الملك الغاءها ، وقاطعوا التجارة الانجليزية . فأجيب طلبهم الى الالغاء ولكن البرلمان الانجليزى أيد حقه فى فرض مثل هذه الضرائب وهدأت الأحوال مؤقتاً ولا سيما حين عاد الى الوزارة « وليم بت » وكان من رأيه انه ليس من حق انجلترا أن تفرض ضرائب على المستعمرات . الا أن المرض اشتد عليه وأقعده عن العمل ، فقرر زملاؤه ضريبة على مايرد الى المستعمرات من الشاى والورق والزجاج فعارض الأمريكان فى هذه الضرائب رغم أنهم كانوا قدسلموا بها قبل ذلك ، وجاهروا بأنها ليست من حق البرلمان الانجليزى

وعلى ذلك لم يبق للمسألة الأمريكية غير طريقتين إما ترك فرض الضرائب للمستعمرات نفسها ، و إما اخضاعها بالقوة . ولما كان جورج الثالث وأغلبية البرلمان يرفضون الحل الأول لم يكن بد من نشوب الحرب . غير أن « اللورد نورث » الذى تولى الوزارة بعد « بت » حاول تحسين الحال ، فألغى كل الضرائب إلا ضريبة الشاى وهى سبعة بنسات على الرطل ، لا بقصد الفائدة المالية بل تمسكا بمبدأ حق انجلترا فى تقرير مثل هذه الضرائب . وكان الأمريكان إذ ذاك قد صرفوا نظرهم عن مقدار الضرائب وتمسكوا بالمبدأ فدار الخلاف حول تمسك كل فريق بمبدئه وبدأت المقاومة بالعنف فسادت الفوضى اذا اشتبك الأهالى بالجنود فى « بوستن » وأحرقوا

احدى سفن الحكومة التى كانت تراقب التهريب ، وأخذوا يتعدون على عمال الحكومة .

وفى سنة ١٧٧٣ وصلت الى ميناء بوستن سفن شركة الهند الشرقية تحمل الشاى ، فانقض عليها بعض الشبان وألقوا بما فيها الى البحر . وما سمعت الحكومة بهذه الفعلة حتى أصدرت قراراً باقفال ميناء بوستن ومحاكمة الثائرين ، فاجتمع مؤتمر يمثل جميع المستعمرات فى « فلادلفيا » سنة ١٧٧٤ وقرر قطع العلائق التجارية مع انجلترا حتى تزول أسباب النزاع

رأت انجلترا أنه لامفر من الحرب ، فأراد قائد قواتها فى أمريكا أن يستولى على ذخائر كانت فى « لكسنجتن » فاشتبك معه الأهالى سنة ١٧٧٥ وأخذوا ينظمون قوتهم فعينوا « واشنجتون » قائداً وكان من أغنياء مقاطعة فرجينا ، جريئاً لاتزعزعه الحوادث ، تعلم تنظيم الجيوش وقيادتها فى حرب السنين السبع . وبدأ واشنجتون عمله بمحاربة الانجليز فى «بنكرهل» وطردهم من بوستن فى مارس سنة ١٧٧٦ . وفى ٦ يوليه من هذه السنة اجتمع مؤتمر من كل المستعمرات فى فلادلفيا وقرر اعلان الاستقلال مشفوعا بحقوق الانسان .

الحرب : فى سنة ١٧٧٦ نجح القائد الانجليزى « هاو » فى الاستيلاء على نيويورك بقصد فصل الولايات الجنوبية عن الشمالية ، والفتك بكل منهما على انفراد ، ولكن واشنجتون هزمه وأفسد عليه خطته ، فوضع الانجليز خطة جديدة للقضاء على الولايات الشمالية بأن يسير القائد « بورجوين » من كندا عن طريق البحيرات ويقابله « هاو » من طريق نهر هدسن . ولكن الأخير لم ينجز مهمته فاضطر بورجوين الى تسليم جيشه فى «سراتوجا» سنة ١٧٧٧ ، وبهذا الانتصار العظيم زادت القوة المعنوية فى الأمريكان ، ورأت فرنسا أنهم أهل للمحالفة فانضمت الى جانبهم علناً سنة ١٧٧٨ ، بعد أن

كانت تكتفى بمساعدتهم سراً . فأرسلت اليهم جيشا بقيادة «رشمبو ولافايت» وانضمت اسبانيا اليهم خوفا على فلوريدا ، وأعلنت دول أوربا الشمالية «الحياد المسلح» لتضطر انجلترا الى التنازل عما كانت تدعيه من حق تفتيش السفن المحايدة ، وبذلك أصبح انتصار الأمريكان مؤكداً ولا سيما بعد أن تمكن الاسطول الفرنسى من طرد الاسطول الانجليزى عن الساحل ومحاصرة «يوركتون» بحراً بينما كانت الجنود الامريكية الفرنسية تضيق الخناق عليها براً ، حتى التزم القائد «كورنوالس» الى تسليم جيشه فى اكتوبر سنة ١٧٨١

عند ذلك فقدت انجلترا كل أمل فى النصر فبدأت المفاوضات واعترفت باستقلال الامريكيين سنة ١٧٨٢ وأبرمت المعاهدة النهاية بباريس فى سبتمبر سنة ١٧٨٣

اتساع نفوذ اوربا فى آسيا

الهند

أول من تدخل فى شئون الهند من الاوربيين هم البرتغال فقد يمموا جنوب الهند منذ وصل اليها «فاسكودى جاما» سنة ١٤٩٧ واحتلوا مدنا كثيرة من الشاطئ الغربى من «جوا» الى «هرمز» غير أن فواق البرتغال انتهى سنة ١٥٨٠ حين دخلت تحت حكم اسبانيا فى عهد فليب الثانى الى أن استقلت ثانية سنة ١٦٤٠ فصارت اسبانيا أكثر ممالك أوربا استعمارا الا أنها وجهت كل اهتمامها لاستعمار أمريكا وأهملت ما ورثته من البرتغال فى الشرق فاستطاعت هولندة بعد استقلالها أن تخلف البرتغال فيه واستولت على جزر الهند الشرقية وأقامت لها عاصمة فى بتافيا واحتكرت التوابل وهى اذ ذاك من أهم السلع التجارية

ثم قلدهم الانجليز فأسسوا شركة الهند الشرقية بموافقة الحكومة سنة ١٦٠٠ فى عهد اليصابات وقامت المنافسة بين الهولنديين والانجليز

فى جزائر الهند الشرقية « جزائر التوابل » الى أن فتك الهولنديون ببعض الانجليز فى مذبحة « أنبوينا » ١٦٢١ فاضطر الانجليز الى ترك الجزر الشرقية والالتجاء الى الهند ، وفى سنة ١٦٢٩ سمح حاكم الـكارنتك للشركة الانجليزية أن تشترى قطعة أرض على الساحل فأسست حصن « سنت جورج » وأنشأت حوله مدينة مدراس . وفى سنة ١٦٦٠ تنازل الملك شارل الثانى على بمباى للشركة وكانت قد آلت اليه بزواجه من الاميرة « كترينا » من أسرة براجنزا البرتغالية ، ثم صار للشركة حصن وليم وأنشأت حوله كلـكتا على نهر الهوجلى فى بنغالة

وكان يحكم الهند وقتئذ امبراطور المغول وهى أسرة أسسها « بابر » من أسرة تيمورلنك فى القرن السادس عشر ومن أهم ملوكها « أورنغزيت » (١٦٥٨ — ١٧٠٧) آخر امبراطور عظيم حكم الهند فلما مات تجزأت الامبراطورية واستقل الحـكام بمقاطعاتهم ، ولم يبق للامبراطور فى دهلى الا الاسم فقط ، وتكونت عصابة « المهرتا » وامتد نفوذها فى وسط الهند وشمالها الغربى ، ولم يكن لهم عمل سوى إيقاع الرعب فى نفوس القوم والانقضاض على القرى ونهبها وسلبها وكان رئيسهم يدعى « بيشواه » ومقره « بونا » ونشأ غير هذه العصابة حكومة « النظام » فى الدكن وحكومة « حيدر على » فى ميسور

إلا أن الخطر على حياه شركة الهند الانجليزية لم يكن منشؤه أمراء الهند بل كان الخطر من الشركة الفرنسية التى تأسست فى عهد لويس الرابع عشر ، وكان لها مراكز تجارية وهى « شندرنا جور » فى بنغالة و « بندشرى » فى جنوب مدراس وجزيرتى « موريس وبربون » . وكان لفرنسا حاكمان قادران أحدهما « دوبليه » والآخر « لابردونيه » — فانتهز دوبليه فرصة انقسام الامبراطورية المغولية فى الهند وعدم وجود سلطة مسئولة ليجعل لفرنسا النفوذ الاول ، وذلك بتكوين جيش من

الهنود وتدريبهم على النظام الغربي واستخدام هذا الجيش في اعانة امير على آخر حتى يسود النفوذ الفرنسي ، فاستولى الفرنسيون على مدراس من حصون الانجليز سنة ١٧٤٥ ولكنها أرجعت ثانية الا أنها بقيت مهددة الى أن ظهر فيها كاتب اسمه « روبرت كليف » وكان ذا كفاية عظيمة عسكرية وادارية فقلد دوبليه وأدخل الهنود في جيش الشركة

وفى ١٧٥١ لما كان الخطر محدقا بمدراس سار « كليف » قاصدا أركوت عاصمة الكارنتك فأخذها وانتصر على جنود النظام الفرنسيين . أما «دوبليه» فاستدعى سنة ١٧٥٤ الى فرنسا حيث مات ، واصطلحت الشركتان الآن شركة الهند الانجليزية شعرت باقتراب حرب السنين السبع فأرسلت «كليف» الى الهند ثانية وكان قد عاد إلى انجلترا لمرضه . وعند وصوله الى مدراس علم بما حل بالانجليز من جراء فعل « سراج الدولة » حاكم بنغالة ، وذلك أن سراج الدولة أراد أن يصادر ثروة التجار الانجليز فسار نحو كلكتا فوقعت في يده فأخذ ١٢٩ أسيراً من الانجليز وزج بهم فى حجرة صغيرة وهى التى عرفت فيما بعد باسم « الجحر الاسود » وكان ذلك فى شهر يونيه سنة ١٧٥٦ فلما أصبح الصباح لم يبق منهم حيا إلا القليل

أسرع كليف الى بنغالة ليعاقب سراج الدولة على فعلته هذه وكان جيشه مكونا من ٩٠٠ جندى أوربى و ١٢٠٠ هندى وعلى الرغم من فواق جيوش سراج الدولة فى العدد انتصر كليف فى موقعة « بلاسى » سنة ١٧٥٧ ، ومن وقتها صارت البنغالة وحكومتها تحت تصرف الانجليز رغم أنه لم يكن لهم حق شرعى الى ذلك الوقت ورغم أن الحكام الهنود كانوا هم أصحاب السلطة اسما ، وغاية الامر أن « كليف » أخذ للشركة حق جمع الضرائب فى بنغالة وبذلك وحده ثبتت قدم الشركة

وفى سنة ١٧٦٠ أرسل كايف قوة انجليزية تحت قيادة «كوت» لمحاربة الفرنسيين بقيادة «لالى» وكانت حرب السنين السبع مشتعلة فى ذلك الوقت بين انجلترا وفرنسا فى أوربا وأمريكا فانتصر «كوت» على الفرنسيين فى موقعة «وندبواش» وفى سنة ١٧٦١ سقطت «بندشيرى» ومن ذلك الحين قضى على النفوذ الفرنسى وصارت انجلترا منفردة بالسيادة فى الهند لا يزاحمها مزاحم أجنبى ، وانتهت كل هذه الحروب بين انجلترا وفرنسا «بصلح باريس» سنة ١٧٦٣ وبمقتضاه استردت فرنسا مراكزها التجارية ولكن بشرط ألا يكون لها فيها جيوش وأن تكون تجارية محضة غير محصنة

غير أن انتصار الانجليز فى الهند زاد ارتباك الشركة اذ تعسف عمالها وعمت الرشوة وفسدت الادارة وضويق الوطنيون فى معايشهم وأوشك أن يعم القحط والمجاعة فاضطرت الشركة أن ترسل كليف سنة ١٧٦٥ فأدخل اصلاحات عديدة فى الادارة وأبطل احتكار التجارة ومنع المستخدمين من قبول الهدايا وزاد فى مرتباتهم وحرم عليهم الاتجار لحسابهم ، وتحسنت الحال نوعا فى عهده وصار للشركة حق ادارة المالية فى بنغالة وتعهدت هى بصرف مبلغ مقرر كل سنة للامير الهندى الذى كان يحكم تلك الجهة ، إلا أن الادارة بقيت مختلة لعدم توحيد الحكم والقيادة فى أملاك الشركة وأهمها كلكتا وبمباى ومدراس لانه لم يسبق فى التاريخ أن تولت شركة حكم أقاليم عظيمة كما كانت الحال فى الهند فتدخل البرلمان الانجليزى فى الامر وسن قانونا سنة ١٧٧٣ وبه صار حاكم البنغالة حاكما عاما ويساعده فى الحكم مجلس مكون من أربعة ، وحتم على الشركة عرض المسائل السياسية على الحكومة وتأليف محكمة عليا فى الهند على النظام الانجليزى وتعيين :

وارن هاستنجس — أول حاكم عام فى الهند وإليه يرجع الفضل فى تقوية الحكم الانجليزى لان حيدر على صاحب ميسور كان يهدد مدراس وكان الفرنسيون قد انتهزوا فرصة اشتغال انجلترا بحرب أمريكا لاثارة أمراء الهند عليها بقصد رجوع النفوذ الفرنسى هنالك وكان جيش حيدر على مدرباً على النظام الاوربى وكان حيدر قائداً باسلا أخضع ما حوله من الاقاليم ، فأظهر «هاستنجس» كفاية عظيمة فى مقابلة الخطر ، ورأى انه يستحيل على انجلترا أن ترسل مدداً وهى تحارب فى أمريكا فعول على الاعتماد على نفسه واجراءاته فاتبع طرقا فى جمع المال لم تكن مألوفة ، وعقد معاهدة دفاعية مع مقاطعة «أوده» لدرء الخطر المحدق من الشمال الغربى وبينما هو مشتغل بصد «المهرتا» عن بمباى إذ وصل خبر هجوم حيدر على مدراس وتخريبه القرى فأسرع بعقد الصلح مع المهرتا بعد أن هزمهم فى مواقع صغيرة ثم أرسل القائد كوت ضد حيدر على فانتصر عليه فى موقعة «بورتونوفو» سنة ١٧٨١ وانتهت الحرب بانتهاء الحرب فى أمريكا بمعاهدة باريس سنة ١٧٨٣.

وفى سنة ١٧٨٤ سن البرلمان قانونا آخر لحكومة الهند وبمقتضاه صار تعيين الحاكم العام بيد الحكومة ونزلت الشركة عن إدارة الشئون السياسية واقتصرت على إدارة المالية ، وصار يدير شئون حكومة الهند مجلس تعينه الحكومة وفيه وزير من وزراء الملك ، واستقال هاستنجس سنة ١٧٨٥ وحوكم أمام مجلس اللورده وبرىء مما نسب اليه ، ثم عين

ولسلى — حاكما وأخوه السير «آرثر ولسلى» قائداً ، وفى عهده قام المهرتا ثانية برياسة «سنديا وهلكار» فسار «آرثر ولسلى» (دوق ولنجتن فيما بعد) بجيش وهزمهم وكسر شوكتهم فى موقعة «أساى» سنة ١٨٠٣ ورجع اللورد ولسلى سنة ١٨٠٥ بعد أن أدخل نظاما جديداً

فى علاقات الامراء الوطنيين بالحكومة الانجليزية وذلك أن تقبل الحكومة الوطنية مندوبا انجليزيا وتترك شئونها الحربية والخارجية بيد الانجليز مقابل دفع الاعتمادات اللازمة لهذه الشئون إلى الحاكم ، وأما الادارة الداخلية البحتة فتركت للامراء الوطنيين

خواص استيلاء الانجليز على الهند

إن التصميم التى تأتى به فتح الهند مبنى على ما لاحظه الفرنسيون ولاسيما « دوبليه » من أنه لاتوجد أمة هنديه ، إنما يوجد بالهند مجتمعات متنافرة ومتدابرة ، وأن ذلك يجعل أهل هذه البلاد لايفرقون بين هندى وأجنبى إذ لايعرفون للقومية معنى وعليه فلا يعرفون معنى أجنبى

أخذ الانجليز هذه الفكرة فجندوا جيوشا هندية تخضع الهند اذا اقتضت الحال ، وكانت الحكومة أول الامر لاتريد أن تكون مسئولة عن الهند وتكره أن تستعين الشركة بها فى الحروب ، أو تطلب منها مساعدة مالية . ولم يفكر أحد تفكيراً جديا فى حكم الهند إلا أخيراً بينما كانت الشركة لايهمها إلا تنمية ثروتها ، فكان عمالها يذهبون الى الهند بقصد تنمية التجارة وترك الحروب جانبا ولكنهم يجدون أنه لايمكن المحافظة على التجارة إلا بالتغلب على جيرانهم المشاغبين ، فيضطرون لخوض غمار الحروب فتسخط الشركة عليهم لكثرة المصاريف فتستدعيهم ، ولكن الخلف يضطرون للسير على منهج السلف بحكم البيئة والحالة فى الهند ، وبهذه الطريقة استولت الشركة على الهند رغم أنفها

الفصل الحادى عشر

انجلترا وفرنسا فى القرن الثامن عشر

انجلترا — سبق أن رأينا أن ثورة ١٦٨٨ قضت على ما كان يدعيه الملك من الحق الالهى وأيدت حقوق البرلمان، وأصدرت لائحة التسامح الدينى للمذاهب البروتستنتية، دون الكاثوليك. وأخذ وليم الثالث يجمع شمل الشعب، وينزل العقاب بالقائمين عليه فى ابرلندة حيث قامت ثورة برياسة الملك المخلوع جيمس الثانى. فانبرى وليم لاخمادها وانهزم جيمس وفر الى فرنسا وانتقم وليم من الايرلنديين انتقاما مريعا فى موقعة «بوين» سنة ١٦٩٠

أما سياسة وليم الخارجية فكانت ترمى الى إيجاد التوازن فى أوربا إذ قام لويس الرابع عشر يهدد بالاغارة على جيرانه. فكون وليم المحالفات للقضاء على سياسته. ولما صار ملكا فى انجلترا انضمت هذه الى أعداء فرنسا بعد ان كانت فى جانبها. ولتدبير المال اللازم لهذه الحروب سعى فى اصلاح شئون انجلترا التجارية والاقتصادية، فنشأ بنك انجلترا وعقد معه أول قرض وطنى، وعهد بالحكومة الى وزراء من حزب واحد لتكون الوزارة متضامنة فى المسئولية.

وفى سنة ١٧٠١ أصدر البرلمان قانون الوراثة الذى يقضى بأنه بعد موت وليم يؤول التاج إلى «آن» أخت مارية ولما لم يكن لها وارث نص القانون على وجوب انتقال التاج من بعدها الى أقرب فرع بروتستنتى للأسرة المالكة أى الى أسرة «هانوفر» فى ألمانيا التى تنتسب الى بنت جيمس الأول ملك انجلترا.

وخلف وليم الملكة « آن » (١٧٠٦ — ١٧١٤) وفى عهدها اتحدت حكومةانجلترا واسكتلندة، وصار البرلمان فى لندن يجمع بين نواب المملكتين وزالت العداوة التى كانت بينهما قديما . غير أن اسكتلندة احتفظت بنظام كنيستها وقوانينها ومعاهد التعليم فيها . ومن ذلك العهد أطلق عليهما اسم المملكة المتحدة . وعرفت الحكومة باسم الحكومة البريطانية . وفى عهد « آن » نشط حزبا « التورى » و « الهويج » وأصبح كل منهما يسعى لتوسيع نفوذه فى البلاد ، والاستحواذ على السلطة فى البرلمان . وكان حزب التورى يريد تقوية الملكية والكنيسة الاسقفية ، أما حزب الهويج فكان يعمل على سلب قوة الملك تدريجا وجعلها بيد الوزارة والبرلمان . وفوق هذا كان التورى فى ذلك الوقت يجنحون الى السلم مع فرنسا ، أما حزب الهويج فكان من رأيهم مواصلة الحرب . ولما كانت الحكومة بأيديهم استمرت انجلترا فى حرب الوراثة الاسبانية الى سنة ١٧١٠ حين تولى حزب التورى الوزارة وانسحبت انجلترا من الحرب، وأدى ذلك الى عقد صلح « اترخت » سنة ١٧١٣ . وقد استفادت انجلترا من هذا الصلح فوائد استعمارية تشير الى بدء اهتمام بريطانيا بالاستعمار ، الذى أصبح فى القرن الثامن عشر أكبر باعث على المنافسة والحرب بين الدول

ولما ماتت «آن» ورث عرش انجلترا «جورج الاول» أمير هانوفر ولما كان هذا الملك وخلفه « جورج الثانى» يجهلان اللغة الانجليزية لم يستطيعا حضور مجلس الوزراء ، فأصبح ذلك قاعدة متبعة ، وتطلبت الحال وجود رئيس يرئس مجلس الوزراء ويكون واسطة التفاهم بين الوزراء والملك . وبذلك زادت سلطة الوزارة حتى استقلت عن الملك . واعتمد هذان الملكان من أول الامر على حزب الهويج فقوى نفوذ هذا الحزب فى البلاد والبرلمان، بهمة رئيسة السير «روبرت ولبول» أول من سمى رئيس الوزارة فى انجلترا

وكان خبيراً بالشئون المالية لا يبالى بالوسائل ما دامت توصله الى غرضه ، فكان يشترى مقاعد البرلمان لأنصاره ، كما كان يشترى أصوات أعضاء البرلمان للموافقة على سياسته ، حتى فسد الجو السياسى فى انجلترا ، وبسياسته بقيت البلاد فى هدوء وسلم مدة طويلة ، حدت بالناس الى الخمول والانغماس فى الملاذ ، والحرص على استجلاب الثروة بأية وسيلة

وكانت المنافسة بين انجلترا واسبانيا قد اشتدت فى ذلك العهد فظهر حزب فى البرلمان يعارض سياسة السلم يرأسه أمثال « وليم بت الأكبر » و « فوكس » من الشبان المتحمسين ، فأعلنت انجلترا الحرب على اسبانيا سنة ١٧٣٩ واضطر ولبول الى الاستقالة سنة ١٧٤٢ ثم دخلت انجلترا حرب الوراثة النمساوية فى صف « مارية تريزا »

وما لبث أن ظهر النزاع بين انجلترا وفرنسا بشأن المستعمرات فى أمريكا والهند ، وقامت فى ذلك الوقت حرب السنين السبع ، فانضمت انجلترا الى جانب فردريك الأكبر وانحازت فرنسا الى النمسا ، وانتهت الحرب بصلح باريس سنة ١٧٦٣ وبه كسبت انجلترا كندا وجزيرة رأس بريتون ونوفاسكوشيا وأصبحت فائقة فى الهند ، وقصرت فرنسا هنالك على بضع محطات تجارية بحتة ، بحيث لم تقم لها بعد ذلك قائمة فى استعمار تلك الارجاء

فرنسا

أضرت حروب لويس الرابع عشر بفرنسا ضرراً بليغاً وأضناها ما تحملته من الخسائر واستمرت فرنسا تشكو سوء الحال المالية إلى أن قامت الثورة

خلف لويس الرابع عشر ابن حفيده « لويس الخامس عشر » ١٧١٤ — ١٧٧٤ وكان عمره خمس سنين . فقام « دوق أرليان » بالوصاية عليه ، وكان خليعا مبذراً فسقطت هيبة الحكومة فى أعين الشعب والدول وعاد الاشراف الى تصرفاتهم وامتيازاتهم الأولى ، وتعين منهم الوزراء ، وارتبكت مالية

فرنسا فى عهد أرليان ، وكانت سياسته الخارجية ترمى الى الاتفاق مع انجلترا

ولما مات فى سنة ١٧٢٣ خلفه « دوق بربون » وبعد سنتين تولى الوزارة « فليرى » مربى الملك ، وكان على كبر سنه وزيراً قادراً يشبه معاصره « ولبول » فى سياسته الداخلية والخارجية ، غير أنه فى سنة ١٧٣٣ حدث خلاف بين النمسا والروسيا من جهة ، وفرنسا واسبانيا وسافوى من جهة أخرى ، على من يكون ملكا لبولندة ، وكانت النمسا وحليفتها ترشحان دوق سكسونيا بينما فرنسا وحلفاؤها يرشحون « ستانسلاس لكزنسكى » صهر لويس الخامس عشر فتوسطت انجلترا وعقد صلح فينا سنة ١٧٣٥ ، وتدل شروط هذا الصلح على مهارة « فليرى » إذ تقرر أن يتنازل « ستانسلاس » عن ملك بولندة ، ويعطى إقليم اللورين طول حياته وبعد موته يصير هذا الاقليم ملكا لفرنسا فكان هذا آخر ما أخذته فرنسا من ألمانيا قبل الثورة ، ومن شروط هذا الصلح أيضاً أن أصبح أحد أمراء أسرة بوربون الحاكمة فى اسبانيا ملكا على نابلى وصقلية ، واستعاضت النمسا منها دوقية بارما ، وأخذ الامبراطور فرنسيس الأول زوج مارية تريزا دوقية تسكانيا عوض اللورين

ثم جاءت حرب الوراثة النمساوية ودخلت فرنسا ضد مارية تريزا ، جرياً على سياستها القديمة وهى مناوأة أسرة هبسبرج إلا أن هذا التدخل أدى فى النهاية إلى ظهور بروسيا في المانيا . ولما مات « فليرى » حكم لويس الخامس عشر بنفسه كما فعل لويس الرابع عشر بعد موت « مزران » ولكنه كان منصرفا إلى شهواته تاركا كل السلطة فى أيدى خليلاته لا سيما « مدام دى بمبادور » التى كانت تتصرف فى جميع أمور البلاد حتى فى الشئون الخارجية . واستمر انحطاط فرنسا إلى أن قامت حرب السنين السبع حين انتصرت فى أول الأمر وأعادت شيئاً من سالف شهرتها الحربية ، إلا أن تشتت جهودها بين الميادين الأوربية والاستعمارية وراء البحار ، ودخول

انجلترا الحرب بهمة وزيرها الفذ « وليم بت » الأمر الذى ورط فرنسا فى جهات عدة — كل ذلك حال دون توجيه جهودها لغرض واحد ، فلم تفز بشىء ما، بل خسرت شيئاً كثيراً كما يدل على ذلك صلح باريس سنة ١٧٦٣ السالف الذكر.

واستمرت فرنسا فى تدهورها حتى ظهر الوزير « شوازيل » الذى سعى جهده فى تقوية بلاده براً وبحراً ، حتى تمكنت من الدخول فى حرب الاستقلال الأمريكى انتقاما من انجلترا ، وكان دخولها من أهم العوامل التى ساعدت الأمريكان على نيل استقلالهم . وبمساعيه أيضا ضمت فرنسا جزيرة « قرسقة » فى سنة ١٧٦٩ مقابل مبلغ من المال دفعته لحكومة جنوه . وفى آخر أيام لويس الخامس عشر زاد السخط والتذمر ، وقامت المنازعات بين برلمان باريس وبين الملك بسبب الضرائب التى أثقلت كاهل فرنسا عقب حربى السنين السبع والاستقلال الأمريكى ، وتمكن البرلمان فى النهاية من تخفيف وطأة الضرائب.

وفى هذا الوقت ظهر أمر منتقدى الكنيسة وأهمهم « فلتير » و« ديدرو » فخيل إلى رجال الدين أن هذه الحركة الفكرية تشبه حركة الاصلاح البروتستنتى ، فأخذت الكنيسة تضطهد البروتستنت والمفكرين إلى أن انتهى حكم لويس الخامس عشر بأزمات اقتصادية ، سببت مجاعات وأدت إلى افلاس الحكومة ومات لويس سنة ١٧٧٤ وهو يحس بأن الطوفان لابد مدرك فرنسا بعده.

الفصل الثانى عشر

الثورة الفرنسية

قامت الثورة الفرنسية على نظرية صحيحة وهى أن كل مجتمع سياسى يدعى حق حكم نفسه وحق الدفاع عن نفسه ضد كل مجتمع آخر ، انما يستمد ذلك الحق من نفسه لامن حاكمه وهذا هو أساس كل قيام ضد الاستبداد أو التدخل الأجنبى . وهو حق طبيعى لايحتمل الشك إذ لايحق لفرد أو لأفراد من المجتمع مقاومة رغبة هذا المجتمع ومتى أدرك الناس بالتلقين أو الاقناع معنى هذا الحق صعب عليهم أن يستكينوا ويخضعوا لأنظمة تنافى ماتلقنوه وصعب على الحكام أنفسهم المضى فى طريقتهم الاستبدادية

ولقد بدأت حركة انارة أذهان الشعب من هذه الوجهة منذ النهضة الأوربية الحديثة التى تقدم ذكرها والتى أدت الى ظهور حركة الاصلاح الدينى التى مالبثت أن علمت الناس حق حرية الأفراد فى أمر دينهم فتحطمت بذلك أول حلقة من حلقات استبداد الحكام بالشعوب

وتدرج الفكر من ذلك إلى الحرية السياسية بفضل كتابات كثير من المفكرين أشهرهم « فلتير » (١٦٩٤ — ١٧٧٨) وهو يعتبر « ارزمس » السياسى للقرن الثامن عشر الذى صوب سهام النقد والتهكم المر بأسلوبه الخلاب إلى نظم عصره السياسية والدينية مناديا بألا يبقى قديم لقدمه ، بل يجب أن يمحى كل نظام لايبرر العقل وجوده .



فولتير

فحارب الـكنيسة وامتيازات الاشراف وسوء تصرف الملوك وفساد القوانين الجنائية باسلوب تهكمى جعل الناس يسخرون من جميع أنظمة عصرهم ويتطلعون الى أنظمة موافقة للعقل تحل محلها . فجاء « جان جاك روسو » (١٧١٢ — ١٧٧٨) متشبعا بروح فلتير وأخرج للناس ما كانوا يتوقون اليه من الانظمة التى شرحها فى كتابه الشهير « العقد الاجتماعى » وهو كتاب صغير فى الفلسفة السياسية لامثيل له فى الوضوح والاقناع وسهولة الاسلوب . وأثره فى تطور الفكر الانسانى فى العالم كله لا يعادله إلا أثر الـكتب المقدسة . وفى مطلع هذا الـكتاب من التشويق و لاستلفات والتأثير ماجعله آية سياسية يحفظها الناس عن ظهر قلب ، قال « ولد لانسان حراً ولـكنه الآن مكبل بالاغلال فى كل مكان . وقد يعتقد شخص أنه سيد غيره وهو لو يدرى أشر عبودية »

وأساس نظرية روسو أن الشعب هو صاحب السلطان الحقيقى وأن الحـكومة تستمد قوتها من ارادة الشعب وتبقى مشروعة ما دامت مستندة إلى هذه الارادة وسواء كانت الحـكومة بيد فرد أو بأيدى أفراد فان التشريع يجب أن يكون للشعب لأنه هو المطالب بالخضوع للقانون

وقد صارت آراء روسو انجيلا سياسياً لزعماء الثورة يعملون على تطبيقها بكل سبيل . وقد كتب روسو فى التربية والموسيقى وكانت كتاباته دائرة حول الرجوع للحال الطبيعية وتحبيذها

كذلك كتب الفيلسوف « منتسكيو » عن الدستور الانجليزى ومزاياه ففتح بذلك أذهان الفرنسيين إلى أن أساس الحرية التى يتمتع بها الانجليز هو فصل سلطات الحكومة الثلاث — التشريعية والتنفيذية والقضائية — كل منها عن الاخرى . فالسلطة التشريعية بيد البرلمان والسلطة التنفيذية بيد الوزارة ، والقضائية بيد قضاة المحاكم وهم مستقلون عن السلطتين الآخرين . فنبههم بذلك إلى فساد حكومة بلادهم إذ كانت السلطات الثلاث مجموعة فى قبضة فرد واحد الا وهو الملك .

وظهر بجانب هؤلاء الكتاب السياسيين ، المفكرون الاقتصاديون الذين وضعوا أساس علم الاقتصاد السياسى الحديث وهم المعروفون « بالفيزيوكرات » أى « الطبيعيين » لاعتقادهم وجوب فك القيود التى كانت تعوق السير الطبيعى للتجارة والصناعة وتركهما وشأنهما . وكانوا يعتقدون أن الارض هى أصل الثروة ، ولذلك أعطوا الزراعة المكان الأول . فنقدوا طريقة توزيع الضرائب وما كانت تتخذه الحكومة من مختلف الوسائل لحماية الصناعات المحلية كاقامة الجمارك داخل البلاد وتعطيل تبادل الغلال داخل فرنسا ، مما أدى إلى كساد التجارة وموت روح الاختراع ووقوع المجاعات المحلية . ومن أشهر هؤلاء المفكرين الاقتصاديين « كسناى » و « ترجوت »

وما كادت هذه الآراء الجديدة تنتشر بين الناس حتى فطنوا إلى مواطن الضعف والفساد فى أنظمتهم القديمة ، وألحوا بضرورة ابدال أصلح وأحسن منها بها

حال فرنسا قبيل الثورة — لم تكن فرنسا إذ ذاك مملكة متحدة العناصر خاضعة لقانون واحد يتمتع أهلها بحقوق ومزايا واحدة ، إذ كان كل قسم من أقسامها يختلف عن سواه فى تاريخه وقوانينه . فبينما كان القانون الرومانى مثلا مستعملا فى جنوب فرنسا كانت توجد قوانين أخرى فى الشمال والغرب

كذلك لم تكن فرنسا وحدة تجارية ، بل كانت الجمارك الداخلية تعوق مرور البضائع والحاصلات من قسم الى آخر كأن هذه الأقسام ممالك مختلفة ، وفوق ذلك كانت الحكومة تجبى ضرائب باهظة على المواد الضرورية ، وأشد هذه الضرائب وقعاً ضريبة الملح المسماة « جابل » فقد احتكرت الحكومة جميع المحصول وقسمت المملكة الى دوائر كيفما كانت ، وقررت فى كل منها للملح ثمنا خاصا يختلف اختلافا بينا عنه فى بقية الدوائر . فأدى ذلك إلى التهريب الذى اقتضى مصاريف باهظة لحراسة حدود دوائر الملح المختلفة

كذلك لم تكن فرنسا وحدة اجتماعية بل كانت مقسمة الى طبقات ثلاث — الأشراف ورجال الدين والشعب — وكانت الحكومة تخص الطبقتين الأوليين بامتيازات لانصيب للشعب فيها فكانوا يعفون من دفع ضريبة الخراج أو « التاى » ويتخلصون من الضرائب والمكوس الأخرى بطرق مختلفة . أما امتيازات الأشراف فكانت من بقايا نظام الاقطاع فى القرون الوسطى فكان للشريف حق أخذ جزء من محصولات الفلاح ، والزامه بطحن غلاله فى طاحونه وعصر نبيذه فى معصرته مقابل أجر كبير ، وله حق الصيد فى حقول الفلاحين غير مبال بما يلحق الزراع من الضرر بل كان يسومهم سوء العذاب اذا هم نفروا الصيد أو آذوه ، وكانت المهن (وظائف

الحكومة) وقفا على الأشراف فكان منهم السفراء وحاشية الملك والقواد والضباط فى الجيش ورؤساء الكنيسة

أما الكنيسة فلم تزل حافظة مكانتها وسلطانها فى فرنسا ، ذات ثروة هائلة تبلغ أكثر من خمس أرض المملكة لاتدفع عنها ضرائب سوى ما كانت تقدمه للملك من الهبات الاختيارية ، وكانت تجبى الأعشار من الشعب . ويتسرب الجزء الأكبر من هذا الايراد الى جيوب الأساقفة ورؤساء الأديرة . ولما كان هؤلاء من أبناء الأشراف ، جهلاء على الأكثر منصرفين الى خدمة الملك فى عاصمته منهمكين فى ملذاتهم ألقوا عبء القيام بأعمالهم الدينية على عاتق صغار القسس نظير أجور واهية ، لذلك كانت طائفة القسس ساخطة وفى حال ضنك وعلى وئام تام مع الشعب ، فلما قامت الثورة انحازت الى جانب الشعب من غير تردد

أما الشعب المعروف بالطبقة الثالثة فيشمل كل من لم تكن له صلة بالأشراف ورجال الدين ويبلغ عدده ٢٥ مليوناً فى حين أن عدد الطبقتين الممتازتين لم يزد على ٢٧٠ ألفاً وكانت أغلبية الشعب تشتغل بالزراعة ومايتفرع عنها . وبعضهم يسكن المدن ويحترف الصناعة والتجارة والفنون والعلوم ، ولما كان هؤلاء محرومين من مناصب الحكومة والكنيسة اضطروا إلى صرف همتهم فى الاشتغال بالتجارة فنمت ثروتهم بفضل جدهم واقتصادهم حتى أصبح بعضهم أثرى من الأشراف ، ولما توفر لديهم المال رغبوا فى درس العلوم والآداب فما أتى عليهم القرن الثامن عشر حتى ظهر من بينهم قواد الحركة الفكرية فى فرنسا

أما الفلاحون فقد اعتاد المؤرخون أن يصوروا حالهم بأشنع صورة فيقولون انهم كانوا تعساء مظلومين محرومين من جميع موارد الثروة . وما دعا المؤرخين إلى المبالغة فى مصائب هذه الطبقة إلا رغبتهم فى تبرير حدوث

الثورة ، وفاتهم أن الثورات لاتقوم لمجرد الظلم والعسف وان طال الأمد عليهما مادام الشعب معدما جاهلا فاقد الشعور ، وانما تثور الأمم متى تحسنت حالها المادية والأدبية فأحست بما يقع عليها من الظلم والجور والعسف وان قل ، والحقيقة ان الفلاح الفرنسى الذى قام بالثورة كان أسعد حالا من الفلاح البروسى أو النمساوى أو الايطالى فقد بقى رق الأراضى فى بروسيا مثلا الى آخر القرن الثامن عشر . وان مجرد زيادة عدد سكان فرنسا من ١٧ مليونا عقب حروب لويس الرابع عشر الى ٢٥ مليونا فى أول عهد الثورة يبرهن جليا على أن حال الشعب كانت آخذة فى التحسن وهذا سبب احساس القوم بمساوئ النظام الملكى القديم

كان الملك فى فرنسا مطلق التصرف يحكم بحق الملك الالهى ولايسأل عما يفعل ، يتصرف فى ايراد الحكومة كأنه ملكه الخاص فكان يصدر صكوكا بأى مبلغ يريد فيدفع المستخدمون قيمتها من غير سؤال ، ولم يقتصر الملك على التصرف فى مالية الدولة بل كان تصرفه يشمل أشخاص شعبه أيضا فقد كان يصدر الأوامر للقبض على من يريد والزج به فى السجن دون محاكمة ولو صورية . وتعرف هذه الأوامر « بالخطابات المبصومة » وكان الأشراف يشترونها أو يحصلون عليها من الملك لقضاء مآربهم من أعدائهم

ولما كان يستحيل على فرد القيام باعباء الحكومة كان يعاون الملك وزراء ومستخدمون عديدون يتألف منهم مجلس خاص يعينه الملك لاستشارته فى الأحوال المهمة ، ثم البرلمانات وهى فى فرنسا عبارة عن هيئة المحاكم العليا وأهمها برلمان باريس

وكان لهذه الهيئة حق الفصل النهائى فى القضايا الهامة وحق تسجيل القوانين التى يصدرها الملك وحق ابداء ملاحظات على القوانين التى تخالف

المصالح العامة ، وكان للملك أن يقبل التعديل او يرغم البرلمان على تسجيله كما هو . وقد تعددت حوادث المشادة بين البرلمان والملك ووزرائه في أثناء القرن الثامن عشر الى حد أن جرأ البرلمان على اصدار احتجاجات على القوانين التي لا يوافق عليها وتوزيعها على الشعب ، فاستنارت بذلك بصائر الأمة وعرفت أن لها حقوقا أساسية هي فوق تصرف الملك

أسباب قيام الثورة

ومما سبق يظهر أن الثورة الفرنسية لم تكن انفجاراً فجائيا ضد الظلم ، بل نتيجة طبيعية لأسباب مختلفة اجتماعية واقتصادية وأدبية وسياسية ، فان المساوىء العديدة للحكم الفردى فى فرنسا الذى يتمثل فى حكم لويس الرابع عشر ، والاضرار التى لا تحصى وحاقت بالتجارة والصناعة والزراعة من جراء الحروب المستديمة ، والاعباء المالية التى أثقلت بها الحكومة والاشراف والكنيسة عاتق الشعب ، والاضطهادات الدينية ، والحكومات الغشومة التى جاءت بعد لويس الرابع عشر — كل هذه مضافا اليها الأفكار الجديدة عن حقوق الانسان ومصالحه ، سببت الانفجار الرهيب لسخط الشعب — ذلك الانفجار الذى أعلن ألا تبقى الأكثرية عبيداً للأقلية

أما السبب المباشر الذى جر الى الثورة الفرنسية فهو سوء الحال المالية ومحاولة اصلاحها . فقد كانت فرنسا عند موت لويس الخامس عشر فى سنة ١٧٧٤ على شفا الأفلاس بسبب ما خسرته من المستعمرات والأموال فى الحروب التى زج بنفسه فيها ، فلم تكن هناك مسألة أحرى أن تشتغل بها الحكومة من اصلاح الحال المالية إذ بلغ مقدار العجز ١٤ مليونا من الجنيهات سنويا على وجه التقريب . فلما تقلد الحكم لويس السادس عشر وكان ملكا طيب القلب يريد الاصلاح ما استطاع اليه سبيلا ، عجل بدعوة « ترجوت »

أكبر اقتصادى فى فرنسا وعينه مراقبا عاما ؛ وكان ترجوت قبل ذلك عاملا للملك فى بلدة « ليموج » حيث مكث ثلاث عشرة سنة درس فى خلالها حال الشعب الاقتصادية ورأى بعينه فداحة الضرائب ، فلما تولى أمر المالية استبشر الناس باصلاح عاجل . وأشار « ترجوت » باستعمال الاقتصاد وفكر فى تقليل اعتماد حاشية الملك ، فلم يستطع الملك موافقته لتأثره العظيم بآراء الحاشية ، وغاية ما نفذه من الاصلاح هو إلغاء بعض القوانين التى كانت تقيد تجارة الغلال داخل فرنسا معلنا أن حرية التجارة أهم ضمان لمنع وقوع المجاعات ولكنه عزل سنة ١٧٧٦

وعين بدله « نكار » فزاد فى ارتباك الحال المالية بسبب القروض التى عقدها لشد أزر الحكومة فى مساعدة الولايات المتحدة فى حرب استقلالها . غير أنه إلى جانب ذلك كان أول وزير قدم ميزانية مفصلة وتقريراً عن الحال المالية فى فبراير سنة ١٧٨١ فلما انتشر التقرير بين الناس علم الشعب لأول مرة مقدار ما تجبيه الحكومة ومقدار ما يصرفه الملك على حاشيته ، فعزل « نكار » وتولى « كالون » ١٧٨٣ وكان فى أول أمره محبوبا لدى الملك وحاشيته لأنه لم يقتر عليهم ولكن سرعان ما نفد مال الخزانة وتحتم إيجاد أموال أخرى إما بعقد قروض جديدة وإما بزيادة الضرائب ، فأما القروض فلم يكن من المستطاع تبريرها والبلاد فى سلم وأما زيادة الضرائب على الشعب فلم يكن ليجرأ على احتمال مسئوليتها وحده ، فلم يسعه إلا أن يعلن للملك فى أغسطس سنة ١٧٨٦ أن المملكة مشرفة على الافلاس وانه لا نجاة لها إلا باصلاح كلى ، واقترح أن يرغم الاشراف ورجال الدين على دفع الضرائب وأن تلغى الجمارك الداخلية كلية ، وأن تعدل ضريبتا الملح والخراج

فدعا الملك مجلس الاعيان وكبار المستخدمين فعرض « كالون » عليهم

اقتراحاته فرفضوا قبولها فعزل الملك « كالون » سنة ١٧٨٧ وتولى العمل بنفسه فوضع ضرائب جديدة ٠ فلما عرضت على البرلمان أبى تسجيلها معلنا أن ليس لأحد حق الموافقة على وضع ضريبة ثابتة غير الأمة الممثلة فى جميعتها العمومية ، والتمس من الملك عقد هذه الجمعية فلم يجد الملك مندوحة عن إجابة طلب البرلمان فأصدر دعوة لعقد الجمعية العمومية أول مايو سنة ١٧٨٩

الجمعية الوطنية

لم يكن أحد ليعلم عن الجمعية العمومية شيئاً لأنها لم تعقد منذ سنة ١٦١٤ وعلى ذلك اضطر الملك إلى تعيين عدد من الباحثين للتنقيب عن نظام وتقاليد هذه الجمعية

كانت الجمعية مؤسسة على النمط الاقطاعى فكان لكل طبقة ممثلون متساوون فى العدد يدافعون عن مصلحة طبقتهم الخاصة وكانوا يجتمعون على حدة ولهم صوت واحد يعبر عن رغبة الطبقة التى يمثلونها ، فلما علم الشعب بهذا النظام استنكره لأنه يخول الطبقتين الممتازتين المتحدتى المصالح ضعف عدد ممثلى الشعب وصوتين مقابل صوت واحد ٠ فطلب « نكار » — وكان الملك قد اضطر الى استدعائه للعمل ثانيا — أن يكون للطبقة الثالثة من النواب بقدر ما للطبقتين الأخريين أى ٦٠٠ عضو فقبل الملك ذلك ولكنه لم يوافق على اجتماع ممثلى الطبقات الثلاث فى مكان واحد

ونجم عن اشتغال القوم بأمور الجمعية أن انتشرت عدة رسائل سياسية بأيدى الناس وظهرت أيضا كراسات التظلم المعروفة « بالكايه » التى حوت كثيراً من المظالم وطرق إصلاحها وكثيراً من رغبات الشعب وأمانيه ، وأهم ما جاء فى هذه الكراسات أن تكون الحكومة ملكية مقيدة وأن تجتمع الجمعية العمومية من آن لآخر للشورى . ولم يرد فيها ما ينم عن كره الشعب للملكية أو للأسرة المالكة

ولما انعقدت الجمعية العمومية فى ٥ مايوسنة ١٧٨٩ اصر نواب الطبقة الثالثة — على الرغم من ارادة الملك — على دعوة نواب الطبقتين الممتازتين للاجتماع معهم والمداولة معاًفى شئون الأمة فأجاب هذه الدعوة أفراد قلائل من الاشراف مثل « لافايت » وعدد عظيم من رجال الدين ، فى حين أن الطبقتين بهيئتهما رفضتا الدعوة . فلما علم نواب الشعب بذلك أعلنوا أنهم هم « الجمعية الوطنية » وكان ذلك فى ١٧ يونيه

وانتهز النواب فرصة بعدهم عن قاعة الاجتماع التى كانت تعد للاجتماع الرسمى ، وتعاقدوا فى « ملعب كرة التنس » بألا يتفرقوا حتى يرسموا للامة نظاماً أساسيا تاما .

ولما اجتمع ممثلوا الطبقات لسماع خطبة العرش ، وأمر الملك أن ينصرف نواب كل طبقة إلى قاعتهم بقى نواب الشعب فى أماكنهم ومعهم نصف ممثلى رجال الدين ونفر من الاشراف ، فلما شدد أمين الملك فى لزوم الانصراف تصدى له « ميرابو » أقوى النواب شخصية وقال « نحن هنا بأمر الامة ولن نفارق مكاننا إلا بأطراف الاسنة » فلم يسع الملك إلا الرضاء بالواقع وأمر نواب الاشراف والكنيسة بالانضمام إلى نواب الشعب وأصبحت الجمعية الوطنية بذلك قانونيه .

ولكن وقعت حوادث فى باريس قطعت على الجمعية الوطنية عملها . ذلك أن العامة استشاطوا غضبا لما علموا بعزل « نكار » وكان محبوبا لديهم وباستدعاء بعض جنود الحرس ، فأوجسوا خيفة ظنا منهم أن الملك يريد استرجاع العهد الماضى وتحمست الجماهير وتسلحت عصابات منهم للدفاع عن أنفسهم ويمموا حصن « الباستيل » واستولوا عليه وهدموه وأطلقوا سراح بضعة المسجونين الذين كانوا به وكان ذلك فى ١٤ يوليه ومن ذلك الوقت صار هذا اليوم من أجل أعياد الامة الفرنسية

ونتج من الحركة أن تألف الحرس الوطنى برياسة « لافايت » وعدل نظام بلدية باريس وعين لها رئيس من أعضاء الجمعية الوطنية وأقر الملك كل ذلك . وقد جارى باريس فى عملها هذا مدن الاقاليم وانتشرت الفوضى فى جميع أنحاءفرنسا فتكونت جمعيات قروية فى كل مكان قررت عدم دفع المكوس القديمة للأشراف وبدأ الناس يحرقون قصورهم لتندرس سجلات عبوديتهم ، ومن ذلك الوقت أخذ الاشراف يهجرون فرنسا

ولما بلغت هذه الحوادث مسامع الجمعية الوطنية بدأت تعمل بجد فأصدرت قانونا بالغاء بقية نظام الاقطاع بعد أن تنازل كثير من الاشراف طوعا عن هذه الحقوق ، ثم ألغت الجمعية حق الكنيسة فى تحصيل العشور وفرضت ضرائب على جميع الفرنسيين من غير تمييز وأعلنت أن لكل فرنسى الحق فى مناصب الحكومة وأن تزال جميع الفروق والامتيازات التى كانت سائدة فى الاقاليم ، وأن تخضع كل فرنسا لقانون واحد وأن تمحى الاقسام القديمة ويستعاض بها أقسام ادارية متقاربة المساحة تسمى بأسماء ما يجاورها من الأنهار والجبال وغيرها من المظاهر الطبيعية

ثم أصدرت الجمعية مرسوما تاريخيا مهماً مقتبسا من آراء روسو السياسية وآراء المفكرين الأمريكيين يعرف باسم « حقوق الانسان » ذكرت فيه أن الناس سواء فى الحقوق والواجبات وأن القانون عبارة عن أرادة الشعب وأن لكل فرد الحق فى الاشتراك بشخصه أو بواسطة نائبه فى سن هذا القانون وأنه لا يجوز اتهام شخص أو القبض عليه أو محاكمته إلا بمقتضى القانون وأن لكل شخص حق الحرية الفكرية والدينية ما دام تمسكه بذلك الحق لا يعارض الصالح العام

ولما عرض مرسوم حقوق الانسان على الملك تردد فى الموافقة عليه ، وذاعت الاشاعات ثانيا بين العامة أن الملك قد أثرت فيه رغبات حاشيته

وانه يجهز جيشا للقضاء على حركة الاصلاح ، وزاد سخط العامة أن السنة كانت مجدبة وأن الجوع والعطل كانا منتشرين فسار العامة — وأكثرهم من النساء — فى اكتوبر قاصدين قصر « فرساى » يطلبون الخبز من الملك فدخلوا القصر وكاد بعضهم يدخل على الملك والملكة لولا وصول « لافايت » والحرس الوطنى فى الساعة الاخيرة فاقتنع الملك بالانتقال الى قصر « التويلرى » بباريس وتبعته الجمعية الوطنية اليها

ولقد كان لانتقال الملك والجمعية الى باريس نتائج سيئة وذلك لقربهم من عامتها الذين كانوا رهن اشارة المهيجين من محررى الصحف وأعضاء الاندية السياسية التى انتشرت بكثرة منذ انعقاد الجمعية ، وأهم هذه الأندية المتطرفة « نادى اليعقوبيين » — وكان له فروع كثيرة فى الاقاليم — الذى كان يضم بين أعضائه مئات من أعضاء الجمعية ، وكانت تقرر فيه الخطط والمشروعات قبل تقديمها للجمعية

ومن أهم المشروعات التى أقرتها الجمعية الاستيلاء على أملاك الكنيسة وتقليل عدد أساقفتها وتعديل نظامها بحيث أصبحت الحكومة هى المسئولة عن اقامة الشعائر الدينية وصرف مرتبات القسس ، وصار تعيين القسس والاساقفة بالانتخاب وحتم على رجال الدين أن يقسموا يمين الطاعة والاخلاص لهذا النظام فغضب لهذه التصرفات كبار رجال الدين لاسيما بعد أن حرم عليهم البابا هذه اليمين وغضب معهم كثير من المخلصين للكنيسة والمحافظين ، فاشتطت الجمعية فى معاملة مخالفيها حتى أحرجت بذلك مركزها فى نظر الملك والامة

إلا أن ذلك لم يحل دون مضى الجمعية فى وضع النظام الاساسى الذى اجتمعت من أجله ، وأهم نقطة جعل القوة التنفيذية خاضعة للقوة التشريعية ووضع هذه فى يد مجلس واحد يسمى « الجمعية التشريعية » ينتخب الشعب أعضاءها لمدة سنتين ، وقد حاول « ميرابو » — أكبر أنصار الملكية المعتدلين —

استبقاء القوة التنفيذية فى يد الملك فلم يفلح ، وبموته فى سنة ١٧٩١ فقد الملك أكبر سياسى موال للملكية وانقضى دور التروى والاصلاح وتلاه دور التطرف : فعول الملك على الهروب ولكن كشف أمره عند بلدة « ڤارن » فى يونيه سنة ١٧٩١ فقاده العامة الى باريس ووافق الملك على النظام الجديد وأعلنت الجمعية انتهاء مهمتها وانحلالها

انحلت الجمعية الوطنية بعد أن قضت على العهد القديم وبعد أن وضعت من مشروعات الاصلاح ماابتهجت به الامة ، إلا انه هاجر من فرنسا كثير من كبار الاشراف برياسة أخى الملك الكونت « ارتوا » الذى مالبث أن الف جيشا على حدود فرنسا وأظهر استعداده للعمل مع النمسا وبروسيا لمحاربة الثورة فى بلاده واعادة النظام القديم ، ويعرف هؤلاء الاشراف فى تاريخ فرنسا « بالمهاجرين » . وكان من جراء ذلك أن سخط الناس على الاشراف واشتبهوا فى اشتراك الملكة معهم سراً ، وزاد سخطهم لما علموا أن الامبراطور « ليوبولد الثانى » أخا الملكة « مارى انتوانت » دعا ملوك أوربا للاتفاق معهم بشأن طرق استرجاع حرية وشرف ملك فرنسا وقمع الثورة ، وفى أغسطس سنة ١٨٩١ تقابل الامبراطور وملك بروسيا فى «بلنتز» وأصدرا منشورا يعلنان فيه أنهما مستعدان للاشتراك مع غيرهما من الملوك لتمكين ملك فرنسا من تكوين حكومة تتفق مع الملكية وحقوقها ، ولما علم الفرنسيون بالمنشور زاد كرههم للاشراف وللملكية وأضر المنشور بقضية لويس السادس عشر أيما اضرار

الجمعية التشريعية

انتخبت هذه حسب القانون الجديد وانعقدت يوم انفضاض الجمعية الوطنية التى حدابها الكرم والتضحية الى تحريم دخول أعضائها فى الجمعية الجديدة

وانبنى على ذلك أن مشرعى فرنسا كانوا خلوا من كل ماله علاقة بالتشريع وقد زاد الطين بلة أن أكثرهم من الشبان المتحمسين الذين نالوا العضوية بفضل خطبهم فى الاندية اليعقوبية .

ولم يشك أكثر الفرنسيين — بعد أن أرغموا الملك على اعلان الحرب على النمسا — ان انتصارهم سهل محقق وتخيلوا أن عروش المستبدين تريد أن تنقض بمجرد تصادمها بالافكار الثورية ، وأن الامم تقابلهم مهللة مستبشرة بقدوم رسل الحرية والانسانية فلا تسل عن غيظهم يوم علموا أن الجنود الفرنسية التى لم تنظم بعد ، ما واجهت جيوش الاعداء حتى ولت الادبار ولم تجرأ على الوقوف للقتال . وبذا أمكن النمسا وبروسيا أن تبدآ غزو فرنسا فى الصيف التالى

وما ذاع هذا الخبر حتى ملأ الرعب قلوب الباريسيين فهمسوا « الخيانة الخيانة ! » ومالبث خطباؤهم انجاهروا بان الملك هوسبب الهزائم الفرنسية وكان كلما قرب البروسيون من باريس زاد الغضب والهلع حتى اذا سمعوا بأن « الدوق برنزويك » القائد البروسى قد نشر اعلانا سخيفا توعد فيه كل من مس شعرة من رأس الملك ، لم يبق فى قوس الصبر منزع . فدبر رؤساء اليعاقبة — وأهمهم اذ ذاك « دانتن » — هجوم العامة على قصر التويلرى لاسقاط الرجل الذى زعم خطباؤهم أنه محالف لاعداء فرنسا

ولو أن الملك أراد الدفاع عن نفسه لوجد فى حرسه السويسرى رجالا أشداء فى قدرتهم أن يقاوموا طويلا ، ولكنه لم يكن من الرجال الذين تحركهم عوامل الشهامة والبأس . بل كان عزمه الاكيد — ان كان فى استطاعة مثله أن يعزم — الا يراق دم فرنسى من أجله فى حرب داخلية . فلما رأى العامة قد أحدقوا بالقصر يريدون الهجوم فى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ تركه ولجأ الى الجمعية . ومع علم الحرس بانخذال سيدهم عنهم ، قاوموا مقاومة الابطال

حتى صدر اليهم أمر الملك أن يسلموا القصر ففعلوا ثم حاولوا التقهقر فتكاثر عليهم العامة وذبحوهم فى الطرقات

وبدل أن تحمى الجمعية لويس انقادت لرأى الرعاع فوقفت الملك وقررت انتخاب مؤتمر وطنى بالاقتراع العام للنظر فى وضع نظام سياسى جديد . أما الجمعية فرأت أن تبقى الى أن ينعقد المؤتمر . وبذا امحى النظام الذى لم يعش أكثر من عشرة أشهر بعد أن نادى أنصاره انه خلاصة الذكاء البشرى

وتلا ذلك مذابح شائنة حرضت عليها بلدية باريس ، وكانت إذ ذاك فى قبضة اليعاقبة ورؤسائهم « دانتن ومارا وروبسبيير » ، فزج فى السجن ألوف الابرياء بتهمة الخيانة وقتل نحو ١٥٠٠ من هؤلاء لارهاب مخالفى اليعاقبة « حزب الجبل » فى الآراء ، وتعرف هذه الفترة (الاسبوع الأول من سبتمبر سنة ١٧٩٢) « بالارهاب القصير » ولكنهم مقابل ذلك قاموا بخدمة للوطن وهى اصلاح حال الجيش بتجنيد الرجال وتدريبهم وتحويل جهد الامة الى الاستعداد الحربى وبذا تمكن الفرنسيون من الوقوف أمام العدو عند « فالمى » ، وتقهقر البروسيون لاهتمام ملكهم بمسألة تقسيم بولندة للمرة الثانية (سبتمبر سنة ١٧٩٢) ، فزال الخطر المحدق بالبلاد

الجمهورية الاولى وحكومة المؤتمر الوطنى

اجتمع المؤتمر فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وألغى الملكية وأعلن الجمهورية واضطره حزب الجبل الى النظر فى قضية الملك فاتهم بالخيانة لتشجيعه أعداء فرنسا على مهاجمتها ، فحوكم وثبتت ادانته فحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم فى ٢١ يناير سنة ١٧٩٣

وقد أحدث اعدام الملك هزة فى أنحاء أوربا فزاد كره الملوك لفرنسا ومج الناس تصرفات الثوار ، وهددت فرنسا محالفة أوربية عامة فقبلت

حكومتها النزال وأعلنت للشعوب استعدادها لتحرير من يريد التخلص من نير الاستعباد ثم أعلنت الحرب على انجلترا وهولندة ثم على اسبانيا ، واشتركت النمسا فى الحرب التى أصبحت عامة فأمست فرنسا فى خطر داهم يتهددها من كل ناحية وأصبح من الواجب توجيه كل قوة البلاد الى الحرب كما كانت الحال فى سنة ١٧٩٢

وبدأت الحرب بانهزام الفرنسيين أمام جيوش النمسا فقرر المؤتمر أن يقوم بشئون الحكومة لجنة من تسعة أعضاء تسمى « لجنة الأمن العام » . وما لبثت أن زادت العداوة بين الحزبين — حزب الجيروند وحزب الجبل — وحمى وطيس الجدال بينهما وكان حزب الجيروند جمهوريا معتدلا كثير التعلق بالنظريات تعوز أعضاءه المقدرة العملية ، أما حزب الجبل فكان جمهوريا متطرفا لا يحفل بالنظريات كثيراً وكان من مذهبه وضع سلامة الوطن فوق كل شيء حتى فوق الحرية الشخصية فأغرى العامة بمعاكسة أعضاء حزب الجيروند فكانوا يدخلون المؤتمر ويصيحون بسقوط رؤساء ذلك الحزب وبذلك تمكن الجبل من القبض على واحد وثلاثين من زعماء الجيروند وحبسهم ، فخلا له الجو وتمادى فى تصرفاته

وكانت هذه الفعال الشائنة قد أثارت خواطر كثير من الفرنسيين فقام الفلاحون فى قسم « لافنديه » فى برطنية ينادون برجوع الملكية ، وقام التجار والطبقة الوسطى فى مدن بردو وليون ومرسيليا وطولون وغيرها من المواطن التى كان يسود فيها نفوذ الجيروند فاشتعلت نار الحرب الاهلية وكادت تلتهم جميع فرنسا فى حين أن جيوش الاعداء كانت تهدد سلامة الوطن ولولا ما اتخذه حزب الجبل من التدابير الصارمة فى قمع الثورات الداخلية وأخذ العدة بكل حزم وبأس فى رد الاعداء لقضى على فرنسا والثورة

والرجل الذى يرجع اليه الفضل فى انقاذ فرنسا من اكبر خطر تهددها فى أثناء الثورة هو «كارنوت» العضو الفنى الحربى فى لجنة الامن العام . فانه نظم جيوش الجمهورية وانتخب لها أذكياء الشبان فتمكن الجيش الفرنسى من أخذ الاراضى المنخفضة النمسوية وضمها الى فرنسا ، ثم دخل هولندة وغير نظامها الى جمهورية على النمط الفرنسى وسميت « الجمهورية البتافية » سنة ١٧٩٥ ، وكانت نتيجة هذه الانتصارات أن انفصلت بروسيا واسبانيا عن المحالفة وعقدتا صلح «بازل» سنة ١٧٩٥ ، فلم يبق أمام فرنسا الا انجلترا والنمسا

حكم الارهاب (يونيه ١٧٩٣ — يونيه ١٧٩٤) ان أضمن طرق الدفاع أن تكون السلطة التنفيذية قوية ، ولذا أسند المؤتمر الحكومة الى « لجنة أمن عام » جديدة من اثنى عشر رجلا ، خولهم سلطة تكاد تكون مطلقة ، وكان « روبسبيير » أقوى أعضاء اللجنة فلذا كان حكم الارهاب مقرونا باسمه دائماً ، بقى بعد ذلك تنظيم الطريقة التى بها يرهب كل من عادى حزب الجبل . وللوصول الى هذه الغاية سن « قانون المشبوهين » الذين خول لأولى الامر أن يسجنوا كل من اشتبه فى أفكاره السياسية وبفضل هذا القانون الجائر غصت السجون حتى اضطروا إلى تفريغها فأقاموا لذلك «محكمة الثورة» لمحاكمة المسجونين بسرعة ، وقد اتبعت شبه المحاكمة فى أول أمرها ولكنها لما كثر عليها العمل تركت كل قيد قانونى حتى صارت تستدعى المشبوهين زرافات وتحكم عليهم بالاعدام بدون محاكمة ، اللهم إلا التفوه بأسمائهم . وعند ذلك يحمل هؤلاء الى ميدان واسع معروف باسم « ميدان الثورة » غاص بالمتفرجين الذين يحضرون كل يوم ليشاهدوا أحسن منظر يروقهم ، وهو تساقط الرءوس تحت المقصلة أو « الجلوتين »

وبعد ابتداء الارهاب بقليل سقط رجل من أكبر زعمائه وهو «مارا» محرض أخس رعاع باريس ، والذى استفز غضب فتاة جميلة عالية الاخلاق من نورمندية وهي « شارلوت كورداى » فصممت على تخليص بلادها منه فطعنته وهو بمنزله فخر صريعا ، ومن الذين ذاقوا الموت الزؤام أيام الارهاب الملكة « مارى انتوانت » التى حوكمت فى اكتوبر سنة ١٧٩٣ ، ومع انه لم توجد ضدها تهمة ثابتة حكم عليها بالاعدام

وبديهى أن مثل هذه الشدة لاتدوم وأن أعوانها لابد أن ينشقوا على أنفسهم عاجلا أو آجلا ، فيهلك بعضهم بعضا كما اجتمعوا من قبل على اهلاك مخالفيهم ، وقد بدت علامات التفرق بين زعماء الارهاب فى خريف سنة ١٧٩٣ فان أكثر الاحزاب تطرفا الذى نال السلطة بنفوذه على العامة واستيلائه على بلدية باريس قام يرأسه رجل يسمى « هبرت » ونادى باحتقار الدين الكاثوليكى لانه دين الاشراف وألزم البلدية أن تغلق جميع الكنائس الكاثوليكية وأن تقيم « دين العقل » فأثار ذلك غضب كثير من المخلصين لدينهم ، وانتهز روبسبير هذه الفرصة لاهلاك الفئة التى كانت تنقم على استبداد حكومته وانتهى الامر بأن ساقت لجنة الأمن العام « هبرت » وأتباعه الى المصقلة ، وتلا ذلك مرت « دانتن » ولكن لسبب مخالف بالكلية وذلك أن دانتن — أكبر رجل شيد حكم الجبل وخلص فرنسا بفضل عزمه وحسن سياسته من أزمة بعد أزمة ، ولا سيما تخليصها من البروسيين فى سنة ١٧٩٣ — رأى أن الارهاب زاد عن حده وساءه سفك الدماء بلا انقطاع فرفع صوته يسترحم روبسبير فلم يفهم هذا الاخير من المناداة بالرحمة الا الخيانة وساقه الى الموت لاعتداله فى ٥ ابريل سنة ١٧٩٤

وبموت « دانتن » تخلص روبسبير من آخر منافسيه فصار حاكما مطلقا لان اليعقوبيين والبلدية والمؤتمر ولجنة الامن كانوا جميعا فى قبضته

كما يدل على ذلك طاعتهم لمجرد إشارته ، فمن ذلك أنه استخلص من المؤتمر قراراً باتباع دين جديد فألغى المؤتمر عبادة العقل وقرر أن الأمة الفرنسية تعتقد بوجود الكائن الاعظم ، وبخلود الروح ، وفى شهر يونيه سنة ١٧٩٤ أقيمت هذه الديانة باحتفال عظيم وكان روبسبير هو القسيس الأكبر ، وبعد ذلك جرد محكمة الثورة مما بقى لها من الشكل القانونى وبدأ الاعدام فى باريس بالجملة لا تنجى منه خدمة الحكومة ولا التطوع فى الجيش ، وأصبح الخوف شاملا جميع الطبقات حتى أعضاء المؤتمر كانوا غير آمنين على حياتهم ، فتآمر أعداء روبسبير عليه وكان فى قدرته أن يتغلب عليهم بفضل أتباعه الكثيرين ولكنه فضل المحاورة حتى أصدر المؤتمر أمراً بطرده خارج القانون (٢٧ يوليه سنة ١٧٩٤) وأعدمه فى اليوم التالى

ولما تخلص المؤتمر من روبسبير ومن خطر الغزو الاجنبى بدأ يطهر فرنسا من أدران الارهاب فالغى محكمة الثورة وقفل أندية اليعقوبين وحل بلدية باريس ، وواصل مهمته الاولى التى انتخب من أجلها وهى وضع نظام أساسى للجمهورية ، ولما تم وضع النظام ولم يبق الانشره قام العامة يقودهم اليعقوبيون والملكيون فى ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥ وحاولوا الهجوم على المؤتمر فعهد هذا فى أمر اخضاع الثورة الى ضابط شاب ما كان منه الا أن قابل العامة برشاش متواصل من رصاص مدافعه فقضى على الثورة فى مهدها ، ومن ذلك العهد تأكد العامة أنه لا طاقة لهم بمقاومة المدافع وأن قوتهم التى طالما هددوا بها الحكومات فى السنين الست السابقة أصبحت لا قيمة لها ومن هذا يتبين أن ظهور ذلك الضابط الشاب العبقرى وهو «نابليون بونابرت» وجنوده على مسرح الثورة بدأ عصراً جديداً

ثم انحل المؤتمر فى ١ اكتوبر سنة ١٧٩٥ بعد أن أعلن نظام الجمهورية الجديد : وبمقتضاه وضعت القوة التنفيذية بيد خمسة أعضاء يدعون «المديرين»

أما القوة التشريعية فوكلت الى مجلسين أحدهما يسمى « مجلس الخمسمائة » والآخر يسمى « مجلس الشيوخ » ويشترط فى أعضائه ألا تقل سن أحدهم عن أربعين سنة

حكومة الادارة

لما عهد الامر إلى حكومة الادارة صمم « كارنوت » أحد أعضائها الخمسة على سحق أعداء فرنسا الذين لم يشتركوا فى صلح بازل وهم انجلترا والنمسا ، أما انجلترا فرأى أن السبيل اليها محفوف بالخطر ، لذلك جمع قوته كلها ضد النمسا فنظم جيشين عظيمين يقودهما « جوردان ومورو » لغزو ألمانيا ، وجيشا ثالثا يقوده « نابليون بونابرت » لغزو إيطاليا . وكانت مهمة نابليون تنحصر فى استلفات نظر النمسا إلى الميدان الطليانى حتى يتمكن « جوردان ومورو » من التوغل فى المانيا . فلما عبر جبال الالب وجد أمامه جيشا من البيدمنتيين وآخر من النمساويين وكانا أضعاف جيشه . فرأى أن نجاحه يتوقف على سرعة التنفيذ وفصل أحد الجيشين عن الآخر، فوصل « تورين » عاصمة بيدمنت على غير انتظار وأجبر ملك سردانيا (بيدمنت) على عقد صلح فى مايو سنة ١٧٩٦ من شروطه التنازل عن نيس وسافوى لفرنسا ، بعد ذلك وجه نابليون جيشه نحو النمسا فدخل « لمباردية » وطرد الحاميات النمساوية التى كانت بقلاعها . وليس فى تاريخ الحروب فصل أجل وأبهر من حروب نابليون ضد القوات النمساوية المرابطة فى حصون سهل لمباردية ، وإن حصاره حصن « منتوا » ليبقى أثراً خالدا لعبقريته الحربية

وقد هزم النمساويين بعد ذلك فى « ريفولى » و « أركولا » ثم عبر جبال الالب قاصدا فينا ، فاضطر الامبراطور « فرنسيس الثانى » الى عقد صلح « كامبوفورميو » سنة ١٧٩٧ وبمقتضى هذا الصلح تنازلت النمسا عن الاراضى المنخفضة النمساوية (بلجيكا) واعترفت بما عمله نابليون فى إيطاليا من تكوين

جمهوريات تحت حماية فرنسا ووعدت بأن تسعى لدى المجمع الالمانى (الدياط) لجعل نهر الرين الحد الشرقى لفرنسا ، وفى مقابل ذلك كله أخذت النمسا جزءا كبيرا من جمهورية البندقية

وحينما كانت مفاوضات الصلح دائرة بين نابليون والنمسا ، أسرع أمراء ايطاليا الى استرضاء القائد الفرنسى والاحتفاء به وتقديم الهدايا الفاخرة له وكان نابليون قد جمع حوله حاشية تفوق فى جلالها ورونقها حاشيات الملوك ومالبثت أن تكونت جمهوريات صغيرة على النمط الفرنسى وتحت حماية فرنسا أهمها جمهورية « سيسالبين » (أى الجانب الطليانى من الالب) وتشمل هذه الجمهورية ميلان وجزءا كبيرا من سهل لمباردية ، وجمهورية «ليغوريا » حول جنوة ، أما جمهورية البندقية فقد ضحاها نابليون ارضاء للنمسا التى استولت على الجزء الاكبر من أملاكها وضم نابليون الجزء الباقى لجمهورية سيسالبين ، فلما عاد نابليون الى فرنسا استقبله الشعب استقبال البطل الفذ ، إذ لم يسبق لملك من ملوك فرنسا ان أحرز لها من النصر والفتح والفخار ما أحرزه نابليون بونابرت

الفصل الثالث عشر

نابليون بونابرت

(١٧٩٥ — ١٨١٥)

لا يكاد نابليون يكون فرنسى التبعة لأنه طليانى الأصل واللغة ، ولأنه ولد بجزيرة قرسقة فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ وهذه الجزيرة لم تتبع فرنسا إلا قبل ذلك التاريخ بسنة واحدة . وقد ذهب إلى فرنسا مع والده وعمره عشر سنوات ، وبعد أن تعلم اللغة الفرنسية أدخله والده المدرسة الحربية فى «بريين» ثم فى باريس حيث بقى ست سنوات حتى أتم دراسته وعين ضابطا سنة ١٧٨٥ . ولما كان فقيراً غير معروف عند أولى الشأن لم يطمع فى رقى سريع . لذلك اشتغل بشئون جزيرة قرسقة السياسية ومضى جزءاً كبيراً من وقته بها ، طمعا منه فى اغتصاب السلطة . ولكنه لم ينجح وأبعدته الحكومة هو وأهله عن قرسقة سنة ١٧٩٣ فاستوطنت الأسرة فرنسا وكسب نابليون لنفسه شكر الإدارة بسبب خدماته السابقة الذكر فعين قائداً للجيش الزاحف على إيطاليا سنة ١٧٩٦ كما تقدم ، ولم يكن عمره حينئذ إلا سبعا وعشرين سنة . وكان هذا التعيين فاتحة نصر وعظمة قلما أتى التاريخ بمثالها

كان نابليون قصير القامة متوقد العينين سريع الحركة والكلام واسع الخيال عظيم الآمال ، على أنه كان يعرف ما يمكن عمله ويتقن دقائق كل موضوع تناوله ، وكانت له مقدرة كبيرة على تحمل المتاعب ، واذا عزم على

نيل غرض لم يصده عنه اعتبار مادى أو أدبى . وانما ارتقى الى تلك المنزلة العالية بفضل عبقريته الحربية وما كانت عليه أوربا فى عصره من التفكك والضعف

الحملة الفرنسية على مصر

(١٧٩٨ — ١٨٠١)

عاد نابليون من صلح «كامبو فورميو» وهو بطل فرنسا الوحيد تجول بفكره اطماع يرى أن الوقت لم يحن لتنفيذها ويخاف إن بقى فى باريس أن تنسى اعماله ويخمل ذكره ، فأخذ يومىء إلى الإدارة ان أحسن طريق ممكن لقهر انجلترا هو الاستيلاء على مصر وتجارة البحر الأبيض المتوسط حتى تفصل انجلترا عن مستعمراتها الشرقية ، وحتى تستعيض فرنسا باستيلائها على مصر مافقدته من المستعمرات . فكر نابليون فى ذلك ليجد عملا يزيد فى شهرته ولانجذابه المغناطيسى نحو الشرق ورغبته فى التمثيل باسكندر الأكبر وليضطر حكومة الادارة فى فرنسا أن تستنجد به وبمن معه من كبار الضباط إذا هى دخلت حربا أوربية

وفى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ أقلعت العمارة البحرية سراً من طولون بنحو أربعين الف جندى قاصدة مالطة ، وبعد الاستيلاء على هذه الجزيرة يممت الاسكندرية فوصلت إليها أول يوليه سنة ١٧٩٨ بعد أن أفلتت من رقابة «نلسون» أمير البحر الانجليزى المنوط بمراقبة حركاتها . وأهم سبب فى النجاة أن نلسن كان يجهل غرض الحملة ولم يخطر بباله تعريج الفرنسيين على مالطة ، فلما علم بقيامهم من طولون قصد الاسكندرية مباشرة فلم يجدهم فارتد على عقبه يبحث عنهم فأخطأهم

ولما استولى نابليون على الاسكندرية سار قاصداً القاهرة عن طريق

دمنهور وشبراخيت وانبابة وهزم المماليك فى عدة مواقع كانت الحاسمة وآخرها واقعة « الاهرام » أو « انبابة » فى ٢١ يوليه . فدخل بعدها القاهرة وأخذ ينظم الحكومة وقسم من معه من العلماء الى فرق اختصاصية تبحث كل فرقة فى موضوع له علاقة بمصر والمصريين قديما وحديثا . وبينما نابليون يمنى نفسه باتمام فتح الشرق والقضاء على قوة انجلترا ، إذ داهمه خبر مريع ينبىء أن نلسون عاد الى الشواطىء المصرية ودمر كل العمارة الفرنسية فى « واقعة النيل أو أبوقير البحرية » أول اغسطس وبذلك انقطعت المواصلات بين نابليون وفرنسا فاصبح محصوراً فى مصر . ولعلمه بقيمة هذا الخطر أخفى الخبر عن جنده

بعد ذلك سمع أن الدولة العثمانية تعد جيشا لاسترجاع مصر ، فعزم على مداهمتها فى الشام ، فقام بجيش صغير يبلغ اثنى عشر ألفا ، وأخضع الجزء الجنوبى من فلسطين وأخذ يافا ثم وقف أمام حصن عكا حيث تمكنت الحامية من إطالة المقاومة بفضل المساعدة التى أمدها بها القائد البحرى الانجليزى « السير سدنى سمث » على أن نابليون هزم الجيش المرسل لرفع الحصار فى واقعة « جبل تابور » إلا أن تفشى الكوليرا فى جيشه وتخوفه على مصر دعاه إلى رفع الحصار ، فعاد إلى مصر وهزم الجيش العثمانى الذى أرسل بحراً فى واقعة « أبى قير البرية »

وفى مدة تغيب نابليون عن فرنسا وقع بعض ما كان ينتظر . إذ تشجعت أوربا فتعاقدت روسيا والنمسا وانجلترا على فرنسا واستردوا إيطاليا فارتبكت حكومة الادارة وأخذ الملكيون فى الظهور وجعلوا ينادون بآرائهم جهاراً فلما وصلت هذه الاخبار إلى مسامع نابليون عول على الرجوع إلى بلاده سرا ، فعين « كليبر » قائداً للحملة بدله ودخل فرنسا بعد مصاعب شديدة

فى ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٩ فلا تسل عن سرور الحكومة والشعب حين علموا بوجود بطلهم المنشود بين ظهرانيهم

حكومة القنصلية

(١٧٩٩ — ١٨٠٤)

اتفق نابليون مع بعض أعضاء الادارة وأهمهم « سييز » وقررو القضاء على حكومة الادارة وتكوين نظام جديد يكون من شأنه تقوية الهيئة التنفيذية ، فسن النظام الجديد وجمعت السلطة فى أيدى ثلاثة يسمون بالقناصل تشبها بنظام رومة القديم ، وكان نابليون القنصل الأول . أماالقوة التشريعيـة فوضعت فى يد ثلاثة مجالس : « مجلس الشيوخ » الذى يعين القناصل أغلبيته ، وأهم عمل له انتخاب أعضاء المجلسين الآخرين، و« مجلس التربيون » يتناقش علناً فى المسائل التى تعرض عليه دون أن يبدى رأيا ، و « المجلس التشريعى » تعرض عليه هذه المسائل ليقبلها أو يرفضها دون مناقشة . وكان يحضر القوانين ويهيؤها للعرض على مجلس التربيون والمجلس التشريعى « مجلس الدولة العام » المشتمل على رؤساء الادارات وغيرهم من الاكفاء والخبيرين الذين كان ينتخبهم القنصل الاول ، فصار نابليون فى حقيقة الامر مطلق التصرف فى فرنسا

بعد ذلك انصرف همه إلى الحالة الحربية الدولية فأرسل «مورو » إلى النمسا مخترقا ألمانيا وسار هو إلى إيطاليا ، وبسرعته المشهورة عبر ممر « سنت برنارد » وظهر خلف العدو فأجبره على النزال وكسره فى موقعة « مارنجو» ١٨٠٠ ، واسترد جميع الاقاليم الايطالية فاضطر«فرنسيس الثانى » أن يمضى صلح « لو نفيل » وبه أيدت شروط معاهدة « كمبوفورميو » وتنازلت النمسا لفرنسا عن شاطىء نهر الرين الغربى .

غير أن انجلترا بقيت بدون أن تصاب بأذى . فماذا يعمل نابليون وليس لديه أسطول كاف لمناضلتها ؟ لقد اضطر إلى عقد صلح « اميان » (١٨٠٢) وبه تركت فرنسا مصر للسلطان وردت انجلترا إلى فرنسا كل ما استولت عليه قبل الصلح عدا « سيلان » « وترنداد » ووعدت برد « مالطة » إلى فرسان القديس يوحنا و « منورقة » إلى اسبانيا

بهذا صارت فرنسا فى حال سلم مع جميع الدول بعد أن استمرت الحرب عشر سنوات . وانتهز نابليون فرصة السلم فأصلح فى نظام حكومته بقدر ما سمحت به همته التى لا تعرف الكلل ، فأصلح النظام الداخلى وعين فى كل قسم ناظراً ووكيلا مسئولين لديه مباشرة ، ثم أعاد الدين الكاثوليكى رسمياً بعد أن تخابر مع البابا وعقد معه اتفاقا فى سنة ١٨٠٢ على أن يكون للحكومة تعيين رجال الدين وصرف رواتبهم ، وللبابا السلطة الروحية . وقد كسب نابليون بذلك تعضيد الشعب والكنيسة حتى حضر البابا بنفسه إلى باريس وتوجه أمبراطوراً بعد ذلك بعامين . ثم وجه نظره إلى القانون فجمع الاختصاصيون برياسته مجموعته الشهيرة عام ١٨٠٤ . فوحد بذلك القانون فى جميع أنحاء المملكة وجعل كلمته واحدة

غير أن نفس نابليون كانت نزاعة إلى العمل والعظمة والطمع فلم يجد فى هذه الاصلاحات غنى عن بلوغ ما خطه لنفسه من مجاراة الاسكندر وأغسطوس ، لذلك سعى فى تعيين نفسه قنصلا طول حياته سنة ١٨٠٢ وفى مايو سنة ١٨٠٤ خلع الحجاب وأعلن نفسه أمبراطور فرنسا . وفى ديسمبر من تلك السنة سار موكب تتويجه هو وزوجته « جوزفين » إلى كنيسة « نتردام » بين هتاف عظيم وأبهة تعيد ذكرى حفلات قصر فرساى

الامبراطورية

(١٨٠٤ — ١٨١٥)

نجم عن تغيير النظام فى فرنسا من جمهورى إلى إمبراطورى أن تغير نظام الجمهوريات التى كونت فى هولندة وإيطاليا وصارت ملكيات. فصارت جمهورية بتافيا مملكة هولندة وقبلت « لويس » أخا نابليون ملكا عليها. كذلك تغيرت جمهورية الألب الشرقية « سيسالبين » وصارت مملكة إيطاليا وتوج نابليون ملكا عليها فى ميلان سنة ١٨٠٥

إزاء هذه التغيرات أوجس ملوك أوربا خيفة من نابليون وأغراضه، وسعت انجلترا فى تكوين محالفة ضد فرنسا وأبت أن ترد مالطة إلى الفرسان. وكان نابليون يعد جيشاً فى « بولونى » قصده الهجوم على سواحل انجلترا الجنوبية، وهذا الأمر جعل انجلترا فى قلق زائد مدة سنة. إلا أن هذه الفكرة قضى عليها حين حطم « نلسون » الاسطولين الفرنسى والاسبانى فى موقعة « الطرف الأغر » سنة ١٨٠٥ . ولما علم نابليون بتكوين محالفة جديدة من النمسا والروسيا وانجلترا، سير جيشه شرقا لمقابلة العدو فأسر جيشا نمساوياً كبيراً فى « ألم » ودخل فينا ثم تصادم الجيشان فى موقعة « استرلتز » سنة ١٨٠٥ وفيها انتصر نابليون على النمساويين والروسيين. وأجبر فرنسيس الثانى لثالث مرة على الاذعان لأمر فرنسا فعقد صلح « برسبورغ » سنة ١٨٠٥ . وبمقتضى هذا الصلح تنازلت النمسا عن البندقية وعن التيرول واعترفت باستقلال بفاريا وورتمبرج . وكانت سياسة نابليون ترمى إلى إضعاف النمسا وبروسيا بواسطة تشجيعه لامارات المانيا الصغرى، وجعل أمرائها ملوكا تحت حمايته. لذلك كون فى سنة ١٨٠٦ اتحاد الرين،

الذى اشتركت فيه جميع الامارات الألمانية المهمة عدا النمسا وبروسيا . ولما رأى فرنسيس الثانى ما وصلت اليه حال المانيا وجد أن لا فائدة من تمسكه بأهداب اللقب التاريخى القديم — « إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة » — فتنازل عنه سنة ١٨٠٦ وسمى نفسه « إمبراطور النمسا » وزال اسم الدولة الرومانية المقدسة .



نابليون

بعد ذلك وجه نابليون همته الى بروسيا . وهذا المملكة منذ تصالحها مع فرنسا فى صلح بازل سنة ١٧٩٥ لم تشترك فى محالفة ضد فرنسا وكانت حكومة « فردريك وليم الثالث » تبذل وسعها فى ارضائه وكسب مودته ،

ولكن لما كانت سياسة الامبراطور اخضاع قارة أوربا بأسرها لم يغفل عن بروسيا ولو انه كان يريد القضاء على النمسا والروسيا أولا ، لذلك استفز بروسيا بأهانته لها حتى أجبرها على إعلان الحرب سنة ١٨٠٦ ، وقد أظهر نابليون فى هذه الحرب عبقرية عظمى ، فلم تمض أسابيع قليلة إلا ونابليون قد دحر البروسيين فى موقعة «ينا» سنة ١٨٠٦ ودخل برلين . فلم يسع فردريك وليم الثالث إلا الفرار جهة الشرق ووضع نفسه فى حمى قيصر الروسيا

ولما علم نابليون بذلك أراد أن يعاقب القيصر اسكندر الأول (١٨٠١ — ١٨٢٥) على أخذه بيد فردريك وليم ، فسار شرقا وهزم الروس فى موقعة «فريدلند» فى بروسيا الشرقية سنة ١٨٠٧ ، ففتح القيصر مخابرات الصلح وتقابل نابليون واسكندر على نهر «النيمن» وتم صلح «تلست» فى يوليه سنة ١٨٠٧ ولم تفقد الروسيا شيئاً ما بمقتضى هذا الصلح . أما بروسيا ففقدت ما ينيف على نصف ممتلكاتها وصارت حكومة من الدرجة الثانية ، وكون نابليون من ممتلكات بروسيا التى بين نهر الألب ونهر الرين «مملكة وستفاليا» وجعل أخاه «جيروم» ملكا عليها ، وكون من ممتلكاتها فى بولندة «دوقية فرسوفيا الكبرى» وجعلها تحت نفوذ ملك سكسونيا جريا على خطته السياسية ، ولكن أهم مظاهر معاهدة تلست اتحاد الروسيا وفرنسا واتفاقهما على أن يكون القيصر المسيطر على شرقى أوربا ونابليون على غربيها ، بشرط أن يتبع القيصر سياسة نابليون الخارجية خصوصا فيما يتعلق بمصادرة تجارة انجلترا

خطط نابليون الاقتصادية والسياسية

بعد « تلست » صار نابليون المتصرف الوحيد في حكومات أوربا الغربية بينما كان حليفه القيصر يتصرف في شرقها فقد كان نابليون امبراطور فرنسا وملك إيطاليا وحامي اتحاد الرين وجمهورية هلفيسيا (سويسرا) وكان أخوه لويس يحكم في هولندة وجيروم يحكم في وستفاليا وجوزيف في نابلي أولا ثم في اسبانيا ومن لم يتبعه من الملوك مباشرة كان حليفا له أو تحت إمرته

ولم يبق سبيل إلى كسر انجلترا إلا مصادرة تجارتها وغلق أبواب الاتجار أمامها . وكانت انجلترا قد أعلنت الحصار على الساحل من لوبك إلى برست فأراد نابليون أن يعاقبها من جنس عملها ، فأصدر « قرارات برلين » بإيقاف حركة التجارة الانجليزية في قارة أوربا ، ولأجل أن يستعيض الناس عن واردات انجلترا ومستعمراتها شرع يدخل في القارة حاصلات تقوم مقامها مثل الهندبة بدل البن والشاي . والبنجر بدل السكر ومواد كيماوية بدل نبات الصباغة (النيلة) فقابلت انجلترا قراراته هذه باعلانها الحصر على جميع الثغور التي تحت النفوذ الفرنسي ، فأدى ذلك إلى كساد التجارة في أوربا وإلى عطلة العمال وارتفاع الأثمان فثارت الخواطر في كل مكان ضد خطة نابليون الغشومة وبدت بذور السخط العام الذي سيستفز الشعوب عاجلا إلى الخروج على نابليون

ولما كانت التجارة قوام حياة انجلترا استماتت في معارضة أغراضه ولم تترك فرصة تمر بدون أن تتالب عليه وتحرض غيرها على الخروج على سلطانه . وأول مملكة أهملت أوامر الامبراطور وفتحت موانيها للتجارة الانجليزية هي البرتغال لأنها واقعة على البحر والسيادة البحرية كانت لانجلترا . غير

أن نابليون أرسل جيشا بطريق البر لاخضاعها فاحتلها سنة ١٨٠٧ وفرت الأسرة المالكة إلى البرازيل

وبعد البرتغال وجه نظره إلى اسبانيا وكانت الأسرة المالكة فيها فرعا من أسرة البربون الفرنسية وكانت حكومة « كارلوس الرابع » على وئام تام مع نابليون منذ صلح بازل سنة ١٧٩٥ . وقد رأينا أن الملك ضحى أسطوله فدية لفرنسا فى موقعة « الطرف الأغر » ، ولكن جشع نابليون لم يعرف حدا . ففى مايوسنة ١٨٠٨ أجبر الملك وولى عهده على التنازل على الملك وعين أخاه « جوزيف » ملكا عليها وجعل مكانه فى نابلى صهره الجنرال « مورا » وقد أثار هذا التدخل غضب وسخط الاسبانيين فقاموا من تلقاء أنفسهم وكونوا عصابات جبلية غير منظمة لمناوشة مغتصب الملك . وقد شجعهم على سلوك هذا المسلك مؤازرة انجلترا التى انتهزت فرصة تناضل فيها الامبراطور فأرسلت جيشاً الى شبه جزيرة إيبريا لمساعدة البرتغال والاسبان القائمين فى وجه نابليون ، وكان ذلك فى صيف سنة ١٨٠٨

بعد أن أمن نابليون جانب الروسيا أسرع الخطا إلى اسبانيا ولم يجد أدنى صعوبة فى دفع عصابات الاسبان إلى مآويهم بين الجبال ودفع الانجليز إلى سفنهم ، ولكن لم يكد يبعد عن اسبانيا حتى بدأت حركة المقاومة ثانيا . وقد زاد حرج المركز فى اسبانيا أن أرسلت انجلترا عام ١٨٠٩ جيشاً جديداً يقوده « السير ارثر ولسلى » المعروف فيما بعد « بالدوق ولنجتن » .

أسرع نابليون فى مغادرة اسبانيا سنة ١٨٠٨ لما علم أن النمسا تعد جيشاً لمهاجمته . والحقيقة أن مثال اسبانيا قد شجع الأمم المقهورة على القيام فى وجه نابليون فأعلنت النمسا بمفردها الحرب على فرنسا فى ابريل سنة ١٨٠٩ إلا أنه فى يوليه هزمت جيوشها شر هزيمة فى موقعة « وجرام » واضطرت لرابع مرة إلى الأذعان لأمر فرنسا ، ونزلت لها فى صلح « شونبرن » عن مساحات عظيمة

فضم نابليون لفرنسا هولندة وجزءاً من شمالي ألمانيا وتريستا وكرواتيا ودلماسيا كذلك ضم أملاك البابا على أثر منازعات قامت بينهما نشأت عن عدم إذعان البابا «بيوس السابع» لأوامره، وبخاصة فيما يتعلق بسياسته القارية ضد انجلترا، فاخذ نابليون البابا أسيراً وأعلن انتهاء حقوقه السياسية سنة ١٨٠٩

عند ذلك اتجهت ميول نابليون إلى تثبيت قواعد ملكه وضمان مستقبل أسرته بايجاد ولي عهد وارث له. فطلق «جوزفين» وتزوج «بمارية لويز» ابنة إمبراطور النمسا في إبريل سنة ١٨١٠ فولدت له غلاما سماه «نابليون الثاني ملك رومة»

حملة الروسيا

في ذلك الوقت بدأ قيصر الروسيا يئن من علاقته مع نابليون ويشكو مصادرة تجارة انجلترا، ورفض القيصر أن يزوج نابليون من اميرة روسية لذلك مال الامبراطور نحو النمسا. وقد حققت الايام ظنه ووقع نزاع بين القيصر وبينه ١٨١١ أدى إلى قطع العلائق واعداد الجيوش للحرب: وفي ربيع سنة ١٨١٢ سير نابليون - ٥٠٠٫٠٠٠ جندى - أكبر جيش تحرك على أرض أوربا منذ القدم لاخضاع قيصر الروسيا. وقد كسب جيش فرنسا في المبدأ انتصارات باهرة، ولكن القواد الروس لم يكن من رأيهم التعجيل بمحاربته بعد انهزامهم سنة ١٨١٢ في موقعة «بورودينو» غربي موسكو فتقهقروا شرقا وجردوا البلاد من ذخائرها ومؤنها، فلما وصل نابليون إلى موسكو وجدها بلداً بلقعا لا فائدة من احتلالها إذ أحرقها أهلها عن آخرها كيما يضطر نابليون إلى النكوص على عقبيه، ولما طال عليه أمد انتظار رسل الصلح من لدن القيصر لم يجد مندوحة عن التقهقر وكان الشتاء قارص البرد شديد الزوابع الثلجية، فضلا عن موت الجنود لقلة المؤن التي بأيديهم

وقتال الروس لهم أثناء الطريق حتى قاست الجنود من الهلاك ألوانا ولم يرجع منهم إلى فرنسا إلا مايقرب من ٢٠٠٠٠ جندى

وقد أثارت هذه الكارثة المحزنة الشعور فى فرنسا وبدأ اللغط ينتقل بين الناس ، فأسرع نابليون إلى باريس فى ديسمبر وترك بقية الجيش العظيم يجر أذياله على نهر النيمن . ولما علمت الأمم المغلوبة بتلك الكارثة التى حلت بقاهرهم أفاق الناس من سباتهم وانتهزوا الفرصة لاعلان الحرب على نابليون واصبح نابليون يكافح الشعوب فضلا عن الحكومات

وأول من قام من الأمم المغلوبة هى بروسيا التى كان إذلال نابليون إياها عظيما ، ولذلك كان نهوضها عظيما أيضا . لانه بعد معاهدة تلست فكر ساسة بروسيا العظماء — « اشتين وهاردنبرج » — أنه يستحيل على بروسيا النهوض مالم تصلح نظمها الاجتماعية والاقتصادية اصلاحا أساسيا . لذلك كانت الفترة بين موقعة يناو سنة ١٨١٣ فترة اصلاحات عظمى ، إذ ألغيت بقايا نظام الاقطاع وتحرر فلاحو الارض وأزيلت الحواجز القائمة بين طبقات الأمة ، حتى أمكن تكوين جيش نشيط حديث . ولما سمع القوم بكارثة نابليون بالروسيا لم يسع فردريك وليم الثالث إلا إرضاء الرأى العام فتعاهد مع قيصر الروسيا فى « كاليش » وأعلن الحرب على فرنسا فى مارس سنة ١٨١٣ .

أما نابليون فان الكارثة لم تزعجه كثيرا ، وبهمته الفائقة أمكنه أن يكون من فلول الجيش العظيم جيشاً آخر لمقابلة أعدائه القائمين من كل جانب ، وان كان جيشه يحوى كثيرا من صغار السن والكهول ، إلا أن ذلك لم يمنعه من الدخول فى قلب ألمانيا وكسب موقعتى « لتزن وبوتزن » قرب ليبزج سنة ١٨١٣ ، غير أن هذه الانتصارات برهنت على أن أيام « استرلتز » و « ينا » قد ذهبت مع أمس الدابر . فتشجع الحلفاء واجتهد كل فريق فى كسب

النمسا إلى جانبه وانتهى الأمر بانضمامها الى الحلفاء ، وكانت معهم أيضا السويد تحت حكم « برنادوت » أحد قواد نابليون سابقا ، فرجحت كفتهم من حيث عدد القوى وتقابل الجيشان فى موقعة « ليبزج » فكسبها الحلفاء بعد قتال ثلاثة أيام فى ١٩ اكتوبر سنة ١٨١٣ ، ويسمى الالمان هذه الموقعة « بموقعة الامم »

وفى نوفمبر سنة ١٨١٣ قدم الحلفاء إلى نابليون من « فرنكفورت » شروطاً للصلح بمقتضاها يصير نابليون أمبراطوراً على فرنسا فقط بحدودها الطبيعية — الرين والألب من الشرق والبرانس من الجنوب — فلم يقبل . فما كان من الحلفاء إلا أنهم واصلوا انتصاراتهم بالرغم من مقاومة نابليون العظيمة ، ودخلوا باريس فى مارس سنة ١٨١٤

وكان يهدد فرنسا من الجنوب فى الوقت نفسه جيش « ولنجتن » لانه بعد أن انتصر على قواد نابليون فى موقعة « تلافيرا » سنة ١٨٠٩ ، وشيد حصون « توراس فدراس » المنيعة سنة ١٨١٠ — ١٨١١ ، أمكنه أن يواصل انتصاراته فى موقعتى « سلمنكا » سنة ١٨١٢ و « فتوريا » سنة ١٨١٣ وطرد الجيوش الفرنسية خلف جبال البرانس . فأعلن نابليون تنازله عن الملك فسمحت له الدول بالبقاء فى جزيرة « البا » بلقب إمبراطور ، واسترجعت حكم أسرة البربون فى فرنسا وارتقى العرش الفرنسى « لويس الثامن عشر » أخو الملك لويس السادس عشر

بعد ذلك أمضت الدول معاهدة باريس الأولى فى مايو سنة ١٨١٤ وبمقتضاها صار لفرنسا حدود سنة ١٧٩٢ ، ثم التأم مؤتمر فينا ممثلة فيه جميع الدول لأجل تعديل خريطة أوربا السياسية بعد أن شوهتها حروب دامت ربع قرن تقريبا ، ولكن قاطعهم فى بدء عملهم خبر هروب نابليون من جزيرة البا ونزوله بأرض فرنسا فى أول مارس سنة ١٨١٥

راقب نابليون عن كثب مجرى الحوادث فى فرنسا وما أتى به البربون مما أثار غضب الأهالى مثل ارجاع الامتيازات القديمة للاشراف ورجال الكنيسة ، فقر عزمه على انتهاز الفرصة وسار قاصداً باريس عن طريق « جرنوبل وليون » فانضمت إلى جانبه الجنود المرسلة لمحاربته ووصل باريس بين هتاف الشعب وجنوده القدماء ، وكان قد فر لويس الثامن عشر من العاصمة قبل وصوله إليها ، ولما وصل ذلك لمسامع المؤتمر المنعقد بفينا أصدر قراراً بطرد نابليون — عدو الانسانيه والسلام — خارج القانون وأخذت الدول فى تعبئة الجيوش على الفور

أما نابليون فجمع جيشاً وأراد أن يهزم كل فريق على انفراد ، فعبر حدود فرنسا وقابل البروسيين وعلى رأسهم « بلوخر » وهزمهم فى موقعة « ليني » وأرسل وراءهم أحد قواده الذين كانوا معه وهو « جروشى » ، ثم هاجم الجيش الأنجليزى — وكان مركباً من جنود إنجلترا وهانوفر وهولندة — عند « واترلو » بقرب بروكسل تحت قيادة ولنجتن فى ١٨ يونيه ، فبقى الجيشان يتطاحنان إلى أن ظهر جيش بلوخر الذى كان ولنجتن ينتظر حضوره بثبات جأش . وبظهوره فقد نابليون كل أمل فى النصر ، فترك القيادة وتفرق شمل جيشه . وحاول هو أن يفر إلى أمريكا فلم يفلح ، وأخذته انجلترا أسيراً . وقد رأت الدول إرساله إلى جزيرة « سنت هيلانة » تحت حراسة انجلترا وبقى سجينا بها إلى أن مات سنة ١٨٢١

وقضت حياته الحربية نهائيا في موقعة "وترلو" من خطوه القراء نفسه فليفصل "

الفصل الرابع عشر

مؤتمر فينا

سبتمبر سنة ١٨١٤ — يونيه سنة ١٨١٥

بمقتضى صلح باريس فى مايو سنة ١٨١٤ قرر الحلفاء إرجاع أسرة بربون إلى عرش فرنسا وجعل حدودها كما كانت فى سنة ١٧٩٢ أى قبل نشوب الحرب الثورية والنابليونية ووافقوا على مبدأ تعديل خريطة أوربا السياسية وأن يكون ذلك فى مؤتمر يعقد فى فينا سنة ١٨١٤ ، ويا له من مؤتمر أسند اليه أمر من الخطورة بمكان ، لأنه وإن كان سقط نابليون المعروف «بمقلق الدول» إلا أنه ترك آثاراً باقية فكون ممالك ومحا أخرى وعلم مقاطعات ألمانيا وإيطاليا كيف تجتمع تحت لواء واحد ، وسيد واحد ، ودخلت مبادىء الثورة أينما حل نفوذه ، فألغى امتياز الاشراف ونظام الاقطاع وتحرر الفلاح وتساوى الناس أمام القانون وقلت سلطة رجال الكنيسة وفتح باب النبوغ لجميع الطبقات

وبدل أن يراعى المؤتمر هذه المبادىء ظن أن ما أوقع أوربا فى حرب مهلكة مدة ربع قرن إنما هو أفكار الثورة ونظامها ، ولما كانت مهمته تعميم السلام ، وجد أن خير طريق للوصول إلى هذا الغرض هو إرجاع الحالة فى فرنسا خصوصا وأوربا عموما إلى ما كانت عليه قبل الثورة ، على هذا المبدأ سار المؤتمر فى تعديله الجديد .

كان مؤتمر فينا أكبر وأول مجتمع سياسى عهد اليه أمر تعديل عام فى أوربا حضره اسكندر الاول قيصر الروس وصاحب النفوذ الأكبر فى المؤتمر ، إذ كان يظن أنه السبب الأقوى فى هزيمة نابليون ، وكان يصحبه « كابودسترياس » وزيره اليونانى و « نسلرود » وزيره الالمانى ، وحضره

فردريك وليم الثالث ملك بروسيا ومعه اشتين وهاردنبرج ، وفرنسيس الثانى امبراطور النمسا ووزيره المحنك مترنخ ، وحضره « تليرند » عن فرنسا ، و « كسلريه » عن انجلترا ، ولم يحضره مندوب من قبل السلطان ولا من قبل البابا . وكانت طريقة العمل أن يتفق أصحاب الشأن على ما يريدونه فى اجتماعات خاصة . وقبل انفضاض المؤتمر تعرض عليه للموافقة عليها ، وقد تكلفت النمسا مصاريف باهظة فى سبيل ضيافة هذا المؤتمر وتنزه أعضائه

المبادىء التى عمل بها أو أعلن أنه يعمل بها

(١) تلافي قيام فرنسا بتقوية الممالك المتاخمة لها كضم بلجيكا إلى هولندة وجنوة إلى سردانيا

(ب) إرجاع الحقوق لذويها وهذا هو المبدأ الأكبر الذى نادى به المؤتمر . إلا أن الحقيقة هى أن المصالح الفردية لكل حكومة كانت أهم اعتبار فى نظر المؤتمر فأدى ذلك إلى خلاف بين روسيا وبروسيا والنمسا من جهة وانجلترا وفرنسا من جهة أخرى بسبب توزيع بولندة وسكسونيا ، وقد نجح « تليرند » في إثارة هذا الخلاف حتى كاد يؤدى الى حرب بين الفريقين لولا أن داهمهم خبر رجوع نابليون ، فاضطروا الى الاتفاق ، والحق يقال إن هذا المبدأ لم يعمل به إلا حيث لا مصلحة فى تركه

وهاك ملخص ما قرره المؤتمر :

(١) ضم بلجيكا الى هولندة وجعلهما تحت حكم وليم أورنج حتى يقوى الحد الشمالى الشرقى وتستطيع المملكة الجديدة صد هجوم فرنسا من هذه الجهة ، وضم جنوة إلى ملك سرادنيا حتى لا تستطيع فرنسا غزو إيطاليا عن هذا الطريق

(٢) فصل النرويج عن الدنمرقة وضمها الى السويد عقابا للدنمرقة على

طول تعضيدها نابليون ، وتعويضاً للسويد — صديقة الحلفاء — عن خسارة فنلندة التى أعطيت لروسيا وبمرانيا التى أخذتها بروسيا

(٣) إرجاع سويسرة إلى ما كانت عليه قبل نابليون



مترنخ

(٤) أما ألمانيا التى صارت مقاطعاتها تسعا وثلاثين أيام نابليون فأبقيت كذلك واسترجع أمراؤها ، وأهمل المؤتمر كل تفكير فى الوحدة الالمانية التى نادى بها الشعب منذ سنة ١٨١٣ ، لأن مترنخ رأى أن مصلحة النمسا فى بقاء ألمانيا مفككة ضعيفة ، فترك النظر فى ذلك الشأن إلى آخر أيام المؤتمر واكتفى بتكوين اتحاد مفكك يقوم بشأنه المجمع الالمانى أو «الدياط» يتداول فيه مندوبو الامارات فى الشئون العامة ، ولما لم يكن للمجمع أى قوة تنفيذية لم يعمل شيئا مهما ، أما بروسيا فاستعادت ممتلكاتها الاولى مضافا اليها بوزن من دوقية فرسوفيا الكبرى وبمرانيا من السويد ومقاطعات صغيرة على الرين أهمها «كولونى»

(٥) أما النمسا ففازت بالجزء الاكبر من الغنيمة ، فأخذت لمباردية والبندقية نظير تركها الاراضى المنخفضة (بلجيكا) وضمت دلماسيا ، حتى

أصبح فى قدرتها أن تكون دولة بحرية وأخذت التيرول وسالزبرج من بفاريا وبذا اجتمعت ممتلكاتها ونالت أغنى وأخصب جزء فى إيطاليا

(٦) عاد بقية أمراء إيطاليا إلى أملاكهم القديمة وصاروا حلفاء النمسا ومن هذه الاقسام ممتلكات البابا ومملكة نابلى

(٧) نالت الروسيا كل ما طلبته فضم القيصر الى ممتلكاته فنلندة من السويد وبسارابيا من الترك وكون من دوقية فرسوفيا الكبرى مملكة بولندة التى صارت تابعة للروسيا ومستقلة استقلالا إداريا

(٨) أما انجلترا صاحبة الفضل فى تكوين المحالفات ومدها بالمال فأخذت جزيرة هليجولند ومالطة وجزائر أيونيا وجزيرة سيلان ومستعمرة الكاب وباقى المستعمرات الهولندية التى استولت عليها أثناء الحرب

ويلاحظ فى هذه التعديلات (ا) الاستخفاف بمبدأ الاستقلال الجنسى كضم بلجيكا إلى هولندة (ب) الاستخفاف بفكرة الوحدة الوطنية كابقاء المانيا وإيطاليا مقسمتين (ج) مخالفة مبدأ إعطاء الحقوق الشرعية لذويها كضم خمسى سكسونيا إلى بروسا

وهناك ملاحظة أهم من ذلك وهى احتكار السلطة النهائية فى يد الدول العظمى واستبدادهم بالتصرف فى مستقبل الشعوب والحكومات ذلك الاستبداد الذى لم تقبله أوربا إلا لانها كانت حديثة العهد بحروب نابليون ، وكان غرض كل شعب أن يتمتع بالسلام الذى حرم منه طويلا ولو كان فى ذلك احتمال ظلم الدول ، التي اعتبرت نفسها وارثة لنابليون الذى قهرته فى النهاية . وقد تحملت الشعوب هذا الظلم ريثما أفاقت من الحروب واستعادت قواها الاولى، وشعرت بمبادىء الرجعيين ، فقامت على تعديلات المؤتمر تنقضها حجرا حجرا وإن استغرق ذلك القرن التاسع عشر كله

المحالفة الرباعية والمحالفة المقدسة ومؤتمر الدول

دخل الحلفاء باريس عقب موقعة واترلو وقد أنستهم حرب مائة اليوم ما كان لديهم من العطف على فرنسا ومراعاة شعورها فى مارس سنة ١٨١٤ وهناك وقعوا على معاهدة باريس الثانية وأثقلوا فرنسا بغرامة حربية قدرها أربعون مليونا من الجنيهات عقابا لها ، وأهانوها بابقاء جيش احتلال عدده ١٥٠٠٠٠ تحت قيادة ولنجتن لمدة لا تزيد على خمس سنوات ولا تقل عن ثلاث

وقد عرضت على ساسة أوربا اذ ذاك ورقة غريبة فى بابها من تصنيف اسكندر الأول القصد منها دينى محض ، بها يطالب أن يعامل الملوك رعاياهم حسب تعاليم الكتاب المقدس فيحكموهم بالعدل ويشفقوا عليهم من مصائب الحروب ، وأن يكون الملوك إخوة يتبادلون المشورة والمعونة ، ولما قدم هذا « الاعتراف » وقع عليه الساسة مرضاة للقيصر اللهم إلا فردريك وليم الثالث فانه قد يكون وقع عليه باخلاص

وبعد ذلك كوّنوا المحالفة الرباعية لمقاومة الثورة على العموم وفى فرنسا على الاخص ولذا لم تكن تلك الدولة عضوا بها ولم تنضم اليها إلا بعد ان برهنت على استتباب الحالة بها وأتمت دفع الغرامة وانسحب جيش الحلفاء من أرضها سنة ١٨١٨ حسب ما قرره مؤتمر « اكس لاشابل » وقد قضت المحالفة الرباعية أن يجمع ممثلو الدول من حين لآخر فى مدينة تعين لهذا الغرض للتفاوض فى المصالح المشتركة والطرق التى يحسن اتخاذها لتوطيد السلام العام

وقد خلط الناس بين « المحالفة الرباعية » و « المحالفة المقدسة » حتى صارت الثانية عنوانا على أعمال الأولى ودليلا على السياسة الرجعية التى اتبعتها

دول أوربا بعد ذلك بفضل حذق مترنخ ومهارته إذ تمكن من جعل المحالفة الرباعية آلة لجمع ممثلي الدول لا للمناقشة فى المصالح المشتركة فحسب ، بل للتدخل فى الشئون الداخلية لكل حكومة ، ولاخماد كل حركة غرضها تغيير النظم أو إثارة أذهان الشعب ، وقد نجح مترنخ نجاحاً باهراً ، وكان أهم سبب فى ذلك استمالة القيصر الى رأيه

وتحقيقا لهذه الاغراض استطاع مترنخ أن يدعو أعضاء المحالفة الرباعية الى مؤتمر « اكس لاشابل » فى سنة ١٨١٨ ، وفيه دخلت فرنسا ضمن الحلفاء بفضل مساعى وزيرها « الدوق ريشليو » وسحبت جنود الاحتلال منها ، وفيه قرر الدول الخمس الاحتفاظ بالسلم العام وعدم السماح بخرق معاهدات سنة ١٨١٥

فلما قامت الثورة فى نابلى دعا مترنخ الدول الى مؤتمر فى « تربّاو » سنة ١٨٢٠ حيث قررت النمسا وبروسيا والروسيا ، وجوب التدخل فى الشئون الداخلية لأى أمة بقصد قمع الثورة فيها ، حتى فى حال موافقة الملك على الثورة ، ويكون التدخل أولا سلميا ، فاذا لم يجد ، تدخلت الدول بالقوة ، أما فرنسا وانجلترا فلم تشتركا فى هذا القرار ولكنهما لم تحركا ساكنا وعلى ذلك دعى مؤتمر فى « ليباخ » سنة ١٨٢١ للنظر فى قمع الثورة فى نابلى ودعى ملكها اليه ، وقرر المؤتمر تكليف النمسا قمع الثورة فقمعتها فى نابلى وفى بيدمنت ، ولما قامت الثورة فى اسبانيا دعى مؤتمر « فيرونا » سنة ١٨٢٢ وكلفت فرنسا قمعها فنجحت أولا ، ولكن الثورة امتدت الى مستعمرات اسبانيا فى أمريكا .

غير أن تداخل المؤتمر تدخلا منتظما فى الشئون الداخلية للدول أثار الرأى العام فى انجلترا وفى الممالك الأخرى ، فبلغ من نفوذ الشعب فى انجلترا أن اضطر الحكومة الى تعديل سياستها ، فبدأت تنفصل عن سياسة المؤتمر

منذ مؤتمر فيرونا . وبدات فرنسا تنفصل كذلك ، ثم جاءت المسألة الشرقية واستقلال بلجيكا سنة ١٨٣٠ فتعارضت مصالح الدول وأصبح من المستحيل التوفيق بينها فتفرق المؤتمر شعبا وبدأ كل يشتغل بمصالح وطنه الخاصة

نظرة عامة فى تاريخ فرنسا بعد معاهدة فينا

كان لويس الثامن عشر يريد أن يحكم الامة بمقتضى الدستور الذى منحها إياه عند توليته العرش ، إلا أن الحزب الرجعى أخذيقوى وكان رئيسه أخو الملك الكونت « ارتوا » فلما صار الاخير ملكا فى سنة ١٨٢٤ باسم « شارل العاشر » نال الرجعيون ما كانوا يتمنون واسترجع الاشراف ورجال الكنيسة كثيرا من امتيازاتهم ، فأعطوا التعويض عما فقد من أملاكهم واضطهدت الهيئةالنيابية ، فقامت ثورة يوليوسنة ١٨٣٠ وتولى «لويس فليب» رئيس فرع « أورليان » ملكا حسب رغبة الامة فتحبب الى الشعب وأظهر إخلاصه مدة ، إلا أنه أظهر فى النهاية أنه لايقل عن البربون فى اشتغاله بمصالحه العائلية دون المصلحة القومية ، فقام الشعب ثانيا وأعلن الجمهورية الثانية سنة ١٨٤٨ وانتخب لويس ابن أخى نابليون رئيسا لها ، وسرعان ماتمكن من إعلان الامبراطورية سنة ١٨٥٢ باسم « نابليون الثالث » وبقى كذلك الى سنة ١٨٧٠ حين انهزم الفرنسيون أمام الجيش البروسى وسخطت الامة على امبراطورها ، فأعلنت الجمهورية الثالثة التى لاتزال قائمة الى اليوم .

الفصل الخامس عشر
الوحدة الايطالية

(١٨١٥ — ١٨٦١)

كانت إيطاليا فى عهد نابليون منقسمة الى

١ — مملكة ايطاليا وتشمل شمالى ايطاليا ووسطها وكان نابليون ملكا عليها ويحكمها نائب من لدنه وهو « يوجين بوهارنيه » ابن زوجته

٢ — مملكة نابلى أو الصقليتين وكان أخوه « جوزيف » ملكا عليها أولا ثم عين صهره « مورا » بدله

من ذلك يظهر لنا ان ايطاليا كانت تحت نفوذ سيد واحد وانها كانت تشعر بوحدتها ، فضلا عن أن دخول نابليون ايطاليا قد قضى على بقايا الاقطاع وقلل من سلطة الكنيسة وجعل البابا رئيسا دينيا فقط لاسياسيا وأصلح القوانين والنظم وقطع دابر اللصوصية التى كانت منتشرة ؛ وعلى العموم كان أثر نابليون في ايطاليا أكثر منه فى أية مملكة أخرى فقد كان يجند الايطاليين فى جيشه ويرقى كثيرا منهم فى وظائف الحكومة والجيش

غير أن الدول فى سنة ١٨١٥ لم ترع هذه الاعتبارات جميعها بل أرجعت النظام القديم فى كل الامارات وتجزأت ايطاليا ، وعلى الرغم من ذلك بقى الايطاليون يذكرون ما كانت عليه ايطاليا فى عهد نابليون من الوحدة ، عاملين على السعى وراء تغيير النظام الجديد

وكانت ايطاليا تتكون حسب تعديل فينا من عشرة أقسام منها أربعة مهمة وهي مملكة بيدمنت ، ولمبارديا والبندقية ، وممتلكات البابا ،

ومملكة نابلى . وأما الستة الأقسام الأخرى فهى دوقيات : تسكانيا ومودينا وبارما ولوكا وجمهوريتا موناكو وسان مارينو . ولم يكن من بين هذه الاقسام مملكة قوية بدرجة تجعلها مسيطرة على الآخرين ، بل كان كل أمير ، ماعدا البابا وملك بيدمنت ، مرتبطا بالنمسا يعمل حسب أوامرها وأغراضها . فالنمسا كانت صاحبة السلطان الاكبر فى إيطاليا إذ كان لها لمبارديا والبندقية ودلماسيا . وكانت الاسر المالكة فى بارما ومودينا وتسكانيا مرتبطة بالأسرة النمساوية ، أما نابلى فكانت مرتبطة مع النمسا بمعاهدة تحتم على ملكها أن يستعين بها إذا ما ظهرت أية حركة عدائية للحكومة فى نابلى ، وألا يدخل أى نظام مغاير للنظام السائد فى لمبارديا والبندقية التى كانت تحكمها النمسا مباشرة

أما فى بيدمنت وأملاك البابا فكانت السياسة الرجعية سائرة من غير احتياج لمساعدة النمسا . ففى بيدمنت كان الملك « فكتور أمانوئيل الاول » — من أسرة سافوى — يكره النظام النابليونى ويمقت كل من اشتهر بحرية مبادئه أو باستنارته ولم يكن فى بيدمنت حسنة سوى استقلال الحكومة فى سياستها الخارجية والاعتناء بالجيش . كذلك ممتلكات البابا كانت حكومتها فى أيدى رجال الكنيسة وجلهم من الرجعيين ، وكانت حكومة البابا عاجزة عن حفظ الأمن وعن القيام بمهام الحكومة الاساسية

من ذلك نرى أن سياسة النمسا الممثلة فى شخص وزيرها مترنخ كانت السائدة فى جميع أنحاء إيطاليا ، وهذه السياسة جعلت الناس يفكرون فى الوصول لاغراضهم بالطريقة الوحيدة التى تتأتى فى عصر تقييد الحرية الا وهى تكوين الجمعيات السرية وأهمها الجمعية الكبرى المعروفة « بالكابونارى » أو حارقى الفحم . ولا يعرف ابتداؤها تماما ولكنها كانت تعمل بنشاط منذ سنة ١٨١٤ فاتصل بها كثير من العاطلين وكثير من ضباط

الجيش وممن ذهب النظام الجديد بأموالهم أو اشغالهم ، وانتشرت الجمعية بسرعة غريبة في أنحاء إيطاليا ولكن الاعضاء لم يقرروا مبدأهم ولا طريقة مسيرهم ، وكانوا يضيعون كثيرا من الوقت فيما لا طائل وراءه ، وكل ما كان يعرفه أعضاء الجمعية هو أنهم يريدون تغيير النظام الموجود إذ ذاك

ثورة (١٨٢٠ — ١٨٢١)

ما زالت جمعية الكاربونارى تنشر مبادئها وتتربص للثورة حتى قامت ثورة حربية فى اسبانيا طلب رؤساؤها ارجاع الدستور الذى منحوه سنة ١٨١٢ وهو دستور على نسق الدستور الفرنسى الذى وضع سنة ١٧٩١ . فلما رأت الحكومة الاسبانية عجزها عن مقاومة الجيش سلمت بطلبه . وما وصل الخبر إلى إيطاليا حتى ثار الكاربونارى فى نابلى يتودهم « مورلى » وأرغموا الملك « فرديننـد الاول » على منح الدستور فتظاهر بحبه وأقسم راضيا أن يحافظ عليه ، ولكنه كتب فى الحال إلى مترنخ يؤكد له أن القسم كان اضطراريا ويطلب مساعدة النمسا على رعيته العاصية .

وقد تقدم أن الدول كانت تخشى قيام الثورة فى فرنسا وأنها لذلك كانت تعقد المؤتمرات من حين لآخر لاتخاذ الوسائل الفعالة لتفادى الثورة ، فلما علم مترنخ بثورة إسبانيا ونابلى دعا الحكومات إلى الاجتماع فى « ترپاو » سنة ١٨٢٠ وعرض عليهم أنه يلزم التدخل الفعلى فى كل ثورة تحدث تغييرا بالقوة ، فبدا له أن انجلترا وفرنسا ليستا على رأيه ، أما بروسيا وروسيا فوافقتا على ذلك وأعلنتا أنهما مستعدتان لاستعمال نفوذهما ، فان لم يجد هذا استعملتا القوة . ولما رأى مترنخ أن انجلترا وفرنسا تقتصران على الاحتجاج اللفظى عزم على تنفيذ خطته

وقرر المؤتمر أن يدعو فرديننـد ملك نابلى ، وأمانوئيل ملك بيدمنت ،

لحضور مؤتمر آخر ينعقد فى ليباخ سنة ١٨٢١ فلما وصلت الدعوة احتج الكاربونارى وأبوا أن يصرحوا لملك نابلى بالذهاب الا اذا أقسم ثانية بالمحافظة على الدستور فأقسم متظاهراً بالرضاء ، ولكنه ما كاد يعبر حدود أملاكه حتى أعلن أنه غير مرتبط بالقسم ، ولما وصل الى المؤتمر وافق على كل ما يوده مترنخ وقبل أمانوئيل أن يعمل مثله فأرسل جيش نمساوى لاخضاع الكاربونارى فى نابلى وهزمهم وبدأ دور الانتقام فقتل مورلى وكثير غيره وزج بأكثر منهم فى السجن

ولحسن حظ النمسا أن الثورة فى بيدمنت لم تقم إلا وجيشها فى ايطاليا ، لان فرقة من الجيش البيدمنتى قامت فى السندريا سنة ١٨٢٠ وطلبت الدستور الاسبانى أيضا والحرب ضد النمسا ، ولكن تخوفت النمسا التى كانت ممتلكاتها متاخمة لبيدمنت فدخلت بجيش عظيم وقمعت الثورة ، وأعيدت الحالة الى ما كانت عليه ونجح مترنخ فى بيدمنت كما نجح فى نابلى

ويلاحظ أن ثورات ١٨٢٠ — ١٨٢١ كان القائمون بها من رجال الجيش فقط وانها كلها انتهت بالفشل ، ولذلك أسباب بينة منها أن الاهالى لم يشتركوا فيها ، وأن الدول الثلاث المستبدة كانت متفقة على اخضاع الثائرين وأن الامم لم تكن تنبهت أفكارها تماما الى معنى الحرية السياسية ولم تعمل على توحيد مجهودها أمام العدو ، وأن جمعية الكاربونارى كان يعوزها منهج واضح جلى ، وان كل هذه الثورات كان يعوزها قائد ماهر ورئيس مطاع

فلما تم اخضاع الثائرين صارت ايطاليا تحت نفوذ مترنخ وسادت السياسة الرجعية فيها حتى خيل اليه أن جوها قد صفا واذا بالكاربونارى قد ظهروا فجأة سنة ١٨٣١ فى وسط ايطاليا وانتشرت الثورة فى أملاك البابا

وفر حكام بارما ومودينا فاستجار البابا « غريغورى السادس عشر » بالنمسا فاخضعت الثوار ونصحت له بالاعتدال فى الحكم ، ولكنه لم ينفذ الاصلاحات المطلوبة فقامت الثورة ثانية سنة ١٨٣٢ فطلب المساعدة من النمسا فدخل جيشها وأخضع الثوار وبقى هناك ، وقد خشيت فرنسا امتداد سلطان النمسا فاحتلت « انكونا » مدعية انها تفعل ذلك لمجرد حفظ التوازن الدولى وبقى الجيشان فى موقفهما الى سنة ١٨٣٨.

زعماء حركة الوحدة

فشلت ثورة سنة ١٨٣١ لنفس الأسباب التى حالت دون نجاح ثورة سنة ١٨٢١ الا أنها علمتا الطليان درسا مهما وهو أن أول واجب عليهم هو تخليص بلادهم من النمسا ، وبذا أصبح غرض المفكرين الطليان جميعهم واحدا وان اختلفوا فى طريق الوصول الى هذا الغرض ، فقامت ثلاثة مذاهب فكرية مهمة : الجمهوريون والاتحاديون والبيدمنتيون

فأما الجمهوريون فهم أتباع « يوسف مازينى » — ١٨٠٥ — ١٨٧٢ — رسول الحركة الايطالية ، ولد مازينى بجنوة وكان من صغره كثير الاسى لسوء حال إيطاليا فاشترك مع الكاربونارى سنة ١٨٢١ وقبض عليه بسبب آرائه السياسية سنة ١٨٣١ وسجن ، وبعد إطلاق سراحه كون جمعية سرية هى جمعية « إيطاليا الفتاة » وليقينه بأن الشباب عماد التضحية والنهوض اشترط ألا يقبل فى جمعيته من جاوز الأربعين ، وبذا جمع حوله عدداً عظيما من الشبان الغيورين ، يتقدون وطنية ويتحملون كل مشقة على اعتقاد أن الافكار تنمو بسرعة متى سقاها دم الشهداء ، وكانت طريقتهم أن يخالطوا الشعب ويزوروا الفلاحين وعمال المدن ويتحدثوا اليهم عن حقوقهم وسالف مجدهم

وتجارتهم ، ويعدوا لهم المظالم الواقعة عليهم والتى لا يعرفونها لأنه لم يعن أحد باظهارها لهم ، وأهم ميزة فى مازينى اعتقاده أكثر من أى رجل آخر بامكان اتحاد إيطاليا ، وتكريس حياته لتعليم الناس هذه العقيدة ، وكانت مهمته أن يعلم الطليان أن إيطاليا أمة وليست تعبيراً جغرافياً . وقد نجح مازينى فى تكوين رأى عام يطالب باستقلال الأمة بالرغم عن أنه أخفق فى كل ثورة قام بها لعدم علمه بالحروب والسياسة

ولما نفى من بلده جعل ينتقل فى سويسرة وفرنسا وانجلترا وتكبد فى ذلك مشقات هائلة هو ومن تبعه ، وكان ذلك من مبادىء إيطاليا الفتاة حتى أنه ليحسن أن يقال إنها قامت على التضحية . وقد أدى ذلك إلى انتشار أفكارها فى سائر أنحاء أوربا وانضم اليها كثير من أدبائها لما رأوا فيها ولا سيما فى قائدها العظيم من المروءة والتضامن والاخلاص . وكانت هذه الجمعية تفوق الكاربونارى لأنها حددت برنامجها وأهم ما فيه طرد النمسا وإيجاد جمهورية إيطالية . فشرعوا ينشرون هذه الأفكار رغم انقسام إيطاليا إلى حكومات متعددة ورغم وجود جيش أجنبى قوى فى البلاد ورغم الحكومات المستبدة ورغم جواسيس مترنخ

وقد قام حزب آخر يريد اتحاد إيطاليا واستقلالها إلا أنه كان معتدلا لا يحاول إيجاد جمهورية بل ملكية مقيدة ، وكان يعقد آماله على شارل البرت ملك بيدمنت فكان أتباعه يعرفون بالحزب البيدمنتى ، وقد قوى هذا الحزب حين تولى « كافور » الوزارة فى بيدمنت . وقام حزب ثالث يعرف بالاتحادى يرمى إلى اتحاد إيطاليا برياسة البابا وإصلاح الكنيسة ، ويمثل آراء هذا الحزب « جيوبرتى » وقد قويت عزيمته بالاصلاحات التى

قام بها البابا « بيوس التاسع » حين اعتلى عرش البابوية سنة ١٨٤٦ وكان مستنيراً حر المبادىء فأصدر عفوا عن المسجونين وأمن المنفيين وغير الحكم الرجعى، فلما رأى الناس إصلاح البابا — وكانوا يظنون أن البابا المصلح ضرب من المحال — خيل لهم أن الوقت قد حان لنيل أمانيهم فقاموا من كل جانب يطالبون بالدستور فلم يصدق ظنهم الا شارل البرت (١٨٣٢ — ١٨٤٩) فانه منح الدستور سنة ١٨٤٧ وأخذ يصلح بلاده وجاهر بأنه مستعد لتحرير إيطاليا متحملا كافة ذلك

ثورة (١٨٤٨ — ١٨٤٩)

كذلك كانت حال إيطاليا عند ما اهتزت أرجاء أوربا باخبار ثورة سنة ١٨٤٨ فى فرنسا . وسبب هذه الثورة سياسة « لويس فليب » ووزيره « جيزو » التى كانت ترمى إلى تثبيت عرش الملكية بواسطة مراعاة مصالح أسرة أورليان دون مصالح فرنسا نفسها ، فتدخلت الحكومة تدخلا مشينا فى انتخاب الأعضاء لمجلس النواب وصودر الأحرار واتحدت فرنسا مع الحكومات المستبدة بعد أن نفرت انجلترا منها . فعقد الأحرار من النواب والعمال اجتماعات كان القصد منها الاحتجاج على الحكومة من أجل تصرفاتها ولكن قامت الثورة على أثر هذه الاجتماعات وفرّ لويس فليب إلى انجلترا وقرر النواب وزعماء الثورة إعلان الجمهورية الثانية وأخذت الأصوات فانتخب « لويس نابليون » ابن أخى نابليون الأول رئيسا ، وقد كان تأثير هذه الثورة عاما فى أوربا وخصوصا فى وسطها حيث كان القوم يئنون من سياسة الجمود التى جرى عليها مترنخ جيلا من الزمن ، وأول من تحرك من أمم الوسط المجر إذ قام خطيبها « كوشوت » فى الجمعية النيابية وحمل حملة شعواء على مترنخ وسياسته ، فتداول الناس هذه الخطابة وثار الشعب

فى فينا واضطر مترنخ إلى مغادرة النمسا والالتجاء الى انجلترا سنة ١٨٤٨ ، وقد كان لسقوط مترنخ دوى ّ فى أوربا لا يقل عن دوى ّ « واترلو » ثم قامت الثورة فى بوهيميا ثم فى لمبارديا

انتهز الايطاليون فرصة حوادث ١٨٤٨ فقامت الثورة فى عاصمة لمبارديا وطردت الجنود النمساوية وكذلك فعلت البندقية ، ثم دخلت جنود بيدمنت لمبارديا وأرسلت حكومات نابلى وتسكانيا والبابا جنوداً للمساعدة مدفوعة برغبات الشعب . حينئذ ظهر كأن ايطاليا يد واحدة فى عملها ضد مرهقتها — النمسا — ولكن من حسن حظ هذه أن كان لها شمالى إيطاليا قائد عظيم وهو « رادتسكى » ، تحصن هذا القائد فى قلاع نهيرات نهر البو وانتظر فرصة سانحة لضرب شارل البرت ، وقد تم ذلك فعلا فى موقعة « كستوزا » وكان الايطاليون ابتدأوا ينقسمون على أنفسهم فسحبت نابلى وغيرها جنودها من ميدان القتال

ولكن الهزيمة لم تقف عند هذا الحد لأن شارل البرت وجد نفسه مسئولا عما حل بايطاليا من الهزيمة والعار فاستأنف الحرب سنة ١٨٤٩ ، ولم تمده الأمارات الايطالية الأخرى بجنودها كما فعلت سنة ١٨٤٨ إذ أن الشعب فى تسكانيا ورومة كان قد قام وأعلن الجمهورية وصارت رومة فى أيدى مازينى وأتباعه . أما نابلى فقد أعيد النظام الرجعى فيها . وعلى ذلك نزل شارل الميدان وحده وهزم سنة ١٨٤٩ فى موقعة « نوفارا » التى كانت ضربة قاضية على الجيش البيدمنتى . وحاول شارل أن يموت فى المعمعة ولكن لم تساعده يد الاقدار ، فتنازل عن الملك لابنه « فكتور أمانوئيل الثانى » . ولشارل البرت الفضل فى إعلاء ذكر « أسرة سافوى » بين الشعب الايطالى فقد برهن أن هناك مملكة وأسرة مالكة يهمهما خلاص إيطاليا من الاجنبى

ويهون عليهما تضحية النفس والنفيس فى هذا السبيل

بعد « نوفارا » أعيد النظام القديم فى تسكانيا . أما فى رومة فرأى لويس نابليون رئيس جمهورية فرنسا وقتئذ أن يتدخل فى صالح البابا لكسب رضاء الشعب الفرنسى الكاثوليكى فأرسل حملة تمكنت من طرد «غاريبلدى ومازينى» وجيشهما من جمهورية رومة سنة ١٨٤٩ . ثم سقطت البندقية فى أيدى النمسويين وساد النظام الرجعى والنفوذ النمسوى وصودر الاحرار فى كل إيطاليا ماعدا بيدمنت

كافور

تنازل شارل البرت عاد بالفائدة الكبرى على ايطاليا وبيدمنت لأن خلفه كان يفوقه فى المهارة الحربية والسياسية ، وكان مستنيرا محباً للحكومة الشورية عاملا على رفع شأن مملكته وتخليص ايطاليا من الأجنبى وقد أسعده الحظ باستوزاره رجلا من أكبر سواس أوربا إذ ذاك وهو « كافور »

وولد كافور سنة ١٨١٠ فى أسرة شريفة تنقلت بين إيطاليا وسويسرة ، وقد أدخله والده المدرسة الحربية ليكون مهندساً فى الجيش إلا أنه ترك الخدمة فى سن الحادية والعشرين واشتغل بالزراعة وكان خبيرا بها ، فأدخل اصلاحات كثيرة فيها ، ثم أخذ يزور الممالك الأوربية يتفقد أحوالها وكان دقيق النظر عليما بأحوال الناس

وقد أشرب قلبه فى أثناء هذه التجولات حب المجالس النيابية والحكومات الشورية ولا سيما ما كان يشبه البرلمان الانجليزى ، ثم عاد إلى بيدمنت وقد منحت المجلس النيابى وبدأ دور حرية الافكار فأنشأ « جريدة البعث »

التى طار صيتها فى الآفاق لما ظهر فيها من وطنية منشئها وعبقريته السياسية ومعرفته بالعمليات ، وكان أول ما ظهر من كتاباته نشر آرائه عن حوادث ١٨٤٨ — ١٨٤٩ فدعاه فكتور أمانوئيل الثانى للوزارة سنة ١٨٥١ فبقى فى وزارة المالية سنتين ثم صار رئيسا للوزارة

كانت أمانى كافور معقودة بآل سافوى ومحالفة الممالك الأخرى ، وهذا عكس ما كان يعتقد مازينى الذى جاهر أن ايطاليا لاتقوم إلا باعتمادها على أهلها دون أمرائها ومحالفيها ، ونشأ من ذلك اعتقاده فى الجمهورية . أما كافور فكان يرى أن هذه الآمال آمال أنبياء لا يمكن تطبيقها ولذا سعى حياته لكسب حلفاء أقوياء يمكنهم أن يأخذوا بناصره فاهتم بتقوية الجيش واصلاح الحال الاقتصادية حتى ترغب الدول فى محالفته .

فلما قامت حرب القرم تطوع كافور لمساعدة الحلفاء ليرضى بذلك نابليون الثالث ويجلس فى مؤتمر الصلح فى مصاف الدول العظمى ، فلما جاء صلح باريس نزح اليها رجاء أن يدافع عن قضيته وأقنع نابليون أن يسعى فى ادخاله المؤتمر رغم أنه لم يدع رسمياً . فلما نجح مسعاه أظهر أمام المؤتمر فظائع النمسا فى إيطاليا وعضدته انجلترا ، فطار كافور وقومه فرحاً لدخولهم فى مصاف الدول العظمى القوية ، وتبين للناس أن طريقته أقرب الى النجاح من طريقة مازينى. وسرعان ما قامت الجمعيات الوطنية تحبذ سياسته فقام فى كل ولايات إيطاليا رجال ينادون بفكتور أمانوئيل ويسعون لجعله ملكا على إيطاليا

بعد ذلك أخذ نابليون يهتم بالمسألة الطليانية ويسعى جهده فى حلها ، أولا حبا فى تثبيت عرشه فى فرنسا ونشر سلطانه بتعضيد ايطاليا ، ثانيا لحبه فى تنفيذ «الفكرة النابليونية» التى شرحها عمه فى منفاه والتى مازال لويس نابليون يحلم بها طول عمره وهى اقامة عرش أسرة بونابرت على حرية الامم

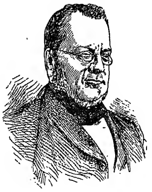
واستقلال الشعوب ، وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن نابليون لو انتصر فى واترلو لحقق هذه الفكرة ونفذ وعوده للفرنسيين بعد عودته من البا ، ثالثا لان أسرة بونابرت طليانية الاصل ومن المحقق أن لويس نابليون كان عضوا فى جمعية الكاربونارى فى أول أمره وانه اشترك فعلا فى ثورة سنة ١٨٣١ ، رابعاً أن بقاء إيطاليا مفرقة يذكر الناس بمعاهدة فينا التى قضت على آل بونابرت بالنفى والحرمان فكان نابليون الثالث يعمل كل مافى وسعه لمحو آثارها و إعادة مجد أسرته

وأول خطوة واسعة خطاها نابليون فى ذلك السبيل أن قابل كافور فى يوليه سنة ١٨٥٨ فى « بلومبير » فى جبال الفوج متظاهرا أنه ذهب إليها لمجرد التنزه وأن المقابلة كانت صدفة ، ولكن الحقيقة أنهما اتفقا سرا على أن يحرج كافور صدر النمسا حتى تعلن الحرب على بيدمنت ، فتتقدم فرنسا لمساعدة الدولة الضعيفة التى هاجمتها جارتها القوية ظلما وعدوانا ، فاذا ماتم النصر صار شمالى ايطاليا بما فيه حوض نهر البو مملكة واحدة تحت سيادة بيدمنت وأعطيت سافوى إلى فرنسا . أما نيس فلم يقرر عنها شىء

وقد أكد نابليون لكافور حسن ولاء روسيا وبقاء انجلترا وبروسيا على الحياد ، على أنه كان واثقا من صعوبة العمل لعلمه أن النمسا لا تجلو عن إيطاليا الا اذا حطم جيشها ، ولا يكون ذلك الا اذا أعدت فرنسا مائتى ألف جندى وبيدمنت مائة ألف جندى

وقد رحب كافور بهذه الشروط التى لا تحقق كل أمانيه ، من تكوين مملكة صغيرة فى شمال ايطاليا وجعل ايطاليا الوسطى تحت سيادة تسكانيا وجعل البابا رئيسا للاتحاد الايطالى ، لانه « فى السياسة لايمكن عمل أكثر

من شيء واحد فى وقت واحد والشيء الوحيد الذى يجب أن نفكر فيه هو كيف يخرج النمساويون من ايطاليا »



كافور

بعد هذا جد كافور فى العمل على إثارة غضب النمسا حتى يضطرها إلى مهاجمة بلاده ، وكان كافور فى قلق دائم خوفا من انخذال نابليون عنه أو تجديد سياسة عمه إذا تم له النصر ، أما نابليون فكان يظن أن الحرب تبدأ فى ربيع سنة ١٨٥٩ ولذا وجه لسفير النمسا فى أول تلك السنة مايشعر بذلك ، وعقد حلفاً مع بيدمنت وتعهد بمساعدتها إذا هاجمتها النمسا . وبعد ذلك بقليل أعلن أمانوئيل « أنه لا يمكنه أن يبقى لاهيا عن مصائب ايطاليا ، يغض النظر عن احترام المعاهدات »

كل ذلك أهاج الخواطر فتردد نابليون وتطوعت انجلترا للتدخل فى الاصلاح بين بيدمنت والنمسا ورأت أن يكون ذلك فى مؤتمر دولى فقبلت النمسا ، على شرط أن تضع بيدمنت السلاح . فاقترحت انجلترا أن تضع أوربا كلها السلاح فلما سمع كافور بذلك ظن أن كل جهوده قد ذهبت أدراج الرياح وأنه قد قضى على آماله وكاد الحزن يقتله ، لكنه لم ير بدا

من الانقياد لآراء الدول فكتب بالموافقة على المشروع . أما حكومة فينا فخيل لها أنه لا يقصد من مشروع وضع السلاح إلا كسب الوقت اللازم للاستعداد للحرب، فأغفلت الاجابة عليه وأرسلت إلى بيدمنت انذاراً نهائياً أن تضع السلاح فى ظرف ثلاثة أيام وإلا حاربتها . وسر كافور إذ رأى أن مسئولية الحرب وقعت على عاتق عدوه . وفى ٢٩ ابريل سنة ١٨٥٩ عبرت جيوش النمسا نهر « تشينو » وأعلنت فرنسا الحرب . ومع ان النمسا حشدت جيشا عظيما فى شمال ايطاليا فان سوء تدبير قائدها أدى إلى انهزامها فى واقعة « مجنتا » فى ٤ يونيه وتلا ذلك اجلاؤها عن لمبارديا كلها ثم انهزمت ثانيا فى « سلفرينو » وأخذت تستعد للدفاع عن البندقية

فكر نابليون فى أمره — وكان كثير التردد — فرأى أن الأمة الفرنسية ولاسيما زوجه غير راضية عن كل ما من شأنه اجتماع إيطاليا تحت رياسة سافوى لما فى ذلك من الاجحاف بحقوق البابا السياسية ، ورأى أن الاحساس القومى قد زاد فى وسط إيطاليا إلى حد اضطرار أمراء بارما ومودينا وتسكانيا إلى الفرار خوفا من الثوار الذين قاموا ينادون بلزوم الانضمام إلى بيدمنت ، ورأى أن هذا الاحساس المشترك قد يؤدى إلى تكوين مملكة قوية فى إيطاليا يمكن أن تناوئ فرنسا فى المستقبل ، ورأى أن النمسا قد تستدعى بروسيا لمساعدتها وكانت بروسيا وقتئذ قد حشدت ست فرق على نهر الرين — رأى ذلك كله فقرر أن يكتفى بما ناله من النصر وينسحب من ايطاليا . وكان يعلم أن كافور لا يوافق على الوقوف عند ذلك فدعا أمبراطور النمسا ، وكان حاضرا فى ساحة القتال ، إلى مقابلته واتفقا على صلح « فلافرنكا » الذى أيدته معاهدة زيورخ سنة ١٨٥٩ وبمقتضى هذه المعاهدة (١) تنازلت النمسا عن لمبارديا إلى بيدمنت (٢) تقرر عودة الحكام الذين هربوا من أملاكهم فى وسط ايطاليا (٣) أن تكون ولايات ايطاليا

« اتحادا » يكون البابا رئيس شرف له (٤) أن تبقى البندقية تحت حكم النمسا مع دخولها ضمن الاتحاد الايطالى

انضمام وسط ايطاليا : يمكن تصور حال كافور لما علم أن نابليون انخذل عنه ساعة النصر وأنه حرمه ثمرة عمله بعد أن ظن أنها فى قبضته ، فلا عجب أن فقد ذلك السياسى المحنك رشده وأصر على استمرار الحرب أو اعتزال منصبه . وقد أظهر أمانوئيل الثانى ثباتا وحزما مدهشا فى ذلك الوقت الحرج فقرر الموافقة على ما حصل وقبل استعفاء وزيره العظيم . ولكن كافور فكر فى الأمر مليا فتبين له حسن رأى ملكه وأن معاهدة زيورخ لا تحول دون الوصول إلى بغيته لأنه (١) تقرر الاتحاد الايطالى ولم يفصل طريق ذلك ولم يذكر شىء عن اختصاص الهيئة المركزية له (٢) تقرر أن يعود حكام الوسط الى بلادهم ولكن لم يذكر شىء عن ما اذا كان هؤلاء الحكام يمكن اعادتهم بالقوة اذا أبت الرعية قبولهم (٣) وجود البندقية فى يد النمسا وضمن الاتحاد ينتهى بأحد أمرين : اما أن يكون الاتحاد صوريا فقط لا دخل له فى شىء مهم كالتجنيد واعلان الحرب والسياسة الخارجية ، واما أن تنجح النمسا فى تسيير الاتحاد كيف شاءت .

وأول نقص ظهر هو عدم تقرير اعادة الحكام بالقوة لانه انبنى على ذلك أن سكان بارما ومودينا وتسكانيا وبعض أملاك البابا مثل رومانا أصروا على عدم قبول حكامهم وأظهروا رغبتهم فى الانضمام الى بيدمنت فرأى أمانوئيل أن يعلن انه لا يوافق على هذه الفكرة ، ولكنه فى الوقت نفسه أرسل بعض رجاله لادارة حكومة هذه البلاد ، ورأى كافور أن واجبه الوطنى يقضى برجوعه الى الوزارة والاتفاق مع نابليون على ضم دوقيات الوسط نظير التنازل لفرنسا عن سافوى ونيس ، وقد أسرع نابليون الى

الرضاء وبرر ذلك بما يسميه « الفكرة العظمى » وهى استفتاء الشعوب فى تقرير مصيرها ، فاشترط أن تؤخذ أصوات جميع سكان هذه الجهات ويعمل بنتائجها فتم ذلك كما يبغي كاڤور ونابليون ، على الرغم من معارضة غاريبلدى فى ضم نيس مسقط رأسه الى فرنسا . بهذا الاتفاق تضاعفت مساحة بيدمنت وعدد سكانها والتأم البرلمان الأول لجميع المملكة سنة ١٨٦٠ فى تورين

غاريبلدى

ذكرنا من أبطال الاتحاد الايطالى يوسف مازينى وانه كان بمثابة الروح لذلك العمل العظيم ، والكونت كاڤور وهو بمنزلة الرأس المدبر لشأنه ، ولنذكر الآن بطلا ثالثا كان للاتحاد ساعده الايمن الا وهو « غاريبلدى » .

ولد غاريبلدى فى نيس سنة ١٨٠٧ وكان مولعا بالبحر وركوبه من صغر سنه فلم يستمر فى الاستعداد لدخول الكنيسة كما كان يود أبوه ، بل انتظم فى سلك ايطاليا الفتاة فحكم عليه بالاعدام من جراء ذلك ، ولكنه تمكن من الفرار إلى أمريكا الجنوبية حيث اشترك فى الحروب الكثيرة التى كانت بها إذ ذاك ، وبقى هناك حتى سمع بثورات سنة ١٨٤٨ فعاد إلى إيطاليا وأخذ يشتغل مع مازينى فرأس الدفاع فى جمهورية رومة حتى اضطره الجيش الفرنسى إلى الجلاء عنها ، فيمم البندقية وناوأ النمسا زمنا طويلا اضطر بعده إلى الفرار ثانية إلى أمريكا . ثم عاد إلى إيطاليا سنة ١٨٥٤ واشتغل بالزراعة ، الا أن كافور استماله إلى جانبه وعول على الاستفادة من شجاعته ووطنيته ، فشجعه بعد عودته من مؤتمر باريس على تكوين فرقة من المتطوعين لمحاربة النمسا وكان يخفى عنه عزمه على التنازل عن نيس لفرنسا فلما جاءت الحرب ظهرت شجاعته وخبرته فاحبه الجنود حبا شديدا

بقى غاريبلدى يعمل على توحيد ايطاليا وكافور يساعده سراً ويمده بالعدد والمال فى حين أنه يتظاهر أمام الدول بمطاردته حتى حصلت ثورة فى « بالرمو » سنة ١٨٦٠ فقام غاريبلدى من جنوة مع ١١٠٠ متطوع اشتهروا « بالالف ذوى الاقمصة الحمراء » ونزل بصقلية فقابله أهلها بالترحاب وانضم اليه كثير منهم ، فهزموا جيش « فرنسوا الثانى » ملك نابلى وكان أربعة وعشرين ألفا ثم اخترق بوغاز مسينا وسار قاصدا نابلى فلم يقابل مقاومة تذكر ، على أن جيش نابلى كان يربو على مائة ألف ، فدخل غاريبلدى العاصمة وتحصن فرنسوا فى « جيتا » . ولا يصح أن ينسب هذا التقدم إلى شجاعة غاريبلدى وخبرته فقط ، بل يرجع فى أصله إلى قيام الشعب عن بكرة أبيه ضد الحكومة بفضل الروح الذى بثه مازينى ، وإلى سوء نظام جيش نابلى

خشى كافور أن يتم غاريبلدى اخضاع مملكة نابلى ثم يتقدم الى رومة فيخضعها بالقوة فيشتبك مع الجنود الفرنسية التى تحميها ، فيؤدى هذا الى محاربة فرنسا ، ورأى من جهة أخرى أنه يمكن إرضاء فرنسا بترك رومة لنفسها مع الاستيلاء على بقية أملاك البابا فاتفق مع نابليون على ذلك ، وزحف امانوئيل بجيشه وتغلب على جنود البابا المأجورة ، ثم تقدم لمساعدة غاريبلدى وكان أعياه الحصار لقلة مدافعه ، فانتصر جيش بيدمنت فى « كبوا » ثم حاصر « جيتا » حتى سقطت فى فبراير سنة ١٨٦١ ، وتقرر بأغلبية الاصوات ضم مملكة الصقليتين إلى بيدمنت وأذعن غاريبلدى لرأى الملك وعاد للاشتغال بالزراعة ثانيا — واجتمع البرلمان فى تورين يمثل كل ايطاليا الا البندقية ورومة وقرر اعلان مملكة ايطاليا والمناداة بامانوئيل الثانى ملكا عليها

وكان مازينى وغاريبلدى يريان أنه يلزم الاستيلاء على رومة والبندقية بالقوة من غير تأخير ، ولكن كافور والملك تغلبا عليهما وقررا ترك أمرهما الى

الفرص المستقبلة وبعد ذلك بأشهر مات كاڤور أكبر ابطال الاتحاد الايطالى في يونيه سنة ١٨٦١ وحسبه ان قال فيه مترنخ « ليس فى أوربا الا سياسى واحد لكنه للأسف ضدنا ، ألا وهو مسيو كاڤور »

بقيت البندقية فى يد النمسا حتى بدت علائم الحرب مع بروسيا فاتفقت ايطاليا مع الأخيرة على أن تساعدها بشرط أن تعطى لها البندقية ، فلما أعلن الحرب انهزم الايطاليون ولكن انتصار بروسيا الباهر ألزم النمسا أن تتنازل لايطاليا عن البندقية بمقتضى معاهدة براغ سنة ١٨٦٦

بقيت رومة وحدها منفصلة عن ايطاليا تحميها الجنود الفرنسية حتى جاءت الحرب الفرنسية الالمانية سنة ١٨٧٠ فاضطر نابليون أن يسحب الحامية ، فاستولت عليها إيطاليا واقتصر البابا على السيادة الدينية ، وفى سنة ١٨٧١ دخلها الملك وجعلها عاصمة ملكه لأن أغلبية الشعب كانت تود ذلك.

لقد تم اتحاد ايطاليا لاجتماع أسباب كثيرة أهمها ثلاثة : الروح الذى نفخه فيها مازينى ، والاقدام الذى أهاجه غاريبلدى ، والحكمة التى سار بها كافور . فاجتمع لايطاليا ما يندر اجتماعه فى وقت واحد — الحماسة والاقدام وحسن السياسة

الفصل السادس عشر

قيام الدولة الالمانية الحديثة

من أهم التغييرات السياسية التى حدثت فى القرن التاسع عشر تكوين الدولة الألمانية القوية بعد أن كانت ألمانيا عبارة عن مجموعة امارات مفككة الروابط ضعيفة الأوصال . كانت ألمانيا — كايطاليا — إسما جغرافياً لايدل على أمة أوحكومة واحدة وكانت خريطة ألمانيا أعجوبة العالم لكثرة ماعليها من البقع المختلفة ، ولكن عدد هذه الامارات أخذيقل عقب الثورة الفرنسية إلى أن تدخل نابليون فى الشئون الألمانية فصار عدد هذه الامارات ٣٩ وظل هذا العدد باقيا بعد مؤتمر فينا . وكانت هذه الاقسام تمثل جميع أنواع الحكومات ففيها المدن المستقلة والدوقيات والمنتخبات وكان من بينها خمس ممالك : بروسيا — هانوفر — سكسونيا — ورتمبرغ — بفاريا والممالك الثلاث الأخيرة من عمل نابليون

أما أمبراطور النمسا فكان عاهل ألمانيا اسما لان كل أمارة كانت فى الحقيقة مستقلة لايربطها بالنمسا إلا تلك العلاقة التاريخية الضئيلة المسماة « بالامبراطورية الرومانية المقدسة » وقد تنازل أمبراطور النمسا عن هذا اللقب منذ سنة ١٨٠٦ وبعد ذلك جمع نابليون الجزء الأعظم من المانيا فى « اتحاد الرين » ولكن هذا النظام سقط بسقوط منشئه

ثم عرضت مسألة المانيا على مؤتمر فينا ، وكانت سياسة مترنخ أن تبقى ألمانيا مفككة حتى يمكنه التغلب على حكوماتها منفردة بخلاف ما اذا اتحدت أجزاؤها كما كان رجاء الشعوب التى قامت واتحدت وحاربت نابليون فى موقعة « ليبزج » إذ باتحاد ألمانيا يضعف سلطان النمسا ويعجز مترنخ عن تنفيذ

رغباته . كذلك إذا اتحدت فاقت بروسيا على النمسا ونالت المنزلة الاولى لأن بروسيا مكونة من عناصر ألمانية بحتة أما النمسا ولو أن حكومتها ألمانية إلا أن مصالحها أجنبية لأن ثلثى سكانها من الجنس الصقلبى . وعلى ذلك لم يعدم مترنخ وسيلة لتنفيذ مآربه فى ألمانيا ، فارضاء للشعور الالماني أنشأ الاتحاد الالمانى يجتمع مجلسه فى فرنكفورت تحت رياسة النمسا

المجلس الألمانى أو الرباط

كان هذا المجلس يتكون من مندوبين من قبل الامراء لا من نواب عن الأمة فكان أعضاؤه أشبه بالسفراء منهم بالمشرعين إذ لم يكن لهم حق اقتراح القوانين ولم يكن هناك قوة تنفيذية مسئولة إذ كان كل مندوب مسئولا أمام أميره رأسا — واذا اجتمعت الجمعية للمداولة فى المسائل العادية أخذت الأصوات حسب الأغلبية وكان للامارات الصغيرة التى تحت نفوذ مترنخ مباشرة ثلثا الأصوات تقريبا وبذلك ضمن مترنخ تنفيذ رغباته فى المجمع ، ويتضح من ذلك جليا نقص مشروع المجلس الالمانى وعدم تمثيله لمصالح ألمانيا

ولم تكن المانيا فى حال تسمح باتحادها اتحاداً حقا لأنه فضلا عن تنافس بروسيا والنمسا من أجل القيادة كان التنافس شديدا بين جميع إمارات ألمانيا وكانت كل منها شديدة الحرص على مصالحها الشخصية . أضف إلى ذلك عدم وحدة ألمانيا من الوجهة الاقتصادية

ومما ساعد على عرقلة أعمال المجلس كونه دوليا أكثر منه وطنيا إذ كان يمثل فيه ثلاثة ملوك أجانب : ملك انجلترا عن هانوفر وملك الدنمرقة عن هولستين وملك الأراضى الواطئة عن لكسمبرج . غير أن أهم ما جاء به الاتحاد الالمانى تعاهد الامارات على الا تحارب بعضها البعض وألا يتحالف

عضو منها أو أكثر ضد الآخرين وأن تعرض جميع المنازعات أمام المجلس للفصل فيها . أما مادة ١٣ الشهيرة التى قصد بها إرضاء الاحرار فقررت منح مجالس نيابية فى الامارات المختلفة ، ولكنها لم تعين نوع هذه المجالس ولا وقت منحها

بذلك ضاعت آمال الاحرار الذين قاموا سنة ١٨١٣ لمحاربة نابليون وخاب رجاؤهم فى تكوين الوحدة الالمانية . وكيف يتيسر ذلك والنمسا واقفة بالمرصاد ؟ كونت الوحدات الوطنية فى انجلترا وفى فرنسا وإسبانيا فى القرون الوسطى بأن تقوت إحدى الامارات والتهمت ما جاورها شيئا فشيئا حتى صار لها سلطان عام على الجميع . أما فى ألمانيا فشىء من ذلك لم يحصل إذ بقيت مجزأة إلى نهاية القرن التاسع عشر ولم يكن هناك طريقة سوى فوق إحدى الامارات وإخضاعها للامارات الأخرى . ولم تكن لتقوى على مثل هذا العمل غير بروسيا ولكنها وقعت كغيرها — طوعا أو كرها — فى الفخ السياسى الذى نصبه مترنخ ضد تكوين اتحاد قوى أو إدخال نظم نيابية ، ولم يظفر بهذه النظم سوى إمارات بفاريا وبادن وورتمبرج رغبة فى استمالة الرأى العام إلى الحكومة المحلية وصرفه عن بروسيا . ولم تكن هذه النظم مثل نظم انجلترا أو فرنسا من حيث الحرية النيابية

تدخل مترنخ فى ألمانيا

اتخذ مترنخ فى النمسا وممتلكاتها كل الاحتياطات الممكنة لمنع انتشار الافكار الثورية وصد كل حركة من شأنها تنوير الرأى العام أو تغيير نظام الحكومة ، واستعان فى تنفيذ سياسته بكل الطرق المشروعة والغير المشروعة فوضع الرقباء وبث العيون والجواسيس لمراقبة المطبوعات والجامعات وحركات الاحرار وبالجملة نجح فى حراسة ممتلكات النمسا . ولكن كيف يضمن

استمرار الحال على ما يريد إذا لم تتبع الروسيا وبروسيا نفس النظام ؟ لذلك كان هم مترنخ فى أول الامر استمالة قيصر الروسيا وملك بروسيا إلى جانبه أما اسكندر الاول فقد اشتهر فى ذلك الحين بافكاره الحرة ودل على ذلك منحه بولندة نظاما نيابيا . كذلك فردريك وليم الثالث كان قد وعد شعبه بنظام نيابى ولكن مترنخ كان سياسيا حاذقاً يعرف كيف يصبر وينتفع بالفرص إذا ما حانت

وكان فردريك ضعيف العزيمة مترددا بطيئا وقع تحت تأثير الرجعيين بعد سنة ١٨١٥ فلم يف بوعده ، وكذلك فى سنة ١٨١٨ كان قد غير القيصر اسكندر أفكاره وصار من أنصار مترنخ . أما الظروف التى استفاد منها مترنخ وإليها يرجع فضل نجاح سياسته فى ألمانيا فهى : —

أولا — احتفال ورتبرج — كان الحماس شديدا بين طلاب الجامعات فى ألمانيا وخصوصا فى دوقية « ساكس ويمر » التى بها جامعة « ينا » وكانت هناك جمعيات لنشر الفكرة الوطنية وللألعاب البدنية والتمرين العسكرى منتشرة بين الطلاب يرجع أصلها إلى فترة نهوض ألمانيا (١٨٠٦ — ١٨١٣) ثم صار الاشتراك فى هذه الجمعيات بعد سنة ١٨١٥ عموميا لكل جامعة وأراد أعضاء هذه الجمعيات الاجتماع فى ١٨ اكتوبر سنة ١٨١٧ فى ورتبرج لاحياء ذكرى موقعة ليبزج بعد مضى أربع سنوات واحياء لذكرى مارتن لوثر بعد مضى ثلاثة قرون . وكان لوثر قد اختبأ فى قصر ورتبرج سنة ١٥٢١

لذلك كان الاحتفال دينيا وسياسيا فى آن واحد وبعد أن انتهى الطلبة من خطبهم تراءى لهم إحراق بعض شارات النظام الرجعى تقليداً لاحراق لوثر قرار الحرمان الذى أصدره اليه البابا فأحرقوا رسالة رجعية كانت أعجبت ملك بروسيا وقانون البوليس البروسى وعصاه ، ثم انصرفوا وانوا نسى أكثرهم ما كان بالأمس فلم يشعروا إلا وقد أنزلتهم أوربا منزلة لم تخطر لهم على بال .

أثار هذا الاحتفال البسيط سخط مترنخ وحكومة بروسيا فهول مترنخ في الأمر وأعلن أن هذه الحادثة مقدمة أعمال فوضوية اذا لم تتدارك أتت بثورة عامة . ثم ترقب الفرص الى أن وقعت الحادثة الثانية وذلك أن طالبا اسمه « كارل ساند » قتل سنة ١٨١٩ شاعراً كاتبا قليل الأهمية يسمى « كتسبو » لأنه عزى اليه موافاة قيصر الروسيا باخبار مقلوبة عن حال بروسيا

كانت هذه الجريمة في نظر مترنخ نذير الثورة والفوضى لذلك سرعان ما قابل فردريك وليم واتفق معه على وضع قرارات رجعية لملافاة الحالة

قرارات كارلسباد

ثم دعا مترنخ اليه في كارلسباد بعض وزراء حكومات ألمانيا ، وعرض عليهم القرارات الآتية لأجل النظر فيها وتقريرها سريعا في المجلس الالماني : —

(١) يجب ألا يفهم من مادة ١٣ من قانون الاتحاد الالماني إنشاء مجالس نيابية على النسق الأجنبي (انجلترا وفرنسا) بل الغرض منها تمثيل طبقات الأمة حسب المعتاد في حكومات المانيا القديمة

(٢) تعيين مراقبين في الجامعات ليراقبوا المحاضرات والكتب والمناظرات

(٣) قفل جمعيات الطلبة وأنديتهم وتقييد الصحافة والخطابة ومحاربة الجمعيات السرية . بذلك ثبت نظام مترنخ في ألمانيا وبقي سائداً الى سنة ١٨٤٨ ومن ذلك الوقت ضعف سلطان بروسيا السياسي في ألمانيا وصارت حكومتها في يد مترنخ

أثر ثورة سنة ١٨٣٠ فى ألمانيا

لم تؤثر هذه الثورة فى بروسيا رغم ما كان فيها من القيود الاستبدادية، وذلك لأمرين . أولهما شدة ارتباط الناس بملكهم وحبهم إياه مما حملهم على تأخير طلب الدستور الى الحكم التالى ، وثانيهما أن بروسيا استفادت كثيراً من هذه الحكومة الأبوية . كذلك كان تأثيرها قليلا فى باقى أنحاء ألمانيا؛ ماعدا برنزويك وهس والبلاتينات حيث قام الشعب يطالب بالدستور ، الا أن هذه الحركة قضى عليها بسهولة اذ وجه مترنخ التفاته الى ألمانيا فدعا وزراء الامارات الالمانية الى فينا سنة ١٨٣٢ وهناك ضيق الخناق على الاحرار فرماهم بقررات من قبيل قرارات كارلسباد الا أنها أشد منها ، وأوحى الى المجمع فوافق عليها وأهمها : —

١ — أن لكل أمير حق رفض أى طلب من شأنه التدخل فى سلطته

٢ — تحريم الامتناع عن دفع الضرائب للأمير أو تهديده بذلك

٣ — تعيين لجنة لمراقبة المجالس النيابية ومنعها من التدخل فى سلطان الأمير أو الدياط

٤ — كل الاحوال الخاصة بالمسائل الدستورية يكون الاستئناف فيها إلى المجمع

ويلاحظ أن هذه القرارات لم تمنع فقط منح مجالس نيابية فى المستقبل بل قضت على الموجود منها تماما ، وبالرغم من هذا كله لم تزل الحركة الثورية فى تقدم لأنه لما منع الناس من الاشتغال بالسياسة علناً عمدوا إلى تكوين جمعيات سرية أميل الى الثورة من العلنية . وكانت هذه الجمعيات الجديدة تشبه جمعية إيطاليا الفتاة فأخذ المنفيون يضعون خططهم وينظمون قوتهم؛ فى انتظار هبوب ثورة من جديد

التغييرات التى طرأت على بروسيا

قد عرفنا أنه لم تكن فى ألمانيا حرية سياسية ولا مجالس نيابية ولكن لم يكن ذلك ذا أهمية فى بروسيا لأن البروسيين لم ينشأوا على الحرية ولأن حكومة فردريك وليم الثالث (١٧٩٧ — ١٨٤٠) كانت حكومة أبوية أمينة محبوبة حكيمة ولأنه لم يكن هناك ظلامات يئن من وقعها الشعب . وأهم التغييرات التى طرأت على بروسيا بعد سنة ١٨١٥ كانت اقتصادية لا سياسية .

صار لبروسيا بعد تعديلات مؤتمر فينا أملاك ورعايا جديدة متفرقة فكان من رأى حكومة فردريك وليم العمل فى توحيد بروسيا اجتماعيا واقتصاديا قبل توحيدها سياسيا وقبل النظر فى توحيد ألمانيا . فقد كان لبروسيا ولايات على نهر الرين وأهل هذه الولايات فرنسيون من جهة التقاليد وكان مذهب أغلبهم الكاثوليكية وكان تحت حكمها بولنديون وسكسونيون فصار من الواجب لم شمل بروسيا اقتصاديا وتدريب الشعوب الجديدة على النظام البروسى وإصلاح التربية والادارة والقضاء

الضرائب الجمركية او الزلفرين

وأول ما اشتغلت به حكومة بروسيا هو تعديل الضرائب الجمركية ، وكانت هذه الضرائب منتشرة ومتباينة فى جميع الاقاليم والمدن فكانت لا تمر البضاعة من بلد إلى آخر إلا بعد دفع الضريبة المقررة ، ولذلك كسدت التجارة واتسع نطاق التهريب إذ كان من الصعب تعيين عدد كاف من الحراس والمراقبين . فتغير كل هذا النظام فى سنة ١٨١٨ بفضل المصلح المالى « ماسن »

الذى الغى الجمارك الداخلية وأعلن حرية التجارة فى بروسيا . ولتعويض الخسارة المالية الناشئة من هذه الاصطلاحات فرض ضرائب كبيرة على البضائع الواردة بطريق البحر

ولما أتمت بروسيا هذه الاصلاحات لنفسها اجتهدت فى استمالة الامارات الالمانية الأخرى لاتباع نظامها الاقتصادى (حرية التجارة فى الداخل ووضع الضرائب على البضائع الاجنبية) والاشتراك سويا فى الايراد فاحتج كثير من الامارات فى أول الأمر ولكن سرعان ما ظهرت لهم فوائد الاشتراك . وأول من اشترك فى نظام الزلفرين أو الاتحاد الجمركى هى الامارات المحصورة فى الأقاليم البروسية ، أما جنوب ألمانيا ووسطها فلم يشترك الا متأخرا . ولما جاءت سنة ١٨٤٢ كانت قد اشتركت جميع الامارات الالمانية فى اتحاد بروسيا ما عدا مكلنبرج وهانوفر والنمسا ومدن الهنسا

وكان من نتائج هذا الاتحاد (الزلفرين) أن اتسعت التجارة وتعلمت الحكومات الألمانية أن تتحد من الوجهة الاقتصادية ، واعتاد الالمان العمل من غير رأى النمسا وجعلوا ينظرون إلى بروسيا لا إلى النمسا كزعيمة لهم

فردريك وليم الرابع (١٨٤٠ — ١٨٦١)

تحاشى البروسيون تكدير صفو ملكهم فردريك وليم الثالث الذى قاسى كثيراً فى أول حكمه من جراء الحروب النابليونية ولم يرغبوا فى ازعاجه والتنغيص عليه وخاصة فى آخر أيامه إذ كان محبوبا عند الجميع . لذلك لما مات وجاء بعده ابنه فردريك وليم الرابع اشتغلت الافكار وابتدأ الجميع ينتظرون اصلاحات عامة لما اشتهر به بينهم فردريك وليم الرابع من تنوره وأمياله الحرة وتشجيعه للأدبيات والفنون . وما اعتلى العرش حتى عفا عن

المسجونين السياسيين وبدأ عهداً جديداً لبروسيا ، ولكن سرعان ماخابت آمال المصلحين لأنهم طلبوا مجلساً نيابيا عاما لجميع بروسيا وكان فردريك وليم الرابع من هذه الوجهة كسالفه . ولما اشتد الأخذ والرد بشأن طلب المجلس النيابي قيد الصحافة وضيق على حرية الخطابة

وظل الملك يفكر فى مشروع نظامى يشرك معه الامة فى الحكم بدون أن يلجأ الى انشاء مجلس نيابى حتى جاءت سنة ١٨٤٧ فأصدر فى فبراير أمراً عاليا بلزوم دعوة جميع مجالس المديريات التى أنشأها والده للاجتماع معا إذا مارأت الحكومة عقد قروض أو تقرير ضرائب جديدة وأعطى لهذه الجمعية حق تقديم الاقتراحات . غير أنه كان للملك حق دعوة الجمعية فى أى وقت شاء ، فاستاء القوم من خيبة آمالهم . ولما اجتمعت الجمعية الجديدة بدأ النزاع بينها وبين الملك إذ طلب الملك تقرير قروض جديدة وتوقفت الجمعية وطلبت برلمانا حقا ، ففض الملك الجمعية ورجعت الحالة إلى ما كانت عليه من سخط عام وحرية مصادرة

ثورة سنة ١٨٤٨

فى سنة ١٨٤٨ دق ناقوس موت سياسة مترنخ فى أوربا بعد أن سادت جيلا من الزمن ، على أن سياسة مترنخ التى كان أساسها تجنب الحروب وقمع الثورات خدمت أوربا وشعوبها كثيراً إذ ضمنت لهم السلام وجعلتهم يفكرون فى مصالحهم المادية وازدياد الثروة بترقية التجارة والزراعة والصناعة ولما حرم على الناس الاشتغال بالسياسة والأدبيات اتجهت أنظارهم بطبيعة الحال إلى الماديات والفنون ولذلك قويت الطبقات الوسطى وبدأ العمال فى الانتشار وفكروا فى تكوين النقابات وفى درس حقوقهم ونصيبهم فى الحياة .

هذه هى العوامل التى كانت تعمل مستترة وببطء وسط الشعوب الاوربية فى أثناء ما كان مترنخ يرغى ويزبد من أجل بضعة عشر طالبا وأستاذاً فى المانيا .

لذلك كانت ثورة سنة ١٨٤٨ فى فرنسا مقدمة لعدة ثورات قامت فى وسط أوربا لأن عناصر الثورة كانت موجودة فى تلك البلاد ولم ينقصها إلا شعلة النار التى أثارتها فرنسا .

أثر ثورة ١٨٤٨ فى ألمانيا

.قامت الثورة فى فرنسا فارتجت من اثرها حكومات أوربا الوسطى وقامت الثورات التى كانت نتيجتها سقوط « مترنخ » وفراره من فينا مركز السياسة الرجعية . وتشجعت الامم المغلوبة على أمرها فى أوربا وتشجع الأحرار فى كل مملكة فقاموا وأعلنوا حربا عوانا ضد قوى الاستبداد

وكانت النتيجة فواق الاحرار فى مبدأ الامر فى المجر وايطاليا . كذلك قامت حركة فى ألمانيا على أثر ماحصل فى النمسا وخصوصا عقب سقوط « مترنخ » الذى كان سلطانه عظيما على إمارات ألمانيا .

قام الثوار فى برلين ووضعوا المتاريس فى الشوارع وأريقت الدماء ولكن تدارك الملك الامر فدعا جمعية مجالس المديريات لوضع نظام دستورى لبروسيا ووعد بقيادة حركة الوحدة الالمانية ، فاصدر منشورا قال فيه « إن ألمانيا فى هياج داخلى تحفها الاخطار الخارجية من جهات متعددة ولا سبيل للخلاص من هذا الخطر إلا بالوفاق التام بين الامراء الالمان والشعب الالمانى واتفاقهم على أن يكونوا تحت إمرة قائد واحد ، وقد أخذت هذه القيادة على عاتقى فى ساعة الخطر وأعدت اليوم العلم الالمانى القديم وجعلت نفسى وقومى تحت ظل علم الامبراطورية الالمانية المبجل فاليوم تندمج بروسيا فى المانيا » ولكن التحمس

كان شديداً وأخذت الجرائد والكتاب تبحث فى المواضيع النيابية فاجتمع جماعة من الزعماء وأصدروا نشرة لدعوة نواب عن جميع الامارات ينتخبهم الشعب للاجتماع بفرنكفورت لوضع نظام اساسى سياسى لجميع المانيا .

برلمان فرنكفورت

وفى ١٨ مايو سنة ١٨٤٨ اجتمع هذا البرلمان العرفى بين حماس لاحدله إذ كان به الشعراء والصحفيون والفلاسفة والأساتذة ولم يغب عنه إلا الأمراء والاشراف

وكان أصعب شىء أمام البرلمان أن يقرر لمن تكون رياسة الاتحاد الالمانى ومن يكون أعضاء الاتحاد ، أو بعبارة أخرى ما يكون مركز النمسا فى ألمانيا ، وبعد جدال طويل تقرر أن تكون الرياسة لبروسيا وأن تكون الحكومة ملكية مقيدة وراثية وأن ينضم للاتحاد الجزء الألمانى من النمسا فقط . فلما قدم التاج الألمانى إلى فردريك وليم الرابع أبى أن يقبله خوفا من النمسا التى تغلبت على الثورة فى بلادها بعد فرار مترنخ ، باستعمالها العنصر الصقلبى سلاحاً لاخضاع المجر ، فخشى ملك بروسيا أن تحاربه النمسا على الرياسة فتغلبه ، ولا سيما اذا انضم اليها أمراء ألمانيا الذين كان فردريك يعلم انهم يترقبون الفرص لارجاع سلطانهم والقضاء على برلمان فرنكفورت ، فلما أبى ملك بروسيا قبول التاج ذهبت مساعى البرلمان أدراج الرياح وأخذ فى الاضمحلال

بعد أن نجحت النمسا فى احباط سعى برلمان فرنكفورت سهل عليها احباط كل سعى حاولت بروسيا به تكوين اتحاد جزئى على قاعدة جديدة وذلك أن فردريك وليم ذكر فى الخطاب الذى أرسله لبرلمان فرنكفورت برفض التاج « أن فى عزمه أن يرئس اتحاداً تكونه الامارات مختارة » .

وبعد ذلك أرسل مذكرة لكل حكومات ألمانيا يدعو فيها من يرغب الاتحاد مع بروسيا الى مؤتمر فى برلين يلتئم فى ١٧ مايو ولما فتح المؤتمر تقرر أن يدعى برلمان مشترك فاجتمع أحرار ألمانيا وقرروا أن تشترك الثانية والعشرون إمارة التى قبلت دستور فرنكفورت فى الاتحاد الجديد فلم يبق خارجا عنه الا النمسا وورتمبرج وبفاريا

فلما اجتمع البرلمان المشترك الجديد فى مارس سنة ١٨٥٠ فى «ارفورت» احتجت النمسا على عمل بروسيا وأعلنت أن كل ماحصل منذ مارس سنة ١٨٤٨ لا يغير شيأ من نظام المانيا وان « الدياط » هو صاحب الحق الشرعى وأن النمسا لا تعترف بغيره . على انها مستعدة أن تفاوض الامراء فيما يريدون ادخاله على نظامه من الاصلاح فاجابت بروسيا أن النظام القديم قد محى ، وطال الجدال بين الجانبين

ورأى « شوارزنبرج » وزير النمسا الذى حل محل مترنخ تردد ملك بروسيا فتغالى فى طلباته وأصر على حل الاتحاد البروسى فتقابل وزير بروسيا و « شوارزنبرج » فى «المتز» سنة **١٨٥٠** حيث اعترفت بروسيا بأن نظام سنة ١٨١٥ لايزال باقياً . وتعرف هذه الحادثة فى تاريخ المانيا «بأذلال المتز»

ولكن رغم كل هذا الضعف السياسى أخذت الحالة الاقتصادية فى بروسيا فى التحسن وتقدمت الصنائع والمعامل تقدما سريعا ، وساعد على ذلك استكشاف الذهب فى كاليفورنيا ثم فى استراليا ١٨٥١ فصارت العملة المتداولة أربعة أضعاف ما كانت عليه . ففتحت البنوك المالية وتأسست الشركات التجارية والصناعية لتوفر رأس المال وظهرت فى هذه الفترة معامل كروب الشهيرة بصهر الحديد وتكاثر عدد السكان فى المدن وبدأت الطبقات الوسطى تقوى وأينعت العلوم والأدبيات

وليم الاول و بسمارك والوحدة الالمانية

فى سنة ١٨٥٧ بدأت قوى فردريك وليم العقلية تضعف وبدأ أخوه وليم ينوب عنه ولكنه بعد سنة فقد كل أمل فى رجوع الملك الى عقله ، فصار وليم وصيا ، وكان هذا الامير مبغضا فى أوائل حكم أخيه لما كان يشاع عنه من أنه رئيس الرجعيين ، ولكن هذه الفكرة تغيرت في السنين الاخيرة رغم اعتقاده فى حق الملوك المقدس ، ورغم اعتقاده بحاجة بروسيا الى حكومة ملكية قوية وذلك لانه كان لايريد الرجوع القهقرى بل كان يريدأن يحافظ على الحرية التى منحت ، وأهم من ذلك أنه كان فيه من أخلاق الرجولة والعلم بقيمة قومه ما لم يكن في أخيه ، وكان وليم من أشد الناس سخطا على « اذلال المتز » وكان يعلم انه لم ينزل ببروسيا الى هذا الحد إلا ضعف جيشها ، فلذا بدأ باصلاح الجيش وتقويته وعرض الاقتراح على البرلمان سنة ١٨٦٢ فأبى الموافقة على منح المبالغ اللازمة للجيش ، فحار الملك وانقسمت الوزارة فلم يجد بدا من الاستنجاد باشد أصدقائه عزما وأكبرهم احتقارا للبرلمانات الا وهو بسمارك

بسمارك

ولد بسمارك سنة ١٨١٥ قبل فرار نابليون من « البا » بشهر من أسرة عريقة في برندنبرج توطنت تلك الجهة قبل أسرة « هوهنزلرن » بمائتى عام وقضى حياته الأولى كما قضاها « كافور » مشتغلا بالزراعة واشتهر أمره كما اشتهر أمر كافور فى ثورة ١٨٤٨ ولكن لأسباب مختلفة ، لانه كان — حتى فى تلك السنة — يرى «أن الامم لم ترق بنفسها ولكنها ارتقت بهمة ملوكها وأن كل ما يتشدق به من نظم دستورية انما هو ضعف واضاعة وقت».



بسمارك

فلما كانت أزمة ١٨٦٢ بين الملك والبرلمان لم يجد وليم أحسن من ذلك الرجل الذى جاهر باحتقار البرلمانات أيام ربيع الحرية فعينه رئيسا للوزارة فى أحرج الاوقات ، ونصح بسمارك للملك بأن يكتفى بموافقة مجلس الاعيان على القانون العسكرى وألا يكترث برأى مجلس النواب ، يدلك على ذلك كلمة بسمارك الشهيرة « إن الخطب وأغلبية الاصوات لاتحل عظيم المشاكل اذ لابد فى ذلك من الحديد والدم »

هذه السياسة سياسة العنف والقهر ، سياسة الغرض المرسوم والسعى المدبر ، سياسة الاستهتار بالمبادىء وعدم المبالاة ، هى الخطة التى سار عليها بسمارك أثناء فواقه فى أوربا والتى حدت به لخوض حرب أثر حرب خلقت الوحدة الالمانية فى اثنائها ، أما الحروب فهى :

١ — حرب الدنمرفة سنة ١٨٦٤

٢ — حرب النمسا سنة ١٨٦٦

٣ — حرب فرنسا سنة ١٨٧٠

والحروب الثلاث من تصميم بسمارك أى أنه تسبب فى وقوعها وكلها استخدمها لغرض واحد نهائى هو وحدة ألمانيا برياسة ملك بروسيا

حرب الدنمرقة ومسألة شلزوج وهلستين

قامت هذه الحرب بسبب مسألة شلزوج وهلستين وهما دوقيتان جنوبى شبه الجزيرة الدنمرقية وكانتا تابعتين لملك دنمرقة لا لدنمرقة نفسها وكان ملك دنمرقة دوقا للقسمين وكان الالمان بطبيعة الحال يريدون الانضمام الى ألمانيا والدنمرقيون الى الدنمرقة . وفى سنة ١٨٥٢ حكمت الدول بمقتضى قرار لندرة أن تبقى الدوقيتان تابعتين للملك من غير أن تصيرا اجزاءا من ممتلكات دنمرقة . غير أنه فى سنة ١٨٦٣ قرر البرلمان الدنمرقى ضم شلزوج فتهيج الالمان وأبدوا استياءهم من انضمام اخوانهم الى حكومات أجنبية فاحتج المجلس الألمانى وطلب من الامارات ارسال جيش لنجدة اخوانهم فى الوطنية .

أما بسمارك فكان رأيه أن تستفيد بروسيا شيأ من هذه الازمة وحرض النمسا على التدخل معه فى المسألة بدعوى تنفيذ واحترام شروط قرار لندرة ١٨٥٢ وفعلا أعلنت النمسا وبروسيا الحرب على الدنمرقة سنة ١٨٦٤ ولم يجدا صعوبة تذكر فى هزيمتها . وأخيراً انتهت الحرب بمعاهدة فينا سنة ١٨٦٤ وبها نزلت الدنمرقة للنمسا وبرسيا عن حقوقها فى شلزوج وهلستين وتعاهدت الحكومتان فى جاستين سنة ١٨٦٥ على أن تحكم بروسيا شلزوج والنمسا هولستين

الحرب النمساوية البروسية ١٨٦٦

رتب بسمارك اتفاق « جاستين » بحيث يكون سببا لاعلان حرب بين النمسا وبروسيا وهو الغرض الذى كان يسعى اليه من أول الامر ، وأخذ يستعد لهذه الحرب سياسيا بعزل النمساعن الذين يمكن أن يحالفوها فضمن حياد روسيا بمساعدتها فى ثورة بولندة سنة ١٨٦٣ ، ثم قابل نابليون الثالث

فى « بيارتز » واتفق معه اتفاقا سرياً ضمن به حياد فرنسا ، ويظهر أنه أوهم نابليون الثالث أنه لايعارضه اذا أرادت فرنسا أن توسع رقعتها جهة حدودها الشرقية ، فانقاد نابليون لشخصية بسمارك ولاعتقاده أن الحرب متى قامت بين بروسيا والنمسا ستطول وان فرنسا ستدخل للفصل بينهما فتكون الشروط كما تود ، ثم اتفق بسمارك مع ايطاليا سنة **١٨٦٦** على أن تعلن إيطاليا الحرب على النمسا متى حاربت ضد بروسيا والا يعقد الصلح الا معاً ، وأن تعطى إيطاليا البندقية جزاء مساعدتها .

بذلك ضمن بسمارك عزلة النمسا ولم يبق عليه إلا إثارتها الاعلان الحرب عليه حتى تكون المسئولية عليها ، فاخذ يحتج على أعمالها فى هلستين ، حتى أثار سخط النمسا لانها عدت عمل بروسيا تدخلا فى شئونها الداخلية ، وأخيراً عرضت النمسا مسألة الدوقيتين أمام المجلس الالمانى وفى الحال أعلن بسمارك ان ذلك خرق لاتفاق « جاستين » ودخلت الجنود البروسية هلستين وصرحت بروسيا أنها تعد نفسها فى حالة حرب مع كل امارة تعضد ذلك الاقتراح ، ومع ذلك انضم إلى النمسا الجزء الاعظم من الامارات مثل بفاريا وسكسونيا وهانوفر وورتمبرج وبادن . اما بروسيا فلم يشترك معها إلا إمارات صغيرة فى الشمال

لم تطل هذه الحرب أكثر من سبعة أسابيع كان النصر فيها لبروسيا إذ بعد أن احتلت الاجزاء الشمالية دخلت بوهيميا وكسبت موقعة « سدوه او كونجراتز » سنة ١٨٦٦ فاضطرت النمسا الى طلب الصلح .

أما أسباب انتصار بروسيا وهزيمة النمسا فتجتمع فيما يأتى

(١) تدرب الجيش البروسى على الطريقة الفنية فى الحرب وحسن نظامه وبراعة القائد العام « فون ملتك » أقدر قائد ظهر فى أوربا منذ نابليون

(٢) دخول إيطاليا الحرب فى جانب بروسيا إذ بذلك اضطرت النمسا أن تحارب فى ميدانين وأن ترسل ٨٠٠٠٠ من جيشها لمقابلة الجيش الايطالى

(٣) تشكيل الجيش النمساوى وعدم وجود شعور وطنى عام بين الجنود التى كانت تحارب فى صفوف النمسا

(٤) سكوت نابليون عن التدخل ولو أبدى أقل مظاهرة حربية كما نصحه وزير خارجيته لخافت بروسيا ولما تم لها ما أرادت .

وقد ختمت الحرب بمعاهدة براغ سنة ١٨٦٦ وهاك شروط الصلح:—

(١) التنازل عن البندقية لايطاليا

(٢) انحلال الاتحاد الالمانى وخروج النمسا من اى اتحاد المانى يكون بعد ذلك

(٣) تكوين اتحاد ألمانى جديد من الأمارات الكائنة فى شمال نهر المين

(٤) ترك بفاريا وورتمبرج وبادن لشأنها

وكانت نتيجة هذه الحرب ان ضمت بروسيا لممتلكاتها شلزوج وهلستين وأهمية هاتين الدوقيتين عظيمة جدا إذ بذلك صار لبروسيا ساحل طويل وموانى تجارية شهيرة مثل كيل ، وكذلك ضمت هانوفر وناصاو ومدينة فرنكفورت وكاسل . ودخل ضمن الاتحاد الجديد إمارة سكسونيا وهمبورج وبريمن . أما نظام هذا الاتحاد فان بروسيا كانت الرئيسة وكان للاتحاد مجلسان البندسرات والريشستاغ وكان الأول على نسق المجلس الالمانى القديم فى تمثيل أمراء المقاطعات — أما الريشستاغ فهو البرلمان أو مجلس النواب ينتخب أعضاءه الشعب ولم يكن له من السلطة ما لمجالس النواب الأخرى والمهم هو المجلس الاول

الحرب الفرنسية البروسية

جد بسمارك في أهم عمل لديه وهو إتمام المعاهدات بين شمال وجنوب ألمانيا وتقريب نظامهم الحربى من نظام بروسيا · وحدث أن قامت سنة ١٨٦٨ ثورة فى إسبانيا انتهت بخلع « إيزبلا الثانية » من أسرة بوربون ، ورأى قائد الثورة الاسبانية دعوة الامير « ليوبولد هوهنزلرن » ليتولى العرش ، فخافت فرنسا أن تتصل بروسيا واسبانيا سياسيا رغم تظاهر حكومة بروسيا بعدم الاهتمام بهذه المسألة ، فأهمل الاقتراح مدة ثم جدد سنة ١٨٧٠ ، وشاع فى باريس أن ليوبولد قبل التاج الاسبانى فثارت ثائرة الصحف الفرنسية ضد بروسيا ، وأسهبت فى السخط عليها وكانت صحف الحكومة أكثرها طعنا فهاج الرأى العام الالمانى وزاد هياجه أن وزير الخارجية الفرنسية « جرامنت » لم يكفه أن الامير تنازل عن العرش بمشورة ملك بروسيا ، بل طلب إلى الملك أن يعد بأنه لا يصرح لأحد من أسرته أن يقبل تاج اسبانيا ، فأبى الملك الموافقة على هذا الطلب لخروجه عن الحد المعقول

وكان بسمارك قد صمم على ألا يفلت الفرنسيون من يده لانه رأى أن عدوه قد جلب على نفسه تهمة العدوان بسوء تصرفه ، فانتهز هذه الفرصة لنشر البرقية التى أرسلها إليه الملك من مصيفه في « امز » يخبره أن فرنسا تطلب إليه ألا يصرح في المستقبل لاى أمير من هوهنزلرن أن يقبل عرش اسبانيا ، وكان الملك قد ترك لبسمارك حرية النشر فرأى هذا أن نشرها برمتها لا يفيد شيئا ، فنشرها بطريقة موجزة تشعر بأن ملك بروسيا قد أهين وأنه قطع علاقاته بفرنسا ، فثار الرأى العام فى بروسيا وفرنسا . هذه هى قصة « برقية امز » التى شاع ذكرها والتى بلغت باريس فى ١٤ يناير فأعلنت فرنسا الحرب على بروسيا

كانت بروسيا فى ذلك الوقت تتوقع الحرب وعلى أتم استعداد له بينا كانت فرنسا فى حالة يرثى لها من حيث خلل النظام وقلة الاستعداد . وقد انضم إلى بروسيا الامارات الالمانية الجنوبية وذلك وفقاللمعاهدة ١٨٦٧ التى وعدت فيها بأخذ جانب بروسيا ضد الاجنبى وكان بسمارك قد مهد الطريق لعزلة فرنساكما فعل مع النمسا ،وكان يخشى أن تساعدانجلترا فرنسا فنشر صورة قديمة لمعاهدة كان يريد إبرامها مع فرنسا وفيها أن نابليون اقترح أن تضم فرنسا بلجيكا إليها فتأثرت حكومة انجلترا وأعلنت حيادها أما عن النمسا فقد أعلن بسمارك أنه إذا تحركت حكومتها ضده دخلت الروسيا الحرب فى صفه . أما إيطاليا فلم تكن فى حالة تمكنها من مساعدة فرنسا فى ذلك

قوة المتحاربين

وكان نابليون يعلم جيداً مقدار القوة التى أعدها اتحاد شمال المانيا، لأن « بندتى » سفيره فى بروسيا كان يخبر حكومته بتقدم الاتحادواستعداده الحربى وحذرها أن جنوب ألمانيا لا بد أن ينضم إلى الشمال إذا هاجمه أجنبى . وكان منتهى ما يمكن فرنسا أن ترسله إلى الميدان ٢٥٠ ألف رجل تزيد إلى ٣٠٠ ألف فى ثلاثة أسابيع . أما بروسيا فكان يمكنها بدون مساعدة الجنوب وبعد ترك ثلاث فرق تراقب حدود الدنمرقة والنمسا ، أن تقدم إلى الميدان ٣٣٠ ألف ، ولما كان آخر يوليه حشد نابليون جيشه بين«متزواستراسبرج». فتقدم الجيش الألمانى وأخذ يبحث عن عدوه وكان القائد الفرنسى « مكماهون » يريد تأجيل الواقعة حتى يصل إليه المدد ، ولكن نابليون كان يخشى النتائج السياسية إذا دخل البروسيون أرض فرنسا فحمل قائده على جمع جيشه فى « ورث » فهاجمهم ولى عهد بروسيا واضطرهم إلى الفرار

بعد ذلك استقال الامبراطور من رياسة الجيش وعين بدله المارشال «بازان» ، وكان ينبغي إذ ذاك أن يتقهقر الجيش الفرنسي من « متز » ليدافع عن فرنسا عامة وباريس خاصة ، ولكن القواد بقوا أياماً لا يدرون ماذا يصنعون حتى اضطر « بازان » إلى التقهقر إلى متز وأسرع الالمان في سد جميع الطرق عليه . فأخذ « مكماهون » يسير شمالا يريد تخليص « بازان » حتى هاجمه الاعداء فعزم على جمع قوته حول « سيدان » لمناجزتهم في واقعة حاسمة وسرعان ما أحاط به الألمان وسلم نابليون نفسه وجيشه وكان يبلغ عدده ١٠٠٠٠٠ وما سمعت باريس هذا الخبر حتى هاج الرأى العام وتألفت في فرنسا لجنة الدفاع الوطني وكان من رؤسائها «تيير» و« غمبتا» و « فافر » فاعلنوا سقوط الامبراطورية وأخذوا مقاليد الاعمال في أيديهم وأعلن « غمبتا » الجمهورية الثالثة برياسة «تيير » رئيس المعارضة

وقد بررت الحكومة الجديدة عملها بالقاء تبعة الحرب على نابليون وأعلنت أن فرنسا تريد صلحا شريفا لا ينقصها من أطرافها . أما الألمان فانهم تقدموا بقيادة ولى العهد لمحاصرة باريس وبعد أن أحاطوا بها ظهر الشقاق بين أهلها فخرج « غمبتا » منها في منطاد واقام نفسه دكتاتوراً في « تور » وكانت مؤن « متز » قد نفدت فسلمت في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٧٠ وبها ١٧٠٠٠٠ الف مقاتل مستعدون للموت لولا إهمال « بازان » ، فقنط الباريسيو واشتدت المجاعة والضنك داخل باريس

وبسقوط «متز» تحول كل جيش ألمانيا إلى حصار باريس ومقاومة الجيوش التى جمعها «غمبتا» ، وقدصدت هذه الألمان عن « أورليان » ثم حاول غمبتا رفع الحصار، وسير لذلك جيوشا عدة ولكنه كان ينقصها الخبرة والتدريب والاسلحة والمؤن ، فلذا تغلب عليها الألمان بعد عدة وقائع . وبعد حصار

دام خمسة شهور بدأت مفاوضات الصلح وتمت معاهدة « فرنكفورت » فى مارس سنة ١٨٧١ وبمقتضاها تقرر

(١) اضافة الالزاس والجزء الشرقى من اللورين بما فيه متز الى المانيا

(٢) أن تدفع فرنسا ملياراً من الفرنكات (٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٠٠ جنيه) غرامة حربية فى مدة ثلاث سنوات

(٣) أن تبقى الجيوش الالمانية محتلة أرض فرنسا حتى يتم دفع الغرامة ولكنها تقلل كلما دفعت فرنسا قسطا

الوحدة الالمانية ١٨٧١

أعلنت فرنسا الحرب لتقضى على الاتحاد الناقص الذى كوّنته بروسيا سنة ١٨٦٦ . ولكن الحرب أنتجت عكس المطلوب لانه منذ سبتمبر ١٨٧٠ بدات المخابرات مع إمارات الجنوب للدخول فى الاتحاد ولم تعارض إلا بفاريا ، وبدل أن يتشدد بسمارك معها دعا الامراء الى إرسال مندوبين لقصر « فرساى » وهناك تم الاتحاد وصار ملك بروسيا « امبراطور المانيا » باجماع آراء الامراء والبرلمانات وأعلن ذلك باحتفال مهيب فى فرساى بين امراء ألمانيا وقوادها فى ١٨ يناير سنة ١٨٧١ وبعد ذلك بشهرين التأم البرلمان الاول للامبراطورية الجديدة

بقى على بسمارك أن يتخذ للامبراطورية حلفاء يمكن التعويل عليهم وكان قد رأى منذ سنة ١٨٦٦ أن النمسا وألمانيا يمكنهما التحالف بعد انفصالها ، فوافقت النمسا على الدخول فى معاهدة دفاعية مع المانيا سنة ١٨٧٩ بمقتضاها تساعد إحداهما الاخرى إذا هاجمتها روسيا ، وتلتزم الحياد اذا هاجمتها فرنسا وبعد ذلك بسنتين عقدت معاهدة دفاعية مع إيطاليا لتخوف هذه من فرنسا فى البحر الابيض المتوسط بعد احتلالها تونس سنة ١٨٨١

ثم وجه بسمارك نظره الى الاصلاح الداخلى فنظم العمل والعمال وجعلهما موضع اهتمام الحكومة . وفى سنة ١٨٨٨ مات الامبراطور وليم الأول وخلفه إبنه فردريك الثالث وكان شجاعا ميالا للأفكار الحرة محبوبا ، إلا أنه كان مصابا بالسرطان ، فمات بعد أشهر وحزنت عليه ألمانيا كلها ولاسيما الاحرار ، وخلفه ابنه « وليم الثانى » وهو محب للاستئثار بالسلطة مثل بسمارك ولذا لم يتفقا طويلا فاعتزل بسمارك منصبه عام ١٨٩٠ ، فأثقله الامبراطور بالالقاب والرتب التى لا يعبأ بها ، وعاش بعيداً عن السياسة حتى مات سنة ١٨٩٨ بعد أن كان العضد الأكبر فى تكوين الوحدة الالمانية بفضل قوة إرادته وحسن سياسته وخبرته بادارة الشئون الداخلية والخارجية مع كثرة من كانوا يسعون في إحباط عمله وقلة المساعدين له

اما فرنسا فانها بعد عزلتها تقربت من الروسيا ، وفى ١٨٩٤ تكوّنت المحالفة الثنائية بين الدولتين ثم اتفقت فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ ، وعلى ذلك انقسمت أوربا الى عصابتين عظيمتين كل منها تدعى أن غرضها الاحتفاظ بالسلم في أوربا والحقيقة انهما قد مهدتا الطريق للحرب الاوربية الكبرى ١٩١٤ — ١٩١٨ .

ملحق

أهم أسماء الاعلام الافرنجية الواردة فى الكتاب

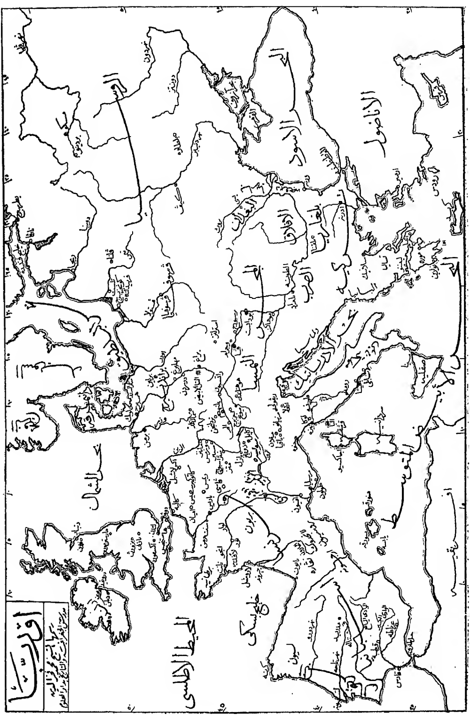
كما أن بعض الأسماء العربيـة لا يمكن تأديتها على حقيقتها بالحروف الافرنجية ، كذلك توجد باللغات الاجنبية أسماء يتعذر تصويرها بالحروف العربية تصويراً دقيقاً وأسماء أخرى يختلف رسمها في لغتنا باختلاف الآراء لهذا رأينا أن نقلل من احتمال الالتباس باثبات الأسماء الافرنجية التى يمكن أن يحصل فيها لبس بالجدول الآتى : —

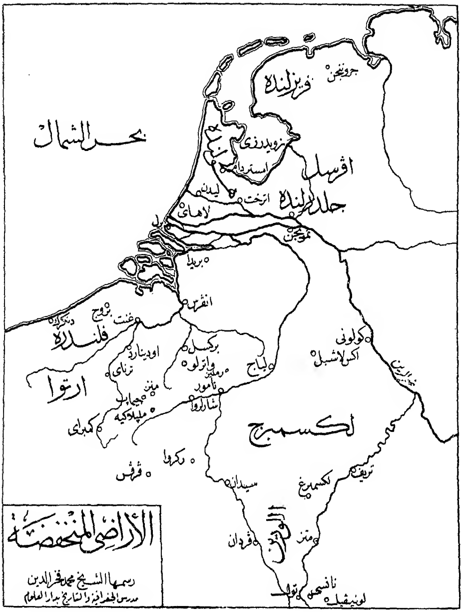
Abelard	ابيلارد	Bocaccio	بوكشيو
Abraham Lincoln	ابرهام لنكولن	Botha	بوذا
Adam Smith	آدم سمث	Bourbons	البربون
Albigensians	أنصار حركة الالبيجنسي	Byron	بيرون
Alexander I	اسكندر الاول	Cabot	كابوت
Albuquerque	البوكرك	Caesar	قيصر
Almeida	الميدا	Cabral	كبرال
Alva	الفا	Calvin	كلفن
Angevin	انجفن	Canning	كاننج
Anne Boleyn	آن بولين	Capet	كابيه أو كابت
Aquinas	اكوناس	Cartwright	كارتريت
Aristotle	ارسطاليس	Castlereagh	كسلرى
Arkwright	اركريت	Catherine II	كترين الثانية
Asquith	اسكويث	Cavour	كافور
Attila	اتلا	Cecil Rhodes	سسل رودس
Bartholomew Diaz	بارثلميو دياز	Charlemagne	شرلمان
Bazaine	بازين	Charles V.	شارل الخامس أوشرلكان
Beaconsfield	بيكنسفيلد	Charlotte Corday	شارلوت كرداى
Beneditti	بندتى	Chatham	تشتهام
Bernadotte	برنادوت	Choiseul	شوازيل
Bernard	برنارد	Cicero	شيشيرون
Bismarck	بسمارك	Cinq Mars	سنكمار
Blucher	بلوخر	Clemenceau	كلنصو

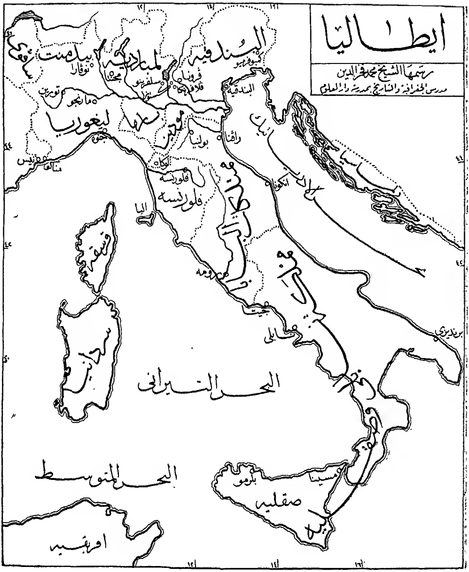
Clive	كليف
Clovis	كلوفس
Colbert	كلبير
Colet	كولت
Coligny	كوليني
Colocotroni	كولوكترونى
Columbus	كولمبس
Condé	كنديه
Cornwallis	كرنولس
Cranmer	كرانمر
Crompton	كرمبتون
Copernicus	كوبرنيق
Cromwell	كرمول
Dalhousie	دلهوسى
Dantê	دانتى
Danton	دانتن
Diderot	ديدرو
Deibitch	ديبتش
Del Sarto	دلسارتو
De Witt	دى وت
Disraeli	دزرائيلى
Don Juan	دون جوان
Drake	دريك
Dudley	ددلى
Dupleix	دوبليه
Edward VI	ادوارد السادس
Elizabeth	اليصابات
Empson	امبسن
Erasmus	ارزمس
Euclid	اقليدس
Eugene	اوجين امير سافوا
Eugène Beauharnais	اوجين بوهرنيه
Euripides	اربيد
Fairfax	فرفاكس
Favre	فافر
Ferdinand VII	فرديننـد السابع
Fleury	فليرى
François I	فرنسوا الاول
Frederick William	فردريك وليم
Fronde	الفروند
Gabelle	ضريبة الملح فى فرنسا قبل الثورة (جابل)
Gambetta	غمبتا
Garibaldi	غاريبلدى
George Canning	جورج كاننج
George Stephenson	جورج ستيفنسن
Giotto	غيوتو
Gordon	غردون
Gregory	جريجورى
Grouchy	جروشى
Guise	جيز
Guizot	جيزو
Gustavus adolphus	جستاف ادلف
Gutenberg	جوتنبرج
Hanseatic League	اتحاد مدن الهنسا
Hampden	همبدن
Hapsburg	هبسبرج
Hargreaves	هرجريفز
Hawkins	هوكنز
Hèbert	هبرت
Henrietta Maria	هنريت ماريه
Henry VIII	هنرى الثامن
Hipsilanti	هبسلنتى
Hohenstaufen	هوهنشتوفن
Hohenzollern	هوهنزلرن
Homer	هوميروس
Huguenots	الهوجونوت
Huns	أمة الهون
Huss	يوحنا هوس
Ignatius Loyola	اجنات ليولا

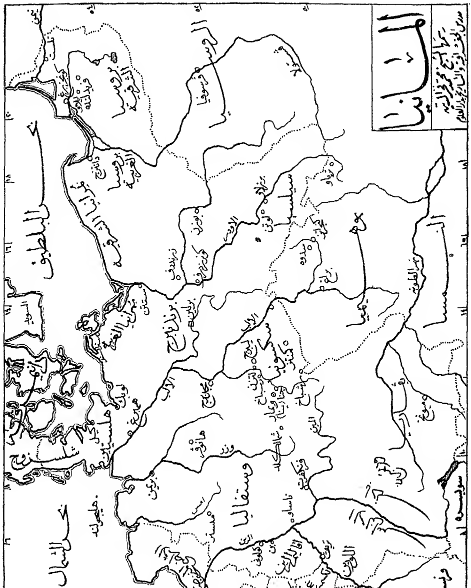
Nesselrode	نسلرود
Northumberland	نورثمبرلند
Odoacer	ادوكر
Orlando	ارلندو
Otto	اتو
Palmerston	بلمرستون
Penn	بن
Peter the Great	بطرس الاكبر
Petrarch	بترارك
Philip II	فليب الثاني
Pippin	ببين
Plato	افلاطون
Prince Rupert	الامير روبرت
Raphael	روفائيل
Requesens	ركوسنس
Reuchlin	روكلين
Richard Cobden	رتشارد كبدن
Richelieu	رشليو
Rienzi	رينزى
Robespierre	روبسبيير
Rousseau	روسو
Rurik	روريك
Samuel Baker	صمويل بيكر
Sforza	سفورزا
Shakespeare	شكسبير
Siéyès	سييز
Sobieski	سوبيسكى
Socrates	سقراط
Somerset	سمرست
Speke	سبيك
Stanislaus	ستانسلاس
Stanley	ستانلى
Stein	اشتين

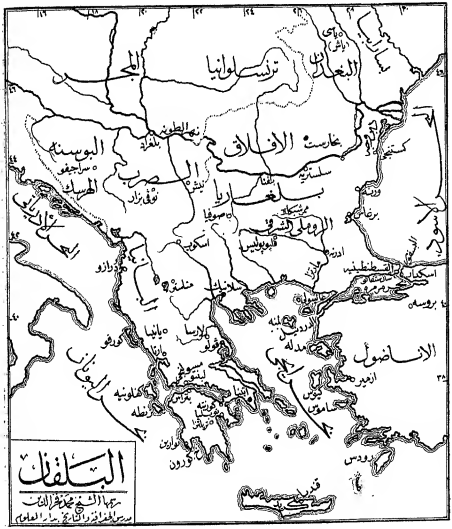
Strafford	سترافورد
Stratford Canning	سترتفورد كاننج
Taille	ضريبة الخراج في فرنسا (التاي)
Talleyrand	تليرند
Thomas Wolsey	توماس ولزى
Thiers	تيير - تييرز
Tilly	تلى
Titian	تيسيان
Todelben	تودلبن
Tories	التوري
Troubadours	التروبادور
Trouveurs	التروفير
Turenne	تورن
Turgot	ترجوت
Van Dyck	فانديك
Vasco da Gama	فاسكود جاما
Vauban	فوبان
Velasquez	فلاسكويز
Victor Emmanuel	فكتور امانوئيل
Virgil	فرجل
Voltaire	فلتير
Wallenstein	ولنستين
Walpole	ولبول
Washington	واشنجتون
Wellesley	ولسلى
Wellington	ولنجتن
Whigs	الهوج
William Pitt	وليم بت
Wolfe	ولف
Woodrow Wilson	ودرو ولسن
Wycliffe	وكلف
Zavier	زافير
Zwingli	زونجلى

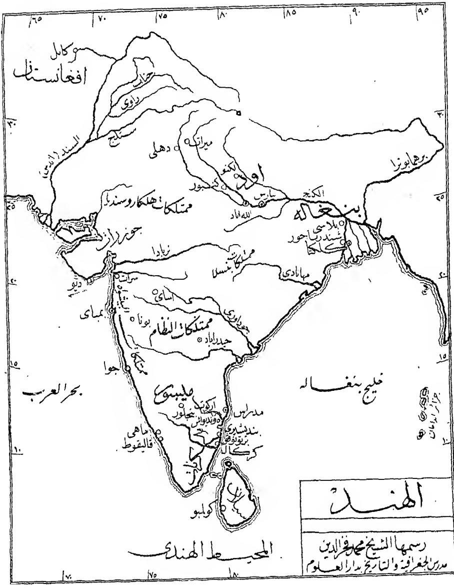

المحيط الأطلسي
بحر الشمال
البحر الأسود
البحر المتوسط


بحر الشمال
فريزلنده
جرونجن
زويدرزى
امستردام
اقوسل
ليدن
ارخت
جلدرلنده
لاهاى
نموجن
بريدا
انفرس
بروج
غنت
فلندره
كولونى
اكس لاشبل
بركسل
اوديناره
واترلوه
رمليز
لياج
ترناى
ارتوا
مونس
نامور
جيماب
شارلروا
مليلاكيه
كمبراى
لكسمبرج
وكروا
فرفس
سيدان
تريف
لكسمبرغ
فردان
متز
نانسى
تول
لونيفيل
الاراضى المنخفضة
رسمها الشيخ محمد فخر الدين
مدرس الجغرافية والتاريخ بدار العلوم


ايطاليا
رسمها الشيخ محمد فخر الدين
مدرس الجغرافية والتاريخ بمدرسة دار العلوم
البندقية
لمباديه
بيدمنت
ليغوريا
فلورنسه
رومه
نابلى
صقلية
بلرمو
البحر التيرانى
البحر المتوسط
افريقية




البلقان
رسمها الشيخ محمد فخر الدين
مدرس الجغرافية والتاريخ بدار العلوم
المجر
ترنسلوانيا
البغدان
البوسنه
سراجيفو
الهرسك
الصرب
نوفي بزار
بلغراد
نهر الطونه
بخارست
الافلاق
سلستريه
بلغاريا
صوفيا
الروملي الشرقي
فلبوبوليس
ادرنه
اسكوب
سلانيك
القسطنطينيه
اسكدار
بروسه
الاناضول
ازمير
ساموس
رودس
قنديا
يانينا
كورفو
لاريسا
كفالونيه
زنطه
نوارين
كورون
ورنه
برغاس



الهند
رسمها الشيخ محمد فخر الدين
مدرس الجغرافية والتاريخ بدار العلوم
افغانستان
كابل
دهلي
بنغاله
ممتلكات النظام
ممتلكات هلكار وسنديا
بحر العرب
خليج بنغاله
المحيط الهندي
مدراس
كولمبو
جوا
٦٥
٧٠
٧٥
٨٠
٨٥
٩٠
٩٥